



المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم القرآن وعلومه

الإيمان في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن وعلومه

إعداد الطالبة

إيمان بنت عوضة محمّد آل عبوش الغامدي

إشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور

العباس بن الحسين الحازمي

العام الجامعي ١٤٣١ - ١٤٣٢ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد

فإن كل كمال ديني أو دنيوي، متوقف على العلوم الشرعية، التي أساسها ومبناها على القرآن الكريم.

فقد أنزل الله هذا الكتاب، وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، وبين فيه كثيراً من أحوال الخلق، وطبائعه، وسننه الإلهية في البشر، وقص علينا فيه أحسن القصص^(١).

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢).

وهذا يتناول كل ما قصه الله تعالى في كتابه، فهو أحسن القصص^(٣).

فإن في القرآن الكريم قصصاً شتى عن الماضين من الأنبياء، والمرسلين والمؤمنين، كما أن فيه قصصاً عن الكفار، والمفسدين، وحديث القرآن عن الأنبياء وعن حياتهم، ومنهاجهم وجهدهم في تبليغ دعوة الله لعباده، يمثل جزءاً كبيراً من كتاب الله جل وعلا.

وحيث إن القرآن الكريم قد أولى حياة الأنبياء جانباً كبيراً في الحديث عنهم وعن أخبارهم، وعن بعض أهلهم، وأشار إلى سيرتهم، ومن ذلك ما ورد من أخبار بعض آباء الأنبياء وأمهاتهم، وبعض أزواجهم، وبنينهم وكذلك بعض أضيافهم، فلا شك أن إيراد هذه القصص عن حياة

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٣٩/٢).

(٢) سورة يوسف، الآية ٣.

(٣) كتب ورسائل ابن تيمية في التفسير (٣٤/١٧).

الأنبياء وسيرتهم مع أهلهم، كانت من أجل حكمة عظيمه فقهها العلماء، فأجمعوا أنها ليست لمجرد التسلية، والمتعة، وإنما هي من أجل العمل بدروسها، والانتفاع بعبورها ومواعظها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

إن حياة الأنبياء وتعاملهم مع أهلهم على اختلاف أفرادهم كما صورها لنا القرآن الكريم، يتجلى فيها أسمى ما كان عليه الأنبياء الكرام عليهم السلام من بر وإحسان، وشفقة، وعناية بهم، لأن العناية بالأهل، من طاعة الله جل وعلا، وهم من أحرص الناس على ذلك.

فكانوا عليهم السلام على عناية تامه، وعلى دراية كاملة بحقوق الأهل من الوالدين والأزواج، والأولاد، والإخوة، والأخوات، ولقد ذكر الله جل وعلا جوانب كثيرة من هذا في كتابه الكريم، لذا فقد رأيت أن أجمع كل ما يتعلق بآل الأنبياء في بحث واحد ويكون تحت عنوان (آل الأنبياء في القرآن الكريم دراسة موضوعية) وذلك أن حياة الأنبياء عليهم السلام كان أساسها هو السعي لهداية الناس بالدعوة إلى الله وإلى توحيده، وهو الأساس الذي من أجله خلق الخلق، وأرسل الرسل، وكان لأهلهم جانب عظيم من هذه الدعوة، لذا كان من دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾^(٢).

لذلك كان من أبرز أسباب اختياري لهذا الموضوع:

- ١- أن هذا الموضوع يبين منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله مع آلهم، فالحاجة إلى معرفة هذا المنهج تمس كل مسلم ومسلمة.
- ٢- أن هذا الموضوع يختص بآل الأنبياء والأنبياء هم أشرف الخلق.
- ٣- أن هذا الموضوع يتناول أبرز قضايا الأسرة المسلمة.
- ٤- حاجة الباحثين وغيرهم إلى هذا البحث في الأمور التربوية والعلاقات الأسرية.

(١) سورة يوسف الآية ١١١.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٠.

هدف البحث:

- ١- جمع ما ذكر عن آل الأنبياء في القرآن الكريم، وبيان الطرق والسبل التي سلكها الأنبياء في الدعوة إلى الله، ورد الشبهات والأباطيل التي وردت من الأعداء في أهل بيت الأنبياء.
- ٢- بيان الأحكام الشرعية والفوائد والدروس والعبر المستخلصة من بيوت الأنبياء وتوظيفها فيما يفيد الأسرة المسلمة.

الدراسات السابقة:

- ١- أنبياء الله، تأليف أحمد بهجت، دار الشروق، الطبعة الثانية عشر ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م وهذا كتاب يتحدث عن جميع الأنبياء في ٤٧٦ صفحة، وقد اعتمد في كتابه على بعض كتب التفسير، كتفسير ابن كثير، والرازي، والقرطبي. وسلك طريق الأدباء في العرض، وقد استبعد إيراد الإسرائيليات في كتابه.
- ٢- الأنبياء في القرآن الكريم، تأليف محمد الشرقاوي، مطابع دار الشعب القاهرة ١٩٧٨م، وهذا كتاب تحدث فيه المؤلف عن جميع الأنبياء مبتدئاً بالحديث عن النبوة والوحي ووحدة الرسالات الإلهية، والقصص النبوي في القرآن الكريم، وأسلوبه أسلوب إنشائي، وقد ركز في كتابه على ما تحمّله الأنبياء من أذى، ومدى صبرهم في سبيل دعوة الناس إلى الإيمان، وركز أيضاً على نهاية المكذبين الجاحدين.
- ٣- قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، تأليف محمد الفقي، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م مكتبة وهبة، وهذا كتاب كبير، ذكر فيه قصص الأنبياء وأحداثها، وتحدث عن آثارها وعبرها بادئاً بقصة أول الخلق آدم عليه السلام ولم يذكر أي شيء عن النبي محمد ﷺ، وقد قدم قبل ذلك كله الحديث عن أول مخلوقات الله، وقد اعتمد في كتابه على بعض كتب التفسير، ويغلب على أسلوبه الأسلوب الموضوعي.

- ٤- قصص الأنبياء وأخبار الماضين، تأليف محمد أحمد كنعان، مؤسسة المعارف، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، وهذا كتاب ملخص من تاريخ الحافظ ابن كثير (البداية

والنهاية)، وهو في ثمانية مجلدات، وجعل لكل جزء منها عنواناً مستقلاً، وقد تضمن الجزء الأول بدء الخلق وقصص الأنبياء جميعاً عليهم السلام إلى زمن ولادة النبي محمد ﷺ، ولم يذكر الروايات الإسرائيلية التي لا أصل لها وهي كثير في تاريخ ابن كثير.

الجديد الذي ستضيفه هذه الرسالة:

ما ذكر من بعض الدراسات السابقة قد يوجد فيه ذكر بعض قصص آل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن ورودها جاء تبعاً لا قصداً، وليست حاصرة لجميع ما ذكر عن آل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في القرآن الكريم، وهذا البحث مفصلٌ لهذه الجزئية المهمة عن بيوت الأنبياء، مشتملٌ على الإفاضة فيها.

منهجي في البحث:

اعتمدت بإذن الله تعالى المنهج التحليلي الاستقرائي، والمنهج الموضوعي في تناول الآيات الكريمة وتفسيرها. وسأسير في منهج البحث على النحو الآتي :

- ١- جمع الآيات القرآنية التي تتصل بالموضوع .
- ٢- تتبع الأحاديث الصحيحة الواردة في كتب السنة المطهرة، والتي تفسر بعض الآيات، وتحدث عن الأحداث التي سكت عنها القرآن في بعض القصص، والتي تتعلق بأهل بيت النبي ﷺ، والاكتفاء بالصحيح، فإذا وجدت الحديث في صحيح البخاري ومسلم فإنني أكتفي بذلك، وإذا لم أجده في صحيح البخاري أو مسلم، أو فيهما معاً، خرجته من الكتب الأخرى، ولا أذكر إلا الصحيح والحسن من الحديث، أما الأحاديث الضعيفة فإنني لا أوردتها في بحثي.
- ٣- اتبعت منهج أهل العلم في تفسير الآيات بالقرآن ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين والعلماء.
- ٤- بيان ما ورد في آل الأنبياء من إسرئيليات في الآيات التي في كتب التفسير، ونقد المخالف للشرع منها.
- ٥- الحديث الضعيف الذي لم يشتد ضعفه قد يحتاج إليه استثناساً في التفسير مع بيان ضعفه .

- ٦- البدء بأولي العزم من الرسل ، وتقسيم أهل بيوت الأنبياء بداية بالآباء والأمهات ، ثم بالأزواج ، ثم الأبناء ، ثم الإخوة ، وذكر أضياف الأنبياء في فصل مستقل ، مع بيان علاقة ذلك بأهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام.
- ٧- الاختصار في البحث يكون على ما ورد ذكره في القرآن الكريم من آل الأنبياء ، أو الإشارة إليه.
- ٨- التركيز على أهم قضايا الأسرة المسلمة .
- ٩- استخلاص الفوائد والدروس والعبر والأحكام من خلال دراسة حياة الأنبياء مع أهلهم وتوظيفها فيما يفيد الأسرة المسلمة والمجتمع ، كحكم الضيافة مثلاً : ما الذي يقدم ، وحق الضيف ، وما مدة الضيافة ، ونحو ذلك ، وتوضع أهم الفوائد والدروس والعبر والأحكام من خلال دراسة حياة الأنبياء مع أهلهم في نهاية كل مبحث .
- ١٠- ترجمة الأعلام.
- ١١- توثيق الأبيات الشعرية.
- ١٢- توثيق الأقوال بنسبتها إلى قائلها ، والإشارة إلى مصادرها.
- ١٣- شرح الغريب.
- ١٤- التعريف بالأماكن التي تحتاج إلى تعريف.

خطة البحث :

تتكون خطة البحث من مقدمة ، واشتملت على أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، وهدف البحث ، والدراسات السابقة ، ومنهج البحث ، وبيان خطة البحث .

تهييد ويشتمل على ما يلي :

- ١- المراد بالأنبياء
- ٢- مدى حجية الاستفادة من قصص الأنبياء في الأحكام الشرعية .

٣- بشرية الأنبياء في القرآن .

الفصل الأول : آباء الأنبياء وأمهاتهم في القرآن الكريم :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : آباء الأنبياء في القرآن :

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : إبراهيم مع أبيه آزر .

المطلب الثاني : إبراهيم وأمره بذبح ابنه .

المطلب الثالث : داود مع ابنه سليمان عليهما السلام .

المطلب الرابع : يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام .

المطلب الخامس : دعاء زكريا وإبراهيم بالذرية الصالحة .

المبحث الثاني : أمهات الأنبياء في القرآن .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : إسحاق عليه السلام وبشارة أمه به .

المطلب الثاني : والدة موسى عليه السلام .

المطلب الثالث : مريم بنت عمران مع ابنها عيسى .

الفصل الثاني : أزواج الأنبياء عليهم السلام في القرآن .

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : زوجات النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وفيه خمسة مطالب :

- المطلب الأول : حادثة الإفك وأثرها في بيت النبي ﷺ .
- المطلب الثاني : زينب بنت جحش وزواجها من الرسول .
- المطلب الثالث : قصة تحريم مارية .
- المطلب الرابع : ما أحل الله لنبيه من النساء .
- المطلب الخامس : ما أوجب الله على نساء النبي عليه الصلاة والسلام .

المبحث الثاني : زوجتا نوح ووط عليهما السلام .

المبحث الثالث : زوجتا إبراهيم ﷺ .

المبحث الرابع : زوج موسى ﷺ .

المبحث الخامس : زوج آدم ﷺ .

المبحث السادس : زوج أيوب ﷺ .

المبحث السابع : زوج زكريا ﷺ .

الفصل الثالث : أبناء الأنبياء في القرآن .

وفيه ثمانية مباحث :

المبحث الأول : نوح ﷺ مع ابنه .

المبحث الثاني : إسماعيل مع أبيه عليهما السلام .

المبحث الثالث : نباُ ابني آدم ﷺ .

المبحث الرابع : أبناء يعقوب ﷺ .

المبحث الخامس : بنتا شعيب ﷺ .

المبحث السادس : بنات نوط عليه السلام.

المبحث السابع : داود مع ابنه سليمان عليهما السلام .

المبحث الثامن : يحيى ابن زكريا عليهما السلام .

الفصل الرابع : إخوة الأنبياء عليهم السلام في القرآن .

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : إخوة يوسف عليه السلام.

المبحث الثاني : إخوة موسى عليه السلام.

المبحث الثالث : إسماعيل وإسحاق .

المبحث الرابع : آل إبراهيم وآل عمران وقرابتهم بالأنبياء .

الفصل الخامس : أضياف الأنبياء عليهم السلام في القرآن .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أضياف محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني : أضياف إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثالث : أضياف نوط عليه السلام.

الخاتمة : وفيها لخصت ماتوصلت إليه من نتائج من خلال هذا البحث، وذكرت بعد ذلك

بعض من التوصيات.

ثم ذيلت البحث بفهارس كاشفة للآيات، والأحاديث، والآثار، والأعلام، والأشعار،

والمصادر والمراجع، والموضوعات.

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، أحمدته تعالى وأشكره على نعمه المتكررة التي لا تحصى ولا تُعدّ، ومن نعم الله تعالى عليّ أن يسّر لي، وأعانني على إتمام هذا البحث وإخراجه بهذه الصورة التي بين أيدينا، فله الحمد والشكر في الأولى والأخرى.

وبعد الشناء على الله تعالى، فإنني أتوجه بالشكر والتقدير لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي أتاحت لي الفرصة بالدراسة في أحضانها، ويسرت لي بعد تيسير الله ﷻ كثيراً من الأمور، وذلك في خلال مدة الدراسة كثيراً من الصعاب، فللمسؤولين فيها الشكر والتقدير، وعلى رأسهم فضيلة الدكتور مدير الجامعة سليمان عبد الله أبا الخيل ورئيس القسم الدكتور شريف أبو بكر حفظهما الله.

كما أخص بالشكر والتقدير فضيلة الشيخ الدكتور / العباس بن حسين الحازمي الذي تفضل بالإشراف على رسالتي، فكان له الفضل الكبير عليّ بعد الله ﷻ في التوصية والإرشاد والنصيحة، فجزاه الله خير الجزاء، كما أتقدم بالشكر لفضيلة الدكتور حجاج عربي - المشرف السابق فله جزيل الشكر والعرفان.

وأخص بالشكر أيضاً فضيلة المناقشين الكرامين:

والدكتور

الدكتور

لقبولهما مناقشة رسالتي واللذين سيُتوجان هذا البحث بالتصحيح والتصويب، والفوائد، والتي سأخذها بعين الاعتبار، فجزاهما الله خير الجزاء.

كما أن لساني يعجز عن الشكر لكل من تعاون معي طيلة مدة الدراسة وإعداد الرسالة، وعلى رأسهم زوجي الفاضل سعود الغامدي، فله مني جزيل الشكر والتقدير والدعاء على كل ما قدم لي من مساعدة ودعم، فجزاه الله عني خير الجزاء.

ووالدتي التي لأنسى فضلها وجميلها، فلولاها من بعد الله، لما وصلت لهذه المرحلة، فلها كل الشكر والتقدير والعرفان، وخالص الدعاء، وجزاها الله خير ما يجازي والدّاً عن ولده.

كما أشكر إخواني وأخواتي جميعاً على ما أسدوا من النصيحة، والتوجيه، والإعانة، فجزى الله الجميع خيراً، وأجزل لهم الأجر والثوبة في الدنيا والآخرة.

الباحثة

أشكر الله تعالى على نعمه
التي لا تحصى ولا تُعدّ
والحمد لله رب العالمين

التمهيد

وفيه:

- المراد بآل الأنبياء.
- مدى حجية الاستفادة من قصص الأنبياء في الأحكام الشرعية.
- بشرية الأنبياء في القرآن.

التمهيد

أولاً: المراد بآل الأنبياء

معنى الآل:

وردت كلمة الآل في القرآن الكريم في عدة مواضع منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣).

وفي لفظ «الآل» قولان:

أحدهما: أن أصل آل: أهل، أبدلت الهاء همزة، فصارت آل، فلما توالى همزتان أبدلت الثانية ألفاً، فصار «آل»، وتصغيره: أويل وأهيل^(٤).

ثانيهما: أن أصل آل، «أول» تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فقليل: (آل)^(٥).

قال ابن فارس^(٦): «آل الرجل أهل بيته؛ لأنه إليه مآلهم، وإليهم مآله، وهذا معنى

(١) سورة البقرة: الآية ٤٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٣) سورة الحجر: الآية ٥٩.

(٤) انظر: لسان العرب (٣٠/١١)، وتاج العروس (٣٧/٢٨)، والمفردات في غريب القرآن (٣٠/١).

(٥) انظر: الفتاوى الكبرى (١٩٥/١)، وجلاء الأفهام (٢٠٤/١)، ومختار الصحاح (١٣/١)، مادة: (أول).

(٦) هو: أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، من علماء اللغة والأدب، كان من رؤساء أهل السنة الموجودين على مذهب أهل الحديث، من كتبه: المجلد، ومقاييس اللغة، ت. (٣٩٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء

قولهم يا آل فلان»^(١).

وفي ذلك يقول طرفة،^(٢) يصف جارية:

تحسب الطرف عليها نجدة يا آل قومي للشباب المسبكر^(٣)^(٤)

وقال الحسيني^(٥): «والآل، أهل الرجل، وعياله، وآله أيضاً: أتباعه وأولياؤه»^(٦).

ومنه قول الأعشى^(٧) في الآل بمعنى الأتباع:

فكذبوها بما قالت فصبّحهم ذو آل حسن يزجي الموت والشرعاً^(٨)

وقال ابن منظور^(٩): «وآل الرجل: أهله، وآل الله ورسوله: أولياؤه، أصلها أهل، ثم

(١٧/ ١٠٣)، وبغية الوعاة (١/ ٣٥٢).

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ١٦٠).

(٢) هو: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو، شاعر جاهلي، ولد في بادية البحرين، وانتقل في بقاع نجد، مات مقتولاً، من أجل أبيات هجا بها عمرو بن هند، وكان ذلك نحو (٦٠) قبل الهجرة. انظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ١٣٧)، وخزانة الأدب (٢/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٣) المسبكر: أي المعتدل التام، يقول: شق عليها النظر لنعمتها فهي ساجية الطرف. انظر: لسان العرب (٤/ ٣٤٣) مادة (س ب ك ر)، و(٤١٧/٣).

(٤) البيت في ديوان طرفة بن العبد (١/ ٢٦).

(٥) هو: أبو الفيض، محمد مرتضى بن محمد الحسيني، صاحب «تاج العروس» السيد الواسطي، نزل مصر، وكان عظيم المقدار، كريم الشمائل، غزير الفواضل، والفضائل، تعلم العلوم النقلية، والعقلية، وبرع في جميع العلوم لا سيما علمي الحديث واللغة، توفي سنة (١٠٨٩هـ) بالديار المصرية. انظر: ترجمته في: كتاب أجد العلوم (٣/ ١٢)، (٢٢/٣)، هدية العارفين (٢/ ١٢٩).

(٦) تاج العروس من جواهر القاموس (٢٨/ ٣٥ - ٣٦) مادة: (أ و ل).

(٧) هو: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، ويكنى أبا بصير المعروف بأعشى قيس، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، عاش عمراً طويلاً، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، مات سنة (٧) من الهجرة. انظر: كتاب الأغاني (٩/ ١٢٧)، وتهذيب الأسماء وطبقات فحول الشعراء (١/ ٥٢).

(٨) البيت في ديوان الأعشى (١/ ١١٥)، والشرح الأوتار، ويعني جيش تبع. انظر: لسان العرب (١١/ ٣٩)، وتاج العروس (٢٨/ ٣٦).

(٩) هو: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب لسان العرب، الإمام

أُبدلتِ الهاءُ، فصارتُ في التقديرِ «أأل»، فلما توالَتِ الهَمَزَاتُ أُبدِلتِ الثانيةُ أَلِفًا^(١).

وجاء في المفردات في غريب القرآن:

«الآل مقلوب من الأهل، ويستعمل في من يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً، إما بقربانة قريبة أو بموالاة، قال سِجِّك: «وَأَلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ»، وقال: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»^(٢).

ومن أحكام لفظ «الآل» أنه لا يضاف إلا فيما فيه شرفٌ غالباً، ويكون معظماً، فلا يقال: آل الحائك، وآل الحجام، ولا آل الرجل^(٣).

ويقول القرطبي^(٤) في معنى الآل، في تفسيره لقوله تعالى: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ»^(٥):

«آل فرعون قومه: وأتباعه، وأهل دينه، وكذلك آل الرسول ﷺ من هو على دينه وملته في عصره، وسائر الأعصار، سواءً كان نسبياً له أو لم يكن، ومن لم يكن على دينه، وملته، فليس من آله ولا أهله، وإن كان نسبه وقريبه، ودليلنا قوله تعالى: «وَأَغْرَقْنَا آلَ

اللغوي الحجة، من نسل رويغ بن ثابت الأنصاري، ولد بمصر، وقيل: في طرابلس المغرب، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء بطرابلس، وعاد إلى مصر، وتوفي فيها سنة (٧١١هـ). انظر: الدرر الكامنة (٦/ ١٥)، (بغية الوعاة) (١/ ٢٤٨).

(١) لسان العرب (١١/ ٣٠).

(٢) لمفردات في غريب القرآن (١/ ٣٠).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن (١/ ٣٠)، والقاموس المحيط (١/ ١٢٤٥)، وجلاء الأفهام لابن القيم (١/ ٢٠٦).

(٤) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الحزرجي المالكي، أبو عبد الله القرطبي، مصنف كتاب التفسير المشهور «جامع أحكام القرآن»، وهو من أجل الكتب، وصنف كتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، وله تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة اطلاعه ووفور فضله، توفي سنة (٦٧١هـ). انظر: طبقات المفسرين (١/ ٢٤٦ - ٢٤٧).

(٥) سورة البقرة: الآية ٤٩.

فِرْعَوْنَ»^(١)، وقوله: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»^(٢).

أي آل دينه، إذ لم يكن له ابن، ولا أب، ولا عم، ولا أخ، ولا عصابة؛ ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن، ولا موحد، فإنه ليس من آل محمد، وإن كان قريباً له، ولأجل هذا يقال إن أبا لهب، وأبا جهل ليسا من آله، ولا من أهله، وإن كان بينهما وبين النبي ﷺ قرابة»^(٣).

نخلص من هذا المعنى أن الآل قد تطلق على الأتباع والأنصار والموالين للرجل، ولا شك أن هذا المعنى أثبتته القرآن الكريم، كما في الآيات السابقة.

كما أن «آل» الرجل تطلق على أهل بيته، وذريته وأزواجه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(٤).

وآل النبي محمد ﷺ هم ذريته، وأزواجه خاصة، ذكر ذلك ابن عبد البر^(٥) في «التمهيد»، وقيل: الآل والأهل سواء، وآل الرجل، وأهله سواء، وهم الأزواج والذرية^(٦).

فالمراد من آل الأنبياء، هم أهل بيوتهم الذين إليه نسبهم، من آباء، ومن يؤيه بيته، من ذرية أو أخوة، أو أزواج ورد ذكرهم في كتاب الله ﷻ.

ثانياً: مدى حجية الاستفادة من قصص الأنبياء في الأحكام الشرعية

جعل الله القرآن الكريم هداية للبشرية جمعاء، قال تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي

(١) سورة البقرة: الآية ٥٠.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٦.

(٣) تفسير القرطبي (١/٣٨١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (٢/٧٣٠)، رقم (١٠٥٥).

(٥) هو: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة، تولى قضاء لشبونة، وشنترين، وتوفي بشاطبة عام (٤٦٣هـ)، من مؤلفاته الدرر في اختصار المغازي والسير، والعقل والعقلاء، والمدخل في القراءات، والتمهيد لما في الموطأ، وغيرها. انظر: وفيات الأعيان، (٧/٦٦)، المعين في طبقات المحدثين (١/١٣٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/١٥٣).

(٦) التمهيد لابن عبد البر (١٧/٣٠٣)، وجلاء الأفهام (١/٢١٦).

لَلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا^(١).

وقد أخبر الله جل وعلا في كتابه الكريم عن أحوال الأمم الماضية، كبعض قصص الأنبياء، والوقائع والأحداث التي جرت لهم مع أهلهم، أو مع أقوامهم وأممهم^(٢)، وقص علينا من قصصهم وأخبارهم لأخذ العظة والعبرة، والتذكرة لأولي الأبصار.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

ومن جملة ما قص القرآن الكريم من قصص الأنبياء السابقين، الشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى عليهم.

وبما أن هذه الشرائع والأحكام جاءت في كتاب ربنا جل وعلا، فهل يلزمنا العمل بها، وهل تعتبر من الأحكام الشرعية المشروعة لنا؟

اختلف العلماء في مسألة التعبد بسرائع وأحكام الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام، والتي نص عليها القرآن الكريم، ولا تكون ثابتة النسبة إليهم إلا إذا ورد ذكرها في القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة.

فأما ما يتعلق بمسائل التوحيد وأصول التشريع، كوجوب الإيمان، وتحريم الكفر، والأصول الكلية، كتحرим الزنا، والقتل، والتي ثبتت في الشرائع السابقة، وفي شريعتنا، فلا خلاف بين العلماء في التعبد بها، وذلك لأنها أصول لا تختلف باختلاف الشرائع^(٥).

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٧٨/١) بتصرف.

(٣) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٤) سورة هود: الآية ١٢٠.

(٥) انظر: التبصرة (٢٨٦/١)، البرهان في أصول الفقه (٣٣٣/١)، أصول السرخسي (١٠٣/٢)، المحصول في علم

الأصول (٤١٣/٣ - ٤١٤)، المستصفى (١٦٦/١).

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(١).

وأما يتعلق بالفروع، وبالأحكام الشرعية العملية، فإن الاختلاف بين شرائع الأنبياء أمرٌ قد دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٢).

يقول القرطبي في تفسيره:

«ولا خلاف أن الله تعالى لم يغيّر بين الشرائع في التوحيد، والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع، حسب علمه سبحانه»^(٣).

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «..الأنبياء أبناء علات»^(٤) ...»^(٥).

والمعنى أنهم متفقون في أصول التوحيد، وشرائعهم مختلفة^(٦).

وهذه الأحكام والشرائع المنزلة على الأنبياء السابقين، والتي نص عليها القرآن الكريم، على ثلاثة أنواع من الأحكام:

الأول: الأحكام التي كانت مشروعة لدى الأنبياء السابقين، وأقرتها شريعتنا؛ كالصيام، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) تفسير القرطبي (١٦٤/١٦).

(٤) العلة: هي الضرة، ومنه بنو العلات، وهم بنو أمهات شتى من رجل واحد. انظر: تاج العروس (٤٧/٣٠)، مادة: (ع ل ل).

(٥) الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام (٤/١٨٣٧)، رقم (٢٣٦٥).

(٦) الديباج على مسلم (٣٤٩/٥).

مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فنحن ملزمون بها؛ لأنها من شريعتنا، لا لأنها شرع من قبلنا^(١).

الثاني: الأحكام التي كانت مشروعة لدى الأنبياء السابقين، ونسختها شريعتنا، فهي ليست شرعاً لنا بالتأكيد، وذلك مثل تحريم أكل كل ذي ظفر، وتحريم الشحوم التي لا تختلط بعظم، وقتل النفس في سبيل التوبة^(٢)، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٤).

وما ذكر في قصة يوسف عليه السلام من السجود لغير الله، حيث كان سائغاً في شريعتهم، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٥).

وهذان النوعان السابقان ذكرا في الكتاب والسنة، فالنوع الأول دل الدليل على الأخذ به، وهذا لا خلاف فيه، والثاني دل الدليل على نسخه في شرعنا، وهذا أيضاً كذلك لا خلاف فيه^(٦).

(١) انظر: التبصرة (١/٢٨٦)، والآية من سورة البقرة: ١٨٣.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (١/١٧٩).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ٥٤.

(٥) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٦) انظر: توجيه النظر إلى أصول الأثر (١/١٥٦).

الثالث: الأحكام التي جاء بها القرآن والسنة على أنها شرع في الشرائع السماوية السابقة، ولم يدل دليل على الأخذ بها، ولا على نسخها، وهذا هو موضع الخلاف بين العلماء^(١).

فقد اختلف في شرع من قبلنا الذي ثبتت أحكامه في شرعنا على أنها شرع لمن قبلنا، لكن لم يقع التصريح بتكليفنا بها، ولا بنفيها أو نسخها، هل نحن متعبدون بها أم لا؟ يقول ابن العربي^(٢) في أحكام القرآن:

«لا ننكر أن النبي ﷺ وأُمَّته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء، هل يلزم اتباعه أم لا؟»^(٣).

فقد اختلفوا في ذلك على قولين مشهورين:

القول الأول: إنه شرع لنا من حيث إنه وارد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، لا من حيث إنه كان شرعاً لمن كان قبلنا، وهو مذهب الحنفية، والمالكية، وبعض الشافعية، والأصح عن الإمام أحمد^(٤).

القول الثاني: إنه ليس شرعاً لنا إلا بنص يدل على أنه مشروع لنا، وهو قول أكثر

(١) المرجع السابق.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله المعافري الأندلسي (أبو بكر العربي) القاضي الفقيه الأصولي المفسر، الأديب، النحوي، ولد بإشبيلية سنة (٤٦٨) بالأندلس. وولي القضاء بها، من مصنفاته أحكام القرآن، وشرح الجامع الصحيح للترمذي، وقانون التأويل في تفسير القرآن توفي سنة (٥٤٣هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٩٧/٢٠)، وطبقات المفسرين للداودي (١٨٠/١).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (١٢٣/٤).

(٤) هو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أحد الأعلام ببغداد، نشأ يتيماً، طالباً للعلم، وكان إماماً في الحديث، وفي الفقه ودقائقه، إماماً في السنة والزهد، سمع من البخاري، ومسلم، وأبي داود، وكان يحفظ ألفي ألف حديث، توفي ببغداد في الثاني عشر من ربيع الأول سنة (٢٤١هـ) وله سبع وسبعون سنة.

انظر: تهذيب الكمال (٤٣٧/١)، وشذرات الذهب (٩٦/٢).

الشافعية، وإليه ذهب الأشاعرة والمعتزلة^(١).

وقد استدل أصحاب القول الأول بالأدلة التالية:

١ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾^(٢).

وهذا أمر للنبي ﷺ، وهو أمر لأئمة، ما لم يدل دليل على الخصوصية، والهدى يشمل الأمور العلمية، والأمور العملية.

لما ثبت عن مجاهد^(٣) أنه سأل ابن عباس^(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أين أخذت سجدة «ص»، فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {٨٤} وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ {٨٥} وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {٨٦} وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {٨٧} ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٨٨} أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ {٨٩} أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ

(١) انظر: تخريج الفروع على الأصول (٣٦٩/١)، والمدخل (٢٨٩/١)، والمسودة (١٧٤/١)، وإرشاد الفحول (٤٠٠/١ - ٤٠١)، والأحكام للآمدي (١٤٧/٤ - ١٥٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٣) هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي، عالم بالتفسير، والحديث، والقراءات، روى عن أبي هريرة، وأم هانئ، وحدث عنه عكرمة وعطاء وقتادة، ومات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ساجد، توفي سنة (١٠٣هـ).

انظر: تقريب التهذيب لابن حجر (٥٢٠/١)، وطبقات المفسرين للدودي (١١/١).

(٤) هو: عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ، ولد في الشعب حين حُصر بنو هاشم فيه، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات، دعا له النبي ﷺ بالعلم والفقهاء، فكان آية في العلم، ولقب حبر الأمة وترجمان القرآن. توفي سنة (٦٨هـ) بالطائف.

انظر: الاستيعاب، (٩٣٥/٣)، والإصابة في تمييز الصحابة (١٤١/٤).

أَقْتَدَهُ ﴿١﴾ .

فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام ، فسجدها رسول الله ﷺ ^(٢) .

٢- ومن أدلتهم : أن النبي ﷺ قضى في قصة الربيع ^(٣) بالقصاص في السن :

ففي الحديث : «أن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية ، فطلبوا الأرش ^(٤) ، وطلبوا العفو ، فأبوا ، فاتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص ، فقال أنس بن النضر : أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما ، فقال الرسول يا أنس : كتاب الله القصاص ، فرضي القوم وعفوا ...» ^(٥) ، وليس في كتاب الله تعالى السن بالسن إلا ما حكى عن التواراة في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ^(٦) .

٣- ومن أدلتهم أيضاً أن النبي ﷺ قال :

«إذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها ، فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله يقول : ﴿ وَأَقِمِ

الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ^{(٧)(٨)} .

(١) سورة الأنعام : الآيات ٨٤ - ٩٠ .

(٢) هذه الرواية ذكرها ابن حجر في فتح الباري ، أبواب سجود القرآن ، باب : سجدة تنزيل السجدة (٥٥٢/٢ - ٥٥٣) .

(٣) هي : الربيع بنت النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصارية ، أخت أنس بن النضر وعمة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، وهي من بني عدي بن النجار ، ووالدة حارثة بن سراقة . انظر : الاستيعاب (٤ / ١٨٣٨) ، والإصابة في تمييز الصحابة (٦٤٢/٧) .

(٤) الأرش : هو عوض للنقص الحاصل بالجناية عليه .

انظر : المغني (٤ / ١٣١) ، والروض المربع (٢ / ٨٥) .

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ، كتاب الصلح ، باب : الصلح في الدية (٩٦١/٢) برقم (٢٥٥٦) .

(٦) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

(٧) سورة طه : الآية ١٤ .

(٨) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : قضاء الصلاة الفاتية ، واستحباب

وهذه الآية قول الله لنبيه موسى عليه السلام (١).

والراجع في ذلك هو ما ذهب إليه الجمهور، وهو أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذ ثبت في شرعنا بطريق صحيح، كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، ولم يرد عليه في شرعنا ما ينسخه.

ومن ذلك أيضاً: لو حلف رجل ليضربن زيدا مثلاً مائة ضربة، فضربه بالعشكال (٢)، ونحوه فإنه يبر في يمينه ولا يحنث.

وهذا كما في قوله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام، لما حلف ليضربن زوجته: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ (٣).

وسوف يأتي مزيد بيان لمثل هذه الأحكام أثناء هذا البحث بمشيئة الله تعالى.

تعجيل قضائها (٤٧٧/١) رقم (٦٨٤).

(١) في مجموع هذه الأدلة انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول (٤٠٠/١ - ٤٠١).

(٢) العشكال: العذق من عذاق النخل الذي يكون فيه الرطب. انظر: لسان العرب (٤٢٥/١١) مادة: (عشكال).

(٣) انظر: التمهيد للإسنوي (٤٤١/١)، وكشاف القناع (٤٣٤/٢)، والآية من سورة ص جزء من الآية ٤٤.

ثالثاً : بشرية الأنبياء في القرآن

تعتبر البشرية من أهم صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأعني ببشرية الأنبياء : أنهم يتصفون بجميع الصفات البشرية التي يتصف بها البشر.

فقد اقتضت حكمة المولى ﷺ أن يكون الأنبياء والرسل من جنس البشر أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾^(١).

وقد بين لنا المولى ﷺ في القرآن موقف الناس من الرسل ، وتعجبهم من أن يكون الرسول المرسل إليهم رجلاً منهم ، كما في قوله تعالى عن قوم نوح ، وقوم هود عليهما السلام^(٢) : ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾^(٣).

وقال عن قوم نبينا محمد ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾^(٤).

وقال عن الأمم السابقة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾^(٥).

والآيات في هذا كثيرة.

وقد بين سبحانه بأن تعجب الناس من أن يكون الرسول بشراً كبقية البشر ، مانع لهم عن الإيمان ، والهداية^(٦).

(١) سورة الكهف : الآية ١١٠ .

(٢) انظر : أضواء البيان (٢/٣٣) .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٦٣ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢ .

(٥) سورة التغابن : الآية ٦ .

(٦) انظر : تفسير أضواء البيان (٢/٣٤) .

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١).

لماذا لم يكن الرسل من الملائكة:

لقد كان هذا القول من الشبهة التي قال بها منكرو النبوات، وأعداء الرسل، إنكاراً منهم بأن يكون الرسول المبعوث بشراً، وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم، وأبطله في كتابه الكريم^(٢).

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ {٨} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ {٩}﴾^(٣)

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ {٩٤} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولًا﴾ {٩٥}﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ {٢١} يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(٥).

يقول الرازي^(٦) في تفسيره:

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٤.

(٢) انظر: العقيدة الأصفهانية (١/١٩٤).

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٨ - ٩.

(٤) سورة الإسراء: الآيات ٩٤ - ٩٥.

(٥) سورة الفرقان: الآيات ٢١ - ٢٢.

(٦) هو: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، يلقب بفخرالدين المعروف بابن الخطيب، وكان من كبار علماء عصره، وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة منها: تفسير الرازي، والمحصول في أصول الفقه، ومؤلفات كثيرة في علم الكلام، ولد عام (٥٤٤هـ) وتوفي سنة (٦٠٦هـ).

انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٤/٢٤٩)، وطبقات المفسرين للداودي (١/٢١٣).

«هذا من شُبّه منكري النبوات ، فإنهم يقولون : لو بعث الله إلى الخلق رسولاً ، لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة ، فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر ، وقدرتهم أشد ، ومهابتهم أعظم ، وامتيازهم عن الخلق أكمل ...»^(١).

والمتبع لهذه الآيات يجد بأن الله جل وعلا أجاب عن هذه الشبهة ، بأن جنس الإنسان يختلف عن جنس الملائكة في الخلق ، فالإنسان لا يستطيع أن يرى الملك على صورته الأصلية ، فهو لا يطبق ذلك ، وقديكون سبباً لهلاكه ؛ ذلك لأن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت ، أو حين نزول العذاب ، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم.

ولذلك قال سبحانه في آية سورة الفرقان : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(٢) ، والإنسان بطبيعته لا يحتمل رؤية الملك بطبيعته ، فهذا الرسول ﷺ ، مع كونه أفضل الخلق ، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية ، إلا أنه عندما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشي عليه^(٣) ، وكذلك فإن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم ، وأضياف لوط ، فلو أرسل الله إليهم ملكاً رسولاً ، لجعله على صورة البشر ، كما أرسل جبريل لمريم ابنة عمران ، فتمثل لها بشراً سوياً.

ولذلك قال سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(٤).

فرحمة الله بعباده وحكمته تعالى تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، ليتمكنوا من مخاطبته ، والانتفاع به ، والأخذ عنه ، ولذلك قال عز وجل : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي

(١) تفسير الرازي (١٢/١٣٣).

(٢) سورة الفرقان : الآية ٢٢.

(٣) وذلك كما ورد في البخاري بروايات متعددة ، كقوله عليه الصلاة والسلام : «فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ففجئت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ...» أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب : إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت أحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣/١٨٢) ، برقم (٣٠٦٦).

(٤) انظر : تفسير الرازي (١٢/١٣٤) ، تفسير الكشاف (٩/٢) ، وتفسير البحر المحيط (٤/٨٢).

الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولاً^(١)^(٢).

يقول ابن كثير^(٣) في تفسيره:

«فمن رحمته تعالى بخلقه أن يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم؛ ليدعوا بعضهم بعضاً؛ وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ»^(٤)^(٥).

ولو شاء سبحانه أن يرسل ملكاً رسولاً ويجعله في صورة بشر كما قال: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا»^(٦) للتبس الأمر عليهم، بسبب كونه في صورة رجل، فلا يستطيعون أن يتحققوا من كونه ملكاً، وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو، لذا فقد قال سبحانه: «وَلَلْبَشَرِ مَا يَلْبَسُونَ»^(٦).

مقتضى بشرية الأنبياء والرسل عليهم السلام:

أنبياء الله ورسله بشر كسائر البشر، اصطفاهم الله تعالى، وفضلهم، وكرمهم على بقية البشر بالوحي، وبالرسالة، ومن مقتضى بشريتهم عليهم السلام: أنهم يتعرضون لما يتعرض له البشر، وتلحقهم خصائص البشرية، كالمرض، والبلاء، والموت، والعبودية، والحاجة للطعام

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٢٥/٢).

(٣) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي الشافعي، الحافظ عماد الدين ابن الخطيب، شهاب الدين، وكنيته أبو الفداء، قال عنه الذهبي: (إمام محدث ومفتٍ بارع)، تلقى العلوم من الحسين العراقي، والحجار، والقاسم بن عساکر، ولازم الحافظ المزي، وتزوج ابنته، وسمع من الشيخ تقي الدين ابن تيمية، ومن مصنفاته: التاريخ الكبير، وتفسير القرآن العظيم، ولد في سنة (٧٠٠هـ)، وكانت وفاته في شهر شعبان في دمشق سنة (٧٧٤هـ). انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/٢٦٠ - ٢٦١).

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٥) تفسير ابن كثير (١٢٥/٢).

(٦) انظر: تفسير الرازي (١٢/١٣٤)، ويراجع كتاب الرسل والرسالات (ص ٧٣).

والشراب، والزواج، وكل ما يحتاج إليه البشر، فمن مقتضى بشريتهم:

١ - ليس لديهم شيء من خصائص الألوهية، فليس في قدرتهم إلا ما في قدرة البشر، فلا يقدرُونَ إلا على ما آتاهم الله من الآيات الدالة على صحة نبوتهم^(١)، ولذلك فإن الأنبياء والرسول عليهم السلام يتبرؤون من الحول والطول، ويعتصمون بالله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٢).

وقال سبحانه لنبيه محمد ﷺ حينما سأله قومه أموراً ليس بمقدوره أن يفعلها إلا بإذن الله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٣).

٢ - أنهم يتعرضون للبلاء كسائر البشر، فالأنبياء هم أشد الناس بلاءً، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فعن سعد بن أبي وقاص^(٤)، قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً، قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٥).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٣١/١٠).

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

(٤) هو سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبدمناف ابن زهرة بن كلاب القرشي، يكنى أبا إسحاق، من السابقين الأولين للإسلام شهد بدرًا والحديبية، وسائر المشاهد، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، واختلف في سنة وفاته، فقيل توفي سنة (٥٤)، وقيل (٥٥) وقيل (٥٨).

انظر: الطبقات الكبرى (١٣٧/٣)، والاستيعاب (٦٠٦/٢)، والاصابة (٧٣/٣).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٦٠١/٤) برقم (٢٣٩٨)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فقد ابتلى الله نبيه يوسف بالسجن، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾^(١)، وابتلى فريقاً منهم بالقتل، كما فعل مع أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾^(٢).

كما ابتلى الله نبيه أيوب عليه السلام بالمرض، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣)

٣- أنهم يعملون بأعمال البشر، ويزاولون الحرف التي يزاولها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة قبل البعثة^(٤)، ورعي الأغنام.

ففي الحديث الذي رواه جابر^(٥) بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباش^(٦)، وإن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه»، قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «وهل من نبي إلا وقد رعاها»^(٧).

ومن الأنبياء الذين نص القرآن الكريم على أنهم رعو الغنم نبي الله موسى عليه السلام، فقد عمل في ذلك عدة سنوات، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نُنَادِي بِهَا نَحْنُ وَنَكْفُرُ بِمَا نَعْبُدُكَ أَنْتَ نَدِينُكَ نَحْنُ وَكَانَ اللَّهُ لَهُ الْعِلْمُ وَمَا يَشَاءُ يَسْخَرُكَ مِنْ غَدَتِكَ وَأَسْمَاكَ مِنْ يَدَيْكَ وَأَكْتُمُ اللَّعِينِينَ أُولَئِكَ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهَا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ أُنِيبُ وَأَعْتَدُ لِلْكَافِرِينَ أَعْدَابًا عَظِيمًا﴾^(٨)

(١) سورة يوسف: الآية ٤٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/٢)، وزاد المعاد في هدي خير العباد (٧٧/١)، ومختصر السيرة (٦٤/١).

(٥) هو: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري، يكنى أبا عبد الله، وأبا عبد الرحمن، أحد المكثرين عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة، كان مع من شهد العقبة، شهد الكثير من الغزوات مع رسول الله، كان آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتاً بالمدينة، مات سنة (٧٤)، وقيل سنة (٧٣)، ويقال إنه عاش ٩٤ سنة.. انظر: الاستيعاب (١/٢١٩)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤٣٤/١).

(٦) الكباش: هو النضيج من ثمر الأراك. انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/١٣٩) مادة: (كبث).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: «يعكفون على أصنام لهم» (٣/١٢٥٠) برقم (٣٢٢٥).

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ^(١) ، أي أن الشيخ الكبير عرض عليه أن يرعى له الأغنام ثماني سنين ، وإن تبرع بزيادة سنتين فإن هذا راجع إليه عليه الصلاة والسلام^(٢) .
قال ابن حجر^(٣) :

«والذي قاله الأئمة إن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضع ، وتعتاد قلوبهم بالخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم»^(٤) .

ومن الأنبياء الذين ذكر القرآن أعمالهم ، نبي الله داود عليه السلام ؛ حيث كان يصنع الدروع ، قال تعالى : «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ»^(٥) .
وكان زكريا عليه الصلاة والسلام يعمل نجاراً ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حيث قال :
«كان زكريا نجاراً»^(٦) .

٤ - يحتاجون إلى ما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب ، قال تعالى : «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {٧} وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ {٨}»^(٧)

فالأنبياء والرسول عليهم السلام جميعاً كسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة ، يأكلون

(١) سورة القصص : الآية ٢٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/٣٨٦) .

(٣) هو : شيخ الإسلام أبو الفضل ، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الكناني العسقلاني المصري الشافعي ، ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، تعلم أولاً الأدب والشعر ، فبلغ فيه الغاية ، ثم طلب الحديث من سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، لازم شيخه أبا الفضل العراقي ، وبرع في الحديث ، له العديد من المصنفات التي عم النفع بها ، كفتح الباري ، وتهذيب التهذيب ، ولسان الميزان ، والإصابة في تمييز الصحابة ، توفي في ذي الحجة سنة اثنين وخمسين وثمانمائة . انظر : طبقات الحفاظ للسيوطي (١/٥٥٣) ، والبدر الطالع (١/٧٩) ..

(٤) فتح الباري (٦/٤٣٩) .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ٨٠ .

(٦) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب : فضائل زكريا عليه السلام (٤/١٨٤٧) برقم (٢٣٧٩) .

(٧) سورة الأنبياء : الآيات ٧ - ٨ .

كما يأكلون، ويشربون كما يشربون، ولهم أجساد، أي: أجسام، لا يستغنون عن الأكل، فهم يحتاجون إلى ذلك، بل ويموتون كما يموت غيرهم من البشر، لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾^(١).

قال تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾^(٢).

فيصيبهم ويعتريهم ما يعتري ويصيب البشر من أمراض وأعراض، فينامون ويقومون، ويصحون ويمرضون، قال تعالى في ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ {٧٩} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {٨٠} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ {٨١} ﴾^(٣).

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني...»^(٤)

٥- كما أنهم ولدوا كما يولد البشر، ولهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات، وأخوال وخاللات، ويتزوجون، ويولد لهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾^(٥).

وهذه الآية ردُّ لما كانوا يعيرون عليه - عليه الصلاة والسلام - ، بأنه مرسل من ربه ويتزوج، ويولد له الأولاد، كما كانوا يقولون: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾^(٦)، فهو عليه السلام كالأنبياء

(١) انظر: تفسير فتح القدير (٣/٣٩٩).

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ٧٩ - ٨١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، أبواب: القبلة، باب: التوجه نحو القبلة حيث كان (١/١٥٦) برقم (٣٩٢).

(٥) سورة الرعد: الآية ٣٨.

(٦) سورة الفرقان: الآية ٧.

والرسل من قبله ، جعل الله لهم أزواجاً وذرية.^(١)

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن جاءوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ... فقال لهم النبي : «... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

أنبياء الله ورسله من أكمل البشر خلقاً وخلقاً :

الأنبياء والرسل من أكرم الناس خلقاً ، وقد أثنى عليهم الله تعالى في كتابه ، فقال عن إبراهيم ﷺ : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(٣).

وقال عن موسى ﷺ ، مما قالتها ابنة العبد الصالح : «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين»^(٤).

وأثنى على إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، بصدق الوعد ، قال تعالى : ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾^(٥).

كما أثنى سبحانه على نبيه محمد ﷺ فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٦).

ومن صفاتهم عليهم السلام الصبر عند المكاره ، والعمل عند الجفا ، وتحمل الأذى ، والإحسان للناس ، والتودد إليهم ، والرحمة بهم ، والشفقة عليهم ، واللين في القول ، ومجانبة الفساد والشور ، وسخاء ذات اليد ، وطلاقة الوجه ، وكل خلق نبيل وحسن^(٧).

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٢٧/٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب : الترغيب في النكاح لقوله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ سورة النساء الآية ٣ ، (١٩٤٩/٥) برقم (٤٧٧٦).

(٣) سورة هود : الآية ٧٥.

(٤) سورة القصص : الآية ٢٦.

(٥) سورة مريم : الآية ٥٤.

(٦) سورة القلم : الآية ٤.

(٧) انظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٨٦/١٢).

قال تعالى عن رسوله محمد ﷺ: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ»^(١).

كما أنهم أكمل البشر في خلقهم، وأوصافهم، وقد وصف الرسول ﷺ بعض الأنبياء والرسول، فقال ﷺ: «ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا هو رجل ضرب^(٢) من الرجال، كأنه من رجال شنوءة^(٣)، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس^(٤)، وأنا أشبه ولد إبراهيم»^(٥).

ولقد حذر المولى جل وعلا عباده المؤمنين من إيذاء الرسول ﷺ، كما آذى بنو إسرائيل نبي الله موسى بن عمران ﷺ، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً»^(٦)، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل عن موسى لما رأوا شدة حياته، وتستره عنهم^(٧)، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً، لا يُرى من جلده شيء، استحياءً منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص^(٨)، وإما أدرة^(٩)، وإما

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) الضرب من الرجال، هو الخفيف اللحم، المشوق المستدق. انظر: النهاية في غريب الأثر (٧٨/٣) مادة: (ضرب).

(٣) شنوءة: أي طاهر النسب، ذو مروءة، وشنوءة: قبيلة من اليمن، وقيل: سُموا بذلك لعلو نسبهم، وحسن أفعالهم. انظر: تاج العروس (٢٨٨/١) مادة: (شئاً)، ولسان العرب (١٠٣/١) مادة: (شئاً).

(٤) يعني في نضرته، وكثرة ماء وجهه، كأنه خرج من (كن)، وقيل في الديماس إنه السرب المظلم، وفسر بأنه الحمام.

انظر: النهاية في غريب الأثر (١٣٣/٢)، لسان العرب (٨٨/٦) مادة (دم س).

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله: «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى»، «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» (١٢٤٣/٣) برقم (٣٢١٤).

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٧) انظر: تفسير السعدي (٦٧٣/١).

(٨) البرص: داء معروف، وهو بياض يقع في الجسد. انظر: لسان العرب (٥/٧) مادة: (برص).

(٩) الأدره: - بالضم - نفخة في الخصية، يقال رجل أدر. انظر: النهاية في غريب الأثر (٣١/١) مادة: (أدر).

آفة^(١)، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل، فأواه عرباناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه، فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً، أو خمساً، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٢).

يقول ابن حجر: «وفي هذا الحديث ما يدل على أن الأنبياء في خلقهم وخلقتهم على غاية الكمال، وأن من نسب نبياً من الأنبياء إلى نقصٍ في خلقته، فقد آذاه ... كما أن فيه ما كان في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصبر على الجهال، واحتمال آذاهم ...»^(٣).

ونبي الله يوسف عليه السلام قد أُعطي شطر الحسن، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ في حديث الإسراء^(٤): «أن الرسول ﷺ مرّ بيوسف عليه الصلاة والسلام في السماء الثالثة، قال: فإذا هو قد أُعطي شطر الحسن»^(٥).

الأنبياء والرسل أشرف الناس نسباً:

أنبياء الله ورسله من خير البرية، وأشرفهم نسباً، وجميع الرسل بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام من ذريتهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي

(١) الآفة: العاهة. انظر: لسان العرب (١٦/٩) مادة: (أوف).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: طوفان من السيل، يقال للموت الكثير طوفان القمل، الحمnan يشبه صغار الحلم. (١٢٤٩/٣) برقم (٣٢٢٣).

(٣) فتح الباري (٤٣٨/٦).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤٧٧/٢).

(٥) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١٤٦/١) برقم (١٦٢)، جزء من الحديث.

ذُرِّيَّتَهُمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ^(١).

وما في معناها أن الله ﷻ إنما يصطفي لرسالته من كان من خيار قومه في حسن النسب^(٢).

فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل، فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً»^(٣).

فإن اختيار الله ﷻ واصطفاه لبعض عباده ليكونوا أنبياءً ورسلاً، تكريماً وتفضيلاً منه سبحانه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾^(٤).

(١) سورة الحديد: الآية ٢٦.

(٢) انظر: مسائل لخصها الإمام محمد بن عبد الوهاب (١/٦٥).

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢١٠) برقم (١٧٨٨)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات عن

رسول الله ﷺ، باب: (٩٧) (٥٤٣/٥) برقم (٣٥٣٢).

(٤) سورة مريم: الآية ٨٥.

الفصل الأول

آباء الأنبياء وأمہاتہم فی القرآن الکریم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : آباء الأنبياء في القرآن :

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : إبراهيم مع أبيه آزر .

المطلب الثاني : إبراهيم وأمره بذبح ابنه .

المطلب الثالث : داود مع ابنه سليمان عليهما السلام .

المطلب الرابع : يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام .

المطلب الخامس : دعاء زكريا وإبراهيم بالذرية الصالحة .

المبحث الثاني : أمهات الأنبياء في القرآن .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : إسحاق عليه السلام وبشارة أمه به .

المطلب الثاني : والدة موسى عليه السلام .

المطلب الثالث : مريم بنت عمران مع ابنها عيسى .

الفصل الأول: آباء الأنبياء وأمہاتہم فی القرآن الکریم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آباء الأنبياء في القرآن

وفيه:

المطلب الأول: إبراهيم مع أبيه آزر

إبراهيم: هو اسم خليل الرحمن، أبو الأنبياء من بعد نوح عليهما السلام^(١)، وأما أبو إبراهيم عليه السلام فهو آزر، كما جاء بذلك القرآن^(٢)، وكان قوم إبراهيم مشركين يعبدون الأوثان^(٣)، وقد أنكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام على أبيه وقومه شركهم، ودعاهم إلى توحيد الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {٧٥}﴾^(٤).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: قال: «إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارح، وقال: يعني بأزر الصنم»، وقال بذلك أيضاً مجاهد، والسدي^(٥).

(١) انظر: تفسير المنار (٤٤٠/٧).

(٢) انظر: تفسير المنار (٤٤١/٧).

(٣) انظر: دقائق التفسير (١١٣/٢).

(٤) سورة الأنعام: الآيات ٧٤ - ٧٥.

(٥) هو: إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر، أبو محمد الحجازي، ثم الكوفي، السدي، بضم السين، وتشديد الدال، أحد موالى قريش، حدث عن أنس بن مالك، وابن عباس وعدد كثير، وحدث عنه شعبة، وسفيان الثوري، وزائدة وغيرهم، توفي رحمه الله سنة (١٢٧هـ).

انظر: طبقات المفسرين للداودي (١٥/١)، وسير أعلام النبلاء (٢٦٥/٥)، وتقريب التهذيب (١٠٨/١).

ويقول ابن كثير: «وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تاريخ»^(٢).

وقال آخرون: إن «آزر» هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه معوج^(٣).

قال ابن جرير: «والصواب أن اسم أبيه آزر؛ لأن الله أخبر أنه أبوه وهذا هو القول المحفوظ من قول أهل العلم، دون القول الآخر الذي يقول بأنه نعت، فإن قيل بأن أهل الأنساب إنما ينسبون إبراهيم إلى تارح، فكيف يكون آزر اسماً له، والمعروف به من الاسم تارح؟ فيجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس، وجائز أن يكون لقباً، والله تعالى أعلم»^(٤).

وعلق ابن كثير في تفسيره على هذا القول: بأن هذا الذي قاله ابن جرير الطبري^(٥) جيد قوي، والله أعلم^(٦).

فالراجح أن اسمه آزر، كما جاء بذلك صريح القرآن.

دعوة إبراهيم عليه السلام أباه إلى التوحيد:

بدأ إبراهيم الخليل دعوته إلى الله تعالى بدعوة أبيه، وذلك لحرصه على هدايته، فهو أولى الناس بالدعوة إلى الخير، والإنذار؛ وهذا ما فعله سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام حين

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/١٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٥٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٧/٢٤٣).

(٤) تفسير الطبري (٧/٢٤٤).

(٥) هو: شيخ المفسرين، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب كتاب جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وهو من أجل التفاسير، لم يؤلف مثله، كما ذكره العلماء قاطبة، منهم النووي في تهذيبه. وله العديد من التصانيف، ومنها: تاريخ الأمم والملوك، والجامع في القراءات، وله مؤلفات في الحديث، منها: تهذيب الآثار، وفي الفقه وأصول الدين. ولد سنة (٢٢٤) وعاش في بغداد حتى توفي بها سنة (٣٠١هـ).

انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٤/١٩١)، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/١٢٠)، وطبقات المفسرين للداودي (١/٤٨)، وشذرات الذهب (٢/٢٦٠).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/١٥١).

أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١).

لذا فقد أخبر القرآن عن دعوة إبراهيم لأبيه في عدة مواضع منه ، وبينت هذه الآيات كيف كان يدعو إبراهيم والده مراعيًا هذه الصلة ، وهذه الرابطة ، ألا وهي رابطة الأبوة ، فسلك معه كل سبيل ليصل به إلى طريق النجاة ، ونبذ الشرك ، ودعا بعدة طرق ، ولكن كما أخبر الله ﷻ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ {٩٦} وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ {٩٧}﴾^(٢).

وعن هذه الدعوة يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا {٤١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {٤٢} يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا {٤٣} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا {٤٤} يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {٤٥}﴾^(٣).

سلك النبي ﷺ في دعوته لأبيه أحسن منهاج ، وأقوم سبيل ، واحتج عليه أبداع احتجاج بحسن أدب ، وخلق جميل ، لئلا تأخذه العزة بالإثم ؛ حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ، ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم ، مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام ، والإنعام العام ، فكيف يتوجه بهذه العبادة ، وهذا الخضوع لجمادٍ مصنوع من الحجر ، أو الشجر ، وليس له من أوصاف الأحياء أدنى صفة ، أو أثر ، ويترك عبادة الله الخالق الرازق النافع الضار ، والمحبي ، والمميت ، والمثيب والمعاقب^(٤).

وقال إبراهيم في دعوته لأبيه إلى الحق مترقياً به متلطفاً: ﴿يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إن

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) سورة يونس: الآيات ٩٦ - ٩٧.

(٣) سورة مريم: الآيات ٤١ - ٤٥.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٢٦٧/٥) بتصرف.

معي طائفة من العلم، وشيئاً منه ليس معك.

وذلك علم الدلالة على الحق، وعلى الطريق السوي، فلا تستنكف يا أبت من قبول قولي، ونصحي لك، وهبْ أني وإياك في مسير، وعندني معرفة بالطريق، فمصلحتك تقتضي أن تتبعني لتنجو من الضلال والتهيه^(١).

ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

يقول القاسمي^(٢) في تفسيره للآية: «ثَلَّثَ الشَّيْطَانَ بِتَشْبِيْطِهِ وَنَهَيْهِ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، بِتَصْوِيرِهِ بِصُورَةٍ يَسْتَنْكِرُهَا كُلُّ عَاقِلٍ، بِيَانِ أَنَّهُ مَعَ عِرَائِهِ عَنِ النِّفْعِ بِالْمَرَّةِ، مُسْتَجَلِبٌ لَضَرَرٍ عَظِيمٍ، فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ عِبَادَةَ الشَّيْطَانَ، لِمَا أَنَّهُ الْأَمْرُ بِهِ، وَالْمَسْئُولُ لَهُ»^(٣).

وفي قوله لأبيه في الرابعة: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ خوِّفه من سوء العاقبة، وبما يجرّه ما هو فيه من التبعة والوبال، إلا أن ذلك لم يخلُ من حسن الأدب؛ حيث لم يصرح له بأن العقاب لاحقٌ له، وأن العذاب لاصقٌ به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾، فذكر الخوف والمسّ، ونكّر العذاب، وجعل ولاية الشيطان، ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب^(٤).

ويلاحظ أن إبراهيم صدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً، وفي هذا من لطف الخطاب ولينه مما لا يخفى^(٥).

(١) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري (٢١/٣).

(٢) هو: جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، من كبار العلماء في عصره، له مصنفات كثيرة ومشهورة، منها: تفسير محاسن التأويل، ودلائل التوحيد، وكتب أخرى في الحديث، وفي الفقه، وفي الوعظ. توفي رحمه الله بدمشق سنة (١٣٣٢هـ).

انظر: تراجم أعيان دمشق (١١٨)، الأعلام للزركلي (١٣٥/٢)، معجم المؤلفين (٣ / ١٥٨).

(٣) تفسير القاسمي (٨١/٥).

(٤) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري (٢٢/٣).

(٥) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري (٢٢/٣)، تفسير السعدي (٤٩٤/١).

فقد تدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن أطعتني اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه سيكون ولياً للشيطان^(١).

جواب الأب لابنه إبراهيم عليه السلام:

وبالرغم من تلطف إبراهيم مع أبيه في الخطاب، وحسن دعوته، والتزام الأدب الجم، واستعطافه ليقبل دعوته، ومخاطبته له بـ«يَا أَبَتِ» ليحرك لديه عاطفة الأبوة، بالرغم من ذلك أجابه بما أخبرنا به القرآن: «قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا»^(٢).

قال أبو إبراهيم مصراً على عناده وكفره: أمعرض ومنصرف أنت عن آلهتي يا إبراهيم، وترغب عنها إلى غيرها؟

لئن لم تنته عن الطعن في آلهتي، وعن نصحك لي بترك عبادتها، لأرجمنك بالحجارة، واهجرني ملياً؛ أي تباعد عني زمناً طويلاً^(٣).

يقول الشنقيطي^(٤) - رحمه الله -:

«بين الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريميتين: أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة

(١) تفسير السعدي (١/٤٩٥).

(٢) سورة مريم: الآية ٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١١/١١)، تفسير القاسمي (٥/٨٢).

(٤) هو: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ولد في موريتانيا سنة (١٣٢٥هـ)، وتعلم بها، وحج عام (١٣٦٧)، واستقر به المقام في المدينة المنورة، حيث عمل فيها مدرساً، وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة، ومحاضراً بالمسجد النبوي، وتوفي بمكة عام (١٣٩٣هـ). من مؤلفاته: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، وأدب البحث والمناظرة، وغيرها من المؤلفات.

انظر: الأعلام للزركلي (٦/٤٥)، نشر الجواهر والدرر (٢/١٠٧٢).

مع ما فيها من الرفق واللين، وإيضاح الحق، والتحذير من عبادة ما لا يسمع، ولا يبصر، ومن عذاب الله تعالى، وولاية الشيطان خاطبه هذا الخطاب العنيف، وسماه باسمه، ولم يقل له: «يا بني» في مقابلة قوله له: «يا أبت»، وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان، أي معرض عنها لا يريد لها، لأنه لا يعبد إلا الله وحده جلّ وعلا، وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمه، ف قيل: بالحجارة، وقيل باللسان شتماً، والأول أظهر، ثم أمره بهجره ملياً، أي زمناً طويلاً، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه العنيف بغاية الرفق واللين^(١).

فقال ﷺ عن ردّ إبراهيم لأبيه: «قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا»^(٢).

كما قال تعالى في صفة المؤمنين: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»^(٣)، وقوله تعالى: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ»^(٤).

ويعني قول إبراهيم لأبيه: «سَلَامٌ عَلَيْكَ»، يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه، ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة.

وزاده خيراً، فقال: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي»، أي ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك، ويغفر ذنبك. «إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» قال ابن عباس وغيره: لطيفاً. أي في أن هداني لعبادته، والإخلاص له^(٥).

ومن شدة حرص إبراهيم ﷺ على نفع أبيه، ولشدة شفقتة عليه، وبره به، وعده بأن

(١) تفسير أضواء البيان (٤٢٧/٣).

(٢) سورة مريم: الآية ٤٧.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٤) سورة القصص: الآية ٥٥.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٩٢ / ١٦)، وتفسير ابن كثير (١٢٤/٣).

يستغفر له.

وقد وفى ﷺ بذلك الوعد كما أخبر بذلك القرآن بقوله: ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(١)، وكما قال تعالى عنه أيضاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٢).

ولكن الله بين له أنه عدو لله فتبراً منه، ولم يستغفر له بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٣).

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

والموعدة المذكورة هي قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾^(٥)، ولما اقتدى المؤمنون بإبراهيم فاستغفروا لموتاهم المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، أنزل الله فيهم: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٦)، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ﴾^(٧).

يقول ابن كثير: «وقد استغفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل، وإسحاق.

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٥) سورة مريم: الآية ٤٧.

(٦) سورة التوبة: الآية ١١٣.

(٧) انظر: تفسير أضواء البيان (٤٢٨/٣).

في قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، وقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، اقتداءً بإبراهيم الخليل في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم ألقع عن ذلك، ورجع عنه، فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾^(٢).

وقد وصف الله ﷺ إبراهيم عليه السلام، بعد أن ذكر ما صنع مع أبيه، في دعوته للإيمان، والموعدة بالاستغفار، وصفه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ أي لكثير التأوه، وهو كناية عن كمال الرأفة، ورقة القلب، فكان يعطف على أبيه الكافر، ولذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين.

فكان صابراً على البلاء، وصفوحاً عن الأذى؛ لأنه كان يستغفر لأبيه وهو يقول له: لأرجمنك^(٣).

وقد روى البخاري^(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم

(١) سورة الممتحنة: الآية ٤.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٢٤ - ١٢٥).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٤/١٠٨)، تفسير النسفي (٢/١١٢).

(٤) هو: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله البخاري، وكتابه (صحيح البخاري) أصح كتاب بعد كتاب الله ﷺ، وللإمام البخاري جهوده العظيمة في علم الحديث، ومن مؤلفاته: صحيح البخاري، والأدب المفرد، والتاريخ الكبير، والأوسط والصغير، وغير ذلك، ولد ببخارى سنة (١٩٤هـ)، وتوفي سنة (٢٥٦هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/٣٩١)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (١/٢٥٢).

القيامة وعلى وجه أزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني، فيقول أبوه: فالיום لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأبي خزي أخزى من أبي الأبعد؟، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال يا إبراهيم: ما تحت رجلك، فينظر، فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^(١).

يقول ابن حجر: «وقيل: الأبعد صفة لأبيه، أي أنه شديد البعد من رحمة الله؛ لأن الفاسق بعيد منها، فالكافر أبعد... وقال بعد أن نقل قول من قال إن هذا الحديث مخالف لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ الجواب عن ذلك، أن أهل التفسير اختلفوا في الوقت الذي تبرأ فيه إبراهيم من أبيه، فقيل: كان ذلك في الحياة الدنيا لما مات آزر مشركاً... وقيل: إنما تبرأ منه يوم القيامة لما يئس منه حين مُسَخ على ما صرح به في الرواية...

ويمكن الجمع بين القولين بأنه تبرأ منه لما مات مشركاً، فترك الاستغفار له، لكن لما رآه يوم القيامة، أدركته الرأفة والرقّة، فسأل فيه، فلما رآه مُسَخ يئس منه حينئذٍ فتبرأ منه تبرأً أبدياً^(٢).

«والذيخ» هو ذكر الضبع^(٣).

وقيل: الحكمة في مسخه؛ لتنفر نفس إبراهيم، ولئلا يبقى في النار على صورته، فيكون فيه غضاضة على إبراهيم.

وقيل: الحكمة في مسخه ضبعاً: أن الضبع من أحمق الحيوانات، وآزر كان من أحمق البشر؛ لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البيّنات أصر على الكفر حتى مات، ولأن إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح، فأبى واستكبر وأصر على الكفر، فعومل بصفة الذل يوم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، وقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً﴾، وقوله: ﴿إن إبراهيم لأواهٌ حلیم﴾ (٣/١٢٢٣) برقم (٣١٧٢).

(٢) فتح الباري (٨/٥٠٠ - ٥٠١).

(٣) لسان العرب (٣/١٦) مادة (ذي خ).

القيامة^(١).

ولقد أخبر القرآن الكريم عن أساليب إبراهيم عليه السلام المتنوعة في دعوة أبيه وقومه، فاستخدم معهم كافة الطرائق والسبل ليقبلوا دعوته، تحلى فيها بالصبر على جفاء والده، وعداوة عشيرته، وغير ذلك من أنواع الفتنة والابتلاء.

ومن السبل التي سلكها إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه:

ما ذكره لنا القرآن في سورة الشعراء؛ حيث سأل أباه وقومه عما يعبدون، هل تنفع أو تضر، أو تسمع الدعاء، فسلك معه ومع قومه أسلوب المساءلة، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ {٦٩} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ {٧٠} قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ {٧١} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ {٧٢} أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ {٧٣} قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {٧٤}﴾^(٢).

كان إبراهيم عليه السلام يعلم ما كان يعبد أباه، وقومه من أصنام، وجمادات، ولكنه سألهم ليربهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شيء^(٣).

فلما صرّحوا لإبراهيم عليه السلام عن عدم نظرهم، وأنه لا حجة لهم، خاطبهم ببراءته من جميع ما عُبد من دون الله، وعداوته لذلك^(٤)، وأوضح سبب ذلك، وسبب قصره العبادة على الله بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ {٧٥} أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ {٧٦} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ {٧٧} الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {٧٨} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ {٧٩} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {٨٠} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ {٨١} وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ {٨٢} رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي

(١) انظر: فتح الباري (٨/٥٠٠).

(٢) سورة الشعراء: الآيات ٦٩ - ٧٤.

(٣) انظر: تفسير الكشاف (٣/٣٢٢).

(٤) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٤/٢٣٤).

بِالصَّالِحِينَ {٨٣} ﴿^(١)﴾ .

يقول القرطبي في تفسيره للآية: «إن قيل: فهذه صفة لجميع الخلق، فكيف جعلها إبراهيم دليلاً على هدايته ولم يهتد بها غيره، قيل إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يُطاع، ولا يُعصى، وذلك ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها»^(٢).

وعند قوله: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» أسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى، رعاية للأدب في التعبير، وإلا فالمرض والشفاء كلها من عند الله تعالى جميعاً^(٣).

ومن مساءلته لأبيه وقومه أيضاً ما ذكره القرآن في سورة الصافات، قال تعالى: «وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ {٨٣} إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ {٨٤} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ {٨٥} أَتُنْفَكُوا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ {٨٦} فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ {٨٧} فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ {٨٨} فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ {٨٩} فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ {٩٠}»^(٤).

سلك مع أبيه وقومه مسلكاً آخر وهو إقامة الحجة عليهم بأسلوب عملي:

فبدأ بجدالهم، قال تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ»^(٥).

أي آتيناه إبراهيم النبوة، أو آتيناه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا من قبل موسى وهارون عليهما السلام، وكنا عالين بما لإبراهيم من صفات جعلته أهلاً لما آتيناه^(٦).

(١) سورة الشعراء: الآيات ٧٥ - ٨٣.

(٢) تفسير القرطبي (١١١/١٣).

(٣) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٢٣٥/٤)، تفسير القرطبي (١١٠/٣).

(٤) سورة الصافات: الآيات ٨٣ - ٩٠.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٥١.

(٦) انظر: تفسير الرازي (١٥٦/٢٢).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾^(١).

فهذا هو الرشد الذي أوتيته عليه الصلاة والسلام، فقال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل، أي الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾^(٢)، أي نعبد هاتقليدا لأسلافنا، فحجبتهم تقليد آباءهم الضلال، ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣)، أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، وفي عمل باطل ظاهر البطلان، وأن الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به^(٤).

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾^(٥).

قال أبوه وقومه له: أجئتنا بالحق فيما تقول، أم أنت هازل لاعب من اللاعبين^(٦)؟
﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٧).

وبعد هذا الجدل بين إبراهيم عليه السلام وقومه، عزم على تكسير أصنامهم.

يقول الرازي في تفسيره:

«إن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام بأنه مُجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد، وذلك بالقول أولاً، وبالفعل ثانياً.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥٤.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٨٣)، تفسير الرازي (٢٢/١٥٦ - ١٥٧).

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٥٥.

(٦) تفسير الطبري (١٧/٣٧).

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٥٦.

أما الطريقة القولية: «فهي قوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وهذه دلالة تدل على أن الخالق الذي خلقها لمنافع العباد هو الذي يستحق أن يعبد؛ لأن من يقدر على ذلك يقدر على الثواب والعقاب، وإليه المآل في الدار الآخرة، فيرجع حاصل هذه الطريقة إلى الطريقة التي ذكرها لأبيه في قوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(١)»^(٢).

فأخبر إبراهيم عليه السلام بالقسم على ما هو عازم على فعله، فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾^(٣)، فلم يكتف بالمحاجة، والجدل باللسان، بل عزم على تكسير أصنامهم، فعل واثق بالله، موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذب عن الدين ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي بعد أن تخرجوا إلى عيدكم.

وكان لهم عيد يخرجون إليه، ويجتمعون فيه في كل سنة، وقد قال ذلك إبراهيم في سر من قومه، ولم يسمعه إلا رجل واحد، وهو الذي أفشاه عليه، وقيل إنما قاله بعد خروج القوم إلى عيدهم، ولم يبق منهم إلا الضعفاء منهم الذين سمعوه^(٤).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾^(٥).

أي جعل أصنامهم قطعاً مكسرة بعد أن ولّوا عنها، إلا أنه لم يكسر الصنم الكبير؛ بل تركه وعلق الفأس التي كسّر بها الأصنام في عنقه؛ ليحتج به عليهم: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، أي لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ودينه إذا قامت عليهم الحجة^(٦).

قال تعالى عن ذلك في سورة الصافات: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ { ٩٠ } فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ

(١) سورة مريم: الآية ٤٢.

(٢) تفسير الرازي (١٥٧/٢٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥٧.

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٩٧/١١).

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٥٨.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٢٩٧/١١ - ٢٩٨).

فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ {٩١} مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ {٩٢} فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ {٩٣}
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ {٩٤} قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ {٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ {٩٦} ﴿^(١)﴾.

ولما رجعوا من عيدهم، ورأوا ما حصل لآلهتهم، قالوا على وجه البحث والإنكار:
﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، أي إنه ظالم لجراته على إهانة آلهتنا
بتكسيها، وهي الجديرة عندهم بالتعظيم^(٣).

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(٤).

قال الذين سمعوا مقالة إبراهيم وقسمه على الكيد لهذه الأصنام، قال هؤلاء: سمعنا
فتىً أي شاباً يذكرهم بمكروه منه يقال له إبراهيم، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ﴾^(٥)، أي على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وهذا هو المقصود
الأكبر لإبراهيم عليه السلام، بأن يؤتى به أمام الحشد الكبير من الناس، حتى يبين لهم كثرة جهلهم،
وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف
يطلب منها شيء من ذلك، فلو استطاعت لدفعت ذلك عن نفسها^(٦).

مسألة إبراهيم أمام الناس:

لما جيء بإبراهيم أمام الحشد الهائل من الناس ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا
إِبْرَاهِيمَ {٦٢} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ {٦٣}﴾^(٧).

(١) سورة الصافات: الآيات ٩٠ - ٩٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٩.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/٢٩٨)، تفسير القاسمي (٥/١٦٠).

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٦٠.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٦١.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٨٣).

(٧) سورة الأنبياء: الآيات ٦٢ - ٦٣.

وإنما أراد إبراهيم بهذا القول أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد^(١).

فقصده إبراهيم تفريرهم وتوبيخهم على عبادة هذه الأصنام، فكأنه قال لهم على وجه الاستهزاء بهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، أي الصنم الكبير الذي لم يكسره، فهو الذي كسر الأصنام، وواضح من هذا أنه يريد توبيخهم، والسخرية بهم لعبادتهم الأصنام.

وتضمن جواب إبراهيم أيضاً: فإن ترددتم في أن التكسير من فعلي أو فعل الصنم الكبير، فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وإلا ظهر عجزهم الكلي المانع من القول بألوهيتها، ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

أي فراجعوا عقولهم، أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطن لصحة حجة خصمه ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي أنتم الظالمون بعبادة من لا ينطق بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه، ويدفع عنهم البأس من لا يُرد عن رأسه الفأس^(٣).

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٤).

فكيف تقول لنا: اسألوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾^(٥)، أي إذا كانت لا تنطق، وهي لا تنفع، ولا تضر، فلم تعبدونها من

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٨٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

(٣) تفسير القرطبي (١١/٣٠٢).

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٦٥.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٦٦.

دون الله؟^(١)

قال إبراهيم لهم: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

(أف) صوت، إذا صوّتَ به عُلِمَ أن صاحبه متضجرٌ، فقد أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتهم بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل، فتأفف بهم، ولما عجزوا عن المعارضة بعد أن قرعت شبهتهم بالحجة، فأشاروا بإحراقه^(٣) وهذا قول قوم إبراهيم بأن ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٤).

فلما غلبهم بالحجة، رجعوا إلى التغلب عليه بالظلم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾؛ لأنه استحق أشد العقاب عندهم، والنار أهول ما يعاقب به، وانصروا آلِهَتكم بالانتقام لها^(٥).

ولما قرروا تحريقه بالنار أوقدوا ناراً عظيمة، فلما ألقوه فيها، قال: حسبي الله ونعم الوكيل.

كما روى ذلك البخاري عن ابن عباس أنه قال: «كان آخر قول إبراهيم حين أُلقيَ في

النار: حسبي الله ونعم الوكيل»^(٦).

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٧).

قال ابن عباس: لولا أن الله عَجَّلَ قال: ﴿سَلَامًا﴾ لآذى إبراهيم بردها^(٨).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٢/١١)، تفسير ابن كثير (١٨٤/٣).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٧.

(٣) انظر: تفسير الكشاف (١٢٦/٣).

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٦٨.

(٥) انظر: تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٢٩/٣)، تفسير القاسمي (١٦٢/٥).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ الآية سورة آل عمران

(١٧٣) (١٦٦٢/٤) برقم (٤٢٨٧).

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

فأرادوا أن يكيدوه بالإضرار به ، بتحريقه بالنار ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين ؛ حيث أنجاه الله من النار ، ونصره عليهم^(٢) .

مناظرته ﷺ لقومه من عبادة الكواكب:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ {٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ {٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٧٩}﴾^(٣) .

يقول ابن كثير: «وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله ﷻ ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة ، وتأفل تارة أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي ، بلا زوال ... إلى أن قال : والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران ، فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب ولما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحاق وغيره ، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق»^(٤) .

وقد جاء في القرآن والسنة عن خبر إبراهيم ﷺ مع أبيه آزر ، وحرصه على دعوته إلى التوحيد بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ومجادلته هو وقومه بالتي هي أحسن .

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٨٥) .

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٢/١٦٤) .

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧٥ - ٧٩ .

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٩٠) .

فقام بواجب البر نحو والده، فدعاه وأمره بعبادة الله وحده، وبيّن له ما هو عليه من الضلال، فراعى حقه عليه، من حيث دعوته مراعيًا مقام الأبوة.

ومن تعامل هذا النبي الكريم مع والده - رغم ما كان عليه من الكفر والإلحاد - قوله له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾، وهو يلقي في النار، ووالده لا يدافع عنه، ولا يشفع له.

ويوم القيامة يلقاه فتدركه الرأفة والرقّة، فيسأل فيه ربه؛ لأجل هذا أمر الله عباده بالتأسي بنبيه إبراهيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

(١) سورة الممتحنة: الآية ٤.

المطلب الثاني

إبراهيم وأمره بذبح ابنه

أخبر القرآن الكريم عن نبي الله إبراهيم كيف كان مع أبيه، فكان مثلاً للابن المخلص، فقد أدى ما عليه، فدعا أباه إلى التوحيد، وذكره ونصحه، فكان براً رحيماً بوالده، رغم كفره، وغلظته.

كما أخبر القرآن عن إبراهيم عليه السلام كيف كان أباً، وذكر لنا المولى عليه السلام شيئاً عن خليله إبراهيم عليه السلام كوالدٍ في كتابه العزيز، في أكثر من موضع ومناسبة. فهو أعظم قدوة للآباء، ويكفي ما يدل على عظمة قدوته، أن الله تعالى أمر في كتابه بالافتداء به، واتباع ملته.

ومما جاء عن سيرته في القرآن مع ابنه، أن الله تعالى أمره في رؤياه أن يذبح ابنه، ففد الأب إبراهيم ما أمر به.

قال تعالى عن هذه القصة العظيمة بين إبراهيم وابنه :

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ {٩٩} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ {١٠٠} فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ {١٠١} فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ {١٠٢} فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ {١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ {١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {١٠٥} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ {١٠٦} وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ {١٠٧} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ {١٠٨} سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ {١٠٩} كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {١١٠} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ {١١١} وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ {١١٢} وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنَ

ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ {١١٣} ﴿١﴾.

فقد تحدثت الآيات عن ابنين لإبراهيم عليه السلام، الابن الأول لم يذكر اسمه، وإنما ذكرت صفته بأنه غلامٌ حلیم، وهو الذي أمر إبراهيم بذبحه.

والابن الثاني نصت الآية على أنه إسحاق، وفي هذا دليل على أن الأول الذبيح، وهو إسماعيل ^(٢).

وسياتي بيان ذلك بشيء من التفصيل في فصل «أبناء الأنبياء».

ومن صفات إبراهيم عليه السلام كآب يقتدى به في هذه القصة:

أنه عليه السلام لما أمر بذبح ابنه بدأ بإعلامه بالأمر ومشاورته، فلم يصدر الأمر إليه دون أن يشاوره، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ^(٣).

فلم يشاوره عليه السلام - والله أعلم - كي يرجع إلى رأيه ومشورته، بل ليعلم ما عنده فيما نزل به من ابتلاء، فيثبت قدمه، ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلّم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها، ويهون عليها، ويلقى البلاء، وهو كالمستأنس به. ويكتسب المثوبة بالانقياد إلى أمر الله تعالى قبل نزوله ^(٤).

يقول الحافظ ابن الجوزي ^(٥) في تفسيره:

(١) سورة الصافات: الآيات ٩٩ - ١١٣.

(٢) انظر: أضواء البيان (٦/٣١٧ - ٣١٨) بتصرف.

(٣) سورة الصافات: الآيات ١٠١ - ١٠٢.

(٤) انظر: تفسير الكشاف (٤/٥٦).

(٥) هو: عبدالرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين أبو الفرج الجوزي، البغدادي، الحنبلي، صاحب المصنفات الشهيرة في التفسير والحديث، والفقه، والوعظ، وغير ذلك، ولد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي سنة (٥٩٧هـ) ببغداد، بعد حياة حافلة، وعمر مديد في خدمة العلم والدعوة الإسلامية، من أهم مؤلفاته: زاد المسير في علم التفسير، والمنتظم في تاريخ الأمم، وصفة الصفة، والأذكياء، والتبصرة في الوعظ، وتلبيس إبليس، وغيرها من المؤلفات.
انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/٤١٨)، المقصد الأرشد (٢/٩٣).

«لم يقل له ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله ﷻ، ولكن أراد أن ينظر ما عنده من الرأي»^(١).

نظير ذلك أيضاً في سيرة إبراهيم ﷺ مع ابنه إسماعيل، مشاورته في بناء الكعبة قبل أن يأمره بذلك، ففي الحديث أن إبراهيم ﷺ قال: «يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً»^(٢).

وفي هذا الخبر عن إبراهيم ﷺ مع ابنه، وأمره بذبحه، دليل على شدة امتثال خليل الرحمن لأمر ربه ﷻ، وتقديم أمره على حبّ ولده في هذه القصة:

١ - فقد وهب الله ﷻ إبراهيم ﷺ ولداً بعد أن هاجر وترك قومه، قال تعالى عن إبراهيم بعد أن هجر قومه: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ {٩٨} وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ {٩٩} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ {١٠٠}﴾^(٤).

فسأل ربه بعد أن ترك قومه أولاداً صالحين مطيعين عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم، فبشره ربه بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٥) وهذا الغلام هو إسماعيل ﷺ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم ﷺ^(٦).

ومن المعلوم أن من كان كذلك، كان تعلقه وحبّه لولده أكثر وأشد، وسيكون ابتلاؤه في هذا الولد أعظم.

(١) زاد المسير (٥٧/٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: يزفون النسلان في المشيء، جزء من الرواية، (١٢٢٩/٣)، رقم الحديث (٣١٨٤).

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٤) سورة الصافات: الآيات ٩٨ - ١٠٠.

(٥) سورة الصافات: الآية ١٠١.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١٥/٤).

٢- من المعروف أن أول ولد له معزة ليست لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار^(١).

يقول ابن عاشور^(٢) في تفسيره لهذه الآيات:

«... هذا الابتلاء لإظهار عزمه، وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه، فإن الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشد عزة على نفسه لا محالة، وقد سأل إبراهيم ربه ولداً ليرثه نسله، فبعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤاله، وترعرع ولده، أمره بأن يذبحه، ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه، وذلك أعظم الابتلاء، فقابل أمر ربه بالامتنال، وحصلت حكمة الله من ابتلاءه...»^(٣).

وليس هذا فحسب، بل أمر خليل الرحمن ﷺ بذبح الابن لما بلغ المبلغ الذي يتمكن فيه من مساعدة والده الكبير في أموره وأعماله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾^(٤) أي فلما بلغ معه المبلغ الذي يسعى مع أبيه في أمور دنياه، معيناً له على أعماله^(٥). ويلاحظ في الآية أن الله ﷻ قال عند وصف حال إسماعيل عليه السلام في ذلك الوقت: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾، ولم يقل: «فلما بلغ السعي» فالحكمة في ذكر قوله «معه» ذكرها الزمخشري^(٦) في تفسيره للآية، فقال:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٥/٤).

(٢) هو: محمد الطاهر بن عاشور، مفتي المالكية بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، من مصنفاته: تفسير التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، وتوفي سنة (١٣٩٣هـ). انظر: كتاب شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، تأليف بلقاسم الغالي.

و الأعلام للزركلي (١٧٤/٦).

(٣) التحرير والتنوير (٦٤/٢٣).

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٩٩/١٥).

(٦) هو: محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، النحوي، اللغوي، المفسر المعتزلي، يلقب بجار الله لأنه جاور بمكة زماناً، ولد بزمخشر، وهي قرية من قرى خوارزم سنة (٤٦٧هـ)، وقدم بغداد وتلمذ على

«أي: الحد الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع من؟ فقال: مع أبيه، والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس به، وأعطفهم عليه. وغيره ربما عَنَّف به في الاستسعاء، فلا يحتمله؛ لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده»^(١).

فمن كان كذلك كانت رغبة الأب فيه أعظم، لذا فقد علق السعدي^(٢) - رحمه الله - في تفسيره على ذلك بقوله: قوله تعالى: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» «أي أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته وأقبلت منفعتة»^(٣).

ورغم ذلك كله، فلم يكن من إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام إلا الانقياد والاستسلام الكامل لأمر الله، وعدم المجادلة فيه، ولم يتردد في ذلك طرفة عين، وجاء بيان ذلك في قوله تعالى عنهما:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾^(٤).

فالاستسلام كان من الوالد، وولده، فاستسلما لأمر الله.

فسلم، واستسلم، وأسلم، بمعنى: انقاد وخضع. فاستسلام إبراهيم بالتهيؤ لذبح ابنه،

أيدي كبار علمائها، وصنف في كثير من العلوم، ومن مصنفاته: الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة، والمفصل في النحو، ومؤلفات أخرى، توفي سنة (٥٣٨هـ).

انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (١٦٨/٥)، وطبقات المفسرين للداودي (٤٤٤/١)، وطبقات المفسرين للسيوطي (١٢٠/١).

(١) تفسير الكشاف (٥٥/٤).

(٢) هو: عبدالرحمن بن نزار السعدي التميمي، مفسر من علماء الحنابلة، ولد في عتيزة سنة (١٣٠٧هـ)، وأول من أنشأ مكتبة فيها، له نحو (٣٠) كتاباً، منها: كتاب تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة مقاصد القرآن، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، وطريق الوصول إلى العلم المأمول من الأصول، وغيرها، توفي سنة (١٣٧٦هـ).

انظر: علماء نجد خلال ستة قرون (٤٢٢/٢)، الأعلام للزركلي (٣٤٠/٣).

(٣) تفسير السعدي (٧٠٦/١).

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٣.

واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه^(١)، هذه بيوت الأنبياء، وهذا ما يُرى عليه الأنبياء، وما يأمر به الأنبياء أبناءهم، ويوصونهم به.

والمتبع لسيرة إبراهيم عليه السلام في القرآن، يجد أنه قد وصّى بنيه بالالتزام بما يأمر الله به، كما فعل هو، ودليل ذلك ما قال تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ {١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ {١٣٢} ﴿^(٢).

فأمره الله بالاستسلام، والانقياد، فأجاب إلى ذلك، ووصى أبناءه بذلك^(٣).

فإيثار أوامر الله، وتقديمها على كل شيء، أمرٌ لا بد أن يربي عليه الآباء الأبناء، والأب هو خير قدوة لأبنائه في ذلك.

فمن تربي على الإيمان بالله، وتقديس أوامره، ينشأ مطيعاً لربه، منقاداً إليه، مطيعاً لوالديه، متحملاً ما يلقي من تعب ومشقة.

وقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل أن يجعل من ذريته أمة مسلمة مستسلمة منقادة، مطيعة له سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾^(٤).

وهذا الدعاء من إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فدعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه، المتضمن لانقياد الجوارح^(٥).

فمن تربي على طاعة الله، وتقديم أمره على كل محبوب من نفسٍ أو مالٍ، أولدٍ،

(١) انظر: التحرير والتنوير (٦٥/٢٣).

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٣١ - ١٣٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٨٦/١).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٥) انظر: تفسير ابن سعدي (٦٦/١).

وصدق مع الله في ذلك، فإن الله سيرزقه حسن العاقبة، فهذا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، صدقا مع الله ﷻ، وتحملا هذا الكرب، وهذا البلاء، سعياً منهن في امثال أمر ربهما، فجعل الله لهما حسن العاقبة، فأبقى الله لإبراهيم ﷺ ولده، وفداه بذبح عظيم، ورفع ذكره في الأولين والآخرين، وأصبحت قدوة في الخير، والله سبحانه لا تضره معصية العبد، كما لا تنفعه طاعته^(١)، فمراد الله ﷻ من العباد ومطلوبه منهم تقوى قلوبهم، واستسلام جوارحهم، فهذا هو إبراهيم ﷻ استسلم لأمر الله له بذبح ابنه، واستسلم إسماعيل ﷻ للذبح، ففدى الله ﷻ هذا الابن بذبح عظيم.

فإن من عزم على فعل الطاعات، وبذل مقدوره في أسبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها، فإن أجره قد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مهاجره، وكما ذكره الله في قصة الذبح، وأن الله أتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره، ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر^(٢).

فإن في التزام الطاعة أثراً كبيراً في الإنجاء من المهالك.

(١) كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني» أخرجه

مسلم، كتاب البر والصلة، والآداب، باب: تحريم الظلم جزءاً من الرواية، (٤/١٩٩٤)، رقم الحديث (٢٥٧٧).

(٢) انظر: قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبر، للشيخ السعدي (ص ٤٤).

المطلب الثالث

داود مع ابنه سليمان عليهما السلام

داود عليه السلام، والد نبي الله سليمان عليه السلام، كانا من أعظم أنبياء بني إسرائيل، وقد جمع الله لهما بين النبوة والحكمة، والملك العظيم القوي.

أما داود فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت، والذي اختاره أحد أنبياء بني إسرائيل ملكاً على بني إسرائيل لشجاعته، وقوته وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(١).

وهو الذي قتل جالوت، كما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾^(٢)، فتفوق عليه السلام على الجميع بالشجاعة العظيمة^(٣).

— شيء من فضائل داود عليه السلام في القرآن:

١ - أخبر القرآن عن قوته وشجاعته عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٤).

ويعني بقوله عليه السلام «(ذا الأيدي)»، أي ذو القوة والبطش الشديد في ذات الله، والصبر على طاعته^(٥).

ومما يدل على هذه القوة، هو قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٣) انظر: قصص الأنبياء في القرآن للشيخ السعدي (ص ٧٥).

(٤) سورة ص: الآية ١٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣٦/٢٣).

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ»^(١).

٢- ولما كان داود عليه السلام يستعمل قوته في طاعة الله تعالى، آتاه الله فضلاً عظيماً، قال تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ {١٠} أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {١١}»^(٢) يقول الشوكاني^(٣) في تفسيره:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً» أي: آتيناه بسبب إنبته فضلاً منا على سائر الأنبياء،

واختلف في هذا الفضل على أقوال:

ف قيل النبوة، وقيل الزبور، وقيل العلم، وقيل القوة، كما في قوله: «وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

وقيل تسخير الجبال كما في قوله: «يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ»، وقيل: التوبة، وقيل الحكم بالعدل، كما في قوله تعالى: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ»^(٤).

وقيل: هو إلانة الحديد، وقيل: حسن الصوت»^(٥).

فلما ألان الله الحديد لداود عليه السلام، عمل منه الدروع السابغات.

قال الحسن البصري^(٦)، وقتادة، وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٢) سورة سبأ: الآيات ١٠ - ١١.

(٣) هو: محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني، من كبار علماء اليمن، ولي قضاء صنعاء وتوفي بها (سنة ١٢٥٠هـ) واشتهر بالزهد والورع، وله مؤلفات كثيرة غزيرة ومتنوعة، منها: كتاب تفسير فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. انظر: الأعلام للزركلي (٧٣٦/٦)، وأبجد العلوم (٢٠١/٣).

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

(٥) تفسير فتح القدير (٣١٥/٤).

(٦) هو: الحسن بن يسار أبوسعيد البصري، إمام من أئمة التابعين وكبرائهم، وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه،

بمطرقة ؛ بل كان يفتله بيده مثل الخيوط^(١).

ومعنى سابغات: أي واسعات، ودرع سابغ، تام واسع^(٢).

والسرد في قوله: «وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ» هو الثقب، يقال: سرد الشيء ثقبه، وسرد الجلد: خرزه، وسرد الدرع: نسجها، فشكَّ طرفي كل حلقتين وسَمَّرَها بالمسامير^(٣).

وقال الإمام الراغب^(٤): «(السرد): خَرَزُ ما يَخْشُنُ ويغلظ، كنسج الدرع، وخرز

الجلد، واستعير لنظم الحديد، قال تعالى: «وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ»^(٥).

ومعنى الآية: أن الله أعانه على عمل الدروع من الحديد؛ ليحصن المقاتلة من الأعداء، وأرشدته إلى صنعها، وكيفيتها، فقال: «وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ» أي: لا تدق المسمار فيقلقل في الحلقة، ولا تغلظه فيقسمها^(٦).

وفي موضع آخر يقول تعالى: «وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ»^(٧).

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل عن عمل

وأمه مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ، روى عن ابن عامر، وابن عباس، وغيرهما من الصحابة، وروى عن كبار التابعين، وهو تابعي ثقة مشهود له بالعلم والصلاح، توفي سنة (١١٠هـ) بالبصرة.

انظر: وفيات الأعيان (٧٢/٢)، سير أعلام النبلاء (٤/٥٦٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٥٢٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (١/٢٢٢).

(٣) انظر: المعجم الوسيط (١/٤٢٦).

(٤) هو: أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب، سكن بغداد، قال فيه الذهبي: كان من أذكى المتكلمين توفي (٥٠٢هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠)، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (١٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن (١/٢٣٠).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٥٢٨)، (٣/١٨٨).

(٧) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.

يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(١).

٣- ومن فضائله عليه السلام، اجتهاده في طاعة ربه عز وجل، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٢).

وقال النبي ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه»^(٣).

وهبه الله عز وجل صوتاً عظيماً، فكان إذا سبَّح سبَّحت معه الجبال والطيور، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(٤).

يقول ابن كثير: «وذلك أنه كان تعالى وهبه من الصوت العظيم ما لم يُعطه أحداً، بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء، يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبَّح بكرةً وعشياً»^(٥).

٤- وقد آتاه الله الزبور، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(٦).

وقال أيضاً: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(٧).

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، (٧٣٠/٢) رقم (١٩٦٦).

(٢) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود (١٢٥٧/٣)، رقم الحديث (٣٢٣٨).

(٤) سورة ص: الآية ١٨.

(٥) قصص الأنبياء (ص ٣٢٧).

(٦) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٥٥.

وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١).

وكان داود يكثر من قراءة الزبور وتلاوته، تقرباً إلى الله، وروي عن رسول الله ﷺ أن الله قد خفف على داود قراءة الزبور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «خفف على داود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدأوبه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده»^(٢).

وقيل المراد بالقرآن القراءة، والأصل في هذه اللفظة الجمع، وكل شيء جمعتة فقد قرأته، وقيل: المراد الزبور، وقيل التوراة، وقراءة كل نبي تطلق على كتابه الذي أوحى إليه، وإنما سماه قرآناً للإشارة إلى وقوع المعجزة به كوقوع المعجزة بالقرآن. قال قتادة^(٣): كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة، كلها مواعظ وثناء، وليس فيها حلال ولا حرام^(٤).

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال للصحابي الجليل أبي موسى الأشعري^(٥) رضي الله عنه: «لقد أوتيت مزمراً من مزامير آل داود^(٦) فقد كان من أجمل الصحابة صوتاً بالقرآن، ووردت في الحديث كلمة «آل داود»، ولا يراد آل داود أنفسهم، وإنما يراد داود نفسه عليه السلام. يقول ابن حجر في بيان الحديث:

«قوله: (آل داود) يريد داود نفسه؛ لأنه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود، ولا من

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (١٢٥٦/٣)، رقم (٣٢٣٥).

(٣) هو: قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري، الحافظ العلامة المفسر، كان آية في الحفظ، بجزاً في اللغة وأيام العرب، توفي سنة (١١٧هـ) وقيل: سنة (١١٨هـ)، بواسط في الطاعون.

انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (١٢٢/١)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٥٣/١).

(٤) فتح الباري (٤٥٥/٦). والإتقان في علوم القرآن (١٨٠/١).

(٥) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر، أبو موسى الأشعري، مشهور باسمه وكنيته، قدم المدينة بعد فتح خيبر، استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن، واستعمله عمر على البصرة، واستعمله عثمان على الكوفة، روى عن رسول الله ﷺ وعن الخلفاء الأربعة، ومعاذ، وابن مسعود وغيرهم، وكان حسن الصوت بالقرآن، توفي سنة (٥٠) من الهجرة. انظر: أسد الغابة (٣٢٢/٦)، والإصابة (٢١١/٤).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب: حسن الصوت بالقراءة للقرآن (١٩٢٥/٤)، رقم الحديث (٤٧٦١).

أقاربه، كان أعطي من الصوت ما أعطي... (١)

وهناك رواية أخرى تؤيد هذا القول، فيها التصريح بدادود، وليس آل داود، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود» (٢)

٥- جمع الله لداود عليه السلام بين النبوة والملك، والعلم والحكمة والقضاء، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ (٣)

«أي: قويّناه بوفرة العدد، والعُدُد، ونفوذ السلطان، وإمداده بالتأييد والنصر، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة، أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ، والأمثال، والحض على الآداب، ومكارم الأخلاق، وكان زبوره عليه السلام كله حكماً غرراً ﴿وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ أي: فصل الخِصَامَ بتميز الحق من الباطل، ورفع الشبهة، وإقامة الدلائل، وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق، لا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب» (٤)

٦- وهب الله عز وجل لهذا النبي الكريم ولداً صالحاً جمع الله عز وجل له بين الملك والنبوة، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٥)

٧- جعل الله له من الزلفى والكرامة شيئاً عظيماً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٦)

«أي: وإن له يوم القيامة قربةً، يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور، عن

(١) فتح الباري (٩/٩٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٥٤)، رقم الحديث (٨٦٣١).

(٣) سورة ص: الآية ٢٠.

(٤) تفسير القاسمي (٦/٨٩ - ٩٠).

(٥) سورة ص: الآية ٣٠.

(٦) سورة ص: الآية ٢٥.

يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهلهم وما ولوا»^(١) «^(٢) .

وقد أخبر القرآن عن بعض الخصومات التي قضى فيها دواد النمل^(٣) .

ومن هذه الخصومات التي حكم فيها داود ، وشاركه في الحكم فيها ابنه سليمان النمل^(٤) ، جاء ذلك في القرآن الكريم وفي السنة ، وسيأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله .

وكانت أحكام داود ، وأقضيته النمل^(٥) صائبة ، صحيحة ، كيف لا يكون ذلك وهو النبي المعصوم من الله ﷻ ، فكانت أحكامه وأقضيته تؤدي إلى فصل الخطاب ، وقطع الخلاف وإنهاء النزاع .

قال مجاهد والسدي : فصل الخطاب ، هو إصابة القضاء ، وفهم ذلك^(٦) .

أمر الله ﷻ لداود النمل^(٧) أن يحكم بالحق :

قال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾^(٨) .

﴿ إِنَّا ﴾ أي : الله ﷻ ، ﴿ جَعَلْنَاكَ ﴾ ، أي : آتيناك الملك والحكم ، لتقوم بالدعوة إلى الله ، وتأمر بالمعروف ، وتنهي عن المنكر ، وتسوس الناس بالعدل ، وتحكم بينهم بالحق ، فتخلف بسيرتك هذه من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين^(٩) .

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، لأن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب : فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم (٣/١٤٥٨) ، رقم الحديث (١٨٢٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣١) .

(٤) سورة ص : الآية ٢٦ .

(٥) انظر : تفسير الرازي (٢٦/١٧٤) ، وتفسير القرطبي (١٥/١١٨) .

الله، والضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، فينتج عن ذلك أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١).

وقد دلت هذه الآية الكريمة على إلزام ولاية الأمور أن يحكموا بالحق بين الناس، وهو الحكم بما أنزل الله تعالى في القرآن، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلوا عن سبيل الله، وإذا كان هذا الأمر، وهذا التحذير من الحيدة عن الحكم بالحق، واتباع هوى النفس في الحكم بين الناس، لنبي الله داود عليه أفضل الصلاة والسلام، فولاة الأمر ومن على شاكلتهم أولى بهذا التحذير، وألزم من داود عليه السلام^(٢).

وكما يلزم ولاية الأمر الحكم بالعدل، وبما يرضي الله، يلزم ذلك أيضاً كل من تولى أمور غيره، وكذلك الآباء وجب عليهم ذلك، فهم أولياء، ولهم رعية، فأبي خلاف بين أفرادها وجب على ولي الأسرة حسمه، والحكم فيه بما يرضي الله، وبموجب شرعه، دون اتباع هوى أحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٣).

يقول الرازي في تفسير هذه الآية:

«القوام مبالغة من قائم، والقسط هو العدل، فهذا أمرٌ منه تعالى لجميع المكلفين بأن يكونوا مبالغين في اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل»^(٤).

بين القرآن أن داود عليه السلام تميز بالحكم والقضاء، وأتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

(١) انظر: تفسير الرازي (١٧٥/٢٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٣/٤).

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٤) تفسير الرازي (٥٨/١١).

وقد ذكر القرآن حكيمين قضى فيهما داود عليه السلام:

الأول: الذي بيّنته آيات من سورة الأنبياء، عن خبر الغنم التي نفشت في الزرع، واستدرك ابنه سليمان عليه في الحكم، وسيأتي بيان ذلك في مبحث: سليمان مع أبيه بمشيئة الله تعالى.

والثاني: بيّنته آيات من سورة ص، وهو نبأ الخضمين الذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام ليفصل بينهما.

فلما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك ومقصوداً لذلك، ذكر تعالى نبأ الخضمين^(١).

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ {٢١} إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ {٢٢} إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ {٢٣} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ {٢٤} فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ {٢٥}﴾^(٢).

يقول الإمام الزمخشري عن هذه القصة:

« **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ** ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء

العجبية التي تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه^(٣).

وعبرت الآية عن الرجلين الخصمين بالمفرد **نَبَأُ الْخَضْمِ**، لأن الخصم مصدر، والمصدر لا يثنى، ولا يُجمع، ويخبر به عن المفرد والمثنى والجمع، كالضيف في قوله تعالى:

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٧١١).

(٢) سورة ص: الآيات ٢١ - ٢٥.

(٣) تفسير الكشاف (٤/٨٤).

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(١).

و﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، أي: أن هاذين الخصمين أتوه من أعلى السور ونزلوا إليه، والسور الحائط المرتفع، والمحراب الغرفة؛ لأنهم تسوروا عليه وهو فيها^(٢).

وفي المعجم الوسيط، أن «المحراب» الغرفة، وفسر به قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾^(٣)، والقصر، وفي التنزيل العزيز: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ﴾^(٤)، وصدر البيت، وأكرم موضع فيه، ومقام الإمام من المسجد^(٥).

وللراغب توجيهُ لطيف لتسمية مكان الصلاة محراباً، لأنه مشتق من الحرب، وقد ربط الراغب بين الحرب والمحراب، فقال: «ومحراب المسجد، قيل: سُمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى.

وقيل: سُمي بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حربياً متخلصاً من أشغال الدنيا ومن توزع الخواطر.

وقيل: الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس، ثم اتخذت المساجد، فسُمي صدر المسجد به.

وقيل: بل المحراب أصله في المسجد، وهو اسمٌ خص به صدر المجلس، فسُمي صدر البيت محراباً، تشبيهاً بمحراب المسجد، وكأن هذا أصح^(٦).

ومعنى ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي: تسلق الخصمان سور المحراب، وظهرت عليه،

(١) انظر: تفسير الكشاف (٨٤/٤) والآية من سورة الذاريات: الآية ٢٤.

(٢) انظر: تفسير فتح القدير (٤٢٥/٤).

(٣) سورة مريم: الآية ١١.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٥) المعجم الوسيط (١٦٤/١).

(٦) المفردات في غريب القرآن (١١٢/١).

ونزلا عنه، فدخلوا من السور، ولم يدخلوا من الباب^(١).

وذكر المفسرون أن الخصمين، كانا ملكين في صورة إنسيين بعثهما الله إليه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس الدخول، فتسورا المحراب عليه.

قال النحاس: لا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم ها هنا الملكان.

وقيل: إنهما كانا إنسيين^(٢).

وقد تكررت واو الجماعة في الأفعال: «دخلوا»، «قالوا».

وهما اثنان بدليل قولهما بعد ذلك: «خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ».

وعُبر عن الاثنين بضمير الجمع «تسورا»، «ودخلوا»، «وقالوا»؛ لأن أقل الجمع اثنان، ولهذا قال تسورا، ولم يقل تسورا^(٣).

ولما رأى داود الرجلين، وقد دخلا عليه بهذه الصورة، خاف وفزع منهم، قال تعالى: «فَفَزِعَ مِنْهُمْ»، وقد يقال: وَلَمْ فَزِعْ مِنْهُمَا وَهِيَ خَصْمَانِ؟ لأنه عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ فِي مَحْرَابِهِ، وَدَخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَانٍ، وَمِنْ غَيْرِ بَابِ الدَّخُولِ، وَكَانَ دَخُولُهُمْ عَلَيْهِ لَيْلًا، وَكَانَ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِشَخْصَيْنِ قَدْ تَسَوَّرَا عَلَيْهِ^(٤).

وقالوا: «لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ»، أي نحن شخصان متخاصمان، تحاكمنا إليك بسبب أن أحدنا بغى على الآخر، فاحكم أنت بيننا بالعدل، ولا تجر، وتبعد عن الحق في حكمك^(٥).

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٦٦/١٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٦٦/١٥)، وتفسير فتح القدير (٤٢٥/٤).

(٣) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٤٩٨/٤)، وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل (١٨٢/٣) بتصرف.

(٤) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٤٩٨/٤)، تفسير ابن كثير (٣٢/٤).

(٥) انظر: تفسير زاد المسير (١١٩/٧) بتصرف.

دعوى الخصم وما قاله لداود عليه السلام:

وبعد أن ذكر الخصمان لداود عليه السلام أمرهما، وبيننا له أنهما إنما جاءا للتحاكم إليه، قال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾^(١).

فأشار المتكلم إلى خصمه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ فنص على الأخوة في الدين، أو النسب، أو الصداقة، لأن هذه الأخوة تقتضي عدم البغي والتعدي، وأن البغي إذا صدر عن من كانت هذه صفته كان أعظم لو صدر عن غيره^(٢).

أي: أن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، أي: أنثى من الضأن، ولي نعجة واحدة، ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي: ضمها إليّ، وتنازل لي عنها، حتى أكفلها وتصير ملكاً لي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في الكلام^(٣).

فإن قيل: إن كان المراد بالخصم، ملكان جاءا إلى داود بصورة آدميين، فكيف جاز لهما نسبة البغي إلى أحدهما على الآخر، والادعاء بوجود الخصومة بينهما، وقول أحدهما: لي تسع وتسعون نعجة، وقول الآخر لي نعجة واحدة، ولا حقيقة لشيء مما ادعياه؟ أليس هذا من الكذب الذي لا يجوز نسبه إلى الملائكة، وهما منهم؟

والجواب: أن ما قاله الملكان اللذان جاءا بصورة آدميين، هو تصوير للمسألة وفرض لها، فصوروها في أنفسهم، وكانوا في صورة الأدميين، وذلك كما يقال في تصوير المسائل: زيد له أربعون شاة، وعمرو له أربعون شاة، وأنت تشير إليهما فخلطاهما، وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمرو لا قليل، ولا كثير من الشياة^(٤).

(١) سورة ص: الآية ٢٣.

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٧١١).

(٣) انظر: تفسير فتح القدير (٤/٤٢٦).

(٤) تفسير الكشاف (٤/٨٧).

نبي الله داود يحكم في الدعوى:

قال تعالى مخبراً عما حكم به داود: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾^(١).

أي: قال داود عليه السلام: لقد ظلمك بطلب نعجتك الوحيدة ليضمها إلى نعاجه مع حاجتك الشديدة لها، وغناه هو عنها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي: الشركاء أو الإخوان والأصدقاء المتخالطون في شؤونهم ﴿لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بغى الأعداء، مع أن من واجب خلطتهم وأخوتهم الإنصاف والعدل فيما بينهم، وعدم تعدي بعضهم على حقوق بعض، وهذا في الأقل من حقوق بعضهم على بعض إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: فإنهم لا يبغون، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهم قليل^(٢).

«و» («ما») في ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ للإبهام، وفيه تعجب من قلتهم^(٣).

وقد أخبر القرآن عن داود عليه السلام أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عن داود أنه سأل المدعى عليه أو المتظلم منه، عما يقوله المدعي، وهل يقر بما قاله وادعاه أم لا؟ وهل عنده ما يدفع به دعوى المدعي وتظلمه، فكان ظاهر ذلك أن داود عليه السلام رأى في هذا المتظلم مخايل الضعف والهزيمة، فجعل أمره على أنه مظلوم، ودعاه ذلك أن لا يسأل الخصم الآخر، فقال داود للمتظلم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾^(٤).

امتحان داود عليه السلام بهذه الدعوى:

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ {٢٤} فَعَفَرْنَا

(١) سورة ص: الآية ٢٤.

(٢) انظر: تفسير الكشاف (٨٩/٤)، وتفسير القاسمي (٩٠/٦).

(٣) تفسير الكشاف (٨٩/٤).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٧٧/١٥) بتصرف.

لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿١﴾.

﴿وَزُنَّ﴾ معناه: شعر وعلم، والعرب تعبر بهذه الكلمة عن العلم الذي يقارب اليقين^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَزُنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَتَاهُ﴾ أي: علم داود أن الله تعالى ابتلاه، أي: امتحنه بتلك الدعوى.

واختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه داود عليه السلام على أقوال.

ولعل الراجح منها، ما رجحه أغلب المفسرين بأنه عليه السلام حكم لأحد الخصمين في الدعوى التي دفعها إليه الخصمان قبل أن يستمع إلى حجة الخصم الآخر، وإنما اكتفى باستماع ادعاء المتظلم «المدعي» فقط^(٣).

قال النحاس^(٤): في قوله تعالى ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالٍ نَعَجْتِكَ﴾ يقال: إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من غير تثبيت بينة ولا إقرار من الخصم، هل كان هذا كذا أم لم يكن، وقد قال الإمام القرطبي عن هذا القول الذي ذكره النحاس: وهو حسن إن شاء الله تعالى^(٥).

﴿وَزُنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَتَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ومعنى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: خرّ ساجداً، وقد يعبر عن السجود بالركوع،

(١) سورة ص: الآيات ٢٤ - ٢٥.

(٢) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٥٠١/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٨٠/١٥ - ١٨١).

(٤) هو: أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبوجعفر النحاس، مفسر، أديب، مولده ووفاته بمصر، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، زار العراق واجتمع بعلمائه، وصنف تفسير القرآن، وإعراب القرآن، وتفسير أبيات سيبويه، وناسخ القرآن ومنسوخه، ومعاني القرآن، الجزء الأول منه، وشرح المعلقات السبع.

انظر: الوافي بالوفيات (١٨٦/٣)، وبغية الوعاة (٣٨٦/١)، والأعلام للزركلي (٢٠٨/١).

(٥) تفسير القرطبي (١٧٥/١٥).

﴿وَأَنَابَ﴾ أي: تاب إلى الله من كل ذنب^(١).

فقد وصفه الله ﷻ في القرآن بأنه أواب، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
أي: تواب، فكان داود رجّاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر، وهو أهلٌ أن يُقتدى به^(٢).

وقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآيات قصة، وهي من الإسرائيليات المكذوبة تبين
سبب قدوم الخصمين لداود ﷺ.
يقول ابن كثير في تفسيره:

«قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن
المعصوم حديثٌ يجب اتباعه... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرد علمها
إلى الله ﷻ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حقٌ أيضاً»^(٣).

وللمفسرين في هذا النبا أقوالٌ عديدة، ووجوهٌ متنوعة مرجعها إلى مذهبين:

- ١ - مذهب من يرى أنها تشير - تعريضاً - إلى وزر ألمّ به داود ﷺ، ثم غُفر له.
- ٢ - ومذهب من يرى أنها حكومة في خصمين لا إشعار لها بذلك^(٤).

فمن ذهب إلى الأول: ابن جرير - رحمه الله - فإنه قال:

«هذا مثلٌ ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه، وذلك أن داود كانت له فيما قيل
تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل - الذي أغزاه حتى قُتل - امرأة واحدة، فلما قُتل نكح
فيما ذكر داود امرأته ثم لما قضى للخصمين بما قضى علم أنه ابتلى، فسأل غفران ذنبه، وخر
ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه، وتاب من خطيئته»^(٥).

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨٢/١٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥٨/١٥ - ١٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٢/٤).

(٤) انظر: تفسير القاسمي (٩١/٦).

(٥) تفسير الطبري (١٤٣/٢٣).

وأما المذهب الثاني: فهو ما جزم به ابن حزم^(١) في الفصل، فقال:

«ما حكاه الله تعالى عن داود عليه السلام قولٌ صادقٌ صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون، المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك الخضم قوماً من بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية.

ومن قال: إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل، وقوله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذب الله عز وجل، وأمر على نفسه أنه كذب الملائكة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ﴾ فقال هؤلاء: لم يكونا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له: أكفلنيها، فأعجب لما يقحمون في الباطل أنفسهم؟ ونعوذ بالله من الخذلان.

ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردة، وتالله إن كل امرئٍ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره، ثم يُعرض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، وهذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين، لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود عليه الصلاة والسلام، الذي أوحى إليه كتابه، وأجرى على لسانه كلامه؟

لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر بهذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله، وأما

(١) هو: أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي، ولد بقرطبة من بلاد الأندلس في رمضان سنة (٣٨٤هـ)، وكان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، ومن مؤلفاته: الفصل، والمحلى بالآثار في شرح المحلى بالاختصار في الكتاب والسنة، ومداواة النفوس، والإحكام في أصول الأحكام، وغيرها، توفي سنة (٤٥٦هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٣/٣٢٥)، سير أعلام النبلاء (١٨/١٨٤).

استغفاره وخروره ساجداً، ومغفرة الله له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال
الكريمة، والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي، ولا من مذنب ولا من غير
مذنب»^(١).

(١) الفصل في الملل (٤/١٤ - ١٥).

المطلب الرابع

يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام

لم يذكر القرآن من قصة يعقوب عليه السلام شيء من التفصيل سوى خبره مع ابنه يوسف، وحزنه على فراقه، فقد ورد ذكر يعقوب عليه السلام في القرآن في عدة مواضع منه.

أما نسبه فهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام^(١).

وبدأ خبر يوسف عليه السلام مع أبيه في السورة بذكر قول يوسف عليه السلام لوالده، وحديثه معه حول رؤيا رآها في المنام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٢).

﴿إِذْ﴾ «منصوب على الظرفية بفعل مقدر، أي: اذكر وقت قال يوسف»^(٣).

ويوسف هو أحد أبناء يعقوب الاثني عشر الذين ورد خبرهم في سورة يوسف، وكان يوسف أحب أبناء يعقوب عليهما السلام إليه، فكان يعقوب يحبه حباً مفرطاً^(٤).

وفي الآية نداء، وهو نداء يوسف لأبيه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾، ووجود النداء بالرغم من أن المنادي «يعقوب» حاضراً، دليل على الاهتمام بالخبر الذي سيلقى إلى المخاطب، فأنزله منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام^(٥).

وقول يوسف ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا النومية، أي: أنه رأى في منامه هذا الأمر، وليس

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤٦٩/٢).

(٢) سورة يوسف: الآية ٤.

(٣) تفسير فتح القدير (٥/٣).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١١ - ١٢).

(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٣/١٢).

من الرؤيا البصرية، بدليل قول يعقوب له بعد ذلك: ﴿لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ﴾^(١).

و«الرؤيا» هي ما يُرى في المنام، على وزن فُعلى^(٢).

فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة^(٣).

«وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام، أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر، عبارة عن أمه وأبيه، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(٤)»^(٥).

وما هروع يوسف عليه السلام لوالده وقصَّ رؤياه عليه رغم صغر سنه، إلا دليلٌ على العلاقة الأبوية القوية التي تربطه مع ابنه يوسف.

خشية يعقوب عليه السلام على ابنه يوسف:

أخبر القرآن عن قول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، والتي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً، وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته، فيحسدونه على ذلك، ويبغون له الغلائل^(٦)، قال له: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٧).

(١) انظر: تفسير فتح القدير (٥/٣).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (٢٠٩/١) مادة (رأى).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٣٩٣/١).

(٤) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٥) تفسير ابن كثير (٤٦٩/٢).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٤٧٠/٢).

(٧) سورة يوسف: الآية ٥.

وُبني: تصغير ابن^(١).

«ولما خاطب يوسف أباه بقوله: يا أبتِ، وفيه إظهار الطواعية والبر، والتنبيه على محل الشفقة بطبع الأبوة، خاطبه أبوه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ تصغير التحبيب، والتقريب، والشفقة^(٢). ومن هذا الأمر من يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام بكتمان الأمر، وعدم ذكره بعد أن علم ما تُنبئ به هذه الرؤيا من رفعة ينالها يوسف عليه السلام، يؤخذ الأمر بكتمان النعمة، وعدم بيانها، والحديث عنها حتى توجد وتظهر، وخصوصاً ممن يخشى غلائله^(٣). وقد علم يعقوب عليه السلام فضل يوسف على بقية أبنائه، فهو يفضلهم خلقاً، وخلُقاً، فخشي إن هم علموا بهذه الرؤية، وقصها يوسف عليهم أن تشتد بهم الغيرة، وتصل بهم إلى حد الحسد^(٤).

وعرف يعقوب أيضاً، أن الله يصطفيه للنبوة، وينعم عليه بشرف الدارين، لذا حذره من أن يخبر بها أحداً لخشيته عليه^(٥).

ومعنى الكيد في قوله تعالى عن يعقوب: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ هو الاحتيال.

يقول الراغب في المفردات:

«الكيد: ضربٌ من الاحتيال، وقد يكون مذموماً، وممدوحاً، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر»^(٦).

وقال: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، ولم يقل: «فيكيدوك»؛ لأنه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع الفعل المضمن، فيكون أكد وأبلغ في التخويف، لذلك جاء

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١٧).

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/٢٨١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٧٠) بتصرف.

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١٧).

(٥) انظر: تفسير النسفي (٢/١٧٨).

(٦) المفردات في غريب القرآن (١/٤٤٣).

تأكيده بالمصدر بعد ذلك (كيداً)^(١).

«وتنوين (كيداً) للتعظيم والتهويل ، وزيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم»^(٢).

وهذا القول من يعقوب عليه السلام لابنه تحذيراً له ، مع حرصه عليه السلام بأن التحذير ليوسف لا يثير في نفسه كراهية لإخوته ؛ لما يعلم ما يتصف به من كمال العقل ، وصفاء السريرة ، ومكارم الأخلاق ؛ ولأنه من كانت هذه صفاته ، وهذا حاله ، كان مسامحاً ، عازراً ، ومعرضاً عن الزلات ، عالماً بأثر الصبر في رفعة الشأن.

وقد قال أحد ابني آدم عليه السلام لأخيه الذي قال له لأقتلنك حسداً: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) ، فليس هناك إشكال من تحذير يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام من كيد إخوته ، ولذلك عقب كلامه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ، وذلك ليعلم يوسف أنهم لو أقدموا على الكيد كان ذلك مضافاً إلى الشيطان ، وأنه ما حذره إلا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته^(٤).

وجملة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مستأنفة ، واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على إخوته ، والشيطان عدو ظاهر العداوة ، فإنه لا يألو جهداً في إغوائهم ، وإضلالهم وحملهم على فعل ما لا خير فيه^(٥) ، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها الشيطان على العبد أولى^(٦).

إعلام يعقوب عليه السلام لابنه يوسف باصطفاء الله له:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ

(١) انظر: تفسير النسفي (١٧٨/٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/١٢).

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٨/١٢) وتفسير الرازي (٧٢/١٨).

(٥) انظر: تفسير أبي السعود (٢٥٣/٤).

(٦) انظر: تفسير السعدي (٣٩٤/١).

عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

هذا الكلام معطوف على تحذير يعقوب لابنه يوسف من قص الرؤيا على إخوته ليعلمه بإتمام نعمة الله عليه، فكما اجتنابه لمثل هذه الرؤيا الدالة على نعمة عظيمة يحظى بها يوسف عليه السلام، كذلك يجتبيك ربك لأمر عظام بعد ذلك ^(١).

والاجتناب: هو الاختيار، والاصطفاء ^(٢).

واجتناب الله ليوسف، أي: اختياره من بين خلقه.

وقيل: إن اجتناب الله تعالى للعبد، هو أن يخصه بنعم من عنده، ليحصل له منها أنواع من المكرمات، من دون سعي من العبد، وذلك مختص بالأنبياء عليهم السلام، ومن يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين ^(٣).

وإنما لم يصرح يعقوب عليه السلام بتفاصيل ما دلت عليه الرؤيا، حذراً منه عليه السلام لئلا تزداد، وهذا من شدة حرصه وخوفه على يوسف ^(٤).

وفي هذا دليل على أن يعقوب عليه السلام علم من تأويل هذه الرؤيا أن يوسف سيظهر عليهم، فلم يبالي يعقوب بذلك من نفسه، فإن الأب يود أن يكون ابنه خيراً منه، أما الأخ فلا يود أن يكون أخاه خيراً منه ^(٥).

واختلف العلماء في المراد بتأويل الأحاديث من قول يعقوب عليه السلام ليوسف: ﴿وَيُعَلِّمُكَ

مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

(١) سورة يوسف: الآية ٦.

(٢) انظر: تفسير الكشاف (٤١٩/٢).

(٣) انظر: لسان العرب (١٣١/١٤)، مادة (ج ب ي).

(٤) انظر: تفسير روح المعاني (١٨٥/١٢).

(٥) انظر: تفسير روح المعاني (١٨٥/١٢) بتصرف.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٢٧/٩).

فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بذلك تعبير الرؤيا، فالأحاديث على هذا القول هي الرؤيا، لأنها إما حديث نفس أو ملك، أو شيطان.

وقد كان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا، ويدل على هذا ما جاء في كتاب الله خبراً عنه بعلمه بتأويل الرؤيا كقوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(١).

وقوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾^(٢) عندما أول رؤية الملك.

وقال بعض العلماء: المراد بتأويل الأحاديث، معرفة معاني كتب الله وسنن الأنبياء، يفسرها، ويشرحها ويبين ما غمض وما اشتبه على الناس من أغراضها وأحكامها.

وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله، فيقال: قال الله كذا، وقال رسوله كذا، لذا فإن الله يقول: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾^(٣)، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

ودليل هذا الرأي هو قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٥)، وقوله عنه أيضاً: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾^(٦).

ويظهر أن ما دلت عليه هذه الآيات أن معنى قول يعقوب لابنه يوسف: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تشمل ذلك كله من تأويل الرؤيا، وعلوم كتب الله، وسنن أنبيائه، والله

(١) سورة يوسف: الآية ٤١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٧.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٤) سورة المرسلات: الآية ٥٠.

(٥) سورة يوسف: الآية ٢٢.

(٦) سورة يوسف: الآية ٣٧.

تعالى أعلم^(١).

و﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾ هم الأولاد، والقراة التي من نسله، وإتمام النعمة عليهم بأن يجعل فيهم النبوة. وإتمام النعمة على يوسف بإعطائه أفضل النعم، وهي نعمة النبوة، والملك الذي نال، مع النبوة والرسالة^(٢).

من دلائل خشية يعقوب على ابنه يوسف وشدة محبته له:

١- قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ {١١} أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {١٢} قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {١٣}﴾^(٣).

دلت هذه الآيات على أن يعقوب عليه السلام، كان لا يأذن ليوسف عليه السلام بالخروج للرعي أو سبق مع إخوته، خوفاً عليه من أن يصيبه سوءٌ منهم، أو من غيرهم، وإن لم يكن يعقوب عليه السلام يصرح لأبنائه بأنه لا يأمنهم عليه، إلا أن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه، وقد كان يعقوب عليه السلام يحب تطيب قلب يوسف، فسمح له بالذهاب معهم^(٤).

فذهابهم به، ومفارقتهم إياه مما يحزنه؛ لأنه يفارقه فلا يراه، وذلك لأن يعقوب كان لا يصبر عن يوسف ساعة لشدة محبته له. وكذلك خوفه عليه من أن يعتدي عليه الذئب، إذا غفلوا عنه بالرعي والاستباق، فهذه الأسباب التي اعتذر بها يعقوب إلى أبنائه ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به^(٥).

٢- أسفه على يوسف، وتجدد حزنه عليه، بتجدد الأحداث:

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٢/٢٠٢ - ٢٠٣).

(٢) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٣/٢٢١).

(٣) سورة يوسف: الآيات ١١ - ١٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٢/٢٨)، وتفسير الرازي (١٨/٧٧).

(٥) انظر: تفسير الكشاف (٢/٤٢٣)، وتفسير القاسمي (٤/٣٥٠).

قال تعالى عن قول يعقوب: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْنَيْصَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ {٨٤} قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ {٨٥} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {٨٦} يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ {٨٧}﴾^(١).

وذلك أن يعقوب عليه السلام لما بلغه خبر ابنه بنيامين تمام حزنه، وجدد الله مصيبتَه في يوسف، حتى إنه لم يذكر بنيامين، وإنما ذكر يوسف، وقال ﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾^(٢). وقد قال حين جاءه أبناؤه بخبر ابنه بنيامين أنه سرق، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ﴾^(٣).

فقال لهم كقوله حين زعموا أن يوسف أكله الذئب، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب، فظن أن فعلتهم هذه كفعلتهم بيوسف^(٤).

يقول الطبري في معنى الأسف: الأسف هو أشد الحزن، والتندم^(٥).

ونداء الأسف مجازاً: فقد نزل الأسف منزلة من يعقل^(٦).

وذكر الزمخشري في تفسيره سؤالاً:

«... كيف تأسف يعقوب على يوسف دون أخيه، والرزء^(٧) الأحدث أشد على النفس،

وأظهر أثراً؟

(١) سورة يوسف: الآيات ٨٤ - ٨٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٧/٩).

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٣.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤٨٨/٢).

(٥) تفسير الطبري (٣٨/١٣).

(٦) انظر: التحرير والتنوير (١٠٨/١٢).

(٧) الرزء: المصيبة بفقد الأعبة، انظر: كتاب النهاية (٢١٨/٢) مادة: (رزأ).

وجواب ذلك : أن في هذا دليل على تمادي أسفه على يوسف ، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ، وأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً ، ولأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده ، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به^(١).

ومن أحوال يعقوب التي وصفه بها القرآن في حال فراق يوسف ، قوله تعالى :
﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

وابيضاض العينين : ضعف البصر ، وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال ، ولذلك عبّر بقوله ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ دون عميت عيناه^(٢).

وهل ذهب بصره أم لا؟ للمفسرين في ذلك قولان :

أحدهما : أنه ذهب بصره.

والثاني : ضعف بصره لبياض تغشاه من كثرة البكاء^(٣).

وابيضاض عينيه إنما كان بسبب الحزن على يوسف ، والحزن سبب للبكاء ، والبكاء سبب لابيضاض عينيه ، فإن العبرة^(٤) إذا كثرت محقت سواد العين ، وقلبتة إلى بياض كدر ، فأقيم سبب السبب - وهو الحزن - مقام البكاء لظهوره^(٥).

وقيل : إن الابيضاض كناية عن العمى ، فيكون يعقوب عليه السلام قد ذهب بصره بالكلية ، واختاره أبوحيان^(٦) في تفسيره مستدلاً على ذلك بقوله تعالى : ﴿فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾^(١)^(٢).

(١) تفسير الكشاف (٢/٤٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/١٠٨).

(٣) انظر: زاد المسير (٤/٢٧٠).

(٤) العبرة: بالفتح جريان الدمع. انظر: مختار الصحاح، باب العين (١/١٧٢).

(٥) انظر: روح المعاني (١٣/٤٠).

(٦) هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أبوحيان الأندلسي، المفسر المؤرخ صاحب المصنفات الكثيرة، من أهمها: البحر المحيط، والنهر الماد من البحر، وهو مختصر للبحر المحيط، وعقد اللآلئ في القراءات، ولد سنة (٦٥٤هـ)، وتوفي سنة (٧٤٥هـ).

﴿وَكَظِيمٌ﴾ أي: مكظوم، مملوء من الحزن ممسك عليه، لا يبثه لأحد^(٣).

يقول النحاس: «كظيم، وكاظم، أي: حزين لا يشكو حزنه»^(٤).

ومنه كظم الغيظ، وهو إخفاؤه، كقوله تعالى: ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(٥).

محاورة أبناء يعقوب له عندما سمعوا قوله: ﴿يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾:

قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْهَالِكِينَ﴾ «والتاء حرف قسم، وهو عوض عن واو القسم»^(٦).

ومعنى قولهم: أي لا تزال تذكر يوسف، و﴿لَا﴾ مضمرة تأويلها تالله لا تفتأ، و﴿لَا﴾ قد

تضمير مع الأيمان^(٧).

والمقصود من هذا اليمين هو الإشفاق عليه، بأنه سيصير إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه

مصيبة يوسف^(٨).

﴿والحرص﴾ «مصدر، وأصل الحرص الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو الهرم»^(٩).

ومقصود من قال له ذلك هو الإنكار عليه لصدده عن مداومة ذكر يوسف على لسانه؛

انظر: بغية الوعاة (١/٢٨٠)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٦/٥٨).

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٥/٣٣٣).

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٦.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٩/٢٤٩).

(٤) معاني القرآن للنحاس (٣/٤٥٣).

(٥) انظر: تفسير فتح القدير (٣/٤٨)، والآية من سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٦) التحرير والتنوير (١٢/١٠٩).

(٧) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/٥٤).

(٨) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١٠٩).

(٩) تفسير فتح القدير (٣/٤٩).

لأن ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضوره في ذهنه^(١).

وأجابهم يعقوب بما قالوا له بقوله^(٢): «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ».

والبث: هو الهم الشديد، وهو أصعب ما يلقي المرء من الهم^(٣).

ومراد يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو إلى أحد من أبنائه، أو ذويه، إنما يشكو إلى الله تعالى داعياً له، وملتجئاً إليه، وشاكياً له^(٤).

وقد كان يعقوب عليه السلام يعلم من إحسان الله تعالى، ما يوجب حسن الظن به، بحسن العاقبة له، لذلك قال: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^(٥).

لذا فإن يعقوب عليه السلام النبي الكريم، لم ييأس من روح الله، وأمر بنيه بالبحث عن يوسف، قال تعالى عما قاله يعقوب لبنيه: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»^(٦).

والتحسس، بالحاء: هو تحسس الخبر، وتطلبه، وتبحثه^(٧).

فإنه لما شعر يعقوب عليه السلام بقرب وجدان يوسف ولقائه به بناءً على الرؤيا الصادقة التي رآها يوسف، وما تستلزمه من لقائه به، وسجوده، وسجود إخوته له، قال لبنيه: اذهبوا إلى الأرض التي جئتم منها، فتحسسوا خبراً من أخبار يوسف، واستعلموا بعض أخباره وأخبار أخيه «وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»، أي: من فرجه، ورحمته المريحة من الشدة، فإنه «إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» بالله وبرحمته وقدرته على إفاضة رحماته بعد

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١٠٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٨٩).

(٣) انظر: الكشاف (٢/٤٧٠).

(٤) انظر: المرجع السابق.

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٩/٢٥١).

(٦) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٧) انظر: لسان العرب (٦/٥٠) مادة: (ح س س).

مُضي المدة في الشدة، وسنته في إفاضة اليسر مع العسر، لا سيما في حق من أحسن الظن به^(١).

تبشير يوسف ﷺ لأبيه بحياته:

قال تعالى عما قاله يوسف لإخوته: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).

أراد يوسف ﷺ تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بإرسال قميصه إليه، وإلقائه على وجهه بمعنى المبالغة في تقريب القميص منه ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، أي: يصير بصيراً، ويقال: المراد يأتي إليّ وهو بصير، وإنما أفردته بالذكر تعظيماً له، وقال في الباقيين ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: بجميع بني يعقوب^(٣).

يعقوب ﷺ يجد ريح يوسف، قبل مجيء البشير إليه:

أمر يوسف إخوته بأخذ قميصه إلى حيث أبيه، وهناك يلقون القميص على وجه يعقوب، ليرتد بصيراً، ويذهب الله عنه ما كان في عينيه جراء حزنه على يوسف.

ولما خرج ركب أبناء يعقوب من مصر^(٤)، شمَّ يعقوب ﷺ رائحة يوسف، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ {٩٤} قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ {٩٥}﴾^(٥).

ومعنى فصلت، أي: خرجت منطلقاً من مصر حيث يوسف، إلى الشام حيث يعقوب عليهما السلام، والعيروهي العير التي أقبلوا فيها^(٦).

(١) انظر: تفسير الرازي (١٥٨/١٨)، تفسير القاسمي (٣٩١/٤ - ٣٩٢).

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٣.

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٦٥/١٨)، وتفسير ابن كثير (٤٩٠/٢).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤٩٠/٢).

(٥) سورة يوسف: الآيات ٩٤ - ٩٥.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٢٥٩/٩).

حينها قال ﴿أَبُوهُمْ﴾ أي: يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده: إني أشم رائحة يوسف ^(١) ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾.

«والتفنيذ: هو نسبة الإنسان إلى الفند، وهو ضعف الرأي» ^(٢).

ومراد يعقوب: لولا تفنيذكم إياي، ولولا أن تنسبوني إلى ضعف الرأي، والهرم والحرف، لصدقتموني، أو لقلت إن يوسف قريب مكانه، أو لقاؤه ^(٣).

ووجدان يعقوب ريح يوسف عليهما السلام، إلهام خارق للعادة، جعله الله بشارة له ^(٤).

وقال له من كان عنده من ذويه وحفدته: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، أي: تالله إنك لفي خطئك القديم، وحبك القديم ليوسف لا تنساه، ولا تسلو عن ذكره، وإنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ^(٥).

بشارة يعقوب بيوسف عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٦).

فلما جاء المخبر بما يسره من أمر يوسف، طرح البشير القميص على وجه يعقوب، فعاد بصره ^(٧).

(١) انظر: تفسير الرازي (١٦٦/١٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٣٨٦/١).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني (٥٤/١٣).

(٤) التحرير والتنوير (١١٥/١٢).

(٥) انظر: تفسير الرازي (١٦٦/١٨).

(٦) سورة يوسف: الآية ٩٦.

(٧) انظر: تفسير الرازي (١٦٦/١٨).

عند ذلك قال يعقوب: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ويحتمل أن يكون خطاب يعقوب هذا لمن كان عنده من قبل، حين قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، ويريد قوله لهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾^(١)، يقول الألوسي^(٢): «وهذا الاحتمال هو الأنسب بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»^(٣).

وصول يعقوب وأهله إلى يوسف:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(٤).

رحل يعقوب بأهله أجمعين، وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ﴾، أي: ضمهما، واعتنقهما، وأظهر الحفاوة بهما.

وقيل في المراد بأبويه قولان:

الأول: المراد أبوه، وأمه، وعلى هذا القول، قيل إن أمه ما زالت على قيد الحياة إلى ذلك الوقت.

الثاني: أن المراد أبوه وخالته، لأن أمه ماتت حين أنجبت أخاه بنيامين، ولما ماتت أمه

(١) انظر: تفسير روح المعاني (٥٥/١٣).

(٢) هو: محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء، من أهل بغداد، ولد فيها سنة (١٢١٧هـ) كان سلفي الاعتقاد، قُلب الإفتاء ببلده ثم عزل، وانقطع للعلم، له العديد من المصنفات، ومن كتبه، روح المعاني في التفسير، وغرائب الاغتراب، ودقائق التفسير، والرسالة اللاهوتية، توفي ببغداد سنة (١٢٧٠هـ).

انظر: هدية العارفين (٤١٨ / ٢)، والأعلام (١٧٦/٧).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني (٥٥/١٣).

(٤) سورة يوسف: الآية ٩٩.

تزوج يعقوب بخالته ، فسمها الله بأحد الأبوين ؛ لأن الرابة تدعى أما لقيامها مقام الأم ، أو لأن الخالة أم كما أن العم أب^(١) .

ويقول ابن كثير في تفسيره الآية :

«وقد أشكل قوله : ﴿أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ على كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ، ومعنى الكلام ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وأوى إليه أبويه ورفعهما على العرش»^(٢) .

وقد رد ابن جرير الطبري هذا القول ، واختار القول : بأن يوسف أوى إليه أبويه لما تلقاهما ، ثم لما وصلوا باب البلد قال : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(٣) .

تحقق رؤيا يوسف ﷺ:

قال تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(٤) .

أجلس يوسف أبويه معه على العرش ، أي : على السرير الذي كان يجلس عليه ، وسجد أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً ، وقال يوسف لأبيه : ﴿يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : التي رآها يوسف من قبل ، وقصها على أبيه .

وقد كان هذا السجود سائغاً في شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم ﷺ إلى شريعة عيسى ﷺ ، فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بالله ﷻ ؛ ولأن هذا كان جائزاً في شريعتهم ، خروا له سجداً تعظيماً وإجلالاً وتكريماً

(١) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٢٨١/٣)، وتفسير الرازي (١٦٨/١٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٩١/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣ - ٦٦).

(٤) سورة يوسف : الآية ١٠٠ .

له^(١).

لما رأى يوسف هذه الحال، ورأى سجودهم له، قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

وذلك حين رأى أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها، وهذا
ما آل إليه أمر رؤيائي، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤٩٢/٢).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٤٠٥/١)، وتفسير ابن كثير (٤٩٢/٢).

المطلب الخامس

دعاء زكريا وإبراهيم بالذرية الصالحة

أنبياء الله بشر كغيرهم من البشر، أودع الله فيهم ما أودع في جنس البشر، وفطرهم على ما فطر عليه البشر، وحب الأبناء والذرية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والذرية نعمة وزينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١)، وهي هبة من الله ﷻ، يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِمَّا نثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ {٤٩} أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ {٥٠}﴾^(٢).

فقد وهب لنبية لوط عليها السلام البنات فقط، ووهب لإبراهيم الخليل عليه السلام البنين فقط، قال البغوي^(٣): «لم يولد له أنثى».

ووهب البنين والبنات لمحمد ﷺ، وبعض النبيين لم يولد لهم، كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام^(٤).

فالذرية منحة وعطاء من الله ﷻ للبشر، والأنبياء من جملتهم، وهناك من الأنبياء من رُزق الذرية، ومنهم من مُنع الذرية حتى كبر سنه وأصبح شيخاً كبيراً لا يُولد مثله، كإبراهيم وزكريا عليهما السلام.

وحين خرج إبراهيم خليل الرحمن مهاجراً من بلده، هاجراً لأهله ولقومه، ذاهباً إلى ربه، قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^(٥).

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.

(٢) سورة الشورى: الآيات ٤٩ - ٥٠.

(٣) هو الحسين بن مسعود بن محمد أبو محمد البغوي، يلقب بمحيي السنة، وركن الدين، كان إماماً في التفسير والحديث والفقه، ومن مصنفاته: معالم التنزيل في التفسير المشهور بتفسير البغوي، وشرح السنة، والجمع بين الصحيحين، توفي سنة ٥١٦ هـ. انظر: وفيات الأعيان (٢/١٣٦)، وطبقات المفسرين للداودي (١/١٥٨).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٢٢)، وتفسير القرطبي (١٦/٤٩).

(٥) سورة الصافات: الآية ٩٩.

فقال ذلك بعد أن نصره الله تعالى على قومه ، وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظام ، فهاجر من بين أظهرهم^(١).

وبعد الهجرة تاقت نفسه للولد ، فدعا الله أن يعضده بولدٍ يأنس به في غربته^(٢) ، فقال :
﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

وعبر بلفظ الهبة ، ذلك لأن الهبة يغلب في الولد^(٤).

يقول ابن كثير في تفسيره للآية :

«يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم»^(٥).

وحين سأل إبراهيم ربه الذرية ، خص دعاءه بأن تكون ذرية صالحة ، فلم يسأل ربه الذرية لمجرد الإنجاب والمنفعة الدنيوية فحسب ، فهو نبي الله وخليله ، تتوق نفسه لأعظم من ذلك ، فهو يريد ذرية صالحة ، تعمر الأرض بعبادة الله وتوحيده.

يقول الطبري في تفسيره للآية : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ :

«قال يا رب هب لي منك ولداً يكون من الصالحين الذين يطيعونك ولا يعصونك ويصلحون في الأرض ولا يفسدون»^(٦).

فاستجاب الله دعاءه كما أخبر القرآن بذلك ، وبشره بالولد ، قال تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُ

بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^{(٧)(٨)}.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٥/٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩٨/١٥).

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٠.

(٤) انظر: تفسير الرازي (١٣٢/٢٦) ، وتفسير أبي السعود (١٩٩/٧) ، وتفسير البيضاوي (٢٠/٥).

(٥) تفسير ابن كثير (١٥/٤).

(٦) تفسير الطبري (٧٦/٢٣).

(٧) سورة الصافات: الآية ١٠١.

(٨) انظر: تفسير السعدي (٧٠٦/١).

وقد اشتملت هذه البشارة على ثلاثة أشياء :

أن الولد سيكون ذكراً ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليماً^(١).

وأيضاً فإن إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾^(٢) ، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(٣).

فبين الله سبحانه أن ولده موصوف بالحلم ، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة ، وحين دعا إبراهيم بالذرية سأل ربه أن تكون سالحة ؛ لأن الصلاح أفضل الصفات ، بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾^(٤) ، فحين طلب الولد قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

وكذلك نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام طلب من الله الصلاح بعد كمال درجته في الدين والدنيا ، فقال : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٥) ، وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد^(٦).

ومن بركة دعائه أن بشره الله بغلام عليم ، وهو إسحاق عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾^(٧) ، وقال : ﴿ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾^(٨) ، وقال : ﴿ وَبَشِّرْناه بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٩).

(١) انظر: تفسير الرازي (١٣٢/٢٦) ، تفسير الكشاف (٥٥/٤).

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٣) سورة هود: الآية ٧٥.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

(٥) سورة النمل: الآية ١٩.

(٦) انظر: تفسير الرازي (١٣٢/٢٦).

(٧) سورة الحجر الآية ٥٣.

(٨) سورة الذاريات الآية ٢٨.

(٩) سورة الصافات الآية ١١٢.

وقبل ذلك كان دعاء إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ»، فجاءت البشارة بإسماعيل («الغلام الحليم») ثم عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وأنه من الصالحين^(١)، كما وصف إسماعيل من قبل.

ثم إن إبراهيم عليه السلام حمدَ ربه عز وجل على ما رزقه من الولد، وقد استجاب دعاءه فيما سأله من الذرية الصالحة^(٢)، حين قال: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ»^(٣).

يقول الزمخشري في تفسيره للآية:

«... وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس، وذلك من أجل النعم، وأحلاها في نفس من ظفر بذلك. ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم»^(٤).

والدعاء مخ العبادة، فهو عبادة كما فعلها الأنبياء، قال تعالى عن إبراهيم: «رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ»^(٥) أي عبادتي^(٦).

دعاء زكريا عليه السلام بالذرية الطيبة:

قال تعالى عن نبيه زكريا عليه السلام حين دعاه وسأله ذرية طيبة: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ»^(٧).

(١) سورة الصافات: الآية ١١٢. انظر: تفسير ابن كثير (٢٠/٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥٤٢/٢).

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣٩.

(٤) تفسير الكشاف (٥٢٦/٢).

(٥) سورة إبراهيم: الآية ٤٠.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (٣٧٥/٩).

(٧) سورة آل عمران: الآية ٣٨.

وزكريا هو: زكريا بن برخيا، ويقال بن دان، نبي من أنبياء بني إسرائيل، يرجع نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام^(١).

و﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف يستعمل للزمان وللمكان، وهناك للمكان، واللام للدلالة على البعد، والكاف للخطاب، والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم ابنة عمران^(٢).

وخبر زكريا ﷺ هذا، جاء في غضون حديث القرآن عن قصة مريم، وذلك لأنه دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة، لما رأى مريم وما آتاها الله من الكرامات ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾^(٣).

يقول ابن عطية^(٤) في تفسيره:

«في الوقت الذي رأى زكريا رزق الله لمريم ومكانتها منه، وفكر في أنها جاءت أمها بعد أن أسنت، وأن الله تقبلها، وجعلها من الصالحات، تحرك أمله لطلب الولد، وقوي رجاؤه... فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة»^(٥).

وجاء الطلب بلفظ الهبة:

«لأن الهبة إحسان محض، ليس في مقابله شيء، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد،

(١) انظر: البداية والنهاية (٤٧/٢).

(٢) انظر: تفسير فتح القدير (٣٣٦/١).

(٣) انظر: فتح القدير (٣٣٧/١).

(٤) هو: أبو محمد، عبدالحق بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية، من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس غيلان من مضر، كان فقيهاً عالماً بالتفسير، والأحكام، والحديث، والفقه والنحو واللغة والأدب، تولى القضاء، فكان غاية في الدهاء، والذكاء، متوخياً للحق والعدل في الحكم، ألف كتاب: المحرر الوجيز في التفسير، فأحسن فيه وأبدع وضمنه مروياته وأسماء شيوخه، وله شعر حسن، توفي سنة (٥٤١هـ).

انظر: المعين في طبقات المحدثين (١٦٠/١)، والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١٧٤/١)، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (١٢٩/١).

(٥) تفسير المحرر الوجيز (٤٢٧/١).

لكبر سنه ، ولا للوالدة ؛ لكونها عاقراً لا تلد»^(١).

«والهبة : هي تملك الشيء من غير ثمن ، وقد سمى الله تعالى ذلك هبة على وجه المجاز ؛ لأنه لم تكن هناك هبة على الحقيقة ، إذ لم يكن تملك شيء ، وقد كان الولد حراً لا يقع فيه تملك ، ولكنه لما أراد أن يخلص الولد له على ما أراد من عبادة الله ووراثته للنبوته والعلم : أطلق عليه لفظ الهبة ، كما سمى الله تعالى بذل النفس للجهد في سبيل الله شراء ، وهو تعالى مالك الجميع من الأنفس والأموال ، قبل أن يجاهدوا وبعده ، وسمى ذلك شراءً لما أولاهم عليه من الثواب الجزيل»^(٢).

فطلب زكريا للولد ، واجتهاده في الدعاء لذلك ، لم يكن من أجل الدنيا ، وإنما من أجل مصلحة الدين ، لذا قال تعالى عنه في سورة مريم : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ { ٥ } يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾^(٣).

والتعبير بـ ﴿ لَدُنْكَ ﴾ دون التعبير بـ «من عندك» ؛ لأن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة ، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب ، كان المعنى أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة ، وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من الأسباب^(٤).

وقد كان دعاء زكريا ﷺ ربه في سورة آل عمران مجملاً ، ولكنه ذكر بشيء من التفصيل في مطلع سورة مريم ، قال تعالى : ﴿ كَهَيْعِصْ { ١ } ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا { ٢ } إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا { ٣ } قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا { ٤ } وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا { ٥ } يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ

(١) تفسير روح المعاني (٣/١٤٤).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٢/٢٩٢).

(٣) سورة مريم : الآيات ٥ - ٦.

(٤) انظر : تفسير الرازي (٨/٣٠).

رَضِيًّا {٦} ﴿١﴾.

بدأت الآيات الكريمة بـ «كهيعص» وهي: من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور، وقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية أن هذا الذي يتلى، هو ذكر الله رحمته التي رحم بها عبده زكريا عليه السلام (٢).

و «ذِكْرٌ» خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ذكر رحمة ربك عبده.

و «عَبْدُهُ» مفعول به منصوب، للمصدر «رحمة» (٣).

وفي «زكريا» قراءتان:

الأولى: قراءة حمزة والكسائي وحفص: «زَكْرِيَّا» بالقصر.

الثانية: قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر «زكرياء» بالمد والهمز (٤).

أما عن كيفية دعاء زكريا عليه السلام فقد أخبر عنها القرآن في قوله تعالى: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا».

فقد أثنى الله صلى الله عليه وسلم عليه بأن دعاءه كان خفياً (٥).

قال بعض المفسرين:

«إنما أخفى زكريا عليه السلام دعاءه لئلا يُنسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، وقال آخرون:

إنما إخفاه؛ لأنه أحب إلى الله» (٦).

(١) سورة مريم: الآية ١ - ٦.

(٢) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٥٩).

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٥٩).

(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (١/٢٢).

(٥) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٥٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٣/١١١).

قال قتادة في هذه الآية: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا»: «إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي»^(١).

فدل ذلك على أن إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه، وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرحاً به في قوله تعالى: «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً»^(٢).

وقوله: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»^(٣).

وإنما كان الإخفاء أفضل؛ لأن ذلك أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء^(٤).

وذكر الطبري في دعائه وندائه لربه تعالى ضعفه، وشيخوخته: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»^(٥)، وهذه الآية مستأنفة، مفسرة النداء لبيان حال زكريا وبيانا لدعائه^(٦).

والمراد، أي: ضعفت عظامي وخارت قواي، وإسناد ذلك إلى العظم لما أنه عماد البدن، ودعام الجسد، فإذا أصابه الضعف والرخاوة تداعى ما وراءه، وتساقطت قواه^(٧).

«وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا»: الاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده^(٨).

وهذا التشبيه أُخرج مخرج الاستعارة بالكناية، فالمستعار: الاشتعال، والمستعار منه:

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٥.

(٤) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٥٩).

(٥) سورة مريم: الآية ٤.

(٦) انظر: تفسير روح المعاني: (١٦/٥٩).

(٧) انظر: تفسير روح المعاني (١٦/٥٩)، وتفسير الكشاف (٦/٣).

(٨) انظر: تفسير فتح القدير (٣/٣٢١).

النار، والمستعار له: الشيب، والجمع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النار لبياض الشيب. وأصل الكلام: «واشتعل شيب الرأس» وإنما قلب للمبالغة؛ لأنه يستفاد منه عموم الشيب لجميع الرأس، فلو جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك العموم^(١).

«وهذه الاستعارة من أبداع الاستعارات وأحسنها»^(٢).

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة^(٣).

وفيه من إظهار الضعف ما يدل على أنه ينبغي للداعي إظهار الضعف والخشية والخشوع في دعائه^(٤).

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، أي: ولم أعهد منك ربي إلا إجابة الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك^(٥).

وهذا أيضاً أدب من آداب الدعاء، في دعاء زكريا عليه السلام، وهو حُسن ظنه بالله وإيقانه بالإجابة. ودعائه لله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته^(٦).

بأنه لم يخيب عبده زكريا في وقت من أوقات عمره الطويل، بل إنه كلما دعاه استجاب له، وهذا توسل منه عليه الصلاة والسلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة، فإنه تعالى بعد أن عود عبده بالإجابة دهرًا طويلاً لا يكاد يخيبه أبداً، وخصوصاً عند اضطراره وشدة افتقاره^(٧).

وقد أخبر عليه السلام في دعائه عن سبب طلبه للولد، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٤٣٥/٣).

(٢) تفسير فتح القدير (٣٢١/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١١٢/٣).

(٤) انظر: تفسير أضواء البيان (٣٦١/٣).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١١٢/٣).

(٦) انظر: تفسير أبي السعود (٢٥٤/٥).

(٧) انظر: تفسير أبي السعود (٢٥٣/٥ - ٢٥٤).

وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا^(١).

الموالي : هنا هم الأقارب وبنو العم ، والعصبة : الذين يلونهم في النسب ، والعرب تسمي بني العم الموالي^(٢).

ومعنى ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ : من بعدي^(٣).

فقد كان النبي ﷺ يخاف من مواليه ، وهم عصبته ، إخوته وبنو عمه أن يغيروا ويبدلوا في الدين ، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب ولداً من صلبه صالحاً يقتدى به في إحياء الدين ، ويقوم به من بعده حق القيام^(٤).

وهو النبي ﷺ لا وارث له من صلبه ، لأن امرأته عاقر ، أي : لا تلد ، من حين شبابها إلى شبيها^(٥).

وقال الإمام الرازي :

«وفي الإخبار عنه بلفظ الماضي ﴿وَكَانَتْ﴾ إعلام بتقادم العهد في ذلك. وغرض زكريا ﷺ من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد. فكان إيراد بلفظ الماضي أقوى»^(٦).

أي : أقوى في الدلالة ، فهي أي امرأته عاقر منذ شبابها ، فكيف بها الآن وقد بلغت من الكبر عتياً.

ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره للآية ، وعن لماذا خاف زكريا مواليه وأقاربه بعد وفاته ، وفي ماذا يرثه ابنه الولي أولاً :

(١) سورة مريم : الآية ٥.

(٢) انظر : تفسير القرطبي (١١/٨٧).

(٣) انظر : تفسير أضواء البيان (٣/٣٦١).

(٤) انظر : تفسير الكشاف (٣/٦).

(٥) انظر : تفسير روح المعاني (١٦/٦٢).

(٦) تفسير الرازي (٢١/١٥٦).

«أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه.

«الثاني» أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً،

يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا.

«الثالث» أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة»^(١) «^(٢)».

ولذلك أراد زكريا عليه السلام بالوراثة، الوراثة في النبوة، لذلك قال: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»^(٣).

وإن قول زكريا عليه السلام: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» هو كقوله تعالى عن وراثة سليمان لابنه داود عليهما السلام: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ»^(٤)، أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته^(٥).

فعني عليه السلام بالوراثة، وراثة النبوة والعلم، والفضيلة، دون المال، فالمال لا قدر له عند

(١) جزء من الرواية، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب: قول النبي لا نورث ما تركنا صدقة، (٢٤٧٤/٦)، رقم الحديث (٦٣٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١١٢/٣).

(٣) سورة مريم: الآية ٦.

(٤) سورة النمل: الآية ١٦.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١١٢/٣).

الأنبياء، حتى يتنافسوا فيه، بل قلما يقتنون المال ويملكونه^(١).

ودعا ﷺ أن يكون هذا الولد رضيعاً، فقال: «وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيئاً» «أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه»^(٢).

والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة^(٣).

وفي سورة الأنبياء يرد ذكر الدعاء الذي نادى به زكريا ﷺ وهو قوله تعالى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»^(٤).

فهذه ثلاثة مواضع من ثلاثة سور، أخبر فيها القرآن عن دعاء زكريا ﷺ بالولد الصالح، جمعت هذه المواضع حقيقة الدعاء ومقاصده، فقوله في سورة مريم: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» يعني: بهذا الولي الولد خاصة دون غيره من الأولياء، بدليل أنه قال في القصة نفسها في سورة آل عمران: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً»^(٥).

وأشار إلى أنه الولد أيضاً بقوله: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»^(٦).

فقوله «لَا تَذَرْنِي فَرْدًا» أي: واحداً بلا ولد^(٧).

ويقول الألوسي في معنى قوله: «وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (٥١٩/١) مادة: «ورث».

(٢) تفسير ابن كثير (١١٢/٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨٠/١١).

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٣٨.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

(٧) انظر: تفسير أضواء البيان (٣٦٥/٣).

«وفيه مدح له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استعطار لسحائب لطفه ﷺ»^(١).

استجابة المولى ﷺ لدعاء نبيه زكريا ﷺ بالذرية الطيبة:

قال تعالى في سورة آل عمران: «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ»^(٢).

وقال في سورة مريم: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا»^(٣).

وقال سبحانه في سورة الأنبياء: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ»^(٤).

ففي الموضع الأول من سورة آل عمران يخبر القرآن أن الملائكة نادت على زكريا ﷺ وهو يصلي في المحراب، وبشرته بشاره عظيمة، فخاطبته الملائكة مشافهة خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومناجاته وصلاته^(٥).

«وفي الكلام حذف تقديره فتقبل الله دعاءه، ووهب له يحيى، وبعث إليه الملائكة بذلك فنادته»^(٦).

والتعبير في الآية بالفاء «فَنَادَتْهُ» يدل على التعقيب، كما قال تعالى في سورة الأنبياء:

(١) تفسير روح المعاني (١٧/٨٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

(٣) سورة مريم: الآية ٧.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٦١ - ٣٦٢).

(٦) تفسير البحر المحيط (٢/٤٦٤).

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾^(١).

ومن تمام النعمة على زكريا عليه السلام أن الله بشره بالولد، في قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾، وقد سماه الله قبل أن يولد، قال تعالى: ﴿نَ الْاَللهِ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، وقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾^(٢).

وكذلك وصفه الله بالصفات الطيبة التي كان يرجوها نبي الله زكريا عليه السلام حين دعا ربه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾^(٣).

فمدح الله هذا الغلام بأنه سيد، وحضور، ومصداق بكلمة من الله، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذه بشارة بنبوته يحيى قبل ولادته^(٤)، وأنه من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء وهو من جملتهم^(٥).

وفي الموضع الآخر من سورة مريم: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾^(٦).

وقد تضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء:

الأولى: إجابة الله دعائه، وهي كرامة من الله عز وجل له.

الثاني: إعطاؤه الولد.

الثالث: تسمية الله عز وجل له، فمن الله عليه ولم يكل تسميته إلى الأبوين^(٧).

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣١/٢) بتصرف.

(٢) انظر: تفسير الرازي (٣١/٨)، تفسير المحرر الوجيز (٤٢٩/١).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٣/١) بتصرف.

(٥) انظر: تفسير الكشاف (٣٨٨/١).

(٦) سورة مريم: الآية ٧.

(٧) انظر: تفسير القرطبي (١١/٨٢ - ٨٣).

وفي الموضع الثالث في سورة الأنبياء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(١).

أفادت هذه الآية: أن المولى ﷺ قد استجاب دعاء زكريا عليه السلام، ووهبه يحيى وأصلح له زوجته.

وقال أكثر المفسرين: المراد بإصلاح زوجه، أنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً^(٢). وهذا من تمام نعمة الله على نبيه زكريا عليه السلام.

ما دعا به زكريا عليه السلام بعد هذه البشارة:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ {٤٠} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {٤١}﴾^(٣).

وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ {٨} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ {٩} قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ {١٠} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ {١١}﴾^(٤).

دعا زكريا ربه أن يرزقه الولد؛ فاستجاب الله دعاءه، وجاءته الملائكة تبشره بغلام يرث النبوة والعلم عنه، وبعد أن جاءته البشارة، وتحققت لزكريا عليه السلام دعوته، تعجب من ذلك، فقال متعجباً، وشاكراً لله جل وعلا على هذه النعمة^(٥): ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٢) انظر: تفسير فتح القدير (٤٢٥/٣).

(٣) سورة آل عمران: الآيات ٤٠ - ٤١.

(٤) سورة مريم: الآيات ٨ - ١١.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٣/١) بتصرف.

بَلَّغْنِي الْكِبْرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ.

«والكبر: كبر الرجل يكبر، إذا أسن، قال ابن عباس: كان يوم بشر بالولد ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته بنت تسعين وثمان»^(١).

والله تعالى أعلم بحقيقة سنه، وسن زوجته، والذي أخبر به القرآن أنهما بلغا من السن مبلغاً كبيراً.

واستفهام زكريا عليه السلام في قوله: «أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ»، هو استفهام استخبار، واستعلام؛ لأنه عليه السلام لا يعلم هل الله يأتيه بالولد من زوجه العجوز على كبر سنهما على سبيل خرق العادة، أو أنه سيأمره بأن يتزوج امرأة شابة، أو يردهما شابين. فاستفهم عليه السلام عن الحقيقة ليعلمها، ولا إشكال في هذا، وقد يكون استفهامه استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى^(٢).

يقول السعدي في تفسيره: «قال زكريا من شدة فرحه: «رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَّغْنِي الْكِبْرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ»، وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد فكيف وقد اجتمعا»^(٣).

فأخبر الله تعالى بقوله: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

وقال في سورة مريم: «قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكْ شَيْئاً»، وقوله تعالى: «كَذَلِكَ» للعلماء في إعرابها أوجه:

الوجه الأول: أنه خبر لمبتدأ محذوف وتقديره «الأمر كذلك»، ولا محالة أن تلد الغلام، وقيل: «الأمر كذلك» وأنت كبير في السن، وامرأتك عاقرة، وعلى هذا فقوله: «قَالَ رَبُّكَ» ابتداء الكلام، أي أن الله يوجد هذا الولد منك ومن زوجتك هذه، كما أنتما.

(١) تفسير الرازي (٣٥/٨).

(٢) انظر: تفسير أضواء البيان (٣٦٩/٣).

(٣) تفسير السعدي (١٣٠/١).

الوجه الثاني: أن «كَذَلِكَ» في محل نصب بد«قال»، وعليه فالإشارة بقوله: «كَذَلِكَ» إلى مبهم يفسره قوله: «هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ»^(١).
وقوله تعالى: «قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

أي أن الله يفعل ما يشاء، وهو ما وصف به نفسه جل وعلا، أنه هين عليه أن يخلق الولد من الكبير المسن الذي يئس من الولد، ومن المرأة العاقر التي لا يرجى من مثلها الولادة، فكما خلقك يا زكريا من قبل خلق الولد منك ولم تك شيئاً، فإنه قادرٌ سبحانه على خلق هذا الولد على حالكما؛ لأن الله لا يتعذر عليه خلق شيء أرادته، فقدرته الله تعالى لا يشبهها قدرة^(٢).
يقول القرطبي: «... كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئاً موجوداً، فهو القادر على خلق يحيى وإيماده»^(٣).

زكريا يطلب من الله تعالى آية على ذلك:

قال تعالى: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ»^(٤).

وقال سبحانه: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا» {١٠} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {١١}»^(٥).

طلب زكريا عليه السلام «آية» من ربه عز وجل، أي: علامة يعرف بها الحمل، ليتلقى هذه النعمة إذا جاءت بالشكر^(٦).

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٧٠)، وتفسير ابن كثير (٣/١١٣)، وتفسير المحرر الوجيز (١/٤٣١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/٢٥٨).

(٣) تفسير القرطبي (١١/٨٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٤١.

(٥) سورة مريم: الآيات ١٠ - ١١.

(٦) انظر: تفسير الكشاف (١/٣٨٨).

ولقد ذكر بعض المفسرين أن زكريا عليه السلام شك في هذا النداء، لما سمع بالبشارة بيحيى، فثك أن تكون وسوسة شيطانية، فطلب الآية، أي: العلامة الدالة على أن هذه البشارة وحي من الله، وليس وسوسة الشيطان^(١).

وهذا الرأي مستبعد وغير صحيح؛ لأنه لا يجوز أن يشك النبي في الوحي، ويظن أنه وسوسة من الشيطان، ولأنه لا يلتبس على نبي الله زكريا نداء الملائكة بندا الشيطان^(٢).

وقد أعطى الله صلى الله عليه وسلم زكريا عليه السلام آية وعلامة:

قال تعالى: ﴿قَالَ آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، وقال: ﴿قَالَ آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

أجاب الله تعالى زكريا فيما طلبه، وأعطاه الآية الدالة على وجود الولد منه، قال له المولى: ﴿آيَتِكَ﴾ أي: علامتك.

أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليالٍ وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، فكان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة^(٣).

يقول الزمخشري في تفسيره:

«... قال علامتك أن تمتنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح، سوي الخلق، ما بك خرس ولا بكم، ودل ذكر الليالي هنا - أي في سورة مريم، والأيام في سورة آل عمران - على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن»^(٤).

وفي هذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها إلا رمزاً، أي

(١) هذا القول ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٧/٣).

(٢) انظر: تفسير أضواء البيان (٣٦٩/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٣٦/١)، (١١٣/٣).

(٤) تفسير الكشاف (٩/٣).

إشارة، ولهذا قال: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي الذي بُشِّر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي إشارة خفيفة وسريعة ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

موافقةً له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة، زيادة على أعماله شكراً لله تعالى على ما أولاه وما أعطاه من هذه النعمة الجليلة، وهي نعمة الولد الصالح^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١١٤).

الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا المبحث:

١ - في سيرة إبراهيم عليه السلام أجل الفوائد، وأعظم العبر، وقد قص القرآن سيرته مع أبيه، وقومه، وأهله، وكلها مملوءة بالعبر، والتأسي بسيرته أمرٌ قد أمر به المولى جل وعلا في كتابه، حيث قال: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»^(١).

٢ - إن والد إبراهيم عليه السلام كان كافراً، عدوً لله، ورغم أن والده كان كذلك، إلا أنه عليه السلام لم يتأثر به، ولم يتأثر قط ببيئته الكافرة، فقد بصّر الله جل وعلا بالحق، وهداه إلى التوحيد الخالص، قال تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ»^(٢).

٣ - كان إبراهيم عليه السلام مثلاً للابن البار الرحيم، كما جاء بذلك القرآن الكريم، وقد دعا والده إلى التوحيد، ونبذ عبادة ما سوى الله ﷻ سالكاً معه أحسن الأساليب، فلم يصفه بالجهل، أو يصف نفسه بالعلم، بل كان مترفقاً به، يناديه بصفة الأبوة، بكل رفقٍ وبكل لين، مصاحباً له بالمعروف، مقابلاً للإساءة بالإحسان، كما في قوله له: «سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي».

٤ - حب الأبناء والشفقة عليهم من الأمور الغريزية، والتي أوجدها الله جل وعلا في نفوس البشر، فلا يؤاخذ الله عليها، وإنما يؤاخذ الله تعالى على تقديم هذا الحب، وهذه الشفقة على طاعته سبحانه، وإيثارها وتفضيلها على حب الله، واتباع أوامره واجتناب نواهيه.

فلما أمر الله ﷻ إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه لما بلغ معه السعي، معيناً له على أعماله، لم يكن منه إلا المسارعة إلى تقديم أمر الله، ومحبته على محبة ولده.

(١) سورة المتحنة: الآية ٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥١.

٥- إن من أكبر نعم الله ﷻ على عبده أن يرزقه العلم، قال تعالى عن داود وابنه سليمان عليهما السلام: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»^(١)، وفي الآية دليل على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله على غيرهم.

٦- أن مرتبة الحكم والفصل بين الرعايا من الأمور التي تولاها أنبياء الله ورسله، كداود وسليمان، وعلى القائم بها الحكم بالحق، وأن لا يتبع الهوى كما أمر الله داود ﷺ بقوله: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ»^(٢).

٧- إن الابتلاء والامتحان سنة من سنن الله في خلقه، وقد ابتلي أكرم الخلق، وهم الأنبياء، إلا أن الله جعل العاقبة الطيبة للصابرين، كما كانت عاقبة يعقوب مع ابنه يوسف، فقد ابتلي يعقوب في أحب ولده إليه، يوسف عليهما السلام، ثم بفقد أخيه، وابتلي في بصره، وهو في ذلك كله صابر محتسب، يردد بلسانه وبقلبه: «فَصَبِّرْ جَمِيلًا»، ولا يشكو حزنه وهمه إلا إلى الله «قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»، ثم جاء الفرج بعد الشدة، وجمع الله يعقوب بابنه يوسف، وبأخيه، وببقية أبنائه، وردَّ عليه بصره، وكل ذلك كان من عاقبة الصبر الجميل.

ولنا في أنبياء الله الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة، فالتأسي بهم في مثل الوقائع أمرٌ ندبنا إليه رب العزة حيث قال في مطلع خبر يعقوب مع ابنه يوسف: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ»^(٣).

وقال: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ»^(٤).

٨- الدعاء هو مخ العبادة^(٥)، لذلك كل من اشتهى الذرية من الأنبياء لجأ إلى هذه

(١) سورة النمل: الآية ١٥.

(٢) انظر: قصص الأنبياء وما فيها من العبر (ص ٨٦) بتصرف، والآية من سورة ص: الآية ٢٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٧.

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٣٥٧/٩).

العبادة، أي: الدعاء، بأن يرزقهم الله الذرية الطيبة.

ونبي الله إبراهيم وزكريا عليهما السلام بالرغم من أنهم سألوا الله الذرية، وقد وصلوا إلى عمر كبير، إلا أنهم أحووا في دعائهم على أن تكون الذرية طيبة سالحة، فلم يكن طلب الذرية مجرد الحاجة إليها فحسب، بل لإمداد الأمة بأولادٍ صالحين.

المبحث الثاني: أمهات الأنبياء

وفيه ثلاث مطالب:

١- إسحاق عليه السلام وبشارة أمه به.

٢- والدة موسى عليه السلام.

٣- مريم بنت عمران مع ابنها عيسى عليه السلام.

المطلب الأول

إسحاق عليه السلام وبشارة أمه به

أم إسحاق عليه السلام هي: سارة زوج نبي الله الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ذكرت في كتاب الله وَعَلَىٰ، وتحدث عنها القرآن حين ذكر البشارة لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولها بإسحاق، وذكر القرآن هذا الحدث العظيم في حياة نبيه وخليله إبراهيم وزوجته سارة، وأشار إليه في أكثر من موضع، فهي زوجة نبي وهو إبراهيم، وأم نبي، وهو إسحاق، وجدة نبي، وهو يعقوب، وأم جد نبي، وهو يوسف عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وهذا يدل على عظم شأنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ {٦٩} فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ {٧٠} وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {٧١} قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْغِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ {٧٢} قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ {٧٣}﴾^(١).

ذكرت الآيات مجيء الملائكة الكرام لإبراهيم عليه السلام، وسوف يأتي الحديث عن ضيافة إبراهيم لهم في الفصل الأخير من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وذكرت أيضاً ما جاءت من أجله رسل الله، وهم الملائكة «ليخبروا به إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وفي هذا الخبر جاء الحديث عن سارة زوجة إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وامراته﴾ وامرأة إبراهيم هذه هي سارة بنت هاران بن ناحور، وهو - إي إبراهيم بن

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ - ٧٣.

آزر بن ناحور - فهي ابنة عمه»^(١).

وبين الله في هذه الآيات حال سارة، حين جاءت الرسل بالبشارة، وكانوا ضيوفاً على إبراهيم عليه السلام، فذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة وهو عجل حنيد، وبما أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام، ولا يشتهونه، ولا يأكلونه، ولهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، عند ذلك نكرهم، وأوجس منهم خيفة، قالوا - أي الملائكة - لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة^(٢)، واختلف المفسرون في ضحكها، فجمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه الضحك المعروف، واختلف في سببه:

فقيل: ضحكت استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم، وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

قال قتادة: ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة^(٣).

وقيل: إنها ضحكت، وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا إكراماً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا^(٤).

وقيل: ضحكت بسبب زوال الخوف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ حيث قالت الملائكة: «لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط» فعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه^(٥).

وقيل: إنها ضحكت من البشارة بالولد، وهذا يتنافى مع سياق الآيات في قوله: «فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب».

ويقول ابن كثير: «قال وهب بن منبه، إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق، وهذا مخالف

(١) تفسير المحرر الوجيز (٣/١٨٩)، وتفسير الطبري (١/٧١)، تفسير الرازي (١٨/٢١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٥٢ - ٤٥٣)، تفسير القرطبي (٩/٧٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٤٥٣).

(٤) تفسير الطبري (١٢/٧٢).

(٥) تفسير الرازي (١٨/٢١)، الكشاف (٢/٣٨٨).

لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها^(١).

والبعض الآخر ذهب إلى أن معنى «فضحكت»: فحاضت.

وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، وقال الجمهور هو الضحك المعروف، وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم^(٢).

وكانت سارة قائمة لقوله تعالى عنها: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ وهذا بيان من الله تعالى لحالها.

ف قيل: كانت قائمة من وراء الستر تستمع كلام الرسل، وكلام إبراهيم عليه السلام.

وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل، وإبراهيم جالس مع الرسل^(٣)، وكان إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة لتخدمهم^(٤).

وأخبر عنها عليها السلام بقوله: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ فيقول سبحانه: أن بشرنا سارة امرأة إبراهيم ثواباً منا لها على نكيرها وعجبها من فعل قوم لوط بإسحاق ولداً لهما، ومن وراء إسحاق يعقوب، أي: ومن خلف إسحاق يعقوب من ابنها إسحاق، والوراء في كلام العرب ولد الولد.

وقيل: إنها كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم زوجها عليه السلام ابن مائة سنة^(٥).

لذلك قالت بعد أن سمعت بالبشارة: ﴿يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وفي قولها تعجباً مما سمعت: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ أنها لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة ترد على ألسنة النساء إذا طراً عليهن ما يعجبن منه، ولذا عجت من الولادة وهي في هذه السن، وزوجها شيخ كبير؛ لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة

(١) تفسير ابن كثير (٤٥٣/٢).

(٢) تفسير القرطبي (٦٦/٩).

(٣) تفسير الطبري (٧١/١٢)، تفسير الرازي (٢١/١٨).

(٤) الدر المنثور (٤٤٨/٤).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٧٤/١٢ - ٧٦)، تفسير القرطبي (٧٠/٩).

مستغرب ومستنكر^(١) ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ عجيب أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله^(٢).

وفي ذلك يقول الرازي- رحمه الله -: «أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة، لا بحسب القدرة، فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهباً خالصاً؛ فلا شك أنه سيتعجب نظراً إلى أحوال العادة، لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك»^(٣).

فقال الملائكة الكرام حين تعجبت من الخبر: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

قالوا منكرين عليها، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة، ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات، ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل، فضلاً عما نشأت وشابت في ملاحظة الآيات^(٤).

وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها؛ لأنها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة، فكان عليها أن تتوقر، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به، يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجب، «وأمروا الله» في الآية قدرته وحكمته، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم^(٥).

إنه سبحانه ﴿حميد مجيد﴾ أي إن الله محمود في تفضله عليكم بما تفضل به من النعم

(١) تفسير القرطبي (٦٩/٩).

(٢) انظر: الكشاف (٣٨٨/٢).

(٣) تفسير الرازي (٢٣/١٨).

(٤) تفسير البيضاوي (٢٤٦/٣).

(٥) تفسير الكشاف (٣٨٨/٢ - ٣٨٩).

عليكم ، وعلى سائر خلقه ، ومجيد سبحانه ، ذو مجد ومدح وثناء كريم^(١) .

هذا ما ورد عنها عليها السلام في سورة هود ، وأما ما ورد عنها في سورة الذاريات ، فيقول تعالى ذكره : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ { ٢٤ } إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ { ٢٥ } فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ { ٢٦ } فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ { ٢٧ } فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ { ٢٨ } فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ { ٢٩ } قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ { ٣٠ } ﴾^(٢) .

في هذه الآيات بيانٌ أيضاً لحال سارة زوج إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما جاءتهم الملائكة الكرام ، فبدأت الآيات بقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وفيها استفهام ، وهو للتفخيم والتهويل ، وضيف إبراهيم هم الملائكة الكرام الذين جاءوا ليبشروه بالولد ، وبإهلاك قوم لوط عليه السلام^(٣) . لذا قال الله تعالى في البشارة بالولد : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ، والبشارة بالولد لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بشارة أيضاً لسارة ؛ لأن الولد منهما فكل منهما يبشر به^(٤) .

فأخبر تعالى عن موقف سارة عندما سمعت بالبشارة بقوله : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا ﴾ ويعني بقوله امرأته : سارة ، وليس في ذلك إقبال ، نقله من موضع إلى موضع ، ولا تحول من مكان إلى مكان ، وإنما هو كقول القائل أقبل يشتمني ، بمعنى أخذ في شتمي^(٥) .

ومعنى أنها اقبلت في صرة : يعني في صيحة ، فعن ابن عباس قال : فأقبلت امرأته في صرة

(١) تفسير الطبري (٧٧/١٢) .

(٢) سورة الذاريات : الآيات ٢٤ - ٣٠ .

(٣) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٦٩) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٧) .

(٥) انظر : تفسير الطبري (٢٦/٢٠٩) ، فتح القدير (٥/٨٨) ، القرطبي (١٧/٤٦) .

فصكت وجهها، يعني بالصرة الصحيحة، ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته^(١).

واختلف المفسرون في معنى صكها، والموضع الذي ضربته من وجهها، فقال بعضهم: معنى صكها وجهها: لطمها إياه، وقيل: إن صكها وجهها أن جمعت أصابعها فضربت بها جبهتها^(٢).

فلطمت ببسط يديها، وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب، أنا عجوز فكيف ألد؟، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل^(٣)، فقالت متعجبة ﴿عجوز عقيم﴾ كما قالت في سورة هود ﴿أألد وأنا عجوز﴾^(٤).

قالوا - يعني الملائكة - : ﴿كذلك قال ربك﴾ فهذا قول الملائكة الكرام لزوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ قالت لهم، وقد بشروها بغلام عليم أتلد عجوز عقيم، والعقيم التي ليس لها ولد، قالوا لها هكذا قال ربك كما أخبرناك، وقلنا لك فهو سبحانه الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، وبما كان، وبما هو كائن^(٥).

وقد كانت هذه البشارة بإسحاق عليه الصلاة والسلام، من الملائكة لإبراهيم وسارة، لما مرروا بهم مجتازين، ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم^(٦).

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ {٥١} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ {٥٢} قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ {٥٣} قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِي الْكَبِيرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ {٥٤} قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ {٥٥} قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩/٢٦)، تفسير ابن كثير (٢٣٧/٤)، الفرطبي (٤٦/١٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠٩/٢٦ - ٢١٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢٣٧/٤)، الكشاف (٤٠٥/٤).

(٤) انظر: تفسير الفرطبي بتصرف (٤٧/١٧).

(٥) تفسير الطبري (١/٢٧).

(٦) انظر: قصص الأنبياء وأخبار الماضين خلاصة تاريخ ابن كثير (ص ١٨٥).

الضَّالُّونَ {٥٦} ﴿١﴾.

فالخطاب في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾ هو من الله تعالى للنبي محمد ﷺ، والمراد أخبر عبادي يا محمد عن ضيف إبراهيم، ويعني الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم خليل الرحمن حين أرسلهم ربهم إلى قوم لوط ليهلكوهم^(٢).

وفي هذه الآيات مزيد بيان لما جرى لإبراهيم ﷺ مع أضيافه، فقد دخلوا عليه في صورة بشرية، وأعد لهم طعاماً، وقربه إليهم، فلم يأكلوا منه، فخاف منهم، قال تعالى عن إبراهيم ﷺ، وعن إظهاره لحوفه: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ فقال إبراهيم: «إنا منكم خائفون».

فقال الضيف لإبراهيم: لا توجل، أي لا تخف إنا نبشرك بسلام عليم^(٣)، أي إسحاق ﷺ، والضيف اسم للواحد، والاثنين والجمع، مثل الوزن، والقطر، والعدل، فلذلك جمع خبره وهو لفظ واحد، ولأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية، والمذكر والمؤنث^(٤).

قال إبراهيم ﷺ: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِمْ تُبَشِّرُونَ﴾ قال ذلك متعجباً من كبره، وكبر زوجته، ومتحققاً للوعد، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، فقالوا: ﴿بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾، فأجابهم ﷺ بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك^(٥).

فبين لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أنه ليس قانطاً من رحمة الله ﷻ، لذلك قال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، يعني لم يستنكر ذلك قنوطاً من رحمته،

(١) سورة الحجر: الآيات ٥١ - ٥٦.

(٢) انظر: الطبري (٣٩/١٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣٩/١٤)، القرطبي (٣٥/١٠)، تفسير ابن كثير (٥٥٥/٢).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٥٥٥/٢).

ولكنه استبعاد له في العادة التي أجراها الله^(١)، وذلك لكبر سنه، ليس لأنه قنط من رحمة الله^(٢)، فالأنبياء مقامهم أرفع من ذلك، وهم أعرف الناس بالله ﷻ، فلا يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب^(٣).

وقد أصدقهما الله وعده، وتحققت البشارة بإسحاق عليه الصلاة والسلام، فهو ابن سارة زوج إبراهيم عليهم السلام أجمعين، ورزق إسحاق بيعقوب، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٤).

يقول ابن كثير رحمه الله: «دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب، أي يولد في حياتها، لتقر أعينها به، كما قرت بولده، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب، وتخصيص التنصيص عليه دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عُين بالذكر، دل على أنهما يتمتعان به، ويسران بولده، كما سرا بمولد أبيه من قبله، قال ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾^(٥) وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٦).

(١) انظر: تفسير الكشاف (٥٤٣/٢)، تفسير النسفي (٢٤٤/٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٦ / ١٠)

(٣) انظر: تفسير الكشاف (٥٤٣/٢)، القرطبي (٣٦/١٠).

(٤) سورة هود: الآية ٧١.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

(٦) سورة مريم: الآية ٤٩.

المطلب الثاني

والدة موسى عليه السلام

تحدث القرآن عن أم موسى عليها السلام في موضعين منه ، وقبل أن يتحدث القرآن عن أم موسى ، تحدث عن فرعون الذي تكبر وتجبّر وطغى ، وأذاق بني إسرائيل صنوف العذاب .

لذا قال عنه سبحانه في مطلع سورة القصص ، وقبل ذكر خبر أم موسى عليها السلام : ﴿ تَنَلُّوا عَلَيْنَا مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ { ٣ } إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ { ٤ } ﴾^(١) .

وقوله سبحانه عن فرعون أنه ﴿ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي : صنّفهم أصنافاً ، وصرف كل صنّف فيما يريد من أمور دولته ، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد ، يستعملهم في أخس الأعمال ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم^(٢) .

وعن الحامل له على هذا الفعل المنكر ، يقول ابن كثير :

«إن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يثرونه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وذلك - والله أعلم - حين كان قد جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ، من إرادته إياها على السوء ، وعصمة الله لها ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمراءه وأساورته ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا

(١) سورة القصص : الآيات ٣ - ٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/٣٨٠) ، وانظر : قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٩٩) .

الغلام، ولن يغني حذر من قدر»^(١).

وفي هذا الزمن الذي كان فيه فرعون يُقتل أبناء بني إسرائيل الذكور، وفي زمن اضطهاده لهم واستعبادهم وتعذيبهم، يولد موسى عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ {٣٧} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ {٣٨} أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي {٣٩} إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ {٤٠}﴾^(٢).

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ {٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ {٨} وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {٩} وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {١٠} وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {١١} وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ {١٢} فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {١٣}﴾^(٣).

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، (ص ١٩٩ - ٢٠٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٨٠ - ٣٨١).

(٢) سورة طه: الآيات ٣٧ - ٤٠.

(٣) سورة القصص: الآيات ٧ - ١٣.

ولم يذكر القرآن اسم أم موسى صراحة، بل ذكرها بالكنية فسمها **﴿أم موسى﴾**.
وقد ذكر لها المفسرون أسماء عدة، فقيل: «أيارخا»، وقيل: «أياذخت»، وقيل:
«يوخابد بنت لاوي بن يعقوب»^(١). وقيل غير ذلك.
وحين ولدت موسى أوحى الله إليها بكيفية التصرف لإنقاذ حياة وليدها في قوله تعالى:
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾، فكان الوحي لها من الله، وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى
الرسل، فقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية.
واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى، قال قتادة: كان إلهاماً، وقيل: كان قولاً في
منامها، وقيل: كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك^(٢).
وهذا الوحي الذي أوحاه الله لأم موسى، كان سبباً لنجاة موسى **عليه السلام**^(٣).
وقد جاء عن ذلك ما رواه النسائي^(٤) في السنن الكبرى عن عبد الله بن عباس **رضي الله عنهما**

(١) انظر: تفسير الثعالبي (٢٣٣/٧)، تفسير القرطبي (٢٥٠/١٣) وانظر: قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٢٠١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٥٠/١٣)، تفسير فتح القدير (١٥٩/٤).

(٣) كما بشرت الملائكة أم إسحاق **عليه السلام**، وكما جاءت الملائكة إلى مريم يبشرونها بعيسى **عليه السلام**، وباصطفائها وتطهيرها على نساء العالمين **﴿وَأُذِّقْنَ الْمَلَأِكَةَ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** آل عمران ٤٢ انظر: تفسير ابن كثير (٤٩٧/٢)، وكما جاء الملك لثلاثة من بني إسرائيل، الأبرص والأقرع، والأعمى، وقد أراد الله **ﷻ** أن يتلهم بالصحة والمال، فبعث الله إليهم ملكاً... الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة **رضي الله عنه**، قال: سمعت رسول الله **ﷺ** يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يتلهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك...» الحديث، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الأبرص، والأعمى، والأقرع، في بني إسرائيل، حديث (٣٢٧٧) (١٢٧٦/٣)، انظر: تفسير القرطبي (٢٥٠/١٣)، تفسير فتح القدير (١٥٩/٤).

(٤) هو: أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار الخراساني النسائي، الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، أحد الأئمة البارزين، والحفاظ المتقنين، والأعلام المشهورين، من أئمة الحديث، قال عنه الحاكم: كان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال، له من الكتب: السنن الكبرى والصغرى، ومسند علي، ومسند مالك، وغير ذلك، توفي سنة (٣٠٣هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/١٢٥)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (١/٣٠٧).

من حديثه الطويل ، حديث الفتون ، قوله : «تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم ﷺ أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ، ما يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون ، مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك ، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : توشكون أن تُفنونوا بني إسرائيل ، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر ، فيقل أبنائهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكائرتهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم . فأجمعوا أمرهم على ذلك . فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل حملت بموسى ﷺ ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه في بطن أمه ، مما يراد به . فأوحى الله إليها أن : ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٢٧] . فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم . فلما ولدت فعلت ذلك ، فلما تواری عنها ابنها أتاها الشيطان ، فقالت في نفسها : ما فعلت بابني ، لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه . فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فريضة مستقى جوارى امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتح التابوت ، فقال بعضهن : إن في هذا مالا ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرج منه شيئا حتى دفعنه إليها . فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقي عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى . فلما سمع الذباحون بأمره ، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه : وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألكم . فأتت فرعون فقالت «قرة عين لي ولك» . فقال فرعون : يكون لك . فأما لي فلا حاجة لي فيه : فقال رسول الله ﷺ :

والذي يلحف به ، لو أقر فرعون أن يكون قرّة عين له ، كما أقرت امرأته ، لهداه الله كما هداها ، ولكن حرمه ذلك. فأرسلت إلى من حولها ، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً ، فجعل كل ما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها ، فلم يقبل ، فأصبحت أم موسى والهأ ، فقالت لأخته : قصي أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكراً ، أحي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدّها فيه ، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون – والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهو إلى جنبه ، وهو لا يشعر به – فقالت من الفرح حين أعياهم الظئورات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقلوا ما يدريك ؟ وما نصحهم له ؟ هل يعرفونه ؟ حتى شكوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبير. فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك ، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها ، فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه ، فلما وضعت في حجرها نزا إلى ثديها فمصه ، حتى امتلأ جنباه رياً ، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها : أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها ، فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا ، فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي ، فيكون معي لا ألوه خيراً فعلت ، وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي. وذكرت أم موسى ما كان الله وعدّها فيه ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده ، فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وأنبتة الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل ، وهم في ناحية القرية ، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أتريني ابني ؟ فوعدها يوماً تريها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظورها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها نخلته وأكرمته ، وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها

عليه...»^(١).

يقول الطبري في تفسيره:

«اختلف أهل التأويل في الحال التي أمرت أم موسى أن تُلقِي موسى في اليم ... وأولى قول قيل في ذلك بالصواب: أن يقال إن الله تعالى ذكر أمر أم موسى أن تُرضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليم، وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادتها إياه، وأي ذلك كان فقد فعلت ما أوحى الله إليها فيه...»^(٢).

ومن رحمة الله ﷻ بأم موسى ووليدها، أن أمرها بإرضاعه، قبل أن تلقيه في اليم^(٣).

فقال سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٤).

والخوف: هو غم يلحق صاحبه لأمر متوقع، والحزن: هو غم يلحق صاحبه لأمر واقع^(٥).

يقول الزمخشري:

(١) الحديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى، جزء من الرواية، من حديث ابن عباس الطويل قوله ﷻ: ﴿ وَفَتْنَاكَ فُتُونًا ﴾، حديث الفتون (٦/٣٩٦ - ٣٩٨)، رقم (١١٣٢٦).

وهذا الحديث موقوف حسن، إذ سائر رواه ثقات، سوى أصبغ بن زيد الجهني الوراق، ووثقه ابن معين والدارقطني وأبو داود، وقال أحمد ليس به بأس، ما أحسن رواية يزيد عنه، قال أبو حاتم: (ما بحديثه بأس)، وقال النسائي: ليس به بأس، وضعفه ابن سعد، وقال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد. قال الذهبي: صدوق، قال الحافظ ابن حجر: صدوق غريب.

ينظر: كتاب المجرحين (١/١٧٤)، والكاشف (١/٨٤)، والتهذيب (١/٣٦١)، والتقريب (١/٨١).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/٣٠).

(٣) ذكر الطبري وغيره من المفسرين أن اليم: هو نيل مصر، انظر: تفسير الطبري (٢٠/٣٠)، وتفسير أضواء البيان (٤/٨)، وتفسير الكشاف (٣/٣٩٧).

(٤) سورة القصص: الآية ٦.

(٥) انظر: تفسير الكشاف (٣/٣٩٨) بتصرف.

«فإن قلت ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما، ونهى عن الآخر؟

قلت: أما الأول: فالخوف عليه من القتل، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه.

وأما الثاني: فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في أيدي بعض العيون المبتوثة من قبل فرعون في طلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف»^(١).

وفي هذه الآية بشارت لأُم موسى عليها السلام كي يطمئن قلبها، فالله سبحانه رحيم بعباده، ومن يأمرها بهذا الفعل هي أمه، فالعليم سبحانه يعلم ما سيلحق هذا الفؤاد من خوف وأسى.

فأمرها بأن إذا أحست أحداً تخاف على وليدها منه، أن يوصله إليهم أن تلقيه في اليم، في وسط تابوت مغلق، ونهاها بأن لا تخاف، ولا تحزن بقوله «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي».

وبشرها بأنه سيرده عليها ويجعله رسولاً «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»

وهذا من أعظم البشائر الجليلة لأُم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها^(٢).

وقد جمعت هذه الآية بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين^(٣).

وفي سورة طه، يقول تعالى في سياق الحديث عن نعمه عز وجل على موسى عليه السلام: «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى {٣٧} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ {٣٨} أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي {٣٩}»^(٤).

وهذه الآيات تنتمه للآيات من سورة القصص، وبيان لها، حيث ورد في هذه الآيات من

سورة طه أمر الله لأُم موسى أن تضعه في التابوت، وتلقي به في اليم، حيث يسير إلى دار

(١) تفسير الكشاف (٣/٣٩٧ - ٣٩٨).

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٦١٢).

(٣) ذكر ذلك القرطبي في تفسيره (١٣/٢٥٢)، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن (٣/٤٩١).

(٤) سورة طه: الآيات ٣٧ - ٣٩.

فرعون، ولقد امتثلت أم موسى للأمر الإلهي، ووضعت وليدها في التابوت بعد أن أرضعته كما أمر الله، وألقت بالتابوت في اليم، وسار حتى وصل إلى الساحل المواجه لدار فرعون^(١).

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾^(٢).

والالتقاط: هو أخذ الشيء من غير طلب، ومنه اللقطة واللقيط^(٣).

وآل فرعون: هم أهله وجملته^(٤).

واللام في ليكون لام العاقبة، ووجه ذلك أنهم أخذوه ليكون لهم ولداً وقرّة عين، لا ليكون عدواً، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدواً وحزناً^(٥).

وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

قرأ حمزة^(٦)، والكسائي^(٧) بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الباقون بالفتح حزناً^(٨).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٤٨/٣) بتصرف.

(٢) سورة القصص: الآية ٨.

(٣) اللقطة: هي المال الضائع من ربه، يلتقطه غيره، وهي ما يلتقطه الإنسان من مالٍ ضائع، أو حيوان أو نحو ذلك. واللقيط: هو الطفل المطروح والمنبوذ، واللقيط بمعنى الملقوط، والتقاطه واجب... ولأن فيه إحياء نفسه، فكان واجباً كإطعامه إذا اضطر، وإنجائه من الغرق... انظر: المغني لابن قدامة (٣/٦، ٣٥).

(٤) انظر: تفسير المحرر الوجيز (٤/٢٧٧).

(٥) انظر: تفسير فتح القدير (٤/١٥٩ - ١٦٠).

(٦) هو: حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي، مولى آل عكرمة بن ربيعي التميمي، الزيات، أحد القراء السبعة، ولد سنة ثمانين، وأدرك الصحابة بالسن، فلعله رأى بعضهم، قرأ القرآن عرضاً على الأعمش وغيره، وتصدر للإقراء مدة، وقرأ عليه عدد كثير، كان إماماً حجة قيماً بكتاب الله تعالى، حافظاً للحديث، بصيراً بالفرائض والعربية، توفي سنة (١٥٦هـ).

انظر: معرفة القراء الكبار (١/١١١)، وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٦٠).

(٧) هو: علي بن حمزة الكسائي، الكوفي المقرئ النحوي، أحد الأعلام، ولد في حدود سنة (١٢٠)، وسمع من جعفر الصادق، والأعمش، وجماعة يسيرة، وقرأ القرآن وجوده على حمزة الزيات وعيسى بن عمر الهمداني، رحل إلى

«وَالْحَزْنَ وَالْحُزْنَ لِعَتَانٍ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، مِثْلُ السَّقْمِ وَالسَّقَمِ»^(٢).

يقول الطبري :

«وَالْحُزْنَ: بفتح الحاء والزاي، مصدر من حَزِنْتُ حُزْنًا، وَالْحُزْنَ بضم الحاء وتسكين الزاي: الاسم، كالعَدَمِ والعُدْمِ ونحوه، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، وهما على اختلاف اللفظ فيهما بمنزلة العدم، والعدم فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب»^(٣).

وفي هذه الآية دلالة واضحة على عظيم قدرة الله ﷻ، وإرادته سبحانه، وتدبيره، فإذا أراد الله لشيء أن يكون إنما يقول له كن فيكون.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤).

وفيها دلالة على حفظ الله وعنايته بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وفي سورة طه يقول سبحانه: ﴿ فَلْيُلْهِمِ اللَّيْمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾^(٥).

وهذه الآيات أيضاً تبين إرادة الله ﷻ في إيصال موسى «الوليد» إلى دار فرعون من دون أن يشعروا بذلك.

فمعنى قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ ﴾، أي: ضعيه في الصندوق وهو التابوت، والضمير في ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ ﴾ راجع إلى موسى، وأما الضمير في قوله: ﴿ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ وقوله: ﴿ فَلْيُلْهِمِ ﴾ فقول: راجع إلى التابوت، والصواب رجوعه إلى موسى في داخل التابوت؛ لأن تفريق الضمائر

البصرة، وأخذ العربية هناك، وكان من أهل القراءة، وهي كانت علمه وصناعته، توفي سنة (١٨٩هـ).

انظر: معرفة القراءة الكبار (١/١٢٠)، الوافي بالوفيات (٦/٣٨١).

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (١/٤٣٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/٦١).

(٣) تفسير الطبري (٢٠/٣٣).

(٤) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٥) سورة طه: الآية ٣٩.

غير حسن^(١).

ويقول الزمخشري في تفسيره للآية:

«والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه، وبعضها إلى التابوت فيه هجئة^(٢)، لما يؤدي إليه من تنافر النظم، فإن قلت المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل؟ قلت: ما ضرك لو قلت المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تتفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر». انتهى^(٣).

وقوله تعالى عن اليم ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه: الخبر، وجاء بصيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها. فاليم لا بد له أن يلقيه بالساحل؛ لأن الله أمره بذلك^(٤). ولما كانت إرادة الله ومشيتته وَعَلَّمَ أن لا يخطئ جري التابوت على اليم طريقه، وأن يوصله إلى الساحل ويلقيه به، سلك في ذلك سبل المجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر، ويمثل ما رُسِم له^(٥).

وقال الفراء^(٦): «قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقْذِفِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أمر، فكأن البحر أمر، فوعدها الله - أي أم موسى - أن ألقيه في البحر يُلقه اليم

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٤/٩٢٨).

(٢) الهجئة في الكلام ما يلزمك منه العيب، تقول لا تفعل كذا فيكون عليك هجئة، وقالوا إن للعلم نكداً وأفة، وهجئة، يعنون بالهجئة الإضاعة، انظر: لسان العرب (١٣/٤٣٤).

(٣) تفسير الكشاف (٣/٦٤).

(٤) انظر: تفسير البحر المحيط (٦/٢٢٦)، تفسير أضواء البيان (٤/٩).

(٥) انظر: تفسير الكشاف (٣/٦٤).

(٦) هو: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء الديلمي الكوفي، كان محباً للعربية، من أوسع الكوفيين علماً بها، وله مؤلفات كثيرة منها: معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، والكافي في النحو والمقصود والمدود، توفي سنة (٢٠٧هـ) وهو في طريقه إلى مكة.

انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/٢٨)، وفيات الأعيان (٦/١٧٦).

بالساحل. فذكر أن البحر ألقاه إلى مشرعة^(١) آل فرعون، فاحتملوه من هناك إلى فرعون وامرأته^(٢).

وقوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ وهو فرعون^(٣).

يفسره قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فقيض الله أن يأخذه أعدى الأعداء لله تعالى، ولموسى، ويتربى في دارهم وبين أولادهم^(٤).

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٥).

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

«يعني: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه، وتذب دونه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك، وهداها الله بسببه، وأهلكه الله على يديه»^(٦).

وقرة العين: سرورها، وسعادتها عندما تشاهد ما تحب، ويستمتع صاحبها بما يريد.

قال الإمام الراغب في معنى قرّة العين:

«الْقُرَّةُ: يَقْتَضِي السُّكُونَ، وَقَرَّتْ عَيْنُ فُلَانٍ: إِذَا سُرَّتْ، وَقِيلَ: لِمَنْ يُسَرُّ بِهِ: قُرَّةٌ عَيْنٍ. قِيلَ: أَصْلُهُ مِنَ الْقُرِّ، أَيُّ: الْبَرْدِ.

(١) المشرعة: هي مورد الشارية التي يشرعها الناس فيشربون منها. انظر: لسان العرب (١٧٥/٨).

(٢) معاني القرآن للفراء (١٧٩/٢).

(٣) انظر: تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (١٣/٣).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٥٠٥/١).

(٥) سورة القصص: الآية ٩.

(٦) تفسير ابن كثير (٣٨٢/٣).

فقیل معناه: بَرَدَتْ عَيْنَهُ فَصَحَّتْ.

وقيل: بل لأن للسرور دمعة باردة قارة، وللحزن دمعة حارة، ولذلك يقال فيمن يُدعى عليه: أسخن الله عينه.

وقيل: هو من القرار، والمعنى: أعطاه الله ما تسكن به عينه، فلا تطمحُ إلى غيره^(١).

فقرة عين الإنسان بالشيء، هو سعادتها، وسرورها، فعندما يحبه ويسكن إليه، ويرغب فيه، ويُسرُّ به، يقال: قَرَّتْ عَيْنَهُ بِهِ.

وبتقدير الله ﷻ، وبحكمته أراد أن تتحقق مشيئته، فألقى محبة موسى في قلب امرأة فرعون، فهي تقول كما أخبر الله ﷻ عنها: «قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ» وفي سورة طه، يقول الله: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي»^(٢).

يقول الشنقيطي في تفسيره «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي»:

«من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى ﷺ، ما ذكره جل وعلا في

سورة القصص «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ»^(٣).

قال ابن عباس: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي» أي: أحبه الله وحببه إلى خلقه^(٤).

و«امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ»: هي: آسية بنت مزاحم، وكانت من خيار النساء، وقيل إنها

كانت من بني إسرائيل، وقيل: غير ذلك، والله أعلم بالصواب^(٥).

وقد ضرب الله بها مثلاً للمرأة الصالحة، فجعلها مثلاً للمؤمنة الصابرة الصادقة في دينها،

وعبوديتها لله ﷻ، فلم تغرها الدنيا، فهي زوجة فرعون الذي اغتر بسعة ملكه، وكثرة جنده،

(١) المفردات في غريب القرآن (١/٣٩٧ - ٣٩٨)، ويراجع تفسير أضواء البيان (٤/١١ - ١٢).

(٢) سورة طه: الآية ٣٩.

(٣) تفسير أضواء البيان (٤/١٠).

(٤) انظر: تفسير أضواء البيان (٤/١٠)، وتفسير القرطبي (١١/١٩٦)، وتفسير البحر المحيط (٦/٢٢٧).

(٥) انظر: حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة (١/١٧٤)، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص٢٠٢).

ولكن كل ذلك لم يصرفها عن الإيمان بالله والرغبة بما عند الله.

قال تعالى عن هذه المرأة:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

يقول الطبري في تفسيره:

«ضرب الله مثلاً للذين صدقوا الله ووحده امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحده، وصدقت رسوله موسى، وهي تحت عدو من أعداء الله، كافر، فلم يضرها كفر زوجها، إذ كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاء الله في خلقه أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكل نفس ما كسبت...»^(٢).

وأخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد لى سائر الطعام»^(٣).

يقول ابن حجر:

«ومن فضائل آسية امرأة فرعون: أنها اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، وكانت فراستها في موسى ﷺ صادقة، حين قالت: قره عين لي»^(٤).

فكانت هذه المرأة المؤمنة الصادقة سبباً في نجاة موسى ﷺ، إذ أشارت على فرعون أن لا يقتله، وأن يتخذوه ولداً، فقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فخاطبته بلفظ الجمع تعظيماً له، حتى

(١) سورة التحريم: الآية ١١.

(٢) تفسير الطبري (١٧١/٢٨).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وكانت من القانتين﴾ برقم (٣٢٣٠)، (١٢٥٢/٣).

(٤) فتح الباري (٤٤٨/٦).

يستجيب لرغبتها، ويساعدها فيما تريده^(١).

ويذكر القرآن خبر أم موسى عليها السلام بعد أن حمله اليم للساحل، والتقطه آل فرعون، قال تعالى: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

وهذا الفؤاد^(٣) هو فؤاد الأم، التي فقدت مولودها، وألقت به في اليم، وكما وصفه القرآن بأنه أصبح فارغاً من كل أمر من الأمور، إلا من موسى وليدها.

قال المفسرون: أن معنى قوله: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا» أي: خالياً من كل شيء من أمور الدنيا، إلا من ذكر موسى ابنها^(٤).

وقال أبو عبيدة^(٥) في هذه الآية: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا»، قال: فارغاً من الحزن لعلمها أنه لم يغرق^(٦).

وقال بعض الأدباء، أخطأ أبو عبيدة في المعنى، لو كان قلبها فارغاً من الحزن عليه لما قال: «لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا»، لأنها كادت تبدي به^(٧).

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/٧).

(٢) سورة القصص: الآية ١٠.

(٣) في كتب اللغة أن الفؤاد هو القلب، وقيل: الفؤاد وعاء القلب أو داخله، أو غشاؤه، والقلب حبه، وسمي الفؤاد بذلك لحرارته، ويقال رجل مفؤود، مصاب الفؤاد. انظر: تارح العروس (٤٧٧/٨)، معجم مقاييس اللغة (٤٦٩/٤)، أساس البلاغة (٤٦١/١).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٢/٣)، تفسير القرطبي (٢٥٥/١٣)، تفسير فتح القدير (٤/١٦٠).

(٥) هو: معمر بن المنثى التميمي، أبو عبيدة النحري البصري، قال عنه الجاحظ: لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه، وكان يميل إلى مذهب الخوارج، من مؤلفاته: مجاز القرآن، وغريب القرآن، ومعاني القرآن، وغريب الحديث، قيل أنه توفي سنة (٢٠٩)، (٢١٠)، وقيل (٢١١هـ) بالبصرة.

انظر: وفيات الأعيان (٢٣٥/٥)، وسير أعلام النبلاء (٤٤٥/٩). وطبقات المفسرين للداودي (٣٠/١).

(٦) انظر: مجاز القرآن (٩٨/٢)، ويراجع: تفسير القرطبي (٢٥٥/١٣)، تفسير فتح القدير (٤/١٦٠).

(٧) انظر: تفسير البحر المحيط (٧/١٠٢)، ويراجع: البرهان في علوم القرآن (١/٢٩٥).

ومن شدة حزنها، ووجدها وأسفها على ابنها، كادت لتظهر أنه ذهب لها ولد، وكادت أن تخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها^(١).

كما قال: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فثبتها الله ﷻ، وربط على قلبها، فصبرت، ولم تبد به، فكانت بذلك الصبر والثبات من المؤمنين، فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه^(٢).

وقد وعد الله أم موسى، عندما أمرها أن تلقي بموسى في اليم بأنه سبحانه سيرده لها، ومع إيمانها وثقتها بوعد الله، أخذت بالأسباب، فأمرت أخته بأن تتبع أثره، كما أخبر بذلك القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣).

يقول ابن كثير في تفسيره هذه الآية:

«أمرت ابنتها، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره، وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾، فجعلت تنظر إليه، وكأنها لا تريده»^(٤)، وهم لا يشعرون أنها تراقبه، وسيأتي الحديث عن أخت موسى في الفصل الرابع من هذا البحث إن شاء الله.

وبما أن المولى عز شأنه قد وعد أم موسى بأن يرد ابنها لها، فقد قدر الله سبحانه أمراً بعلمه وبحكمته، مُسيراً الأمور كيف يشاء، فحرم الله عليه الرضاع من أي مرضع، وفعل الله ذلك ليعيده إلى أمه، كما وعدنا ﷻ.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٨٢).

(٢) انظر: تفسير السعدي (١/٦١٣).

(٣) سورة القصص: الآية ١١.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٢).

قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾^(١).

والمراضع: جمع مرضع، وهذا التحريم هو تحريم منع، لا تحريم شرع، فمنعه سبحانه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه، فكان لا يقبل ثدي أي مرضعة ليتيسر بذلك رجوعه إلى أمه؛ لأنه لو قبل غيرها أعطوه لذلك الغير فلم يرجع إلى أمه^(٢).

وفي سورة طه يقول الله ﷻ: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾^(٣).

وفي الآية ذكر مشي أخته وحدها، ولم يذكر أنها مشيت حتى دخلت على آل فرعون فدلتهم على الظئر^{(٤)(٥)}.

وقال سبحانه في سورة القصص: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٦).

وقال تعالى في سورة طه: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾^(٧).

ومن فضل الله على أم موسى عليها السلام أن ربط على قلبها، ولم يعلم أحداً أنها أمه الحقيقية،

(١) سورة القصص: الآية ١٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٥٧/١٣)، تفسير النسفي (٢٢٩/٣)، تفسير زاد المسير (٢٠٦/٦)، تفسير أضواء البيان (١١/٤).

(٣) سورة طه: الآية ٤٠.

(٤) الظئر: مهموز، العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس، الظئر: المرضعة غير ولدها. انظر: لسان العرب (٥١٤/٤ - ٥١٥).

(٥) هذا في التنزيل كثير مثل قوله: ﴿ أَنَا أَنبَتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يوسف: ٤٥. ولم يقل: فأرسل فدخل فقال يوسف، وهو من كلام العرب: أن تجتزئ بحذف كثير من الكلام وبقليله إذا كان المعنى معروفاً. انظر: معاني القرآن للفراء (١٧٩/٢).

(٦) سورة القصص: الآية ١٣.

(٧) سورة طه: الآية ٤٠.

وهذا من كمال حكمتها وصبرها، وعمق إيمانها وتصديقها بالله وبوعده، فلو تكلمت بكلمة واحدة، لشك في أمرها، إلا أن الله عصمها وثبتها، فكانت امرأة مؤمنة ممثلة لأمر ربها، صابرة على قضاءه، فأوفى الله ما وعدها بها، ورد إليها ابنها.

وقد حدث ذلك كله ولم يشعر به أحداً، لقصور علمهم أمام تدبير الله وتقديره وحكمته!

وبذلك تحقق وعد الله لها: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾^(١).

يقول الشنقيطي في تفسيره للآية:

«وقوله تعالى في آية القصص: ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وعد الله المذكور هو قوله:

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢).

وأقر الله عينها، وأنجز وعده لها، حيث تربي عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به، وتأخذ الأجرة^(٣) الكثيرة على ذلك، فأراها بعض ما وعدها به عياناً ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه، ورسالته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، كما أخبر ﷺ بذلك، فهو أعلم بعباده، فمتى ما رأوا الأسباب قد شوشت، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة بين يدي الأمور العالية، والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وامه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من

(١) سورة القصص: الآية ٧.

(٢) تفسير أضواء البيان (١١/٤).

(٣) قول الزمخشري: "فإن قلت كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها، قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربي، تأخذه على وجه الاستباحة..." انظر: تفسير الكشاف (٤٠١/٣)، ويراجع تفسير القرطبي (٢٥٨/١٣).

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يتقون على عدوهم مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، الحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب: ما جاء في كراهية أخذ الجعائل وما جاء في الرخصة فيه من السلطان (٢٧/٩)، رقم (١٧٦١٨).

الرضاع، ولم يُستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه^(١).

ولم يكن بين هذه الشدة التي لاقتها أم موسى، والفرج الذي جعله الله بعد ذلك لها إلا القليل، والله أعلم^(٢).

(١) انظر: تفسير السعدي (٦١٣/١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٣/٣).

المطلب الثالث

مريم ابنة عمران مع ابنها عيسى

أم نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، هي مريم ابنة عمران، كما أخبر بذلك القرآن. ومريم ابنة عمران هي التي صرح القرآن باسمها، أما النساء اللاتي جاء ذكرهن في القرآن فإنهن قد ذُكرن بألقابهن وكناهن.

فقال تعالى عنهن: ﴿أم موسى﴾، و﴿لأخته﴾ أي أخت موسى، و﴿امرأة فرعون﴾، و﴿امرأة عمران﴾، و﴿امرأته﴾ إشارة لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿امرأتي﴾ لامرأة زكريا عليه السلام.

وإن دل ذلك فإنما يدل على مكانتها، ومنزلتها العظيمة عند الله جل وعلا، فقد جاء ذكرها في مواضع كثيرة من كتاب الله، كما جاء ذكرها في السنة النبوية المطهرة.

وقد بدأ الحديث في كتاب الله العزيز عن مريم ابنة عمران، بالحديث عن أهل بيت مريم، وهم آل عمران الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فيخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض^(٢)، ومن هذه البيوت آل عمران، وقد سميت سورة كاملة في القرآن باسمهم، وسورة أخرى باسم مريم ابنة عمران،

فقصة مريم في القرآن بدأت في بيت آل عمران، وهو بيت أبيها عمران، ذلك الإمام الذي كان يؤم المصلين في الصلاة^(٣)، وامرات عمران، الزوجة الصالحة، أم مريم، التي نذرت ما في بطنها لخدمة بيت المقدس، فنجت ربها وتضرعت إليه ليتقبل منها هذا النذر، وهذا الدعاء والتضرع من امرأة عمران، أخبر الله عنه في كتابه.

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٥٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٦٤).

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

وهذا الدعاء الخالص من امرأة عمران يدل على الإسلام الخالص لله جل وعلا، ومن هذه المرأة الصالحة، امرأة عمران، وزوجها عمران، جاءت مريم البتول أم نبي الله عيسى، فهي من بيت طاهر، ومن آل بيت اصطفاهم الله واختارهم على العالمين، وسيأتي الحديث عنهم في الفصل الرابع من هذا البحث إن شاء الله.

وقد أخبر القرآن كذلك أن مريم ابنة عمران، نشأت نشأة صالحة، فقال سبحانه إخباراً عن أم مريم: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ { ٣٦ } فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾^(٢).

ومن دعاء امرأة عمران، أن يحفظ الله ابنتها مريم من الشيطان، بل وكذلك ذريتها. «فعودتها بالله ﷻ من شر الشيطان، وعودت ذريتها وهو ولدها عيسى ﷺ، فاستجاب الله لها ذلك»^(٣).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها» ثم يقول أبوهريرة^(٤): ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٣٦ - ٣٧.

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٦٠).

(٤) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، أبوهريرة، اشتهر بكنيته، وقد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثاً، قال البخاري، روى عنه نحو ثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظ من روى الحديث في عصره، وقد دعا له الرسول ﷺ بأن يحبه إلى المؤمنين، وكان إسلامه بين الحديبية، وخيبر، قدم المدينة مهاجراً، وسكن الصفة، توفي سنة (٥٧هـ).

انظر: الاستيعاب (٤/١٧٦٨)، والإصابة في تمييز الصحابة (٧/٤٤٤).

الرَّجِيمُ^(١).

أراد الله ﷻ لمريم ابنة عمران أن تنشأ نشأةً صالحةً، وليصطفئها، ويختارها، لتكون أمًّا لنبى من أنبيائه، بل ويكون في حملها معجزة، وتكون هي وابنها عيسى آية للعالمين، كما أخبر المولى ﷻ في كتابه.

ومن النشأة الحسنة لمريم ابنة عمران، أنها نشأت في كنف نبى من أنبياء الله، وهو زكريا ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢).

فقد شاء ﷻ أن يكون زكريا ﷺ كافلاً لها.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية:

«وإنما قدر الله كون زكريا كفلاً لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً نافعاً، وعملاً صالحاً...»^(٣).

وقد اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾، فقراءته عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة، وكفلها مخففة الفاء بمعنى ضمها زكريا إليه، اعتباراً بقول الله ﷻ: ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾^(٤).

وقرأ عامة قراء الكوفيين، وكفلها زكريا، بمعنى: وكفلها الله زكريا.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك، قراءة من قرأ وكفلها مشددة الفاء، بمعنى: وكفل الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾، ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة﴾ (٣/١٢٦٥) رقم: (٣٢٤٨).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٣) تفسيران كثير (١/٣٦١).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

زكريا بمعنى وضمها الله إليه ، لأن زكريا أيضاً ضمها إليه بإيجاب الله بالقرعة التي أخرجها الله له ، والآية التي أظهرها لخصومه فيها ، فجعله بها أولى منهم^(١) ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٢) .

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ، أنه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ : «اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية ، وعال قلم زكريا الجرية ، فكفلها زكريا»^(٣) .

«وعال قلم زكريا : أي ارتفع على الماء ، وفي إحدى الروايات ، وعلا ، و«الجرية» بكسر الجيم ، والمعنى : أنهم اقترعوا على كفالة مريم أيهم يكفلها ، فأخرج كل واحد منهم قلماً وألقوها كلها في الماء ، فجرت أقلامهم مع الجرية إلى أسفل ، وارتفع قلم زكريا فأخذها»^(٤) .

والملاحظ في سياق الآيات التي تحدثت عن مريم في سورة آل عمران ، أن الله ﷻ ذكر اصطفاؤه لآل عمران ، ثم ذكر امرأة عمران وما كان منها ومن تضرعها ، ودعائها ، واستجابة المولى ﷻ لها ، وقبوله سبحانه لنذرها ، ثم الحديث عن مريم ابنة عمران ونشأتها الصالحة ، وإنباتها نباتاً حسناً ، وكفالة زكريا عليه الصلاة والسلام لها ، وتوفيق الله ﷻ لمريم بأن تكون في كفالة نبي من أنبيائه ،

ثم يخبر ﷻ بعد ذلك عن مريم ابنة عمران في سورة آل عمران بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤١/٣) ، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (٢٢٢/١) .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٤ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الشهادات ، باب : القرعة في المشكلات ، وقوله : ﴿إِذْ يلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (٢/٩٥٤) ، رقم : (٣٠) .

(٤) فتح الباري (٢٩٤/٥) ، باختصار ، ويراجع ما ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره عن عكرمة في هذا المقام ، جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٤٢/٣) .

الْعَالَمِينَ { ٤٢ } يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ { ٤٣ } ﴿^(١)﴾.

فذكر سبحانه اصطفاؤه لمريم ابنة عمران على نساء العالمين، بعد أن ذكر اصطفاؤه لآل عمران، فهذه الآية تنتمه لشرح أحكام اصطفاؤه آل عمران^(٢).

يقول القاسمي في تفسيره ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾:

«شروع في تنمة فضائل آل عمران»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿اصْطَفَاكَ﴾ أي: اختارك^(٤).

يقول الإمام ابن كثير:

«هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك، أن الله قد اصطفاها، أي: اختارها لكثرة عبادتها، وزهادتها، وشرفها، وطهارتها من الأكدار والوساوس»^(٥).

والاصطفاء مشتق من الصفاء، يقول الإمام الراغب:

«أصل الصفاء خلوص الشيء من الشوب، ومنه الصفا للحجارة الصافية.

والاصطفاء: تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار تناول خيرة الشيء.

واصطفاء الله بعض عباده: قد يكون بإيجاده إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره، وبحكمه، وإن لم يتعرَّ ذلك من الأول.

(١) سورة آل عمران: الآيات ٤٢ - ٤٣.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني: (١٥٤/٣).

(٣) تفسير محاسن التأويل للقاسمي (٦١/٢).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨٢/٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٣٦٣/١).

واصطفيت كذا على كذا، أي: اخترته عليه...»^(١).

فقد اصطفى الله ﷺ مريم ابنة عمران، واختارها على نساء العالمين، من بين نساء زمانها، ونشأها نشأةً حسنة، وأنبثها نباتاً حسناً، وعاشت في كنف نبي من أنبياء الله، فكانت معتكفة عابدة لربها، منقطعة لعبادته، وقد كرمها سبحانه بالكرامات الظاهرة للعيان، حين كانت في المحراب، وقد رأى نبي الله زكريا ﷺ ذلك.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

وذكر الرازي في تفسيره في اصطفاء الله لمريم ابنة عمران:

«أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أثنى، ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث، ومنها ما وقع لها من الكرامة، حيث كان رزقها يأتيها من عند الله، ومنه أنه فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة، ومنها أنه أسمعها الملائكة شفاهاً»^(٣).

وأخبر الرسول ﷺ عن فضل مريم ابنة عمران، وأنها من خير النساء، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»^(٤) «وقوله ﷺ: خير نسائها مريم، أي: نساء أهل الدنيا في زمانها، وقد روى النسائي من حديث ابن عباس بلفظ: «أفضل نساء أهل الجنة»^(٥)، فعلى هذا فالمعنى خير نساء أهل الجنة

(١) المفردات في غريب القرآن (٢٨٣/١).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٣) تفسير الرازي (٣٨/٨) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ {٤٢} يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٣﴾ (١٢٦٥)، رقم (٣٢٤٩).

(٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»، كتاب المناقب، باب: مناقب مريم

مریم، وفي رواية خير نساء العالمين^(١)، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاضْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وظاهره أن مریم أفضل من جميع النساء...^(٣).

وقد شهد رسول الله ﷺ لمریم ابنة عمران بكمالها ورجاحة عقلها، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مریم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون»^(٤).

وبعد هذه المنزلة الرفيعة التي أكرم الله ﷻ بها مریم ابنة عمران، يأمرها سبحانه بأن تتجهد في العبادة شكراً لله على هذه الكرامة والمنزلة، فقال سبحانه: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٥).

«... لما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المواهب، والعطايا من الله تعالى، أوجب عليها مزيداً من الطاعات شكراً لتلك النعم السنية»^(٦).

والقنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع^(٧).

ففي هذه الآية الكريمة أمر من المولى ﷻ لمریم أن تتجهد في العبادة، وأن تداوم على طاعة

ابنة عمران (٩٣/٥) رقم (٨٣٥٥).

(١) الرواية جزء من حديث أنس بن مالك عن الرسول ﷺ، أنه قال: «خير نساء العالمين مریم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون». أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضي الله عنهم أجمعين، (ذكر فاطمة الزهراء ابنة المصطفى ﷺ) (٤٠١/١٥)، رقم الحديث (٦٩٥١).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

(٣) فتح الباري (٤٧١/٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (١٢٦٦/٣)، رقم الحديث (٣٢٥٠).

(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٣.

(٦) تفسير الرازي (٣٩/٨).

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن (٤١٣/١).

ربها، وتسجد وتركع مع الراكعين، لتزداد قرباً من الله جل وعلا.

وقد جاء التعبير بقوله سبحانه: ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاٰكِعِيْنَ﴾، دون الراكعات؛ لأن هذا الجمع أعم، إذ يشمل الرجال، والنساء على سبيل التغليب، ولمناسبة رؤوس الآي؛ ولأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قيل أنها مأمورة بصلاة الجماعة^(١).

وكانت الملائكة عليهم السلام من أخبر مريم ابنة عمران باصطفاء الله لها، وتفضيلها على نساء العالمين.

وبعث الله الملائكة إلى مريم مرة ثانية، لتبشرها بعيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ {٤٥} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {٤٦} قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ {٤٧} وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ {٤٨}﴾^(٢).

وكما بشرتها الملائكة من قبل أن الله اصطفاها، جاءتها بشارة أخرى، وهي أن الله جل وعلا اصطفاها لتكون أمًا لنبية عيسى عليه السلام، بأن ستحمل به، ويكون معجزة لها؛ حيث خلقه الله من دون أب، كما خلق آدم من قبل بدون أب ولا أم.

وكثير من المفسرين ذهبوا إلى أن الذي بشرها هو جبريل عليه السلام^(٣).

قال الرازي في تفسيره:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾، ظاهر قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ يفيد

(١) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (١٥٨/٣).

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٤٥ - ٤٨.

(٣) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري (١١/٣)، تفسير البغوي (٣٠٠/١)، تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٤٢٨/١).

الجمع ، إلا أن المشهور أن ذلك المنادي كان جبريل عليه السلام ، وقد قررناه فيما تقدم^(١) ، حيث قال في موضع : «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ»^(٢) .

«قالوا : المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده ، وهذا كقوله تعالى : «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ»^(٣) يعني جبريل ، وهذا وإن كان عدولاً عن الظاهر ، إلا أنه يجب المصير إليه ؛ لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم هو جبريل وحده ، قال تعالى : «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا»^(٤)»^(٥) .

«فهذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولدٌ عظيم له شأن كبير ، فقال تعالى : «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ» أي : بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي : يقول له كن فيكون»^(٦) .

فسمي المسيح عيسى عليه السلام «بِكَلِمَةِ اللَّهِ» لأنه وجد بقوله «كُنْ» كما أخبر المولى عليه السلام بقوله : «قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(٧) .

وقد سماه الله عليه السلام ، فأخبرتها الملائكة بأن اسمه «عيسى» في قوله : «اسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ» ، والمسيح لقبه ، وهو من الألقاب المشرفة كالصديق ، وقيل : معناه المبارك^(٨) .

(١) تفسير الرازي (٤٢/٨) .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٣) سورة النحل : الآية ٢ .

(٤) سورة مريم : الآية ١٧ .

(٥) تفسير الرازي (٣٨/٨) .

(٦) تفسير ابن كثير (٣٦٤/١) .

(٧) سورة آل عمران : الآية ٤٧ .

(٨) انظر : تفسير البيضاوي (٤٠/٢) ، تفسير الكشاف (٣٩٠/١) .

وقيل: سُمِّيَ المسيح؛ لأنه كان يمسح على عين الأعمى فیرتد بصيراً بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وقيل: المسيح يعني الصديق، وقيل: سمي بذلك لأنه مسح بالزيت المبارك الذي كانت الأنبياء من قبله تمسح به، وهو زيت طيب الرائحة، وقيل: المسيح يعني من مسحه الله، أي: خَلَقَهُ خَلْقاً حَسَناً مَبَارَكاً، كما يقولون به مسحة جمال، والمسيح من مسخه الله، أي: خلقه في صورة قبيحة وجعله ملعوناً^(١).

وقيل: لأن حبريل عليه السلام مسحه بجناحه وقت الولادة ليكون معاذاً من الشيطان الرجيم^(٢).
وقيل لكثرة سياحته، أي: سيره في الأرض، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص لهما^(٣).

وهذه التسمية «المسيح عيسى ابن مريم» سيكون بها مشهوراً في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك، ونسبه تعالى إلى أمه حيث لا أب له^(٤).

وعيسى بدل من المسيح و«ابن مريم» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ابن مريم، ولا يجوز أن يكون صفةً لعيسى؛ لأن اسمه عيسى فحسب، وليس اسمه عيسى بن مريم، وإنما قال «ابن مريم» إعلماً لها عليها السلام، أنه يولد هذا الولد من غير أب، فلا يُنسب إلا إلى أمه^(٥).

وقد ذكر عيسى عليه السلام في القرآن في خمسة وعشرين موضع، ثلاثة وعشرين موضعاً منها ينسب فيها إلى أمه مريم.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾:

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/٨٨ - ٨٩) بتصرف.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني (٣/١٦١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٦٤).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١١/٣٦٤ - ٣٦٥).

(٥) انظر: تفسير النسفي (١/١٥٤).

«فإن قيل: لم قال: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والخطاب لمريم؛ قلت: لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين»^(١).

وفي هذه الآية رد على النصارى الذين زعموا أنه ابن الله، وجعلوه في منزلة الألوهية.

يقول الطبري في تفسيره:

«وأما قوله اسمه المسيح عيسى ابن مريم فإنه جل ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى، وأنه ابن أمه مريم، ونفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في الله تعالى من النصارى من إضافتهم بنوته إلى الله ﷻ - أي: أنه ابن لله تعالى - وما قذفت أمه به المفترية عليها من اليهود»^(٢).

وذكر سبحانه في هذه الآيات الكريمات، صفات عيسى ﷺ بأنه ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، الوجيه: ذو الجاه، والشرف والقدر، وقيل: الكريم على من يسأله، فلا يرد لكرم وجهه عنده، خلاف من يبذل وجهه للمسألة فيرد، ووجهته في الدنيا بالنبوة، والتقدم على الناس، وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته.

وقيل: وجهته في الدنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقيل: بسبب أنه كان مبرئاً من العيوب التي افتراها اليهود عليه^(٣).

وذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لهذه الآية:

قولهم: إن قيل كيف كان وجهاً في الدنيا، واليهود قد آذوه، فذكروا أن تعرض اليهود لعيسى ابن مريم ﷺ بالأذى لم ينقص من قدره، ولم يقدح في وجهته ومنزلته، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً هم أشرف وأكرم الخلق على الله، قد تعرضوا للأذى، والطعن،

(١) تفسير الكشاف (١/٣٩١).

(٢) تفسير الطبري (٣/٢٧٠).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني (٣/١٦٢).

فلم يزداهم ذلك إلا عزة ومنعة، ورفعة، ولم يقدح في وجاهتهم، فكذلك عيسى^(١).

ومن صفاته أنه ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوف على وجيهاً، ويعني أنه ممن يقربه الله يوم القيامة، فيسكنه في جواره ويدنيه منه^(٢).

وأخبر^(٣) أن من صفات عيسى ابن مريم عليه السلام أنه ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وفي هذه الايات من سورة آل عمران لم يبين سبحانه ما كلمهم به عيسى في المهد، ولكنه بيّنه في سورة مريم^(٤)، بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ {٢٩} قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا {٣٠} وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا {٣١} وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا {٣٢}﴾^(٤)، فبينت هذه الآيات أن الله أنطقه وهو في المهد ليبرئ أمه مما اتهمها به اليهود.

وفي الحديث الذي رواه أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ كَانَ يُصَلِّي جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَقَالَ أُجِيبْهَا أَوْ أُصَلِّي فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لَا تُمِتَّهُ حَتَّى تُرَبِّيه وَجُوهَ الْمُؤْمِسَاتِ وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوه فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ قَالَ الرَّاعِي قَالُوا نَبِيٌّ صَوْمَعَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرَضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ دُو شَارَةَ فَقَالَتِ اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَتَرَكَ نَدِيهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَدِيهَا يَمَصُّهُ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ ثُمَّ مَرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ فَتَرَكَ نَدِيهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ

(١) انظر: تفسير روح المعاني (١٦٢/٣)، تفسير الرازي (٤٥/٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩٠/٤)، تفسير الطبري (٢٧١/٣).

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان (٢٠٠/١).

(٤) سورة مريم: الآيات ٢٩ - ٣٢.

اجْعَلْنِي مِثْلَهَا فَقَالَتْ لِمَ ذَاكَ فَقَالَ الرَّاَكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَايِرَةِ وَهَذِهِ الْأُمَّةُ يَقُولُونَ سَرَقْتَ زَيْنَتَ
وَلَمْ تَفْعَلِ»^(١).

وأما عن كلامه في الكهولة، فقيل: ذكر هنا لتبشير أمه بأنه سيبلغ مبلغ الرجال، وقيل: بيان فصاحة كلامه، وبلاغته في المهدي، وفي الكهولة على السواء، وقيل: إشارة إلى أنه سيرفع إلى السماء، ثم ينزل إلى الأرض في آخر الزمان، فيكلم الناس، وقد بلغ سن الكهولة^(٢).

وقيل: رداً على النصارى الذين زعموا أنه إله، والإله لا يمر بهذه التقلبات، ولا ينتقل من حال إلى حال، والمسيح سينتقل من حال الطفولة إلى حال الكهولة^(٣).

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله ﷻ قال في مناجاتها: «قَالَتْ رَبِّ أُنِّي
يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ»، تقول كيف يوجد هذا الولد مني، وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله.

فقال لها الملك عن الله ﷻ في جواب ذلك السؤال: «كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ»،
أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء^(٤).

ويلاحظ في هذه الآيات التي ذكرت خبر البشارة بعيسى ﷺ لأمه مريم، قوله تعالى: «قَالَ
كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ»، ولم يقل: «يفعل»، كما في قصة زكريا، قال تعالى: «قَالَ

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّبَعَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٢٦٨/٣)، رقم (٣٢٥٣).

(٢) ورد في الأحاديث الصحيحة أن المسيح عيسى ﷺ ينزل قبل قيام الساعة، كما روى ذلك البخاري، ومسلم في صحيحهما، والترمذي في سننه عن أبي هريرة ؓ أنه قال، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»، رواه البخاري في كتاب البيوع، باب: قتل الخنزير (٧٧٤/٢)، رقم (٢١٠٩)، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا ﷺ (١٣٥/١)، رقم (١٥٥)، ورواه الترمذي في السنن، كتاب الفتن، باب: ما جاء في نزول عيسى ﷺ (٥٠٦/٤)، الرقم (٢٢٣٣).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني باختصار (١٦٣/٣ - ١٦٤).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٥/١).

رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ^(١).

فصرحت الآيات التي أخبرت عن مريم عليها السلام بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فنصت على ذلك لئلا يبقى لأي مبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

وهذه القضية التي جرت لمريم عليها السلام أعجب من قضية زكريا؛ لأن قضية زكريا حدث منها الولد بين رجل وامرأة، وهنا حدث من امرأة بغير واسطة بشر^(٣).

وأخبر تعالى عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام، أن الله تعالى يعلمه الكتاب والحكمة، والتوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا^(٤).

وقد ورد الحديث عن مريم عليها السلام، وقصة حملها وولادتها بعيسى عليه السلام في سورة مريم بشيء من التفصيل، وسُميت السورة كاملة باسمها تشريفاً وتكريماً لها عليها السلام.

يقول تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّبَعَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا {١٦} فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا {١٧} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا {١٨} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا {١٩} قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا {٢٠} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا {٢١}﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٥/١) بتصرف.

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (٤٨٤/٢).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٥/١).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١١٥/٣)، وتفسير البحر المحيط (١٦٩/٦).

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه تعالى ذكر في الآيات الأولى من سورة مريم قصة زكريا عليه السلام، ثم أتبعها بقصة مريم وحملها بعيسى، فلما ذكر قصة زكريا عليه السلام وأنه وجد منه في حال كبر سنه، وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجادها ولدها عيسى عليه السلام من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وها هنا، وكذلك في سورة الأنبياء، يقرن القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى؛ ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على كل شيء قدير^(١).

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات:

« **وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ** » وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر، طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي: تخدم مسجد بيت المقدس، فكانوا يتقربون بذلك **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة، والتبتل، وكانت في كفالة زكريا عليه السلام زوج أختها، نبي بني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، وقد رأى لها زكريا من الكرامات الهائلة...»^(٢).

وذكرها في الكتاب، وهو القرآن الكريم، من أعظم فضائلها أن تذكر في هذا الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تُذكر فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل^(٣).

و**﴿إِذْ﴾** بدل من مريم وهو بدل اشتمال، إذ الأحيان مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقت، هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه^(٤).

(١) تفسير السعدي (٤٩١/١).

(٢) تفسير ابن كثير (١١٥/٣).

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٩١/١).

(٤) انظر: تفسير النسفي (٣٣/٣)، تفسير الرازي (١٦٧/٢١).

ومعنى قوله: «انْتَبَذْتُ» من النبذ، وهو إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به^(١)، والانتباز: الاعتزال والانفراد^(٢).

وفي لسان العرب: انتبذ فلان، أي: ذهب في ناحية، وانتبذ عن قومه تنحى عنهم^(٣). ولقد اختلف العلماء في ذلك المكان الذي انتبذت إليه كما اختلفوا في سبب انتبازها، وفي ذلك الحجاب الذي اتخذته.

يقول ابن كثير في تفسيره:

«اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرقي المسجد الأقصى، قال السدي: لحيض أصابها، وقيل غير ذلك... وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شاسعا متنحياً.

وقيل: إنها اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فالله أعلم»^(٤).

وفي قصص الأنبياء لابن كثير يقول: «... وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شئونها ﴿وَانْتَبَذْتُ﴾ أي: انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾»^(٥).

ويقول الزمخشري في تفسيره:

«خلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجة بحائط أو بشيء يسترها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (١/٤٨٠).

(٢) انظر: تفسير الكشاف (٣/١٠).

(٣) لسان العرب (٣/٥١٢) مادة (ن ب ذ).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/١١٥).

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٣٨٨).

مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي...»^(١).

ويقول القرطبي :

«واختلف الناس لم انتبذت؟ فقال السدي : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس ، وقال غيره لتعبد الله ، وهذا أحسن ، وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفاً على سداثة المعبد وخدمته ، والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلوا للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام»^(٢).

ويقول الألوسي :

«اعتزلت وانفردت من أهلها ، وأتت مكاناً شرقياً من بيت المقدس ، أو من دارها لتختلي هناك للعبادة ، وقيل : قعدت في مشرفة لتغتسل من الحيض محتجة بمحائط أو بجبل أو بثوب»^(٣).

ويقول القاسمي في تفسيره :

«اعتزلت وانفردت شرقي بيت المقدس لئلا يشغلها أهلها عن العبادة»^(٤).

وقد علق الرازي في تفسيره على مثل هذه الاحتمالات التي ذكرها المفسرون في تفاسيرهم بقوله : «واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل ، وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها»^(٥).

ومما سبق يتبين أن مريم عليها السلام كانت تختلي وتنفرد عن الناس ، وتخلو للعبادة والمناجاة كما وصفها القرآن ، فكان لها حجاباً ساتراً يجنبها عن الناس لئلا تشغل عن العبادة. وفي حين خلوتها وانتباذها من أهلها مكاناً شرقياً ، واتخاذها الحجاب من دونهم ، جاءها

(١) الكشاف للزمخشري (١٠/٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩٠/١١).

(٣) روح المعاني (٧٤/١٦) بتصرف.

(٤) محاسن التأويل للقاسمي (٧٢/٥).

(٥) تفسير الرازي (١٦٧/٢١).

جبریل علیہ السلام^(١).

فالمراد بقوله: ﴿رُوحَنَا﴾ هو جبريل عليهما السلام، وهذا ما أجمع عليه المفسرين، وهذا ما يدل عليه ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ {١٩٣} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {١٩٤}﴾^(٢)^(٣).

وقد جاءها جبريل في صورة بشر كما أخبر القرآن ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: تمثل جبريل لها بشراً مستوي الخلق، لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً، قيل: ووجه تمثل الملك لها بشراً، أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رآته في صورة إنسان حسن كامل الخلق، قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء، فاستعادت بالله منه^(٤) ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

يقول السعدي في تفسيره هذه الآية: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

﴿أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه، فترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه، وهذه العفة خصوصاً مع اجتماع الدواعي وعدم المانع من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٠/١٦) بتصرف.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١١٦/٣).

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) انظر: تفسير فتح القدير (٣/٣٢٧ - ٣٢٨).

(٥) سورة التحريم: الآية ١٢.

وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ^(١) فأعاضها الله بعفتها ولداً من آيات الله ورسولاً من رسله^(٢).

فعندما خافت منه، وظنت أنه يريد لها على نفسها، قالت له ذلك تخويفاً له بالله، وتذكيراً له به، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله^(٣).

وروى البخاري في صحيحه عن أبي وائل أنه قال: «علمت مريم أن التقي ذو نهيته حين قالت ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾»^(٤).

وقال ابن حجر: قوله «نُهيته» بضم النون وسكون الهاء، أي: ذو عقل وانتهاء عن فعل القبيح^(٥).

فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة^(٦).

قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

وقد قرأ أبو عمرو^(٧) وورش^(٨) والحلواني^(٩) عن نافع^(١٠)، قال: «إنما أنا رسول ربك ليهب

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٢) تفسير السعدي (٤٩١/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١١٦/٣).

(٤) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٢٦٧/٣) قبل الحديث رقم (٣٤٣٦).

(٥) فتح الباري (٤٧٩/٦).

(٦) انظر: تفسير السعدي (٤٩١/١).

(٧) هو: زبان بن عمار التميمي المازني، أبو عمرو بن العلاء البصري من أئمة القراء والعربية، قرأ القرآن على سعيد بن جبير، ومجاهد، اشتهر بالفصاحة، والصدق، وسعة العلم، توفي سنة (١٥٤هـ).

انظر: معرفة القراء الكبار (١٠٠/١)، والبلغة في تراجم أئمة النحو (ص ٢٢)..

(٨) هو: عثمان بن سعيد بن عبدالله بن عمر، أبوسعيد أو أبو عمر القرشي، مولاهم القبطي المصري، الملقب بورش، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه، عرض القرآن على نافع عدة مرات، ولقب (ورش) لبياضه، توفي سنة (١٩٧هـ) بمصر.

انظر: معرفة القراء الكبار (١٥٢/١)، وغاية النهاية (٦/٢).

ليهب لك ((بالياء، أي: ليهب الله لك، ولم يكن جبريل الذي يهب بل الله يهب، والمعنى: أرسلني ليهب الله لك.

وقرأ الباقون ((لأهب لك)) بالهمز مكان الياء^(٣).

وفي توجيه هذه القراءات، يقو القرطبي في تفسيره:

«(لَأَهَبَ لَكَ) جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله، وقيل: معنى لأهب -

بالهمز - محمول على المعنى، أي: قال أرسلته لأهب لك»^(٤).

وللرازي في تفسيره توجيهان لهذه القراءة حيث يقول:

«... الأول: إن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى،

جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها، وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل، قال تعالى في

الأصنام: «رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ»^(٥) أي: كن سبباً في إضلالهم، والثاني: أن

جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة»^(٦).

وكلا القراءتين لها وجه حسن ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى^(٧).

(١) أحمد بن يزيد الحلواني أبوالحسن المقرئ، من أكابر الحذاق المجودين، قرأ على قالون، وعلى خلف البزار، وعلى هاشم بن عمار وجماعة، وكان من حفاظ الحديث، توفي سنة (٢٥٠هـ).

انظر: معرفة القراء الكبار (١/٢٢٢)، والوافي بالوفيات (١/٤٠٩).

(٢) هو نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم، الليثي المقرئ المدني، إمام أهل المدينة، حليف حمزة بن عبدالمطلب أو حليف أخيه العباس، وقيل يكنى أبا الحسن، وقيل أبا عبدالرحمن، قرأ على طائفة من تابعي أهل المدينة، ويقال أنه قرأ على سبعين من التابعين، توفي سنة (١٦٩هـ).

انظر: معرفة القراء الكبار (١/١٠٧)، وغاية النهاية (٢/٤٦٠).

(٣) انظر: حجة القراءات (١/٤٤٠).

(٤) تفسير القرطبي (١١/٩١).

(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٦) تفسير الرازي (٢١/١٦٩).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١١٦).

وقد ذكر الله ﷻ في هذه الآية الكريمة أن ذلك الروح الذي هو جبريل عليه السلام قال لها إنه رسول ربها ليهب لها، أي: ليعطيها ولداً زكياً طاهراً من الذنوب والمعاصي، كثير البركات، وبين القرآن الكريم في مواضع منه كثيراً من صفات هذا الغلام الموهوب لها، وهو عيسى عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ {٤٥} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {٤٦}﴾^(١).

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ {٤٨} وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^{(٢)(٣)}.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾.

فتعجبت مريم من هذا، وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور^(٤).

لأن العادة الجارية على الخلق أن الحمل لا يكون إلا من الزواج الشرعي بين رجل وامرأة، أو بطريق غير شرعي بالزنا، وهي عليها السلام لم يمسه بشر بزواج، وحاشا أن تكون بغياً.

والبغي: هي الفاجرة التي تبغي الرجال في الحرام^(٥)، وبغت المرأة بغاء: إذا فجرت، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ

(١) سورة آل عمران: الآيات ٤٥ - ٤٦.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٨٦).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١١٦).

(٥) انظر: تفسير الكشاف (٣/١١).

تَحْصَنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ (٢).

يقول الرازي في تفسيره :

«هذه الآية لقائل أن يقول قولها: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشْرًا﴾ يدخل تحته قولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فلماذا أعادتها، ومما يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشْرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (٣)، فلم تذكر البغاء؟.

والجواب من وجوه:

أحدها: أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه، لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ (٤)، والزنا ليس كذلك، إنما يقال فَجَرَبَهَا، أو ما أشبه ذلك، ولا يليق به رعاية الكنايات.

وثانيها: أن إعادتها لتعظيم حالها، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ (٥)، وقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ (٦)، فكذا ها هنا أن من لم تعرف من الناس بزواج، فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية، فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول؛ لأنه أعظم ما في بابه» (٧).

قال لها جبريل عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾، أي: هكذا الأمر كما تصفين من أنك لم يمسسك بشر،

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (٥٦/١).

(٢) سورة النور: الآية ٣٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

(٦) سورة البقرة: الآية ٩٨.

(٧) تفسير الرازي (١٧٠/٢١).

ولم تكوني بغياً، ولكن ربك قال: هو علي هين، أي: خلق هذا الغلام الذي قلت أن أهبه لك، لا يتعذر على الله سبحانه خلقه، وهبته لك، وإن لم يكن لك بعل، ولا يوجد منك فاحشة^(١).

فإنه سبحانه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فدل ذلك على كمال قدرته وعظيم سلطانه^(٢).

ويقول تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٣).

وجعل الله سبحانه عيسى عليه الصلاة والسلام رحمة بوالدته مريم ورحمة به سبحانه وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه، ومن عليه بما من به على أولي العزم من الرسل، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن، والمنافع العظيمة، وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة^(٤).

﴿وَكَانَ﴾ أي: وجود عيسى سبحانه على هذه الحالة ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدرًا في اللوح مسطوراً^(٥).

وجاء الحديث عن نفخ روح القدس جبريل سبحانه في مريم، في سورة الأنبياء وسورة التحريم، بالنفخ في الدرع الذي وصل إلى الفرج، فصار بسببه حملها بعيسى سبحانه، وقد بين

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٢/١٦)، وتفسير ابن كثير (١١٦/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١١٦/٣).

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٥٠.

(٤) انظر: تفسير السعدي (٤٩١/١).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٩١/١١).

سبحانه في سورة التحريم أن هذا النفخ في فرجها في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(١).

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى فرجها، ولا ينافي ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^(٢)؛ لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى^(٣).

والملاحظ هنا في هاتين الآيتين من سورة التحريم، وسورة الأنبياء عن خلق عيسى، والنفخ في مريم، ففي سورة الأنبياء ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ وفي سورة التحريم ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾.

فجاء الضمير الغائب بعد حرف الجر (في) مرة بصيغة التأنيث، ومرة أخرى بصيغة التذكير، وفي ذلك يقول الزمخشري في تفسيره:

«أحصنت فرجها إحصاناً كلياً عن الحلال والحرام جميعاً، كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، فإن قلت: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٤)، أي: أحييته، وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم، قلت: معناه نفخنا الروح في عيسى فيها، أي: أحييناه في جوفها ونحو ذلك، أن يقول الزمار: نفخت في بيت فلان، أي: نفخت في المزمار في بيته، ويجوز أن يراد:

وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا، وهو جبريل عليه السلام، أنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها.

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٨٧).

(٤) سورة ص: الآية ٧٢.

فإن قلت هلاً قيل - آيتين - كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتِينَ﴾^(١)
قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل^(٢).

ويقول ابن تيمية^(٣): «وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها، والجيب هو: الطوق الذي في العنق، وليس هو ما يسميه بعض العامة جيياً، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه، هو ذلك الجيب المعروف في اللغة، وذكر بعضهم قولين، هل كانت النفخة في جيب الدرع، أو في الفرج، فإن من قال بالأول، قال في فرج درعها، وإن من قال هو مخرج الولد، قال الهاء كناية عن غير مذكور؛ لأنه إنما نفخ في درعها لا في فرجها، وهذا ليس بشيء، بل هو عدول عن صريح القرآن، ... فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع فمراده أنه ﷺ لم يكشف بدنها، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة.

فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها، والمقصود إنما هو النفخ في الفرج، كما أخبر الله في آيتين، وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن ... والمقصود أن المسيح خلق من أصلين: من نفخ جبريل، ومن أمه مريم، وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغة، فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد، ولا كانت مريم حملت، وإنما حملت به بعد النفخ...»^(٤).

(١) سورة الإسراء: الآية ١٢.

(٢) تفسير الكشاف (٣/١٣٣ - ١٣٤).

(٣) هو: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني، ثم الدمشقي، تقي الدين، أبو العباس الشهير بابن تيمية، نبغ صغيراً وكان آية في سرعة الاستحضار، وقدوة الجنان، والتوسع في المنقول، والمعقول، تصانيفه كثيرة جداً، امتحن وسجن حتى مات في سجنه رحمه الله سنة (٧٢٨هـ)، وكانت جنازته مشهودة، من مصنفاة: اقتضاء الصراط المستقيم، ودرء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السنة النبوية، وغيرها.

انظر: الوافي بالوفيات (٢/٣٧٥)، والدرر الكامنة (١/١٦٨).

(٤) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير (١٧/٢٦٢ - ٢٦٣) باختصار.

مما سبق يتبين أن جبريل عليه السلام نفخ في فرجها، فذهبت النفخة إلى رحمها، وحملت بعيسى عليه السلام.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا { ٢٢ } فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا { ٢٣ } ﴾^(١).

يخبر تعالى عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال أنها استسلمت لقضاء الله تعالى، فعند ذلك نفخ جبريل عليه السلام في فرجها فحملت بالولد بإذن الله تعالى^(٢).

وقيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل بنت عشرين سنة، وقيل: بنت عشر، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل^(٣).

يقول الرازي في تفسيره عن ذلك:

((... .. وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال))^(٤).

واختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فقيل: كانت مدة حملها تسعة أشهر، وقيل: ستة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: حملته وولده في ساعة^(٥).

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر^(٦)، وهذا ما قال به جمع من المفسرين.

يقول ابن كثير في تفسيره:

((المشهور والظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء

(١) سورة مريم: الآيات ٢٢ - ٢٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١١٧/٣).

(٣) انظر: تفسير المحرر الوجيز (١٠/٤)، تفسير الرازي (١٧٢/٢١)، تفسير الكشاف (١٢/٣)، تفسير أبي السعود (٢٦١/٥).

(٤) تفسير الرازي (١٧٢/٢١).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١١٧/٣)، تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٣)، تفسير الكشاف (١٢/٣)، تفسير الرازي (١٧٢/٢١)، البحر المحيط (١٧٧/٦).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١١٧/٣).

بأولادهن»^(١).

وقال الرازي :

«قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : إنها كانت في تسعة أشهر ، كما في سائر النساء ، بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع ، فلو كانت عادتها في مدة الحمل بخلاف عادات النساء ؛ لكان ذلك أولى بالذكر»^(٢).

ويخبر الله ﷻ في كتابه أن مريم عليها السلام ، لما أحست بذلك الحمل خافت تعنيف الناس ، وأن يظن بها الشر انتبذت به ، أي : تنحت مكاناً بعيداً حياءً وفراراً^(٣).
والانتباز معناه الاعتزال ، والانفراد ، كما سبق توضيح ذلك ، و «مَكَاناً قَصِيّاً» أي : مكاناً بعيداً^(٤).

والمشهور عند المفسرين أن هذا المكان هو بيت لحم^(٥) ، فقد ورد في الحديث الذي رواه النسائي في السنن ، عن أنس بن مالك من حديث الإسراء ، وفيه يقول ﷺ : «... فقال لي جبريل انزل فصل ، فصليت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ صليت بيت لحم ، حيث ولد عيسى ابن مريم»^(٦).

ويلاحظ في الآيات ورود فعل «انتبذت» مرتين ، ففي المرة الأولى في قوله تعالى :
﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾^(٧) ، وفي المرة الثانية في

(١) تفسير ابن كثير (١١٧/٣).

(٢) تفسير الرازي (١٧٢/٢١).

(٣) انظر : تفسير المحرر الوجيز (١٠/٤).

(٤) انظر : تفسير القرطبي (٩٢/١١).

(٥) انظر : تفسير أضواء البيان (٣٨٩/٣) ، تفسير ابن كثير (١١٧/٣) ، تفسير القرطبي (٩٢/١١).

(٦) رواه النسائي في سننه (المجتبى) كتاب الصلاة ، باب : فرض الصلاة (٢٢٢/١).

(٧) سورة مريم : الآية ١٦.

قوله: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾^(١).

وفعل «انتبذت» في قوله: «انتبذت من أهلها» تدل على معنى الانفراد والابتعاد عن أهلها، وفعل (انتبذت) الثاني تعدى إلى ما بعده بحرف الجر الباء: «فانتبذت به مكاناً قاصياً»، فدل على معنى المصاحبة، والهاء في (به) تعود على عيسى وهو جنين في رحمها^(٢).

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾ يخبر القرآن عن حال مريم عندما جاءها المخاض، وهو وقت ولادتها بابنها عيسى، بقوله: «فأجاءها»، ورد في المعجم الوسيط: «جاء مجيئاً: أتى، ويقال: جاءه، وجاء إليه، وجاءنيه.

(وأجاء) فلاناً: جاء به، وأجاء فلاناً إلى كذا: ألبأه إليه، قال تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾^(٣).

وفي المفردات: يقول الراغب: «يقال: جاءه بكذا، وأجاءه. قال تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾. قيل: ألبأها، وإنما هو معدى عن «جاء»^(٤).

يقول الزمخشري في تفسيره للآية:

«﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أجاء: منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلباء، ألا تراك تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد، كما تقول بلغته، وأبلغنيه، ونظيره (أتي) حيث لا يستعمل إلا في الإعطاء، ولا يقال أتيت المكان، وأتانيه فلان»^(٥).

«وقوله تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي: فاضطرها، وألبأها

(١) سورة مريم: الآية ٢٢.

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط (١٦٩/٦ - ١٧١) بتصرف.

(٣) المعجم الوسيط (١/١٤٩).

(٤) المفردات في غريب القرآن (١/١٠٤).

(٥) تفسير الكشاف (٣/١٢).

الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحت إليه ...»^(١).

وجذع النخلة: هو ساقها، قال القرطبي: «والجذع: ساق النخلة اليابسة في الصحراء، الذي لا سعف عليه، ولا غصن له، ولهذا لم يقل إلى النخلة، وكأنها طلبت شيئاً تستند إليه، وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق»^(٢).

قوله: ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾.

وحين ولادتها عيسى عليه السلام، قالت ذلك، فتمنت مريم عليها السلام الموت، وتمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤرثه به، من شأنه ومن حقه أن ينسى في العادة، وذلك لما لحقها من فرط الحياء من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله، أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها، وهي عارفة ببراءة ساحتها، وباختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام، وأن هذا المقام (دحض)^(٣) قلما تثبت عليه الأقدام، أن يعرف العبد اغتباطه بأمر عظيم، وفضل باهر يستحق به المدح، ويستوجب التعظيم، ثم يراه عند الناس لجهلهم به عيباً يُعاب به، ويُعنف بسببه، أو أنها تمتمت لموت لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها^(٤).

قال تعالى: ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا {٢٤} وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا {٢٥} فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا {٢٦} ﴾^(٥).

واختلف المفسرون في هذا المنادي الذي ناداها، والمعبر عنه بقوله: ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾.

(١) تفسير ابن كثير (١١٧/٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩٢/١١).

(٣) الدحض: الزلق، والإدحاض: الإزلاق، والدحض: جمع داحض، وهم الذين لا ثبات لهم، ولا عزيمة في الأمور، ومكان دحض: إذا كان مزلة لا تثبت عليها الأقدام. انظر: لسان العرب (١٤٨/٧) مادة: (د ح ض).

(٤) انظر: تفسير الكشاف (١٣/٣).

(٥) سورة مريم: الآيات ٢٤ - ٢٦.

تَحْتِهَا»، فقال بعض العلماء: هو عيسى، وقال بعض العلماء: هو جبريل، والذين قالوا إنه جبريل، قالوا: لم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها^(١).

وفي هذه الآية قراءتان: القراءة الأولى: «فناداها مَنْ تَحْتِهَا» بفتح الميم، والتاء، فجعلوا (مَنْ) اسماً، وجعلوا النداء له المعنى، فناداها الذي تحتها، وهو عيسى، وهذه قراءة ابن كثير^(٢)، وأبو عمرو وابن عامر^(٣).

وقرأ الباقر (مِنْ تَحْتِهَا) بكسر الميم والتاء، أي فناداها جبريل من بين يديها^(٤).

فعلى القراءة الأولى يكون عيسى وليدها هو من ناداها، وعلى القراءة الثانية يكون الملك (جبريل) هو الذي ناداها.

ومن رجع بأنه عيسى، استدل على ذلك بقريتين، الأولى: أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى، لا جبريل؛ لأن الله قال «فَحَمَلْتَهُ» يعني عيسى «فَانْتَبَذَتْ بِهِ» أي: بعيسى، ثم قال بعده «فَنَادَاها» فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى.

والقرينة الثانية: أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليكلموه، كما قال تعالى عنها: «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا»^(٥)، وإشارتها إليه ليكلموه، قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٩٣).

(٢) هو: عبدالله بن كثير بن المطلب، أبو معبد المكي الداري، إمام أهل مكة في القراءة، وأحد القراء السبعة، لقي عدداً من الصحابة، توفي سنة (١٢٠هـ).

انظر: غاية النهاية في طبقات القراء (١/٤٤٥)، ورجال صحيح البخاري (١/٤٢٣).

(٣) هو: عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر اليحصبي، إمام أهل الشام في القراءة، انتهت إليه فيها مشيخة الإقراء، ثبت سماعه لعدد من الصحابة، توفي بدمشق سنة (١١٨هـ).

انظر: معرفة القراء الكبار (ص ٨٥)، وغاية النهاية (١/٤٢٥).

(٤) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة (١/٤٤١).

(٥) سورة مريم: الآية ٢٩.

العادة لندائه لها عندما وضعته^(١).

ومن اختار أن الذي ناداها هو عيسى، ابن جبريل الطبري في تفسيره^(٢)، وأبو حيان في تفسيره البحر^(٣).

ومن اختار أنه جبريل، القرطبي في تفسيره، والسعدي كذلك في تفسيره، وقالوا: وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها^(٤).

فناداها قائلاً: ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا﴾ والسري هو: الجدول، وهو النهر الصغير^(٥).

روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب^(٦)، قال: ﴿سَرِيًّا﴾ نهر صغير بالسريانية^(٧).

﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾.

قيل: كان جذع النخلة يابساً، وقيل: كانت نخلة مثمرة، فالله أعلم، ويحتمل أنها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء، وليس ذاك وقت الثمر، وقد

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٣/٣٩٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/٦٨).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط (٦/١٧٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١١/٩٤)، تفسير السعدي (١/٤٩٢).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٦/٧١).

(٦) هو: البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدوعة بن حارثة بن الحارث الأنصاري الأوسي، ويكنى أبا عمارة، ويقال أبو عمرو، له ولأبيه صحبة، وقد روى عن النبي ﷺ جملة من الأحاديث، وعن أبيه وأبي بكر، وعمر وغيرهما من أكابر الصحابة، شهد مع علي رضي الله عنه الجمل في صفين والنهروان، ثم نزل الكوفة ومات بها أيام مصعب بن الزبير.

انظر: الاستيعاب (١/١٥٥)، أسد الغابة (١/٢٥٨)، الإصابة في تمييز الصحابة (١/٢٨٧).

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ (٣/١٢٦٧).

يُفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان: ﴿تَسَاقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّيًا﴾^(١).

وعن الحكمة من سريان الماء، وتساقط الرطب، يقول الزمخشري:

«فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام أو الشراب حتى تُسَلَّى بالسري والرطب؟

قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة، والبعد عن الريية، وأن مثلها مما قرفوها^(٢)، به معزل، وأن لها أموراً خارجة عن العادات، خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها»^(٣).

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فكلي من التمر، واشربي من النهر، وقري عيناً، بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب، والهنى. وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إن رأت أحداً من البشر أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: سكوتاً، ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام لتستريحي من قولهم، وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم في نفي ذلك عن نفسها؛ لأن الناس لن يصدقوها، ولن يكون في ذلك فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد أعظم شاهد على براءتها. فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوي التي لو أقيم عليها عدة من الشهود لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره وهو في المهد^(٤).

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ {٢٧} يَا أُخْتَ

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٣٩١).

(٢) قرفوها: أي اتهموها، يقال قرفه بكذا: أضافه إليه واتهمه به وألصقه. يراجع لسان العرب (٢٨٠/٩) مادة: (ق ر ف).

(٣) تفسير الكشاف (١٥/٣).

(٤) انظر: تفسير السعدي (٤٩٢/١).

هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا {٢٨} ﴿١﴾.

قال القرطبي:

«لما اطمأنت لما رأته من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصبي الذي كانت انتبذت فيه»^(٢).

فقالوا لها: «يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا».

والفري: الأمر العظيم، ومعنى «لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا» أي: شيئاً عظيماً، وقيل: مصنوعاً مختلفاً، وفلان يفري الفري إذا كان يأتي بالعجب في عمله^(٣).

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾.

أي: شبيهة هارون في العبادة، وأنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة، والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟

قال السدي: قيل لها: يا أخت هارون، أي: أخي موسى، وكانت من نسله كما يقال للتميمي: يا أخت تميم، وللمضري: يا أخت مضر، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم، يقال له هارون، وأغرب من هذا كله من زعم أنها أخت موسى وهارون عليهما السلام، التي قص لنا القرآن خبرها في سورة القصص: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»^(٤)... وهذا القول خطأ محض^(٥).

قال تعالى: «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» {٢٩} قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا {٣٠} وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي

(١) سورة مريم: الآيات ٢٧ - ٢٨.

(٢) تفسير القرطبي (٩٩/١١).

(٣) انظر: لسان العرب (١٥٤/١٥) مادة (ف ر ي).

(٤) سورة القصص: الآية ١١.

(٥) تفسير ابن كثير (١١٩/٣ - ١٢٠) بتصرف.

بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا {٣١} وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا {٣٢}
وَالسَّلَامَ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا {٣٣} ﴿١﴾.

أي: أنهم لما أسترابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة ممسكة عن الكلام صامته، فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه.

فقالوا متهمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، أي: من هو موجود في مهده في حال صباه، وصغره كيف يتكلم؟^(٢)، فقال عيسى عندما أشارت إليه أمه راداً على قومها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

فذكر عبوديته لله تعالى أولاً؛ لأن الاعتراف بذلك على ما قيل هو أول مقامات السالكين، وفيه رد على من يزعم ربوبيته، وفي جميع ما قال تنبيه على براءة أمه لدلالته على الاصطفاء، والله سبحانه أجل من أن يصطفي ولد الزنا، حاشا وكلا، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وذلك من المسلمات عندهم. وفيه من إجلال أمه عليها السلام ما ليس في التصريح، وقيل: لأنه تعالى لا يخص بولد موصوف بما ذكر إلا مبرأة مصطفىاه^(٣).

والكتاب الذي آتاه الله عيسى عليه السلام هو الإنجيل^(٤)، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾^(٥).

ونبوته عليه السلام دليل على براءة أمه؛ لأن أنبياء الله عليهم السلام هم أطهر الناس نسباً. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، عبر بالماضي عما سيقع

(١) سورة مريم: الآيات ٢٩ - ٣٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٢٠).

(٣) تفسير روح المعاني (١٦/٨٩).

(٤) انظر: تفسير الكاشف (٣/١٧).

(٥) سورة الحديد: الآية ٢٧.

في المستقبل، ونظائر ذلك في القرآن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ {٦٨} وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {٦٩} وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ {٧٠} وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ {٧١} قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْهُم بِمَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ {٧٢} وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ {٧٣} ﴿^(١)

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل، وذلك تنزيلاً لتحقيق وقوعه منزلة الوقوع، فقوله: ﴿ آتَانِي الْكِتَابَ ﴾ ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ بمعنى المستقبل، وهذا هو الصواب، وذلك خلافاً لمن زعم أنه نبي وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ^(٢).

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾، أي: حيثما كنت، وقيل: معنى المبارك: النافع للعباد، وقيل: المعلم للخير، وقيل: البركة: أصلها من بروك البعير، والمعنى جعلني ثابتاً في دين الله^(٣).

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

يقول الشيخ السعدي في تفسيره هذه الآية:

«أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده التي من أجلها

(١) سورة الزمر: الآيات ٦٨ - ٧٣.

(٢) انظر: تفسير أضواء البيان (٤١٦/٣).

(٣) انظر: تفسير فتح القدير (٣٣٢/٣).

الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثّل لوصية ربي عامل عليها منفذ لها»^(١).

والظاهر المتبادر من المدة المذكورة مدة كونه عليه السلام حياً في الدنيا على ما هو المتعارف، وذلك لا يشمل مدة كونه عليه السلام في السماء^(٢).

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾.

أي: وأوصاني أيضاً أن أبر والدي، فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق البر، والطاعة، وذكر بر والديه بعد طاعة ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته، وطاعة الوالدين^(٣)، كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾^(٤)، وقوله: ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾^(٥).

والجبار هو المتعظم، الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والشقي العاصي لربه، وقيل: الخائب، وقيل: العاق^(٦).

قوله: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

قال المفسرون: السلام هنا بمعنى السلامة عليّ يوم ولدت، فلم يضرنني الشيطان في ذلك الوقت، ولا أغواني عند الموت، ولا عند البعث، وقيل: المراد به التحية، وقيل: اللام للجنس، أي: جنس السلام عليّ خاصة، وقيل: للعهد، أي: وذلك السلام الموجه إلى يحيى عليه السلام في هذه المواطن الثلاثة موجهٌ إليّ^(٧).

(١) تفسير السعدي (١/٤٩٢).

(٢) انظر: تفسير روح المعاني (١٦/٩٠).

(٣) انظر: تفسير السعدي (١/٤٩٢)، وتفسير ابن كثير (٣/١٢١).

(٤) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٥) سورة لقمان: الآية ١٤.

(٦) انظر: تفسير فتح القدير (٣/٣٣٢).

(٧) انظر: تفسير فتح القدير (٣/٣٣٢)، ويراجع تفسير الكاشف (٣/١٧ - ١٨).

وأخبر القرآن الكريم عن مريم مع ابنها عيسى عليه السلام في مواضع كثيرة منه ؛ لتبين هذه الآيات حقيقة مريم وابنها عيسى عليه السلام ، فقد ذكرت الآيات اختلاف الناس فيهما ، فاليهود كذبوا بعيسى ، واتهموا والدته بما هي بريئة منه ، رغم ما كانت عليه من الطهر والنزاهة وحسن السيرة ، والنصارى غالوا فيهما ، وأوصلوهما إلى درجة الألوهية.

قال تعالى: ﴿ ذَلِكْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ { ٣٤ } مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ { ٣٥ } وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ { ٣٦ } فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ { ٣٧ } ﴿^(١)

وقال سبحانه عن حقيقة عيسى وأمه: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(٢).

وقال عز من قائل عن اليهود المفتريين على مريم ، والمكذبين بعيسى رسول الله: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾^(٣) يعني بفريتهم عليها ورميهم إياها بالزنى ، وهو البهتان العظيم^(٤).

وقد أخبر القرآن في المقابل عن كفر من اتخذ عيسى إلهاً من دون الله ، وهم النصارى ، فقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ

(١) سورة مريم: الآيات ٣٤ - ٣٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٥٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢/٦).

(٥) سورة المائدة: الآية ٧٢.

وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

قال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^{(٢)(٣)}.

وقد ذكر الله في كتابه في غير ما موضع أن الله امتنّ على عيسى، وأمه عليهما السلام، بأن جعلهما من آيات الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَزَجَّهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٥).

واختلف المفسرون في هذا المكان الذي آوى الله إليه عيسى وأمه عليهما السلام، واختار بعضهم كابن كثير وغيره، أن هذا المكان الذي وصفه الله ﷻ بأنه ﴿رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هو بيت المقدس؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً^(٦).

يقول ابن عطية في تفسيره:

«أنه ﷻ جعل مجموع قصة عيسى، وقصة مريم من أولها إلى آخرها آية لمن اعتبر

(١) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨٢/٢).

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٥٠.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٢٤٧/٣)، تفسير أضواء البيان (٣٩١/٣)، وتفسير السعدي (٥٥٣/١).

ذلك»^(١).

وامتن الله على عيسى عليه السلام وعلى أمه مريم بتأييده بروح القدس ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾^(٢).

فذكر سبحانه ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات ، وخوارق العادات.

وما امتن الله به على أمه مريم ، حيث جعل الله لها عيسى عليه السلام برهاناً على براءتها مما نسبته إليها الظالمون والجاهلون من الفاحشة^(٣).

وقد زعم بعض أهل العلم أن مريم ابنة عمران نبية من الأنبياء ؛ لأن الله عز وجل قد أوحى إليها ، وكذلك في أم إسحاق ، وأم موسى ؛ لأن الوحي قد خاطبهن.

ومن الذين قالوا بذلك الإمام ابن حزم الأندلسي في كتابه الفصل ، فقد عقد فصلاً كاملاً بعنوان «نبوة النساء» ، ذكر فيه ثبوت نبوة النساء ، وقال في ذلك :

«... جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل الملائكة إلى نساء ، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى ، فبشروا أم إسحاق بإسحاق عن الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾^(٤) ، فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحاق ، ثم يعقوب ، ثم بقولهم لها أتعجبين من أمر الله ، ولا يمكن أن

(١) تفسير المحرر الوجيز لابن عطية (٩٨/٤).

(٢) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (١١٦/٢).

(٤) سورة هود : الآية ٧١ .

يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها، وقال لها: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾^(١).

فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح، ورسالة من الله تعالى إليها... ووجدنا أم موسى عليها السلام قد أوحى إليها بالقاء ولدها في اليم، وأعلمها أنه سيرده إليها، ويجعله نبياً مرسلًا، فهذه نبوة لا شك فيها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢)^(٣).

ومن القائلين بنبوة مريم أيضاً الإمام القرطبي في تفسيره، حيث قال:

«والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة ملك، كما أوحى إلى سائر الأنبياء...»^(٤).

وذكر رحمة الله أن مريم ابنة عمران أفضل النساء على الإطلاق؛ لأنها نبية، والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقاً، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة، ثم آسية^(٥).

والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال^(٦)، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(٧).

يقول ابن كثير في تفسيره:

(١) سورة مريم: الآية ١٩.

(٢) سورة القصص: الآية ٧.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١٣/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٨٣/٤).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٨٣/٤).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٨٢/٢).

(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٩.

«قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقامها، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة...»^(١).

وقد أغرب بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى عن مجيء جبريل عليه السلام وظهوره لمريم وتمثله لها في صورة بشر ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٢) بقولهم وذلك ليهيح شهوتها، فتنحدر نطقها إلى رحمها^(٣).

وهذا القول الغريب مع ما فيه من المخالفة؛ إلا أن الآيات ترده، وتكذبه، فإن الله تعالى قد قال عنها مخبراً بعد ما رأت الملك ظانة بأنه بشر: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(٤).

يقول أبو السعود في تفسيره للآية:

«﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه... ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه...»^(٥).

وكذلك في قولها: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، قال بعضهم إنه كان في زمانها رجل فاجراً اسمه تقي، فظنته إياه، فاستعادت بالله منه^(٦).

يقول ابن كثير:

«قال أبو العالية^(٧): قد علمت أن التقي ذو نهيية، وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني

(١) تفسير ابن كثير (٨٢/٢).

(٢) سورة مريم: الآية ١٧.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٢٦٠/٥)، تفسير البيضاوي (٩/٤) وروح المعاني (٧٥/١٦).

(٤) سورة مريم: الآية ١٨.

(٥) تفسير أبي السعود (٢٦٠/٥)، ويراجع تفسير روح المعاني للألوسي (٧٥/١٦).

(٦) انظر: تفسير زاد المسير (٢١٧/٥).

(٧) هو: رفيع بن مهران، أبو العالية الرياحي، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة الرسول ﷺ بستين، وروى عن علي،

إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي ، فإن هذا قول باطل لا دليل عليه ، وهو من أسخف الأقوال»^(١).

وقال ابن حجر: «وأغرب من قال إنه اسم رجل يقال له تقي كان مشهوراً بالفساد فاستعادت منه»^(٢).

وهذا ما ذكر عن مريم عليها السلام وعن ابنها عيسى النبي عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية المطهرة .

وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمرو ، وأبي بن كعب وغيرهم ، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير ، توفي سنة (٥٩٠هـ).

انظر : تهذيب الكمال (٢١٤/٩) ، تهذيب التهذيب (٢٤٦/٣) ، .

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (ص٣٨٨).

(٢) فتح الباري (٤٧٩/٦).

الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا البحث:

١- أن في هبة الله ﷻ الولد لنبيه إبراهيم، والبشارة به من زوجه سارة، وهي عجوز عقيم، يعتبر معجزة له ﷺ، وكرامة لسارة^(١).

٢- في قول سارة حين سمعت البشارة بإسحاق، وتعجبت منها ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ ما يدل على تأديبها مع زوجها، نبي الله إبراهيم ﷺ، حيث لم تقل: وهذا بعلي لا يقدر على الإنجاب لكبر سنه، ولكنها قالت: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ فدللت هذه العبارة على ما أرادت، بأحسن أسلوب.

وكذلك وصفها له ﷺ بالبعول، لما يتضمنه هذا الوصف من معنى الاستعلاء^(٢).

٣- لا بد من الأخذ بالأسباب، وعدم الاستسلام بحجة القضاء والقدر مع الإيمان التام بقضاء الله وتقديره، وفعل الأسباب التي تنفع؛ لأن الأخذ بالأسباب، والسعي هي من قدرة الله، فهذه أم موسى ﷺ قد وعدّها الله أن يرد عليها ابنها، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون أخذت بالأسباب، وسعت وأرسلت أخته لتقصه، وتعمل بالأسباب المناسبة لذلك الحال^(٣).

٤- جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، كما فعلت أم موسى، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه^(٤).

٥- إن البيت الصالح، والذي أسس على الإيمان والتقوى، لا ينتج عنه إلا ذرية صالحة، فالأم الصالحة، والأب الصالح هما أساس الذرية الصالحة، فآل عمران من البيوت التي شهد لها القرآن بالفضل، والاصطفاء خرجت منه مريم ابنة عمران الطيبة الطاهرة، العابدة، والتي اصطفاه الله ﷻ فكانت أمًا لنبي من أنبيائه.

(١) انظر: قصص الأنبياء وما فيها من العبر للإمام السعدي (ص ٤٧).

(٢) انظر: روح المعاني (١٢/١٠٠).

(٣) انظر: قصص الأنبياء وما فيها من العبر (ص ٦١).

(٤) قصص الأنبياء وما فيها من العبر (ص ٦١)، ويراجع تفسير القرطبي (١٣/٢٥٨).

٦- إن من أعظم نعم الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار، فإن المربي والكافل له الأثر العظيم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، فها هي مريم البتول جعلها الله في كفالة نبيه زكريا عليه السلام، وأفضل بني إسرائيل في ذلك الوقت، وهذا من إكرام الله ﷻ لها^(١).

٧- ومن قصة مريم ابنة عمران بعد أن وضعت ابنها عيسى، وذهبت به إلى قومها، وأمرها الله تعالى بقوله: ﴿فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(٢).

فأمر الله مريم بنذر الصوم، أي: الصمت عن الكلام، وفي هذا ما يدل على كراهة مجادلة السفهاء، وأن السكوت عن السفهاء، وترك المقابلة معهم بالسفه والجدال أمرٌ مستحب^(٣).

(١) انظر: قصص الأنبياء وما فيها من العبر للسعدي (١٠٥ - ١٠٦).

(٢) سورة مريم: الآية ٢٦.

(٣) انظر: تفسير الكشاف (١٦/٣).

الفصل الثاني

زوجات النبي محمد ﷺ

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : زوجات النبي محمد ﷺ .

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : حادثة الإفك وأثرها في بيت النبي ﷺ .

المطلب الثاني : زينب بنت جحش وزواجها من الرسول .

المطلب الثالث : قصة تحريم مارية .

المطلب الرابع : ما أحل الله لنبية من النساء .

المطلب الخامس : ما أوجب الله على نساء النبي عليه الصلاة والسلام .

المبحث الثاني : زوجتا نوح ولوط عليهما السلام .

المبحث الثالث : زوجتا إبراهيم عليه السلام .

المبحث الرابع : زوج موسى عليه السلام .

المبحث الخامس : زوج آدم عليه السلام .

المبحث السادس : زوج أيوب عليه السلام .

المبحث السابع : زوج زكريا عليه السلام .

المبحث الأول

زوجات النبي محمد ﷺ

المطلب الأول: حادثة الإفك وأثرها في بيت النبي ﷺ

يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا
 أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ
 بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ
 فَذُوِّلْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا
 أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْسِّنِّتِ كُمْ وَقَوْلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ
 هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحٰنَكَ هَذَا بُهْتٰنٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيٰتِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفٰحِشَةُ فِي الدُّنْيَا ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ
 رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ (١).

هذه الآيات العشر كلها نزلت في شأن أم المؤمنين عائشة (٢) رضي الله عنها حين رماها أهل

(١) الآيات من سورة النور: رقم (١١ - ٢٠).

(٢) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي، زوج

النبي ﷺ وأمها أم رومان بنت عامر الكنانية، تزوجها رسول الله بمكة قبل الهجرة بستين، وهي بنت ست سنين،
 وبنى بها بالمدينة، وهي ابنة تسع، على خلاف في ذلك، وتوفي عنها عليه الصلاة والسلام وهي بنت ثمان عشرة سنة،
 =

الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله تعالى لها لنبية صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله براءتها صيانه لعرض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام^(١).

قصة الإفك كما وردت في الصحيحين:

ها هو بيت النبوة أشرف البيوت وأطهرها، وهذا نبي الله محمد صلوات ربي وسلامه عليه يُتهم في عرضه، وأهل بيته، والناس يخوضون في هذا الموضوع، ورسول الله يسمع ما يتناقله الناس، ويمر شهراً كاملاً حتى وصلت الفتنة لذروتها، وأما عائشة رضي الله عنها وأرضاها لم يرقأ لها دمع كما أخبرت بذلك، فتقول في رواية أوردها البخاري ومسلم في صحيحها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت: عائشة فأقرع بيننا في غزوة^(٢) غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي^(٣)، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل^(٤)، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقامت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع^(٥) ظفار قد انقطع، فالتمست عقدي وحسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون^(٦)، فاحتملوا هودجي، فرحلوا على

ولم ينكح الرسول بكرة غيرها، وكانت من أحب الناس إليه، وكانت من أفضه الناس وأعلمهم، وأحسنهم رأياً، توفيت رضي الله عنها سنة (٥٧هـ).

انظر: الاستيعاب (٤/١٨٨١)، والإصابة (٨/١٦٦).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/٢٦٩).

(٢) هي غزوة بني المصطلق، وكانت في السنة الخامسة من الهجرة على القول الأرجح. انظر: فتح الباري (٧/٤٣٠)، والاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله (٢/١٦٥).

(٣) الهودج: مركب من مراكب النساء، يوضع على ظهر البعير. انظر: تاج العروس (٦/٢٧٤) مادة (هدج).

(٤) قفل: أي رجع من غزوته، انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/٩٢) مادة (قفل).

(٥) عقد من جزع ظفار: الجزع بالفتح: الخرز اليماني، وظفار، هي مدينة لحمير باليمن.

انظر: النهاية في غريب الأثر (١/٢٦٩)، (٣/١٥٨).

(٦) يرحلون لي: أي يجعلون الهودج الذي هي فيه على البعير، فشبهت الهودج الذي هي فيه بالحل.

بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العُلقة^(١) من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فأمتُّ منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل^(٢) السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدّج^(٣)، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه^(٤) حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبي سلول^(٥)، فقدمنا

انظر: فتح الباري (٤٥٩/٨).

(١) العُلقة: القدر القليل من الطعام، انظر: النهاية في غريب الأثر (٢٨٩/٣) مادة، (علق).

(٢) صفوان بن المعطل بن ربيعة بن خزاعي بن محارب بن مرة بن فالج بن ذكوان السلمي، ثم الذكواني، سكن المدينة، وشهد صفوان الخندق، والمشاهد ويقال أول مشاهده هي (المريسيع) التي جرى ذكرها في حديث الإفك المشهور وفيه قال النبي ﷺ ﴿ ما علمت عليه إلا خيراً ﴾ قيل إنه توفي سنة (٥٨)، وقيل (١٩)، وقيل (٦٠).

انظر: الاستيعاب (١ / ٧٢٥)، الإصابة في تمييز الصحابة (٣ / ٤٤٠).

(٣) فأدّج: أدّج إذا سار من أول الليل، فإذا سار من آخره فقد أدّج بتشديد الدال.

انظر: لسان العرب (٢ / ٢٧٢) مادة (دج).

(٤) أي بقوله: ﴿ إن الله وإنا إليه راجعون ﴾.

انظر: فتح الباري (٨ / ٤٦٣).

(٥) هو عبدالله بن أبي سلول الأنصاري من بني عوف بن الحزرج، كان اسمه الحباب، فسماه الرسول ﷺ عبدالله، وكان رأس المنافقين، ومن تولى كبر الإفك في أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهو الذي قال في غزوة تبوك لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ابنه عبدالله من خيار الصحابة، وقد استأذن الرسول في قتل والده، فقال الرسول: لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، ولكن بر أبك وأحسن صحبتته، وصلى عليه الرسول بعد أن مات، فأنزل الله: ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾.

انظر: أنساب الأشراف (١ / ٩١)، الوافي بالوفيات (٩ / ١٧).

المدينة، فاشتكت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني^(١) في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ، فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ثم ينصرف، فذاك الذي يريني ولا أشعر حتى خرجت بعد ما نقهت^(٢)، فخرجت معي أم مسطح^(٣)، قبل المناصع^(٤)، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف^(٥) قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها^(٦)، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهيداً بدماء، قالت: أي هنتاه^(٧)، أو لم تسمعي ما قال، قالت: قلت: وما قال؟

(١) يريني: أي يجعلني أشك وأرتاب.

انظر: عمدة القاري (٢٣٠/١٣).

(٢) نقهت: من نقه فهو ناقه، وهو الذي برئ من المرض، وهو قريب عهد به، لم يتراجع إليه كمال صحته.

انظر: عمدة القاري (٢٣١/١٣) وفتح الباري (٤٦٥/٨).

(٣) أم مسطح بنت أبي رهم بن عبدالمطلب بن عبدمناف، وأمها سلمى بنت صخر بن عامر، وأمها ربيعة بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، اشتهرت بكينيتها، وكانت من أشد الناس على ابنها مسطح حين تكلم مع أهل الإفك.

انظر: الاستيعاب (١٢٢٤/٣) والإصابة (٣٠٢/٨).

(٤) المناصع: هي المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة، ومناصع جمع منصع.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٦٤/٥).

(٥) الكنف: مواضع قضاء الحاجة، (الخلاء).

انظر: النهاية في غريب الأثر (٣٩٠/١).

(٦) مرطها: المرط بكسر الميم، كساء من صوف، والمرط هي الأكسية.

انظر: عمدة القاري (٢٣١/١٣).

(٧) هنتاه: أي ياهذه يستعمل في النداء، فكأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشروهم.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢٧٨/٥)، وعمدة القاري (١٩٤/٩).

فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ تعني سلم، ثم قال: كيف تيكم؟^(١) فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبّلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمّاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة^(٢) عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله، ولقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد^(٣) رضي الله عنهما حين استلبت الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار عليّ رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله أهلك، وما نعلم إلا خيراً، وأما عليّ بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله لم يُضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة^(٤)، فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت: بريرة لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه^(٥) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السنة تنام عن عجين أهلها، فتأتي

(١) تيكم: بكسر التاء، وهي للمؤنث، مثل ذاكم للمذكر، واستدلّت عائشة رضي الله عنها، بهذه الحالة على أنها استشعرت منه بعض جفاء.

انظر: فتح الباري (٤٦٥/٨).

(٢) وضيئة: من الوضوء أي حسنة جميله.

انظر: فتح الباري (٤٦٧/٨)، وعمدة القاري (٢٣٢/١٣).

(٣) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبدالعزيز بن كنانة الكلبي الحب بن الحب، يكنى أبا محمد، ويقال أبو زيد، وأمّه أم أيمن حاضنة النبي ولد في الإسلام، وتوفي النبي وله عشرون سنة، وكان قد أمره على جيش عظيم فمات النبي قبل أن يتوجه، توفي في أواخر خلافة معاوية سنة (٥٤).

انظر: الاستيعاب (٧٥ / ١)، والإصابة (٤٩ / ١).

(٤) بريرة: مولاة عائشة، قيل كانت مولاة لقوم من الأنصار، فأعتقتها وكانت تخدم عائشة قبل أن تشتريها.

انظر: طبقات ابن سعد (٢٥٦ / ٨)، الإصابة في تمييز الصحابة (٥٣٥ / ٧).

(٥) أغمصه: أي أعيها به، وأطعن عليها قولها

انظر: عمدة القاري (٢٣٢/١٣)، وفتح الباري (٦٠/٣).

الداجن^(١) فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول ، قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرنني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ^(٢) الأنصاري ، فقال : يا رسول الله أنا أعذرک منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک ، قالت : فقام سعد بن عبادة^(٣) ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير^(٤) ، وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتشاور الحیان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم

(١) الداغن : الشاة التي تألف البيت ، ولا تخرج إلى المرعى ، وهذا من الاستثناء البديع الذي يراد به المبالغة في نفي العيب ، فغفلتها عن عجينتها أبعد لها من مثل الذي رميت به ، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات . انظر : فتح الباري (٤٧٠/٨) .

(٢) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأنصاري ، يكنى أبا عامر ، شهد بدرًا ، وأحدًا ، والخندق ، ورمي يوم الخندق بسهم فعاش شهراً ثم مات من جرحه سنة خمس من الهجرة ، وكان موته بعد الخندق بشهر ، وبعد قريظة بليالٍ ، ومامات حتى حكم في بني قريظة ، وكان حكمه فيهم أن تقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم ، فيستعين بها المسلمون فقال الرسول : "أصبت حكم الله فيهم" . انظر : الاستيعاب (٦٠٢/٢) ، والإصابة (٨٦/٣) .

(٣) سعد بن عبادة بن دليم بن أبي حليلة بن ثعلبة بن الخزرج الأنصاري ، يكنى أبا ثابت ، وكان نقيباً ، شهد العقبة ، وبدرًا ، وكان عقيباً نقيباً ، سيداً جواداً . وكان سيد الخزرج وكانت راية رسول الله ﷺ يوم الفتح بيد سعد بن عبادة . توفي في خلافة عمر رضي الله عنه سنة ١٥ ، وقيل بل مات في خلافة أبي بكر سنة ١١ . انظر : الاستيعاب (٥٩٤/٢) ، والإصابة (٦٥/٣) .

(٤) أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن الخزرج الأنصاري قيل يكنى أبا عيسى ، وقيل أبو يحيى وقيل أبو عتيك ، وقيل أبو الحضير ، والأشهر أبو يحيى ، شهد العقبة الثانية ، وهو من النقباء ليلة العقبة ، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد ، وجرح يوم أحد ، وثبت مع الرسول ﷺ حين انكشف الناس ، كان أحد العقلاء والكلمة والرأي وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن . توفي في شعبان سنة (٢٠) ، وقيل (٢١) من الهجرة . انظر : الاستيعاب (٩٢/١) ، والإصابة (٨٣/١) .

على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفّضهم^(١) حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ^(٢) لي دمع يظنان أن الإبكاء فائق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذُ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شاني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال أما بعد: يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص^(٣) دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبني رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(٤) قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شاني وحيّاً يتلى، ولشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني

(١) يُخفّضهم: أي يسكنهم، ويأمرهم بالسكوت.

انظر: عمدة القاري (١٨/١٥٦)، فتح الباري (٨/٤٧٤).

(٢) لا يرقأ لي دمع: بالقف، بعدها همزة أي لا ينقطع.

انظر فتح الباري (٨/٤٦٧).

(٣) قلص: أي ارتفع وذهب.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/١٠٠) مادة (قلص).

(٤) سورة يوسف آية: ١٨.

الله بها، قالت: فوالله ما رام^(١) رسول الله ﷺ ولا خرج أحدًا من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء^(٢) حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان^(٣) من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه، قالت: فلما سُري^(٤) عن رسول الله ﷺ سُري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها يا عائشة أما الله ﷻ فقد برأك، فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ﷻ وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿٥﴾

(١) ما رام: أي ما فارق، وما نهض من مجلسه ﷺ.

انظر: فتح الباري (٤٧٦/٨).

(٢) البرحاء: شدة الحمى، والمراد هنا الشدة التي، تصحب نزول الوحي على الرسول ﷺ.

انظر: النهاية في غريب الأثر (١١٣/١).

(٣) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار، وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ، والمراد هنا صفة العرق المتحدر من الرسول ﷺ.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٣٠١/١).

(٤) سري: أي انكشف عنه، وهي بمعنى الكشف والإزالة.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٣٦٤/٢).

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: قوله: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم

فأخبر جلّ في علاه بأن الذين جاءوا بالكذب والبهتان على عائشة أم المؤمنين جماعة منكم أيها الناس، فيقول: لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك شرّاً لكم عند الله وعند الناس، بل خير لكم عنده وعند المؤمنين. وذلك أن الله يجعل ذلك كفارة للمُرمي به، ويُظهر براءته مما رُمي به، ويجعل له منه مخرجاً^(١).

فقد كان في هذه المحنة التي مرّ بها بيت النبوة الخير كل الخير لرسول الله وآل بيته، بل وللمؤمنين، كما قال عز من قائل: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

و(والإفك): الزور والكذب، والأفك: الكذاب، والإفك: قلب الحقيقة عن حالها بالأقوال وصرفها عن جهة الصواب، وبذلك شبه بالكذب^(٢).

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ لكل من ساءه من المؤمنين^(٣).

وقال ابن كثير في تفسيره: «﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾، أي: يا آل أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم^(٤).

ولكل امرئ من الذين جاءوا بالإفك جزاء ما اجترم من الإثم، بمجيئه بما جاء به.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أي والذي تحمل معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الذي بدأ بالخوض فيه^(٥).

والأكثر على أن المراد بذلك إنما هو عبدالله بن أبي بن سلول - قبحة الله -^(٦)، وهو

خيرا وقالوا هذا إفك مبين» (٤/١٧٧٤)، برقم: (٤٤٧٣).

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٠/١١٠ - ١١١)، والدر المنثور: (٦/١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: ص (١٣٤٩).

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) تفسير ابن كثير: (٦/٢٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (١٠ - ١١١).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/٢٥).

الذي تقدم النص عليه في الحديث.

المؤمن يظن خيراً فيما يسمعه عن إخوانه:

ثم يقول تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾^(١).

هذا تأديب من الله للمؤمنين في قضية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ، وما ذكر من شأن الإفك، فقال: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هَلَا، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى^(٢).

وقيل إن هذه الآيات نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري^(٣) وامرأته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بأن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة، قال: بلى، وذلك الكذب، أَكُنْتُ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة والله خير منك.

فلما نزل القرآن ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك، ثم قال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبته^(٤).

وقوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بألسنتهم ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، أي: كذب ظاهر

(١) سورة النور: الآية ١٢ - ١٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٦/٦ - ٢٧).

(٣) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، أبو أيوب الأنصاري النجاري غلبت عليه كنيته، شهد العقبة، وبدراً، وسائر المشاهد، وعليه نزل الرسول ﷺ حين قدم المدينة مهاجراً من مكة، فلم يزل عنده حتى بنى مسجده في تلك السنة، وبنى مسكنه، توفي بالقسطنطينية من بلاد الروم في زمن معاوية سنة (٥٠) أو (٥١) هـ.

انظر: الاستيعاب (٤٢٤/٢)، الإصابة (٢٣٤/٢).

(٤) انظر: جامع البيان تفسير الطبري: (ح١٨/٩٦).

على أم المؤمنين، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهر، والجيش بكامله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة^(١).

القرآن يشهد بكذب أهل الإفك:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾. فقد جعل سبحانه التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب بثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها، والذين رموا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تكن لهم بينة على قولهم، فقامت عليهم الحجة، وكانوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: في حكمه وشريعته كاذبين، وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك، فلم يجدوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع: من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق^(٣).

لولا فضل الله على المؤمنين لعذب الخائضين في حديث الإفك:

قال تعالى ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، هذا خطاب للسامعين، وفيه زجر عظيم، (ولولا) هذه هي لامتناع الشيء لوجود غيره، فلولا أنني قضيت عليكم بالفضل في الدنيا بالنعم التي من جملتها الإمهال، والرحمة في الآخرة بالعفو، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك، وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه،

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٧/٦).

(٢) سورة النور: الآية ١٢ - ١٣.

(٣) انظر: الكشاف: (٢٢٣/٣).

كمسطح^(١)، وحسان^(٢)، وحمنة بنت جحش^(٣) أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول «وأمثاله»، فليس ألك مرادين في هذه الآية؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه^(٤).

وصف القرآن لحال الخائضين في الإفك:

يقول تعالى واصفاً حال من تكلم بهذا البهتان: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِ كُمْ وَقَوْلُونَ يَا فَوَهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(٥). فبين سبحانه أنهم، أي: المتحدثون بالإفك يتلقونه بالقبول من غير إنكار، أو يتحدثون به ويلقونه حتى ينتشر^(٦).

(١) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبدالمنف، كان اسمه عوف أما مسطح فهو لقب، وأمه بنت خالة أبي بكر الصديق، كان ممن خاضوا في حديث الإفك، وتوفي سنة (٣٤) في خلافة عثمان، وقيل عاش حتى خلافة علي، وشهد معه صفين ومات في تلك السنة سنة (٣٧) هـ.

انظر: الاستيعاب (١٤٧٢/٤)، الإصابة (٩٣/٦).

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو الأنصاري الشاعر، يكنى أبا الوليد، وقيل يكنى أبا عبدالرحمن، وقيل أبا الحسام، كان يقال له شاعر رسول الله، دعا له الرسول ﷺ بقوله: (اللهم أيده بروح القدس) لمناضلته عن المسلمين، وقال أبياته المعروفة في أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

حصانٌ رزانٌ ما تزنُ بريبةً وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليمةٌ خير الناس ديناً ومنصباً يبني الهدى والمكرمات الفواضل

عاش ﷺ مائة وعشرين سنة

انظر: الاستيعاب (٣٤١/١)، الإصابة (٦٢/٢).

والأبيات في ديوان حسان بن ثابت (٢٢٠/١).

(٣) هي حمنة بنت جحش بن رباب الأسدية من بني، الأسد بن خزيمه أخت زينب بنت جحش زوج رسول الله ﷺ، كانت عند مصعب بن عمير، وقتل عنها يوم أحد، فتزوجها طلحة بن عبيدالله، وقيل إنها كانت ممن خاض في الإفك على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

انظر: الاستيعاب (١٨١٣/٤)، الإصابة (٥٨٦/٧).

(٤) انظر: فتح القدير: (١٣/٤)، انظر: تفسير ابن كثير: (٢٨/٦).

(٥) سورة النور: الآية ١٥.

(٦) انظر: تفسير العز بن عبدالسلام: (٣٩٤/٢).

و﴿إِذْ﴾، ظرف للمس، والضمير المنصوب (لما) أي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك، وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه، (والتلقي والتلقف والتلقن) متقاربة المعاني، إلا أن في التلقي معنى الاستقبال، وفي التلقف معنى الخطف والأخذ بسرعة، وفي التلقن معنى الحدق والمهارة^(١).

وورد في قوله: ﴿تَلَقُّوهُ﴾ عدة قراءات، فقرأها أبي^(٢): (تلقونه) على الأصل^(٣)، وقرأ آخرون: (إذ تلقونه بألسنتكم)^(٤).

وفي البخاري: «عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ: (إذ تلقونه بألسنتكم)، وتقول: الولق الكذب، قال ابن أبي مليكة^(٥): وكانت أعلم من غيرها بذلك؛ لأنه نزل فيها^(٦)، وقراءة ﴿تَلَقُّوهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ هي الأشهر، وعليها الجمهور، ولكن القراءة الأخرى مروية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها^(٧).

قال مجاهد، وسعيد بن جبير^(٨): «أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من

(١) انظر: تفسير روح المعاني: (١١٩/١٨).

(٢) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية، أبو المنذر، أقرأ الأمه، عرض القرآن على النبي ﷺ، أخذ عنه القراءة ابن عباس، وأبو هريرة، وعبدالله بن السائب وغيرهم، شهد بدرًا، ومناقبه كثيرة، توفي بالمدينة سنة (٢٠هـ)، أو (١٩هـ). انظر: الاستيعاب (٢١/١)، معرفة القراء الكبار (٢٨/١).

(٣) انظر: المرجع السابق: روح المعاني (١١٩/١٨).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٨/٦) انظر: إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات (١١٥٥/٢).

(٥) هو عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة، زهير بن عبدالله بن جدعان، التابعي الإمام الحجة، الحافظ، أبو بكر، وأبو محمد حدث عن عائشة أم المؤمنين، وأختها أسماء، وابن عباس، وابن عمر وغيرهم من الصحابة. قيل إنه ولد في خلافة علي رضي الله عنه، وقيل قبلها، وكان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان، قال البخاري وجماعه إنه مات سنة (١١٧هـ). انظر: الاستيعاب (٦٧/٢)، سير أعلام النبلاء (٨٨/٥).

(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب (المغازي) باب: حديث الإفك: (٤/١٥٢٣) برقم: (٣٩١٣).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: (٨٢/٦).

(٨) هو سعيد بن جبير، أبو عبدالله الأسدي الكوفي التابعي، عالم بالحديث والتفسير والقراءات والفقه، قتله الحجاج بسبب ثباته على كلمة الحق، وذلك سنة (٩٥هـ).

فلان، وقال فلان: كذا، وذكر بعضهم كذا، ﴿وَقَوْلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، أي: وتقولون ما لا تعلمون، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن التي تتكلمون عنها زوجة رسول الله ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله ﷻ يغار لهذا، وهو ﷻ لا يُقدّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة^(١)، وفي (الصحيحين): «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ، يهوي بها في النار بعد مم ابين السماء والأرض»، وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي، لها بالاً تهوي به في النار»^(٢)، ولذلك قال ﷺ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

تأديب آخر للمؤمنين:

ثم إن هذا تأديب آخر: بعد التأديب الأول، الأمر بظن الخير حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول بشأن الأخيار، فينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يكون في النفس غير ذلك، ثم إن علق في نفسه شيء من الظن السيئ وسوسة أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما تحدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم»^(٣).

انظر: تقريب التهذيب (١/٢٣٤)، شذرات الذهب لابن العماد (١/١٠٨).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/٢٨).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب / حفظ اللسان وقول النبي ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت (٥/٢٣٧٧) رقم الحديث (٦١١٢)، وأخرجه مسلم، كتاب / الزهد والرقائق، التكلم بالكلمة يهوى بها في النار (٤/٢٢٩٠)، رقم الحديث (٢٩٨٨).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، والندور، وقوله تعالى: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، باب: إذا حنث ناسياً في الأيمان: (٦/٢٤٥٤) برقم: (٦٢٨٧).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى وأن تقولوا: سبحانك هذا بهتان عظيم، عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة: أن يقال في الإنسان ما فيه^(١).

تحذير الله عبادة من العود لمثل ما وقع منهم في الإفك:

ثم إن الله تبارك وتعالى حذر من العود والوقوع في مثل ما وقع منهم من إفك، فقال ﷻ: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٧) وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿أي ينهاكم الله تعالى، ويذكركم بأي كتابه، متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، ولئلا تعودوا لمثل فعلكم الذي فعلتموه في أمر عائشة رضي الله عنها من تلقيتكم الإفك الذي روي عليها بألستكم، وقولكم بأفواهكم ما ليس لكم به علم فيها، وفي قوله ﷻ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تهيج لهم ليتعضوا، وتذكير بما يوجب ترك العود لمثل ما وقع منهم، وهو اتصافهم بالإيمان الذي يصددهم عن كل ما هو قبيح^(٢).

- ثم إن هذا تأديب ثالث: وتحذير لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ، فقام بذهنه شيء منه، وتكلم به، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، أي: أنهم يختارون ظهور الكلام القبيح عنهم، ويشيعون الفاحشة في الذين آمنوا عن قصد إلى الإشاعة، وإرادةً ومحبةً لها، فهؤلاء ﴿هُمَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾، أي: بالحد، وفي الآخرة بعذاب الله، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وأخرجه مسلم في صحيحه: بنحوه، كتاب (الإيمان)، باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم

تستقر: (١١٦/١) برقم: (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٩/٦)، وانظر: تفسير القرطبي: (٢٠٥/١٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٢٦/١٨)، انظر: تفسير ابن كثير: (٢٩/٦)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢٢٥/٣).

(٣) سورة النور: الآية ١٩.

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والله يعلم ما في القلوب من الأسرار والضمائر، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أنه تعالى قد علم محبة من أحب الإشاعة، وهو تعالى معاقبه عليها^(١).

لولا فضل الله على المؤمنين لعجل لهم العقاب:

وكرر الله تعالى المنّة بترك المعالجة بالعقاب، لأولئك الذين جاؤوا بالإفك قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فلولا فضل الله تعالى الذي منع التعجيل بالعقاب لكان أمراً آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، قضية الإفك، وطهر من طهر منهم بالحد الشرعي الذي أقيم عليهم^(٢).

ما أنزل الله في شأن أبي بكر الصديق ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر الصديق ﷺ حين حلف ألا ينفق على مسطح ابن أثاثه، بعد الذي قاله في شأن ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولقد أقيم الحد على مسطح، وتاب إلى الله تعالى، فلما نزلت هذه الآية قال الصديق: بلى والله، إنا نحب أن يغفر لنا ربنا، ثم أعاد إلى مسطح ما كان يصله به من النفقة، وقال والله لا أنزعها أبداً^(٤).

فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعفو عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك^(٥).

وفي الحديث الذي رواه البخاري مروياً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «فلما أنزل الله

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٩/٦)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢٢٥/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٠/٦)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٢٢٥/٣).

(٣) سورة النور: الآية ٢٢.

(٤) انظر: أسباب النزول للواحد ص ٢١٧.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣١/٦).

هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى: والله إنني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه...^(١)

ومعنى ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: من الألية، وهي الحلف، أي: لا يحلف، والمراد لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان، أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو بهم، والصفح عنهم، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم وذنوبهم^(٢).

وهذه الآية وإن كان لها سبب نزولٍ لأشخاص معينين، إلا أنها تتناول الأمة إلى يوم القيامة، بأن لا يغتاظ ذو فضل وسعة، فيحلف ألا ينفع أولي أرحامه الفقراء ونحوهم^(٣).
وبعد أن بينت بما لا يدع مجالاً للشك براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والذي برأها هو الله من فوق سبع سموات، أنتقل إلى قصة أخرى تتعلق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) الحديث في البخاري، كتاب (الشهادات)، باب: تعديل النساء بعضهن بعضاً: (٩٤٥/٢)، رقم: (٢٥١٨).

(٢) تفسير الزمخشري: (٢٢٦/٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٢٠٧/١٢).

المطلب الثاني: زينب بنت جحش وزواجها من النبي ﷺ

قبل البدء في بيان قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش^(١)، يشار إلى ما كان سائداً ومشهوراً قبل هذا الزواج، والمعروف بنظام التبني، حيث كان التبني نظاماً شائعاً قبل الإسلام، وبقي وقتاً بعد الإسلام.

وكان من جملة أحكام هذا النظام أن المتبني يصير ابناً للمتبني، لا فرق بينه وبين ابنه الصلبي، وبالتالي لم يكن جائزاً في عرف الجاهلية بموجب هذا النظام أن يتزوج المتبني زوجة من تبنائه، إذا فارقتها بطلاق أو موت، كما هو الحكم بالنسبة لزوجته الابن الصلبي، فلا يجوز لأبيه أن يتزوج امرأته إذا فارقتها بطلاق أو وفاة، ولما أبطل الله التبني أراد تعالى إبطال أحكامه، ومنها حرمة نكاح المتبني زوجة من تبنائه بعد فراقه إياها^(٢).

الآيات الواردة في هذا الشأن:

قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۗ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۗ ﴿٥﴾ ﴿٣﴾

(١) هي زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر بن حبيزة بن مرة، زوج النبي ﷺ، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم عمه رسول الله ﷺ، تزوجها رسول الله في سنة خمس من الهجرة، وقيل في السنة الثالثة، وقبل زواجها من النبي ﷺ وفاته به ولحوقاً به. عُرِفَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالصَّدَقَةِ وَطُولِ الْيَدِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَبِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ، وَشَهِدَتْ لَهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِأَنَّهَا خَيْرُ امْرَأَةٍ فِي الدِّينِ، وَالتَّقْوَى، وَأَنَّهَا مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ حَدِيثًا وَأَصْلًا لِلرَّحْمِ. تُوْفِيَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سَنَةَ (٥٢٠هـ) وَقِيلَ سَنَةَ (٢١١هـ) عَنْ ٥٣ سَنَةً.

انظر: الاستيعاب (٤/١٨٤٩)، والإصابة (٧/٦٦٧).

(٢) انظر: فتح البيان، بتصرف: (٥/٢٩١).

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤ - ٥.

والمعنى: أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أما لرجل وزوجاً له، كما لم ير تعالى أيضاً أن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل - أي ابناً له بالتبني - وابناً صليماً له؛ لأن النبوة الحقيقية أصالة في النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً وغير أصيل. وهذا مثل قد ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، الذي سُبِّي وهو صغير، فاشتراه حكيم بن حزام^(١) لعمته خديجة بنت خويلد^(٢)، فلما تزوجها رسول الله ﷺ قبل النبوة وهبته له، فأعتقه وتبناه، وكان يُسمى زيد بن محمد؛ لا اعتيادهم عادة التبني، ثم تركوا هذه العادة بعد الإسلام برهة، ثم أنزل الله هذه الآية إبطالاً لعادة التبني.

وقوله: ﴿ذَلِكَكُمْ﴾، أي: النسب الذي تريدون، وإثباته لمن تتبنوه هو ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾: وهذا القول لا حقيقة له، فلا يقتضي دعواكم ذلك أن يكون ابناً حقيقياً لمن ادعاه، فإنه مخلوق من صلب رجلٍ آخر، فلا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون لبشرٍ واحدٍ قلبان ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾، أي: الثابت المحقق في نفس الأمر وهو سبحانه يهدي إلى سبيل الحق^(٣).

ثم دعا الله ﷻ إلى ما هو أقسط وأعدل بقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، أي: انسبوهم إليهم، ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: أعدل وأحكم، ﴿فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾، أي:

(١) هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشي الأسدي، يكنى أبا خالد، هو ابن أخ خديجة بنت خويلد، زوج النبي ﷺ، ولد في الكعبة، وكان من أشرف قريش ووجهها في الجاهلية والإسلام، أسلم هو وبنوه عام الفتح، توفي بالمدينة في خلافة معاوية سنة (٥٤هـ) وهو ابن ١٢٠ سنة.

انظر: الاستيعاب (٣٦٢/١)، الإصابة (١١٢/٢).

(٢) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشي الأسدي، زوج النبي ﷺ، وأول من صدقت ببعثته مطلقاً، كانت تدعى قبل البعثة بالطاهرة، كانت عند أبي هالة بن زرارة أولاً، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد ذلك، وقد كان زواجها من الرسول قبل البعثة بخمس عشرة سنة. أنجبت لرسول الله أولاده كلهم إلا إبراهيم، توفيت هي وأبو طالب في عام واحد، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح وهي بنت ٦٥ سنة.

انظر: الاستيعاب (١٨١٨/٤)، الإصابة (٦٠٠/٧).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٥٢٨/٣ - ٥٣٠)، منقول بتصريف.

فتنسبوهم إليهم، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾، أي: فهم إخوانكم، ﴿فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾، أي: فإخوانكم في الدين ومواليكم فيه، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي ويا مولاي، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، أي: إثم، ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾، أي: فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان أو سبق اللسان؛ لأن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ، ورفع إثمه. ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي: ففيه الجناح والإثم؛ لأن من تعمد الباطل كان آثماً، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، لعفوه عن المخطئ^(١).

زينب رضي الله عنها ترضى بزواج زيد بن حارثة:

خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب^(٢) لزيد بن حارثة^(٣) فأبت، لكونه مولى لا يماثلها في الشرف، وكذلك أبي أخوها عبدالله، فنزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٤). وقالت هي وأخوها: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه، وساق عنه إليها مهرها^(٥).

(١) انظر: تفسير القاسمي: (٤٩٣/٥).

(٢) هي أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف الهاشمية، عمه رسول الله ﷺ، اختلف في إسلامها، كانت عند جحش بن رثاب، وهي أم عبدالله وعبيدالله، وأبي، وزينب، وأم حبيبة، وحمنة بني جحش بن رثاب.

انظر: الاستيعاب (١٧٨١/٤)، الإصابه (٥١٣/٧).

(٣) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، أبو أسامة مولى رسول الله ﷺ اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ فتبناه رسول الله قبل النبوة، وهو ابن ثمان سنين، وكان يدعى بزيد بن محمد حتى أنزل الله (ادعوهم لأبائهم) فدعي بعد ذلك بزيد بن حارثة، شهد بدرًا، وزوجه رسول الله مولاته أم أيمن، فولدت له أسامة بن زيد، وبه كان يكنى، وكان يقال لزيد بن حارثة حب رسول الله قتل بمؤته من أرض الشام سنة (٥٨هـ).

انظر: الاستيعاب (٥٤٢/٢)، سير أعلام النبلاء (٤٩٦/٢).

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٥) انظر: تفسير الزمخشري: (٥٤٨/٣)، تفسير الألوسي: (٢٣/٢٢).

والمعنى: وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، أي: رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل من واجبهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره^(١).

وقال بعضهم: إنما عدّ التنزيل إِبَاءَها عصياناً، وكأنه أرغمها على زواجه، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك. وهو هدم تحريم زوجة المتبني، الفاشي في الجاهلية.

وقال بعض آخر من أهل العلم: الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب، ولكن ويحتمل أن تكون لا بطريق الوجوب، ولكن مخالفة قوله ﷺ يعتبر معصية، لكونه قول الله في الحقيقة^(٢).

وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد

مخالفته، ولا اختيار لأحد لها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا

تَسْلِيمًا﴾^(٣) ولهذا شدد في خلاف ذلك^(٤) فقال: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾^(٥).

ثم إن الله تعالى أخبرنا في كتابه، عما وقع بينهما، أي: زيد وزينب بنت جحش، بعد أن مكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، فجاء زيد يشكو إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له:

«أمسك عليك زوجك واتق الله»^(٦). وهي في سياق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ

وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسَ

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٥٤٨/٣).

(٢) انظر: تفسير القاسمي: (٥١٣/٥).

(٣) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٢٣/٦).

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٢٤/٦).

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ^ط ﴿١﴾، فالمراد أن الله أنعم عليه بالإسلام، ومتابعة الرسول ﷺ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، أي: رسول الله أنعم عليه بالعتق من الرق. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، أي: زينب بنت جحش، وذلك أنها كانت ذا حدة، ولا زالت تفخر على زيد بشرفها، ويسمع منها ما يكره، فجاء يوماً ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن زينب قد اشتدَّ عليَّ لسانها، وأنا أريد أن أطلقها، فقال له ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، ﴿وَأَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أمرها، ولا تطلقها ضرراً وتملاً بتكبرها واشتداد لسانها عليك.

وقوله عز من قائل: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، المراد: تقول له: أمسك عليك زوجك، وتخفي في نفسك ما أعلمك الله به بأن زيدا سيطلقها، وأنها ستكون من أزواجه، فهذا هو الذي كان يخفيه في نفسه، ولكنه ﷺ فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف، فعاتبه الله تعالى على قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾. وقد أعلمه الله بأنها ستكون زوجته، ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، أي: تخفي في نفسك ما الله مظهره، وهذا التفسير للآية هو الذي يجب المصير إليه، وما قيل خلافه غير صحيح؛ لأن الآية صريحة في أن الله تعالى سيظهر ما كان يخفيه في نفسه من أنها ستكون زوجة له بعد أن يطلقها زيد، وهذا هو الذي أظهره وأوقعه وهو تزويجها منه ﷺ.

فلو كان الذي أخفاه وأضمره ﷺ غير ذلك لأظهره الله تعالى؛ لأنه لا يجوز أن يخبر الله أنه يظهره، ثم يكتمه فلا يظهره، فدلَّ على أنه إنما عوتب ﷺ على إخفاء ما أعلمه من أن زيدا سيطلقها، وستكون زوجته ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾، أي: تخاف وتستحي أن تقول لزيد: طلقها حتى تتزوجها كما أعلمك الله بذلك، خشية أو حياءً من قول الناس أن محمداً تزوج حليمة ابنة. والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر فتفعل ما أباحه لك.

فالعتاب على قوله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، مع علمه بإعلام الله له أن زيدا سيطلقها ويتزوجها هو ﷺ بعده، وهو عتاب على ترك الأولى، حيث كان الأولى في مثل تلك الحال أن

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

يصمت عليه الصلاة والسلام، أو يفوض الأمر إلى رأي زيد عليه السلام، ولكنه لم يفعل عليه السلام خشيةً من مقالة الناس^(١).

تزويج الله لنبيه عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾^(٢)، ومعنى قضاء الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وطراً منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، والمراد هنا: أن زيداً عليه السلام قضى وطره منها بنكاحها، والدخول بها، بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاشرت عنها همته، وطابت عنها نفسه، وقيل المراد به: الطلاق؛ لأن الرجل إنما يطلق امراته إذا لم يبق له فيها حاجة، فقضاء الوطر كناية عن الطلاق.

وقوله عليه السلام: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، أي: بعد أن طلقها زيد، وانقضت عدتها جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد، أصالة أو وكالة، فمعنى ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، أي: لم نزوجك إلى ولي من الناس، يعقد لك عليها تشريفاً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا عقد، ولا مهر، وهذا من خصوصياته عليه السلام^(٣).

وقد صحَّ من حديث البخاري وغيره، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي عليه السلام فتقول: زوجكن أهليكن، وزوجني الله من فوق سبع

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٢٤/٦ - ٤٢٥)، تفسير الألوسي: (٢٢/٢٣ - ٢٤)، انظر: تفسير ابن عطية: (١٥١٤)، تفسير فتح البيان: (٣٢٢/٥ - ٣٢٣).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٣) تفسير الألوسي: (٢٥/٢٢ - ٢٦)، (٣٢٤/٥).

سموات»^(١).

وقد علل القرآن تزويج الله لنبية بزيب بنت جحش، بقوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٢).

أي: تزويج الله نبيه ﷺ بزيب لكي لا يكون على المؤمنين ضيق ومشقة ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾، أي: في التزوج بأزواج من يجعلونه ابناً، كما كانت تفعله العرب في الجاهلية، حيث كانوا يتبنون من يريدون، ويعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تنوّه، كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة.

والأدعياء: جمع دعي، وهو الذي يدعى ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فأخبرهم تعالى: أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، أي: إذا طلقهن الأدعياء وانقضت عدتهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، واستدل بهذه الآية على أن ما ثبت له ﷺ من الأحكام يثبت لأمته إلا ما علم أنه من خصوصياته ﷺ^(٣).

وأعقب هذا التعليل بأنه لا حرج على رسول الله ﷺ فيما فرض وأحل الله له، قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾^(٤).

فيخبر تعالى أنه ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له أي: فيما أحل له وأمره من تزوجه بزيب رضي الله عنها، التي طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبل محمد ﷺ، لم يكن يأمرهم الله تعالى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (التوحيد)، باب: (قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله): (٦/٢٦٩٩)، رقم: (٦٩٨٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٣) انظر: تفسير الألوسي: (٢٢/٢٥ - ٢٦)، وتفسير فتح البيان: (٥/٣٢٤ - ٣٢٥).

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٨.

بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً في زواجه ﷺ بامرأة زيد - الذي سبق وأن تبناه - بعد أن طلقها، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن^(١).

ولما قال بعضهم: إن محمداً ﷺ تزوج امرأة ابنه زيد، أنزل قوله ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٢). فهذا دفع ورد لمن قال بجهل: تزوج محمد ﷺ زوج ابنه زيد، فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان ﷺ أباً لزيد على الحقيقة، لكنه ليس أباً لزيد، وليس أباً لأحد من أصحابه، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده، من حرمة المصاهرة والنكاح، وزيد واحد من الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمهم.

﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾، أي: ولكنه عليه الصلاة والسلام رسول الله ومبلغ رسالته وخاتم النبيين، فهذا نعته، وهذه صفته، فليس هو في حكم الأب الحقيقي، وإنما ختمت النبوة به؛ لأن الله شرع له من الشرائع ما يفي بحاجات الناس في جميع الأمكنة والأزمنة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فلا يقضي إلا بما سبق به علمه، ونفذت فيه مشيئته، واقتضته حكمته^(٣).

ما ورد في قصة زواج النبي ﷺ في زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها وأرضاهما من روايات مكذوبة:

أورد كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية روايات باطلة ولا تصح عن الرسول ﷺ لما زوج زينب لزيد بن حارثة.

وأردوها في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٢٧/٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (٥١٦/٥).

زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾^(١) : «أن زينب بنت جحش - فيما ذكروا - رآها رسول الله ﷺ، فأعجبته، وهي في حبال مولاه، فألقي في نفس زيد كراحتها، لما علم الله مما وقع في نفس نبيه ما وقع، فأراد فراقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ زيد، فقال له رسول الله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وهو ﷺ يجب أن تكون قد بانت منه لينكحها ﴿وَأَتَقَ اللَّهُ﴾، وخف الله في الواجب له عليك في زوجتك، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، يقول وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها لتزوجها، إن هو فارقها، والله مبدٍ ما تخفي في نفسك من ذاك ﴿وَتُخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾: تخاف أن يقول الناس: أمر رجلاً بطلاق امراته ونكحها حين طلقها، والله أحق أن تخشاه من الناس»^(٢).

ورواية أخرى : «أنه ﷺ أتى زيدا فرأى زينب وهي جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً بفهرها^(٣)، فلما نظر إليها قال: سبحان خالق النور، تبارك الله أحسن الخالقين، فرجع فجاء زيد فأخبرته الخبر، فقال لها: لعلك وقعت في قلب رسول الله ﷺ، فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك رسول الله ﷺ؟ فقالت: أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: أريد أن أطلق زينب. فأجابه ما نص الله تعالى...»^(٤).

وقد انتقد العلماء المحققون هذه الروايات وبينوا بطلانها:

ومن كلام العلماء الذين انتقدوا هذه الروايات ما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:
«وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره، أنه ابتلى به في شأن زينب بنت

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩/١٢).

(٣) الفهر: هو حجر ناعم وصلب، حجمه بملء الكف، يُسحق به (بذكر ويؤنث)، وتصغيره فهير، ويجمع على أفهار وفهور.

انظر: لسان العرب (٦٦/٥)، مادة فهر المعجم الوسيط (٧٠٤/٢) مادة أفهر،.

(٤) انظر: تفسير روح المعاني: (٢٥/٢٢).

جحش ، وأنه رآها فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وأخذت بقلبه ، وجعل يقول لزيد بن حارثة : أمسكها حتى أنزل الله عليه ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾^(١) .

فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق ، وصنف بعضهم كتاباً في العشق ، وذكر فيه عشق الأنبياء ، وذكر هذه القصة. وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل ، وتحمله كلام الله ما لا يحتمله ، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه ، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة ، وكان رسول الله ﷺ قد تنبأه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، وكانت زينب فيها شمم^(٢) ، وترفع عليه ، فشاور رسول الله في طلاقها ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد ، وكان يخشى من مقالة الناس أنه تزوج امرأة ابنه ؛ لأن زيدا كان يدعى ابنه ، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه ، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له ، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها ، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له ، وأن الله أحق أن يخشاه ، فلا يتحرج ما أحله الله لأجل قول الناس.

ثم أخبره أنه سبحانه زوجته إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدي أمته به في ذلك ، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني ، لا امرأة ابنه لصلبه.

ولهذا قال في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾^(٣) .

وقال في سورة الأحزاب : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾^(٤) .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٧ .

(٢) الشمم هو الترفع والتعالي .

انظر : المعجم الوسيط (١/٤٩٥) مادة (شمعه) .

(٣) سورة النساء : الآية ٢٣ .

(٤) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

وقال في أولها: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾^(١).

وفي هذا ذنب عن رسول الله ﷺ ودفع لظعن الطاعنين عنه...»^(٢).

وقال أيضاً رحمه الله في الجواب الكافي: «وأما قصة زينب بنت جحش، فريد كان قد عزم طلاقها ولم توافق، وكان يستشير النبي ﷺ في فراقه، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها لا بد فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس: إن رسول الله تزوج زوجة ابنه، فإنه كان قد تبنى زيدا قبل النبوة، والله تعالى يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده. فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه...»^(٣).

وقال القرطبي في تفسيره روي أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: (اتق الله) في قولك، و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن يخشى الناس في شيء قد أباحه الله له... بأن قال أمسك مع علمه بأنه يطلق، وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي: في كل حال.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: «وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، والمراد بقوله: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ﴾ إنما هو: إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء، وتزوج بزوجة ابنه.

فأما ما روي أن النبي ﷺ هوي زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق، فهذا إنما

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: (٤/٢٦٦ - ٢٦٧).

(٣) الجواب الكافي: (١/١٦٣ - ١٧١).

يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بجرمته»^(١).

والحاصل: أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو: إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً، ووقوع ذلك من إمام المسلمين؛ ليكون ذلك أدعى لقبولهم. وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية والله أعلم^(٢).

وخلاصة الأمر في هذه الروايات الباطلة: أنها قصة باطلة منكرة مضطربة، ليس لها سند صحيح ولا حسن، وإنما هي من وضع الأفاكين، وانتحال المبطلين، ولم يتنبه إليها كثير من مفسري القرآن الكريم، فاغتروا بمثل هذه الروايات الباطلة المنتحلة، فذكروها في كتبهم. وقد أعرض عنها كثير من محققي العلماء، ولم يرتض حتى ذكرها، كابن كثير، وابن حجر، والواحدي، والسيوطي، وكلاهما لم يذكرها بهذا التفصيل في أسباب النزول^(٣).

(١) تفسير القرطبي: (١٤/١٩٠ - ١٩١).

(٢) انظر: فتح الباري: (٨/٥٢٤).

(٣) موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: (٢/٧١٤).

المطلب الثالث:

قصة تحريم مارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

الآيات الواردة في هذا الشأن:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ مُحْرِمٌ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكَ تَبَنِّي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١﴾ قَدْ
فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا
فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي
الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ۝٣ إِنْ نُؤبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ
وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ كُنَّ
مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاتٍ تَيَبَّنَّ عِلْدَاتٍ سَبَّحَتْ ثِيَابَهُنَّ وَأَتَّكَّرْنَ ۝٥﴾ (١).

نزلت هذه الآيات الكريمة تعقيباً على ما حدث في بيت النبوة، حين حرم رسول الله ﷺ على نفسه شيئاً أحله الله له، وأسر بذلك إلى إحدى نساته، وهي حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فنبأت به عائشة، فنزل القرآن الكريم بآيات بينات، فيها عتاب لرسول الله ﷺ، وتوجيه لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن.

وقد اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقليل:

١- أنزلت في شأن مارية^(٢)، وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها، فنزل قوله:

(١) سورة التحريم: الآية ١ - ٥.

(٢) هي مارية بنت شمعون القبطية، مولاة رسول الله ﷺ، وأم ولده إبراهيم، أهداها له المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية ومصر، توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في خلافة عمر بن الخطاب في المحرم من سنة (١٦هـ)، وصلى عليها عمر، ودفنت بالقيع.

انظر: الاستيعاب (٤/١٩١٢)، الإصابة (٨/١١١).

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنَعِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾^(١).

وقد أخرج النسائي في «سننه»، والحاكم^(٢) في «مستدرکه» بسنديهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة^(٣) حتى حرمها على نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنَعِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...﴾ إلى آخر الآيات»^(٤). وقال ابن جرير - رحمه الله - في تفسيره: «واختلف أهل العلم في الحلال الذي كان الله جل ثناؤه أحله لرسوله، فحرمه على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه، فقال بعضهم: كان ذلك مارية مملوكته القبطية، حرمها على نفسه بيمين أنه لا يقربها طالباً بذلك رضا حفصة بنت عمر زوجته؛ لأنها كانت غارت أن خلا بها رسول الله ﷺ في يومها وفي حجرتها.

وأخرج الطبري بسندٍ صحيح عن زيد بن أسلم^(٥) التابعي الشهير، قال: «إن رسول الله

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١٥٨/٨).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن نعيم الحاكم النيسابوري، صاحب المستدرک والتاريخ، وعلوم الحديث، وغيرها، ولد سنة ٣٢٢هـ، طلب الحديث وهو صغير، وسمع من ألفي شيخ، وحدث عنه الدارقطني، والبيهقي، كان إمام عصره في الحديث، توفي سنة ٤٠٥هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء (١٧ / ١٦٢) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٤١٠).

(٣) هي حفصة بنت الخطاب بن نفيل بن العزى بن رباح القرشي العدوي، وهي أخت عبد الله بن عمر لأبيه وأمه، وأمها هي زينب بنت مظعون، كانت حفصة من المهاجرات، تزوجها رسول الله ﷺ سنة (٣هـ)، وكانت صوامة قوامه، توفيت حين بايع الحسن بن علي عليهما السلام معاوية، وذلك في جمادى الأولى سنة (٤١هـ).

انظر: الاستيعاب (٤ / ١٨١٢)، الإصابة (٧ / ٥٨١).

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب (الغيره) حديث رقم: (٣٩٥٩)، ورجاله ثقات: (٥ / ٢٨٦)، (٧ / ٧١)، وفي المجتبى (سنن النسائي)، كتاب الطلاق، باب (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) (٦ / ١٢١)، رقم (٣٤٢١)، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح بعد عزوه إلى النسائي وسنده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرک، كتاب (التفسير)، باب: (تفسير سورة التحريم). وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي: (٢ / ٥٣٥) برقم: (٣٨٢٤).

(٥) هو زيد بن أسلم، أبو عبد الله العدوي العمري المدني، حدث عن والده أسلم مولى عمر، وعن أنس بن مالك، وعلي بن الحسين، وغيرهم كثير، كان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ، فكان من العلماء العاملين، له أكثر من مئتي

ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، قال: فقالت: أي رسول الله؛ في بيتي وعلى فراشي؟! فجعلها عليه حراماً؛ فقالت: يا رسول الله كيف تحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله ع: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنِّي مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾^(١).

وقال ابن حجر - رحمه الله - : ووقع عند سعيد بن منصور^(٢) بإسناد صحيح إلى مسروق^(٣)، قال: «حلف رسول الله ﷺ لحفصة لا يقرب أمته، وقال: هي عليّ حرام، فنزلت الكفارة ليمينه، وأمر أن لا يحرم ما أحل الله». وأخرج الضياء^(٤) في «المختارة»^(٥) عن أيوب بن نافع^(٦)، عن ابن عمر^(٧)، عن عمر^(٨)،

حديث توفي في ذي الحجة سنة (١٣٦هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٣١٦/٥)، وتقريب التهذيب (٢٢٢/١).

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٩١/٢٨)، والحديث أخرجه الطبري بسند صحيح: (١٩١/٢٨)، برقم: (٣٤٣٨٥). الحديث

أخرجه الصنعاني في سبل السلام كتاب الطلاق (١٧٨/٣). وفي نيل الأوطار باب من حرم زوجته أو أمته (٥٦/٧).

(٢) هو سعيد بن منصور بن شعبة، أبو عثمان الخراساني، نزيل مكة، من الثقات المصنفين، وكان لا يرجع عما في كتابه لشدة وثوقه به، توفي سنة (٢٧هـ) وقيل بعدها.

انظر: الوافي بالوفيات (١٢٨ / ١)، تقريب التهذيب (٢٤١/١).

(٣) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني، الوداعي، أبو عائشة الكوفي ثقة، وفقه عابد، مخضرم توفي سنة (٦٢هـ) وقيل (٦٣).

انظر: سير أعلام النبلاء (٦٣ / ٤)، تقريب التهذيب (٥٢٨/١).

(٤) هو ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، أبو عبدالله، الإمام الحافظ العالم صاحب التصانيف، عالم بالحديث والرجال، ومن تصانيفه كتاب الأحكام وفضائل الأعمال، والأحاديث المختارة وغيرها وقد جمع بين فقه

الحديث ومعانيه، وكثير من اللغة والتفسير، وكذلك الفقه. وتوفي يوم الإثنين سنة (٦٤٣هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٢٦/٢٣)، الوافي بالوفيات (٤٨/٤).

(٥) هذا الحديث أخرجه الضياء في كتابه (الأحاديث المختارة)، وهي الأحاديث التي تصلح أن يحتج بها سوى ما في الصحيحين وقال "إسناد صحيح".

انظر: الأحاديث المختارة (٣٠٠/١).

(٦) هو أيوب بن نافع بن كيسان، يقال إن والده نافع بن كيسان من الصحابة، وكذلك كيسان، وقد روى عنه سليمان بن داود الجولاني، وابنه عبدالرحمن بن أيوب.

انظر: تاريخ مدينة دمشق (١٣٦/١٠).

(٧) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب، ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي، وهاجر وهو ابن عشر سنين، أسلم مع أبيه، ولم

قال: «قال رسول الله رسول الله ﷺ لحفصة: لا تخبري أحداً أن أم إبراهيم حرام عليّ، قال فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾».

وأخرج الطبراني^(٢) في (عشرة النساء)، وابن مردويه^(٣) من طريق أبي بكر بن عبدالرحمن^(٤)، عن أبي سلمة^(٥)، عن أبي هريرة، قال: «دخل رسول الله ﷺ بمارية في بيت

يأذن له الرسول في غزوة بدرًا ولا أحد لصغر سنه، ثم عرض عليه بالخذق فأجازه، وهو يومئذ ابن عشرة سنة قيل إنه عاش سبعةً وثمانين سنة، وتوفي سنة (٧٣هـ).

انظر: الطبقات الكبرى (٤/١٤٢)، الإصابة (٤/١٨١).

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزيز بن رباح القرشي، أبو حفص، أمير المؤمنين، قيل إنه ولد قبل البعثة بثلاثين سنة، وقيل بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، كان إسلامه فتحاً للمسلمين وفرجاً لهم، سماه الرسول بالفاروق، مات مقتولاً بطعنة أبي لؤلؤة المجوسي سنة (٢٣هـ) من ذي الحجة.

انظر: الاستيعاب (٣/١١٤٤)، الإصابة (٤/٥٨٨).

(٢) هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، كان رحمه الله واسع العلم كثير التصانيف، قدم أصبهان لسماع الحديث من أبي بكر أحمد بن عمر بن عاصم، وعبدالله بن محمد بن زكريا، إلا أنه لم يلحق بها، فسمع ممن أدركه من شيوخها، مثل إبراهيم بن محمد المعروف بنائله، ومحمود بن أحمد بن الفرج، والإمام أبو إسحاق، وغيرهم من العلماء الكبار، وروى عن الأعلام ما لا يعد كثرتهم، وحدث عنه الكثير من المشهورين المعروفين من المحدثين، توفي رحمه الله سنة (٣٦٠هـ) في شهر ذي القعدة.

انظر: جزء فيه ذكر أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، للإمام أبي زكريا بن يحيى (١/٣٣٣)، سير أعلام النبلاء (١٦/١٣).

(٣) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، صاحب التفسير والتاريخ والمستخرج على البخاري، وكان بصيراً بالرجال، إماماً في الحديث ولد سنة (٣٢٣هـ) وتوفي في (٤١٠هـ).

انظر: طبقات الحفاظ (١/٤١٢) وشذرات الذهب (٣/١٩٠).

(٤) هو أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، اسمه أبو بكر، وكنيته أبو عبدالرحمن، يقال له راهب قريش لكثرة صلاته، أبناؤه: عبدالملك، وعمرو الحارث، روى عنهم الحديث، قال عنه ابن حجر: ثقة، فقيه، عابد توفي سنة (٩٤هـ).

انظر: التعديل والجرح (٣/١٢٥٤)، تقريب التهذيب (١/٦٢٣).

(٥) هو أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله المخزومي، من السابقين الأولين إلى الإسلام، كان أخ النبي ﷺ من الرضاة، تزوج أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم صارت بعده إلى النبي ﷺ، وقد اشتهر بكنيته أكثر من اسمه، توفي سنة (٤هـ).

حفصة، فجاءت فوجدتها معه، فقالت: يا رسول الله في بيتي، تفعل هذا معي دون نسائك؟ فذكر نحوه^(١).

وللطبراني من طريق الضحاك^(٢)، عن ابن عباس، قال: «دخلت حفصة بيتها فوجدته ﷺ مع مارية فعاتبته، فذكر نحوه^(٣)».

وهذه طرق يقوي بعضها بعضاً^(٤).

٢- أما سبب النزول الثاني: فقد جاء في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني لأجد منك ريح مغاير^(٥)، فدخل على إحداهما، فقالت له: ذلك، فقال: لا بل شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ولن أعود، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِنْ نُؤَبَّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدَ صَغَتْ قُلُوبُنَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذَا سَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شربت عسلاً^(٦).

ويتضح مما سبق أن هناك عدة روايات في سبب نزول صدر سورة التحريم، البعض منها

انظر: الاستيعاب (٣/٩٣٩)، الإصابه (٤/١٥٢).

(١) الحديث أخرجه الطبراني، في المعجم الأوسط (٣/١٣).

(٢) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم الخراساني، التابعي عالم بالتفسير والحديث والقراءات، سمع من سعيد بن جبير، وعنه أخذ التفسير توفي سنة (١٠٢هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٤/٥٩٨)، طبقات المفسرين للداودي (١/١٠).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/١١٧).

(٤) انظر: فتح الباري: (٨/٦٥٧).

(٥) والمغاير: صمغ يسيل من شجر العرفط، حلو غير أن رائحته ليست بطيبة، انظر: لسان العرب: (٧/٣٥٠)، مادة (غ ف ر).

(٦) رواه الإمام البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب (الطلاق)، باب: (ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً)، صحيح البخاري، كتاب (التفسير)، باب: (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم): (٤/١٨٦٥)، برقم: (٤٦٢٨).

وردت على أن الآيات نزلت في قصة تحريم الرسول ﷺ شرب العسل على نفسه، وبعضها في قصة تحريم مارية القبطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا على نفسه.

يقول الشوكاني - رحمه الله - في تفسيره: «بعد أن أورد كلا القصتين: قصة تحريم العسل، وقصة تحريم مارية القبطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضائها، فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه...»^(١).

ويقول الإمام ابن حجر في «الفتح» بعد أن أورد الروايات التي وردت في تحريم مارية: «وهذه طرق يقوي بعضها بعضاً، فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السبين معاً»^(٢).

«فيحتمل أن يكون النبي ﷺ قد شرب عسلاً عند زينب، وجاء إلى حفصة، فقالت له ما قالت فحرم العسل، واتفق له ﷺ قبيل ذلك أو بعيده أن وطئ جاريتيه مارية في بيتها في يومها على فراشها، فحرم مارية، وقال لحفصة ما قال تطيباً لخاطرها، واستكتمها ذلك، فكان منها ما كان، ونزلت الآية بعد القضيتين، فاقتصر بعض الرواة على إحداهما، والبعض الآخر على نقل الأخرى»^(٣).

قال الإمام الطبري في تفسيره (جامع البيان) بعد أن ذكر الروايات الواردة في تحريم العسل، وفي تحريم مارية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضائها: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك جاريتيه، وجائز أن يكون شرباً من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك، غير أنه، أي وذلك كان، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالاً، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان قد أحله الله له، وبين له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرم على نفسه»^(٤).

(١) تفسير فتح القدير: (١٠٤٤/٢).

(٢) فتح الباري: (٦٥٧/٨).

(٣) تفسير روح المعاني: (١٥١/٢٨).

(٤) تفسير الطبري: (١٩٥/١٤).

المطلب الرابع: ما أحل الله لنبيه من النساء

الآيات الواردة في هذا الشأن:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾^(١)

هذه الآية في شأن ما أحله الله لنبيه من الزوجات والسراري، وفيها بيان لما هو خاص له ﷺ، وما هو له ولأئمة.

فقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾، فيه بيان للنبي أن الله قد أحل له:

١- جميع النساء اللاتي تزوجهن بمهر معروف، وهذا من الأمور المشتركة بين النبي وبين المؤمنين، فإن المؤمنين يباح لهم من الزوجات إذا أعطوهن المهر. والجمهور على أن المراد: أحللنا أزواجك الكائنات عندك؛ لأنهن قد اخترتك على الدنيا وزينتها، وهذا الذي اختاره الشوكاني - رحمه الله -^(٢).

٢- ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾، وهذه الآية أيضاً تبين الأصناف التي أحل للنبي من النساء، وهن النساء اللاتي تملكنهن في الحرب، فقد أحل الله لنبيه ﷺ الإماء

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٢) انظر: تفسير فتح القدير: (٥١٦/٢).

اللواتي سباهن ، فتملكهن بالسباء ، وصرن للنبي ﷺ بما فتح الله عليه من الفيء^(١) .

٣- وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ، كذلك مما أحل للنبي ﷺ ، القريبات له من بنات الأعمام ، والعمات ، والأخوال ، والخالات ، بشرط الهجرة معه ﷺ .

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع»^(٢) .

فأحل الله له ﷺ من بنات عمه ، وعماته ، وخاله ، وخالاته ، والمهاجرات معه منهن ، دون من لم يهاجر منهن معه^(٣) .

فعن أم هانئ^(٤) قالت: «خطبني النبي ﷺ ، فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّةً مُؤْمِنَةً إِنْ

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/١٢) .

(٢) تفسير ابن كثير: (٤٤٢/٦) .

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/١٢) .

(٤) هي أم هانئ بنت أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمية ، ابنة عم النبي ﷺ ، اختلف في اسمها ، فقليل اسمها فاخنة ، وقيل هند ، كانت زوج هبيرة بن عمرو بن عائذ بن عمر ، ثم فرق الإسلام بينهما ، فخطبها النبي ﷺ فاعتذرت إليه ، خشية تضييع حقه عليه الصلاة والسلام ، فلما أدرك بنوها ، عرضت نفسها عليه ، فقال أما الآن فلا ، لأن الله أنزل: "وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك" الآية ، ولم تكن من المهاجرات ، روت أم هانئ عن النبي ﷺ أحاديث .

انظر: الاستيعاب (٤/١٩٦٣) ، الإصابة (٨/٣١٧) .

وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ، قالت: فلم أكن أحل له لأنني لم أهاجر، كنت من الطلقاء»^(١).

٤ - كذلك مما أحل للنبي من النساء، المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ في قوله ع: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فيقول: وأحللنا له امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي بغير صداق^(٢)، فلك أن تتزوج المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك بغير مهر إن شئت ذلك^(٣): ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾، فإن أراد النبي أن ينكحها فحلل له أن ينكحها، إذا وهبت نفسها له بغير مهر ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾، فلا يحل لأحد من أمتك أن يقرب امرأة وهبت نفسها له، وإنما ذلك لك يا محمد، خالصة أخلصت لك من دون سائر أمتك^(٤).

وفي ذلك ما رواه البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعد^(٥) النظر إليها وصوبه، ثم طأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: هل عندك من شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، قال: اذهب إلى أهلِكَ، فانظر هل تجد شيئاً، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئاً، قال: انظر ولو خاتماً من حديد، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزارِي، قال: سهل^(٦) ما له

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: (٢٨/١٢)، ورواه الترمذي في جامعه: (٣٥٥/٥) برقم: (٣٢١٤)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي)، كتاب (تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ)، باب: (ومن سورة الأحزاب).

(٢) تفسير الطبري: (٢٩/١٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤٤٢/٦).

(٤) تفسير الطبري: (٢٩/١٢).

(٥) فصعد: أي نظر إلى أعلى وأسفل.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٣٠/٣) مادة (صعد)، وفتح الباري (٢٠٦/٩).

(٦) هو الراوي للحديث، سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة الأنصاري، من مشاهير الصحابة، توفي النبي وعمره =

رداء فلها نصفه ، فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بإزارك إن لبسته ، لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبسته لم يكن عليك شيء ، فجلس الرجل حتى طال مجلسه ، ثم قال : فرآه رسول الله مؤلياً فأمر به فدعي ، فلما جاء قال : ماذا معك من القرآن؟ قال : معي سورة كذا وسورة كذا وسورة كذا عدّها ، قال : تقرأه عن ظهر قلبك؟ قال : نعم ، قال : اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن»^(١).

وقال ابن كثير- رحمه الله تعالى- : «إن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير»^(٢).

كما قال البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، وأقول أتهب المرأة نفسها ، فلما أنزل الله : ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْنَعَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ ﴾ ، قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^(٣).

والمقصود بأن المرأة التي تهب نفسها للرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه ، ولم يعطها مهراً ، أن هذا خاص به ﷺ ، وليس عاماً للمؤمنين ، فلا بد في نكاح المؤمنين من المهر.

الخلاف في المرأة التي وهبت نفسها للنبي :

اختلف في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، فقيل : إنها خولة^(٤) بنت حكيم ، وقال

خمس عشرة سنة ، وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة سنة (٩١هـ) وقيل إنه عاش مائة سنة.

انظر : الاستيعاب (٢/ ٦٦٤) ، الإصابة (٣/ ٢٠٠).

(١) رواه البخاري : (٤/ ١٩٢٠) ، كتاب (فضائل القرآن) ، باب : (القراءة عن ظهر قلب) برقم : (٤٧٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير : (٦/ ٤٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب (التفسير) ، باب : قوله (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء) :

(٤/ ١٧٩٧) رقم : (٤٥١٠).

(٤) هي خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن سليم السلمية ، كنيته أم شريك ، ويقال لها خويلة بالتصغير ، كانت سالحة

فاضلة روت عن النبي ﷺ الحديث.

انظر : الاستيعاب (٤/ ١٨٣٢) ، الإصابة (٧/ ٦٢١).

بعضهم: ميمونة^(١) بنت الحارث، وقال بعضهم: زينب^(٢) بنت خزيمة، وقال بعضهم: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين، فأما بالهبة فلم يكن عنده منهن أحد، وأنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له^(٣).

وذكر ابن حجر في «الفتح»: «أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له؛ لأنه راجع إلى إرادته، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٥)، أي: قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهن مما لم يفرضه عليك، وما خصصناهم به من الحكم في ذلك دونك، وهو أننا فرضنا عليهم أنه لا يحل لهم عقد نكاح على حرة مسلمة إلا بولي عصبية وشهود عدول، ولا يحل لهم منهن أكثر من أربع، وما شأوا من الإماء، وقد رخصنا لك يا محمد في ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً منه؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾^(٦).

ثم يقول ﷺ: ﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا

(١) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبي ﷺ، كان اسمها برة، فسمها رسول الله ﷺ ميمونة، توفيت بسرف سنة (٦٦هـ) وقيل (٦٣هـ) في الموضع الذي ابنتى بها فيه رسول الله، وصلى عليها ابن عباس رضي الله عنهما.

انظر: الاستيعاب (٤/١٩١٤)، الإصابة (٨/١٢٦).

(٢) هي زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبدمناف العامرية كانت تدعى أم المساكين، وزوج النبي ﷺ، كانت تحت عبدالله بن جحش، وقتل عنها يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة (٣هـ)، وتوفيت في حياة الرسول انظر: الاستيعاب (٤/١٨٥٣)، الإصابة (٧/٦٧٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣١/١٢)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٦/٤٤٣ - ٤٤٤).

(٤) انظر: فتح الباري: (٨/٥٢٦)، باب قوله: (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابغيت ممن عزلت...)، وانظر: تفسير ابن كثير: (٦/٤٤٤).

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٦) انظر: تفسير الطبري: (١٢/٣٢).

جُنَاحَ عَلَيْكَ ^ع ذَلِكَ أَدْتَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ^ع وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ (١).

تعددت الأقوال في تأويل هذه الآية: ﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءٍ ^ط﴾.

ف قيل: إن المراد بقوله: ﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءٍ ^ط﴾، أي: من الواهبات أنفسهن، فمن شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عدت إليها فأويتها (٢).

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنها كانت تُعَيِّرُ النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق، فنزل أو فأنزل الله ﷻ: ﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءٍ ^ط وَمِنْ ابْنَعْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ^ع﴾، قالت: إني أرى ربك ﷻ يسارع لك في هواك» (٣).

وقيل: بل المراد من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت (٤).

والمعنى بقوله ﴿تُرْجَى﴾، أي: تؤخر، ﴿وَتُؤْوَى﴾، أي: تضم إليك (٥)، والمعنى: أن الله وسع على رسوله ﷺ، وجعل الخيار إليه في نسائه، فيؤخر من شاء منهن، ويؤخر نوبتها ويتركها، ولا يأتيها من غير طلاق، ويضم إليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عندها (٦).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥١ - ٥٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٥/٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (١٥٨/٦) برقم: (٢٥٢٩٠). وانظر: تفسير الطبري: (٣٥/١٢).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٥/٦ - ٤٤٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٣٣/١٢)، انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٥/٦)، انظر: فتح البيان: (٣٣٨/٥)، تفسير ابن

عطية: (١٨ - ١٥/١٩)، تفسير النسفي: (٣١١/٣).

(٦) انظر: فتح البيان: (٣٣٨/٥).

وفي هذه الآية ذهب جمع من أهل العلم: إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه، واحتجوا بهذه الآية الكريمة^(١).

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية: ﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْنَتِكَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلت لها: ما كنت تقولين، قالت: كنت أقول له: إن كان ذاك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً»^(٢).

فهذا الحديث عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم عليه صلوات ربي وسلامه عليه، ومع هذا كان ﷺ يقسم لهن^(٣).

قال ابن العربي: «هذا الذي ثبت في الصحيح، وهو الذي ينبغي أن يعول عليه، والمعنى المراد: هو أن النبي كان مخيراً في أزواجه إن شاء أن يقسم قسم، وإن شاء أن يترك القسم ترك؛ لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون فرض ذلك عليه، فإن الله ﷻ قد أعطاه سقوط القسم بين أزواجه، وكان هو يلتزمه تطيباً لنفوسهن، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي ربما ترقّت إلى ما ينبغي»^(٤).

واختار ابن جرير - رحمه الله تعالى - : «بأن الله جعل لنبيه أن يرجي من النساء اللواتي أحلهن له من يشاء، ويؤوي إليه منهن من يشاء، وذلك أنه لم يحصر معنى الإرجاء والإيواء على المنكوحات اللواتي كن في حياله، عندما نزلت هذه الآية، دون غيرهن ممن يستحدث إيواءها أو إرجاءها منهن، فمعنى الكلام: تؤخر من تشاء ممن وهبت نفسها لك، وأحللت لك نكاحها فلا تقبلها ولا تنكحها، أو ممن هن في حبالك فلا تقربها، وتضم إليك من تشاء ممن

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٦/٦)، فتح البيان: (٣٣٨/٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (التفسير)، باب قوله: (ترجي من تشاء منهم وتؤي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك): (١٧٩٧/٤)، برقم: (٤٥١١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٦/٦).

(٤) أحكام القرآن؛ لابن العربي، بتصرف: (٦٠٥/٣).

وهبت نفسها لك ، أو أردت من النساء التي أحللت نكاحهن ، فتقبلها أو تنكحها ، وممن هي في حبالك ، فتجامعها إذا شئت ، وتركها إذا شئت بغير قسم^(١).

فذهب ابن جرير رحمه الله إلى أن الآية عامة في الواهبات أنفسهن ، وفي النساء اللاتي عنده ، أنه مخير فيهن ، إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي ، وفيه جمع بين الأحاديث ، ولهذا قال عَلَيْكَ بعد ذلك : ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَاءِ أَيْتِهِنَّ كُلَّهُنَّ﴾^(٢).

فإنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك ، لا أنه على سبيل الوجوب ، فهذا التفويض الذي فوضناك أقرب إلى إرضائهن ، وأطيب لأنفسهن ، وإلى قرة أعينهن ، وقلة حزنهن ، ورضاهن جميعاً ، وذهب التغاير ، وحصل الرضا ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن ، مع عدم وجوبه عليك ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن^(٣).

وكان ﷺ يقسم بينهن في القسمة حتى مات عليه الصلاة والسلام ، ولم يستعمل شيئاً مما أتيح له ضبطاً لنفسه ، وأخذاً بالأفضل صلوات ربي وسلامه عليه^(٤).

ما لم يحله الله تعالى لنبيه ﷺ :

وكما جاءت الآيات السابقة لتحل لرسول الله ﷺ بعض الأمور ، جاءت هذه الآية لتحرم عليه أموراً أخرى.

قال تعالى : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ

(١) تفسير الطبري: (٣٥/١٢ - ٣٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٦/٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٦/٦)، تفسير النسفي: (٣١٢/٣)، انظر: فتح البيان: (٣٣٩/٥).

(٤) انظر: فتح البيان: (٣٣٩/٥)، تفسير ابن عطية: (١٥١٩).

إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١﴾ .

وتفسير الآية: أنها تحرم عليه الزواج من غير النساء اللاتي حددتهن الآية السابقة بقوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَيْمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَةَ مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ (٢).

والقراءة في قوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ﴾ ، هي القراءة المجمع عليها: بفتح التاء، بمعنى: ولا أن تستبدل بهن (٣).

فهل المعنى أنه لا يجوز للرسول ﷺ بعد نزول هذه الآية أن يتزوج غير زوجاته التسع؟.

وجوب ذلك أنه كان لرسول الله ﷺ أن يتزوج من شاء من النساء اللواتي كان الله أحلهن له على نسائه اللاتي كن عنده يوم نزلت هذه الآية، وإنما نهي ﷺ بهذه الآية أن يفارق من كان عنده بطلاق أراد به استبدال غيرها بها، لإعجاب حسن المستبدلة له بها إياه، إذ كان الله قد جعلهن أمهات المؤمنين، وخيرهن بين الحياة الدنيا والدار الآخرة، والرضا بالله ورسوله، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فحرم من على غيره بذلك، ومنع من فراقهن بطلاق. فأما نكاح غيرهن فلم يمنع منه، بل أحل الله له ذلك على ما بين في كتابه (٤)، فقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء» (٥).

وقد أباح الله له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة للرسول ﷺ

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري، بتصرف: (٤٠/١٢).

(٣) تفسير الطبري: (٤٢/١٢).

(٤) تفسير الطبري: (٤٢/١٢ - ٤٣).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده: (٤١/٦) برقم: (٤٢١٨٣)، ورواه النسائي في سننه: (٢٦٠/٣) برقم: (٥٣١١)، ورواه

الترمذي في سننه: (٣٥٦/٥) برقم: (٣٢١٦)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

عليهن ، رضي الله عنهن وأرضاهن^(١).

ثم إن الله جل وعلا استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ﴾^ط إلا الإماء والسراري ، فإن لك أن تملك من أي أجناس الناس شئت من الإماء^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٧/٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٤٤/١٢)، انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٧/٦).

المطلب الخامس: ما أوجب الله على نساء النبي عليه الصلاة والسلام

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّا تَزُوجُكَ إِن كُنْتَ تَرَدُّكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعَنَّكَ وَأُسْرِحْكَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتَ تَرَدُّكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾.

ذُكِرَ أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل أن عائشة سألت رسول الله ﷺ شيئاً من عرض الدنيا، إما زيادة في النفقة، أو غير ذلك، فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهراً فيما ذُكِرَ، ثم أمره الله أن يُخَيِّرهن بين الصبر عليه، والرضا بما قسم لهن، والعمل بطاعة الله، وبين أن يمتعهن ويفارقهن إن لم يرضين بالذي يقسم لهن^(١).

وكان تحته عليه الصلاة والسلام يومئذٍ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة^(٢) بنت أبي سفيان، سودة^(٣) بنت زمعة، وأم سلمة^(٤) بنت أبي أمية.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٨ - ٢٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١١١/١٨٨).

(٣) هي رمله بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، زوج النبي ﷺ تكنى أم حبيبة، واشتهرت بكينيتها، كانت زوجة لعبيدالله بن جحش، وأنجبت له حبيبة التي تكنى بها، ولما ارتد عن الإسلام فارقها، وبعد ذلك تزوجها رسول الله ﷺ، ماتت بالمدينة سنة (٤٤ هـ).

انظر: الاستيعاب (٤/١٨٤٣)، الإصابة (٧/٦٥١).

(٤) هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبدشمس القرشية العامرية، كان قد تزوجها السكران بن عمرو فتوفي عنها فتزوجها رسول الله ﷺ وكانت أول امرأة تزوجها بعد خديجة رضي الله عنها توفيت في آخر زمان عمر بن الخطاب سنة (٥٤ هـ).

انظر: الاستيعاب (٤/١٨٦٧)، الإصابة (٧/٧٢٠).

(٥) أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشية أم المؤمنين، اسمها هند، واسم أبيها حذيفة، كانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبدالأسد، فلما مات عنها، تزوجها رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة سنة (٤ هـ)، كانت من السابقين للإسلام، وهي من آخر أمهات المؤمنين موتاً، أختلف في سنة وفاتها، وقيل على الأرجح إنها توفيت سنة (٦٥ هـ) في خلافة يزيد بن معاوية.

انظر: الاستيعاب (٤/١٩٣٩)، الإصابة (٨/٢٢١).

وكان تحتها صفية^(١) ابنة حبي الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية^(٢) بنت الحارث من بني المصطلق^(٣).

جاء عن جابر بن عبد الله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً^(٤) ساكتاً، قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة، فقامت إليها، فوجأت^(٥) عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يما عنقها، فقام عمر إلى حفصة يما عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَلْأَزْوَاجِ﴾ حتى بلغ ﴿لَلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال: فبدأ بعائشة، فقال: يا عائشة إنني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله، فتلا عليها الآية،

(١) هي صفية بنت حبي بن أخطب بن سعة بن ثعلبة من بني النضير، من ذرية هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليهما السلام، كانت من السبايا يوم خيبر، فأعتقها النبي وتزوجها، روت صفية عن رسول الله الأحاديث، توفيت سنة (٥٢هـ).

انظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٧١)، الإصابة (٧/ ٧٣٨).

(٢) هي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن خزيمه المصطلقية، كانت إحدى السبايا في غزوة بني المصطلق، دخلت على رسول الله وسألته أن يعينها على كتابتها، فهي ابنة سيد قومه، فأدى عنها رسول الله كتابتها وتزوجها، أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق لما تزوجها الرسول ﷺ، فلم يعرف امرأة أعظم بركة منها على قومها توفيت سنة (٥٦هـ).

انظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٠٤)، الإصابة (٧/ ٥٦٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ١٨٩).

(٤) أي مهتماً، والوجم الذي أسكته هم وعَلَّتْه الكآبه، وقيل الوجوم الحزن.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ١٥٦).

(٥) فوجأت: وجأ إذ ضرب.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ١٥١) مادة (وجأ).

قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً^(١).

وجاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخبر أزواجه، قالت: فبدأ بي، فقال: إني ذاك لك أمراً، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، فقال إن الله قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلى تمام الآية، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت»^(٢).

فحين سألت نساء رسول الله ﷺ شيئاً من عرض الدنيا وأذنيه بزيادة النفقة، أنزل الله ﷻ هذه الآيات، وأمره أن يخبرهن بين الإقامة معه على طلب ما عند الله أو السراح إن أردن الدنيا، وهو قوله: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنَهَا فَنِعَالَيْنَ أُمَّتَعَنَّ﴾ متعة الطلاق، فقرأ عليهن رسول الله ﷺ هذه الآيات، فاخترن الآخرة على الدنيا، والجنة على الزينة، فرفع الله سبحانه درجاتهن على سائر النساء^(٣).

ولهذا لما اخترن زوجات النبي ﷺ الله ورسوله والدار الآخرة أثابهن الله ﷻ بثلاثة أشياء:

أحدها: التفضيل على سائر النساء، بقوله: ﴿لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(٤).

الثاني: أن جعلهن أمهات المؤمنين.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب (الطلاق)، باب: (أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بنية): (١١٠٤/٢) برقم: (١٤٧٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب (التفسير)، باب قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً): (١٧٩٦/٤) برقم: (٤٥٠٧)، وأخرجه مسلم، كتاب (الطلاق)، باب: (أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية): (١١٠٣/٢) برقم: (١٤٧٥).

(٣) انظر: تفسير الواحدي: (٨٦٤/٢).

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

الثالث: أن حظر عليه طلاقهن والاستبدال بهن^(١) بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ

بَعْدُ﴾^(٢).

فقد خير نبي الله ﷺ نساءه بأمر الله له أن يقول لهن: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: السعة والتنعيم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾، أي: زخرفها ومباهجها، فتعالين أقبلن بإرادتكنا واختياركن، ﴿أُمَّتَعَكُنَّ﴾ أي: أعطيكنا متعة الطلاق، ﴿وَأُسْرِحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، والتسريح هو: الطلاق، ﴿جَمِيلًا﴾، أي: حسن كثير بأن يكون طلاقاً لا ضرر فيه^(٣).

وقال ابن كثير في تفسيره للآية: «هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل»^(٤).

وفي تقديم التمتع على التسريح مع أنه في الواقع بعده، ما يدل على الكرم وحسن الخلق، وفي ذلك إيناس لهن، وقطع لمعاذيرهن من أول الأمر، حيث إنهن سألهن ثياب الزينة، وزيادة النفقة، وتوسعة الحال^(٥).

وقد حصل لهن الخير الكثير عندما اخترن الرسول ﷺ، ومن ذلك:

١ - إظهار رفعتهم، وعلو درجاتهم، وبيان علو هممهم، وإن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهم ومقصودهم دون الدنيا وحطامها. وكذلك سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء^(٦).

(١) تفسير زاد المسير: (٣٧٨/٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

(٣) انظر: روح المعاني: (١٨١/٢١)، انظر: تفسير أبي السعود: (١٠٠/٧).

(٤) تفسير ابن كثير: (٤٠١/٦).

(٥) انظر: تفسير البيضاوي: (٣٧٢/٤)، وروح المعاني: (١٨١/٢١).

(٦) انظر: تفسير تيسير الكريم الرحمن باختصار؛ للسعدي: (٦٦٣).

٢- جعل ثواباً طاعتهم وعقاب معصيتهم أكثر من غيرهم: قال تعالى: ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرًا مَّرْتَبَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ۚ يُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾^(١).

فهذا خطاب من الله تعالى لأزواج النبي ﷺ أنفسهن.

يقول القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: «قال العلماء: لما اختار نساء النبي ﷺ رسول الله عليه الصلاة والسلام شكرهن الله على ذلك، فقال تكملة لهن: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾^(٢).

وبين حكمهن من غيرهن فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾^(٣). فجعل ثواب طاعتهم، وعقاب معصيتهم أكثر مما لغيرهم، فقال: ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبي ﷺ بفاحشة، والله عاصم رسول الله عليه الصلاة والسلام من ذلك كما مر في حديث الإفك، يضاعف لها العذاب ضعفين، لشرف منزلتهن، وفضل درجتهم، وتقدمهن على سائر النساء أجمع، وكذلك بينت الشريعة أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت، تضاعفت العقوبات»^(٤).

فلما كانت مكانتهن رفيعة ناسب أن يجعل الله الذنب الواقع منهن عقوبته مغلظة، صيانة لجانبهن، وجانب رسول الله ﷺ. وقيل: لما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي، وفي منزل

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٠ - ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

(٤) تفسير القرطبي: (١٤/١٧٤).

وأمر الله ونواهيه، قوي الأمر عليهن، ولزمهن بسبب مكاتهن، أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب^(١).

وقال النسفي^(٢) - رحمه الله -: قوله تعالى ﴿يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، ضعفي عذاب غيرهن من النساء؛ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح^(٣).

والفاحشة: هي عبارة عن كل فعل تعظم كراهيته في النفوس، ويقبح ذكره في الألسنة حتى يبلغ الغاية في جنسه، فهي تنطبق على الزنا، وعلى سائر المعاصي^(٤).

قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبي قط، وإنما خانت في الإيمان والطاعة»^(٥).

فساء الأنبياء، حتى وإن عظمت مخالفتهم فلا يزين، فقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ لامرأة نوح وامرأة لوط: هي خيانة الرسولين بإفشاء أسرارهما^(٦).

ثم إن الله ذكر عدله وفضله سبحانه في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: فمن تطع الله ورسوله وتستجيب يكون جزاؤها: ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في

(١) المرجع السابق.

(٢) هو عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، كان إماماً في جميع العلوم، له مصنفات عديدة في الفقه، والأصول، وصنف في التفسير كالمدارك في التفسير، توفي في بغداد سنة (٧١٠هـ).

انظر: طبقات المفسرين للداودي (١/٢٦٣)، الدرر الكامنة (٣/١٧).

(٣) تفسير النسفي: (٣/٣٠٤).

(٤) انظر: أحكام القرآن لابن العربي: (١/٤٥٨، ٣/٥٦٧).

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر: تفسير النسفي: (٤/٢٦١).

الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش^(١).

٣- نفي مساواتهن لأحد من النساء :

فهذه الآيات تنفي مساواتهن لسائر النساء ، ولهذا قال تعالى : ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتَقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾^(٢).

فيقول الله ﷻ لأزواج رسول الله ﷺ : إنكن لستن كأحد من نساء هذه الأمة ، ﴿إِنَّ أَتَقِيْنَ﴾ الله فأطعته فيما أمركن ونهاكن.

الآداب التي أمر الله بها نساء النبي ﷺ :

أمر الله نساء النبي ﷺ بأداب ، فقال : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ، فيأمرهن بعدم تليين القول ، وترقيق الكلام إذا خاطبهن الرجال ، ولهذا قال : ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ، فيطمع لضعف إيمانه في قلبه ، وقيل : فجور وزناً ، وبذلك فسره ابن عباس^(٣).

١ - فأمرهن ﷻ أن لا يخاطبن الأجانب بكلام فيه ترخيم ، فقال سبحانه : ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قولاً قد أذن الله لكم به وأباحه^(٤).

ومما أمرهن به وحثهن عليه ، ونساء الأمة تبع لهن^(٥) في ذلك قوله : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^٦ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا^(٦). فقد جاءت هذه الآية ضمن

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٠٨/٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧١٦/١٢)، تفسير ابن كثير: (٤٠٨/٦ - ٤٠٩)، روح المعاني: (٥/٢٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٧/١٢)، تفسير ابن كثير: (٤٠٩/٦).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٠٨/٦).

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

مجموعة من الآيات، والتي نزلت في تخيير النبي ﷺ أزواجه، فلما اخترته أدبهن بهذه الآداب الكريمة الرفيعة^(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة».

٣- قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: «كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال بلا حجاب، فذلك تبرج الجاهلية».

وقال مقاتل بن حيان^(٢): «التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فلا يوارى قلائدها وقرطها وعنقها، وييدي ذلك كله منها، وذلك التبرج»^(٣).

ويقول الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «معنى الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنبأ النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، وهذا لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة»^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: من قر، يقر، أي: نُقِلَ واستقر.

وليس المراد من ملازمة البيوت عدم الخروج منها إطلاقاً، وإنما أن يكون الخروج من البيت على حسب الحاجة، وسيأتي دليل خروج المرأة لحاجتها في حديث عائشة رضي الله عنها، عن سودة إنما البقاء والقرار في البيت هو الأصل، لأن ذلك يوافق الفطرة التي فطر الله المرأة عليها لإنجاب الأبناء، ورعايتهم والقيام على شئونهم، وشئون البيت، وهذه الواجبات لاتستطيع أن تقوم بها المرأة وهي خراجة ولأجه.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٠٨/٦).

(٢) هو: مقاتل بن حيان أبو بسطام النبطي البلخي، الإمام العالم المحدث الثقة، كان من العلماء العاملين، ذا نسك وفضل، صاحب سنة، رحل إلى بلاد كابل، ودعا إلى الله، وأسلم على يديه خلق كثير. توفي سنة ١٥٠ هـ.

انظر: الطبقات الكبرى (٧/٣٧٤)، سير أعلام النبلاء (٦/٣٤٠).

(٣) المرجع السابق: (٦/٤٠٩ - ٤١٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن؛ للقرطبي: (١٧٩/١٤).

وقيل: إن (التبرج) المنهي عنه في هذا الموضع: التبختر، والتكسر، كما كانت النساء تفعل بمشيتهن في الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك^(١).

ولا مانع من أن يكون التبرج المنهي عنه: هو إظهار الزينة، وإبراز المحاسن للرجال الأجانب، والتبخر، والتكسر، والتعج في المشية، فلا شك أن النساء منهيات عن ذلك كله.

وأما «تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى»، فإن أهل التأويل اختلفوا في الجاهلية الأولى.

والذي اختاره الطبري - رحمه الله -: «أن الله تعالى نهى نساء النبي أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وجائز أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى عليهما السلام فيكون المعنى: ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام»^(٢).

وبعد أن نهاهن أولاً عن الشر، أمرهن بالخير،^(٣) فقال:

٤ - «وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، وخص الصلاة والزكاة

بالأمر، ثم عم جميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأن من واطب عليهما جرتاه إلى ما وراءهما^(٤).

فأمرهن رضي الله عنهن بإقامة الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة الواجبة عليهن في أموالهن، وطاعة الله ورسوله فيما أمرهن ونهاهن^(٥).

وقوله سبحانه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ».

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت في نساء النبي خاصة»^(٦).

وقال ابن كثير: «وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ها هنا؛ لأنهن سبب نزول

(١) انظر: تفسير الطبري: (٨/١٢).

(٢) المرجع السابق: (٩/١٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤١٠/٦).

(٤) انظر: تفسير النسفي: (٣٠٥/٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (١٠/١٢).

(٦) انظر: تفسير الدر المنثور: (٦٠٣/٦)، تفسير ابن كثير: (٤١٠/٦).

هذه الآية»^(١).

وإن كان هناك أحاديث جاءت عن النبي ﷺ تدلُّ على دخول غيرهن في الآية من أهل البيت. فقد أخرج الإمام مسلم^(٢) في «صحيحه»: «أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: خرج النبي ﷺ غداة، وعليه مرط^(٣) مرحل من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن عليٍّ فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»^(٤).

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - في «مسنده»: «أن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأثته فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ببرمة^(٥) فيها خزيرة^(٦)، فدخلت بها عليه، قال لها: ادعي زوجك وابنيك، قالت: فجاء عليٌّ والحسن والحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دُكانٍ، تحته كساءٌ له خيبري، قالت: وأنا أصلي في الحجرة، فأنزل الله ﷻ هذه

(١) تفسير ابن كثير: (٤١٠/٦)، ويراجع: أضواء البيان: (٢٣٧/٦).

(٢) هو مُسْلِمُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ مُسْلِمِ الْقُشَيْرِيِّ، حافظ من أئمة المحدثين، ولد بنيسابور، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وتوفي بظاهر نيسابور، وأشهر كتبه (صحيح مسلم)، جمع فيه أحاديث كتبها في خمس عشرة سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليها عند أهل السنة في الحديث، وقد شرحه كثيرون وله كتب أخرى، مثل: التمييز، والأسماء والكنى. توفي سنة (٢٦١هـ).

انظر: الفهرست (ص ٣٢٢)، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٥٥٧).

(٣) المرط بكسر الميم، وإسكان الراء، وهو كساء يؤتز به، تارة يكون من صوف، وتارة من شعراً وكتان أو خز، وقوله: (مرط مرحل) أي أن هذا المرط عليه صورة رجال الإبل.

انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥٧/١٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب (فضائل الصحابة ﷺ)، باب: (فضائل أهل بيت النبي ﷺ): (١٨٨٣/٤)، برقم: (٢٤٢٤)، انظر: تفسير الطبري: (١١/١٢).

(٥) البرمة هي القدر مطلقاً، وتطلق على ما يحوي الطعام.

انظر: النهاية في غريب الأثر (١٢١/١) مادة (برم).

(٦) الخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير ويذر عليه الدقيق وقيل هي حساء من دقيق، ودسم.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢٨/٢) مادة (خزر).

الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، قالت: فأخذ فضل الكساء، فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى جيرانك إلى خير^(١).

فدلالة القرآن والسنة هو شمول الآية الكريمة لأزواج النبي ﷺ، ولعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً^(٢).

فإن قيل: إن الضمير في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، ضمير الذكور، فلو كان المراد نساء النبي ﷺ، ل قيل: «ليذهب عنكن ويطهركن»، فالجواب من وجهين:

الأول: هو أن الآية الكريمة شاملة لهن ولعلي والحسن والحسين وفاطمة، وقد أجمع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجموع.

الوجه الثاني: هو أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، أن زوجة الرجل يطلق عليها اسم الأهل، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر، ومنه قوله تعالى في موسى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾، وقوله: ﴿سَاتِيكُمْ﴾^(٣)، وقوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾^(٤)، والمخاطب امرأته^(٥).

قال ابن كثير: «ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله:

(١) رواه أحمد في مسنده: (٢٩٢/٦)، برقم: (٢٦٥٥١).

(٢) انظر: أضواء البيان: (٢٣٨/٦).

(٣) سورة النمل: الآية ٧.

(٤) سورة طه: الآية ١٠.

(٥) انظر: أضواء البيان (٢٣٨/٦).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، فإن سياق الكلام معهن؛ ^(١) ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ^(٢) .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، عقب أمرهن بالصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ، ليريد الله أن يذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت محمد ، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾ من الدنس الذي يكون من أهل المعاصي لله ، بما يأمر به من طاعة الله ، وينهى عنه من معصيته ؛ لأن من أطاع الله أذهب عنه الرجس وطهره من الذنوب تطهيراً ^(٣) .

٥ - ومن الأوامر الإلهية لنساء النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ^(٤) .

وهذه الآية فيها تذكير بما أنعم الله به عليهن ، حيث جعلهن أهل بيت النبوة ، ومهبط الوحي ، وما شاهدن من مكان الوحي ، مما يوجب قوة الإيمان ، والحرص على الطاعة ، وفي ذلك حثٌ لهن للائتمار ، والانتهاز فيما كلفهن الله ﷻ ^(٥) .

قال الطبري: «واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة ، ويعني بالحكمة: ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من أحكام دين الله ، ولم ينزل به قرآن ، وذلك السنة ^(٦) ، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ، أي: إن الله كان ذا لطف بكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤١٥/٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١٠/١٢) ، أضواء البيان: (٢٣٨/٦).

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.

(٥) انظر: تفسير روح المعاني: (٢٠/٢٢).

(٦) تفسير الطبري: (١٤/١٢).

آياته والحكمة ، خبيراً بكنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً»^(١).

٦- وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾^(٢).

فهذه الآية نداءً للنبي عليه الصلاة والسلام ، وفيه أمر من الله ، أن يأمر زوجاته وبناته وجميع نساء المؤمنين بالستر والعفاف عن الرجال ، والذي لا يحصل إلا بالحجاب.

يقول عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : «أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة ، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبيدين عيناً واحدة»^(٣).

وأن عامة المفسرين من الصحابة فمن بعدهم فسروا الآية مع بيانهم سبب نزولها ، بأن نساء أهل المدينة كن يخرجن بالليل ؛ لقضاء حاجتهن خارج البيوت ، وكان بالمدينة بعض الفساق يتعرضون للإماء ، ولا يتعرضون للحرائر ، وكان بعض نساء المؤمنين يخرجن في زي ليس متميزاً عن زي الإماء ، فيتعرض لهن أولئك الفساق بالأذى ، ظناً منهم أنهن إماء ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يتميزن في زيهن عن زي الإماء ، وذلك بأن يدين عليهن من جلابيبن ، فإذا فعلن ذلك ، ورآهن الفساق علموا أنهن حرائر ، ومعرفتهم بأنهن حرائر لا إماء هو معنى قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ ، فهي معرفة بالصفة لا بالشخص ، وهذا التفسير منسجم مع ظاهر القرآن ، فقوله: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ ؛ لأن إنداءهن عليهن من جلابيبن ، يشعر بأنهن حرائر ، فهو أدنى ، وأقرب لأن يعرفن ، أي : يعلم أنهن حرائر ، فلا يؤذين من قبل الفساق الذين يتعرضون للإماء ، وهذا هو الذي فسّر به أهل العلم هذه الآية. وقال مجاهد: «يتجلبين ، فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة ، وليس المراد منه أن تعرض الفساق للإماء جائز ، بل هو حرام ولا شك ، وأن المتعرضين لهن من الذين في قلوبهم مرض ، وأنهم يدخلون في

(١) تفسير الطبري (١٢/١٤).

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري : (١٢/٥٩) ، انظر: تفسير ابن كثير: (٦/٤٨١ - ٤٨٢).

عموم قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾^(١).

ففي هذه الآية دلالة واضحة على فرضية الحجاب، وأن حكم آية الحجاب عام، وإن كان لفظها خاصاً بأزواجه ﷺ.

ومن الأدلة على أن حكم آية الحجاب عام، هو ما تقرر في الأصول من أن خطاب الواحد يعم حكمه جميع الأمة^(٢)، ولا يخص الحكم بذلك الواحد المخاطب، وأن النبي ﷺ واحد من أمته يعم حكمه جميع الأمة لاستوائهم في أحكام التكليف.

فالقرآن دل على الحجاب، ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه ﷺ، فلا شك أنهم خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامة، وعدم التدنس بأنجاس الريبة، فإشراك نساء المؤمنين مع أزواج النبي ﷺ بالأمر بإدناء الجلباب في قوله تعالى: (ونساء المؤمنين) يستلزم وجوب ستر الوجه لنساء المؤمنين كافة، إذ لانزاع بين المسلمين في وجوب احتجاب أزواج النبي ﷺ وستر وجوههن^(٣).

والجلباب: هو الرداء فوق الخمار^(٤)، والمراد به العباءة في وقتنا الحاضر.

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنَ﴾ «أي: إذا فعلن ذلك عُرفنَّ أنهن حرائر، لسن يأماء ولا عواهر»^(٥)، فالحجاب يستر النساء ويعفهن، فلا يتعرض لهن أحد، ولا يلقين ما يكرهن، بخلاف المرأة المتبرجة، فإنها تعرض نفسها لإقدام أهل الفسق واعتدائهم، وقد تكون مطمعاً من قبل أهل الفسق والفجور.

وقد كان من المؤمنات الامتثال والانقياد لأمر الله، والاستجابة له ﷺ ولرسوله ﷺ، فعن

(١) انظر: تفسير أضواء البيان: (٢٤٦/٦)، تفسير ابن كثير: (٤٨٢/٦). وتفسير الواحدي (٨٧٣/٢).

(٢) انظر: نيل الأوطار (١٣١/٧) وقواطع الأدلة في الأصول (٢٢٨/١).

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان باختصار وبتصرف: (٢٤٤/٦ - ٢٤٦ - ٢٤٨).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨١/٦).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤٨٢/٦).

عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿يُخْمَرْنَ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطن^(١)، فاختمرن بها»^(٢).

ومن التوجيهات الربانية لنساء النبي ﷺ ونساء الأمة:

قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ آيَاتَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾^(٣).

فلما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤).

فهذا أمر من الله ﷻ للنساء المؤمنات عامة، فلا جناح عليها أن تظهر زينتها أمام هؤلاء الأقارب المذكورين في الآية، وهم «الآباء، والأبناء، والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، والأزواج»، كما في قوله تعالى في سورة النور ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، وأبناء الزوج، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، ووالد الزوج كما في قوله: ﴿أَوْ

(١) المروط: جمع مرط وهو الإزار، وقوله: فاختمرن أي غطين وجههن.

انظر: فتح الباري (٤٩٠/٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (التفسير)، باب: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن): (٤/١٧٨٢) برقم: (٤٤٨٠).

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٥.

(٤) سورة النور: الآية ٣١.

ءَابَاءَ بُعُولَتِهِمْ»، كل هؤلاء محارم المرأة، يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها^(١).

وأما قوله: «وَلَا نِسَائِهِنَّ»، فالمراد بالنساء هنا: أي: النساء المؤمنات، فلا جناح عليهن في أن لا يحتجبن من نساء المؤمنين، ومع هذا فإن المرأة لا يجوز لها أن تنظر إلى شيء من عورة المرأة، بحجة أنها من النساء، وإنما ذلك في الزينة فقط، قال: وإلا فلا يجوز للمرأة أن تنظر إلى شيء من عورة المرأة^(٢).

هذا وقد بينت السنة جواز خروج المرأة لحاجتها، فقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «خرجت سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد ما ضُربَ الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرأها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت^(٣) راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده عرق^(٤)، فدخلت، فقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أُذن لَكُنَّ أن تخرجن لحاجتِكُنَّ»^(٥).

ومن الذين رفع الله الجناح عليهن بإظهار زينتهن لهم ملك اليمين في قوله ﷻ:

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، مع اختلاف أقوال المفسرين:

فمنهم من قال: «يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث، (الرجال والنساء)».

(١) انظر: تفسير ابن كثير باختصار وتصرف: (٤٤/٦، ٤٧، ٤٥٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري، بتصريف: (٥٤/١٢).

(٣) فانكفأت بالهمزة يعني انقلبت وانصرفت.

نظر: عمدة القاري (١٢٤/١٩).

(٤) العرق: بالسكون العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم، يقال عرقت العظم واعترقته وتعرقته إذا أخذت عنه اللحم بأسنانك

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢٢٠/٣) مادة عرق.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب (التفسير)، باب قوله: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين

إنه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا...): (١٨٠٠/٤)، برقم: (٤٥١٧)، وأخرجه مسلم، كتاب (السلام)، باب: (إباحة

الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان): (١٧٠٩/٤)، برقم: (٢١٧٠).

ومنهم من قال: «يراد بهن الإمام فقط، (النساء)».

قال سعيد بن المسيب^(١): «إنما يعني به الإمام فقط. وذهب أيضاً إلى أن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يراد به: نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة؛ لأنها أمتها».

وقال الأكثرون: «بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء^(٢)، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود^(٣)، عن أنس^(٤) رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى، قال: إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلأمك»^(٥).

إلا أن هناك رواية في مسند الإمام أحمد وغيره مفادها: «أن العبد إذا كان لديه ما يؤديه، فعلى سيده أن تحتجب منه، فعن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب، فكان عنده ما يؤدي، فلتحتجب منه»^(٦)، ويحتمل أن يكون هذا الخطاب مع

(١) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عائد بن عمران القرشي أبو محمد، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، ولد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سمع من عثمان وعلي، وعائشة وأبي هريرة وابن عباس، وغيرهم من الصحابة، وكان زوجاً لبنت أبي هريرة، وأعلم الناس بحديثه، توفي سنة (٩٤هـ).
انظر: حلية الأولياء (٢/ ١٦١)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٢/ ٥٤)، وتفسير ابن كثير: (٦/ ٤٨ - ٤٥٦).

(٣) هو أبو داود السجستاني سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو الأزدي، الإمام العالم، صاحب كتاب السنن، والناسخ والمنسوخ، والمراسيل وغي ذلك، ولد سنة (٢٠٢هـ) هو أحد الأئمة، فقهياً وعلمياً، وحفظاً وورعاً، ودفاعاً عن السنة، كتب عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث. توفي في شهر شوال (٢٧٥هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٣)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٩٣)..

(٤) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري الحزرجي، خادم رسول الله ﷺ، ومن المكثرين من الرواية عنه عليه الصلاة والسلام، كناه رسول الله ﷺ بأبي حمزة. كان آخر من مات من الصحابة بالبصرة سنة (٩١هـ).
انظر: الاستيعاب (١/ ١٠٩)، الإصابة (١/ ١٢٦).

(٥) الحديث أخرجه أبو داود في سننه برقم: (٤١٠٦)، (٦٢/ ٤)، كتاب (اللباس)، باب: (العبد ينظر إلى شعر مولاته).

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده: (٦/ ٢٨٩) برقم: (٢٦٥١٦). والبيهقي في السنن الكبرى كتاب المكاتب، باب / الحديث

زوجاته أخذاً بالاحتياط والورع^(١).

ثم إن الله ختم الآيات بعد أن أمر بالحجاب، بأمره بالتقوى وهي: مراقبة الله تعالى على كل الأحوال، فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، أي: فحفظ الله أيها النساء أن تتعدين ما حد الله لكنن، فتبدين من زينتك ما ليس لكنن أن تبدينه، أو تتركن الحجاب الذي أمركن الله بلزومه، إلا فيما أباح لكنن تركه، والزمن طاعته، فإن الله شاهد على ما تفعلنه من احتجاجكن وترككن الحجاب لمن أبحت لكنن ترك ذلك له، وغير ذلك من أموركن، يقول: واتقين الله في أنفسكن، ولا تلقين الله وهو شاهد عليكم بمعصيته، وخلاف أمره ونهيه، فتهلكن، فإنه شاهد على كل شيء^(٢).

الذي روي في الاحتجاج عن المكاتب إذا كان عنه ما يؤويه (٣٢٧/١٠)، برقم (٢١٤٥٠).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٩/١٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٢/٥٤ - ٥٥).

الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة مما حدث في بيت رسول الله ﷺ في هذا المبحث:

أولاً: الدروس والعبر والأحكام المستفادة من حادثة الإفك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ

مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

تعتبر حادثة الإفك والتي مدارها الكذب على آل بيت رسول الله ﷺ، ورميهم بالإفك والباطل: نازلة شديدة ومحنة عظيمة، كان القصد منها النيل من النبي ﷺ، ومن أهل بيته الأطهار، ورغم أنها كانت محنة عظيمة، إلا أنها كانت منحة، حيث إنها انطوت هذه الحادثة على حكمة إلهية.

فها هو القرآن يبين هذه الحكمة بقوله سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾،

فكانت من هذه الآيات فوائد عظيمة، ومن أهمها:

١- براءة السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضائها مما رُميت به من الإفك والباطل؛ وذلك بما نزل فيها من قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وإظهار الشرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢)، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وعنها وهي في ساعة الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يجبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء^(٣).

٢- الموقف الإيماني الجليل لأزواج النبي ﷺ، وضرائر عائشة، والذي زالت عنه جميع صور الغيرة، ومحبة التشفي، وحاشا لله أن يقف أمهات المؤمنين في مثل ذلك، فلم يقلن على عائشة إلا خيراً، ويتجلى ذلك واضحاً في موقف زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، رغم أن زينب

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥/٦).

هي التي كانت تنافس السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فتقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - عن أمري: يا زينب، ما علمت، أو ما رأيت لأو ما بلغك؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني^(١) من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع»^(٢).

قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾^(٣).

٣- تكذيب الله للقائلين بالإفك، فقال الله تعالى ذكره: ﴿لَوْلَا جَاءُ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٤). والمراد بالشهداء أي: يشهدون على صحة ما جاء به، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك في حكم الله كاذبون فاجرون^(٥).

٤- فضل الله على عباده المؤمنين، ورأفته ورحمته بهم حيث قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٦).

٥- التحذير من الاستهانة عند نقل الحديث باللسان، دون تثبت وتدبر من كونه كذباً وزوراً وظلماً وبهتاناً. قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(٧).

قال الزمخشري: «وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام، وعلق مس العذاب العظيم بها:

(١) تساميني: أي تعاليني وتفأخرني.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢/٤٠٥) مادة (سما).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الشهادات)، باب: (تعديل النساء بعضهن بعضاً): (٢/٩٤٥) برقم: (٢٥١٨).

(٣) سورة النور: الآية ١٢.

(٤) سورة النور: الآية ١٣.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/٢٧).

(٦) سورة النور: الآية ١٤.

(٧) سورة النور: الآية ١٥.

أحدها: تلقي الإفك بألستهم، وذلك أن الرجل كان يلقي الرجل، فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك، حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه.

الثاني: التكلم مما لا علم لهم به.

الثالث: استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم^(١).

٦- وجوب رد الحديث حين سماعه، ومعارضته، إن كان غير مثبت منه بشكل عام، وتنزيه الله سبحانه من أن يقع هذا الأمر من زوجة نبيه محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

وحقيقة البهتان: أن يقال على الإنسان ما ليس فيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(٣)، وهذا أعظم البهتان؛ لأنه افتراء على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، زوج رسول الله ﷺ، الصديقة بنت الصديق.

٧- النهي من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين، وتحذيرهم من الخوض في مثل هذا الحديث، أو العودة إليه، قال تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

٨- بيان الله تعالى لعباده المؤمنين لما فيه الخير والصلاح لهم في دنياهم وأخراهم، قال تعالى:

﴿وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

٩- النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين وفي المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ

(١) تفسير الزمخشري: (٢٢٤/٣).

(٢) سورة النور: الآية ١٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب (البر والصلة والآداب)، باب: (تحريم الغيبة) برقم: (٢٥٨٩).

(٤) سورة النور: الآية ١٧.

(٥) سورة النور: الآية ١٨.

أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

فهذه الآية نزلت في أعقاب حادثة الإفك، إلا أنها عامة لجميع من يفعل ذلك، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وفي ذلك يقول الرازي - رحمه الله - في «تفسيره»: «لا شك أن ظاهر قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾، يفيد العموم، ولا شك في أن هذه الآية نزلت في قذف عائشة رضي الله عنها، إلا أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فوجب إجراؤها على العموم»^(٢)، فهذه الآية تنطبق على كل من يحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين بأي وسيلة كانت.

١٠ - بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين، ورحمته، ورأفته بهم، وتكرار ذلك ليبين سبحانه منته وفضله عليهم، وذلك بترك تعجيل عقوبتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ءَوَّانَ اللَّهُ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

١١ - نهى الله عباده المؤمنين عن تتبع خطوات الشيطان، ومسالكه التي تؤدي بهم إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ءَمَّا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

١٢ - الحث على إيتاء ذوي القربى المحتاجين وإن أساءوا إليهم، فعليهم مقابلة الإساءة بالإحسان، والعفو والصفح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ

(١) سورة النور: الآية ١٩.

(٢) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): (١٥٩/٢٣).

(٣) سورة النور: الآية ٢٠.

(٤) سورة النور: الآية ٢١.

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث حلف على مسطح ألا ينفق عليه؛ لأنه آذاه في عرضه، إلا أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، والجزاء من جنس العمل، وكما يغفر العبد ذنب من أذنب إليه، يغفر الله له، وكما يصفح يصفح الله عنه ^(٢).

الأحكام المستفادة من حادثة الإفك:

أولاً: إثبات بشرية الرسول ﷺ، وكذلك دليل على صدق رسالته عليه الصلاة والسلام:

يقول الإمام ابن القيم ^(٣) - رحمه الله -: «... واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهراً كاملاً لا يوحى إليه في ذلك شيء، لتتم حكمته التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل، والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصادقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً ويظهر لرسوله ﷺ وللمؤمنين سرائر المنافقين.

وأيضاً كان من حكمة حبس الوحي وتأخره شهراً، أن القضية محصت وتمحضت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله ﻋﻠﻴﻚ إلى رسوله ﷺ فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه الرسول ﷺ، وأهل بيته، والصدق وأهله، وسائر المؤمنين الصادقين، فورد الوحي عليهم، ورود الغيث على الأرض، أحوج ما كانت إليه، فوقع الوحي منهم أعظم موقع وألطفه، وسُرّوا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣١/٦)؛ بتصرف.

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي، الفقيه الأصولي، الإمام شمس الدين أبو عبدالله ابن قيم الجوزية، ولد سنة (٦٩١هـ) ونشأ في بيت علم، وتلمذ على يد الإمام ابن تيمية، ولازمه وتأثر به، له مؤلفات كثيرة منها إعلام الموقعين عن رب العالمين، اغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، بدائع الفوائد، ومدارج السالكين وغير ذلك، توفي سنة (٧٥١هـ).

انظر: الوافي بالوفيات (١٩٥/٢)، شذرات الذهب (١٦٨/٦).

بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها»^(١).

فبين - رحمه الله - الحكمة من انقطاع الوحي، وتأخره شهراً كاملاً، مع شدة الحاجة إليه، فلو كان الوحي أمراً ذاتياً غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ؛ لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة، بل أبعادها شهراً كاملاً، ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة، أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته.

ثانياً: حكم قذف أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وأمّهات المؤمنين رضي الله عنهن:

أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبة على أن من سب عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعد نزول براءتها، ورماها بما رماها به أهل الإفك، فإنه كفر؛ لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان، أصحهما أنهن كعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعنهن، والله أعلم^(٢).

وقال الشيخ ابن عثيمين^(٣) - رحمه الله - في ذلك: «قذف عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بما برأها الله منه كفر؛ لأنه تكذيب للقرآن، وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان لأهل العلم، أصحهما: أنه كفر؛ لأنه قذف في النبي ﷺ، فإن ﴿الْحَيْثُ لِلْحَيْثِينَ﴾^(٤).

فالحاصل: أن من قذف عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضاها بعد نزول براءتها، فهو كافر مرتد، بإجماع أهل العلم.

وبقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن فيها قولان، أصحهما: أنهن كعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، يقول الألويسي: «وحكم رمي سائر أمهات المؤمنين كحكم رمي عائشة، وكذا حكم رمي

(١) زاد المعاد؛ بتصرف: (٢٦٢/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣١/٦ - ٣٢).

(٣) أبو عبدالله محمد بن صالح بن عثيمين أبو عبدالله الوهبي التميمي، ولد في عنيزة، وقرأ القرآن على يد جده لأمه، وقرأ على يد الشيخ عبدالرحمن السعدي، وابن باز، جلس في التدريس في الجامع، وفي كليتي الشريعة وأصول الدين. وله نشاط كبير في الدعوه الى الله من خلال مواظمة ودروسه، وله مصنفات كثيرة (فتح رب البريه، تلخيص الحمويه، القواعد المثلى) وغيرها. توفي سنة (١٤٢١هـ) انظر: كتاب علماءنا، أعلام القصيم (ص ٢٣٥).

(٤) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد؛ للمقدسي، شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله ..

أزواج الأنبياء وأمهاتهم، وعندني أن حكم رمي بنات النبي ﷺ كذلك، ولا سيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعنهن أجمعين...»^(١).

وقال الزمخشري - رحمه الله -: «ولو قلبت القرآن كله، وفتشت بما أوعد الله به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفزاز ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة، وأساليب مُفْتَنَة، كل واحد منها كافٍ في بابه، لو لم ينزل هذه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَذِيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾، لكفى بها حديثاً، جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله»^(٢).

ثالثاً: حكم رمي المحصنات المؤمنات:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أعقاب حادثة الإفك، إلا أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فالحكم عام فيمن يرمي الموصوفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة، وقد اختار الإمام الطبري - رحمه الله - في «تفسيره»: «عموم هذه الآية، فكل رامٍ محصنةً، غافلةً، مؤمنةً، بهذه الصفات التي ذكرها الله جل ثناؤه في هذه الآية، ملعون في الدنيا والآخرة، وله عذاب عظيم، إلا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته، فإن الله دلّ باستثنائه بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾^(٤)، على أن ذلك حكم رامي كل محصنة بأي صفة

(١) انظر: تفسير روح المعاني: (١٢٧/١٨).

(٢) تفسير الكشاف: (٢٢٧/٣).

(٣) سورة النور: الآية ٢٣.

(٤) سورة النور: الآية ٥.

كانت المحصنة المؤمنة المرمية، وعلى أن قوله: ﴿لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فمعناه: لهم ذلك اللعن والعذاب إن هلكوا ولم يتوبوا^(١).

رابعاً: حد القذف، وذلك لأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢)، فمثل هذا الحكم من الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، فسورة النور قد تحدثت عن مجموعة من الأحكام، كحكم الزاني والزانية، وعن قبيح فاحشة الزنا، وعلى ما يجب فعله إذا رمى أحد الزوجين الآخر، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحصنات، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فالمراد بقوله ﴿يَزْمُونَ﴾ أي: يسبون، واستعير له اسم الرمي؛ لأنه إذاية بالقول.

فهذه الآية قد بينت حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة، العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً، فكذلك يُجلد قاذفه أيضاً، وذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هن أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس، وإلا فقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك.

فأوجب الله حد القاذف، إذا لم يُقيم بينة على صحة ما قاله، وله ثلاثة أحكام:

- ١ - أن يجلد ثمانين جلدة.
- ٢ - أن تُرد شهادته دائماً.
- ٣ - أن يكون فاسقاً، ليس يعدل لا عند الله، ولا عند الناس^(٣).

ويؤيد ذلك العموم ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات

(١) انظر: روح المعاني: (١٨/١٢٧)، وتفسير الطبري: (١٠/١٣٣).

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (١٢/١٧٢)، انظر: تفسير ابن كثير: (٦/١٣ - ١٤).

المؤمنات الغافلات»^(١).

الدروس المستفادة من قصة زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جحش:

أولاً: من خلال قصة زواج الرسول عليه الصلاة والسلام بزَيْنَب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، لوحظ أن النبي ﷺ تولى بنفسه الكريمة إبطال عادة التبني بزواجه بزَيْنَب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، امرأة زيد الذي تبناه بعد أن طلقها، وبذلك زال الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج أديعتهم إذا فارقوهم بموت أو بطلاق.

بدليل قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٢)، فعلى أولياء الأمور كالوالدين (الأم والأب) أن يقوموا فعلاً بما يدعون إليه رعيتهم، أو ما يريدون تربية أبنائهم عليه، أو ما يريدوا إبطاله من عادات أو سلوكيات؛ ليكونوا قدوة لرعيتهم، ولئلا يقولوا ما لا يفعلوا، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ^(٣).

ثانياً: ومن خلال هذه القصة تبين أن زينب بنت جحش وأخاها عبدالله كرها أن تتزوج زيد بن حارثة، بعد أن عرض عليهما النبي ﷺ هذا الزواج، وأظهرا تمنعهما، ولكن لما أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾^(٤).

قالت زينب: قد رضيت لي منكحاً يا رسول الله؟ قال: نعم، قالت: إذا لا أعصي

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب (المحاربين من أهل الكفر والردة)، باب: (رمي المحصنات): (٢٥١٥/٦)،

برقم: (٦٤٦٥)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب (الإيمان)، باب: (أكبر الكبائر): (٩٢/١)، برقم: (٨٩).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٣) سورة الصف: الآية ٢ - ٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي^(١).

فطاعة الرسول هي من طاعة الله، فلا يحل لأي فرد مسلم أن يكون له رأي، أو قول أو اختيار مع ما يأمر به أو يرشد إليه، أو ينهى عنه ﷺ.

ثالثاً: ومن الملاحظ في هذه القصة أيضاً، أن السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها وأرضاها، في رفضها الأول خطبة رسول الله ﷺ لها لزيد بن حارثة رضي الله عنه، كان هذا الرفض والإباء منها سببه هو اعتياد الناس على مراعاة اعتبارات النسب والمنزلة الاجتماعية، فقد رأت زينب أنها أعلى شرفاً ونسباً من زيد رضي الله عنه، فلم ترغب في زواجه، فلما أنزل الله الآية الآنفة الذكر، رضيت فعلمت أنها ملزمة بالموافقة على هذه الخطبة، ولا يسعها مخالفة أمر رسول الله ﷺ، وذلك يدل على أن المسلم لا يلتفت إلى ما يعتاده الناس، إذا كان في هذه العادات معارضة ومخالفة لشرع الله وأمره، وأمر رسوله ﷺ، وعلى الأسرة المسلمة أن تتقيد بذلك، وأن يربي الوالدين أبناءهما على أن تكون مراعاة عادات الناس، وأعرافهم إذا لم تعارض أحكام الإسلام، وأن تكون الأعمال جميعها حسب شرع الله.

الأحكام المستفادة من قصة زواج الرسول ﷺ بزینب بنت جحش رضي الله عنها:

١- إن الإسلام هو دين المساواة، وعدم التفرقة بين الناس، إلا بتقوى الله ﷻ، وأراد الرسول ﷺ أن يقرر هذا المبدأ المهم تقريراً عملياً، فاختار رسول الله ﷺ هذا النموذج الفعلي من خلال تزويج زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو الذي كان رقيقاً ثم أعتق، من زينب بنت جحش رضي الله عنها من أشرف قريش.

٢- ومن الأحكام المهمة التي وضحتها الآيات، تحريم عادة التبني، فقد كان رسول الله ﷺ متبنياً لزيد، وكان يدعى زيد بن محمد، فأبطل الله ﷻ التبني، وأصبح زيد يدعى زيد بن حارثة، كما كان من قبل أن يتبناه رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٧/١٢)، وتفسير الدار المنثور (٦/٦٠٩)، وتفسير ابن كثير (٣/٤٩٠).

قَوْلَكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿١﴾.

٣- ومن الأحكام أيضاً، إبطال ما اعتاد عليه الناس من تحريم زوجة المتبنى على المتبني، فأمره الله ﷻ بالزواج من زينب، وبعد أن طلقها زيد، وانقضت عدتها، خطبها رسول الله ﷺ وتزوج بها عليه الصلاة والسلام، من أجل هذه الحكمة الجليلة، والغاية العظيمة، وهي إبطال ما اعتاد عليه الناس من تحريم زوجة المتبنى على المتبني، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ﴿٢﴾.

الدروس والعبر المستفادة من قصة تحريم مارية رضي الله عنها وأرضاها:

١- تعظيم شأن الرسول ﷺ وتكريمة.

أولاً: في قوله له: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾، وفي النداء بهذه الصيغة، تكريم له، وإشعار بعلو منزلته. وافتتاح العتاب بهذا النداء له عليه الصلاة والسلام، فيه من حسن التلطف به والتنويه بشأنه والايحفي، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ ﴿٣﴾.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ والمراد به هنا امتناعه ﷺ عن شرب العسل أو امتناعه عن إتيان مارية رضي الله عنها، كما سبق بيانه، وفي قوله: ﴿ تَبَنَّى مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾، أي: تفعل ذلك ابتغاء رضاهن.

وعتاب الله تعالى له، رفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه الصلاة والسلام، أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به ﴿٤﴾.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤ - ٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٣) انظر: تفسير روح المعاني (١٤٧/٢٨) والآية من سورة التوبة (آية ٤٣).

(٤) انظر: تفسير روح المعاني: (١٤٨/٢٨).

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١) فيه تعظيم شأنه ﷺ، بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يُعدّ كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه ﷺ ليس إلا لمزيد الاعتناء به^(٢).

٢- الاقتداء به عليه الصلاة والسلام في صفاته الكريمة، وفي تعامله مع أزواجه ﷺ

وأهل بيته، ففي قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾^(٣)، فعندما أسر النبي بالقول إلى حفصة رضي الله عنها، فنقلت الخبر إلى عائشة رضي الله عنها، وكان على حفصة أن تحفظ السر وأن لا تديعه، كما سبق ذكره، فأظهره الله تعالى عليه، أي: على ما فعلته حفصة من إذاعة السر لعائشة رضي الله عنهن.

عرفها عليه الصلاة والسلام بعض ما أذاعته معاتباً، وأعرض عن بعضه، تسامحاً منه ﷺ وتكرماً، فصفة التغافل والتجاوز من صفات الكرام، فكيف بحال أكرم الخلق على الإطلاق ﷺ.

٣- على نساء المؤمنين أن يتمثلن بالصفات التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآية عقب قصة

التحريم، والتي قال عنها المولى ﷺ: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّنَّ وَعِدَاتٍ سَيِّحَاتٍ تَيَبَّنَّ وَأَبْكَارًا﴾^(٤)، والتي قال عنها سبحانه في سورة النساء ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾^(٥).

فإذا كان الله تعالى يعاتب رسوله ﷺ بسبب أنه قد حرم على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضات أزواجه، فكيف بأولئك الذين يسعون إلى مرضات زوجاتهم بارتكاب المعاصي، وفعل المحرمات، فهذا قد عق والديه وقطع أرحامه؛ ليرضي زوجته، وآخر يمد يديه إلى

(١) الآية من سورة التحريم: ١.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني: (١٤٨/٢٨).

(٣) سورة التحريم: الآية ٣.

(٤) سورة التحريم: الآية ٥.

(٥) سورة النساء: الآية ٣٤.

الحرام؛ ليلبي مطالب زوجته، فأين هؤلاء من أخلاق الزوجة الصالحة، والتي ذكرها الله في هذه القصة، مسلمات، مؤمنات، قانتات، عابدات، سائحات، فالمرأة الصالحة هي الخاشعة الخاضعة لله رب العالمين، تطيع زوجها في غير معصية الله، وتعينه على مرضاة الله، وعلى ما أوجب الله عليه وعليها، وتحفظ بيته وسره، فلا تذيعه ولا تنفسيه.

ومن الأحكام المستفادة من قصة التحريم:

- تشريع كفارة اليمين، وفي ذلك تخفيف، وتيسير على الأمة الإسلامية، قال تعالى:

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾^(١).

وفي البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «(في الحرام يُكْفَرُ)»، وقال ابن عباس:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(٢).

وأخرج مسلم في صحيحه أيضاً عن ابن عباس، قال: «(إذا حرم الرجل عليه امرأته فهي

يمين يكفرها، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(٣).

فقد بين الله ﷻ لعباده تحلة الأيمان، وحددها لهم، والله يتولى عباده المؤمنين بنصره، وهو العليم بمصالحهم، والحكيم سبحانه في تدبيره لأمرهم، وصرفهم فيما هو أعلم به ﷻ^(٤).

وكفارة اليمين قد قدرها الله، وذكر ذلك في كتابه ﷻ، قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ

بِالْغُفْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا

(١) سورة التحريم: الآية ٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: (٤/١٨٦٥)، كتاب (التفسير)، باب: (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك، تبتغي مرضات أزواجك)، برقم: (٤٦٢٧)، وأخرجه مسلم: (٢/١١٠٠)، كتاب (الطلاق)، باب: (وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق)، برقم: (١٤٧٣)، انظر: تفسير الطبري: (١٤/١٩٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: (٢/١١٠٠)، كتاب (الطلاق)، باب: (وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق)، برقم: (١٤٧٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٤/١٩٦).

تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾

فقد أوجب تعالى على عباده كفارة يمين لمن حنث في يمينه، فأوجب على من لزمته كفارة يمين خصال ثلاث، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال كفر بصيام ثلاثة أيام^(٢). كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾^(٣).

الدروس والعبر المستفادة مما أحل الله لنبيه من النساء:

١ - تشریف الله ﷺ لنبيه محمد ﷺ في الدنيا والآخرة، حيث أن ما أمر الله به النبي ﷺ يكون أمراً لأمته، وما نهاه عنه يكون نهياً لأمته، كما هو معروف في شرع الله ﷻ.

ولكن قد استثنى الشرع أشياء أحلت للنبي ﷺ دون أمته، وأشياء فرضت على النبي ﷺ دون أمته، وأشياء حرمت على النبي ﷺ دون أمته. وهذا يدل على زيادة فضل وشرف رسول الله محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أفضل وأتم التسليم.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله -: «خص الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد، في باب: الفرض والتحريم والتحليل، مزية على الأمة، وهبت له، ومرتبة خص بها، وفرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم»^(٤).

ومن هذه الأمور التي خص الله بها نبيه، ما ذكره الله ﷻ بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا

(١) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٤٢/٥)، انظر: تفسير ابن كثير: (١٧٦/٣).

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٤) تفسير القرطبي: (٢١١/١٤).

لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِيءَ آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَلْتِكَ
وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ
يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

٢- اختصاص النبي عليه الصلاة والسلام بزواج الهبة، قال تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً
إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ، وهذه خصوصية اختص بها النبي ﷺ ، كما ذكر الله ﷻ ذلك بقوله:
﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

إذاً: أن تهب المرأة نفسها لرجل، هذا غير جائز، فقد خصه الله ﷻ للنبي ﷺ دون غيره
من الناس، ومعنى قوله: ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾، إن تزوجت بلا صداق، وقيل: هو أن تجعل الهبة
صداقاً، وأن هذا لا يحل لأحد بعد النبي ﷺ^(٢).

يقول القرطبي - رحمه الله -: «أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز، وأن هذا
اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح، إلا ما روي عن أبي حنيفة^(٣) وصاحبيه، فإنهم قالوا: إذا
وهبت، فأشهد هو على نفسه بمهر، فذلك جائز»^(٤).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٢) انظر: معاني القرآن: (٣٦٣/٥).

(٣) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي، ولد سنة (٨٠هـ) في حياة صغار الصحابة، وقيل إنه رأى أنس
بن مالك لما قدم الكوفة، إلا أنه لم يثبت له عن أي أحد منهم رواية، وروى عن عطاء بن رباح، وهو أكبر شيخ له
وروى عن غيره، اعتنى بطلب الآثار، وارتحل لأجل ذلك، إلا أنه كان إماماً في الفقه، توفي رحمه الله ببغداد
(١٥٠هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٤٠٥/٥)، سير أعلام النبلاء (٣٩٠/٦).

(٤) تفسير القرطبي: (٢١١/١٤).

الأحكام المستفادة من هذه الآيات:

١ - يقول سبحانه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾^(١)، فقد أوجب الله على عباده المؤمنين، ألا يتزوجوا إلا بأربع نسوة، وما شاءوا من الإماء، ولا يحل لهم عقد نكاح على حرة مسلمة إلا بولي وشهود عدول^(٢)، قال تعالى: ﴿ فَانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾^(٣).

٢ - ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآيات، هو وجوب القسم والعدل بين الزوجات، إذا تزوج الرجل بأكثر من امرأة، فعلى المؤمنين الاقتداء برسول الله ﷺ، فهذا هو عليه الصلاة والسلام لم يكن القسم واجباً عليه، كما دل على ذلك ما ذهب إليه جمعٌ من أهل العلم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَعْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْنَعْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَيْنَهُنَّ وَلَا تَحْزَنْ بِمَاءِ أَيْدِيهِنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾^(٤) وكان الله عليهم ما حلماً^(٥).

فقيل: لا حرج على الرسول ﷺ في أن يترك القسم لهن، أي: لزوجاته، فيقدم من شاء، ويؤخر من شاء، ويجمع من شاء، ويترك من شاء^(٥)، كما سبق ذكره.

ولكنه كان يقسم عليه الصلاة والسلام من قبل نفسه، دون فرض ذلك عليه، فقد أعطاه الله ﷻ ذلك، أي: سقوط القسم بين زوجاته، وكان هو يلتزمه تطيلاً لنفوسهن، وصوناً لهن عن الغيرة^(٦).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣٢/١٢)، انظر: تفسير القرطبي: (٢١٤/١٤).

(٣) سورة النساء: الآية ٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٥١.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤٥/٦ - ٤٤٦)، تفسير فتح البيان: (٣٣٨/٥).

(٦) انظر: أحكام القرآن؛ لابن العربي، بتصرف: (٦٠٥/٣).

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، وهو المثل الأعلى في العدل، وحسن المعاملة، قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١) فعلى رجال الأمة الاقتداء بالرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، في العدل بين الزوجات، ومراعاة الحقوق الواجبة لكل زوجة، مع العدل والمساواة في تقسيم هذه الحقوق والواجبات، فيعدل في المبيت، فبييت عند الواحدة بمقدار ما بييت عند الأخرى، فلا يفرق بينهن، قال ﷺ: «من كان له امرأتان يميل لإحدهما على الأخرى، جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطاً أو مائلاً»^(٢). ويعدل في النفقة، وفي السكنى، وفي المعاملة، ويعمل بالعدل في كل ما يستطيعه، وما يدخل تحت وسعه وطاقته من الحقوق، فالعدل المطلوب إنما هو فيما يملكه الإنسان، أما المحبة والميل القلبي فلا تدخل في ذلك؛ لأن هذه الأمور خارجة عن إرادة وطاقته الإنسان، وقد كان رسول الله ﷺ يعدل بين أزواجه، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»^(٣) يعني القلب.

الدروس والعبر المستفادة فيما أوجبه الله على نساء النبي ﷺ:

أولاً: من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرِحَنَّ سَرًا جَمِيلًا﴾^(٤) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا^(٤).

- ومن هذه الآيات يتبين أن حياة النبي ﷺ مع زوجاته وأهل بيته، كانت حياة أساسها الزهد والكفاف، بدليل أن زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وأرضاهن، طلبن زيادة النفقة، فحصل لرسول الله ﷺ ما حصل من الغم، واعتزل نساءه شهراً، فأنزل الله سبحانه هذه

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٢) رواه أحمد في مسنده: (٢٩٥/٢)، ورواه أصحاب السنن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو صحيح، برقم: (٧٩٢٣).

(٣) رواه أبو داود في سننه: (٢٤٢/٢)، وكتاب (النكاح)، باب: (في القسم بين النساء)، برقم: (٢١٣٤).

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢٨ - ٢٩.

الآيات: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّأَزْوَجِكَ ... ﴾ إلى آخر الآية.

فالواجب على الأسر المسلمة، أن تستفيد من حياة خير البرية، بعدم الترف، والمبالغة في مستوى المعيشة، وهذا لا يعني أن الإسلام يُحرّم أن يتمتع الإنسان بالحياة الطيبة من أكل، وملبس، ومسكن، فهذا ليس بحرام، ولكن لابد من الاعتدال في جميع الأمور بعدم الترف والتبذير، بل هي من أساسيات الحياة^(١).

ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآيات:

هو الحكم المستنبط من قوله ﷺ: ﴿فَعَالَيْنِ أُمَّتَعَكُنَّ وَأُسْرِحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، والسراح: معناه أطلق سراحك^(٢)، وقد سماه ﷺ في سورة البقرة، بقوله: ﴿أَوْتَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾^(٣)، ومعنى السراح الجميل والسراح الحسن: أي فرقة من غير ضرر^(٤)، والسراح الجميل: هو أن يكون طلاقاً للسنة من غير ضرار، ولا منع واجب لها^(٥).

فإن أراد المسلم أن يطلق زوجته، فعليه أن يتمثل بالأحكام التي شرعها الله ﷻ، فلا يحل له أن يجمع الثلاث طلاقات، ولا يحل طلاق المدخول بها في حيض أو في طهر أصابها فيه^(٦) لقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾^(٧).

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مره فليرجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة

(١) انظر: التربية، ودورها في تشكيل السلوك: (١٩٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٠٣/٦).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

(٤) انظر: أحكام القرآن؛ لابن العربي: (٥٦١/٣).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (١٧٠/١٤).

(٦) انظر: عمدة الفقه: (١٠٧/١).

(٧) سورة الطلاق: الآية ١.

التي أمر الله أن تطلق لها النساء»^(١).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿يُنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ۚ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾^(٢).

الفوائد المستنبطة من هذه الآيات:

١ - نساء الأنبياء مهما عظمت معصيتهن، فلا يمكن أن يقعن في الزنا، أو الخيانة الزوجية.

٢ - مكانة الإنسان مهما بلغت وهو عاصٍ لله ورسوله، فإنها لن تُغني عنه من الله شيئاً، كما قال النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: حين أنزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله سليمان بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٣).

(١) رواه البخاري: (٢٠١١/٥)، كتاب (الطلاق)، باب قوله تعالى: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة)، برقم: (٤٩٥٣).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٠ - ٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: (١٩٢/١)، كتاب (الإيمان)، باب في قوله تعالى: (وأنذر عشيرتكم الأقربين).

لذا قال ﷺ في الآية: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ^١ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا^٢﴾.

٣- البشري العظيمة لنساء النبي ﷺ، بمضاعفة الأجر والثواب، في قوله: ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، ففي المرة الأولى: يضاعف لها العذاب ضعفين، وفي الثاني: نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، فيعطيه الله ثواب عملها، مثلي ثواب عمل غيرها عن سائر نساء المسلمين^(١)، وفي هذا دليل أيضاً على شرف مكانتهن، وعلو منزلتهن رضي الله عنهن وأرضاهن.

٤- إن الإسلام لا يمنع المرأة مطلقاً أن تتحدث مع الرجال الأجانب، ولكن حديثها مع الرجل الأجنبي يكن ضمن ضوابط شرعية، فيكون حديثها جاداً وصريحاً وغير مُطمع، ولا مشير، لذا قال تعالى: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ^٣ إِنَّ أَتَقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، ومنها أن هذه الآداب التي أمر الله بها نساء النبي ﷺ، نساء الأمة تبعُ لهن في ذلك^(٢).

٥- الإسلام لا يمنع خروج المرأة من بيتها إطلاقاً، وفي نفس الوقت لا يدع أمر خروجها دونما قيد، إنما يسمح للمرأة أن تخرج لقضاء حاجتها، فيجب على الأسرة المسلمة، أن تربي فتياتها على المنهج الإسلامي، في خروجها من البيت، فلا تخرج إلا لقضاء حاجاتها، وذلك للمحافظة عليها، ومما يبين مشروعية خروج المرأة لقضاء حاجاتها الحديث السابق الذكر، والذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

٦- إن الشرع عندما سمح للمرأة بالخروج لقضاء حاجاتها الضرورية، كصلة الأرحام، وأداء بعض العبادات، كالصلاة في المسجد، نهاها عن التبرج، وهو إظهار الزينة لغير الزوج، يقول النحاس: « والتبرج هو إظهار الزينة، وما تُستدعى به الشهوة»^(٣).

(١) انظر: تفسير الطبري: (٥/١٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٠٨/٦).

(٣) معاني القرآن: (٣٤٨/٥).

٧- دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ، وذلك لأنهن سبب نزول هذه الآيات ، وذلك لشرفهن ، وعلو مكانتهن .

٨- على كل مسلم أن يجعل أهل بيته مبتدأ كل خيرٍ من دعوةٍ ، وتوجيهٍ ، وإصلاح .

٩- أهمية القدوة في حياة البشر ، فبدأ سبحانه بنساء النبي في أمرهن بالقرار في البيت ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ونهاهن عن التبرج ، وهن خير نساء العالمين ، وذلك لأنهن قدوة لنساء المؤمنين ، فمن ذلك يتبين أهمية القدوة ، كالأُم ، والمعلمة ، ومن يقوم مقامهما .

الأحكام المستنبطة من هذه الآيات:

- المرأة إذا ملكت النصاب من أي مالٍ كان ، فعليها أداء الزكاة ، لقوله تعالى :

﴿وَأَتَيْنَكَ الزَّكَاةَ﴾ ؛ ولأنها ركنٌ من أركان الإسلام .

المبحث الثاني

زوجتا نوح ولوط عليهما السلام

نوح عليه الصلاة والسلام نبي من أنبياء الله، وهو من أولي العزم من الرسل، أرسله الله إلى قومه، ولبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، كما جاء بذلك صريح القرآن.

وقد ورد ذكر نوح عليه الصلاة والسلام في مواضع كثيرة في كتاب الله، سواءً بذكر اسمه مجرداً، أو بذكره مضافاً إلى قومه.

كما جاءت سورة كاملة في القرآن الكريم باسمه، وتحدث عن قصته مع قومه، وعرض القرآن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه إلى التوحيد، وهي دعوة جميع الرسل، إلى عبادة الله وتوحيده، ونبذ عبادة ما سواه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمٍ أُعْبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾^(٢).

- المقامات التي سلكها نوح في دعوة قومه:

بين القرآن الكريم أن نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام قد استخدم في دعوة قومه إلى الله تعالى مقامات متعددة، راجياً من ذلك أن يستجيبوا لدعوته، فكان يدعوهم ليلاً، ونهاراً، وسراً، وجهاً، دائماً بلا فتور ولا توان^(٣).

(١) سورة هود: الآية ٢٥ - ٢٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (١٨٣/٧).

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾^(١) ، وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴾^(٢) ، ثم إنني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارًا . أي: دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة، ما بين مجاهرة وإظهار بلا إخفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم في خفاء، وهذه المراتب والتنوع في أساليب الدعوة، أقصى ما يمكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يفعلها^(٣).

- مقام الدعوة بالترغيب:

من أساليبه عليه الصلاة والسلام، أسلوب الترغيب في دعوته لقومه، فقد رغبهم، ووعدهم بما عند الله من مغفرة الذنوب، وغير ذلك من الخير الذي يعود عليهم بإيمانهم، واستجابتهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾^(٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٤).

وقال سبحانه مخبراً عن نوح عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾^(٥).

فرغبهم إن هم آمنوا وصدقوا، ما يكون جزاؤهم من عند الله، فإذا تبتم إلى الله واستغفرتوه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بأموال، وبنين، أي: أعطاكم الأموال، والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها، وهذا مقام الدعوة بالترغيب^(٦).

(١) سورة نوح: الآية ٥.

(٢) سورة نوح: الآية ٨ - ٩.

(٣) انظر: تفسير القاسمي (١٨٣/٧).

(٤) سورة نوح: الآية ٢ - ٤.

(٥) سورة نوح: الآية ١٠ - ١٢.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٣٣/٨).

- دعوة قومه بالترهيب:

ولم يكتف نوح عليه الصلاة والسلام بأسلوب الترغيب مع قومه ، وإنما استعمل معهم أيضاً أسلوب الترهيب ، فخوفهم من عذاب الله ، وعقوبته في الدنيا والآخرة ، إن هم استمروا على عصيانهم ، وعدم الاستجابة لدعوته ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢) فخوفهم وأرهبهم من عقوبة الدنيا والآخرة .

وقال سبحانه عن نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾^(٣) ، والمراد : ما لكم لا ترون لله عظمة ، وقال ابن عباس : «لا تعظمون الله حق عظمته ، أي : لا تخافون من بأسه ونقمته»^(٤) .

- الجدل معهم، وإظهار شفقتهم ونصحه لهم :

وقد جادلهم نوح نبي الله وأكثر جدالهم ، دل على ذلك ما جاء في كتاب الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ﴾^(٥) ، فهذا يدل على انه عليه الصلاة والسلام قد أكثر الجدل معهم ، وذلك الجدل ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل على أن الجدل في تقرير الدلائل ، وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء^(٦) . وعندما كان يدعوهم ، كان يبين إشفاقه عليهم وخوفه من وقوع العذاب بهم إن هم استمروا على كفرهم ، وتكذيبهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

(١) سورة نوح : الآية ١ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٩ .

(٣) سورة نوح : الآية ١٣ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٢٣٣/٨) .

(٥) سورة هود : الآية ٣٢ .

(٦) انظر : تفسير الرازي : (١٧٤/١٧) .

يَوْمِ الْيَمِّ^(١).

ومع طول المدة التي قضاها نوح عليه الصلاة والسلام وهو يدعو قومه بمختلف الأساليب صابراً، ثابتاً، مُمثلاً بذلك القدوة الحسنة لمن يدعو إلى الله، واستمر على ذلك أعواماً عديدة، قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾^(٢)، أي: تسعمائة وخمسين سنة، إلا أنه لم يجد من قومه إلا الصد والإعراض والتكذيب، وما آمن معه إلا قليل، كما جاء بذلك صريح القرآن، قال تعالى: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٣).

روى الإمام البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾^(٤).

عن ابن عباس رضي الله عنه: « صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب^(٥) بعدُ، أما ودٌ: كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: كانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد ثم لبني عطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا على مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك، ونسخ العلم عُبدت^(٦). فإنهم كانوا إذا مات منهم أحد من الذين كانوا يتبركون بدعائهم من صالحهم، مثلوا صورته،

(١) سورة هود: الآية ٢٥ - ٢٦.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ١٤.

(٣) سورة هود: الآية ٤٠.

(٤) سورة نوح: الآية ٢٣.

(٥) أي أنها كانت آلهة تعبدها قوم نوح ثم عبدها العرب بعد ذلك.

انظر: فتح الباري (٦٦٨/٨).

(٦) الحديث رواه البخاري، كتاب (التفسير)، باب: (ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً)، (٤/١٨٧٣).

برقم: (٤٦٣٦).

وتمسحوا بها، فعبدوها بتدريج الشيطان لهم، ثم صارت سنة في العرب في الجاهلية^(١).

أخرج ابن جرير في تفسيره: «أنهم كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يستقون المطر، فعبدوهم»^(٢).

- دعاء نوح على قومه:

وبعد أن أدى نوحاً عليه الصلاة والسلام دعوته إلى قومه، واستنفد ما في وسعه وطاقته، لجأ نوح إلى ربه يستنصره ويدعوه، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾^(٣) وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾^(٤) وقال تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام مخبراً عن لجوءه واستنصاره ربه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ دِيَارًا ۝١٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفٰرًا ۝١٧ ﴾^(٥).

ثم إن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يدع بهذا الدعاء إلا بعد أن أوحى إليه ربه بقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٦). أي: فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائساً، أي: حزيناً، ولا تظن أن في ذلك مذلة، فإن الدين عزيز، وإن قل عدد من يتمسك به، والباطل ذليل، وإن كثر عدد من يقول به، عند ذلك دعا عليهم نبي الله

(١) انظر: فتح الباري: (٦٦٨/٨).

(٢) جامع البيان؛ للطبري: (١٢٠/١٤)، ويراجع البداية والنهاية؛ لابن كثير: (١٥/١ - ١٦)، والدر المنثور؛ للسيوطي: (٢٩٤/٨).

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٢٦.

(٤) سورة الصافات: الآية ٧٥.

(٥) سورة نوح: الآية ٢٦ - ٢٧.

(٦) سورة هود: الآية ٣٦.

نوح ، فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ... ﴾^(١).

هذا بالنسبة لموقف قومه من دعوته عليه الصلاة والسلام ، أما عن أهله ، فقد عرض القرآن بعضاً من أفراد عائلته كوالديه ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴾^(٢).

كما ذكر القرآن أحد أبناء نوح عليه الصلاة والسلام ، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

- ما ورد في القرآن بشأن امرأة نوح :

وذكر القرآن امرأة نوح ، بقوله ﷺ : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾^(٣).

واسم امرأة نوح ، قيل : (والعة) ، وعن مقاتل^(٤) : (اسم امرأة نوح والفة)^(٥). وقد أبهم القرآن اسمها ، فجاءت الكناية عن اسمها ، واسم امرأة لوط عليه الصلاة والسلام ، بقوله : ﴿ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، لما في ذلك من التشريف بالإضافة إليه تعالى^(٦).

ولهذه الآية دلالة واضحة ، على كفر امرأة نوح ، وأنها لم تستجب لدعوة نوح عليه الصلاة

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٢٢/١٤)، تفسير القرطبي: (٣٠/٩)، تفسير الرازي: (١٧٧/١٧).

(٢) سورة نوح: الآية ٢٨.

(٣) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٤) هو مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني ، أبو الحسن كان مفسراً مشهوراً بتفسير كتاب الله ﷻ وله تفسير مشهور توفي سنة (١٥٠هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٧/٢٠١) ، طبقات المفسرين للداودي (٢٠/١).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٥١/١٨) ، وتفسير مقاتل بن سليمان (١١٨/٢) روح المعاني: (١٦٢/٢٨) ، تفسير الجلالين: (٧٥٣/١).

(٦) انظر: البحر المحيط: (٢٨٩/٨).

والسلام، فبقيت على الكفر، فهي كافرة بصريح القرآن، ولم ينفعها كونها زوجة نبي الله، ولم يغن ذلك عنها شيء، فعذبت في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالعذاب ودخول النار.

والمراد بالخيانة في هذه الآية: هي الخيانة في الإيمان، فلم توافقه على الإيمان، ولا صدقته في الرسالة^(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها في الدين»^(٢)، فليس المراد بالخيانة في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء^(٣).

فقد كفرت امرأة نوح مع الكافرين، وكانت من المغرقين؛ لأن الله تعالى قال في كتابه عن نوح وأهله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٤)، والمراد بقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أهل بيته وقرابته المؤمنين، واستثنى من أهله من يبق عليه القول أنه من أهل النار، فكان منهم ابنه الذي انزل وحده، وامراته، فكانت كافرة بالله ورسوله، وحكم الله تعالى عليهم بالهلاك^(٥)، وكانت أيضاً ممن يدخل النار يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

قال الزمخشري - رحمه الله -: «مثل الله عَجَلِكُ حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم، ومعاداتهم للمؤمنين، معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب، أو صلة صهر؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من الأنبياء، كحال امرأة نوح وامرأة لوط، لما

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١٧١/٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٠٩/١٤)، تفسير ابن كثير: (١٧١/٨)، تفسير القرطبي: (٢٢/١٨)، الدر المنثور:

(٢٢٨/٨)، أضواء البيان: (٢٢٤/٨)، فتح القدير: (٢٢٥/٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (١٧١/٨).

(٤) سورة هود: الآية ٤٠.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٢١/٤)، تفسير الكشاف: (٣٧٣/٢).

نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما، بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج، إغناء ما من عذاب الله، ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعِ﴾ سائر ﴿الدَّاخِلِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم، وبين الأنبياء، أو مع داخلها من إخوانهما «في الكفر» من قوم نوح وقوم لوط^(١).

زوج لوط عليه الصلاة والسلام:

لوط عليه الصلاة والسلام نبي من أنبياء الله، بعثه الله ﷻ لهداية الناس، ومن المفسرين والمؤرخين من ذهب إلى أن لوطاً عليه الصلاة والسلام هو ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فليل: هو لوط بن هاران بن تارخ^(٢).

قال تعالى: ﴿فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٤).

يريد بـ«نجينا إبراهيم ولوطاً إلى أرض الشام، وكانا بالعراق، قال ابن عباس: كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام عم لوط».

وقيل لها مباركة؛ لكثرة خصبها، وثمارها، وأنها معادن الأنبياء والبركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير: إذ لزم مكانه فلم يبرحه^(٥).

وروي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين، ولوط عليه الصلاة والسلام بالمؤتفة، وبينهما مسيرة يوم وليلة^(٦).

(١) انظر: تفسير الكشاف: (٥٧٥/٤).

(٢) انظر: تاريخ الطبري: (١٧٥/١)، البداية والنهاية: (١٥٠/١)، تفسير البحر المحيط: (٣٠٥/٦)، تفسير روح المعاني: (٧٠/١٧)، تفسير ابن كثير: (٢٣١/٢).

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧١.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٣٠٥/١١).

(٦) انظر: تفسير الكشاف: (١٢٧/٣).

والمؤتفكة: هي قرية سدوم، وهي قرية واقعة عند جنوب البحر الميت بالأردن^(١).

لوط عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وطاعته لأنه رسول ربه:

فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله وَعَلَيْكُمْ وعبادته وحده، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبون من المآثم، والمحارم، والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده، ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم^(٢).

فدعاهم لوط عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده، ودعاهم إلى أن يطيعوه؛ لأنه رسول الله إليهم، ولا يبتغي من وراء دعوته أجراً، فأجره على الله رب العالمين^(٣) قال تعالى:

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَلَا نُنقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْتَأْذِنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾^(٤).

وكان لوط عليه الصلاة والسلام مع دعوته لقومه لعبادة الله وتوحيده، يدعوهم أيضاً إلى ترك الفواحش، التي كانوا يؤتونها وغشيانهم للذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم، قال تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾^(٥) أي: متجاوزون لحدود الله بإتيانكم الفاحشة بالذكور في أدبارهم، وتذرون ما خلق لكم ربكم وأصلح لكم من أزواجكم^(٦).

(١) يراجع معجم البلدان؛ لياقوت الحموي: (٢٠٠/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٣١/٢).

(٣) المرجع السابق؛ بتصرف: (٣٤٥/٣).

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٦٠ - ١٦٤.

(٥) سورة الشعراء: الآية ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٣٢/١٣).

تهديد قوم لوط بإخراجه من القرية:

فما كان منهم إلا أن هددوه بقولهم: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴾ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿ (١)

فهددوه بالنفي، والإخراج من بين أظهرهم، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه، وأنهم مستمررون على ضلالتهم تبرأ منهم، وقال لهم: «إني لعملكم من المبغضين، لا أحبه، ولا أَرْضِي بِهِ، وإني بريء منكم» (٢).

ومن أسباب إخراج لوط ومن آمن معه من أهله من قريتهم، هو أنهم أناس يتطهرون عن إتيان الذكور، فكان هذا التطهر والتنزه من لوط جريمةً في نظر قومه قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿ (٨١) وَمَا كُنَّا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿ (٣)

وذكر الله سبحانه في هذه الآية فعلهم، بقوله: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾، يعني: إتيان الذكور، فقد ذكرها الله باسم الفاحشة؛ لبيان سبحانه أنها زنى، ولم يكن هذا الفعل المشين في أمة مثل قوم لوط، لما ورد بذلك صريح القرآن: ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾، وقد جمع قوم لوط بين الشرك بالله وهذه الفاحشة؛ لذلك سماهم الله: ﴿ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾، فقالوا: ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴾، والمراد: لوطاً وأتباعه، أنهم يتطهرون عن الإتيان في هذا المأثي، ويتنزهون عن الإثم، وهو هذا الفعل (٤).

(١) سورة الشعراء: الآية ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/٣٤٥ - ٣٤٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية ٨٠ - ٨٢.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (٧/٢٤٣ - ٢٤٦).

ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾^(١).

ف قيل في قوله سبحانه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، من بصيرة القلب، أي: تعلمون أنها فاحشة، لم تُسبقوا إليها، وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادة لله في حكمته، وحكمه، وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم. وقيل: ﴿تُبْصِرُونَ﴾، أي: تبصرونها بعضكم من بعض؛ لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معالنين بها، لا يستتر بعضهم من بعض، خلاعة ومجانة. وقيل: ﴿تُبْصِرُونَ﴾، آثار العصاة قبلكم، وما نزل بهم^(٢).

وقال سبحانه عنهم، وعن إنكار لوط عليهم أفعالهم المشينة: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ فِي نَادِيكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾^(٣).

وكانوا مع هذا الفعل القبيح، وهو إتيانهم الذكران من العالمين، كانوا يكفرون بالله ويكذبون رسوله، ويخالفون، ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم، ويأخذون أموالهم، ويأتون في ناديهم المنكر، وهو: مكانهم ومجالسهم التي يجتمعون فيها، فيفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك.

وقيل: إنهم كانوا يتضارطون، ويتضاحكون، وقيل: إنهم كانوا يناطحون الكباش، ويناقرون بين الديوك، وقيل: يفعلون فعلتهم المشينة، ويأتون بعضهم بعضاً في الملاء^(٤)، وهذه أفعال تأنفها وتأباها النفوس السوية، وينكرها كل ذي عقل سليم، ولكنهم كانوا كالأنعام، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فكانت عاقبتهم وخيمة، وما كان موقفهم من دعوة لوط عليه الصلاة

(١) سورة النمل: الآية ٥٤ - ٥٥.

(٢) انظر: تفسير الكشاف: (٣/٣٧٨)، تفسير الرازي: (٢٤/١٧٥).

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٨ - ٢٩.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/٤١٢).

والسلام إلا أن قابلوه بالإعراض، والتكذيب، والسخرية، والتهديد، كما أخبر الله عنهم في مواضع عدة.

- دعاء لوط بالنجاة له ولأهله:

وبعد أن رأى نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام أنه لا جدوى من دعوتهم، وأنهم مصرون على كفرهم، وضلالهم، ورآهم متمادين في غيهم، يئس عليه الصلاة والسلام من إيمانهم، فلجأ إلى الله بالدعاء بأن ينجيه هو وأهله، وأهل لوط عليه الصلاة والسلام، كما جاء في كتاب الله عنهم، هم المؤمنون به؛ لأنهم نجوا من عذاب الله الذي هلك به كل كافرٍ من قوم لوط، إلا امرأته فإنها كانت منهم، أي: مع قوم لوط، فقد أهلكت مع الهالكين، كما أخبرنا القرآن بذلك، قال تعالى عن امرأة لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾^(١).

وقيل: اسمها (والهة)^(٢)، ولم يصرح القرآن الكريم باسمها، بل ورد مبهماً في أكثر من موضع.

وضرب الله ﷻ امرأة لوط مثلاً للذين كفروا، في مخالطتهم للمسلمين، ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، فكانتا تحت نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما، ويصاحبانهما، ويعاشرانهما أشد المعاشرة، والاختلاط، ولكنهما خانتاهما، أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم ينفعهما ذلك شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً بسبب كفرهما. وقيل للمراةين الكافرتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

فأما خيانة امرأة نوح: فكانت تخبر أنه مجنون، وإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم

(١) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (٢٠١/١٨)، الجلالين: (٧٥٣/١)، روح المعاني؛ للألوسي: (١٦٢/٢٨).

نوح به.

وأما خيانة امرأة لوط : فكانت على غير دين لوط ، وكانت تخبر قومها بضيوف لوط^(١) .
وليس المراد بالخيانة ، كما سبق ذكر ذلك ، (الخيانة بالفاحشة) ؛ لأن نساء الأنبياء معصومات
عن الوقوع في الفاحشة ؛ لحرمة الأنبياء ، فالمراد بها : خيانة الدين^(٢) .

ولهلاك قوم لوط عليه الصلاة والسلام وامراته معهم ، قصة جاءت في كتاب الله ﷻ ، فقد
أرسل الله إلى لوط عليه الصلاة والسلام ملائكته على صورة بشر ، وفي ذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَكَمَا
جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ
وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿٧٨﴾ قَالَ يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴿٧٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي
ضَيْفِي ﴿٨٠﴾ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٨١﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٨٢﴾ قَالُوا
أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٣﴾ قَالُوا إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ
الْجِبَلِ وَلَا يَلْقَافُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَاحًا إِنَّهُ مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ
﴿٨٥﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٦﴾^(٣) .

هذه الآيات تعرض عدداً من الأحداث :

فالحادث الأول : هو أن ملائكة الله عليهم السلام جاءوا للوط نبي الله عليه الصلاة والسلام
في صورة بشر ، وأقبلوا عليه ليضيفهم ، فكانوا في حكم ضيوفه ، وسوف يتطرق لذلك لاحقاً في هذا
البحث.

ثانياً : موقف قوم لوط من أضيافه.

(١) انظر : تفسير ابن كثير : (٤ / ٣٩٤).

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤ / ٣٩٤).

(٣) سورة هود : الآية ٧٧ - ٨٣.

ثالثاً: ما أخبرت ملائكة الرحمن نبي الله لوط بعد ذلك.

فأما عن موقف قوم لوط لما سمعوا بقدوم ضيف عليه، جاءوا يهرعون، كما أخبر القرآن بحالهم، بقوله: ﴿يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: يسرعون كأنما يدفعون دفعاً، أو يهرولون من فرحهم بذلك^(١).

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، أي: ومن قبل مجيء الرسل.

وقيل: من قبل لوط كانوا يعملون السيئات، أي: كانت عاداتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه، قام إليهم لوط مدافعاً^(٢).

وقيل: المراد بالسيئات هنا سيئة إتيان الذكور، إلا أنها جمعت باعتبار تكرارها أو باعتبار فاعليها.

وقيل: جمعها لمراد ما يعم ذلك وغيره من الأعمال المشينة التي سبق ذكرها، والمراد من ذكر عملهم السيئات من قبل بيان أنهم اعتادوا المنكر، فلم يستحيوا، فلذلك أسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه، مظهرين غير مكترئين، فالجملة وهي قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، معترضة لتأكيد ما قبلها.

وقيل: إنها بيان لوجه ضيق صدر لوط عليه الصلاة والسلام، لما عرف من عاداتهم، ويجوز أن تكون في موضع الحال، كالتي قبلها، أي: جاءوا مسرعين، والحال أنهم كانوا منهمكين في عمل السيئات^(٣).

وقبل مجيء قوم لوط إليه، على أضيافه، لم يكن يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته، فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه. وذلك لأنها كانت كافرة مكذبة مثل قومها، فوقع عليها العذاب معهم، ولم ينفعها كونها امرأة نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام، ولذا قال تعالى عنها

(١) انظر: تفسير الكشاف: (٣٩٠/٢)، تفسير ابن كثير: (٤٥٤/٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (٧٥/٩ - ٧٦).

(٣) انظر: روح المعاني: (١٠٥/١٢ - ١٠٦).

في الآيات: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَحَ اللَّهُ مِنْهُ مِصْرِيهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾^(١).

ثم إن لوط عليه الصلاة والسلام حينما رأى قومه قد عزموا عليه، بأن يكنهم من أضيافه، أشار إليهم لوط بقوله: ﴿يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، فأرشدهم إلى الفطرة السليمة فندبهم إلى النكاح الشرعي، وأرشدهم إلى الطهارة. فما كان جوابهم وردهم، إلا أن قالوا: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾. فلما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عوناً على ردهم، فقال على وجه التفجيع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾، أي: أنصاراً أو أعواناً لرددت أهل الفساد، وحللت بينهم وبين ما يريدون، أو ألقأ إلى ركن رشيد، ومراد لوط عليه الصلاة والسلام بالركن: العشيرة، والمنعة، والكثرة^(٢).

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾»، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف؛ لأجبت الداعي^(٣).

وقول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ليس مخالفاً لقول رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»، بل كلا القولين منهما عليهما السلام حق متفق عليه؛ لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة، يضع بها قومه مما هم عليه من الفواحش من قرابة، أو عشيرة، أو أتباع مؤمنين. وما جهل قط عليه السلام بأنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة، وأشد ركن، فلا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس، فقد قال

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٥٤/٢)، روح المعاني: (١٠٥/١٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧٨/٧٦/٩).

(٣) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قوله "ونبئهم عن ضيف إبراهيم" حديث (٣١٩٢)، (١٢٣٣/٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم: (١٥٠) (١٣٣/١).

تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾^(١)، فهذا هو الذي طلب لوط عليه السلام^(٢).

وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعة؛ حتى يُبلغ كلام ربه تعالى، فلا ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام، فالله ما أنكر ذلك على رسول الله ﷺ، وإنما أخبر عليه السلام أن لوطاً يأوي إلى ركن شديد، يعني من نصر الله له بالملائكة، ولم يكن لوط عليه السلام علم بذلك، ومن ظن أن لوطاً عليه السلام اعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد؛ فقد كفر؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضاً ظن سخيف إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات، وهو دائماً يدعو إليه هذا الظن^(٣).

ويقال: «إن قوم لوط لم يكن منهم أحد يجتمع معه في نسب؛ لأنهم من سدوم، وهو من الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط، فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم، فقال: لو أن لي منعة، وأقارب، وعشيرة؛ لكنت استنصر بهم عليكم؛ ليدفعوا عن ضيفاني»^(٤)، فما بعث الله نبياً إلا في ذروة من قومه، يقول تبارك وتعالى عن قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾^(٥).

- نجاته نبي الله لوط وبناته، وهلاك امرأته مع قومها:

ثم إن الملائكة أمرت لوطاً عليه الصلاة والسلام بالخروج في الليل مع أهل بيته، وأخبروه بهلاك القوم الظالمين، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبَهُمَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٢٩٣).

(٣) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل؛ لابن حزم: (٢/٢٩٣ - ٢٩٤).

(٤) فتح الباري: (٦/٤١٥).

(٥) سورة هود: الآية ٩١.

بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾

مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِيٌّ مِّنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨١﴾^(١)

فأسر بأهلك بعد مضي صدر من الليل، ولا يلتفت منكم أحد، أي: لا ينظر وراءه منكم أحد، ولا يتخلف منكم أحد، ولا يشتغل أحد بما يخلفه من مال أو متاع. واستثوا من أهل لوط امرأته، بقولهم: ﴿إِلَّا أَمْرًا نُّكَ﴾، وعلى هذا لم يخرج بها معه، وقد قال الله ﷻ: إنها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ أي: من الباقين، فإنه مصيها من العذاب ما أصابهم، إن موعدهم الصبح، وهو قريب، فخرج لوط بيته ليس معه غيرهما، وقيل إنها خرجت مع من خرج من أهل بيته، ولم يلتفت منهم أحد، إلا امرأة لوط التي التفت نحو القرية فأصابها مآصاب قومها من العذاب، يقول القرطبي: «إن امرأة لوط لما سمعت هدة^(٢) العذاب التفت وقالت: واقوماه، فأدركها حجر فقتلها»^(٣)، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، أي: عذابنا ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ و﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِيٌّ مِّنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم، وصياح ديكتهم، لم تنكفي لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة، كما قال ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين صلب ﴿مَّنْضُودٍ﴾، أي: متتابع، وهذه الحجارة معلّمة، وفي قوله ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾، دليل على أنها ليست من حجارة الأرض، وما هي من الظالمين ببعيد، أي: قوم لوط، لم تكن الحجارة لتخطئهم، وقيل: يعني ظالمي هذه الأمة،

(١) سورة هود: الآية ٨١ - ٨٣.

(٢) الهدية: صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو حائط أو ناحية جبل تقول منه: هذه هديداً والهدية: الخوف، وما يقع من السماء.

انظر: لسان العرب (٤٣٢/٣) مادة (هدد).

(٣) تفسري القرطبي (٨٠/٩).

ومن فعل فعل قوم لوط^(١).

فقد أحل بقوم لوط عليه الصلاة والسلام صنوفاً من العذاب، يقول تعالى عنهم:

﴿وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بِكْرَةَ عَذَابٍ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٢﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّهَا مَا عَشَى ﴿٣﴾﴾.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا مُنَزَّلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ ﴿٤﴾﴾.

فعذب الله قوم لوط بأنواع من العذاب، لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك، والرجم من الحجارة السماء، وطمس الأبصار، وقلب الديار بأن جعل عاليها سافلها^(٥).

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: « ولم يتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم، وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات من الهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والحسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، وطمس أعينهم، وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً، فنكل بهم نكالاً لم ينكله بأمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها...»^(٦).

وقد أنجى الله لوطاً عليه الصلاة والسلام وأهله من هذا العذاب الأليم، إلا زوجته فقد

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن؛ للقرطبي: (٧٩/٩ - ٨٣)، باختصار وتصرف.

(٢) سورة القمر: الآية ٣٧ - ٣٩.

(٣) سورة النجم: الآية ٥٣ - ٥٤.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٣٤.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٥٠/١٦).

(٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: (١١٩/١).

أصابها ما أصابهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْبِثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿١﴾.

وقد نص القرآن على هلاك امرأة لوط عليه الصلاة والسلام مع القوم الهالكين في أكثر

من موضع، قال تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ ثَجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا لُوطًا إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ، قَدَرْنَا إِنَّمَا لَحِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣﴾.

وقال سبحانه: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي

الْغَابِرِينَ ﴿٤﴾.

وقال سبحانه: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، قَدَرْنَا مِنْ الْغَابِرِينَ ﴿٥﴾.

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّا مَنُجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦﴾.

﴿ وَإِن لُّوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿٧﴾.

فأهلكت امرأة لوط بعداب الله لها في الدنيا، وقيل لها ادخلي النار مع الداخلين، جزاءً

لها على خيانتها لزوجها النبي لوط عليه الصلاة والسلام.

(١) سورة الحجر: الآية ٦٣ - ٦٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٣.

(٣) سورة الحجر: الآية ٥٨ - ٦٠.

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٦٩ - ١٧١.

(٥) سورة النمل: الآية ٥٧.

(٦) سورة العنكبوت: الآية ٣٣.

(٧) سورة الصافات: الآية ١٣٣ - ١٣٥.

الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا البحث:

١- على رب كل أسرة، وعلى كل راعٍ أن يقتدي بسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما اتبعوه من أساليب عدة في تبليغ الدعوة إلى الله في التربية والتعليم، وأجل وأعظم هذه الصفات هي الصبر، فهذا نوح عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما صرح القرآن بذلك، يدعوهم، وينصحهم، ويعلمهم، ويخوفهم، دون تعبٍ ولا نصبٍ.

ولوطٌ عليه الصلاة والسلام يبعث إلى قومٍ، جمعوا مع الشرك بالله فعل الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ومكث لوط يدعوهم وينصح لهم، إلا أنهم هددوه، وقالوا: أخرجوه من القرية؛ لأنه من المتطهرين، ومع ذلك صبر على دعوتهم، وإيذائهم في سبيل ردهم إلى سبيل الهدى والرشاد.

والله تعالى قد أمر رسوله محمداً ﷺ بالتأسي، والاقتران بالأنبياء، فكيف بالمسلمين، فهم مأمورون من باب أولى بالاقتران بهم، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أُقْتَدَ﴾^(١). فأولئك الأنبياء السابقين، هم أهل الهدى لا غيرهم: فاقصد واتبع، وإذا كان أمراً للرسول ﷺ فأتمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به^(٢).

٢- إن إظهار الشفقة، والرحمة، والتودد، هي من سمات المرسلين، ولهذا يقول نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿قَالَ يٰ قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغِكُمْ رَسُولًا لِّي بَشِّرِكُم بِرَحْمَتِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، فيدعوهم بقوله ﴿يٰ قَوْمِ﴾، وينسب نفسه لهم، رغم اتهامهم له بالضلالة، ولكنه يستخدم معهم أسلوب التلطف لهم، وتقرير النصيحة لهم بترغيبهم في الطاعة، وتحذيرهم من المعصية بالترغيب

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١٥٦/٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦١ - ٦٢.

والترهيب والإرشاد إلى الأصوب والأصلح^(١).

فالولي الراعي والمربي الناصح، عليه أن يظهر ذلك التلطف، والتودد الذي أظهره الأنبياء لأقوامهم، رغم كفرهم وإحادهم، فيظهره لأفراد رعيته، أيًا كانوا وعلى اختلاف أعمارهم، ومستوى قرابتهم.

٣- وعلى المربي كذلك التنوع في أساليب التربية، فالأنبياء عليهم السلام، رغبوا أقوامهم ووعدوهم بالمغفرة، وتحصيل نعم الدنيا، قال تعالى على لسان نوح، وهو يحث قومه ويدعوهم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٢﴾﴾.

ومن الترغيب إلى الترهيب، قال ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٣﴾﴾.

وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ مَأْلِكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وهذا ترهيب لهم بعذاب الله يوم القيامة، إن لم يؤمنوا بالله وحده، فمن مقام الدعوة بالترغيب إلى الدعوة بالترهيب^(٥).

فهذه الوسائل التربوية التي استعان بها أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كأمثال نوح ولوط، مع أهل بيته، ومع أقوامهم، والتنوع في استخدامها، لها تأثير كبير في تربية النشأ، وهذا هو منهج التربية الإسلامية حيث يربي الناس على الخوف مما ينبغي أن يخافوه، والتعلق بما ينبغي أن يتعلقوا به، ويربهم على الحشية والخوف من عذاب الله وغضبه، وعدم الخوف من

(١) تفسير الرازي: (١٤/١٢٣).

(٢) سورة نوح: الآية ١٠ - ١٢.

(٣) سورة نوح: الآية ١٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/٤٢٦).

شيء أو على شيء آخر، ويربيهم على التعلق بالله، وطلب العون منه وحده، والتعلق بالآخرة ونعيمها، ورضوان الله المؤدي إلى النعيم^(١).

٤- الواجب على كل مسلم، أن ينكر كل عادة سيئة، وكل جريمة نكراء، حتى وإن كانت من أهل الكفر أنفسهم، فهذا لوط عليه الصلاة والسلام أنكر على قومه الفاحشة المنكرة، والعادة الخبيثة وهي إتيانهم الذكور، بجانب دعوتهم إلى عبادة الله وترك الكفر، فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ﴾^(٢).

وبجانب الدعوة إلى توحيد الله، دعاهم أيضاً إلى نبد وترك الفاحشة القبيحة، قال تعالى عما قاله لوط: ﴿آتَاوُنَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٦﴾﴾^(٣)، فالواجب إنكار الجرائم، والفواحش، بكافة صورها وأشكالها، حتى لا ينتشر الفساد في الأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿٤﴾﴾^(٤) أي: أن الله لم يكن ليهلك أهل القرى بشرك أو كفر وهم مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق، فلم يكن ليهلكهم بالكفر وحده، حتى يضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط، فدل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أشد^(٥).

٥- الأخذ بالأسباب، وإعداد القوة المادية، لا يؤثر في إيمان العبد، وتوكله على الله بل قد حثنا الله جل وعلا على إعداد القوة، فالأخذ بالأسباب والوسائل، للوصول إلى الغايات لا

(١) انظر: التربية ودورها في تشكيل السلوك: (٢٦٦).

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٦٠ - ١٦٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٦٥ - ١٦٦.

(٤) سورة هود: الآية ١١٧.

(٥) تفسير القرطبي: (١١٤/٩).

تضر المؤمن في إيمانه، ولا تقدح في توكله، بل هي من الإيمان حقيقة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ۚ عَدَّوْا لِلَّهِ وَعَدَّوْكُمْ ۗ﴾^(١) لذا قال لوط عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة حين هرع قومه إلى بيته مراودينه عن ضيفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢)، فتمنى عليه الصلاة والسلام أن يكون له قوة، ومنعه يستعين بها لرد الأذى عن أضيافه، ويدحر بها قومه الغاؤون.

٦- القرابة والصلة النسبية مع أهل الإيمان لا تنفع صاحبها، فكل يعاقب بجرمه وكفره، فزوجة نبي الله نوح، ونبية لوط عليهما السلام كانتا كافرتين، حكم الله عليهما بدخول النار مع الداخلين، ولم ينفعهما كونهما زوجتا لنبين، أن يرفع عنهما العذاب، أو حتى يخففه، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾^(٣).

وهذا الذي دعا رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، أن يقول: «يا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٤) ويقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ اتِّقَارَ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوَابَوْمًا لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٥).

ومن الأحكام المستنبطة من هذا المبحث:

- حكم اللواط، فهو من أكبر وأعظم الفواحش، وهو من الخبائث التي حرمها الله

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة هود: الآية ٨٠.

(٣) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، كتاب (الوصايا)، باب: (هل يدخل النساء والولد في الأقارب) الحديث رقم: (٢٦٠٢) (١٠١٢/٣).

(٥) سورة لقمان: الآية ٣٣.

ﷺ، وأجمع أهل العلم على تحريم اللواط، وقد ذمه الله تعالى في كتابه، وعاب من فعله، وذمه رسول الله ﷺ. (١) فقال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ بَلِّ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾. (٢)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال: «لعن الله من عملَ قوم لوطٍ، ولعن الله من عملَ قوم لوطٍ، ولعن الله من عملَ قوم لوطٍ» (٣).

وأما عقوبة اللواط، فقد اختلف الفقهاء في عقوبة من عمل بعمل قوم لوط، وقد قال ابن القيم - رحمه الله - : «ولم يثبت عنه ﷺ أنه قضى في اللواط بشيء؛ لأن هذا لك تكن تعرفه العرب، ولم يرفع إليه ﷺ، ولكن ثبت عنه أنه قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» (٤).

وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد بن الوليد بعد مشاورة الصحابة، وكان علي بن أبي طالب ﷺ أشدهم في ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أجمعت الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في كيفية قتله: فقال أبو بكر الصديق: يرمى من شاهق. وقال علي بن أبي طالب: يهدم عليه حائط. وقال ابن عباس: يقتلان بالحجارة. فهذا اتفاق منهم على قتله، وإن اختلفوا في كيفية قتله، وهذا مرافق لحكمه ﷺ، فيمن وطئ ذات محرم؛ لأن الوطء في موضعين لا يباح للواطئ بحال، ولهذا جمع بينهما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإنه روي عنه ﷺ أنه قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه»، وهذا الحكم وفق حكم الشارع، فإن المحرمات كلما تغلظت، تغلظت عقوباتها، ووطء من لا يباح أعظم جرماً من وطاء من يباح في بعض الأحوال، فيكون حده أغلظ» (٥).

(١) انظر: المغني: (٥٨/٩).

(٢) سورة هود: الآية ٨٠ - ٨١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٣٠٩/١)، الحديث رقم: (٢٨١٧)، بطوله.

(٤) رواه الخمسة إلا النسائي، عن ابن عباس ﷺ، وقال الترمذي حديث حسن، وقال ابن القيم إسناده صحيح.

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد: (٤١/٥).

ويقول الإمام الشوكاني في (نيل الأوطار): «وما أحقّ مرتكب هذه الجريمة، ومقارف هذه الرذيلة الذميمة، بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين، فحقيق بمن أتى فاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين، أن يصلّى من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابهاً عقوبتهم، وقد خسف الله بهم، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيهم»^(١).

واللواط جريمة عظيمة، فإذا كان الزنا فيه هتكاً للأعراض، واختلاط الأنساب وغير ذلك، فاللواط فيه قطع النسل^(٢).

(١) نيل الأوطار: (٢٨٨/٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٦٠/٥).

المبحث الثالث

زوجتا إبراهيم عليه السلام

ذكر الله في القرآن قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، نبي الله، خليل الرحمن، وأبوالأنبياء، مع قومه، كما سبق عرض ذلك في الفصل الأول من هذا البحث، ودعوته لوالده، ولقومه، وهجرته عليه الصلاة والسلام.

وتكلم القرآن أيضاً عن زوجتيه: سارة وهاجر، ولم يصرح القرآن باسميهما، وإنما ذكرت سارة في مواضع بقوله: ﴿وامراته﴾، وفي مواضع أخرى بقوله: ﴿أهله﴾.

وعن هاجر بقوله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي﴾، وإنما وردت في السنة، وفي بعض الروايات.

ومما سبق ذكره أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مكث يدعو قومه في العراق، حتى وقع في المحنة التي صورها لنا القرآن، وهي إجماع قومه على النار، وبعد ذلك أخبرنا القرآن بهجرته هو ولوط عليهما السلام إلى الأرض التي قال الله عنها: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

- أولاً: زوجه سارة:

هجر نبي الله إبراهيم قومه، وهاجر من بين أظهرهم في سبيل الله، وترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلدٍ يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل، ودعوة الخلق إليه، والأرض التي قصدتها بالهجرة هي أرض الشام، وكان معه في هجرته هذه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر،

(١) سورة الأنبياء، الآية ٧١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٢٦.

وامراته سارة، وقد كانت عاقراً لا يولد لها، فلم يكن له من الولد أحد في ذلك الوقت. ثم هاجر بعد ذلك من بلاد الشام إلى مصر، لما كان فيها من جوع، وقحط، وشدة وغلاء فرحل إلى مصر، وكانت معه زوجته سارة^(١).

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما ما جرى لإبراهيم عليه السلام حين ذهب لمصر هو وزوجه سارة، ولم يذكر القرآن شيئاً عن ذهابه إلى هناك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا» وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار^(٢) من الجبابرة، فقبل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ، فقال ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبتة، فقال إنكم لم تأتونني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو يصلي؛ فأوماً بيده مهياً^(٣)، قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر^(٤)، قال أبوهريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء»^(٥).

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١/١٤٩ - ١٥٠).

(٢) اختلف في اسم هذا الجبار المذكور فقبل هو عمرو بن امرئ القيس بن سبأ، وأنه كان ملكاً على مصر، وقيل اسمه صادق، وقيل سنان بن علوان بن عبيد بن عريج بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح.

انظر: فتح الباري (٦/٣٩٢)، تاريخ الطبري (١/١٢).

(٣) يقال إن الخليل أول من قال هذه الكلمة، ومعناها، ما الخبر.

انظر: فتح الباري (٦/٣٩٤).

(٤) أي وهب لها خادماً اسمها هاجر.

انظر: عمدة القاري (١٥/٢٤٩).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) حديث (٣١٧٩) (٣/١٢٢٥)،

فقد وضح الرسول ﷺ في هذا الحديث ، أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يكذب إلا ثلاثاً ، اثنين منها في ذات الله ﷻ ، قوله «إني سقيم» ، وقوله : «بل فعله كبيرهم هذا» وواحدة في شأن زوجته سارة ، وهي قوله : «إن سألك فأخبريه أنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام» .
ومعنى الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب ، والسامع ، وفي نفس الوقت فليست كذباً مذموماً ، وإنما استعمل (المعاريض) ، والمعاريض : هو القول الذي يعتقده السامع كذباً ، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً ، فهي تشابه الكذب في الظاهر ، وتخالفه في الحقيقة ، فقال عن سارة إنها أخته ، وأراد الأخوة في الدين ، فهو مسلم ، وهي مسلمة .
وإنما عدت بأنها ليست من الكذب المذموم ، وذلك لوجهين :

الأول : أنه ورى بها ، فقال في سارة : أختي في الإسلام ، وهو صحيح في باطن الأمر .
والثاني : أنه لو عد ، وكان كذباً لا تورية فيها لما كان جائزاً في دفع الظالمين ، وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقته ، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً ، وسأل عن ذلك ؛ لوجب على من علم ذلك إخفاؤه ، وإنكار العلم به ، فهذا الكذب جائز ، بل واجب لكونه في دفع الظالم .

فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلية في مطلق الكذب المذموم ، وخص الرسول الثنتين أنهما في ذات الله تعالى ، وواحدة في شأن سارة مع أنها هي أيضاً في ذات الله ، لأنها سبب في دفع كافر ظالم عن مواجهة فاحشة عظيمة ، ولكونها تضمنت نفعاً لإبراهيم عليه السلام ، وحظاً مع كونها في ذات الله تعالى^(١) .

أما الكذب في طريقة البلاغ عن الله تعالى ، فالأنبياء معصومون منه سواءً كثيره ، أو قليله ، وقال القاضي عياض^(٢) : الصحيح أن الكذب فيما يتعلق بالبلاغ لا يتصور وقوعه منهم

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب : من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ، حديث (٢٣٧١) (٤/١٨٤٠) .

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٢٤ - ١٢٥) ، وفتح الباري (٦/٣٩١ - ٣٩٢) . باختصار وتصرف .

(٢) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض الأندلسي ، الإمام والقاضي ، أبو الفضل ولد سنة (٤٧٦هـ) ، وهو من أهل العلم والذكاء والفهم ، تولى القضاء في عدة بلدان ، أشهر كتبه كتاب الشفا ، وله مؤلفات

غيره كثيرة ، توفي في رمضان سنة (٥٤٤هـ) .

سواءً جوزنا الصغائر منهم، وعصمتهم منها أم لا، وسواء قل الكذب أم كثير؛ لأن منصب النبوة يرتفع عنه، وتجويزه يرفع الوثوق بأقوالهم^(١).

فبين الحديث أن اسم زوج إبراهيم عليه السلام، هو سارة، كما ورد مصرحاً به، وذكر الحديث أيضاً أنها كانت جميلة، ومن أحسن النساء^(٢)، بدليل ما ذكر في الحديث بقوله: «معه امرأة من أحسن الناس». والمشهور أنها ابنة عمه هاران، الذي تنسب إليه حران^(٣)، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط، فقد قال بلا علم، ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً، فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت، فإن الأنبياء لا تتعاطاه^(٤).

وظاهر الحديث يدل على أن إبراهيم عليه السلام، سأله الجبار عن سارة أولاً، فقال هي أختي، ثم أعلمها بذلك لئلا تُكذِّبه عنده، وفي رواية أنه قال لها: «إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبره أنك أختي، وأنت أختي في الإسلام، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، فأتاه، فقال لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسل إليها...»^(٥).

ويمكن أن يجمع بينهما بأن إبراهيم عليه السلام أحس بأن الملك سيطلبها منه، فأوصاها، فلما وقع ما حسبه أعاد عليها الوصية^(٦).

انظر: وفيات الأعيان (٣/٤٨٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠/٢١٢).

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١٢٤).

(٢) فتح الباري (٦/٣٩٢).

(٣) حرَّان: بلدة بالشام على طريق الموصل، وينسب إليها الحرانيون، فتحت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم.

انظر: معجم البلدان (٢/٢٣٥).

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير (ص ٩٨).

(٥) الحديث رواه مسلم بطوله، كتاب الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم عليه السلام (٤/١٨٤٠) الحديث رقم (٢٣٧١).

(٦) فتح الباري (٦/٢٩٣).

وروى الإمام أحمد في مسنده، أنها لما دخلت إليه أي سارة قام إليها، قال فأقبلت تتوضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ الكافر، قال فغَطَّ حتى رَكَضَ برجله.

وعن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إنه إن يمت يقل هي قتلته، قال فَأُرْسِلَ، فقال في الثالثة، أو الرابعة ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر، قال فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله ﷻ ردَّ كيد الكافر، وأخدم وليدة^(١).

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك، قام يصلي لله ﷻ، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يردَّ بأس هذا الذي أراد أهله بسوءٍ، وهكذا فعلت هي أيضاً؛ فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها، وصلاتها، ودعت الله ﷻ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢)، فعصمها الله وصانها؛ لعصمة عبده ورسوله وحببيه وخليئه إبراهيم عليه السلام^(٣).

يقول ابن كثير: «ورأيت في بعض الآثار أن الله ﷻ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فما زال يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقر لعينه وأشد لطمأنينته؛ فإنه كان يحبها حباً شديداً، لدينها وقرابتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها رضي الله عنها»^(٤).

وفي الحديث الذي رواه مسلم أنها دخلت عليه - أي على الملك - ، لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضةً شديدة^(٥)، وفي قوله في رواية أحمد (فغط) أي أنه اختنق حتى

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده (٤٠٣/٢) الحديث رقم (٩٢٣٠).

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٠)، والبداية والنهاية (١٥٢/١).

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠١)، البداية والنهاية (١٥٢/١).

(٥) سبق تخريجه في (ص)

صار كأنه مصروع، قيل الغط: صوت النائم من شدة النفخ، والجمع بين الروايتين أنه عوقب تارة بقبض يده، وتارة بانصراعه، فلما عوقب بذلك، قال لها: ادعي الله لي ولا أضرك، ففعلت، ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقبضت يده أشد من القبضة الأولى، فدعا بعض حجبه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان.

والمراد بالشيطان: المتمرد من الجن، وهذا يناسب ما وقع له من الصرع، وقد كانوا قبل الإسلام يعظمون أمر الجن جداً، ويرون كل ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرفهم، فوهب لها خادمة لتخدمها؛ لأنه أعظمها أن تخدم نفسها، وهي هاجر، فلما أتت إبراهيم عليه السلام، وهو يصلي، أشار إليها بيده أثناء الصلاة متسائلاً: مهياً؟ أي ما الخبر، قالت له: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر في نحره، وهذا مثل تقوله العرب لمن أراد أمراً باطلاً ولم يصل إليه، وأخدم هاجر^(١)، والخادم يقع على الذكر والأنثى.

وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام^(٢)، ثم إن الخليل عليه الصلاة والسلام رجع من بلاد مصر إلى الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد، ومال جزيل، وصحبته هاجر القبطية المصرية^(٣).

وسارة رضي الله عنها، ذكرت في كتاب الله عز وجل، وتحدث عنها القرآن حين ذكر البشارة لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولها بإسحاق. وفي هذا دلالة واضحة على أهمية هذا الأمر العظيم، وكذلك تكريم الله عز وجل لإبراهيم ولزوجه سارة، وإسحاق عليهما السلام.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ {٦٩} فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ {٧٠} وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ {٧١} قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ

(١) فتح الباري (٦/٣٩٣ - ٣٩٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٢٥ - ١٢٦).

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠١)، البداية والنهاية (١/١٥٢).

هَذَا لَشَيْءٍ عَجِيبٌ {٧٢} قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ {٧٣} ﴿١﴾.

قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ {٢٤} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ {٢٥} فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ {٢٦} فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ {٢٧} فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ {٢٨} فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجَهَّهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ {٢٩} قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ {٣٠}﴾ ﴿٢﴾.

ثانياً: زوجه هاجر:

وبعد بيان ما ذكره القرآن، وذكرته السنة عن زوج نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام (سارة) يأتي بيان ما ذكره القرآن أيضاً، وذكرته السنة عن زوج نبي الله هاجر عليهم السلام أجمعين.

تبين مما سبق أن سارة زوج إبراهيم عليه السلام، قد وهبها ملك مصر جاريةً اسمها هاجر، وأن الخليل عليه السلام عندما رجع من بلاد مصر إلى الأرض المقدسة هو وزوجته سارة، صحبتهم هاجر القبطية المصرية ^(٣).

وهاجر: اسم سرياني، ويقال إن أباه كان من ملوك القبط، وإنها من حَفْن وهي قرية بمصر، وهي الآن قرية بجانب بلدة ملاوي بصيد مصر ^(٤).

ولقد وهبت سارة هاجر لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث إن سارة كانت عاقراً لا تلد، فلذلك وهبت هاجر لإبراهيم بغية أن يرزقه الله الولد منها، فحين دخل بها حملت منه ^(٥).

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ - ٧٣.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ٢٤ - ٣٠.

(٣) انظر: البداية والنهاية (١/١٥٢).

(٤) انظر: فتح الباري (٦/٣٩٤) وياجع معجم البلدان (٢/٢٧٦).

(٥) انظر: البداية والنهاية (١/١٥٣).

وقد سأل الله أن يهب له ولداً، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ {٩٩} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ {١٠٠} ﴿^(١)، وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أم إسماعيل، ثم أتبع ذلك ربنا ﷺ الخبر عن إجابته دعاءه وتبشيره إياه بغلام حلیم^(٢)، قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾^(٣).

فولدت هاجر (إسماعيل) عليه السلام، فلما ولد إسماعيل أمر المولى ﷺ إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وابنها إسماعيل إلى البلد الحرام، فخرج بهما وتركهما هناك بأمر منه ﷺ^(٤)، وقد ورد عن الرسول ﷺ حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق^(٥) من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً^(٦) فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفي إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت: له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: له الله أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبال بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

(١) سورة الصافات: الآيات ٩٩ - ١٠٠.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/١٦٢).

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠١.

(٤) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ص (١٠٣) والكامل في التاريخ (١/٧٩).

(٥) المنطق: بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء والنطاق هو كل ما يشد به الوسط.

انظر: لسان العرب (١٠/٣٥٤) مادة (نطق)، والمعجم الوسيط (٢/٩٣١).

(٦) الجراب بالكسر، هو وعاء الزاد.

انظر: مختار الصحاح (١/٤٢).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبة، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس قال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإنها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل...»^(١) الحديث.

والمنطق هو يشد به الوسط، أي اتخذت أم إسماعيل منطقاً، وكان أول الاتخاذ من

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، «كتاب الأنبياء»، باب (بيزفون)، النسلان في المشي الحديث رقم: (٣١٨٤):

جهتها، قيل معناه، أنها تزينت بزبي الخدم إشعاراً بأنها خادمها أي خادر سارة لتسهيل خاطرها، وتجبر قلبها.

وقيل: كان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل فلما ولدته غارت سارة، فاتخذت هاجر منطقاً فشدت به وسطها، وجرت ذيلها، لتخفي أثرها على سارة وهو معنى قوله: (لتعفي أثرها)^(١).

فوضعها أي: . إسماعيل وأمه هاجر وهي ترضعه عند البيت، المراد عند موضع البيت؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت بيت ولا بناء، وعند دوحة وهي الشجرة العظيمة فوق زمزم، وفي أعلى المسجد، أي: في أعلى مكان المسجد؛ لأنه لم يكن حينئذٍ بُني المسجد^(٢).

ووضع عندها جراباً فيه تمر، والجراب: هو ما يتخذ من الجلد ليوضع فيه المئونة والزاد، وسقاء: وهو القرية الصغيرة، ومكة آن ذاك لا يوجد بها سوى أشجار العضاة، وهو كل شجر له شوكة، ثم قفى راجعاً من التفقيه وهي: الإعراض والتولي، يعني ولّى راجعاً إلى الشام، فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له: الله امرك بهذا؟ قال لها: نعم، فقالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت^(٣).

فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية، بفتح الثاء، وكسر النون، وتشديد الياء، وهو في الجبل كالعقبة. وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه، حيث لا يرونه استقبال البيت بوجهه، ثم دعا بقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾^(٤) كما في القرآن^(٥).

(١) انظر: فتح الباري (٤٠٠/٦).

(٢) انظر: فتح الباري (٤٠١/٦).

(٣) انظر: عمدة القاري (٢٥٦/١٥).

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٥) انظر: عمدة القاري (٢٥٦/١٥).

والمراد بقوله: «يُؤَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» هو مكة، ووصفه بقوله: «الْمُحَرَّمِ»؛ لأن الله تعالى حرم التعرض له، والتهاون به؛ «رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ»، أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي الخلاء البلقع؛ إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، فاجعل أفئدة من الناس، والأفئدة هي: جمع فؤاد وهي القلب، وقيل وفود من الناس تهوي إليهم، أي: تقصدهم، وتسكن إليهم، وارزقهم من الثمرات التي تكون في بلاد الريف حتى يحبهم الناس، فقبل الله دعاءه، وأثبت لهم بالطائف سائر الأشجار لعلهم يشكرون النعمة^(١).

حتى إذا فرغ الماء الذي في السقاء، عطش إسماعيل، وعطشت هاجر، فجعلت تنظر إليه يتلوى، وفي الحديث أيضاً (يتلبط) يعني يتمرغ، ويضرب بنفسه الأرض، وقيل: كان عمره في ذلك الوقت سنتين، وقيل كان لبنها انقطع، وكان يتلوى وينقلب ظهراً لبطناً ويميناً وشمالاً، فاطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، الذي أصابه الجهد والمشقة. حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، «فذلك سعي الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه، بفتح الصاد، وسكون الهاء وكسرهما منونة، ومعنى ذلك أنها لما سمعت الصوت، قالت لنفسها: صه، أي: اسكتي، ثم تسمعت أيضاً، أي: تكلفت في السماع واجتهدت فيه، وهو من باب التفعيل، ومعناه التكلف، فقالت: قد أسمعت، بفتح التاء، من الإسماع إن كان عندك غواث، بفتح الغين، وتخفيف الواو، وهو مشتق من الغوث، والتقدير: (إن كان عندك غواث أغثني)، فإذا هي بالملك، وكلمة إذا للمفاجأة، فبحث بعقبه، والبحث طلب الشيء في التراب، وكأنه حفر بطرف رجله (أو جناحه). حتى ظهر الماء، وجعلت تحوضه، أي: تجعله كالحوض، لئلا يذهب الماء (وتقول بيدها هكذا) هو حكاية فعلها، وهذا من إطلاق القول على الفعل، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس، قال النبي ﷺ: «يرحم الله

(١) انظر: عمدة القاري (١٥/٢٥٦).

أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال ، لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً^(١) .

ويعني بقوله عيناً معيناً أي : ظاهراً جارياً على الأرض ، فقوله معيناً صفة الماء^(٢) .

فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، أي : الهلاك ، فإن ها هنا بيت لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية - أي مكان البيت كما أسلفت ؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت بيت - والراية : هو المكان المرتفع ، فتأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقته من جرهم ، والرفقة : هي الجماعة المختلطون ، سواء كانوا في سفرهم ، أو لا . وجرهم بضم الجيم والهاء ، حي من اليمن ، (ومقبلين) أي : حالهم أنهم مقبلين ، أي : متوجهين ، وهو حال من الإقبال ، وهو التوجه إلى الشيء . (من طريق كداء) واعترض بعضهم بأن كداء بفتح الكاف والمد هو محل في أعلى مكة ، وأما الذي في أسفلها بضم الكاف والقصر (كُدَى) ، والصواب بالضم والقصر ، وردَّ على ذلك بأنه لا مانع من أن يدخلوها من الجهة العليا ، وينزلون من الجهة السفلى ، فرأوا طائراً عائفاً ، وهو الذي يتردد على الماء ويحوم حوله ، فقالوا : إنَّ هذا الطائر ليدور على ماءٍ لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جريباً ، يعني أرسلوا رسولاً ، ورسولين وجريباً يطلق على الوكيل ، والأجير ، وسمي بذلك ؛ لأنه مجرى مرسله ، أو موكله ، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه فإذا هم بالماء . وكلمة إذا للمفاجأة^(٣) .

فرجعوا ، فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا أي : جرهم أقبلوا إلى جهة الماء ، وأم إسماعيل عند الماء ، أي : أنها كائنة عند الماء مستقرة ، فقالوا : أي : جرهم أي أنهم قالوا بعد حضورهم عند أم إسماعيل أتأذنين لنا أن ننزل عندك ، فقالت أم إسماعيل : نعم ، أذنت لكم بالنزول ، ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : «فألفى ذلك أم إسماعيل ، وهي تحب الأنس» ، والمعنى : فأتى استئذان جرهم بالنزول أم إسماعيل ، وحالها أنها تحب

(١) انظر: فتح الباري (٤٠٢/٦)، وعمدة القاري (٢٥٧/٢٥٦/١٥) .

(٢) انظر: فتح الباري (٤٠٢/٦) .

(٣) انظر: فتح الباري (٤٠٣/٦)، وعمدة القاري (٢٥٧/١٥) .

الأنس ؛ لأنها كانت وحدها وإسماعيل صغير، والوحشة متمكنة. فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشب الغلام، والمراد به إسماعيل بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وتعلم إسماعيل العربية من جرهم، وأنفسهم، أي: رغبهم فيه، وأعجبهم، وصار عندهم نفيساً أي رغبة فيه وزوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل عليها السلام، يعني في خلال ذلك^(١).

وفي الحديث أن نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، دعا لزوجته وابنه بدعاء عند الثنية، ذلك عندما تركهم ومضى حيث توجه بوجهه نحو البيت، ثم دعا بهذه الدعوات: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

فبين ﷺ في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا لذريته الذين أسكنهم بمكة المكرمة، أن يرزقهم الله من الثمرات^(٢).

وقوله ﷻ: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ للتبويض، أي: بعض ذريتي، وهو إسماعيل، ومن ولد منه، والمراد «بالوادي» هو: وادي مكة، ووصفه بأنه غير ذي زرع، أي: ليس فيه شيء من زرع قط^(٣).

قال ابن عطية رحمه الله تعالى: «إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قد كان علم من الله تعالى أن الله لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماء، وإنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال: «غير ذي ماء» على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك^(٤).

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، وسمي محرماً؛ لأن الله حرم التعرض له، والتهاون به، وجعل ما حوله محرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنوعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالثيء المحرم الذي حقه أن

(١) انظر: فتح الباري باختصار: (٤٠٣/٦)، وعمدة القاري (٢٥٨/٢٥٧/١٥).

(٢) انظر: أضواء البيان: ٢٤٩/٢.

(٣) تفسير الرازي: ١٠٧/١٩، وتفسير الكشاف للزمخشري: ٥٢٤/٢.

(٤) تفسير ابن عطية: ص ١٠٥٩/١٠٥٨.

يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمه لا يحل انتهاكه^(١)، لذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٢).

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء إلا كي تؤدي فرائضك من الصلاة التي أوجبتها عليهم في بيتك المحرم، ويعمره بذكرك وعبادتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك^(٣)، وخص الصلاة من جملة الدين لفضلها، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد^(٤).

﴿فَجَعَلَ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس، والروم، واليهود، والنصارى، والناس كلهم، ولكن قال «من الناس» فاختص به المسلمون^(٥).

﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: واجعل وفوداً من الناس تهوي وتحن إليهم، وتحن إلى زيارة البيت^(٦).
﴿وَارزُقَهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فبعد أن أسكنهم وادياً مقفراً سأل الله لهم أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في وادي ياب^(٧) ليس فيه شجر، ولا ماء، لا جرم أن الله سبحانه أجاب دعوته فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه سبحانه^(٨).

ويقول ابن كثير- رحمه الله -: «وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا

(١) انظر: الكشاف: ٥٢٤/٢.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٥.

(٣) تفسير الكشاف: ٥٢٤/٢؛ بتصريف، تفسير الطبري: ٢٣٣/١٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي: ٣٧١/٩.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٥٤٢/٢، و تفسير القرطبي: ٣٧٣/٩، تفسير الكشاف: ٥٢٤/٢.

(٦) انظر: تفسير القرطبي: ٣٧٣/٩.

(٧) اليباب عند العرب المكان الخالي الذي لا شيء به وليس فيه أحد.

انظر: لسان العرب (١/٨٠٦) مادة ييب.

(٨) انظر: الكشاف: ٥٢٥/٢.

أَمِنَّا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا»^(١)، وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليه ثمرات ما حولها، استجابة لدعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام»^(٢).

وقد ورد هذا الدعاء في سورة إبراهيم، ضمن أدعية دعا بها نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ {٣٥} رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٣٦} رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ يُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ {٣٧} رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ {٣٨} الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ {٣٩} رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيِّ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ {٤٠} رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

يقول ابن كثير - رحمه الله -: «وهذا يدل على أن دعاء ثانياً بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً، ورغبة إلى الله ﷻ، ولهذا قال ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾»^(٣).

ومن خلال ذلك تبين أنه من المحتمل أن يكون نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد دعا بهذا الدعاء وهو قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ يُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٤).

دعا به مرتين، مرة عندما ترك هاجر وابنها إسماعيل في ذلك المكان المقفر، ومرة بعد أن

(١) سورة القصص: الآية ٥٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥٤٢/٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٥٤٢/٢.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

بنى البيت هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

ويقول الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(١):

«لا يخفى أن إسحاق عليه السلام لم يكن مولوداً عند دعاء إبراهيم السابق فالوجه أن لا يجعل ذلك اعتراضاً، بل يحمل على أن الله تعالى ذكر جُملاً مما قاله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أحيان مختلفة تشترك كلها فيما سبق له الكلام من كونه عليه الصلاة والسلام على الإيمان، والعمل الصالح، وطلب ذلك لذريته، وأنّ ولده الحقيقي من تبعه على ذلك فترك العناد والكفر...»^(٢).

ويعضده ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، قال هذا بعد ذلك بحين^(٣).

فمما سبق يحتمل أيضاً أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد دعا بهذا الدعاء وهو قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي...﴾ دعا به مرة واحدة، وذلك حين ترك هاجر وإسماعيل، وجاء ذكر هذا الدعاء مع جملة الأدعية التي دعا بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في هذا الموضع من سورة إبراهيم.

الفوائد والدروس والعبر المستخلصة من هذا البحث.

أولاً: من الحديث الذي سبق ذكره عن سارة عليها السلام مع ملك مصر، يستفاد مشروعية أخوة الإسلام، حيث إن إبراهيم قال لها: «إن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام».

وإباحة المعاريض، بقوله عليه السلام عن سارة إنها أخته، وأراد الأخوة في الدين ليدفع بذلك الضر عنه، وعنهما، وإذا كان الكذب قد أبيض في بعض المواقف كدفع الظالم، وما شابه ذلك،

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٩.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي: ٢٤٢/١٣.

(٣) تفسير روح المعاني: ٢٤٢/١٣، تفسير فتح القدير: ١١٤/٣.

فالمعايير إذا استخدمت في مثل ذلك، فهي جائزة مباحة كما فعل نبي الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وكذلك يستفاد من الحديث الرخصة في الانقياد للظالم، أو الغاصب وأيضاً قبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك^(١).

ثانياً: مشروعية الدعاء، إذا حزب المؤمن أمر، أو مرت به ضائقة وشدة، وأيضاً كفاية الله وَجَلَّ لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح كما فعلت سارة عليها السلام.

ثالثاً: ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم^(٢).

رابعاً: أن من نابه أمرهم من الكرب ينبغي، له أن يفرغ إلى الصلاة. وأن الوضوء كان مشروعاً للأمم قبلنا، وليس مختصاً بهذه الأمة، ولا بالأنبياء لثبوت ذلك عن سارة^(٣).

خامساً: دور الأم في التربية، وإخراج نشأ صالح، متربياً على طاعة الله ورسوله، فسارة أم نبي وهاجر كذلك أم نبي، فلم يكن من ذرية سارة وهاجر كافر ومشرك، بخلاف امرأة نوح فقد كانت كافرة ومن أهل النار، وكان ابنها كافراً مثلها، فيستفاد من ذلك مكانة الأم، وما يجب أن تكون عليه من الدين، والتمسك بأوامر الله وطاعته؛ لأنها مخرجة للأجيال.

سادساً: حسن الظن بالله، وحسن التوكل عليه من أهم صفات المؤمنين، والقدوة في ذلك هاجر زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين تركها نبي الله إبراهيم مع ابنها الصغير في وادٍ غير ذي زرع، فسألته: الله أمرك بهذا؟ قال لها: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، فهذا ما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المؤمنة أولاً في انقياد وطاعة الزوجة لزوجها، ويتجلى ذلك في ذهاب هاجر مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وولدهما إسماعيل، وعودة إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى بلاد الشام وتركه هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، في مكة يومئذ وهي مكان مقفر، ليس فيه زرع ولا ماء، ولا أي شيء من مقومات الحياة، ورضا هاجر بذلك، ثانياً،

(١) انظر: فتح الباري: ٣٩٤/٦.

(٢) انظر: فتح الباري (٣٩٤/٦).

(٣) انظر: فتح الباري (٣٩٤/٦).

ثقتها بالله ﷻ، حين عرفت إن ذلك أمرٌ منه سبحانه، ورضاها بذلك القضاء لأنها علمت علماً يقيناً أن الله لن يضيعهم.

سابعاً: بذل الأسباب، والسعي لإيجاد الحلول في أمور الحياة، وحل المشكلات لا يتنافى مع كمال التوكل على الله، وحُسن الثقة به تعالى، فهاجر عليها السلام قد وثقت بربها وضربت مثلاً رائعاً بقولها: «آله أمرك بهذا.. ثم قالت إذن لا يضيعنا»، ورغم ذلك فلم تستسلم، وتقعّد، دونما بحثٍ، وسعي، فقد سعت وصعدت الجبلين الصفا، والمروة حتى أعيها السعي، والبحث، إلى أن جاءها الفرج من الله ﷻ، وأصبح سعيها هذا شعيرةً من شعائر الله ﷻ.

المبحث الرابع

زوج موسى عليه الصلاة والسلام

قبل الحديث عن زوج موسى عليه السلام يُذكر أولاً ما ورد في القرآن الكريم من عرض والد هذه المرأة على موسى عليه الصلاة والسلام أتمه ليتزوجها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {٢٧} قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(١).

أما أبوها ففي اسمه اختلاف، فيقال إنه يثرون بن أخي شعيب النبي عليه الصلاة والسلام، وقال آخرون اسمه يثري، وقال آخرون بل اسمه شعيب، وقالوا هو شعيب النبي عليه الصلاة والسلام^(٢).

يقول ابن كثير: «أنه شعيب النبي عليه الصلاة والسلام، الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء»^(٣).

وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه الصلاة والسلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه أي: شعيب: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٤).

وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام بنص القرآن، وقد عُلم أنه كان بين الخليل وموسى عليه الصلاة والسلام مدة طويلة تزيد على أربع مئة سنة كما ذكر غير واحد، وما قيل إن شعيباً عليه السلام عاش مدة طويلة، إنما هو والله أعلم احترازاً من هذا

(١) سورة القصص: الآيتان ٢٧، ٢٨.

(٢) تفسير القرطبي: ٦٢/٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٨٥/٧.

(٤) سورة هود: الآية ٨٩.

الإشكال ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب عليه الصلاة والسلام أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون والله أعلم^(١).

ويقول ابن جرير الطبري - رحمه الله -: «وهذا مما لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه»^(٢).

واسم امرأة موسى صفورا، كما جاء في كتب التفسير، وكتب التاريخ، فقيل هي صفورا ابنة يثرون، كاهن مدين، والكاهن حبر^(٣).

فقد كانت ابنته قد وصفت موسى له بالقوة والأمانة كما سيأتي بيانه في الفصل القادم، قال تعالى: «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ»^(٤).

- الشيخ يعرض ابنته على موسى ليتزوجها:

لما سمع الشيخ قول ابنته في موسى من القوة والأمانة، عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه عل أن يرعى غنمه ثماني سنين، فإن تبرع بزيادة سنتين فهذا له، وإلا ففي الثماني كفاية.

والمراد أن يكون رعي المواشي أجره على ابنته أي: هو مهرها على موسى عليه الصلاة والسلام، فقال موسى: أيما المدتين قضيت فلا حرج عليّ «وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» شاهدٌ وحفيظ^(٥).

يقول الزمخشري في قول الشيخ أبي الفتاة: «﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ﴾»، بإلزام أتم

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٨٦/٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦٣/٢٠.

(٣) تفسير الطبري: ٦٢/٢٠، تاريخ الطبري: ٢٣١/١، البداية والنهاية: لابن كثير: ٢٨٠/١.

(٤) سورة القصص: الآية ٢٦.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٨٦/٣، تفسير القاسمي: ٤٢٠/٥.

الأجلين وإيجابه، أو أنه وعده المساهلة والمسامحة من نفسه، وأنه لا يشق فيما استأجره من رعي الغنم، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين من المناقشة في مراعاة الأوقات، والمداقعة في استيفاء الأعمال وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط.. ثم ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يريد بالصلاح حسن المعاملة ووطأة الخلق، ولين الجانب، ويجوز أن يريد الصلاح على عمومه^(١).

- قبول موسى ما عرض عليه الشيخ من الزواج وإجارة:

والآية تدل على قبول موسى عليه الصلاة والسلام النكاح من إحدى بنات الشيخ، وأيضاً قبوله الإجارة عنده لرعي الغنم، ودليله قول موسى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٢).

وقد قضى موسى الأجل، وكان قد قضى أكملهما وأتمهما.

روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى، قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما، وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعَلَّ^(٣).

خروج موسى بأهله من مدين:

قال تعالى عن ذلك، أي: عن قضاء موسى للأجل المتفق عليه وخروجه بأهله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٤).

أي: أنه لما قضى موسى الأجل المتفق عليه، وهو أتمهما، وأوفاهما، وأبرهما،

(١) تفسير الكشاف؛ للزمخشري باختصار: ٤٠٩/٣.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد وفعله الحسن، حديث (٢٠٣٨): (٩٥٣/٢).

(٤) سورة القصص: ٢٩.

وأنقاهما، وكان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، عزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله، وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك^(١).

وبينما هو على تلك الحال أبصر ناراً قال تعالى: ﴿ آتَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾، والإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه الإنس؛ بظهورهم، والاستئناس بهم، وقيل: هو إبصار ما يؤنس به^(٢).

فبينما هو سائر بأهله متجهاً من مدين إلى مصر، أبصر ناراً ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾، أي: تمهلوا وانتظروا وابقوا مكانكم^(٣).

والمكث: هو الثبات مع الانتظار^(٤)، قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾^(٥)، فلما رأى ناراً تضيء قال لأهله / ابقوا هنا حتى أذهب إليها، ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن الطريق، وذلك لأنه قد أضل الطريق، ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾، أي: قطعة منها، لعلكم تستدفئون بها من البرد^(٦).

فالمعنى: أنهما كانا يسيران ليلاً، وقد اشتبه الطريق عليهما، والوقت وقت برد، وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق من الانتفاع بالنار للاصطلاء^(٧).

وفي سورة طه يقول الله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى {٩} إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٨٨/٣.

(٢) تفسير الكشاف: ٥٥/٣.

(٣) تفسير الطبري: ٦٩/٢٠.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٤٧١/١.

(٥) سورة النمل: الآية ٢٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ٣٨٨/٣.

(٧) انظر: تفسير الرازي: ١٥٥/٢٤.

امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا يَقْبَسُ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى»^(١).

فهذه الآية فيها مزيد بيان لما حدث لموسى، وهو سائر مع أهله في طريقه إلى مصر، والمخاطب في الآية هو محمد ﷺ: «وهل أتاك يا محمد حديث موسى بن عمران إذ رأى ناراً وكان ذلك في الشتاء ليلاً، وأن موسى كان أضل الطريق، فلما رأى ضوء النار قال لأهله ما قال»^(٢).

وقوله: «امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا»، أقيموا في مكانكم، إني أبصرت ناراً، «لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا يَقْبَسُ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى»، أي: لعلي أجيئكم من النار التي آنست - أي أبصرت - بشعلة، والقبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة، أو غيرها، وإنما أراد موسى بقوله لأهله «لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا يَقْبَسُ» أي: لعلي آتيكم بذلك لتصطلو به، أو أجد دلالة تدل على الطريق الذي أضللناه، وإما من خبر هادٍ يهدينا إليه، وإما من بيان، وعلم نتبينه به ونعرفه.

والتعبير بقوله: (لعل)، لما كان من الإتيان بالقبس ووجود الهدى، أمران مترقبان متوقعان بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع، فلم يقطع ويقول (إني)، وإنما قال: (لعلي)، لئلا يعدهم بأمر ليس بمتيقن الوفاء به.

ومعنى الاستعلاء على النار في قوله تعالى: «أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى»، أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها، ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها^(٣).

وفي سورة النمل: «إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»^(٤).

والتعبير في هذه الآية بقوله: «سَاءَتِيكُمْ»، حيث جاء بسين التسوييف، واعدداً لأهله أنه يأتيهم به، وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة، وإنما جاء بأو دون الواو؛ ليبني الرجاء على أنه

(١) سورة طه: الآيات ٩ - ١٠.

(٢) تفسير الطبري: ١٤٢/١٦.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٤٢/١٦، الكشاف: ٥٥/٣، تفسير الرازي: ١٤/٢٢.

(٤) سورة النمل: الآية ٧.

إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدةً منهما، إمّا هداية الطريق، وإمّا اقتباس النار ثقةً بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكلّيتين جميعاً، وهما العزّان: عزّ الدنيا وعزّ الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾: الشهاب الشعلة، والقبس النار المقبوسة، وأضاف الشهاب إلى القبس؛ لأنه يكون قبساً وغير قبس. أي أنها شعلة متوهجة ملتهبة، مقبوسة من النار التي رآها عليه الصلاة والسلام.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: تستدفئون به، وذلك يدل على حاجتهم إلى الاصطلاء وحينئذ لا يكون ذلك إلا في حال البرد، والتعبير في آية سورة القصص، وسورة طه، جاء بقوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾، وفي سورة النمل بقوله: ﴿سَاتِيكُمْ﴾. وذلك لأن الراجي إذا قوي رجأؤه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة^(١).

ففي سورة القصص يقول: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبَرِ﴾، وفي سورة النمل: ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبَرِ﴾، والمراد بمن يخبرني ويرشدني إلى الطريق.

وفي سورة طه: ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبَرِ﴾، دلالة تدل على الطريق.

وقد كنى الله ﷻ عن امرأة موسى عليه الصلاة والسلام بالأهل، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله: ﴿امْكُثُوا﴾^(٢).

- نداء الله ﷻ لنبيه موسى عليه السلام في ذلك المكان:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {٣٠} وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ {٣١} اسْلُكْ يَدَكَ

(١) انظر: تفسير الرازي: ١٥٦/٢٤، تفسير الكشاف: ٣٥٤/٣، تفسير ابن كثير: ٣٥٧/٣، المفردات في غريب القرآن:

فِي جَنِيحِكَ تَخْرُجُ بَيِّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ^(١).

فلما أتى: قاصداً النار، والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾: يعني أتى موسى الشجرة، قدم الضمير عليها، ﴿نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي﴾، أي: أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة ﴿الْأَيْمَنِ﴾، أي: عن يمين موسى، وقيل عن يمين الجبل، ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾، وبركة البقعة هي ما خصت به من آيات الله تبارك وتعالى وأنواره وتكليمه لموسى ﷺ، ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، أي: من ناحية الشجرة، وهذا يقتضي أن موسى عليه الصلاة والسلام سمع ما سمع من كلام الله من جهة الشجرة، أي: أن الله تعالى كلم موسى عليه الصلاة والسلام من فوق عرشه.

وبعد أن أتاه أي: أتى الشجرة قاصداً النار التي رآها أوحى الله ﷻ إليه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى {١١} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى {١٢} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {١٣} إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {٨} يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).
وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

من الآيات يتبين أن الله ﷻ كلم موسى، وأوحى إليه في ذلك المكان، وأيده بالمعجزات، و سيأتي بيان ذلك إن شاء الله في موضعه.

(١) سورة القصص: الآيات ٣٠ - ٣٢.

(٢) سورة طه: الآية ١١ - ١٤.

(٣) سورة النمل: الآية ٨ - ٩.

(٤) سورة القصص: الآية ٣٠.

الدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

أولاً: جواز عرض الرجل أو الولي ابنته أو وليته على الرجل الصالح، ويستفاد ذلك من قول الشيخ الكبير والد المرأتين: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ...» .

فقد عرض هذا الشيخ إحدى ابنتيه على موسى ليتزوجها، لما رأى من أمانته وشجاعته، فهذا الأمر لا حرج منه البتة فقد فعل الصالحون أمثال هذا الرجل، وفعل أيضاً الصحابة، فهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عرض ابنته حفصة على أصحابه، جاء ذلك في البخاري، «أن عمر ابن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خُنَيْس^(١) بن حُذَافَةَ السَّهْمِي، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فتوفي بالمدينة، فقال: عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، قال عمر فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلي شيئاً، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله فأنكحها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً، قال عمر، قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وآله قبلتها»^(٢).

وقد جاء في فتح الباري في شرح هذا الحديث: «وفيه عرض الإنسان بنته وغيرها من موالياته على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه، وأنه لا استحياء في ذلك»^(٣).

(١) هو خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سهم القرشي السهمي كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى المدينة، وشهد بدرًا وأصابته جراح يوم أحد فمات منها، وكان زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب وتوفي بالمدينة.

انظر: الاستيعاب (٢/٤٥٢)، الإصابه (٢/٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، الحديث (٤٨٣٠): ١٩٦٨/٥.

(٣) فتح الباري: ١٧٨/٩.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث يشاء، لما له عليها من فضل القوامه وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استُحلل به الفروج^(١).

ولما في ذلك من حسن العشرة، والانقياد لأمر الزوج بمصاحبته، وطاعته، واستجابة لرغبته، ولما في ذلك أيضاً من المساندة والمعاونة، كما في حديث موسى عندما ذهب ليقتبس لأهله من النار التي أبصرها، فخاف هناك بدليل قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾^(٢)، فلا بد أنها كانت له خير مساند ومعاون كما صنعت خديجة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ، فنساء الأنبياء المؤمنات خير قدوة للنساء المسلمات في ذلك.

ثالثاً: على أولياء الأمور الاقتداء بالأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام في تعاملهم مع زوجاتهم ورعيتهن، فقد ضرب موسى أروع مثال في اللين والتعامل الحسن مع أهله، حين قال: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى﴾، وفي الآية الأخرى يقول: ﴿إِنِّي آنستُ نَاراً سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، ففي كل هذه الآيات التي أوردت حديث موسى مع أهله بأمره لهم بالموث والانتظار حتى يأتيهم بما يستدفنون به، كان خطاباً موجهاً لهم، ولم يضيف نفسه ضمناً؛ لطلب التدفئة أو نحواً من ذلك، وإنما أضاف لنفسه فقط إرادة معرفة الخبر ممن قد يكون حول النار عن الطريق الذي قد أضلوه؛ لأنه هو الولي وهو المتحمل لمسئولية السير في السفر.

رابعاً: وللأولياء عموماً في قول موسى لأهله ﴿لَّعَلِّي آتِيكُمْ﴾ القدوة الحسنة من حيث أنه عبر بقوله ﴿لَّعَلِّي﴾ لئلا يعد بما ليس بمستيقن الوفاء به، وهذا ما يجب على الآباء والأمهات أيضاً والأزواج فعله من حيث إنهم لا يعدون بأمر لا يمكنهم تحقيقه، فلا يعدون إلا إذا رأوا أنهم يتمكنوا من الوفاء بما وعدوا.

(١) تفسير القرطبي: ١٨١/١٣.

(٢) سورة القصص: الآية ٣١.

- الأحكام الفقهية المستفادة من هذا المبحث:

١ - من الآيات السابقة يستدل على ضرورة الولي في عقد النكاح.

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ»: «في هذه الآية دليل إلى الولي إذ لاحظ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، وبه قال الفقهاء وخالف ذلك أبو حنيفة»^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الذي عليه العلماء أنه «لا نكاح إلا بولي»^(٢)، و«أيما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل»^(٣)، وكلا هذين اللفظين مأثور في السنن عن النبي ﷺ^(٤).

وعلى اختلاف الفقهاء على وجوب الولي في النكاح، إلا أن الذي عليه الجمهور من الفقهاء هو أن المرأة لا تزوج نفسها، ولا تلي العقد على غيرها^(٥).

واستدل الجمهور على اشتراط الولي بعدة أدلة منها:

قال تعالى: «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ»^(٦).

(١) تفسير القرطبي: ٢٧١/١٣.

(٢) رواه أبو داود في السنن عن أبي موسى الأشعري، كتاب النكاح، باب (في الولي) رقم (٢٠٨٥): ٢٢٩/٢، ورواه الترمذي في السنن عن أبي موسى الأشعري، كتاب النكاح، باب (ما جاء لا نكاح إلا بولي) قال حديث صحيح.

(٣) رواه أبو داود في السنن عن عائشة، كتاب النكاح، باب (في الولي) حديث رقم (٢٠٨٣): ٢٢٩/٢، ورواه أحمد في مسنده: ٤٧/٦، والحديث رقم (٢٤٢٥١).

(٤) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه: ١٠٢/٣٢.

(٥) انظر: فتح الباري: ١٢٨/٨، تحفة الأحوذى: ٤٤٧/٦، المغني: ٦/٧، الفتاوى الفقهية الكبرى: ٨٦/٤، جواهر العقود: ٦/٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢١.

يقول القرطبي: «في هذه الآية دليل بالنص على أن لا نكاح إلا بولي»^(١).

واستدلوا أيضاً بالأدلة السابق ذكرها من السنة وغيرها، وقد جعل المحدثون لهذه الأحاديث أبواباً في كتبهم، وسموها بـ «النكاح إلا بولي»، والبعض بـ «الولي»، ومع وجود الولي شرطاً في النكاح لضمان مصلحة المرأة، والمحافظة عليها من الخديعة والانحراف، إلا أن الإسلام قد ضمن حق المرأة أيضاً في حرية الاختيار، فليس من حق الولي أن يزوج ابنته أو أخته أو من يتولاها لرجل لا ترغب به، فالرضا أيضاً شرط من شروط النكاح.

والمرأة إنما منعت الاستقلال بالنكاح، لقصور عقلها، فلا يؤمن إخداعها ووقوعه منها على وجه المفسدة، وهذا مأمون فيما إذا أذن فيه وليها، والعلة في أنها لا تزوج نفسها إلا بإذن وليها صيانة لها عن مباشرة ما يُشعر بوقاحتها، ورعونتها، وميلها إلى الرجال، وذلك ينافي حال أهل الصيانة والمروءة، والله أعلم^(٢).

وما هذه الشروط إلا لصالح المرأة، وضمان حقها، وفي ذلك دلالة واضحة على مكانة المرأة في الإسلام، وتكريمها، وتوثيق العلاقة الأسرية بين أفرادها.

٢- أن بعض الفقهاء استدلوا بهذه الآية: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ».

وقالوا: يجوز أن تكون منفعة الحر صداقاً، كالخياطة، والبناء، وتعلم القرآن^(٣)، ودليل ذلك ما قال الرسول ﷺ في حديث المرأة الواهبة نفسها للرسول ﷺ حين قال للرجل الذي رغب بها ولم يجد مهراً «زوجتكها بما معك من القرآن»^(٤).

(١) تفسير القرطبي: ٧٢/٣.

(٢) انظر: المغني: ٦/٧.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٧٣/١٣.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

المبحث الخامس

زوج آدم ﷺ

زوج نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام، وأبوالبشرية وهو أصلها. هي: حواء عليها السلام، وهي: أم البشر، وهذا لا يكاد يخفى على كل مؤمن.

- الآيات التي ورد الحديث فيها عن خلق حواء:

فقد خلق الله ﷻ آدم ﷺ، ثم خلق منه حواء، وخلق منهما البشرية جمعاء، ولقد ذكر القرآن الكريم خلق حواء عليها السلام في مواضع متعددة، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).

بدأت الآية بأمر الله تعالى خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي: حواء عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها، فأعجبته، فأنس إليها، وأنست إليه^(٢).

وقد ثبت في السنة - أيضاً - ما يدل على أن حواء خلقت من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام، روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٣).

قال ابن عباس: إنما سميت بحواء لأنها خلقت من ضلع من أضلاع آدم، فكانت مخلوقة

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤٤٩/١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب النكاح، باب: الوصاة بالنساء، حديث رقم (٤٨٩٠)، (١٩٨٧/٥).

من شيء حي، فلا جرم سميت بحواء^(١).

ويقول الطبري - رحمه الله تعالى - في تفسيره للآية: «وصف الله تعالى نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، وعرف عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبهم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد، وأم واحدة.

وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإن بعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى. وعاطفاً بذلك بعضهم على بعض ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، يعني: من آدم، وقال من نفس واحدة لتأنيث النفس، والمعنى من رجل واحد^(٢).

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وخلق من النفس الواحدة زوجها، يعني: بالزوج الثاني لها، وهي امرأته حواء^(٣).

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، بيان لكيفية تولدهم منها، والمعنى: ونشر من تلك النفس، والزوج المخلوقة منها بنون وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكون أكثر^(٤).

وإن في خلق حواء من ضلع آدم دليلٌ على عظيم قدرة الله وخلقهِ ﷻ، لذا فقد رتب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تُخشى، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليتها ﷻ^(٥).

وقد امتن الله على عباده بأن خلقهم من نفس واحدة، لأن ذلك أقرب بأن يعطف

(١) تفسير الرازي (١٣١/٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٢٤/٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٢٤/٤).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (١٣٩/٢).

(٥) انظر: تفسير البيضاوي (١٣٩/٢).

بعضهم على بعض ، ويرحم بعضهم بعضاً ، لرجوعهم إلى أصل واحد .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، يقول الإمام الزمخشري - رحمه الله تعالى - : «فإن قلت : الذي يقتضيه سداد النظم وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويحث عليها ، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجباً للتقوى ، وداعياً إليها؟

قلت : لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابقة عليهم ، فحقهم أن يتقوه في كفرانها ، والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها.

أو أراد بالتقوى : تقوى خاصة ، وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنواناً^(١) ، فرعة من أرومة^(٢) واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ، ولا تغفلوا عنه ، وهذا المعنى مطابق لمعنى السورة^(٣).

والأصل في قوله : «تساءلون» تتسألون ، فأدغمت التاء في السين ، بعد إبدالها سيناً لقرب التاء من السين للهمس «تساءلون به»^(٤) ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر (تساءلون به) بالسين المشددة ، وقرأ عاصم^(٥) ، وحمزة ، والكسائي «تساءلون به» بتخفيف السين ، والحجة

(١) صنواناً: الصنوان جمع صنو ، وهي : النخلة لها رأسان ، وأصلهما واحد ، والصنو: الغصن الخارج عن أصل الشجرة ، يقال : هما صنوا نخلة ، وفلان صنو أبيه ، والثنية صنوان ، قال تعالى : ﴿ وَزَرَعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ لسورة الرعد : الآية ٤٤. انظر : كتاب المفردات في غريب القرآن (١/٢٨٧).

(٢) الأرومة : أي الأصل (والمراد أصل الشيء ومجمعه).

انظر : لسان العرب (١٢/١٤) مادة (أرم) ، ومعجم مقاييس اللغة (١/٨٥) مادة (أرم) .

(٣) تفسير الكشاف (١/٤٩٢).

(٤) انظر : تفسير النسفي (١/٢٠٢).

(٥) هو عاصم بن أبي أنجود الأسدي الكوفي أبو بكر ، الإمام القارئ أحد القراء السبعة ، أخذ القراءة عن ابن مسعود ،

لمن خفف سقوط إحدى التائين تخفيفاً، وأصلها تتساءلون، والحجة لمن شدد أن التاء ساكنه ومدغمه في السين للمقاربة، فلزم التشديد ومدار القراءتين حول معنى واحد^(١).

والمعنى: واتقوا الله أيها الناس الذي إذا سأل بعضكم بعضاً، سأل به، فقال السائل للمسئول: أسألك بالله، وأنشدك بالله، وأعزم عليك بالله، وما أشبه ذلك.

فكما تعظمون ربكم بألسنتكم، حتى تروا أن من أعطاكم عهده، فنقض عهده، فقد أتى عظيماً، فكذلك فعظموه بطاعتكم إياه فيما أمركم، واجتنابكم ما نهاكم عنه، واحذروا عقابه من مخالفتكم إياه فيما أمركم به، أو نهاكم عنه^(٢).

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها، وصلوها^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾: حفيظاً مُحْصِياً عليكم أعمالكم، متفقداً رعايتكم حرمة أرحامكم، وصلتكم إياها وقطعتكم إياها، وتضييعكم حرمتها^(٤).

فالآية في عمومها: دالة على الأمر بتقوى الله جل في علاه، فهو سبحانه المتفضل على عباده في خلقه إياهم، من نفس واحدة، ثم خلق منها أي من هذه النفس وهو آدم، وزوجها، وهي حواء عليهما السلام، وبث منهما الرجال والنساء، وفيها - أيضاً - أمر بصلة الأرحام، وبرها، وعدم قطيعتها، وعدم التعالي بين الناس بعضهم على بعض، فإن أصلهم واحد.

وقال سبحانه عن خلق حواء عليها السلام:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنُكُونَنَّ مِنْ

وأخذ عنه حفص وغيره توفي سنة (١٢٧هـ)

انظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٣٢٠)، معرفة القراء الكبار (١/ ٨٨).

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (١/ ٢٣٦).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٢٢٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٩).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٢٢٨).

الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾.

في هذه الآية ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢).

وقال عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (٣).

وقال سبحانه في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٤).

فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه (٥).

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾: أي وطئها حملت حملاً خفيفاً، وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له الماء، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، وفي الكلام محذوف ترك ذكره، استغناء بما ظهر عما حذف، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ﴾، وإنما الكلام فلما تغشاه فقضى حاجته منها حملت.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فإنه يعني استمرت بالماء، قامت به وقعدت، وأتمت الحمل واستمرت به، ﴿فلما أثقلت﴾ فلما صار ما في بطنها من الحمل الذي كان خفيفاً ثقيلًا، ودنت

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٩.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١.

(٤) سورة الروم: الآية ٢١.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٧٥).

ولادتها، يقال منه أثقلت فلانة، إذا صارت ذات ثقل بحملها، كما يقال أتمر فلان إذا صار ذا تمر، وقال السُّدي: «كبر الولد في بطنها»^(١).

﴿ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ نادى آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاهما صالحاً في حمل حواء لنكونن من الشاكرين.

واختلف المفسرون في معنى الصلاح الذي أقسما عليه آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاهما صالحاً ليكونن من الشاكرين.

فقال بعضهم: ذلك أن يكون الحمل غلاماً، وقال آخرون: بل هو أن يكون المولود بشراً سوياً مثلهما ولا يكون بهيمة.

والصواب من القول في ذلك: أن يقال إن الله أخبر عن آدم وحواء، أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما في بطن حواء صالحاً؛ ليكونان لله من الشاكرين.

والصلاح قد يشمل معاني كثيرة، منها: الصلاح في استواء الخلق، ومنها الصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير.

وإذا كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال إنهما قالوا: لئن آتيتنا صالحاً بجميع معاني الصلاح؛ فإنه لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت له من الولد صالحاً^(٢).

وقد أورد المفسرون آثاراً في تفسير هذه الآية مأخوذة من أهل الكتاب، منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده، أن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه الحارث، فإنه يعيش، فسمته عبدالحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٧٥)، تفسير الطبري (٩/١٤٣ - ١٤٤).

(٢) تفسير الطبري (٩/١٤٤ - ١٤٥).

وأمره»^(١).

وقد أفاض ابن كثير في تضعيف هذا الحديث، ومال إلى أنه موقوف، وأن الصحابي أخذه عن أهل الكتاب^(٢).

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، معلقاً على هذا الحديث: «وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر^(٣) بن إبراهيم، هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين^(٤)، ولكن قال أبو حاتم^(٥) الرازي: لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر^(١) عن أبيه عن الحسن

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب: من سورة الأعراف. رقم الحديث (٣٠٧٧)، (٣٦٧/٥)، وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبدالصمد، ولم يرفعه، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي والضعيفة (٣٤٢)، ورواه أحمد (١١/٥)، رقم الحديث (٢٠١٢٩)، والحاكم في المستدرک (٥٩٤/٢) ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الطبري في تفسيره (١٤٦/٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢٧٥/٢).

(٣) هو عمر بن إبراهيم العدي، وثقه الإمام أحمد، ولكنه قال: يروي عن قتادة أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وكان ابن عدي يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال يخطئ ويخالف، ثم ذكره في الضعفاء فقال: كان ممن ينفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه، فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، فأما فيما روى عن الثقات: فإن اعتبر به معتبر لم أربذلك بأساً، وقال الدارقطني: لين يترك.

انظر: الضعفاء للعقيلي (١٤٦/٣)، تهذيب التهذيب (٣٧٣/٧).

(٤) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبدالرحمن أبو زكريا، إمام الجرح والتعديل، روى عنه الإمامان البخاري ومسلم، وأبو داود كتب الحديث، يقول الطبري: دخلت على يحيى بن معين فوجدت عنده كذا وكذا سفظاً، يعني دفاتر، وسمعتة يقول: قد كتبت بيدي ألف ألف حديث، كان أعلم أهل زمانه بالرجال، توفي بالمدينة في شهر ذي القعدة سنة (٢٣٣هـ).

انظر: تهذيب الكمال (٥٤٣/٣١)، تهذيب التهذيب (٢٤٦/١١)، الثقات (٢٦٢/٩).

(٥) هو محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، أبو حاتم الرازي، ارتحل وهو صغير في طلب الحديث، وهو أحد الأعلام، وكان اماماً في الحديث، روى عن الإمام أحمد مسائل كثيرة، قال عنه النسائي: إمام ثقته، وقال أبو نعيم: إمام في الحفظ، توفي في شهر شعبان سنة (٢٧٧هـ).

عن سمرة^(٢) مرفوعاً، والله أعلم.

الثاني: أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير، حدثنا ابن عبد الأعلى^(٣)، حدثنا المعتمر عن أبيه، حدثنا بكر^(٤) بن عبد الله عن سليمان^(٥) التيمي، عن أبي العلاء^(٦) بن الشخير عن سمرة بن جندب، قال: «سمى آدم ابنه

انظر: تذكرة الحفاظ (٥٦٧/٢)، وتهذيب التهذيب (٢٨/٩).

(١) هو المعتمر بن سليمان بن طرخان التيمي البصري، ينسب إلى تميم لنزوله فيها هو وأبوه، حدث عن أبيه، وعن بهز بن حكيم وغيرهم، وكان من كبار العلماء، حدث عنه ابن المبارك، وخلق كثير، قال عنه ابن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: ثقة، وصدوق، توفي بالبصرة سنة (١٨٧هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٤٧٧/٨)، والرسالة المستطرفة (١١٠/١).

(٢) هو سمرة بن جندب بن هلال بن حريج بن مرة الفزاري، يكنى أبا سليمان، وكان من حلفاء الأنصار، كان يحفظ الحديث عن الرسول ﷺ وهو غلام صغير، نزل البصرة، وكان زياد يستخلفه عليها إذا سار عنها أثنى عليه الحسن وابن سيرين، توفي سنة (٥٩هـ).

انظر: الاستيعاب (٦٥٣/٢)، الإصابة (١٧٨/٣).

(٣) هو عبد الأعلى بن عبد الأعلى البصري الشامي أبو محمد، وكان يغضب إذا قيل له أبو همام، قال عنه ابن حجر: ثقة، من الثامنة، توفي سنة (٨٩هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٢٤٢/٩)، تقريب التهذيب (٣٣١/١).

(٤) هو بكر بن عبد الله بن عمرو، الإمام القدوة الواعظ، أبو عبد الله المزني البصري، أحد الأعلام، حدث عن المغيرة بن شعبه، وابن عباس وأنس بن مالك قال محمد بن سعد الكاتب: كان بكر المزني ثقةً ثبتاً كثير الحديث حجة فقيهاً.

انظر: مشاهير علماء الأنصار (ص ٩٠)، سير الأعلام النبلاء (٥٣٢/٤).

(٥) هو سليمان بن طرخان التيمي البصري أبو المعتز، روى عن أنس بن مالك، وطاوس وغيرهم، قال عنه ابن المديني: له نحو مائتي حديث، قال عنه أحمد بن حنبل: ثقة، وقال عنه ابن معين والنسائي وغيرهما: ثقة، توفي في شهر ذي القعدة سنة (١٤٣هـ).

انظر: حلية الأولياء (٢٧/٣)، سير أعلام النبلاء (١٩٥/٦).

(٦) هو يزيد بن عبد الله بن الشخير أبو العلاء العامري البصري، أحد الأئمة، حدث عن أبيه، وأخيه مطرف بن عبد الله، وعمران بن حصين وعائشة أم المؤمنين، وأبي هريرة، وحدث عنه قتادة وآخرون، كان مولده في عهد أبي بكر الصديق، قال عنه الذهبي، كان ثقة فاضلاً كبير القدر، توفي سنة (١٠٨هـ).

انظر: الطبقات الكبرى (١٥٥/٧)، سير أعلام النبلاء (٤٩٣/٤).

عبد الحارث»^(١).

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه، قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع^(٢)، حدثنا سهل^(٣) بن يوسف عن عمرو^(٤) عن الحسن «جعلاً له شركاء فيما آتاهما»، قال: كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم، وحدثنا محمد^(٥) بن عبد الأعلى، حدثنا محمد^(٦) بن ثور عن معمر^(٧)، قال: «قال الحسن: عني بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده»، وحدثنا بشر^(٨)، حدثنا سعيد^(١) عن قتادة، قال: «كان

(١) تفسير الطبري: ١٤٦/٩.

(٢) هو سفيان بن وكيع بن الجراح بن مليح، أبو محمد الكوفي، يروي عن أبيه، وروى عنه الترمذي، وابن ماجه ومحمد بن جرير، قال عنه الذهبي: هو من أوعية العلم، إلا أنه يلحقه لين، توفي في ربيع الآخر سنة (٢٤٧هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (١٥٢/١٢)، تهذيب التهذيب (٤/١٠٩).

(٣) هو سهل بن يوسف بن سهل بن مالك الأنصاري، قال عنه ابن عبد البر: لا يعرف هو ولا أبوه.

انظر: لسان الميزان (١٢٢/٣)، وميزان الاعتدال (١٢٢/٨).

(٤) هو عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري، كبير المعتزلة، يروي عن الحسن البصري، وأبي العالية، وروى عنه ابن عينة ويحيى بن سعيد القطان، قال عنه النسائي: ليس بثقة، وقال عنه حفص بن غياث: ما لقيت أزهد منه، توفي سنة (١٤٤هـ).

انظر: المعرفة والتاريخ (٢/٢٥٩)، سير أعلام النبلاء (١٠٥/٦).

(٥) هو محمد بن عبد الأعلى بن محمد الأنصاري، عُرف بابن عليل، حدث عن هشام بن عمار وقاسم بن عثمان الجوعى، وروى عنه ولده إبراهيم، وأبو محمد بن ذكوان توفي في ربيع الآخر سنة (٣٢٣هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٥٢٩/١٤)، الوافي بالوفيات (١/٣٨١).

(٦) هو محمد بن ثور أبو عبدالله الصنعاني، الإمام القانت، حدث عن عوف الأعرابي ومعمر بن راشد، وحدث عنه نعيم بن حماد ومحمد بن عبد الأعلى، وآخرون، وثقه يحيى بن معين وغيره، كان صواماً قواماً قانتاً لله.

انظر: سير أعلام النبلاء (٣٠٢/٩)، تهذيب التهذيب (٧٦/٩).

(٧) هو معمر بن راشد أبو عروة بن أبي عمرو الأزدي، ولد سنة ٩٦هـ، وشهد جنازة الحسن البصري، وطلب العلم وهو صغير حدث، حدث عن قتادة والزهري وغيرهم، وحدث عنه عمرو بن دينار ومحمد بن ثور وغيرهم، توفي في رمضان سنة (١٥٣هـ).

انظر: الطبقات الكبرى (٥٤٦/٥)، سير أعلام النبلاء (٥/٧).

(٨) هو بشر بن معاذ العقدي أبو سهل البصري، روى عن يزيد بن زريع، وأبي داود الطيالسي، وغيرهم، وروى عنه

الحسن يقول: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا)).

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه عن أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب^(٢) الأحمري، ووهب^(٣) بن منبه، وغيرهما^(٤).

وقد ذكر ابن كثير أثراً عن عباس قال: «كانت حواء تلد لآدم أولاداً، فيعبدهم الله، ويسميه عبدالله، وعبيدالله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميان به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث^(٥)، ففيه أنزل الله يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى قَوْلِهِ ﴿جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآيات^(٦)».

الترمذي والنسائي وابن ماجه، ذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة (٢٤٥هـ).

انظر: الوافي بالوفيات (٣/ ٣٨٠)، تهذيب التهذيب (١/ ٤٠١).

(١) هو سعيد بن أبي عروبة، واسمه مهران العدوي، مولى بني عدي بن يشكر، أبو النضر البصري، روى عن قتادة والحسن البصري وجماعة، وروى عنه الأعمش ويزيد بن زريع وجماعة غيرهم، قال ابن معين: ثقة، وقال ابن أبي خيثمة: أثبت الناس في قتادة سعيد بن أبي عروبة، وذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة (١٥٥هـ).

انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٧٣)، تهذيب التهذيب (٤/ ٥٦).

(٢) هو أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري، أصله من يهود اليمن، وأسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوفي في مدينة حمص سنة (٣٢هـ) على أشهر الأقوال، وعُرف كعب بالنقل عن أهل الكتاب دون أن يتحرى الصواب فيما ينقل.

انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨٩)، تهذيب التهذيب (٨/ ٣٩٣).

(٣) هو وهب بن منبه اليماني التابعي أبو عبدالله، ولد باليمن سنة (٣٤هـ) في خلافة عثمان، واشتهر بالنقل دون تحري، ونسب إليه الموضوعون كثيراً من الروايات الموضوعية، توفي سنة (١١٠هـ).

انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٤٤).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦، بتصرف، ويراجع تفسير الطبري: ٩/ ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧٦، ورواه الطبري في تفسيره: ٩/ ١٤٦.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧٦.

وهذه الرواية من طريق ابن إسحاق^(١)، وهو مدلس، وقد عنعن، وهو من الإسرائيليات^(٢).

يقول ابن كثير بعد أن ذكر هذه الآثار والأقوال المروية: «وهذه الآثار يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب»^(٣)، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب، فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم»^(٤).

وأخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ.

ومنها ما علمنا كذبه بما دل عليه خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»^(٥).

وهو الذي لا يصدق ولا يكذب، لقوله ﷺ: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، وهذا الأثر هو من القسم الثاني، أو الثالث، فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي؛ فإنه يراه من القسم الثالث.

ثم يذكر ابن كثير رأيه في هذه المسألة فيقول: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري -

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المدني نزل العراق، وإمام المغازي رأى أنس ﷺ قال ابن حجر: صدوق يدلس وقال ابن معين هو ثقة، وليس بحجة، وقال أحمد بن حنبل: هو حسن الحديث، وقال شعبة: هو أمير المؤمنين في الحديث، توفي سنة (١٥٠هـ)، وقيل (١٥١هـ)، وقيل (١٥٢هـ).

انظر: تقريب التهذيب (٤٦٧/١)، الكاشف (١٥٦/٢)، المغني في الضعفاء (٥٥٢/٢)، والعبر للذهبي (٢١٥/١) ..

(٢) انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: ٤١٥/١.

(٣) تفسير ابن كثير (٢٧٦ / ٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء حديث رقم (٦٩٢٨)، (٢٦٧٩/٦).

(٥) الحديث في البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل حديث رقم (٣٢٧٤)، (١٢٧٥/٣).

رحمه الله تعالى - في هذا، وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء، وإنما المراد المشركون من ذريته، ولهذا قال تعالى: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاتطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾^(١).

ومعلوم أن المصابيح، وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن. والله أعلم^(٢).

وقال المفسرون: جعلوا له شركاء في الاسم لا في العبادة، قال بذلك ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين^(٣).

ويقول القرطبي - رحمه الله تعالى - : «قال المفسرون: كان شركاً في التسمية والصفة، لا في العبودية والربوبية»^(٤).

ويقول محمد رشيد^(٥) رضا صاحب «تفسير المنار»: «وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة، وفيها زيادات خرافية تشهد عليها بأنها من الدسائس الإسرائيلية، وهذه الآثار يعدها بعض العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة؛ لأنها لا تقال بالرأي.

والذي نعتقده، وجرينا عليه في التفسير أن كل ما هو مظنة للإسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، فهي لا يوثق بها، فإن كانت مع ذلك مشتملة على ما ينكره الدين أو

(١) سورة الملك: الآية ٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٢٧٦ - ٢٧٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/١٤٨).

(٤) تفسير القرطبي (٧/٣٣٨).

(٥) هو محمد رشيد علي رضا محمد شمس الدين القلموني البغدادي الأصل الحسيني النسب، من الكتّاب والعلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، لازم الشيخ محمد عبده، وتلمذ على يديه، له العديد من المؤلفات كتفسير المنار، ويسر الإسلام وأصول التشريع، وغيرها من المصنفات، توفي سنة (١٩٣٥ م).

انظر: معجم المطبوعات (٢/١٦٧٨)، الأعلام (٦/١٢٦)، أعلام التراث في العصر الحديث (ص ٦٠).

العلم الصحيح ؛ قطعنا ببطلانها ، وكونها دسيسة إسرائيلية ، ومنها ما نحن فيه ، ففيه طعن صريح في آدم وحواء عليهما السلام ، ورمي لهما بالشرك ، ولذلك رفضها بعض المفسرين ...»^(١).

وذهب بعض المفسرين ، كصاحب كتاب (تفسير فتح البيان)^(٢) إلى أن الشرك لم يقع من آدم ﷺ ؛ لأن الأنبياء معصومون ، وإنما وقع الشرك من حواء ، واستدل على ذلك بظاهر الحديث المروي عن سمرة ، والذي سبق ذكره ، حيث أورده وعلق عليه بقوله :

«وفيه دليل على أن الجاعل شركاء فيما آتاهما هو حواء ، دون آدم ، وقوله : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاء ﴾ بصيغة التثنية لا ينافي ذلك ؛ لأنه قد يسند فعل الواحد إلى الاثنين ، بل إلى جماعة ، وهو شائع في كلام العرب ، وفي الكتاب العزيز من ذلك كثير ، قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾^(٣) ، ثم قال في هذه السورة : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾^(٤) ... الخ»^(٥).

- وذهب البعض الآخر إلى أن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أنه عام في جنس الذكر والأنثى ، وليس في آدم وحواء فقط.

كما ذكر ذلك صاحب (تفسير المنار) نقلاً عن صاحب (الانتصاف على الكشاف) ، قوله : «والأسلم والأقرب أن يكون المراد والله أعلم : جنس الذكر والأنثى ، ولا يقصد فيه إلى معين ، وكأن المعنى خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا

(١) تفسير المنار (٤٣١/٩).

(٢) هو صديق خان بن حسن بن علي لطف الله الحسيني البخاري القنوجي ، نسبة إلى قنوج وهي من بلاد الهند ، ولد سنة (١٢٤٨هـ) في بيت صالح ، ورحل في طلب العلم ، وتلمذ على أيدي كبار علماء الهند ، وله مؤلفات كثيرة ، منها : فتح البيان في مقاصد القرآن ، ونيل المرام من تفسير آيات الأحكام ، وحسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة ، توفي رحمه الله سنة (١٣٠٧هـ).

انظر : معجم المطبوعات (٢ / ١٢٠١) ، الأعلام (٦ / ١٦٧) ، نثر الجواهر والدرر (٢ / ١٢٤٤).

(٣) سورة البقرة : الآية ٣٧.

(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٣.

(٥) تفسير فتح البيان (٢ / ٥٦٤ - ٥٦٥).

إليه، فما تغشى الجنس الذي هو الذكر، الجنس الذي هو أنثى، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم^(١)، كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾^(٢).

- وذهب البعض إلى أن النفس الواحدة المذكورة في الآية، هي نفس قصي^(٣) بن كلاب، وكانت له زوجة عريية قرشية، وطلب من الله تعالى الولد؛ فزرعهما أربعة بنين، فسميا أولادهما: عبد مناف، وعبد شمس، وعبد العزى، وعبد الدار، وهذا القول ذكره بعض المفسرين، كالإمام النسفي^(٤)، والإمام أبي حيان الأندلسي^(٥)، وذكره أيضاً الزمخشري في تفسيره، وقواه وحسنه^(٦)، وأيضاً الرازي ذكره في تفسيره^(٧)، وذكره الألوسي في تفسيره (روح المعاني)، إلا أنه اعترض عليه بثلاثة اعتراضات، هي:

«أن المخاطبين لم يخلقوا من نفس قصي لا كلهم، ولا معظمهم، وأن زوجة قصي ليست قرشية، وإنما كانت بنت سيد مكة من خزاعة^(٨)، وقريش إذ ذاك متفرون ليسوا في مكة. وأيضاً من أين العلم أنهما وعدا عند الحمل أن يكونا شاكرين الله رب العالمين، ولا كفران أشد من الكفر الذي كانا عليه؟ وما مثل من فسر بذلك إلا كمن عمّر قصرًا فهدم مصرًا^(٩)».

(١) تفسير المنار (٤٣١/٩)، وذكره الألوسي في تفسيره (١٤١/٩).

(٢) سورة مريم: الآية ٦٦.

(٣) هو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، تولى أمر مكة، وكان أول من أصاب ملكاً من بني كعب بن لؤي، وكانت إليه الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، فحاز شرف مكة كله..

انظر: الطبقات الكبرى (١/٦٦)، السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٣٧ - ٢٤٨).

(٤) انظر: تفسير النسفي (٢٨٥١).

(٥) انظر: تفسير البحر المحيط (٤/٤٣٨).

(٦) انظر: تفسير الكشاف (٢/١٧٧).

(٧) انظر: تفسير الرازي (١٥/٧١).

(٨) هي حبي بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي. انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٣٣).

(٩) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (١٤١/٩).

والمرجح - والله أعلم - ما ذكره الإمام ابن كثير، أن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. أنها نزلت في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام بعد ذلك إلى ذريتهما ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ {١٩٠} أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ {١٩١}﴾^(١).

فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة للحديث عما بعد ذلك عن المشركين، الذين وقعوا في الشرك من ذريتهما، والله أعلم.

- ومن الأدلة التي ذكرت خلق حواء عليها السلام قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنى تُضْرَفُونَ﴾^(٢).

استدل ﷻ بهذه الآيات، والآيات السابقة عليها وهي قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾^(٣).

استدل ﷻ على خلق السموات والأرض، وتكوير الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وكذلك خلق الناس، وبثهم على كثرة عددهم من نفس واحدة، وكذلك خلق الأنعام، كلها دلائل على وحدانيته ﷻ وكمال قدرته، وعظم حكمته وعزته^(٤).

فيقول تعالى: خلقكم أيها الناس من نفس واحدة، يعني من آدم، ثم جعلت منها - أي

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٩٠ - ١٩١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ٥.

(٤) انظر: تفسير النسفي (٤/٤٧).

من نفس آدم - زوجها، يقول: ثم جعل من آدم زوجة حواء، وذلك أن الله تعالى خلقها من ضلع من أضلاعه^(١)، كما سبق بيان ذلك.

فهاتان الآياتان: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؛ هما آيتان من جملة الآيات التي عددها سبحانه، دالاً على وحدانيته، وقدرته على تشيعب هذا الخلق الفائق للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيراه^(٢)، إلا أن إحداها جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجرِها العادة، ولم تُخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها، فضلاً ومزية، وتراخيتها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال، والمنزلة لا من التراخي، في الوجود^(٣).

وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة، كأنه قيل خلقكم من نفس واحدة، ثم شفعا الله بزواج، وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء، وهذا هو الذي اختاره الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية، بقوله: «فإن قال قائل: وكيف خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها وإنما خلق ولد آدم من آدم وزوجته، ولا شك أن الوالدين قبل الولد، فإن في ذلك أقوالاً:

أحدها: أن يقال: قيل ذلك لأنه روي عن رسول الله ﷺ، أن الله لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج كل نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة^(٤)، ثم أسكنه بعد ذلك الجنة، وخلق حواء من ضلع من أضلاعه، فهذا قول ... إلى قوله

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩٣/٢٣)، الكشاف (١١٤/٤).

(٢) القصيرى: أسفل الأضلاع.

انظر: معجم مقاييس اللغة (٩٦/٥) مادة (قصر).

(٣) انظر: الكشاف (١١٥/٤).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الأعراف، رقم الحديث

(٣٠٧٦)، (٢٦٧/٥)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وقد روي عن غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ورواه

أحمد في مسنده، عن ابن عباس (٢٥١/١).

والقول الذي يقوله أهل العلم أولى بالصواب ، وهو الذي ذكرت أنه يقال : إن الله أخرج ذرية آدم من صلبه قبل أن يخلق حواء ، وبذلك جاءت الرواية عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ^(١) .

ثم انتقلت الآية من الحديث عن خلق الإنسان إلى خلق الأنعام ، فكما أن خلق الإنسان آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرته سبحانه ، فكذلك خلق الأنعام آية باهرة ، ومن نعم الله العظيمة على عباده ، قال تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾^(٢) .

وقال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾^(٣) الآية .

وغيرها في كتاب الله ﷻ من الآيات التي تدل على تسخير الأنعام للإنسان ، وأنها من النعم التي سخرها الله لعباده في هذه الأرض ، وآيات دلت على عظيم خلق الله في خلق الأنعام .

وفي الآيات : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر سبحانه عن الأنعام بالنزول ؛ لأنها تعيش على الماء ، والماء ينزل من السماء ، وهذا يُسمى بالتدرج ، وقيل عبر عن خلق الأنعام بالإنزال ؛ لأن خلق الأنعام صدر بأمر إلهي ، وقيل أنزل : أنشأ ، وجعل ، وقال سعيد^(٤) بن جبير «خلق»^(٥) .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية : «والأنعام تُختلف بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء

(١) تفسير الطبري باختصار (٢٣/١٩٤) ويراجع تفسير الكشاف (٤/١١٦) .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٢١ .

(٣) سورة النحل : الآيات : ٥ - ٦ .

(٤) هو سعيد بن جبير أبو عبد الله الأسدي بالولاء ، الكوفي التابعي عالم بالحديث ، والتفسير ، والقراءات ، والفقه ، قتله الحجاج بسبب ثباته على كلمة الحق ، وذلك سنة (٩٥هـ) .

انظر : تقريب التهذيب (١/٢٣٤) ، وشذرات الذهب (١/١٠٨) .

(٥) انظر : تفسير الرازي (٢٦/٢١٣) ، وتفسير القرطبي (١٥/٢٣٥) .

من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقول أنزل، ولم يقل: نزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلق فحولها إنائها عند الوطاء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى أسفل»^(١).

فهذه الآيات التي سبق ذكرها، ذكرت خلق حواء عليها السلام في سورة النساء، وسورة الأعراف، وسورة الزمر، وبينت أن حواء خلقت من آدم عليه الصلاة والسلام زوجها، والسنة بينت أنها خلقت من ضلع من أضلاعه عليه الصلاة والسلام.

ودل ذلك على عظيم قدرة الله ﷻ، وعجائب صنعه ﷻ، وكذلك فإن في خلق حواء من أحد أضلاع آدم للدليل على تبعيتها له، وفي ذلك حكمة بليغة، فقد جعل الله الزوجين سكناً لبعضهما، كما قال سبحانه: (وخلق منها زوجها ليسكن إليها)، وأما عن كيفية خلق حواء فهي من الحقائق الغيبية التي لا علم لنا بها، ولا يصح السؤال عن الكيفية التي خلقت بها حواء من أحد أضلاع آدم، فهي في علم الغيب الذي لا يعلم به إلا الله الخالق سبحانه، قال ﷻ: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذَلُونَ﴾^(٢).

- سكنى حواء مع آدم الجنة:

الآيات التي ذكرت وبينت سكنى حواء عليها السلام مع زوجها آدم الجنة، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، للإمام ابن أبي العز بن علي (١٩٦/١).

(٢) سورة الكهف: الآية ٥١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٩.

وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ {١١٥} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ {١١٦} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ {١١٧} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ {١١٨} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾^(١).

أولاً: ما ورد في سورة البقرة قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بما أكرم به آدم، فبعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس، أدخله الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما يشاء رغداً هنيئاً واسعاً طيباً^(٢).

قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾، فعل أمر من السكن، وفي ذلك دليل على عدم الإقامة، يقول القرطبي - رحمه الله -: «(في قوله سبحانه (اسكن) تنبيه على الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكاً، ولهذا قال بعض العارفين: السكنى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخلهما في الجنة كان دخول سكنى لا دخول إقامة»^(٣)، وهذا أمر من الله ﷻ لآدم وزوجه بالسكن في الجنة^(٤).

واختلف المفسرون في الوقت الذي جعلت حواء لآدم ﷻ سكناً، فعن ابن عباس، وابن مسعود، وأناس من أصحاب النبي ﷺ: «أخرج إبليس من الجنة حين لعن، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً، ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومةً، فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسأل من أنت؟ فقالت: امرأة، قال: ولم خلقت، قالت: تسكن إليّ، قالت له الملائكة: ينظرون ما بلغ علمه، ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي»، فقال الله له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾. فهذا الخبر يدل على أن حواء خلقت بعد أن سكن آدم الجنة، فجعلت له

(١) سورة طه: الآية ١١٥ - ١١٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٧٩/١.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٩٩/١.

(٤) انظر: تفسير النسفي: ٣٨/١.

سكناً^(١).

إلا أن سياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، قال محمد بن إسحاق^(٢): لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم، وعلمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة؛ ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنة، وهب من نومه، رآها إلى جنبه، فقال: فيما يزعمون، والله أعلم: لحمي ودمي وزوجتي، فسكن إليها، فلما زوجه الله، وجعل له سكناً من نفسه، قال له^(٤): ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

ويقال لامرأة الرجل زوجه، وزوجته، الزوجة بالهاء أكثر في كلام العرب منها بغير الهاء، والزوج بغير الهاء، يقال: إنه لغة الأزد، فأما الزوج الذي لا اختلاف فيه بين العرب فهو زوج المرأة^(٦).

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم، أهى في السماء أم في الأرض؟^(٧)، وسوف يكون هناك مزيد بيان لذلك في هذا البحث في موضعه بإذن الله.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٠/١، وتفسير ابن كثير: ٨٠/١، وانظر: آكام المرجان: ٢٦٢/١، الدر المنثور: ١٢٧/١.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) سورة البقرة قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ {٣١} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْآيَاتان: ٣١ - ٣٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٨٠/١). وتفسير الطبري (٢٣٠/١)

(٥) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٠/١.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ٧٩/١.

وقوله تعالى لآدم وزوجه: ﴿وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، والرغد من العيش الكثير الواسع الذي لا تعب فيه، ويقال: هو في رغد من العيش رزق واسع، وعيشة رغد واسعة طيبة^(١).

يقول ابن جرير الطبري: «الرغد فإنه الواسع من العيش، الهني الذي لا يعني صاحبه، يقال: أرغد فلان إذا أصاب واسعاً من العيش الهنيء».

فمعنى الآية: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا من الجنة رزقاً واسعاً هنيئاً من العيش، حيث شئتما^(٢).

وإنما وجه الخطاب ﷺ إليهما، تعميماً للتشريف والترفيه، ومبالغة في إزالة العلل، والأعذار، وإيداناً بتساويهما في مباشرة الأمور به^(٣).

ويقول أبو السعود في تفسيره: قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، وفي هذا إطلاق كلي، حيث أبيع لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل، ولم يحظر عليهما بعض الأكل، ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات، حتى لا يبقى لهما عذر في تناول ما منعا منه^(٤) بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

والقرب في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾: هو الدنو، وقرب الشيء منا قُرباً، وقراية، وقربة، وقربى، ويقال القرب: في المكان، والقربة في المنزلة.

فنهاهما الله ﷻ عن الأكل من الشجرة، إلا أنه سبحانه نهى عن قربانها مبالغة، ولهذا جعل جل شأنه العصيان المرتب على الأكل مرتباً عليه^(٥) إذ إن في النهي عن القرب من الشيء،

(١) لسان العرب: ٣/١٨٠، المعجم الوسيط: ١/٣٥٧.

(٢) تفسير الطبري: ١/٢٣٠.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ١/٩٠.

(٤) تفسير أبي السعود: (١/٩٠ - ٩١)، وانظر: ايضاً تفسير الكشاف (١/١٥٦).

(٥) انظر: تفسير روح المعاني: ١/٢٣٤.

نهى عن فعله، من باب أولى، ولهذا قال ﷺ: «وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى»^(١)، وقوله: «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»، أي: من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله^(٢).

وقد اختلف في عين الشجرة التي نُهي عن الأكل منها، وليس في القرآن ولا في السنة أي دليل أو نص يدل على تعيينها، والله تعالى أعلم بحقيقتها، فالصواب في ذلك أن يقال إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به وليس هناك ما يدل على تعيين هذه الشجرة؛ لأن الله لم يضع دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة.

وقد قيل هي شجرة البُر، وقيل شجرة العنب، وقيل شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك إن علمه عالم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، ولو كان في معرفتها فائدة، وسبيل إلى رضا الله لبينها سبحانه كما بين غيرها^(٣).

ثانياً: في سورة الأعراف قوله تعالى: «وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»^(٤).

فبعد أن طرد الله ﷻ إبليس من الجنة؛ لامتناعه عن السجود لآدم كما أمر الله، وتكبره وتعالیه بقوله لله تعالى عندما سأله عن سبب الامتناع: «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»^(٥)، فكانه امتنع من السجود؛ لأنه بزعمه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين وجه الخيرية بأنه خلق من نار، والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم، فنظر اللعين إلى أصل العنصر الذي خلق منه، ولم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم، وهو أن

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٢.

(٢) انظر: تفسير الكشاف: ١٥٦/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٣٣/١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٢.

الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه^(١).

أسكن الله تعالى آدم وزوجه في الجنة، وأباح لهما التمتع والأكل منها حيث ما شاءوا، إلا من شجرة عينها لهما، ونهاهما عن الأكل منها.

والنداء في الآية بقوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، يفيد الاهتمام بالأمر بعده، وهو أمره سبحانه بالسكنى، والآية ترشد إلى أن المرأة تابعة للرجل في السكنى والمعيشة، باقتضاء الفطرة، وهذا هو الحق الواقع الذي يُعد ما خالفه شذوذاً^(٢) ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والنهي عن قرب الشيء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أبلغ من النهي عنه، فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري به، وتفضي إليه ورعاً واحتياطاً^(٣).

ففي سورة البقرة يقول ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

وفي سورة الأعراف يقول ﷻ: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

فقوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ في سورة البقرة بالواو، وفي الأعراف ﴿فَكُلَا﴾ بالفاء، وقوله: ﴿اسْكُنْ﴾ في الآيتين ليس بأمر بالسكون الذي هو ضد الحركة، وإنما الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامة، وذلك يستدعي زماناً ممتداً، فلم يصلح إلا بالواو؛ لأن المعنى جمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة؛ لأن الفاء للتعقيب وللترتيب، والذي في الأعراف من

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٢٠٤.

(٢) انظر: تفسير المنار: ٨/٣٠٦.

(٣) تفسير المنار (٨/٣٠٦).

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩.

السكنى الذي معناها اتخاذ الموضع مسكناً ؛ لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا ﴾^(١) ، وخاطب آدم فقال : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ، أي اتخذها لأنفسكما مسكناً ، ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ ، فكانت الفاء أولى ؛ لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتداً ، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه ، بل يقع الأكل عقبه ، وزاد في البقرة ﴿ رَعْدًا ﴾ لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله : ﴿ وَقُلْنَا ﴾ بخلاف سورة الأعراف^(٢) .

ثالثاً : الآيات الواردة في سورة طه ، قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى { ١١٧ } إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى { ١١٨ } وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾^(٣) .

بعد أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى أن يسجد له ، فقال الله : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، ولذلك من شأنه^(٤) لم يسجد لك ، وخالف أمري في ذلك وعصاني ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به ، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما وطاعتكما له من الجنة ، ﴿ فَتَشْقَى ﴾ ، فيكون عيشك من كد يدك ، فذلك شقاؤه الذي حذر به^(٥) .

وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج ؛ لأن في ضمن شقاء الرجل شقاءهم ، والرجل وهو قيم أهله ، وأميرهم ، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة ، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت ، وذلك معصوب برأس الرجل ، وهو راجع إليه^(٦) .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨ .

(٢) انظر : أسرار التكرار في القرآن : ٢٥/١ - ٢٦ .

(٣) سورة طه : الآية ١١٧ - ١١٩ .

(٤) شأنه : معناه بغض ، شأنه ، شأننا ، وشأننا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ ﴾ سورة المائدة : الآية ٢ ، أي : بغض قوم ، انظر : تاج العروس : ٢٨٦/١ .

(٥) انظر : تفسير الطبري : ٢٢٢/١٦ .

(٦) تفسير الكشاف : ٩٢/٣ .

يقول القرطبي: «وإنما خصه بذكر الشقاء، ولم يقل فتشقيان يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم، كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية، وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة:

الطعام، والشراب، والكسوة، والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها؛ لأن بها إقامة الحياة ودوامها...»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾، أي أن لك في الجنة أن تتمتعاً بأنواع المعاش، وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية، والملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري، أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له^(٢).

وهكذا قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾، فإن نفي الظمأ يستلزم حصول الري، ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحى، يقال: ضحى الرجل يضحى ضحواً، إذا برز للشمس، فأصابه حرها^(٣)، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش، وتعب الكد في تحصيله، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع، والري، والكسوة، والمسكن، وفي هذا إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجته من الجنة إلى الدنيا، فيحل به التعب والنصب، بما يدفع الجوع والعري والظمأ والضحو^(٤).

من الآيات السابقة تبين أن آدم عليه الصلاة والسلام وزوجته حواء أسكنا الجنة، وأباح الله لهما الأكل من ثمارها، والتمتع بما فيها، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة، وقد حذرهما الله عَنْكَ من إبليس ووسوسته، وأنه قد يكون سبباً في خروجهما من الجنة.

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٣/١١.

(٢) انظر: تفسير فتح القدير: ٣٨٩/٣.

(٣) انظر: لسان العرب (٤٧٤/١٤) مادة (ضحا)، ومعجم مقاييس اللغة (٥٣٥/١) نفس المادة.

(٤) انظر: تفسير فتح القدير ٣٨٩/٣ - ٣٩٠.

- وسوسة الشيطان لآدم وزوجه:

لما رأى إبليس ما أنعم الله به على آدم من أمر الملائكة بالسجود، ومن إسكان الله له وزوجه في الجنة، حسدهما على ذلك، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ماهما فيه من النعمة واللباس الحسن^(١).

ولقد استطاع إبليس إغواء آدم عليه الصلاة والسلام وزوجته حواء بوسوسته وكيدته، وذكر القرآن الكريم كيف تمكن إبليس من آدم عليه الصلاة والسلام وزوجته حواء، وكيف أغواهما في عدة مواضع، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(٢)، وقوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ {٢٠} وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ {٢١} فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ^(٣).

وقال عَلَيْكَ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ {١٢٠} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى^(٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، والزلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد، يقال: زلت رجل، تزل، والزلة المكان الزلق، وقيل للذنب من غير قصد: زلة، تشبيهاً بزلة الرجل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٠٦).

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠ - ٢٢.

(٤) سورة طه: الآية ١٢٠ - ١٢١.

كَسْبُوا^(١)، أي: استجرهم الشيطان حتى زلوا^(٢).

ويقول الزمخشري في كتابه (أساس البلاغة): «زل عن الصخرة، وفي الطين زللاً، وهذه مزلة من المزال، ومن المجاز: «زل في قوله ورأيه زلة، وزللاً، وأزله الشيطان عن الحق، واستزله، وزل من الشهر كذا أي: مضى منه»^(٣).

فالزلة: تستعمل في الأصل لزلة القدم، واستعملت في زلة الرأي لما يترتب على الزلة من الضرر.

واختلف في قراءة: «أَزْلَهُمَا»، فقرأها حمزة (فأزلهما) بألف بعد الزاي، ولام مخففة من الزوال، أي: أن الشيطان نَحَّاهما وأبعدهما عن الجنة.

وقرأ الباقر: (فأزلهما) مشددة اللام بغير ألف، بمعنى: استزلهما، من قولك: زل الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه، وأزله غيره: إذا سبب ما يزل من أجله في دينه أو دنياه^(٤).

وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ: (فأزلهما)؛ لأن الله ﷻ قد أخبر بأن إبليس أخرجهما مما كانا فيه، وذلك هو معنى قوله: «فَأَزْلَهُمَا»، فلا وجه إذا كان معنى الإزالة معنى التنحية والإخراج أن يقال: (فأزلهما) الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه، فيكون كقوله: (فأزلهما) الشيطان عنها فأزلهما مما كانا فيه) ولكن المعنى المفهوم أن يقال: فاستزلهما إبليس عن طاعة الله، كما قال جل ثناؤه: «فَأَزْلَهُمَا الشَّيْطَانُ»، وقرأ بذلك القراء فأخرجهما باستزاله إياهما من الجنة، ولذلك قال سبحانه: «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ» أي: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهني والراحة^(٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٢١٤/١، مادة (زل).

(٣) أساس البلاغة؛ للزمخشري: ٢٧٤/١.

(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر: ١٧٦/١، السبعة في القراءات: ١٥٤/١، وانظر: تفسير الطبري: ٢٣٤/١ - ٢٣٥.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: ٨١/١.

وذكر سبحانه كيف وسوس الشيطان لآدم عليه الصلاة والسلام وزوجه حواء في مواضع آخر من كتابه، ففي سورة الأعراف يقول سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ {٢٠} وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ {٢١} فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ^(١).

الوسوسة من الوسواس، والوسواس بالفتح: اسم من (وسوست) إليه نفسه إذا حدثته، وبالكسر: الوسواس مصدر (وسوس) متعد بإلى، وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾^(٢)، اللام بمعنى إلى، ويقال لما يخطر بالقلب من شر، ولما لا خير فيه (وسواس)^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾، يعني: (فوسوس إليهما)، وتلك الوسوسة كانت قوله لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

وقيل: وسوس لهما، معناها: فوسوس الشيطان من نفسه إليهما بالكذب من القيل وذلك ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾، وألقى إليهما وسوسته ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ليبيدي لهما ما واره الله عنهما من عوراتهما، فغطاه بستره الذي ستره عليهما^(٤).

فقوله جل ثناؤه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، وهو إبليس، إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾، أي: ليظهر لهما، ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾، أي: ستر وغطى عنهما، ﴿مِنْ

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠ - ٢٢.

(٢) وسوس إليه الشيطان: أي ألقى في نفسه شراً، يقال: لما يقع في النفس من عمل الخير إلهام، ولما يقع من الشر ما لا خير فيه وسواس.. انظر: غريب القرآن: ٤٨٣/١.

(٣) المصباح المنير: ٦٥٨/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٤٠/٨.

سَوَاءَتِهِمَا»، أي: عوراتهما، مأخوذ من المواراة، يقال: واريته أي سترته، قال تعالى: ﴿يُؤَارِي سَوَاءَةَ أَخِيهِ﴾^(١).

وسمي الفرج عورة؛ لأن إظهاره يسوء صاحبه، ودل هذا على قبح كشفها، فقيل: إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما، إذ كان عليهما نور، يستر عوراتهما، فزال النور، وقيل: كان عليها ثوب فتهافت، والله أعلم^(٢).

يقول القاسمي: «في الآية تنبيه على أن كشف العورة من عظام الأمور، وأنه مستهجن في الطباع، ولذلك سميت سواة؛ لأنه يسوء صاحبها كشفها»^(٣).

يقول الرازي: «فيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم ألا ترى أنهما كيف بادرا إلى الستر لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة»^(٤).

وقال إبليس كذباً وافتراءً: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، أي: لئلا تكونا ملكين، أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، أي: حلف لهما بالله إني ﴿لَكُمَْا لِمَنْ النَّاصِحِينَ﴾، فإني من قبلكما ها هنا، وأعلم بهذا المكان فخدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله.

وقال قتادة في الآية: «حلف بالله إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعان أرشدكما»، وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له^(٥).

وأراد إبليس من ذلك الكلام هو أن تكونا بمنزلة الملائكة إن أكلتما منها، أو تكونا من الخالدين إن أكلتما، فرغبهما بأن أوهمهما، وأن من أكلها صار كذلك، وإنه تعالى إنما نهاهما

(١) انظر: تفسير الجلالين: ١/١٩٥، تفسير القرطبي: ٧/١٧٨، تفسير الرازي: ١٤/٣٨ - ٣٩.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٧/١٧٨.

(٣) تفسير القاسمي: ٣/٥٠٤.

(٤) تفسير الرازي: ١٤/٤١.

(٥) تفسير ابن كثير: ٢/٢٠٦ - ٢٠٧.

عنها لكي لا يكونا بمنزلة الملائكة^(١).

فقد أوقعهما في الهلاك، قال ابن عباس غرهما باليمين، وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً فغرهما بوسوته، وقسمه لهما^(٢).

فخدعهما بأسلوبه، بأن أقسم كاذباً؛ ليصدقاه لأنهما كانا يعتقدان أنه لا يحلف أحد بالله كذباً. ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾، يقال: أدلى دلوه أرسلها، ودلاها أخرجها، وقيل: دلاهما: أي دللها، من الدالة: وهي الجرأة، أي: جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة^(٣).

ويقول الرازي في تفسيره: «قوله ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾، لهذه الكلمة أصلين:

أحدهما: أصل الرجل العطشان يدلي رجليه في البئر ليأخذ الماء، فلا يجد فيها ماء، فوضعت التدللية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه، فيقال: دلاه إذا أطمعه.

الثاني: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: جرأهما إبليس على أكل الشجرة بغرور، والأصل فيه دللها من الدل، والدالة: وهي الجرأة^(٤).

وذكر بعض المفسرين ان معنى ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، فنبه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدللية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل^(٥).

فإن إبليس ما زال يخدعهما، ويرغبهما في الأكل من الشجرة، المنهي عنها، والقسم على أنه ناصح لهما بذلك، حتى انخدعا، وأكلا من الشجرة.

(١) انظر: تفسير الرازي: ٣٩/١٤.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٨٠/٧.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٨٠/٧.

(٤) تفسير الرازي: ٤١/١٤.

(٥) انظر: تفسير البيضاوي: ١٣/٣.

- ما جرى لآدم وزوجه بعد الأكل من الشجرة:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، أي: أنهما لما أكلا من الشجرة المنهي عنها، أخذتهما العقوبة، وشؤم المعصية، فتهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما^(١).

ولا دليل على نوع اللباس الذي كانا يلبسانه في الجنة، ولم يصح به أثر عن المعصوم ﷺ. والذي يبدو والله أعلم، أن نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام وزوجته حواء كانا يسترهما لباس في الجنة، ويستر عوراتهما، وأن هذا اللباس نُزع عنهما بعد أن أكلا من الشجرة التي قد نهاهما الله عنها، فبدت لهما سواتهما، والله وحده يعلم ما حقيقة هذا اللباس^(٢).

﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، أي أقبلا، وجعلا عليهما من ورق الجنة ليواريا سواتهما^(٣).

يقول الراغب في المفردات: «طفق يفعل كذا، كقولك: أخذ يفعل كذا، ويستعمل في الإيجاب دون النفي، فلا يقال ما طفق، قال: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾»^(٤).

وقال: ﴿وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ﴾^(٥).. في هذه الآية^(٦).

والمعنى أنهما أخذتا يقطفان الورق، يرقعان، ويلزقان، ورقة فوق ورقة؛ ليستترا به^(٧).

يقول الزمخشري: «طفقا يخصفان، ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها كما

(١) انظر: تفسير القاسمي: ٥٠٦/٣.

(٢) انظر: تفسير المنار: ٣٠٩/٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٤٢/٨.

(٤) سورة ص: الآية ٣٣.

(٥) خصف: أي: يجعلان عليهما خصفة، وهي أوراق، ومنه قيل: لجلة التمر خصفة، والثياب الغليظة جمعه خُصف، ولما يطرق به الخف خصفة، وخصفت النعل بالخصف... انظر: «المفردات في غريب القرآن»: ١٤٩/١.

(٦) المفردات في غريب القرآن؛ للراغب: ٣٠٥/١.

(٧) انظر: تفسير القرطبي: ١٨١/٧، تفسير القاسمي: ٥٠٦/٣.

يخصف النعل بأن يجعل طرفه على طرفه وتوثق بالسيور»^(١).

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، يذكرهما بالنهي، السابق والأمر، والتجنب عن الشيطان^(٢)، قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٣).

والاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ، أي فقال لهما ربهما: ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمراها، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين، ظاهر العداوة يقول: قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسداً وبعياً، فلا تطيعاه لئلا يخرجكما من الجنة^(٤)، وهذا ما ورد في سورة طه في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٥).

وفي قوله تعالى عن معصية آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٦)، أي: وخالف أمر ربه فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها^(٧).

يقول الإمام أبو الفرج الجوزي في تفسيره زاد المسير: «وقد غلط بعض المفسرين، فقال: معنى غوى: أكثر مما أكل من الشجرة، حتى بشم، كما يقال: غوى الفصيل: إذا أكثر من لبن أمه، فبشم فكاد يهلك، وهذا خطأ من وجهين.

أحدهما: أنه لا يقال من البشم غوى يغوي، وإنما يقال غوي يغوى.

والثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾، يدل على أنهما لم يكثرا، ولم تتأخر

(١) تفسير الكشاف؛ للزمخشري: ٩٢/٢.

(٢) انظر: تفسير القاسمي: ٥٠٦/٣.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٤٣/٨. وتفسير الرازي (١٠٩/٢٢).

(٥) سورة طه: الآية ١١٧ - ١١٩.

(٦) سورة طه: الآية ١٢١.

(٧) انظر: تفسير الطبري: ٢٢٤/١٦.

عنهما العقوبة حتى يصلا إلى الإكثار^(١).

كما أنه في سورة الأعراف قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾، فدل على أنهما تناولا اليسير قصداً إلى معرفة طعمه، ولولا أنه ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، لكان ما في قوله (ذاقا) لا يدل على الأكل؛ لأن الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل^(٢).

وقد ورد في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حاج موسى آدم، فقال له، أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك، وأشقيتهم قال: قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره عليّ قبل أن يخلقني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَحَجَّ آدم موسى»^(٣).

- اعتراف آدم وزوجه بالخطيئة، وتوبه الله عليهما:

ذكر تعالى في كتابه الكريم توبة آدم عليه الصلاة والسلام وزوجته حواء من ذلك في أكثر من موضع.

يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٤).

وقال تعالى ذكره: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥).

وقال سبحانه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {١٢١} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ

(١) تفسير زاد المسير: ٣٢٩/٥ - ٣٣٠.

(٢) انظر: تفسير الرازي: ٤١/١٤.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (فلا يخرجكما من الجنة فتشقى)، رقم الحديث (٤٤٦١): ١٧٦٤/٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

وَهَدَىٰ {١٢٢} ﴿١﴾.

والتوبة معناها: الإجابة إلى الله، والأوبة إلى طاعته مما يكره من معصيته^(٢).

وقيل في معنى (تلقى) أخذ، أي أن آدم عليه السلام أخذ من ربه وقيل كلمة (تلقى) من اللقاء، كما يتلقى الرجل الرجل يستقبله عند قدومه من غيبة أو سفر فيكون المعنى بأن الله تعالى لقن آدم كلمات توبة، فتلقاها آدم من ربه وأخذها عنه تائباً، فتاب الله عليه، بقوله إياها، وقبوله إياها من ربه. قيل: وإن هذه الكلمات والتي تلقاها آدم من ربه^(٣) مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤).

أخرج الحاكم في المستدرک على الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قال: أي ربي ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تُسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن تبت، وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. قال فهو قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾^(٥).

وقد قرأ بعضهم: (فتلقى آدم من ربه كلمات)، بنصب آدم، ورفع كلمات فجعل الكلمات هي المتلقية آدم.

وقرأ الباقر برفع آدم، ونصب كلمات «فتلقى آدم ومن ربه كلمات» أي أخذها بالقبول ودعا بها^(٦).

(١) سورة طه: الآيات ١٢١ - ١٢٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٦/١).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٣/١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٤٣/١).

(٥) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كتاب تواريخ

المتقدمين من الأنبياء المرسلين (٤٠٠٢)، (٥٩٤/٢) ذكر آدم عليه السلام.

(٦) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (١٧٦/١).

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى : «فغير جائز عندي في القراءة إلا رفع آدم على أنه المتلقي للكلمات، لإجماع الحجة من القراء، وأهل التأويل من علماء السلف والخلف على توصية التلقي إلى آدم، دون الكلمات»^(١).

وفي الآيات من سورة الأعراف والتي بينت ما دعوا به ربهما لطلب التوبة؛ فيها دليل على اشتراكهما في المعصية، وكذلك اعترافهما بالخطيئة، وطلبهما التوبة والمغفرة والرحمة من الله عز وجل، وقال تعالى عنهما: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، قالها خاشعاً، متضرعاً، وتبعته زوجته بها^(٢)، وإنما اكتفى الله تعالى بذكر توبة آدم دون توبة حواء، بقوله: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ لأنها كانت تبعاً له، وقد ذكرها سبحانه في قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ {١٢١} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ {١٢٢}﴾^(٤).

أي: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه، فزرقه الرجوع إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وتلك هي توبته التي تابها عليه، ﴿وهدى﴾ يقول: هداه للتوبة فوفقه لها^(٥).

وقال عنه عليه السلام في موضع آخر من نفس السورة: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٦).

وهذا العهد المذكور في هذه الآية مجمل، بينه الله في غير هذا الموضع، كقوله في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٤٣/١)، ويراجع تفسير القرطبي (٣٢٦/١).

(٢) تفسير المنار (٣١٠/٨).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٢٥/٣).

(٤) سورة طه: الآيات ١٢١ - ١٢٢.

(٥) تفسير الطبري (٢٢٤/١٦).

(٦) سورة طه: الآية ١١٥.

هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

فقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هو عهده إلى آدم المذكور هنا في سورة طه في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾.

وقوله في سورة الأعراف أيضاً: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

والنسيان المذكور في قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، ففيه للعلماء وجهان معروفان:

أحدهما: أن المراد بالنسيان الترك، وعلى هذا فالمعنى: ترك الوفاء بالعهد، وخالف ما أمره الله به من ترك الأكل من تلك الشجرة.

والثاني: أن المراد بالنسيان في الآية: النسيان الذي هو ضد الذكر؛ لأن إبليس لما أقسم بالله أنه له ناصح فيما دعاه إليه من الأكل من الشجرة، التي نهاه ربه عنها، غره وخدعه بذلك حتى أنساه العهد المذكور، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ {٢١} فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿٣﴾، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه فنسي (٤).

وقد أجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - بعد النبوة - من الكبائر، ومن الصغائر (٥).

أما قبل النبوة: فإنه لا يجوز أن تقع منهم الكبيرة، ولا الصغيرة المنفرة، والرذائل منها،

(١) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩.

(٣) سورة الأعراف: الآيات ٢١ - ٢٢.

(٤) تفسير أضواء البيان (٤/١٠٣ - ١٠٤).

(٥) يراجع تفسير البحر المحيط (١/٥٦٢)، تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/١٢٦)، تفسير الثعالبي

(١/١٠٨)، تفسير فتح القدير (٣/١١٣).

وقد يقع قبل النبوة من الصغائر. وقوله تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ من الآيات التي استند عليها من قال بعدم عصمة الأنبياء من الصغائر التي لا تتعلق بالتبليغ؛ لأنهم يتداركونها بالتوبة والإنابة إلى الله، حتى تصير كأنها لم تكن^(١).

وقد أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ، وفي غير ذلك من الكبائر والصغائر، الرذيلة التي تحط من مرتبتهم، ومن المداومة على الصغائر، هذه الأربعة مجمع عليها^(٢).

وأن الله ﷻ لم يذكر في كتابه العزيز عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه، كما ذكر في قصة آدم عليه السلام.

وإنما ابتلى الله الأنبياء بالذنوب؛ رفعاً لدرجاتهم بالتوبة، وتبليغاً لهم إلى محبته، وفرحه بهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويفرح بتوبة التائب، أشد فرحاً، فالمقصود كمال الغاية، لا نقص البداية.

فإن العبد تكون له الدرجة لا ينالها إلا بما قدره الله له من العمل أو البلاء^(٣).

والأصل إنما هو: عصمة الأنبياء، وأنهم أعلم الناس بالله وبأحكامه، وأشدهم له خشية^(٤).

وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة نادرة، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم، إذ قد يؤخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة، وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع الذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهذبهم، ومدحهم،

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (١٠٥/٤) بتصرف.

(٢) انظر: الخصائص الكبرى (٤٤٩/٢).

(٣) انظر: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٩٠/٢٠).

(٤) طرح الشريب في شرح التقريب (١٨٠/٧).

وزكاهم، واختارهم، واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه^(١).

- خروج آدم وزوجه من الجنة وهبوطهما إلى الأرض:

وبعد أن تاب الله ﷻ على آدم وزوجه حواء، أهبطهما إلى الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ {٣٦} فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {٣٧} قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {٣٨}﴾^(٢).

والملاحظ في هذه الآيات أن الأمر بالهبوط إلى الأرض قد تكرر في قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ وفي قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

قيل: الهبوط الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض.
وقيل كسر الأمر للتأكيد^(٣).

وضعف القول الأول بأنه لو كان كذلك لكان ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ عقب ذكر الهبوط الثاني أولى. وأيضاً قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ يدل على أن الهبوط الثاني أيضاً من الجنة^(٤).

وقيل: إن آدم وحواء لما أتيا بالزلة أمرا بالهبوط، فتابا بعد الأمر بالهبوط، ووقع في قلبهما أن الأمر بالهبوط لما كان بسبب الزلة، فبعد التوبة وجب أن لا يبقى الأمر بالهبوط، فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية ليعلما أن الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلة حتى يزول بزوالها؛ بل الأمر بالهبوط باقٍ بعد التوبة؛ لأن الأمر به كان تحقيقاً للوعد المتقدم في

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٩/١).

(٢) سورة البقرة: الآيات ٣٦ - ٣٨.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٢٧/١)، النسفي (٣٩/١)، زاد المسير (٧٠/١)، تفسير البحر المحيط (٣٢٠/١)، تفسير السمعاني (٧٠/١).

(٤) انظر: تفسير البحر المحيط (٣٢٠/١) بتصرف، وانظر: تفسير الرازي (٢٥/٣).

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) (٢).

والأمر بالهبوط إلى الأرض جاء في موضع بصيغة التثنية، في قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(٣).

وفي ثلاثة مواضع جاء بصيغة الجمع قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٥).

واختلف العلماء في المخاطب هنا ﴿اهبطوا﴾:

ف قيل: آدم وحواء، وجمع الضمير لتنزيلهما منزلة البشر كلهم لاعتبارهم أصل البشرية. واختار الفراء أن المخاطب في الآية هما وذريتهما، فكأنه خاطبهم، ومثله قول إبراهيم: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾.. ثم قال: ﴿وأرنا مناسكنا﴾، فجمع قبل أن تكون ذريته...^(٦).

وقيل: قوله تعالى: ﴿اهبطوا﴾.

خطاب لآدم وحواء، وإبليس، وقيل الحية^(٧).

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٥/٣).

(٣) سورة طه: الآية ١٢٣.

(٤) سورة البقرة: الآيات ٣٦ - ٣٨.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٤.

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء (٣١/١).

(٧) ذكرت عدة روايات من طرق مختلفة ما مفاده: أن إبليس لما أراد أن يستزل آدم وزوجه ليأكلا من الشجرة المنهي عنها، دخل في جوف الحية، وكانت للحية أربعة قوائم، كأنها بجثية، من أحسن دابة خلقها الله، فلما دخلت الحية الجنة، خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء، فقال: انظر: إلى هذه الشجرة، ما أطيب طعمها، فأخذت حواء فأكلت منها، ثم ذهبت إلى آدم، فقالت له مثل ذلك، حتى أكل منها،

واختار بعض المفسرين أن المخاطب بالهبوط آدم وحواء؛ لأن الخطاب جاء بصيغة التثنية على حقيقته في قوله: (اهبطا) وبصيغة الجمع، لأن أقل الجمع أثنان عند البعض من أئمة العربية، وقال بعضهم: يمكن أن يقال إن الأمر بالهبوط يشمل آدم وحواء، وإبليس لأن العمدة في العداوة بين آدم وإبليس فهو مسلط على آدم وحواء وذريتهما إلى قيام الساعة^(١).

والصحيح أنه لآدم وحواء، والمراد هما وذريتهما، لأنهما لما كانا أصل الإنس، جعلتا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾^(٢)، ويدل على ذلك - أيضاً - قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾^(٣)، ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم. ومعنى ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾: ما عليه الناس من التعادي، والتباغي، وتضليل بعضهم لبعض^(٤).

- ما قيل في صفة استزلال الشيطان لآدم وزوجته:

أما عن صفة استزلال إبليس عدو الله، آدم وزوجته، حتى أخرجهما من الجنة، وكيف توصل على ذلك، وهو قد أخرج منها مذبذباً ومدحوراً، وكيف استطاع ذلك وهو خارج الجنة؟ فقد رويت الأخبار المتعددة في ذلك:

فقيل: إنه دخل في فم الحية متخفياً، وعلى هذا عوقبت الحية بقطع قوائمها.

وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما في الأرض وهما في السماء، ذكر ذلك عدد من

المفسرين.

فبدت لهما سوءاتهما، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه... وسيأتي لذلك مزيد بيان بإذن الله في موضعه. انظر: تفسير ابن جرير (٢٣٥/١).

(١) انظر: تفسير فتح القدير (٦٨/١)، و تفسير ابن كثير (٢٠٧/٢).

(٢) سورة طه: الآية ١٢٣.

(٣) سورة البقرة: الآيات ٣٦.

(٤) انظر: تفسير الكشاف (١٥٧/١)، و تفسير فتح القدير (٦٨/١).

وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة^(١).

ويقول ابن جرير - رحمه الله -: «وأولى ذلك بالحق عندنا ما كان لكتاب الله موافقاً، وقد أخبر الله تعالى ذكره عن إبليس، أنه وسوس لآدم وزوجته، ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما، وأنه قال لهما: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وأنه قاسمهما إني لكما لمن الناصحين، مدلياً لهما بغرور... إلى أن قال فأما سبب وصوله إلى الجنة حتى كلم آدم بعد أن أخرجه الله منها، وطرده عنها، فكما قال ابن عباس، وأهل التوراة: أنه خلص إلى آدم وزوجته بسلطانه الذي جعل الله له؛ ليبتلي به آدم وذريته، وأنه يأتي ابن آدم في نومته وفي يقظته، وفي كل حال من أحواله، حتى يخلص إلى ما أراد منه، حتى يدعوه إلى المعصية، ويوقع في نفسه الشهوة وهو لا يراه، وقد قال الله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وقد قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ { ١ } مَلِكِ النَّاسِ...﴾^(٣) إلى آخر السورة.

وأن الرسول ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»^(٤).

قال ابن إسحاق: «وإنما أمر ابن آدم فيما بينه وبين عدو الله كأمره فيما بينه وبين آدم، فقال الله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾»^(٥).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٨٢/١، بتصرف.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٣) سورة الناس: الآية ١ - ٦.

(٤) الحديث رواه البخاري في عدة أبواب، كتاب الاعتكاف، باب: (هل يدرأ المعتكف عن نفسه)، الحديث رقم (١٩٣٤):

٧١٧/٢، من حديث علي بن الحسين، أن صفية أخبرته: أنها أتت النبي وهو معتكف فلما رجعت مشى معها،

فأبصره رجل من الأنصار، فلما أبصره دعاه، فقال: تعال، هي صفية، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٣.

ثم خلص إلى آدم وزوجته حتى كلمهما، كما قص الله علينا من خبرهما، قال: ﴿وَسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(١)، فخلص إليهما بما خلص إلى ذريته من حيث لا يريانه، والله أعلم أي ذلك كان، فتابا إلى ربهما...^(٢).

- استخلاف آدم وزوجه في الأرض:

وفي سورة الأعراف، يقول تعالى عن استخلاف آدم وزوجه وذريتهما في الأرض: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ {٢٤} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾^(٣)، ففي هذه الآية أخبر الله تعالى آدم وحواء وإبليس، بأنهم إذ أهبطوا إلى الأرض، فأنهم عدو بعضهم لبعض، وأن لهم فيها مستقراً يستقرون فيه، ولم يخصصها بأن لهم فيه مستقراً في حال حياتهم دون حال موتهم، بل عم الخبر عنها، بأن لهم فيها مستقراً، فذلك على عمومه، كما عم خبر الله عنهم فيها مستقراً في حياتهم على ظهرها، وبعد وفاتهم في بطنها، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا {٢٥} أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾^(٤)، ولكم في هذه الأرض متاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا، ويقول سبحانه للذين أهبطهم من سماواته إلى أرضه: ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾، وفي الأرض تكون وفاتكم، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، ومن الأرض يخرجكم ربكم، ويحشركم إليه لبعث القيامة أحياء^(٥).

- المراد بالجنة التي سكنها آدم وحواء:

واختلف في الجنة التي أسكنها آدم وحواء على قولين:

(١) سورة طه: الآية ١٢٠.

(٢) تفسير الطبري: ٢٣٨/١ - ٢٣٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٤ - ٢٥.

(٤) سورة المرسلات: الآية ٢٥ - ٢٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٤٤/٨ - ١٤٥.

أحدهما: أنها جنة الخلد التي وعد الله بها عباده المتقون.

والثاني: أنها جنة أعدها الله لهما، وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء.

والقائلون بهذا الرأي، اختلفوا على قولين:

أحدهما: أنها في السماء؛ لأنه أهبطهما منها.

والثاني: أنها في الأرض؛ لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن أكل الشجرة التي نُهيأ عنها دون غيرها من الثمار^(١).

وقد استدل أصحاب الرأي الأول على رأيهم بأدلة منها:

١ - قولهم إن الجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع، كقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٢)، ونظائره، ولاجنة يعهدا المخاطبون، ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد المتقون، فقد صار هذا الاسم علماً بالغلبة، كالمدينة، والنجم، والبيت، والكتاب، ونظائرها، فحيث ورد لفظها معرفةً انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين، وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكراً أو مقيدة بال إضافة، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَغْنَابٍ﴾^(٣).

والثاني: كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(٤).

والثالث: كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾^(٥) (١).

(١) انظر: قصص الأنبياء؛ لابن كثير، بتصرف: ص ١٤ - ١٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٥، وسورة الأعراف: الآية ١٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٣٢.

(٤) سورة الكهف: الآية ٣٩.

(٥) سورة القلم: الآية ١٧.

ويقول ابن كثير - رحمه الله -: «والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى، لظاهر الآيات، والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٢)، والألف واللام ليست للعموم، ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود إلى معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «عَلَامٌ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسِكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟..»، الحديث، كما سبق ذكره^(٣) (٤).

٢- واستدلوا بقوله عليه السلام: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ {٢٤} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾^(٥)، فهذا يدل على أن الهبوط كان من الجنة إلى الأرض، من وجهين:
أحدهما: من لفظة «اهْبِطُوا»، فإنه نزول من علو إلى أسفل.

والثاني: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، عقب قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾، فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض، ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج، وبعده^(٦).

٣- كما استدل أصحاب هذا الرأي بحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن حذيفة بن اليمان^(٧) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون

(١) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح؛ لابن القيم: ٢٤/١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ١٤.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٤ - ٢٥.

(٦) انظر: حادي الأرواح: ٢٢/١.

(٧) هو حذيفة بن حسيل بن جابر بن عمرو بن ربيعة من بني عيس من الأنصار، واليمان لقب، وهو حذيفة بن حسيل، يكنى أبا عبدالله، شهد هو وأبوه، وأخوه صفوان أحداً، كان حذيفة من كبار الصحابة، وكان معروفاً في الصحابة بصاحب سر رسول الله، توفي سنة (٣٦هـ).

حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم الخليل...»^(١) الخ الحديث. وهذا يدل على أن الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها^(٢).

٤- ومما استدلوا به أيضاً ، أن الجنة التي سكنها آدم وزوجته حواء ، وصفت بأوصافٍ لا تكون إلا في جنة الخلد ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى {١١٨} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(٣) ، وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لا بد أن يتعرض لشيء من ذلك^(٤).

٥- وقالوا أيضاً : لو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس ، في قوله : ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٥) ، فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية ، وأن ملكها يبلى^(٦).

وهناك أدلة أخرى استدل بها أصحاب هذا الرأي ، وهي كثيرة ، ويكتفى بما ذكر هنا ، لعل فيها كفاية بإذن الله.

وأما أصحاب الرأي الثاني : فقد استدلوا أيضاً بأدلة على أن الجنة التي سكنها آدم وزوجه حواء ليست هي جنة الخلد ، وقالوا :

إن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة ، وقد وصفها الله ﷻ ، لنا في كتابه بصفاتها ، ومحال أن يصف الله ﷻ شيئاً بصفته ، ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي

انظر : الاستيعاب (١/٣٣٤) ، ألقاب الصحابة والتابعين (ص ١٠٠) .

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب (الإيمان) ، باب : (أدنى أهل الجنة منزلة فيها) برقم (١٩٥) ١/١٨٧ .

(٢) انظر : حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ؛ لابن القيم : ٢١/١ .

(٣) سورة طه : الآية ١١٨ - ١١٩ .

(٤) انظر : حادي الأرواح : ٢٢/١ .

(٥) سورة طه : الآية ١٢٠ .

(٦) انظر : حادي الأرواح : ٢٢/١ .

وصفه بها، وصفها بدار الخلد، ودار المقامة، فمن دخلها أقام بها، ولم يقم آدم بالجنة التي دخلها.

ووصفها بأنها جنة الخلد، وآدم لم يخلد فيها، ووصفها بأنها ثواب وجزاء، لادار تكليف وأمر ونهي، ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة، لادار ابتلاء وامتحان. وقد ابتلى آدم فيها بأعظم الابتلاء، ووصفها بأنها دار لا يعصى الله فيها أبداً، وقد عصى آدم ربه في جنته التي دخلها.

ووصفها بأنها ليست دار خوف ولا حزن، وقد حصل لآدم وحواء فيها من الحزن ما حصل، وسماها دار السلام، ولم يسلم فيها الأبوان من الفتنة، ودار القرار، ولم يستقر فيها، وقد قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، ولم يقل إني جاعل في جنة المأوى، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)، ومحال أن يكون هذا في جنة المأوى.

وقد أخبر سبحانه عن إبليس أنه قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾، فإن كان الله ﷻ، قد أسكن آدم جنة الخلد والملك الذي لا يبلى، فكيف لم يرد عليه، ويقول له: «كيف تدلني على شيء أنا فيه وقد أعطيته»، ولم يكن الله ﷻ قد أخبر آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين، أو لو علم أنها دار الخلد لما ركن إلى قول إبليس، ومال إلى نصيحته؛ ولكنه لما كان في غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد.

وقالوا: لو كان آدم أسكن جنة الخلد التي لا يسكنها إلا طاهر مقدس، فكيف توصل إليها إبليس الرجس، النجس، المذموم، المدحور، حتى فتن آدم ﷺ ووسوس له؟ وهذه الوسوسة، إما أن تكون في قلبه، وإما أن تكون في أذنه، وعلى التقديرين، فكيف توصل اللعين إلى دخول دار المتقين؟^(٣).

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٣) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ٢٥/١ - ٢٦، ويراجع مفتاح دار السعادة: ٢٠/١ - ٢٨.

وغير ذلك من الأدلة التي استدلت بها أصحاب هذا الرأي، فلا مجال لعرضها هنا، وإنما ذكرت بعض منها، لعل فيه كفاية إن شاء الله..

ومن العلماء من توقف في هذه المسألة، ولم يرجح فيها شيئاً. وقالوا بأن الكل ممكن، والأدلة الثقيلة متعارضة، فوجب التوقف، وترك القطع^(١)، والله تعالى أعلم.

وقال الجمهور إنها الجنة التي وعد المتقون دخولها في الآخرة^(٢).

الدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١- في الآيات تصريح بين واضح أن آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام، وسوس إليهما الشيطان سوياً، وأكلا من الشجرة، وبدت لهما سوءاتهما، وألقى الله عليهما اللوم والعتاب، واستغفرا لذنبيهما، وتاب الله عليهما، وأهبطهما إلى الأرض، إلا أن في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»^(٣).

ففيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة؛ حتى وقع في ذلك، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول.

وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، ولكن ما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم، عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها.

وفي الحديث: إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم، بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك من ضعفهم، فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه، أو

(١) انظر: مفتاح دار السعادة: ٢٠/١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء: باب قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر﴾ برقم (٣٢١٨)، (١٢٤٥/٣).

على سبيل الدور.

وينبغي للنساء أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن^(١).

٢- ومن قصة حواء مع نبي الله آدم، يتبين أهمية الزواج في حياة الإنسان، فالرابط الذي ربط حواء عليها السلام بأبي البشر والأنبياء آدم عليه الصلاة والسلام، هو رباط الزواج، فالزواج يشبع ويلبي رغبة من رغبات الإنسان التي فُطِرَ عليها، والزواج من سنن الفطرة، وهو سنة نبوية، ومن آيات الله ﷻ التي ذكرها في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

فمن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورا، وجعل إناثهم من جنس آخر غير جنسهم؛ لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل لهم نفرة، لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة، وهي: المحبة، والرحمة، هي: الرأفة، فإن الرجل يمكس المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمة بها، بأن يكون له منها ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما وغير ذلك^(٣).

فالزواج من نعم الله على عباده، يقول تعالى ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(٤).

(١) انظر: فتح الباري (٦/٣٦٨).

(٢) سورة الروم: الآية ٢١.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٤٣٠) باختصار.

(٤) سورة النحل: الآية ٧٢.

٣- ولمكانة وأهمية الزوجة في حياة الرجل سماها الله تعالى بقوله: «لتسكنوا إليها»، وقال الله لآدم: «اسكن أنت وزوجك»، فالسكنى الحقيقية لا تكون إلا بالسكن النفسي والطمأنينة، والسكنية التي لا تكون إلا بوجود الزوجة.

٤- ومن إكرام المرأة في الإسلام: أن جعل نفقة الزوجة على الزوج فلما كانت نفقة حواء على آدم، كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية^(١).

٥- حرص الشيطان على إغواء بني آدم، كما وسوس لأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام وزوجه حواء، فقد توعد ذرية آدم بإغوائهم، قال تعالى عن إبليس: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ {٧٧} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ {٧٨} قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ {٧٩} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ {٨٠} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ {٨١} قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {٨٣}»^(٢).

وقال تعالى عن عداوة الشيطان للإنسان: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ {٥} إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ {٦}»^(٣).

ويقول تبارك وتعالى: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ»^(٤).

٦- وجوب ستر العورة، فإن الله ﷻ أخبر عباده بنعمه عليهم، ومن جملة الإنعام، ستر العورة، قال تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ {٢٦} يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ

(١) تفسير القرطبي (١١/٢٥٣).

(٢) سورة ص: الآيات ٧٧ - ٨٣.

(٣) سورة فاطر: الآيات ٥ - ٦.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

كَمَا أَخْرَجَ أَبُويَكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَتَزَعُ مِنْهَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾^(١)، فبين ﷺ أنه جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم، ودل على الأمر بالستر، ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس^(٢).

وكل هذه الآيات توحى بأهمية الحياء من التعري، وانكشاف السوءة، فاللباس وستر العورة زينة للإنسان، وستر لعورته الجسدية، والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سواتها، وتحرص على سترها ومداراتها.

٧- ومن الدروس المستفادة من قصة آدم وحواء، أن المعصية تزيل النعمة عن صاحبها؛ لأن آدم قد أُخرج من الجنة بمعصيته^(٣).

فعلى العبد المسلم أن لا يستهين بالمعاصي صغيرها وكبيرها، وأن لا ينظر إلى صغر المعصية، بل ينظر إلى عظمة من عصي، وعلى المسلم أن يبادر بالتوبة والاستغفار من أي ذنب اقتداءً بآدم عليه الصلاة والسلام وزوجه، فقد أخبرنا ﷺ عن توبتهما وقبول الله ﷻ لهذه التوبة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٤)، وقال ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥).

وحت الله عباده على المبادرة بالتوبة اليه من السيئات عموماً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٦).

(١) سورة الأعراف: الآيات ٢٦ - ٢٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٨٢/٧).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي (٧٣/١).

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

(٦) سورة التحريم: الآية ٨.

وقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(١).

وعندما أخبر سبحانه عن معصية آدم وزوجه قال: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {١٢١} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى {١٢٢} ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾^(٣).

ومن هذه القصة يستفاد أنه من الواجب على العبد أن يفعل مع المعصية كما فعل أبوالبشر والأنبياء آدم عليه السلام، فالإنسان قد ينسى، وقد يغوى، وهذه طبيعة البشر، ولكن عليه أن يسارع بالاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوَاءَ بَجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً {١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً {١٨} ﴾^(٤).

(١) سورة النور: الآية ٣١.

(٢) سورة طه: الآيات ١٢١ - ١٢٢.

(٣) سورة طه: الآية ١١٥.

(٤) سورة النساء: الآيات ١٧ - ١٨.

المبحث السادس

زوج أيوب عليه السلام

أيوب عليه الصلاة والسلام نبي من أنبياء الله، وقيل: إنه من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بدليل قوله تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»^(١)، «فقد ذهب أكثر المفسرون إلى أن الضمير في قوله تعالى «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ»، عائد لإبراهيم؛ لأن مساق النظم لبيان شئونه العظيمة، كأنه قيل: «ولم نزل نرفع درجاته من بعد ذلك، إذ هدينا من ذريته داود... إلخ، فهو المقصود بالذكر في هذه الآيات»^(٢)، يقول الزركشي^(٤) - رحمه الله -: «وأيوب عليه السلام من ذرية نبي الله إبراهيم بدليل هذه الآية»، ويقول ابن كثير: «وأيوب من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ»، والصحيح في الضمير أنه عائد إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لا إلى نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام»^(٥).

وهو: أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقيل: هو: أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب.

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣٠/٣.

(٣) تفسير القاسمي: ٣٦٣/٣.

(٤) هو محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، ولد سنة (٧٤٥هـ) سمع الحديث، وكان فقيهاً أصولياً مشتغلاً بالعلم من صغره

وله العديد من المصنفات كالبرهان في علوم القرآن، وغيرها كثير، توفي في شهر رجب سنة (٧٩٤هـ)

انظر: طبقات الشافعية (١٦٧/٣)، والدرر الكامنه (١٣٣/٥).

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٨٠.

وقيل: غير ذلك في نسبه^(١)، والصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق^(٢)، وزوج أيوب عليه الصلاة والسلام اختلف في اسمها.

فقيل: إن امرأته رحمة بنت إفرام بن يوسف.

وقيل: هي ليا بنت يعقوب، وقيل: ماحر بنت ميثا بن يوسف عليه الصلاة والسلام^(٣).

والأشهر فيما ذكر أنها ليا بنت منشا بن يوسف بن يعقوب عليهم الصلاة والسلام أجمعين^(٤).

وذكر الله ﷻ نبيه أيوب في القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(٥).

وفي سورة الأنعام في الآية السابقة الذكر، بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦).

ففي الآيتين ورد اسمه عليه الصلاة والسلام، ضمن عددٍ من الأنبياء الكرام، ونصت الآية الأولى: بأن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بوحيه، فأيوب عليه الصلاة والسلام نبي من الأنبياء، وأوحى الله إليه بنص هذه الآية.

(١) انظر: قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ١٨٠، ويراجع تاريخ ابن الوردي: ١٦/١، تاريخ الطبري: ١٩٤/١، والكمال في التاريخ: ٩٨/١.

(٢) انظر: قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ١٨٠.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٢٢٩/٧، ويراجع: تفسير ابن كثير: ١٩١/٣، و تفسير البيضاوي: ٤٩/٥، تفسير القرطبي: ٢٠٩/١٥، فتح الباري: ٤٢١/٦، ٤٢٢، البداية والنهاية: ٢٢١/١، تفسير الطبري: ١٩٤/١.

(٤) انظر: قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ١٨٠.

(٥) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

وفي الآية الثاني من سورة الأنعام: الحديث فيها كان عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأن أيوب عليه الصلاة والسلام كان من ذريته كما سبق بيانه.

- ابتلاء أيوب عليه السلام:

ابتلى الله نبيه أيوب بلاءً عظيماً في ماله وولده وبدنه، فاستقبل كل ذلك البلاء بالصبر الجميل. فالآيات السابقة ذكرت نبوته عليه الصلاة والسلام، وفي آيات أخرى ذكر الله ﷻ فيها ابتلاءه، وتضرعه إلى ربه لكشف الضر عنه، ووصف الله ﷻ له وثناؤه عليه بأنه كان صابراً، منيباً إلى ربه ﷻ.

قال تعالى في سورة الأنبياء عن ابتلاء أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٨٣} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ {٤١} ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ {٤٢} وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ {٤٣} وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢).

فيقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيوب إذ نادى ربه، وقد مسه الضر والبلاء^(٣)، فقد أمر جل وعلا في هاتين الآيتين الكريميتين نبيه ﷺ أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وأن ربه استجاب له، فكشف عنه جميع ما به من الضر^(٤)، وكان الضر الذي أصابه، والبلاء الذي نزل به امتحاناً من الله له واختباراً^(٥).

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣ - ٨٤.

(٢) سورة ص: الآية ٤١ - ٤٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٧/١٧.

(٤) انظر: أضواء البيان: ٢٣٧/٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري: ٥٧/١٧.

فقد روي عن مصعب بن سعد^(١)، عن أبيه سعد بن أبي وقاص قال، «قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً، قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٢).

والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه، كان بلاءً أصابه في بدنه وأهله، وماله^(٣)، وقد كان أيوب عليه الصلاة والسلام غايةً في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك^(٤)، وبعد طول أمد البلاء، وصبر أيوب عليه، توجه إلى ربه، فألطف في السؤال فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، فنادى عليه الصلاة والسلام ربه، كما أخبر تعالى أن نالني في بدني ضرٌّ، وفي أهلي ومالي^(٥)، فذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ولم يصرح عليه الصلاة والسلام بالمطلوب^(٦)، وهو كشف الضر، والبلاء عنه.

وقد أسند عليه الصلاة والسلام ما مسه من ضرٍ إلى الشيطان؛ تأديباً مع الله ﷻ، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(٧).

يقول القرطبي: «والأفعال كلها خيرها وشرها، خالقها الله تبارك وتعالى، والشر لا

(١) هو: مصعب بن سعد بن أبي وقاص، كان يقيم بالعراق مدة، وبالمدينة زماناً، إلا أنه في عداد المدنيين، أبو زرارة، روى عنه إسماعيل بن أبي خالد وغيره. وكان ثقة كثير الحديث. مات سنة ثلاث ومائة.

انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٦ / ٢٢٢)، مشاهير علماء الأمصار - (١ / ٦٨)

(٢) رواه الترمذي في السنن كتاب (الزهد)، باب: الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٨): ٤ / ٦٠١، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في سننه كتاب (الفتن)، باب: الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٣): ٢ / ١٣٣٤، وأخرجه أحمد في مسنده: ١ / ١٧٢.

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان: ٤ / ٢٣٧.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٣ / ١٨٩.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ١١ / ٣٢٣.

(٦) انظر: تفسير الكشاف: ٣ / ١٣١.

(٧) سورة ص: الآية ٤١.

ينسب إليه ذكراً، وإن كان موجوداً منه خلقاً، تأدباً مع الله تعالى، وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «... والخير في يديك، والشر ليس إليك»،^(١) على هذا المعنى^(٢).

فنسب المس إلى الشيطان، وإن كانت الأشياء كلها من الله تأدباً معه تعالى^(٣).

وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه وردّه بالصبر الجميل^(٤).

استجابة الله له وكشف الضر عنه:

فاستجاب الله دعاءه، وكشف ما به من ضر، فقد قال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾^(٥)، واستجابة لدعاء أيوب عليه الصلاة والسلام، قال ربه ﷻ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾^(٦). أي: هذا ماء تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهره.

وقيل: نبت له عينان، فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره، وباطنه بإذن الله^(٧).

وكان مع كشف الضر عن أيوب عليه الصلاة والسلام بشفائه من مرضه، أن أنعم الله عليه بما ذكره ﷻ بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾، وعن ابن عباس كان بنوه قد ماتوا

(١) الحديث جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه: عن علي بن أبي طالب ﷺ، كتاب (صلاة المسافرين)، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١): ٥٣٤/١.

(٢) تفسير القرطبي: ٢١٠/١٥.

(٣) انظر: تفسير الجلالين: ٦٠٢/١.

(٤) انظر: تفسير الكشاف: ٩٩/٩٨/٤.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٤.

(٦) سورة ص: الآية ٤٢.

(٧) انظر: تفسير الكشاف: ٩٩/٤، انظر: تفسير ابن كثير: ٤٠/٤، تفسير ابن عطية: ١٦٠١ - ١٦٠٢.

فأحياهم الله له، وولد له مثلهم معهم، وكذلك قال عبد الله بن مسعود، وعن مجاهد وعكرمة في قوله: «وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ»، أي: في الآخرة، «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ»، أي: في الدنيا، فقد ولدت له زوجته أولاداً بعدد من ماتوا^(١).

وفي سورة ص يقول تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ»، وذكر سبحانه أن ما فعله أيوب من كشف الضر عنه، ورد أهله له، وإيتائه مثلهم معهم، إنما فعل ذلك «رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا»، أي: بأيوب، «وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ»، أي: وتذكيراً للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له، وهو أفضل أهل زمانه، ووطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر^(٢).

وقال سبحانه في سورة ص: «رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ»، أي: أن ما فعله الله بأيوب هو رحمة منه به لصبره، وموعظة وتذكرة يعتبر بها أصحاب العقول، ويتأسون بصبره في الشدائد، ولا ييأسون من رحمة الله، وأيضاً فإن أصحاب العقول إذا علموا بما أنعم الله على أيوب لصبره، رغبتهم ذلك في الصبر على البلاء، ورغبتهم في عاقبة الصابرين، وما يفعله الله بهم^(٣).

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على عبده أيوب، ووصفه بالأواب، وهو التواب الرجّاع إلى الله المنيب إليه، قال تعالى: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»^(٤). أي: علمناه صابراً، فإن قيل: كيف وجده صابراً، وقد شكّا إليه ما به واسترحمه؟ فالشكوى إلى الله ﷻ لا تسمى جزعاً، ولقد قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»^(٥)،

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٢٦/١١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٣٢٧/١١.

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: ص ١٦٠٢، تفسير الكشاف: ٩٩/٤.

(٤) سورة ص: الآية ٤٤.

(٥) سورة يوسف: الآية ٨٦.

فأصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها^(١)، على أن قول أيوب عليه الصلاة والسلام ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾، دعاء لا شكوى؛ لأن الله تعالى استجاب هذا الدعاء، والإجابة تعقب الدعاء لا الاشتكاء^(٢).

- ما جاء عن زوج أيوب عليه السلام:

وأما عن زوجة أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يرد لها ذكر صريح في القرآن، وإنما جاء ذكرها في الآثار، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

يقول الطبري - رحمه الله -: «(فاغتسل وشرب، ففرجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له أهله من زوجة وولد، ومثلهم معهم رحمة منا له، ورأفة وتذكيراً لأولي العقول ليعتبروا بها فيتعظوا)»^(٤).

وفي الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه وغيره بأسانيدهم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أيوب نبي الله عليه الصلاة والسلام لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذلك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال: أيوب لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أنني أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته، أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطنته

(١) انظر: تفسير الكشاف: ١٠٠/٤.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٣٢٦/١١، تفسير أضواء البيان: ٢٣٨/٤.

(٣) سورة ص: الآية ٤٣.

(٤) تفسير الطبري: ١٦٧/٢٣.

فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: فإني أنا هو، وكان له أندران، أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر^(١) القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق^(٢) حتى فاضت^(٣).

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»^(٤).

ومعنى قوله خرّ عليه: أي سقط عليه جماعة جراد، بينما هو يغتسل، فأخذ يحثي، أي: يأخذ بيديه جميعاً في ثوبه، فجعل أيوب ينشر طرف ثوبه فيأخذ الجراد، فيجعل فيه، فكلما امتلأت ناحية نشر ناحية، فناداه ربه رسولك، يحتمل أن يكون بواسطة أو بإلهام، ويحتمل أن يكون بغير واسطة، يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى، أي: أغنيتني ولكن لا غنى لي عن بركتك^(٥).

وذكر المفسرون في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٦) أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على

(١) الأندر: وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام، بلغة الشام، والنذر أيضاً: صبرة من الطعام.

(٢) والورق: بكسر الراء الفضة، وقد تسكن، انظر: النهاية في غريب الأثر: ٧٤/١، ٧٤/٥.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، حديث (٢٨٩٨): ١٥٧/٧، وفي موارد الظمان برقم (٢٠٩١): ٥١١/١، والحاكم في المستدرک برقم (٤١١٥): ٦٣٥/٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، والحديث في فتح الباري: ٤٢١/٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب (الأنبياء)، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ...﴾ حديث (٣٢١١):

١٢٤٠/٣. ومعنى قوله (رجل جراد): أي الجراد الكثير، انظر: النهاية في غريب الأثر: ٢٠٣/٢.

(٥) انظر: فتح الباري: ٤٢٠/٦ - ٤٢١.

(٦) سورة ص: الآية ٤٤.

زوجته ، ووجد عليها في أمر فعلته ، وهو في مرضه ، وحلف إن شفاه الله ليضربها مئة جلدة^(١) .
واختلفوا في السبب الذي حلف عليها^(٢) ، فقيل : باعت ضفيريها بخبز فأطعمته إياه ،
فلامها على ذلك ، وقيل : ذهبت في بعض المهمات فأبطأت عليه ، وقيل : لغير ذلك من
الأسباب ، فلما شفاه الله ﷻ وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة
والإحسان ، أن تقابل بالضرب ، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثاً : وهو (الشمراخ)^(٣) فيه مئة
قضيب ، فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه ، وخرج من حنثه ، ووفى بنذره ، وهذا من
الفرج ، والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه ، والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه^(٤) ،
ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، فأثنى الله تعالى عليه ومدحه
بأنه ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، أي : رجاء منيب ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا { ٢ } وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ
أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾^{(٥)(٦)} .

وخلاصة القول أن الله ﷻ قد ابتلى عبده ونبيه أيوب عليه الصلاة والسلام بالمرض ،
وفقد الولد وذهب المال ، فصبر على هذا البلاء ، ورافقته زوجته في محنته ، فكانت زوجة وفيه
صابرة ، وبعد طول المدة التي مكثها أيوب عليه السلام ؛ توجه إلى الله بالدعاء ، بأن يكشف عنه ما
مسه من البلاء ، فاستجاب الله له دعاءه ، وكشف عنه بلاءه ، وأجزل عليه عطاءه - كما مر في
الحديث السابق ذكره - وفي ذلك كله عبرة وعظة لأصحاب العقول ، كما قال سبحانه :
﴿ رَحْمَةٌ مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وقوله : ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ .

(١) انظر : تفسير ابن كثير : ٤١/٤ . تفسير النسفي : ٤١/٤ ، تفسير البيضاوي : ٤٩/٥ ، تفسير الكشاف : ٩٩/٤ ، تفسير
البعوي : ٦٦/٤ .

(٢) انظر : تفسير الرازي : ١٨٨/٢٦ .

(٣) الشماريخ : الأغصان الرقيقة ، انظر : لسان العرب : ٣١/٣ ، مادة شمرخ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : ٤١/٤ ، تفسير الرازي : ١٨٨/٢٦ .

(٥) سورة الطلاق : الآية ٢ - ٣ .

(٦) انظر : تفسير ابن كثير : ٤١/٤ .

الدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١- أن الله ﷻ يبتلي عباده بما يشاء، ولا يعني الابتلاء بالمصائب وأنواع البليات، أن العبد قد فعل شيئاً في حياته يستوجب هذا البلاء، كما يظن البعض، أو أن العبد هينٌ على ربه ﷻ.

فهذا أيوب عليه الصلاة والسلام نبي كريم من أنبياء الله، قد ابتلاه الله تعالى في بدنه بالمرض، وفي ماله، وولده، ولأن الله ﷻ يبتلي عباده بالخير وبالشر، يقول تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(١)، وأن الله تعالى يبتلي العبد على قدر دينه.

وللبلاء حكماً عديدة: فمنها كسب الحسنات، وتكفير السيئات، قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍ حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٢)، وأمر المسلم كله خير، في السراء يشكر ربه، فهو خير له ويؤجر على شكره، ويستديم نعمه، وفي الضراء: يصبر، فهو خير له يُكفر الله من سيئاته، ويحط عنه خطيئاته، فأمره كله خير، فما يصيب المسلم من المصائب سبباً لنيل الحسنات، ورفع الدرجات، ومحو السيئات، فعلى العبد المسلم أن يواجه أقدار الله بالرضا، والصبر، والشكر، وللمسلم في أنبياء الله القدوة الحسنة.

٢- وكذلك على المسلم مع احتساب الأجر والصبر على البلاء، أن يبذل الأسباب التي قد تدفع عنه ذلك البلاء. وأن ذلك لا يتناقض ولا يتعارض مع الصبر المطلوب، والرضا بالقدر.

ومن ذلك التوجه إلى الله ﷻ بالدعاء لطلب دفع البلاء، كالمريض بطلب الشفاء من الله، فهو الشافي ﷻ، وهو المعافي، كما قال أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، برقم (٥٣١٨)، (٢١٣/٥)، فتح

الباري (١٠/١٠٦).

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(١)، وبذل الأسباب المعينة على ذلك، كالتداوي ونحو ذلك.

وعلى العبد أن يعلم علماً يقيناً أن الله وحده هو الذي يكشف الضر لا غيره، فلا يشكو إلا له هو، ولا يبث حزنه إلا له سبحانه، كما قال تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

٣- ومن الفوائد العظيمة للمرأة المسلمة، الاقتداء بزوجة أيوب عليه الصلاة والسلام، بالصبر مع زوجها على البلاء بالمرض وفقد الولد والمال، فكانت له خير معين، وسند على ما قضى الله وقدره عليهما.

وهكذا فلتكن المرأة المؤمنة مع زوجها، في السراء، والضراء، صابرةً شاكراً مقتدية بخير نساء العالمين، زوجات الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

٤- ومن الأحكام المستفادة من قصة أيوب مع زوجته، من قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٤).

إن في هذه الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى ما يجوز فعله، ودفع المكروه بها عن نفسه وعن غيره، لأن الله تعالى أمره بضربها بالضغث ليخرج به من اليمين، ولا يصل إليها كثير ضرر^(٥).

والحيلة: هي ما يتوصل به إلى حالة ما في خفية، وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث،

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٧.

(٤) سورة ص: الآية ٤٤.

(٥) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٢٦٠/٥).

وقد تستعمل فيما في تعاطيه حكمة^(١).

والحيلة: الحذق في تدبير الأمور، وهو تقليب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود^(٢).

ولكن لا يؤخذ من ذلك، ما يفضي إلى تحليل المحرمات، وإسقاط الواجبات، فإن هذا عبث بالفروض الذي شرعت من أجله الحيلة الشرعية، وفعل ذلك محرّمٌ لا شك فيه.

يقول الإمام الشاطبي^(٣) في كتابه (الموافقات): «... إن للشارع قصداً في استجلاب المصالح ودرء المفاسد، بل الشريعة لهذا وضعت، ولا يمكن إقامة دليل في الشريعة على إبطال كل حيلة كما أنه لا يقوم دليل على تصحيح كل حيلة، وإنما يبطل منها ما كان مضاداً لقصد الشرع خاصة، وهو الذي يتفق عليه جميع أهل الإسلام ويقع الاختلاف في المسائل التي تتعارض فيها الأدلة»^(٤).

وهناك كثير من الأمثلة على الحيل الشرعية، وأيضاً الحيل غير الشرعية، ليس هذا مكان طرحها، ويكتفى بما ذكر في هذا الباب، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) المفردات في غريب القرآن (١/١٣٨).

(٢) المصباح المنير (١/١٥٧).

(٣) هو إبراهيم بن موسى اللخمي الفرناطي أبو إسحاق، المعروف بالشاطبي صاحب التصانيف القيمة والتي من أهمها: الموافقات في أصول الأحكام وغيره من الكتب، توفي سنة (٧٩٠هـ).

انظر: شجرة النور (ص ٢٣١)، هدية العارفين (١/١٩)، فهرس الفهارس (١/١٩١).

(٤) الموافقات (٢/٣٣٦ - ٣٣٧).

المبحث السابع

زوج زكريا عليه السلام

ذكر الله ﷺ في كتابه الكريم زوج زكريا عليه الصلاة والسلام، في أربعة مواضع منه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾^(١).

وقوله ﷺ: ﴿وَكَاثِرٌ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾^(٣).

وقال عنها: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَآ تَدْرِنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ {٨٩} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾^(٤).

– ما وصف به القرآن زوج زكريا ﷺ:

في الآيات الثلاث الأولى، يذكر ﷺ صفة زوجة زكريا عليه الصلاة والسلام، ويصفها بأنها امرأة عاقرة.

فالذي دلت عليه الآيات أن امرأة زكريا كانت عاقراً في زمن شبابها.

والعاقرة من النساء هي العقيم التي لا تلد، فيقال: امرأة عاقرة، ورجل عاقرة^(٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٠.

(٢) سورة مريم: الآية ٥.

(٣) سورة مريم: الآية ٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآيات ٨٩ - ٩٠.

(٥) تفسير الطبري: (٢٥٧/٣).

قال الإمام الراغب: «عُقِرَ الحوض، والدار: أصلها... وعقرته أصبت عقره: أي أصله. وعقرت النخل: قطعته من أصله.

وامرأة عاقر: لا تلد، كأنها تعقر ماء الفحل»^(١).

وفي قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبُّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾^(٢).

فيقول سبحانه أن نبيه زكريا عليه الصلاة والسلام، قال: لما بشره الله بيحيى يولد له: رب أنى يكون لي غلام، ومن أي زوجة يكون لي ذلك؟ وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضعفت من الكبر عن معاشره النساء، أبأن تقويني على ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولوداً، فإنك القادر على ذلك، وعلى ما تشاء، أم بأن أنكح زوجة غير زوجتي العاقر بذلك، يستثبت من ربه الخبر عن الوجه الذي سيكون من قبله له الولد الذي بشره الله به، لا إنكاراً منه ﷻ، وكيف يكون ذلك منه إنكاراً، وهو المبتدئ مسألة ربه ذلك بقوله: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٣) {٥} وَيَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ}، بعد قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾^(٤).

واسم امرأة زكريا قيل: هي إيشاع بنت فاقوذ بن قبيل، فهي أخت حنة بنت قاقوذا، وحنة هي أم مريم، وقيل: هي إيشاع بنت عمران^(٥) أخت مريم بنت عمران.

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (٣٤١/١) بتصرف.

(٢) سورة مريم: الآية ٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥٠/١٦).

(٤) سورة مريم: الآية ٤.

(٥) انظر: أضواء البيان: (٣٦٧/٣)، تفسير القرطبي: ٧٩/١١، تفسير الرازي: (٢٢/٨)، تفسير أبي السعود: (٢٧/٢)،

تفسير الطبري: (٢٤٤/٣)، ويراجع عمدة القاري: (٢٦/١٧)، وفيض القدير: (٤٨/١)، تاريخ ابن خلدون:

(١٦٨/٢).

- إصلاح الله زوج زكريا، وإزالة العقم عنها :

أشار الله ﷻ إلى أنه أزال عن زوجة زكريا الَّتِي لَا تَحْمِلُ العقم، وأصلحها فجعلها ولوداً بعد أن كانت عاقراً في قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾^{(١)(٢)}.

وقد اختلف المفسرون في معنى الإصلاح الذي عناه جل ثناؤه بقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، فقال بعضهم: بأنها كانت عقيماً، فأصلحها بأن جعلها ولوداً.

وقال آخرون: كانت سيئة الخلق، فأصلحها الله بأن رزقها حُسن الخلق^(٣).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾: قال: كان في لسان امرأة زكريا طول، فأصلحه الله تعالى^(٤).

يقول الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أصلح لزكريا وزوجه، كما أخبر تعالى ذكره بأن جعلها ولوداً حسنة الخلق؛ لأن كل ذلك من معاني إصلاحه إياها، ولم يخص الله جل ثناؤه بذلك بعضاً دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم، ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض»^(٥).

- ثناء الله في كتابه على زكريا وأهل بيته :

يقول تعالى ذكره في تنمة الآيات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٢) انظر: أضواء البيان: (٣/٣٦٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/٨٣).

(٤) انظر: المستدرک على الصحيحين: (٢/٤١٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٥) المرجع السابق، ويراجع أضواء البيان: (٣/٣٦٦)، وانظر: حسن الأسوة بما يثبت من الله ورسوله في النسوة:

(١/١٣٨).

وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿١﴾ .

فيقول سبحانه: إن الذين سميناهم يعني زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون في طاعتنا، والعمل بما يقربهم إلينا، وعني سبحانه بالدعاء في قوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا الْعِبَادَةَ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَرِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٢). فأثنى سبحانه على زكريا وأهل بيته بأنهم كانوا يبادرون إلى فعل الطاعات، ويجمعون بين الرغبة والرغبة وبين الخوف والرجاء (٣). ومن ثناء الله ﷻ عليهم أنهم كانوا خاشعين لله، والخشوع هو الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد على الجوارح والضراعة أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل إذا ضرع القلب خضعت الجوارح (٤).

وعن عبدالله بن عكيم (٥)، قال خطبنا أبو بكر الصديق ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، قال: أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرغبة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، ثم اعلّموا عباد الله، أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم وأخذ على ذلك موثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم، لا يطفأ نوره، ولا تنقضي عجائبه، فاستضيؤوا بنوره، وانتصحووا كتابه، واستضيؤوا منه ليوم الظلمة، فإنه إنما خلقكم لعبادته ووكّل بكم: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ { ١١ } يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ { ١٢ }﴾ (٦).

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٢) سورة مريم: الآية ٤٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧ / ٨٣).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (١ / ٦٤٨).

(٥) هو: عبدالله بن عكيم الجهني، يكنى أبا معبر من جهينه، أدرك زمان النبي ﷺ، وسمع أبا بكر، وعمر بن الخطاب،

وعبدالله بن مسعود وغيرهم من الصحابة. توفي في زمن الحجاج سنة (٨٨هـ).

انظر: الاستيعاب (٣ / ٩٤٩)، تقريب التهذيب (١ / ٣١٤).

(٦) سورة الانفطار: الآيات ١١ - ١٢.

ثم اعلّموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم قبل أن تنقضي آجالكم، فيردكم إلى سوء أعمالكم، فإن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، فالوحي الوحي، ثم النجا النجا، فإن وراءكم طالب حثيث»^(١).

وقيل إن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾ الأنبياء الذين سبق ذكرهم في الآيات السابقة^(٢).

والآيات هي من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ {٤٨} الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ {٤٩} وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ {٥٠} وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ {٥١} إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ {٥٢} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَائِدِينَ {٥٣} قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٥٤} قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ {٥٥} قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ {٥٦} وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ {٥٧} فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ {٥٨} قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ {٥٩} قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ {٦٠} قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ {٦١} قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ {٦٢} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ {٦٣} فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ {٦٤} ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ {٦٥} قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ {٦٦} أَف لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {٦٧} قَالُوا حَرِّقُوهُ

(١) انظر: المستدرک علی الصحیحین (٢/٤١٥).

(٢) انظر: الکشاف (٣/١٣٣)، تفسیر أبو السعود (٦/٨٣)، تفسیر البغوي (٣/٢٦٧)، تفسیر البیضاوي (٤/١٠٦)،

السمرقندی (٢/٤٤٠).

وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {٦٨} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ {٦٩} وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ {٧٠} وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ {٧١} وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ {٧٢} وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ {٧٣} وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ {٧٤} وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {٧٥} وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {٧٦} وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٧٧} وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ {٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ {٧٩} وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ {٨٠} وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ {٨١} وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ {٨٢} وَيُؤْتِيهِمْ رِيبَهُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٨٣} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ {٨٤} وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ {٨٥} وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ {٨٦} وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ {٨٧} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ {٨٨} وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ {٨٩} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ {٩٠} ﴿١﴾

فالضمير المذكور في قوله: (إنهم) راجع إلى الأنبياء، فجملة قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ تعليل لما قبلها من إحسانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وقيل:

هو راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى^(١).

وعلى التقديرين فيه فضل لزكريا عليه الصلاة والسلام وأهله^(٢).

(١) تفسير فتح القدير (٤٢٥/٣) بتصرف.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء (١٩٥/١).

الدروس والعبر المستفادة من هذا البحث:

١- امتن الله ﷻ على زكريا عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، فقال بعض العلماء: ينبغي للرجل أن يجتهد إلى الله في إصلاح زوجته^(١)، فصلاح الزوجة من النعم العظيمة التي يمتن الله بها على عبده، فإذا صلحت الزوجة؛ صلح حال بيتها، وصلاح أبنائها، فالأم مدرسة، فهي المريية، وهي التي يتلقى الأبناء منها ما يترتب عليه بعد ذلك لبناء شخصيتهم كأفراد صالحين.

وامرأة زكريا عليه الصلاة والسلام، امرأة سالحة، نشأت في بيت صالح، وهو بيت النبوة، كما وصفها القرآن بذلك، وهو قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، كما أنها مسارعة في الخيرات، مداومة على طاعة ربها ﷻ، خاشعة له، كما أخبر ﷻ عن زكريا وأهل بيته بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٢).

(١) انظر: كتب وسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٣٢٥/٢٥)، وفيض القدير (٣٥٧/٦)، والفتاوى الكبرى (٩٩/٢)،

واقضاء الصراط المستقيم (٢٢٤/١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

الفصل الثالث

أبناء الأنبياء في القرآن

وفيه ثمانية مباحث :

- المبحث الأول : نوح عليه السلام مع ابنه .
- المبحث الثاني : إسماعيل مع أبيه عليهما السلام .
- المبحث الثالث : نبأ ابني آدم عليه السلام .
- المبحث الرابع : أبناء يعقوب عليه السلام .
- المبحث الخامس : بنتا شعيب عليه السلام .
- المبحث السادس : بنات لوط عليه السلام .
- المبحث السابع : داود مع ابنه سليمان عليهما السلام .
- المبحث الثامن : يحيى ابن زكريا عليهما السلام .

المبحث الأول

نوح عليه السلام مع ابنه

مما سبق ذكره، تبين أن زوجة نوح عليه الصلاة والسلام، كانت كافرة، ولم تؤمن بما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام، بل وحكم الله عليها بالخيانة في الدين بعدم الإيمان، وبدخول النار مع الداخلين من الكفار أمثالها، في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾^(١).

وتبين أيضاً غرق المكذبين الجاحدين من قوم نوح وهلاكهم، وركوب نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه في السفينة، ونجاتهم من العذاب الذي حل بالمكذبين، الكافرين، وذلك بأمر من الله ﷻ لنبية نوح ببناء السفينة، ثم أمره بالركوب فيها مع من آمن به، إذا ظهرت علامة نزول العذاب، ولما حان وقت نزول العذاب بقوم نوح، وظهرت علامته، أمر الله نوحاً بما أخبر الله به بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢).

فيقول: حتى إذا جاء أمرنا الذي وعدنا نوحاً أن يجيء قوم من الطوفان الذي يغرقهم^(٣)، (وفار التنور).

فيقال لكل شيء هاج وعلا فار، ومنه فار القدر، إذا ارتفع ما فيها وعلا^(٤)، وذكر المفسرون آراء مختلفة في معنى هذه الآية ﴿وفار التنور﴾ فقال بعضهم: فار التنور وهو وجه

(١) سورة التحريم: الآية ١٠.

(٢) سورة هود: الآية ٤٠.

(٣) تفسير الطبري: (٣٨/١٢).

(٤) انظر: غريب القرآن: ٣٦٢/١.

الأرض ، وقال آخرون : هو تنوير الصبح ، وقيل أشرف الأرض وأرفعها ، وقيل : التنور الذي يخبز فيه ^(١).

والذي اختاره ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - بأن المراد بقوله التنور ، هو التنور الذي يخبز فيه ؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك ، فيسلم لها ^(٢).

وهذا الذي اختاره ابن كثير في تفسيره ورجحه ^(٣) أيضاً.

فأخبر سبحانه نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام أنه حين يجيء العذاب على قومه الذي وعده الله نبيه نوحاً أن يعذبهم به ، وجعل فوران التنور بالماء آية لمجيء العذاب لهلاك القوم الكافرين ^(٤).

- نجاة نوح وأهله المؤمنين وهلاك ابنه مع الكافرين :

وعند ظهور العلامة التي جعلها الله لنبيه نوح عليه السلام ، أمره بأن يحمل معه في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء ^(٥) قال تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

والمقصود بالزوجين : كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى ، والتقدير : كل شيئين هما كذلك ، فاحمل منهما في السفينة اثنين : واحداً ذكراً ، والآخر أنثى ، وهذا هو النوع الأول.

﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ .

أي واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته وهذا هو النوع الثاني ، إلا من سبق عليه

(١) تفسير الطبري : (٣٨/١٢ - ٣٩).

(٢) انظر : تفسير الطبري : (٤٠/١٢).

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : (٤٤٦/٢).

(٤) تفسير الطبري : (٤٠/١٢).

(٥) انظر : تفسير الرازي (١٧/١٨١).

القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه (يام) الذي انعزل وحده، وامرأة نوح، وكانت كافرة بالله ورسوله^(١)، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ واحمل معهم من صدقك واتبعك من قومك وهذا هو النوع الثالث، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فيقول سبحانه: وما أقر بوحدانية الله تعالى مع نوح من قومه إلا قليل منهم^(٢).

فلما حمل نوح في السفينة من أمره الله تعالى بحملهم فيها، قال ﷺ كما أخبرنا الله بقوله: ﴿وَقَالَ اذْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {٤١} وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

وهي تجري بهم، أي والسفينة تجري بنوح ومن معه فيها في موج كالجبال، فهي سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل بثمانين ميلاً، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله، وتحت كنفه، وعنايته، وحراسته، وامتنانه^(٤)، كمال قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِیِّ وَدُوسِرٍ﴾ {١٣} تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ {١٤} وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ {١٥}﴾^(٥).

- نوح ينادي ابنه للركوب في السفينة:

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ {٤٢} قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ

(١) انظر: تفسير الرازي: (١٧/١٨١)، تفسير ابن كثير: (٤٤٦/٢).

(٢) تفسير الطبري: (٤٢/١٢).

(٣) سورة هود: الآيتان ٤١ - ٤٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٤٥/١٢)، و تفسير ابن كثير: (٤٤٧/٢).

(٥) سورة القمر: الآيات ١٣ - ١٥.

وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ {٤٣} ﴿١﴾ .

هذا حوار بين نوح عليه الصلاة والسلام وابنه ، وفيه ينادي نوح ابنه شفقةً عليه بالركوب في السفينة مع من ركب ، وابن نوح المذكور في الآية قيل هو الابن الرابع ، واسمه (يام) ، وكان كافراً ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون شفقة ورحمةً به ، وحرصاً على إيمانه ونجاته ، فقال ابن نوح لما دعاه أبوه إلى أن يركب معه في السفينة : ﴿سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يقول : سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء ، فيمنعني منه أن يغرقني ، ويعني بقوله يعصمني : يمنعني ، فاعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وتعلق في رأس جبل للنجاة من ذلك الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ يقول : لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلا من رحم الله فأنقذه منه ، فإنه الذي يرحم من يشاء من خلقه ويعصم^(٢) .

ولما تم هلاك قوم نوح بالغرق بالماء الذي غطى الأرض ، ووصل إلى قمم الجبال ، أمر الله الماء المنهمر من السماء بالإسك ، وأمر الله الأرض بابتلاع^(٣) الماء قال تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٤) .

﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي شرع في النقص ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ، فمن كفر بالله لم يبق على الأرض منهم دياراً ، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة^(٥) ، وقال القرطبي هو قرب الموصل^(٦) .

ويقول الزمخشري في تفسيره : « وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة

(١) سورة هود : الآيات ٤٢/٤٣ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : (٤٤٧/٢) ، تفسير الطبري : (٤٥/١٢) .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : (٤٤٧/٢) .

(٤) سورة هود : الآية ٤٤ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٤٤٧/٢) .

(٦) تفسير القرطبي (١٤/٩) .

عليه ، كأنهم عقلاء مميزون قد عرفوا جلالته ، وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له ، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له ، والنزول على مشيئته على الفور من غير تريث»^(١).

- نداء نوح ربه بشأن ابنه:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ {٤٥} قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ {٤٦}﴾^(٢).

وهذا إعلام من الله تبارك وتعالى بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة ، وتعطف الرحم والقربة على طلب نجاته ، لشدة تعلقه به ، واهتمامه بأمره ، وقد راعى مع ذلك الأدب في الطلب مع هذه الشدة ، وحسن السؤال ، فقال : ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل : لا تخلف وعداك بإنجاء أهلي ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوي القربة الصورية والرحم النسبية.

وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه تعالى بقوله : ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام وعرض بقوله : ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ إلى أن العالم العادل ، والحكيم لا يخلف وعده^(٣).

وذهب الإمام ابن كثير في تفسيره إلى أن هذا النداء من نوح عليه السلام لربه وَعَلَيْكَ هو سؤال استعلام عن حال ولده الذي أغرق مع أنه من أهله ، فيقول - رحمه الله تعالى - : «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه الصلاة والسلام عن حال ولده الذي غرق ، فقال : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟
﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي ليس من الذين وعدت بنجاتهم ، لأنني إنما وعدتك

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : (٣٧٦/٢).

(٢) سورة هود: الآيات ٤٥ - ٤٦.

(٣) انظر : تفسير القاسمي : (٣١٠/٤).

بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾^(١)، فكان هذا الولد من سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام^(٢).

وهناك من المفسرين من ذهب إلى أن هذا النداء من نوح كان في أثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة، ودعاه إليها فلم يستجب، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أي فكان نداؤه أن قال: يارب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم في السفينة ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ الذي لا خلف فيه، وهذا منه ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أي أحق من كل من يتصور منهم الحكم وأحسنهم، وخيرهم حكماً. ومراد نوح عليه السلام بهذا أن ينجي ابنه الذي تخلف عن السفينة بعد أن دعاه إليها، فامتنع معللاً نفسه بأن يأوي إلى جبل يعتصم به من الغرق، ولم يقتنع بقوله له: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾، فالمعقول أن الدعاء وقع بعد هذه المحاورة مع ابنه، وقبل أن يحول بينهما الموج^(٣).

فقال سبحانه لنبيه بعد سؤاله عن حال ابنه: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين أمرت أن تحملهم في السفينة، لينجوا من الغرق، والسبب في ذلك ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾. فبين انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح تنبيهاً على أن أهله هم الصالحاء، أهل دينه وشريعته، وإنه لتمامه في الفساد والغي كأن نفسه عمل غير صالح، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح، لقربته منك، ومن المعلوم أن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الأقربين، ويوجب براءة بعضهم من بعض^(٤).

يقول الرازي في تفسيره للآية: وهذه الآية تدل على أن العبرة بقراءة الدين لا بقراءة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلةً من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين لاجرم

(١) سورة هود: الآية ٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٤٤٨ - ٤٤٩).

(٣) انظر: تفسير المنار: (١٢/٦٥).

(٤) انظر: تفسير القاسمي: (٤/٣١٠).

نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ، وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾^(١).

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾، ﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين^(٢)، وقد تنبه النبي ﷺ عند ذلك التأديب الإلهي، والعقاب الرباني، وتعوذ بقوله^(٣): ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٤).

والمعنى أنه تعالى لما قال له: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فكأنه قال عند ذلك: قبلت يا رب هذا التكليف، ولا أعود إليه، إلا أنني لا أقدر على الاحتراز منه، إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا قال: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ ثم أعلن توبته مما قاله، وذلك بقوله: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾؛ لأن حقيقة التوبة تقتضي أمرين، أحدهما: في المستقبل وهو العزم على الترك، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾، والثاني: في الماضي، وهو الندم على ما مضى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٥).

وذهب بعض المفسرين إلى أن نوحاً كان يظن من ابنه أنه مؤمن، وليس من الكافرين، يدل على ذلك قوله: ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا تكن ممن لست منهم، لأنه كان عنده مؤمناً في ظنه، ولم يك نوح يقول لربه ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ إلا وذلك عنده كذلك، إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل في إنجاء بعضهم، وكان ابنه يسر الكفر، ويظهر الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب، أي علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت^(٦).

(١) تفسير الرازي (٣/١٨).

(٢) تفسير القرطبي: (٤٨/٩).

(٣) تفسير القاسمي: (٣١١/٤).

(٤) سورة هود: الآية ٤٧.

(٥) انظر: تفسير الرازي «تفسير الرازي»: (٥/١٨).

(٦) تفسير القرطبي: (٤٥/٩).

فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك، وكان يظن أنه مؤمن مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد، لأنه كان كافراً، فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد.

فقد كانت الشفقة المنوطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله، لا على كونه كافراً؛ بل على الوجوه الصحيحة^(١).

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٢).

والمعنى أن السلام من الله، والبركات على نوح وعلى أمم مؤمنين ينشؤون ممن معه، وينشأ منهم أمم ممتعون بالدنيا، منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه ومن كان معه في السفينة^(٣).

ومن الجرأة على الله عز وجل أن يتهم عرض أنبيائه بالزنا والعياذ بالله، فقد أتهم عرض نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام بتهمة بشعة، ومن المؤسف أن أدرجها بعض المفسرين في كتبهم، وهي من الإسرائيليات والأكاذيب؛ حيث ذكر بعضهم عند تفسير قوله تعالى، ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أن ابن نوح الهالك ليس ولده، بل هو ابن زنا والعياذ بالله، فقد أدخلته امرأته عليه، والتي ماتت كافرة، وقال عز وجل عنها: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾، ففسرت الخيانة هنا على أنها الزنا والعياذ بالله، وقيل إن هذا الولد ولد على فراشه وهو ليس ابنه^(٤).

(١) انظر: تفسير الرازي: (٥/١٨) بتصرف، وراجع تفسير النسفي: (١٥٨/٢)، تفسير القرطبي: (٤٥/٩)،

الكشاف: (٣٧٨/٢ - ٣٧٩).

(٢) سورة هود: الآية ٤٨.

(٣) انظر: تفسير الكشاف: (٣٧٩/٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٤٦/٩)، تفسير الطبري (٥٠/١٢)، وزاد المسير (١٣/٤)، وتفسير الثعالبي (١٧٢/٥).

الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١ - إن نسب الإنسان لا ينفعه ، ولا يغني عنه من الله شيئاً ، إذا كان صاحب هذا النسب مجرداً من الإيمان ، والعمل الصالح الذي يرفعه ، فهذا هو ابن نوح ، ابن نبي الله حاز على أشرف نسب وأعلاه ، ولكن لم ينفعه ذلك النسب بشيء ؛ لأنه كان كافراً ، وكما قال الله عنه : ﴿إِنَّهٗ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ، فالله جل وعلا يجازي ويحاسب الناس حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، وليس بأنسابهم وأحسابهم.

فيستدل من قصة هلاك ابن نوح أن الإيمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة والأنساب ، فلو كان بالوراثة لكان جميع ولد آدم كأبيهم ، ثم لكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين صالحين ، والمشهور أن نسل البشر انحصر فيهم.

فالمقرر أن الله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يجابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين ، وإن كانوا من الأنبياء المرسلين^(١).

٢ - ومن الفوائد أيضاً ما قاله القرطبي - رحمه الله تعالى - : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾^(٢) في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم ، وإن كانوا صالحين^(٣).

ومن الأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١ - في الآيات دليل على أن الابن من الأهل لغةً وشرعاً ، ومن أهل البيت ، فمن وصى لأهله دخل في ذلك ابنه ، ومن تضمنه منزله وبيته ، وهو في عياله ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ {٧٥} وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {٧٦}﴾^(٤) ،

(١) انظر : تفسير المنار بتصرف : (٦٨/١٢).

(٢) سورة هود : الآية ٤٦ .

(٣) تفسير القرطبي : (٤٧/٩).

(٤) سورة الصافات : الآيات ٧٥ - ٧٦ .

فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله»^(١).

٢- ويقول القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اذْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢)، وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل^(٣).

(١) تفسير القرطبي: (٤٧/٩).

(٢) سورة هود: الآية ٤١.

(٣) تفسير القرطبي: (٣٧/٩).

المبحث الثاني

إسماعيل مع أبيه عليهما السلام

إسماعيل عليه الصلاة والسلام، نبي من أنبياء الله، وهو ابن نبي الله وخليته إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وإسماعيل هو دعوة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ { ١٠٠ } فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(١).

وقد كان هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام بعد أن أنجاه الله، ونصره على قومه، وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، وهاجر من بين أظهرهم، فدعا ربه بأولاد صالحين مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم، ومعينين له على الدعوة والطاعة.

فبشره الله بإسماعيل بغلام حلِيم، وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بُشِّرَ به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من أخيه إسحاق باتفاق المسلمين، وأهل الكتاب.

ومن صفات هذا الغلام - وهو إسماعيل - أنه حلِيم، أي متسع الصدر، حسن الصبر والإغضاء في كل أمر، والحلم رأس الصلاح، وأصل الفضائل^(٢).

- ما ورد عن زوجة إسماعيل عليه السلام وإقامة إسماعيل بمكة:

مرّ في الحديث السابق ذكره في الفصل الثاني من هذا البحث، أثناء الحديث عن هاجر أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام، أنّ رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، نزلوا عند هاجر وابنها إسماعيل، وأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك - أي إسماعيل - زوجته امرأة منهم^(٣)، وفي تنمة الحديث الطويل قوله عليه الصلاة والسلام:

(١) سورة الصافات: الآية ١٠٠ - ١٠١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١٥/٤)، تفسير القاسمي: (٦٩/٦).

(٣) الحديث سبق تخريجه.

«ومات أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، قالت : خرج يتبغي لنا ، ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشرٌ ، نحن في ضيقٍ وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يُغَيِّرُ عْتَبَةَ بَابِهِ ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشتنا؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ، قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غَيَّرَ عْتَبَةَ بَابِكَ ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحقني بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يتبغي لنا ، قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم؟ قالت اللحم ، قال : فما شرابكم؟ قالت : الماء ، قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال النبي ﷺ : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابيه ، فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاكم من أحدٍ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخٌ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشتنا فأخبرته ، قال : فأوصاك بشيء ، قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذاك وإسماعيل يبيري نبلاً له تحت دوحه قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ، قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، قال : فجعلا بينان حتى يدورا حول

البيت، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(١).
ومن الحديث السابق تبين أن أم إسماعيل هاجر زوج إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد ماتت، وكان عمرها تسعين سنة، فدفنها ابنها إسماعيل عليه السلام في الحجر، ومجيء إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل بعد ما تزوج، يتفقد حال ما تركه هناك، ويتفقد أهله، ولطالعة النظر في الأمور^(٢)، فهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان يزور ابنه إسماعيل بمكة لينظر ويتفقد أحوالهم، وهذا حال أهل بيت النبوة، والذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾^(٣). وحال إبراهيم الذي وصفه ربه تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(٤)، وهذا مدح من الله لإبراهيم واصفاً شفقتة العظيمة على الغير، فكيف بأهل بيته وبابنه إسماعيل عليهما السلام، وهذا ما يدل عليه أيضاً في الحديث ما صنع إسماعيل مع أبيه حين أقبل عليه بقوله: فلما رآه قام إليه أي إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، يعني من الاعتناق والمصافحة وتقبيل اليد ونحو ذلك^(٥)، فقد وصف الله إسماعيل بما وصف به أبيه إبراهيم عليه السلام فقال عنه سبحانه ﴿ فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ فوصفه بالحلم كما وصف إبراهيم عليه السلام قبل ذلك. وفي هذا دليل على كمال البر والرحمة والطاعة.

- إبراهيم يبني الكعبة بأمر من الله ويعاونه ابنه إسماعيل عليهما السلام:

قال تعالى عن إبراهيم وهو يبني الكعبة، ويعاونه ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٦).

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: يزفون، النسلان في المشي: (٣/١٢٢٧ - ١٢٢٩)، جزء من الحديث

الطويل برقم: (٣١٨٤). والآية من سورة البقرة: رقم (١٢٧).

(٢) انظر: عمدة الفاري (٢٥٨/١٥).

(٣) سورة هود آية (٧٣).

(٤) سورة هود، آية (٧٥).

(٥) انظر: فتح الباري: (٦/٤٠٥ - ٤٠٦)، وعمدة القاري: (١٥/٢٥٩).

(٦) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

والقواعد: جمع قاعدة وهي الأساس، والأصل لما فوقه، ورفع الأساس أي القواعد بالبناء عليها؛ لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتناولت بعد التقاصر، ويجوز أن يكون المراد بها - أي القواعد - مسافات البناء؛ لأن كل مسافة قاعدة للذي يبني عليه، ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء؛ لأنه كل ما وضع صف من اللبن والطين في الجدار المراد بناؤه وضع فوقه صف آخر حتى يرتفع البناء^(١).

فأخبر تعالى في هذه الآية عن بناء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وقد مر في الحديث السابق ذكره، والذي رواه البخاري عن ابن عباس، قول إبراهيم لابنه إسماعيل: «يا إسماعيل إن الله أمرني، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبنيها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى ارتفع البناء، وجاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، قال: فجعل بينان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

فقد كان إسماعيل يعاون أباه إبراهيم عليهما السلام في البناء، حيث كان يناول أباه الحجارة، وإبراهيم يباشر البناء كما أمره الله تعالى.

وذكر تعالى في كتابه العزيز عن إبراهيم وابنه إسماعيل أنهما كانا بينان البيت ويدعوان ربهما ﴿يَا رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا الْغَيْبَاتِ﴾، راجين منه القبول، قال تعالى مخبراً عنهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

وقد سبق ذكر ما جاء في صحيح البخاري في حديث ابن عباس بشأن البيت، وفيه أن

(١) انظر: تفسير الرازي: (٥٢/٤)، ويراجع لسان العرب (١٦٦/٩) مادة (سوف).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١٧٦/١، ١٧٧، ١٧٨)، والحديث سبق تخريجه.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وهما بينان البيت (الكعبة المشرفة)، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما.

وكما روي عن بعض السلف أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكي، ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾^(١)، أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أي: خائفة أن لا يتقبل منهم^(٢).

- أدعية إبراهيم وإسماعيل وهما بينان الكعبة:

قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ومن الأدعية التي ذكرها الله تعالى عنهم قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

فهذا أيضاً خبر من الله تعالى، ذكره عن إبراهيم وابنه إسماعيل أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ﴾ يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك، وأما قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، فإنهما خصا بذلك بعض الذرية؛ لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله عليه الصلاة والسلام قبل مسألته هذه أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره، فخصا بالدعوة بعض ذريتهما^(٤).

استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً، ولعلمهما قالاهضماً لأنفسهما وإرشاداً

(١) سورة المؤمنون: الآية ٦٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١٧٦/١).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٥٥٣/١).

لذريتهما أنك أنت التواب الرحيم لمن تاب^(١).

وخرج هذا الكلام من قول إبراهيم وإسماعيل على وجه المسألة منهما ربهما لأنفسهما، وإنما ذلك لأنفسهما وذريتهما المسلمين، فلما ضما ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما صاروا كالمخبرين عن أنفسهم بذلك.

وذلك لتقدم الدعاء منهما للمسلمين من ذريتهما قبل في أول الآية وتأخره بعد في الآية الأخرى، فأما الذي في أول الآية فقولهما: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ»، ثم جمعا أنفسهما والأمة المسلمة من ذريتهما في مسألتها ربهما أن يريهم مناسكهم، فقالا: «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا».

وأما التي في الآية التي بعدها: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ»، فجعلنا المسألة لذريتهما خاصة^(٢)، ومن دعائهما: «وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

والتوبة أصلها الأوبة من المكروه إلى المحبوب، فتوبة العبد إلى ربه أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه وتفضلاً عليه، فإن قيل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟ قيل: إنه ليس لأحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة.

وإنما خصا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعل ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، ويتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تبرأ من الذنوب إلى الله.

وجاز أن يكونا قد عنيا بقولهما: «وَتُبَّ عَلَيْنَا» وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم حتى ينيبوا إلى طاعتك، فيكون ظاهر الكلام على

(١) انظر: تفسير البيضاوي: (١/٤٠١ - ٤٠٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/٥٥٥).

الدعاء لأنفسهما، والمعني به ذريتهما، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب^(١).

ومن أدعيتها عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

لم يبين هنا في هذه الآية من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ولم يبين هنا أيضاً هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة هي العرب، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٢} وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾^(٣).

لأن الأميين العرب بالإجماع، والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ إجماعاً، ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ﷺ وحده^(٤).

يقول ابن كثير - رحمه الله -: «وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن»^(٥).

كما أخرج أحمد في مسنده عن العرياض بن سارية^(٦)، أنه قال عن رسول الله ﷺ: «إني

(١) انظر: تفسير الطبري: (١/٥٥٥ - ٥٥٦)، و تفسير البيضاوي: (١/٤٠٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٢ - ٣.

(٤) انظر: تفسير أضواء البيان: (١/٤٤).

(٥) تفسير ابن كثير: (١/١٨٥).

(٦) هو العرياض بن سارية السلمى يكنى أبا نجيح، كان من أهل الصفة، روى عنه الصحابة وجماعة من تابعي أهل الشام، سكن الشام ومات بها سنة (٤٥هـ).

انظر: الاستيعاب (٣/١٢٣٨)، وحلية الأولياء (٢/١٣).

عبد الله لخاتم النبيين، وأن آدم عليه السلام لمنجدل^(١) في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين ترين^(٢).

والمراد: أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس المذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم عليها السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٣).

ولهذا قال في الحديث: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم»^(٤).

﴿بَتَلُّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فالكتاب: القرآن،

والحكمة: المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى.

وقال قتادة: الحكمة: السنة، وبيان الشرائع، وقيل: الحكم والقضاء خاصة.

والمعنى متقارب، ونسب التعليم إلى النبي ﷺ من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها،

ويعلم طريق النظر بما يلقيه عليه الله إليه من وحيه، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ويطهرهم من الشرك وسائر

الأرجاس، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغلب، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أوليت^(٥).

- رؤيا إبراهيم في ذبح ابنه إسماعيل وإخباره بذلك:

فلما بلغ إسماعيل عليه الصلاة والسلام السن التي يقدر فيها على السعي والعمل، قال

له أبوه إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا

تَرَى﴾، أي: فانظر هل تصبر على إمضائي أمر الرؤيا؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي، وما رأيته يعتبر

(١) أي ملقى على الجدالة وهي الأرض.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢٤٨/١) مادة (جدل)، ولسان العرب (١٠٤/١١) ماد (جدل).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (١٢٧/٤).

(٣) سورة الصف: الآية ٦.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (١٨٥/١).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (١٣١/٢)، تفسير النسفي: (٧١/١).

أمرًا لي بذبحك أو لا تصبر^(١).

قال تعالى عن ذلك: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾^(٢).

فما كان جواب الابن الصادق الحليم كما وصفه ربه ﷺ إلا أن قال كما أخبر بذلك القرآن: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)، أي: أمض لما أمرك الله من ذبحي، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷺ، وصدق إسماعيل صلوات ربي وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾^(٤)^(٥).

يقول ابن جرير - رحمه الله - : « وقال افعل ما تؤمر ، ولم يقل ماتؤمر به ؛ لأن المعنى افعل الأمر الذي تؤمره »^(٦).

وإنما أعلم ابنه بذلك ؛ ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه^(٧) ، فقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾.

يقول الرازي - رحمه الله - : « الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله ، فتكون منه قرعة عين لإبراهيم حين يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة ، والثناء الحسن في الدنيا »^(٨).

(١) انظر: تفسير القاسمي: (٦/٦٩).

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/١٦).

(٥) سورة مريم: الآية ٥٤.

(٦) تفسير الطبري: (٢٣/٧٩).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/١٦).

(٨) تفسير الرازي: (٢٦/١٣٧).

ويقول ابن جرير: «فإن قال قائل أو كان إبراهيم يؤامر ابنه في المضي لأمر الله، والانتهاه إلى طاعته، قيل: لم يكن ذلك منه مشاوراً لابنه في طاعة الله، ولكنه كان منه ليعلم ما عند ابنه من العزم، هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذي هو عليه، فيسر بذلك أم لا؟ وهو في الأحوال كلها ماضٍ لأمر الله»^(١).

وبعد أن استسلم الوالد إبراهيم عليه الصلاة والسلام وولده إسماعيل استسلاماً وانقياداً تاماً لله ﷻ، وبدأ إبراهيم ﷺ في تنفيذ ما أمره الله ﷻ به يقول تعالى: «فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ»^(٢)، أي: فلما أسلما أمرهما لله، وفوضاه إليه، واتفقا على التسليم لأمره، والرضا بقضائه^(٣).

«وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ»، أي: صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، فللوجه جبينان، والجبهة بينهما^(٤).

ويقول ابن كثير - رحمه الله -: «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ»، أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه^(٥).

- نداء الله تبارك وتعالى لنبيه إبراهيم، وفداء الله إسماعيل عليهما السلام:

فلما تم إضجاع إسماعيل ﷺ، وهوى إبراهيم والسكين بيده ليذبحه عند ذلك نودي من الله ﷻ: «وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ {١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»^(٦)، أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وقد

(١) تفسير الطبري: (٧٩/٢٣).

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٧٩/٢٣).

(٤) انظر: تفسير الرازي: (١٣٧/٢٦).

(٥) تفسير ابن كثير: (١٦/٤).

(٦) سورة الصافات: الآية ١٠٤ - ١٠٥.

حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وعزمك على ذبحه، وإمرارك السكين على رقبة ابنك، وبهذا ظهر وانكشف انقيادك، وانقياد ولدك لأمر الله، وكمال طاعتكما لله رب العالمين^(١)، وأخبر ﷺ في هذه الايات بقوله: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»، أي: إنا كما جزيناك يا إبراهيم بطاعتك وانقيادك، كذلك نجزي الذين أحسنوا وأطاعوا أمرنا، وعملوا في رضانا.

فهكذا يصرف الله عمن أطاعه المكاره والشدائد، ويجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً {٢} وَيَزِدْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا»^{(٢)(٣)}.

ثم قال سبحانه: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ»^(٤)، أي: أن هذا هو الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله متقاداً لطاعته، ولهذا قال الله تعالى عن إبراهيم ﷺ: «وإبراهيم الذي وفى»^{(٥)(٦)}، فكان جزاء الانقياد لأمر الله، والخضوع لطاعته أن فداه الله بذبح عظيم، كما قال تعالى: «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ»^(٧).

والفداء، هو حفظ الإنسان عن النائبة والنوازل بما يبذله عنه، كما يقال (فديته بمال) ونحو ذلك^(٨).

والفدية: الجزاء، فيقول جزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ذبح كبش عظيم، وأنقذناه من

(١) انظر: قصص الأنبياء (١٠٧) و تفسير ابن كثير (١٦/٤).

(٢) تفسير الطبري: (٨٠/٢٣)، و تفسير ابن كثير: (١٧/٤).

(٣) سورة الطلاق: الآية ٢ - ٣.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٦.

(٥) سورة النجم: الآية ٣٧.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (١٧/٤).

(٧) سورة الصافات: الآية ١٠٧.

(٨) انظر: المفردات في غريب القرآن (١ / ٣٧٤).

الذبح^(١)، وقد وصف الله ﷻ هذه الفدية وهذا الذبح بقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وذكر المفسرون في ذلك أقوالاً، فقليل ذلك لأنه كان قد رعى في الجنة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رعى في الجنة أربعين خريفاً.

وقال آخرون: قيل له عظيم؛ لأنه كان ذبحاً مُتقبلاً.

وقال آخرون: قيل له عظيم؛ لأنه ذبح بالحق وذلك ذبحه بدين إبراهيم عليه السلام^(٢).

ويقول ابن جرير - رحمه الله -: «ولا يقال في ذلك أصح مما قال الله جل ثناؤه، وهو أن يقال فداه

الله بذبح عظيم، وذلك أن الله عمم وصفه إياه بالعظم دون تخصيصه، فهو كما عمه به»^(٣).

والمشهور عن الجمهور، أنه كبش أبيض، أعين، أقرن^(٤). وفي روايه للإمام أحمد في

الحديث الطويل الذي رواه أبو الطفيل^(٥): «إن إبراهيم لما أمر بالمناسك عَرَضَ له الشيطان عند

السعي فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان،

فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات،

قال قد تله للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض وقال: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفني فيه

غيره، فأخلعه حتى تكفني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ { ١٠٤ }

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد

رأيتنا نبيع هذا الضرب من الكباش...»^(٦) الحديث.

(١) تفسير الطبري: (٨١/٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨٧/٢٣ - ٨٨).

(٣) تفسير الطبري (٨٨/٢٣).

(٤) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (١٠٨).

(٥) هو عامر بن وائلة بن عبدالله بن عمرو بن جحش الليثي، أبو الطفيل، ولد عام أحد، ورأى النبي ﷺ وروى عن أبي

بكر وعمر ومن بعدهما، توفي سنة (١١٠هـ)، وهو آخر من مات من الصحابة.

انظر: الإصابة (٢٣٠/٧)، تقريب التهذيب (٢٨٨/١).

(٦) الحديث أخرجه أحمد في مسنده: (٢٩٧/١).

- اختلاف العلماء في ابن إبراهيم الذي أمر بذبحه:

اختلف العلماء رحمهم الله في هذه المسألة على قولين، فقالت طائفة من أهل العلم: هو إسحاق عليه الصلاة والسلام، وقالت طائفة أخرى: هو إسماعيل^(١)، فمن ذهب إلى أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام جمع من الصحابة والتابعين، واختاره ورجحه من المفسرين ابن جرير الطبري - رحمه الله -، والنحاس وغيرهما^(٢).

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بأدلة، من أهمها:

١ - أن ظاهر الآيات يقتضي ذلك؛ لأن الله تعالى أخبر عن نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ {٩٩} رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ {١٠٠} فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ^(٣).

وأن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ.....﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(٤).

فذكر سبحانه أنه فدى الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين، فإذا كان المفدى بالذبح من ابنه هو المبرر به، وكان الله تعالى قد بين في كتابه أن الذي بشر به هو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد، فإنما هو معني به إسحاق، فكان بيناً أن تبشيره إياه بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن.

وأيضاً فإن الله أخبر في هذه الآية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أن بشره بالغلام الحليم عن مسألته إياه أن يهب له من الصالحين، ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلا في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين؛ لأنه لم يكن له من ابنه إلا إمام الصالحين، وغير موهوم منه أن

(١) انظر: تفسير أضواء البيان (٣١٧/٦).

(٢) انظر: تفسير فتح القدير: (٤٠٣/٤).

(٣) سورة الصافات: الآية ٩٩ - ١٠١.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٢ - ١٠٧.

يكون سأل ربه في هبة ما قد كان أعطاه ووهبه له. فإن كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الذي ذكر سبحانه في هذا الموضع ، هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشر به ، وذلك لا شك أنه إسحاق إذ كان المفدي هو المبشر به^(١).

٢- واستدلو بما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « فلما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق ، قال لأبيه : يا أبت أوثقني لا أضطرب ، فيتضح عليك من دمي إذا ذبحتني فشد ، فلما أخذ الشفرة فأراد أن يذبحه ، نودي من خلفه ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ { ١٠٤ } قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾^(٢).

وذهب إلى أنه إسماعيل جمع من الصحابه والتابعين ايضاً ورجح هذا القول من المفسرين ابن كثير- رحمه الله - ، وكذلك الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان^(٣).
واستدل أصحاب هذا الرأي بأدلة منها :

١- أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ { ٩٩ } رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ { ١٠٠ } فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ { ١٠١ } فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ { ١٠٢ } فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ { ١٠٣ } وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ { ١٠٤ } قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ { ١٠٥ } إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ { ١٠٦ } وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ { ١٠٧ } وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ { ١٠٨ } سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ { ١٠٩ } كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤) ، قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى :

(١) تفسير الطبري : (٨٥/٢٣) ، ويراجع فتح القدير للشوكاني : (٤٠٤/٤).

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس : (٣٠٦/١) ، ويراجع تفسير ابن عباس : (١٦/٤) ، فتح القدير : (٤٠٦/٤).

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : (١٨/٤) ، ويراجع قصص الأنبياء ؛ لابن كثير : (١٠٨ - ١٠٩) ، وتفسير أضواء البيان : (٣١٧/٦).

(٤) سورة الصافات : الآية ٩٩ - ١١٠.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية؛ لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه: فبشرناه بإسحاق، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً: وبشرناه بإسحاق، فهو تكرر لا فائدة فيه، ينزه عنه كلام الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فدي بالذبح العظيم، هو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك. ومعلوم في اللغة العربية أن العطف يقتضي المغايرة، فأية الصفات هذه دليل واضح على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم^(٢).

٢- وأما الموضع الثاني الدال على أن الذبيح هو إسماعيل ما ورد في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٣)؛ لأن رسل الله من الملائكة بشرت إبراهيم وامرأته بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب. فهذه الآية أيضاً دليل على أنه إسماعيل^(٤).

٣- واستدل اصحاب هذا الرأي برواية الإمام أحمد في مسنده، عن صفية^(٥) بنت شيبه قالت: «أخبرتني امرأة من بني سليم، ولدت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان^(٦) بن طلحة، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لي

(١) سورة الصافات: الآية ١١٢.

(٢) انظر: أضواء البيان (٣١٧/٦).

(٣) سورة هود: الآية ٧١.

(٤) انظر: تفسير أضواء البيان (٣١٨/٦).

(٥) هي صفية بنت شيبه بن عثمان العبدرية، روت عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وأم سلمة وأم حبيبة أزواج النبي ﷺ، وروى عنها ابنها منصور بن عبدالرحمن والحسن بن مسلم وقتادة والمغيرة وآخرون، وذكرها ابن حبان في ثقات التابعين.

انظر: الإصابة (٧٤٣/٧)، والاستيعاب (١٨٧٣/٤).

(٦) هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي أسلم في هدنة الحديبية. وشهد الفتح مع النبي ﷺ، فأعطاه مفتاح الكعبة،

رسول الله ﷺ: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما، فخرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي»^(١).

٤ - واستدلوا بما روي عن ابن عباس «أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة حتى يبس»^(٢).

يقول ابن كثير وقد قال بأنه إسحاق: طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأخبار، أو من صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل. وما أحسن ما استدل به ابن كعب^(٣) القرظي على أنه إسماعيل، وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(٤).

قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق، وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم^(٥).

ومن قال بأن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ابن القيم - رحمه الله -، ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية. فيقول ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»: «وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل

سكن المدينة إلى أن مات بها سنة (٤٢هـ)، وقيل مات بمكة.

انظر: الاستيعاب (٣/١٠٣٤)، الإصابة (٤/٤٥٠).

(١) رواه أحمد في مسنده: (٤/٦٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/١٦) و تفسير القرطبي (١٥/١٠٦)، و تفسير الثعلبي (٨/١٥٥).

(٣) هو محمد بن كعب القرظي المدني، أبوه كعب من سبي بني قريظة، وكان قد نزل بالكوفة ثم المدينة، وحدث محمد عن كثير من الصحابة، كما روى عنه خلق كثير، وكان ثقةً عالماً كثير الحديث، توفي سنة (١٢٠هـ).

انظر: سير أعلام النبلاء (٥/٦٥)، وتقريب التهذيب (١/٥٠٤).

(٤) سورة هود: الآية ٧١.

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٩).

بأكثر من عشرين وجهاً، ولا ريب أن الذبيح كان بمكة؛ ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة، ورمي الحجارة تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم؛ لكانت القرابين والنحر بالشام كما يزعمون لا بمكة»^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والذي يجب القطع به انه إسماعيل وهذا الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة، وهو الذي تدل عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب، فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره)، وفي لفظ: (وحيده)، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي في أيديهم «اذبح ابنك إسحاق»، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم؛ لأنها تناقض قوله (بكر)، و(وحيدك)، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ {٧٠} وأمرأته قائمةً فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب»^(٢)، فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في لفظ واحد»^(٣).

وقد توقف في الترجيح من هو الذبيح بعض الأئمة والمفسرين منهم: الإمام السيوطي، والشوكاني، والزجاج - رحمهم الله -^(٤).

(١) زاد المعاد (٧١/١).

(٢) سورة هود: الآية ٧٠ - ٧١.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٣١/٤).

(٤) انظر: تفسير فتح القدير: (٤٠٤/٤).

والمرجح في ذلك والله أعلم أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وصدق ابن كثير - رحمه الله - في قوله: «والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان ظاهراً طيباً مطيعاً لله ﷻ»^(١).

وإسماعيل وإسحاق كلهم أنبياء، طاهرون، مكرمون، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وأبناء نبي كريم، و خليل الرحمن إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وقد أثنى الله تعالى على نبيه، وابن نبيه، و خليله إسماعيل عليه الصلاة والسلام، حيث أكرمه بالنبوة، وامتدحه في غير ما موضع في كتابه ﷻ، قال تعالى عنه: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ {٥٤} وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا^(٢).

وقد أثنى الله تعالى على إسماعيل بصدق الوعد، وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء، تشريفاً وإكراماً؛ لأنه المشهور من خصاله، فكان لا يعدُّ أحداً بشيء إلا وفى به، وقد وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به، حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

وفي قوله تعالى عن إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ دلالة على تقدمه بالفضل على أخيه إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، حيث وصفه الله بالنبوة فقط، وإسماعيل بن إبراهيم وصفه الله بالنبوة والرسالة^(٤).

وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من إبراهيم إسماعيل وذكر تمام الحديث»^(٥) وقيل إن الله أرسله إلى قبيلة جرهم في الحجاز^(٦).

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

(١) تفسير ابن كثير: (١٩/٤).

(٢) سورة مريم: الآية ٥٤ - ٥٥.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (١١٤/١١)، تفسير الرازي: (١٩٨/٢١)، تفسير القاسمي: (٨٤/٥).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (١٢٦/٣).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، رقم الحديث: (٢٢٧٦)، (١٧٨٢/٤).

(٦) تفسير القرطبي: (١١٦/١١).

مَرْضِيًّا ﴿، فهذا أيضاً من الثناء الجميل من الله تعالى، والصفة الحميدة، والخله السريرة، حيث كان صابراً على طاعة ربه ﷻ، أمراً بها أهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. ^(١) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ^{(٢)(٣)}.

فقد كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة، فكان يبدأ أهله بالأمر بالصلاح، والصلاة، والزكاة؛ ليجعلهم قدوة لمن وراءهم، ولأنهم أولى من سائر الناس بذلك، وأيضاً فإن أهل الرجل أحق من يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى من غيرهم، وهذا لا يمنع من أن تدعى الأمة كلها إلى الصلاة والزكاة وعدم الإخلال بهما ^(٤).

ثم إن وصفه بقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾، فهذا أيضاً من الثناء الجميل، وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعته بأعلى الدرجات ^(٥). وقد ورد في قصة الذبيح روايات إسرائيلية ذكرها بعض المفسرين كابن جرير والسيوطي، تدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام ^(٦).

ولم يقف الأمر عند الموقف على الصحابة التابعين، بل رفعوا ذلك إلى النبي ﷺ، وكل هذه الأخبار فيها من الموقف والضعيف والموضوع كثير، ولم يصح منها حديث مرفوع عن الرسول عليه الصلاة والسلام يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام ^(٧).

(١) سورة طه: الآية ١٣٢.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (١٢٦/٣ - ١٢٧).

(٤) انظر: تفسير الرازي: (١٩٩/٢١)، تفسير القاسمي: (٨٤/٥).

(٥) انظر: تفسير الرازي: (١٩٩/٢١).

(٦) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٨١/٢٣)، و تفسير الدر المنثور (١٠٧/٧).

(٧) انظر: تفسير ابن كثير (١٧/٤)، ويراجع الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبه (ص ٢٤٧).

هذا وإن لكل نبي من الأنبياء ما اختصه الله من الشرف ، كما اختص موسى عليه السلام بالتكليم وإبراهيم عليه السلام بالخلة ، ولن يمنع من إثبات الذبح لإسحاق عليه السلام شيء ، بل هو نبي كأيبه جاءت به البشارة من عند الله ، ولو كان الأمر له بالذبح لسمع وأطاع كما هو شأن الأنبياء ، إلا أن لثبوت الشرف والكرامة شرطاً ، ألا وهو أن يصح النص من القرآن أو السنة ، وهذا ما لم يصح ولم يوجد ، ولو صح لكنا أول المؤمنين المصدقين^(١).

ومن الروايات الإسرائيلية في قصة إسماعيل عليه السلام ما ورد في قصة بناء الكعبة ، وذلك فيما يتعلق في أن آدم كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، وأن الله أنزل ياقوتة من الجنة في موضع البيت فكانت أساساً له .

- وفي أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يكونا يعلمان أين البيت حتى بعث الله ريحاً يقال لها الخجول.

- وفي أن الله استودع الركن أبا قبيس ، فلما بناه إبراهيم ناداه يا أبا قبيس .

وقد ذكر هذه الروايات الإسرائيلية السيوطي في تفسيره^(٢).

وكل هذه الروايات من الإسرائيليات ، لأنها آثار مرسله ، ولا يصح منها شيء عن رسول

الله ﷺ^(٣).

(١) انظر : صحيح قصص القرآن للبيهقي (ص ١٦٠).

(٢) انظر : تفسير الدر المنثور (٦/٣٠) ، ويراجع في ذلك موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٢/٦٤٨)..

(٣) انظر : موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٢/٦٤٨).

الفوائد والدروس والعبر المستفادة من هذا المبحث:

١- لنا في أنبياء الله الأسوة الحسنة، وفي آل بيتهم، وللشباب المسلم في إسماعيل الأسوة الحسنة، فقصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام مع والده، وما كان فيها من ابتلاء شديد، ومحنة عظيمة، في أن يموت ذبحاً على يد والده إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ورغم ذلك لم يتردد عندما أخبره والده بما رآه في المنام، أنه يذبحه، بل شجع والده في المضي قدماً لتنفيذ أمر الله: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

فكان إسماعيل من الصابرين على أمر المولى جلّ في علاه، وما أراد أن يتلي به ذلك الوالد وذلك الولد؛ ليظهر الله في ذلك الابتلاء قوة الإيمان التي تعمر قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقلب ابنه الصالح الصادق كما وصفه ربه، فننظر إلى طاعة هذا الوالد لأمر الله تعالى من ذبح قرّة عينه، وفلذة كبده، وإلى طاعة هذا الولد لأمر والده، وانقياده لذلك راضياً مستسلماً، باذلاً روحه لله تعالى^(١)، فإن الشباب في حاجةٍ لمثل أعلى يحتذى به في طاعة الله، والانقياد الكامل في الحياة للمولى جلّ في علاه، والتجرد من ملذات الدنيا الزائفة، وزخارفها الزائلة، والتي لا تزيد من سار في سُبُلها إلا وبالاً، والاستعلاء على شهواتها المضللة، وغواية الشيطان ومن أفضل ما يعين الشباب المسلم لذلك، هو أن يجعلوا في سيرة إسماعيل عليه الصلاة والسلام، كما عرضها لنا القرآن نموذجاً يقتدوا به، ومن سار على نهجه من السلف الصالح لهذه الأمة.

٢- على المؤمن أن يعلم أن الله ﷻ يفرج على عباده المؤمنين المنقادين لأوامره، المنتهين عن نواهيه، السائرين على نهجه، ما يمر بهم من شدائد ومحن وكربات، ما داموا منقادين ثابتين على طاعة الله، منفذين لأمره تعالى، وهذا ما دل عليه قوله سبحانه في قصة إبراهيم مع ابنه: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وليعلم المؤمن أنه عرضة للابتلاء والاختبار؛ ليبين بذلك مدى الطاعة، ومدى التمسك بأوامر الله في السراء والضراء، فهذه سنةٌ إلهيةٌ، وقد امتحن الله وابتلى من عباده من اصطفاهم، كخليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

(١) انظر: سمط النجوم العوالي: (١/١٩٣).

٣- ومما استفاد من الابن الصالح صادق الوعد، الرسول النبي إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ما امتدحه به ربه ﷻ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، فمعنى ذلك أنه كان يهتم بأمر دينهم.

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: «وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقتة عليهم بالدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس»^(١)، فقد امتدحه الله لأجل اهتمامه بأهل بيته بحثهم، وأمرهم على طاعة الله، والالتزام بشرعه سبحانه، فالواجب على المسلم القيام بحق بيته وحق أهله، بأن يتتبع أمرهم في أمور دينهم ومناصحتهم، أكثر من اهتمامه بأمور دنياهم، ولأمور الدنيا من الحق نصيب، ولكن لا يجعل المسلم أمر الدنيا شغل أهله الشاغل، وينسى معها أمر الدين، فقد حث الله عباده في كتابه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٢)، فالمراد أو صوا أهلكم بتقوى الله.

يقول قتادة: «تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قدعتهم^(٣) عنها، وزجرتهم عنها»^(٤)، فلا تكون وقايتهم من النار كما أمر الله إلا بأمرهم على طاعة الله، ونهيهم عن معصيته.

٤- ومن الواجب على المؤمن الطائع لأمر ربه، أن لا تأخذه الشفقة والمحبة لأهله في ارتكاب معاصي الله، أو ترك شيء مما شرعه الله إيثاراً، وتحقيقاً لرغبة أو منفعة لأحد من أولاده أو أهله.

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أثر حب الله وانقياده لأمره ﷻ على حب ولده، عندما بلغ معه المبلغ الذي يسعى مع أبيه في أمور دنياه معيناً له على أعماله^(٥).

(١) تفسير الرازي: (١٩٩/٢١).

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) قدعته عن الأمر إذا كففته.

انظر: لسان العرب (٢٦٢/٨)، مادة (قدع).

(٤) تفسير ابن كثير: (٣٩٢/٤).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٩٩/١٥).

المبحث الثالث

نبأ ابني آدم عليه الصلاة والسلام

قص الله ﷻ في القرآن الكريم نبأ وخبر ابني آدم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهما هابيل وقايل بإجماع المفسرين. وهو قول الجمهور بأن هذا الخبر هو خبر ابني آدم لصلبه، وكيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه، وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله ﷻ، ففاز المقتول بوضع الآثام ودخول الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين^(١).

الآيات الواردة في شأنهما:

قال تعالى: ﴿ وَآتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {٢٧} لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {٢٨} إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ {٢٩} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {٣٠} ﴾^(٢).

وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى شرع لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال.

وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان آدم ﷺ يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قاييل وضيئة، فأراد قاييل أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً، فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٢/٢).

(٢) سورة المائدة: الآيات ٢٧ - ٣٠.

قاييل ، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه^(١).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

- حسد قاييل لأخيه وعزمه على قتله:

فقد أشارت الآية الكريمة إلى أن ابني آدم عليه الصلاة والسلام قربا قرباناً ، والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله ﷻ من ذبيحة أو صدقة^(٣).

يقول الراغب في كتابه مفردات القرآن : «القربان ما يتقرب به إلى الله ، وصار في التعارف اسماً للنسيكة التي هي الذبيحة ، وجمعه قرايين»^(٤).

وقد قال أهل التفسير في بيان هذا القربان : إن ابني آدم كان أحدهما صاحب زرع ، وهو قاييل ، والآخر صاحب غنم ، وهو هاييل ، وإنهما أمرا أن يقربا قرباناً ، وإن هاييل قرب خير غنمه ، وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه ، وأن قاييل قرب شر زرع غير طيبة به نفسه ، وأن الله تبارك وتعالى تقبل قربان صاحب الغنم - أي هاييل - ، ولم يتقبل قربان صاحب الزرع - أي قاييل -^(٥).

والتقبل هو : قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً^(٦).

قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾^(٧).

وقد قال جماعة من السلف : كان قربان هاييل كبشاً ؛ لأنه كان صاحب غنم ، أخذه من

(١) تفسير ابن كثير بتصرف يسير : (٤٢/٢).

(٢) سورة المائدة : الآية ٢٧ .

(٣) تفسير الرازي : (١٦٢/١١).

(٤) المفردات في غريب القرآن : (٣٩٩/١).

(٥) انظر : تفسير ابن كثير : (٤٣/٢).

(٦) المفردات للراغب : (٣٩١/١).

(٧) سورة الأحقاف : الآية ١٦ .

أجود غنمه، فَتَقْبَلُ قربان هابيل، فَرُفِعَ إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذبيح
الطيب^(١).

قال بذلك سعيد بن جبير وغيره، فكان ذلك الكبش يرتع في الجنة حتى أهبط إلى إبراهيم
في فداء ابنه، يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - : «قاله ابن عباس أنه الكبش الذي فُدي به
الذبيح ... وهو مناسب والله أعلم»^(٢).

قال الفاكهي^(٣) : «ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء أن الكبش الذي فُدي به إسماعيل
هو الكبش المتقبل من قربان ابني آدم قابيل وهابيل حين قربا قرباناً، وهو الذي قربه هابيل كما
في الآية الشريفة» وروى ذلك بسنده عن ابن عباس^(٤).

وقيل كانت علامة القبول أن تجيء نار فتأكل المتقبل، ولا تأكل المردود، ومنه قوله
تعالى : ﴿حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾^(٥).

فإن نزلت نار وأكلت القربان، فذلك دليل قبول، وإلا كان تركه دليل عدم القبول^(٦).
فقال قابيل لأخيه : تُقبَلُ قربانك، ولم يتقبل مني، والله لأقتلنك، فهو إنما غضب عليه
وحسده ؛ لقبول قربانه، فقال له أخوه : ما ذنبي ﴿إِنما يَتَقَبَلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ممن اتقى الله
في فعله، أي لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال، القبول المقترن بالرضا والإثابة إلا من

(١) تفسير فتح القدير : (٣٠/٢).

(٢) انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (١٧٨/٢)، و تفسير ابن كثير : (٤٤/٢)، وراجع تفسير الطبري :
(١٨٦/٦)، وأيضاً الثعالبي : (٥٠/٤)، و تفسير العز بن عبدالسلام : (٣٨٠/١).

(٣) هو عبدالله بن محمد بن العباس المكي الفاكهي، أبو محمد روى عنه الحاكم وعبدالرحمن النحاس، والبزار وغيرهم وله
تصانيف في أخبار مكة، توفي سنة (٥٣هـ).

انظر : الفهرست (ص ١٥٩)، سير أعلام النبلاء (٤٤/١٦).

(٤) سمط النجوم العوالي : (١٩٢/١ - ١٩٣).

(٥) انظر : أحكام القرآن للجصاص : (٤٤/٤)، و انظر : تفسير البحر المحيط : (٤٧٦/٣).

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٨٣.

(٧) تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (١٧٨/٢).

المتصفين بالتقوى^(١).

- ما قاله هابيل حين سمع تهديد أخيه له بالقتل:

لما سمع هابيل ما قال له أخوه من تهديد له بالقتل، وعزمه على ذلك، أجابه بما أخبر الله ﷻ عنهما في كتابه الكريم بقوله: ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾^(٢).

أي: فقال له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعدده أخوه بالقتل من غير ما ذنب منه إليه، لئن مددت إليّ يدك لتقتلني ظلماً، فأنا لا أمد يدي لأقتلك، فلست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المناهية لتقوى الله، فلا أقابل صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة، ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي أخاف من أن أصنع كما تريد أن تصنع؛ بل أصبر وأحتسب^(٣).

يقول ابن كثير- رحمه الله تعالى-: «وقوله له لما توعدده بالقتل: ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾ دل على خُلُق حسن، وخوف من الله تعالى وخشية منه، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله»^(٤).

ولهذا فقد ثبت في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٥).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤/٢)، وتفسير المنار: (٢٨٤/٦).

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٨.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤/٢)، تفسير القاسمي: (٦٧/٣)، تفسير المنار: (٢٨٤/٦).

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير: ص ٣٤.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، (باب: إذا التقى المسلمان بسيفيهما) الحديث الطويل: (٦٦٧٢)، (٢٥٩٤/٦)،

وأخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، (باب: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما) حديث (٢٨٨٨)، (٢٢١٣/٤).

قال عبدالله بن عمر: وأيم الله إن كان لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج يعني الورع^(١).

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فاكسروا قسيكم^(٢)، وقطعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دُخِلَ على أحدكم بيته فليكن كخير ابني آدم»^(٣).

- تذكير هابيل لأخيه بعذاب الآخرة:

ولما رأى أنه لم ينفع معه ما قاله، ليمنعه من أن يرتكب جُرمه الذي اراد خوفه بعذاب الآخرة، فقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

يقول الشوكاني في تفسيره: «وهذا تعليل لامتناعه من المقاتلة بعد التعليل الأول وهو: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾»^(٥).

واختلف المفسرون في المعنى: فقيل: أراد هابيل إنني أريد أن تبوء بالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حربصاً على قتلك، وإيأثمك الذي تحملته بسبب قتلي.
وقيل: المراد بإثمِي الذي يختص بي، فيطرح عليك بسبب ظلمك لي، وتبوء بإثمك في

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٤/٢)، تفسير الطبري: (١٩١/٦).

(٢) القسي: هو نوع من السيوف، فضته صلبة رديئة، وجمعه قسيان، كصبي وصبيان.

انظر: مختار الصحاح (٢٢٤/١) مادة (ق س)

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٤١٦/٤)، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب في النهي عن السعي عن الفتنة، (٤٢٥٩)، (١٠٠/٤)، والترمذي في كتاب الفتن، باب: ما جاء: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، حديث (٢١٩٤)، (٤٨٦/٤).

(٤) سورة المائدة: الآية ٢٩.

(٥) تفسير فتح القدير: (٣١/٢).

قتلي^(١) ... ، وهذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف ؛ فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فطرح عليه»^(٢).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٣).

وقيل: المعنى إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(٤) ، وقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضَلُّوا﴾^(٥) أي أن لا تضلوا^(٦).

ويقول الطبري - رحمه الله تعالى - : والصواب من القول في ذلك أن يقال: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي ، وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾.

وأما معنى ﴿وَأِثْمِكَ﴾ فهو إثمه بغير قتله ، وذلك معصيته لله جل ثناؤه في أعمال سواه.

ويقول الطبري معللاً: «وإنما قلنا ذلك هو الصواب لجماع أهل التأويل عليه ؛ لأن الله ﷻ قد أخبرنا أن كل عامل جزاء عمله له أو عليه ، وإذا كان ذلك حكمه في خلقه ، فغير جائز أن يكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبتها بنفسه دون ما ارتكبه قتيله.

إذن فالمراد: أنني أريد أن تبوء بإثم قتلتي إن قتلتي ؛ لأنني لا أقتلك ، فإن أنت قتلتني ؛

(١) انظر: تفسير فتح القدير (٣١/٢) .

(٢) الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرح عليه ثم طرح في النار». أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١)، (٤/١٩٩٧).

(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٣.

(٤) سورة النحل: الآية ١٥.

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٦) انظر: تفسير فتح القدير: (٣١/٢).

فإني مریدٌ أن تبوء بإثم معصيتك الله في قتلك إياي ...»^(١).

فخوِّفه بعذاب الآخرة وعذاب النار، فقال: ﴿ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾.

قال ابن عباس: خوِّفه بالنار فلم ينته، ولم ينزجر.

أي فتكون بما حملت من الإثمين، من أهل النار في الآخرة؛ لأنك تكون ظالماً والنار جزاء كل ظالم^(٢).

- تدرج هابيل في وعظ أخيه:

ومن الملاحظ أن هابيل قد تدرج في وعظه لأخيه ليصرفه عن عزمه على قتله، فقال له بداية: إنه لم يصدر منه إساءة ولا ذنب إليه حتى يريد قتله، وأن سبب عدم قبول قربانه يرجع إلى عدم التقوى؛ لأن الله إنما يتقبل من المتقين، ثم بين بعد ذلك لأخيه أن لا نية عنده في قتله إذا أراد هو قتله؛ لأنه يخاف الله رب العالمين. ثم ذكره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه، وإثم من اعتدى عليه، وإنه بهذين الإثمين يكون من أصحاب النار، وهذا جزاء كل ظالم^(٣).

- قابيل سولت له نفسه قتل أخيه:

وبعد هذا القول من أخيه، وبعد هذا الوعظ لم يرتدع ذلك الجاني، ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها حتى طوعت له قتل أخيه، الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه^(٤)، ولذا قال الله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٥).

أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه؛ فقتله، أي بعد هذه الموعظة

(١) تفسير الطبري: (١٩٣/٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤٦/٢)، تفسير المنار: (٢٨٥/٦).

(٣) انظر: تفسير المنار: (٢٨٥/٦).

(٤) انظر: تفسير السعدي: (٢٢٩/١).

(٥) سورة المائدة: الآية ٣٠.

وهذا الزجر ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة^(١).

يقول الرازي - رحمه الله تعالى - عن هذه الآية: «قال المفسرون: سهلت له نفسه قتل أخيه، ومنهم من قال: شجعته، وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفاً له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلاً عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه، فهذا هو المراد بقوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾»^(٢).

والملاحظ في الآية أنها جاءت بالتصريح بأخوته في قوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ وذلك لبيان عظيم قبيح ما سولت له نفسه، فهذا الأخ الذي كان حقه عليه أن يحفظه من كل من قصده، وأراده بالسوء بالمدافعة عنه وبالتحمل على نفسه، إلا أنه هو الذي قتله فلم يحفظ عهد الأخوة ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ديناً، إذ صار كافراً، حاملاً للدماء إلى يوم القيامة، ودنياً، إذ صار مطروداً مبغضاً للخلائق»^(٣).

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٦/٢).

(٢) تفسير الرازي: (١٦٤/١١).

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (٩٩/٣).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الديات، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ باب، قوله: (ومن أحيائها) حديث (٦٤٧٣)، (٢٥١٨/٦)، وأخرجه مسلم كتاب القسامة، باب: بيان إثم من سن القتل الحديث (١٦٧٧)، (١٣٠٣/٣).

- الغراب يُعلم قابيل دفن أخيه:

فلما قتل أخاه، لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت من بني آدم^(١).

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾^(٢).

أي بعث الله غراباً يبحث في الأرض، أي يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً.

وهذا من الاختصار، ومعناه: بعث غراباً يبحث التراب على غراب ميت، وكذا رواه السدي عن الصحابة: «أنه تعالى بعث غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفره، ثم حتى عليه حثياً»^(٣).

﴿لِيُرِيَهُ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي بدنه؛ لأن بدن الميت يكون عورة، وسُمِّي سَوْءَةً؛ لأنه مما يسوء ناظره^(٤).

فلما رأى ما فعل الغراب في دفن الغراب الآخر الذي قتله، أو وجد ميتاً، قال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(٥). فاعترف على نفسه باستحقاق العذاب (ياويلتا) هي كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة، ولفظها لفظ النداء، كأن الويل غير حاضر له فناداه ليحضر، أي أيها الويل احضر فهذا أوان حضورك، ثم قام قابيل ودفن أخاه^(٦).

يقول الألوسي: «يا ويلتا: كلمة جزع وتحسر، والويل، كالويل - الهلكة - كأن المتحسر ينادي هلاكه وموته، ويطلب حضوره بعد تنزله منزلة من ينادي، ولا يكون طلب الموت إلا ممن كان في حال أشد منه: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ تعجب من

(١) تفسير السعدي: (٢٢٩/١).

(٢) سورة المائدة: الآية ٣١.

(٣) تفسير ابن كثير (٤٦/٢).

(٤) انظر: تفسير السعدي: (٢٢٩/١)، تفسير القاسمي: (٩٩/٣)، ويراجع تفسير ابن كثير: (٤٦/٢).

(٥) سورة المائدة: الآية ٣١.

(٦) انظر: تفسير الرازي (١٦٥/١١).

عجزه عن كونه مثله ؛ لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه ، مع كونه أشرف منه ﴿ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ ، وكان ندمه على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره ، وتلمذة الغراب ، فإنها إهانة ، ولذا لم يلهم من أول الأمر ما ألهم^(١) .

وأصبح بعد هذا من النادمين على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله ، وسخط عليه بسببه أبواه ، وإخوته ، فكان ندمه لأجل هذه الأسباب ، لا لكونه معصية ، فلم يندم ندم التائبين فلم ينفعه ندمه^(٢) .

وقد اختلف أهل العلم في سبب تقريب ابني آدم القربان ، وسبب قبول الله ﷻ ما تُقبل منه ، ومن اللذان قربا القربان .

فقال بعضهم : كان ذلك عن أمر الله إياهما بتقريبه ، وكان سبب القبول أن المتقبل منه قرب خير ما له ، وقرب الآخر شر ما له ، وكان المقربان هما ابني آدم لصلبه أحدهما هايل ، والآخر قايل^(٣) .

وقال آخرون :

لم يكن ذلك القربان عن أمر الله إياهما به ، روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس : قال ((كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين فيتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالوا : لو قربنا قرباناً ، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فأكلته ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قرباناً ، وكان أحدهما راعياً ، والآخر حراثاً ، وأن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر أبغض زرع ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة ، وتركت الزرع ، وأن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورد علي ، فلا والله لا تنظر الناس إلي وإليك وأنت خير مني ، فقال : لأقتلك ، فقال له أخوه : ما ذنبي إنما يتقبل الله من المتقين))^(٤) .

(١) تفسير روح المعاني باختصار وتصرف : (١١٦/٦ - ١١٧)

(٢) انظر : تفسير النسفي : (٢٨٠/١) ، تفسير الرازي : (١١/١٦٦) .

(٣) انظر : تفسير الطبري (١٩٠/٦) .

(٤) تفسير الطبري (١٨٧/٦) .

وقال آخرون:

إن آدم عليه السلام أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توامة هاييل ، وأمر هاييل أن ينكح أخته توامة قابيل ^(١). روي ذلك عن بعض أهل العلم بالكتاب ، فقد روى ابن جرير بسنده ، عن ابن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول ، أن آدم أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توامة هاييل ، وأمر هاييل أن ينكح أخته توامة قابيل ، فسلم لذلك هاييل ، ورضي ، وأبى قابيل ذلك ، وكرهه ، تکرهاً عن أخت هاييل ، ورغب بأخته عن هاييل ، ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول ، كانت أخت قابيل من أحسن الناس ، فضن بها على أخيه ، وأرادها لنفسه ... فالله أعلم أي ذلك كان ^(٢).

وقال آخرون : اللذان قربا قرباناً وقص الله عز وجل قصصهما في هذه الآية رجلا من بني إسرائيل ، وليسا من ولد آدم لصلبه ^(٣).

فقد ذكر ابن جرير عن الحسن البصري ، قال : «كان الرجلان اللذان قال الله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ من بني إسرائيل ، ولم يكونا ابني آدم لصلبه ، وإنما كان القربان من بني إسرائيل ، وكان آدم أول من مات» ^(٤).

ويقول ابن كثير - رحمه الله - جواباً على ذلك : «وهذا غريب جداً وفي إسناده نظر ، والمفسرون في هذه القصة كلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه ، كما هو ظاهر القرآن ، وكما نطق به الحديث في قوله : «إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل» وهذا ظاهر جلي» ^(٥).

وقال الشوكاني : «وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين هل هما لصلبه أو لا؟». فذهب الجمهور إلى الأول ، وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني.

(١) انظر : تفسير الطبري (١٨٨/٦) ، و تفسير ابن كثير (٤٣/٢) .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري : (١٨٨/٦) ، و تفسير ابن كثير (٤٣/٢) .

(٣) انظر : تفسير الطبري (١٨٩/٦) .

(٤) انظر : تفسير الطبري (١٨٩/٦) .

(٥) تفسير ابن كثير (٤٧/٢)

وقال إنهما كانا من بني إسرائيل ، فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود وكانت بينهما خصومة فتقربا بقربانين ، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل^(١).

قال ابن عطية : «وهذا وهم ، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح قول الجمهور»^(٢).

وقد ذكر المفسرون كثيراً من الروايات ، عن كيفية قتل ابن آدم لأخيه ، وكثيراً من الأقوال ، وأولى الأقوال كما قال ابن جرير - رحمه الله - في تفسيره :

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال إن الله عز ذكره قد أخبر عن القاتل أنه قتل أخاه ، ولا خبر عندنا يقطع العذر بصفة قتله إياه»^(٣).

وقد وردت روايات إسرائيلية في قصة ابني آدم عليهما السلام وذلك فيما يتعلق في دم ابن آدم المقتول ، وفي أن قابيل القاتل حمل أخاه هاويل الذي قتله سنة على عنقه .

- وفي أن قابيل اسودّ جسده وكان أبيض .
- وفي أن الله أخرج لقابيل جنية من ولد الجن ، وأهبط لهاويل حورية في صفات إنسية .
- وفي أن آدم عليه السلام لما قتل أحد ابنيه الآخر مكث مئة عام لا يضحك حزناً ، وأنه رثى ابنه بشعر^(٤).

وكل هذه الروايات من الإسرائيليات التي لاتصح ، وقد أعرضت عن إيرادها لأنه لم يثبت منها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما كلها روايات جاءت صريحة عن أهل الكتاب الذين اسلموا^(٥).

(١) تفسير فتح القدير : (٣٠/٢).

(٢) تفسير ابن عطية : (١٨٧/٢).

(٣) تفسير الطبري : (١٩٦/٦).

(٤) انظر : تفسير الدر المنثور (٢٦١/٣) ، و تفسير ابن جرير الطبري (١٩٧/٦) ، و تفسير القرطبي (١٣٤/٦) ، و تفسير البحر المحيط (٤٨٢/٣).

(٥) انظر : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبه (ص ١٧٧ - ١٧٩).

الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١ - التحذير من الحسد:

لعل أول فائدة تستفاد من هذا المبحث هو التحذير من صفة الحسد، وأنها صفة ذميمة، فالحسد يجر صاحبه إلى صفات ذميمة أخرى، كالكبر، ورد الحق، فهذا إبليس حسد آدم ﷺ أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية.

وقال بعض السلف: أول خطيئة عصي الله بها هي الحسد، ووعظ بعض الأئمة بعض الأمراء، فقال: إياك والكبر؛ فإنه أول ذنب عصي الله تعالى به، ثم قرأ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^(١) وإياك والحرص؛ فإنه أخرج آدم من الجنة، وهي جنة عرضها السموات والأرض يأكل فيها إلا شجرة واحدة، فنهاء عنها، فمن حرصه أكل منها، فأخرجه الله من الجنة، ثم قرأ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(٢).

وإياك والحسد؛ فإنه الذي حمل ابن آدم على أن قتل أخاه حين حسده، ثم قرأ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

كما أن الحسد من صفات اليهود، والنصارى، كما قال تعالى في كتابه عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

وقد أمرنا الله بالاستعاذة من شر الحاسد في سورة الفلق، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ {١} مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ {٢} وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ {٣} وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي

(١) سورة البقرة: الآية ٣٤.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٣.

(٣) انظر: الزواجر: (١/١٠١ - ١٠٢)، والآية من سورة المائدة: ٢٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

الْعُقْدِ {٤} وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ {٥} ﴿١﴾.

وحذرنا الرسول من الحسد، ونهانا عن الاتصاف بهذه الصفة التي يبغضها الله ورسوله، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن رسول الله ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»^(٢).

وفي السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة في ذم الحسد، والتحذير منه، والنهي عنه، والحسد يطلق ويراد به تمني زوال النعمة عن المحسود، وهذا حرام بالاتفاق، ويطلق أيضاً ويراد به الغبطة، وهي تمني حاله كحالة المغبط من غير تمني زوالها عنه^(٣).

والغبطة كما عرفها البعض هي أن لا تحب زوال النعمة، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى غبطة^(٤).

ومن قصة ابني آدم التي ذكرها الله تعالى في كتابه بين لنا سبحانه وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبرهما، وكيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له^(٥).

- وربما يعظم الإثم إن وقع التحاسد والبغضاء بين الإخوة، لما في ذلك من البغي وقطيعة الرحم، فالمسلم مطالب ومأمور أن لا يعتدي، ولا يحسد أخاه المسلم، فكيف بأخيه الذي تربطه به أخوة النسب، ثم إن الله ذكر في قوله سبحانه: ﴿فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، وقال أيضاً: ﴿قَالَ وَيَلْتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي﴾ فذكر سبحانه كلمة الأخ مرتين في الآية، يقول القاسمي في تفسيره لهذه الآية: والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سؤلته نفسه أي: الذي حقه أن يحفظه من كل من قصده بالسوء بالتحمل على

(١) سورة الفلق.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، كتاب الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابير، حديث رقم (٥٧١٨)، (٢٢٥٣/٥)، وأخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب: تحريم التحاسد والتباغض والتدابير،

برقم (٢٥٥٩) (١٩٨٣/٤).

(٣) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري: (٢٤٧/١).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي: (١٨٩/٣).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٢/٢).

نفسه^(١).

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٢).

٢- القتل من كبائر الذنوب:

ومن قصة ابني آدم يتبين عظيم حرمة الدماء، وأن القتل من المحرمات؛ بل ومن كبائر الذنوب، يقول الإمام السعدي - رحمه الله -:

«والخائف لله لا يقدم على الذنوب خصوصاً الذنوب الكبار، وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه، ودل قوله سبحانه: ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار...»^(٤).

لذا عقب الله ﷻ هذه القصة، وهي قصة ابني آدم وما جرى فيها من تعدٍ وظلم، وما كان عاقبة القاتل من الخسارة والندامة، في الدنيا والآخرة، بقوله: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٥).

وقد خص الله بني إسرائيل بالذكر لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس، ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم للأنبياء^(٦).

وقد كانت خطبة الرسول في حجة الوداع متضمنة لتحريم سفك الدماء، واستباحة القتل، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا

(١) انظر: تفسير القاسمي: (٩٩/٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده عن أبي بكره ﷺ: (٣٨/٥).

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٩.

(٤) تفسير السعدي: (٢٢٩/١).

(٥) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٦) انظر: تفسير فتح القدير: (٣٣/٢).

في شهركم هذا في بلدكم هذا»^(١).

ولذا كان من أمره عليه الصلاة والسلام أن نهى عن الإشارة بالسلاح، بأن يشير المسلم أو يرفع السلاح على أخيه المسلم، حتى وإن كان مازحاً، فقال: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار»^(٢).

٣- ويستفاد من هذه القصة، أن تقوى الله ﷻ، وإصلاح ما بين العبد وبين ربه، سبب للقبول، والنجاة، فمن قصة ابني آدم وكيف تقبل الله ﷻ قربان أحدهما، ولم يتقبله من الآخر، دليل على ثمره التقوى؛ لأنه سبحانه قال في الآيات: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

كذلك بيان عاقبة المعاصي، وكيف أنها شؤمٌ على صاحبها، وما يقترفه العبد من ذنوب ومعاصٍ وسيئات ربما تكون سبباً في الإحالة فيما بينه وبين ربه، ومن ثم عدم قبوله، وقبول أعماله، فهذه المعاصي والمنكرات لا تورث صاحبها إلا قسوة القلب، وعدم الخوف من الله تعالى، وبالتالي الذنوب يجر بعضها بعضاً، كما حدث لابن آدم الذي قتل أخيه.

٤- ومن الدروس المستفادة من قصة ابني آدم، أن من سنَّ سنة سيئة فعلية وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما أخبر الرسول ﷺ عن ابن آدم الذي يعتبر أول من سن القتل، وقتل أخيه ظلماً وعدواً، فقال: «لا تقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل من دمه؛ لأنه كان أول من سن القتل»^(٤)، فعلى المسلم الحرص على أن لا يكون من المبتدعين في دين الله، وأن لا يسير خلف دعاة الشر والفساد، حتى لا يكون من الذين يحملون أوزارهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب: قول النبي: رب مبلغ أوعى من سامع. حديث رقم (٦٧) (٣٧/١)، وأخرجه مسلم، كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ، حديث (١٢١٨)، (٨٨٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب: قول النبي: من حمل علينا السلاح فليس منا. حديث رقم (٦٦٦١) (٢٥٩٢/٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب: النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم. حديث رقم (٢٦١٧) (٢٠٢٠/٤).

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٧.

(٤) الحديث سبق تخريجه.

وأوزاراً مع أوزارهم.

٥- وفي قصة ابني آدم يقول الله تعالى عن ابن آدم المقتول: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، فدل على خلقه الحسن، وخوفه من الله وخشيته منه، فهذا هو الواجب على المسلم تجاه ما قد يواجهه من فتن، كما أخبر الرسول ﷺ، وأرشد إليه المسلمون في حال وقوع الفتنة، حتى إن دخل على أحدهم في بيته فليكن كخير ابني آدم، فقال: «فإن دخل على أحدكم بيته، فليكن كخير بني آدم»^(٢).

٦- ومما يستفاد من القصة، أن هابيل هو أول ميت من بني آدم، ولذلك جهلت سنة المواراة^(٣).

(١) سورة المائدة: الآية ٢٨.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) تفسير القرطبي: (١٤٢/٦).

المبحث الرابع

أبناء يعقوب عليه السلام

سيق وأن تحدثت عن نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام، وأنه والد يوسف عليه السلام، فهو نبي ابن نبي الله إسحاق بن إبراهيم عليهم أفضل الصلاة والتسليم جميعاً، ولم يذكر القرآن الكريم من أسماء أبناء يعقوب إلا يوسف عليه السلام النبي الكريم، وبقيّة أبنائه ورد ذكرهم إجمالاً في قصة يوسف، وفي قصة وصية يعقوب لهم.

وأسماءهم وردت في كتب التفسير، وهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزيالون، ويشجر، وأمهم ليا بنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة وهم: دان، ونفتالي، وجاد وأشر، ثم توفيت ليا، فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً، نشر الله منه اثني عشر سبطاً لا يحصي عددهم، ولا يعلم أنسابهم إلا الله^(١).

- وصية يعقوب عليه السلام لبنيه بالإسلام:

يقول تعالى عن نبيه يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما وصى بنيه قبل موته: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

الخطاب في هذه الآية موجهاً إلى اليهود والنصارى المكذبين بمحمد عليه السلام، المجاحدين بنبوته، والذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم، ونسبوهم إلى اليهودية، والنصرانية، فرد الله تعالى عليهم، وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية والإسلام، فهذه الآيات نزلت تكذيباً من

(١) انظر: تفسير الطبري: (٥٦٢/١)، تفسير القاسمي: (٣٧١/١)، تفسير المحرر الوجيز: (٢١٥/١)، تفسير القرطبي: (١٣٠/٩).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٣.

الله تعالى لليهود والنصارى في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب، أنهم كانوا على ملتهم، فقال لهم في هذه الآية: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، فتعلموا ما قال لولده، وقال له ولده، ثم أعلمهم ما قال لهم، وما قالوا له^(١).

فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وحضور الموت يراد به حضور مقدماته وأسبابه، فقال لبنيه هذا السؤال على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به^(٢).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾، والمراد أي شيء تعبدون من بعدي؟ أي من بعد وفاتي، فأجابوه بما قررت به عينه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾، أي: نعبد معبودك الذي تعبد، ومعبود آبائك إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق إلهاً واحداً، أي: نخلص له العبادة، ونوحده له الربوبية، فلا نشرك به شيئاً، ولا نتخذ دونه رباً، ونوحده بالألوهية، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فجمعوا بين التوحيد والعمل، أي: ونحن له مطيعون خاضعون. ومن المعلوم أن المخاطبين بهذه الآيات من أهل الكتاب لم يحضروا يعقوب؛ لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا فقد أخبر الله عن يعقوب عليه السلام أنه أوصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية، فالإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم^(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٤)، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة، فمنها قوله عليه السلام: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى، وديننا واحد»^(٥).

(١) انظر: تفسير الطبري: (٥٦٢/١)، تفسير المحرر الوجيز؛ لابن عطية: (٢١٣/١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١٨٧/١)، تفسير السعدي: (٦٧/١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥٦٢/١ - ٥٦٣)، تفسير ابن كثير: (١٨٧/١)، تفسير السعدي: (٦٧/١).

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، حديث (٣٢٥٩)،

(١٢٧٠/٣).

وسمى الله كل واحد من العم والجد أباً، وبدأ بذكر الجد (إبراهيم عليه السلام)، ثم (إسماعيل) العم عليه السلام؛ لأنه أكبر من إسحاق، وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمه، والعرب تسمي العم أباً^(١).

- إبراهيم عليه السلام قد وصى أبناءه من قبل بالإسلام:

وقد كانت الايات السابقة على هذه الآية قد ذكرت ما وصى به نبي الله إبراهيم بنوه، فقال: ﴿وَمَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ {١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {١٣١} وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

فهذه الآية أيضاً ردُّ على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، أي: أنه ظلم نفسه بسوء تدبيره، وتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه عليه السلام إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طرق الضلالة والغي، فأى سفه أعظم من هذا أم أي ظلم أكبر من هذا، وقد أمره الله بالإخلاص له، والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرأ^(٣).

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٣٨/٢)، تفسير ابن كثير: (١٨٧/١).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٣٠ - ١٣٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (١٨٦/١).

فقال ﷺ عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾، أي: أن إبراهيم صلوات ربي وسلامه عليه وصى بهذه الكلمة وهي الإسلام في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا الذي أمر به أبناءه عليهم السلام، وهو إخلاص العبادة، والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له، فوصى بذلك إبراهيم عليه السلام بنيه، فعهد إليهم بذلك وأمرهم به، وأما قوله: ﴿وَيَعْقُوبَ﴾، فإنه يعني: ووصى بذلك الأمر أيضاً يعقوب بنيه بعد إبراهيم عليهم السلام جميعاً^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾، «وصاهم بالإسلام، ووصى يعقوب بمثل ذلك»^(٢).

فقال يعقوب لبنيه موصياً لهم قبل وفاته: ﴿يَا بَنِيَّ﴾، نداء منه لبنيه ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: أن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه، واجتباها لكم، وأدخلت الألف واللام في الدين.. لأن الذين خوطبوا من ولدهما أي - إبراهيم ويعقوب عليهما السلام - وبنيهما بذلك كانوا قد عرفوه بوصيتهما إياهم به، وعهدهما إليهم فيه، ثم قال لهم: إن الله اصطفى لكم هذا الدين الذي قد عهد إليكم فيه، فاتقوا الله أن تموتوا إلا وأنتم عليه. فأتى بلفظ موجز يتضمن المقصود، ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك لأن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى تأتية منيته، فلذلك قال لهم، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون؛ لأنكم لا تدرين متى تأتيةكم منياكم من ليل أو نهار، فلا تفارقوا الإسلام فتأتيةكم منيتكم، وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم، فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا^(٣).

يقول الرازي في تفسيره لهذه الآية: إن الله تعالى «لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه بالغ في وصية بنيه في الدين والإسلام، ذكر عقب ذلك أن يعقوب عليه السلام وصى بنيه بمثل ذلك تأكيداً

(١) انظر: تفسير الطبري: (٥٦٠/١).

(٢) تفسير الطبري: (٥٦٠/١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥٦٢/١)، تفسير القرطبي: (١٣٦/٢ - ١٣٧).

للحجة على اليهود والنصارى ومبالغة في البيان»^(١).

- في وصية إبراهيم ويعقوب ردُّ على اليهود والنصارى:

فهذه الآيات فيها إنكار على اليهود والنصارى الذين يزعمون أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا على اليهودية والنصرانية، فكذبهم الله ﷻ في كتابه فيما يزعمونه ويدعونه، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ {٦٧} إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢).

فالمسلمون الموحدون هم أولى بإبراهيم عليه السلام من اليهود، الذين يدعون انتسابهم وانتماءهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأبنائه الأنبياء المطهرين مما ينسبونه إليهم، فأولى الناس بإبراهيم من تمسك بهذا الدين القويم، دين الإسلام الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده، وهو دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين، فإن أحق الناس بموالاته إبراهيم هم الذين سلكوا طريقه فوحدوا الله واخلصوا له الدين^(٣).

ومن النصوص القرآنية التي خاطب الله بها اليهود والنصارى الذين ابتغوا غير دين الله، ونسبوا إلى أنبياء الله المكرمين ما ينتحلونه من دين باطل.

قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ {٨٣} قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(٤).

فهذه الآيه تنكر على من أراد وابتغى ديناً سوى دين الله الذي بعث به سائر أنبياءه

(١) تفسير الرازي: (٤/٦٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٧ - ٦٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣/٣٠٧).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٣ - ٨٤.

ورسله^(١). وفيها أمر لنبي الله محمد ﷺ في قوله: (قل آمنا بالله)، أي فقل لهم: آمنا بالله، أنه ربنا وإلهنا لا إله غيره، ولا نعبد أحداً سواه، وصدقنا بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله، فأقرنا به، وصدقنا أيضاً بما أنزل على إبراهيم خليل الله وعلى ابنه إسماعيل وإسحاق وابن ابنه يعقوب، وبما أنزل على الأسباط، وهم من ذرية يعقوب الاثني عشر، وقد سبق بيان أسمائهم^(٢).

وصدقنا أيضاً مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوحي، وبما أنزل على النبيين من عنده، والذي أتى الله موسى وعيسى مما أمر الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ بتصديقهما فيه، والإيمان به، وهما التوراة التي أوتيتها موسى، والإنجيل الذي أوتيه عيسى، ولا نفرق بين أحدٍ منهم، فلا نصدق بعضهم ونكذب بعضهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم، كما كفرت اليهود والنصارى ببعض أنبياء الله وصدقت بعضاً، ولكننا نؤمن بجميعهم ونصدقهم^(٣).

- الأسباط هم ذرية أبناء يعقوب ﷻ:

ومما سبق ذكره في الآية تبين أن الأسباط هم ولد يعقوب عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى في سورة البقرة بعد أن ذكر سبحانه ما وصى به إبراهيم بنيه، وما وصى به يعقوب بنيه أيضاً: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(٤).

فالخطاب في هذه الآية لأمة محمد ﷺ، ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾: يعني القرآن، والأسباط هم: ولد يعقوب، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، فسموا الأسباط؛ لأنه

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣/٣٣٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣/٣٣٨).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

فكان من كل واحد منهم سبط^(١).

يقول ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسيره: « والأسباط الذين ذكرهم هم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ولد كل رجل منهم أمة من الناس؛ فسموا أسباطاً»^(٢).

فالأسباط حفدة يعقوب عليه السلام، ذراري أبنائه الاثني عشر، وقد كان فيهم أنبياء^(٣).

وليس كما قال البعض، أو زعم أهل الكتاب أن المراد بالأسباط: الموحى إليهم في الآيات أبناء يعقوب، إخوة يوسف، وأنهم أصبحوا أنبياء بعد أن استغفر لهم أبوهم.

- اختلاف العلماء في نبوة أبناء يعقوب سوى يوسف عليهما السلام:

اختلف الناس في نبوة أبناء يعقوب، وهذا الاختلاف مشهور بين العلماء^(٤)، إلا أن الراجح هو أنهم ليسوا بأنبياء، ومأثبيئ منهم سوى يوسف عليه الصلاة والسلام.

يقول الألويسي - رحمه الله -: «... إنهم لم يكونوا أنبياء، والمسألة خلافية، والذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً، أما السلف: فلم ينقل عن الصحابة منهم أنه قال بنبوتهم، ولا يحفظ عن أحد من التابعين أيضاً... إلى أن قال - رحمه الله -: فُسر الأسباط بأولاد يعقوب، فحسبه ناس قولاً بنبوتهم، وليس نصاً فيه؛ لاحتمال أن يريد بالأولاد ذريته لبنيه لصلبه»^(٥).

وذكر الشيخ ابن تيمية في مؤلف له خاص في هذه المسألة ما ملخصه الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار: « أن إخوة يوسف عليه السلام ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن، ولا عن النبي

(١) انظر: تفسير الثعالبي: (١١٢/١)، تفسير المحرر الوجيز: (٢١٥/١)، تفسير السمرقندي: (١٢٣/١)، تفسير القرطبي: (٥٦٨/١).

(٢) تفسير الطبري: (٥٦٨/١).

(٣) تفسير النسفي: (٧٣/١)، (١٦٤/١).

(٤) تفسير الرازي: (١٦٧/١٨).

(٥) تفسير روح المعاني (١٨٤/١٢).

ﷺ، بل ولا عن أحد من أصحابه ﷺ خبر بأن الله تعالى نبأهم، وإنما احتج من قال بأنهم نبؤوا بقوله تعالى في آيتي البقرة والنساء: ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾، وفسر ذلك بأولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم بنو إسرائيل، وكما يقال لسائر الناس بنو آدم، وقوله ﷺ: ﴿وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾^(١) صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سبط أمة^(٢).

فالصريح كما قالوا إن الأسباط في ولد يعقوب كالقبايل في ولد إسماعيل^(٣).

وأرجح ما قاله الألوسي - رحمه الله - في تفسيره: «تخصيص الأسباط في الآية ببنيه ﷺ لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى، ومن ادعاه فقد أخطأ، والصواب أنهم إنما سموا أسباطاً من عهد موسى ﷺ، ومن حينئذ كانت فيهم النبوة، فإنه لم يعرف نبي قبله إلا يوسف ﷺ».

ومما يؤيد ذلك أنه سبحانه لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم، قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

فقد ذكر يوسف ومن معه، ولم يذكر الأسباط، ولو كان إخوة يوسف قد نبؤوا كما نبئ؛ لذكروا كما ذكر، وأيضاً إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما يناسب النبوة وإن كان قبلها، وأنه تعالى لما قص قصتهم وما فعلوا بأخيه، ذكر اعترافهم بالخطيئة، وطلبهم الاستغفار من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة.

ولم يذكر سبحانه عن أحد من الأنبياء قبل النبوة ولا بعدها أنه فعل مثل هذه الأمور

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

(٢) تفسير روح المعاني: (١٢/١٨٤).

(٣) انظر: فتح الباري: (٨/٣٠٠)، عمدة القاري: (١٨/٢٣٦)، إعراب القرآن: (١/٢٦٨)، ويراجع كتاب الكليات: (١/٤٩٥).

(٤) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

العظيمة التي ذكرها الله عنهم في كتابه ، ولو لم يكن دليل على عدم نبوتهم سوى صدور هذه العظائم منهم لكفى ؛ لأن الأنبياء معصومون عن صدور مثل ذلك قبل النبوة وبعدها ، وأيضاً فإن القرآن لم يذكر أن أهل مصر جاءهم نبي قبل موسى غير يوسف عليهما السلام ، ولو كان منهم نبي لذكر...»^(١).

فالآيات السابقة وإن كانت قد دلت على أن شفقة الأنبياء عليهم السلام على أولادهم كانت في باب الدين وهمتهم مصروفة إليه دون غيره^(٢).

إلا أن قول النبي يعقوب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لبنيه عندما أرادوا الذهاب لمصر: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٣) دليل على حرص يعقوب عليه السلام على أبنائه ، وخوفه عليهم ، وأخذه بالأسباب في الأمور الدنيوية ، فقد أجمع جمهور المفسرين على أن يعقوب عليه السلام خاف من العين على أبنائه ؛ لأنهم كانوا موصوفين بالكمال ، والجمال ، وأبناء رجل واحد ؛ لذا فقد أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، وأن لا يدخلوا من باب واحد على ما هم عليه من العدد والهيئة ، فلم يأمن عليهم حسد الناس ، ثم قال عليه السلام : ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، فالإنسان مأمور بأن يراعي الأسباب المعتبرة في هذا العالم ، ومأمور أيضاً بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى^(٤).

(١) تفسير روح المعاني باختصار : (١٢/١٨٤).

(٢) انظر : تفسير الرازي : (٤/٦٨).

(٣) سورة يوسف : الآية ٦٧.

(٤) انظر : تفسير الرازي ، بتصرف واختصار : (١٨/١٣٧ - ١٣٩).

الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا البحث :

١- تضمنت الآيات ما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله تعالى ، حتى جعلوا ذلك وصيةً يوصون بها واحداً بعد واحد ، فأخبر تعالى عن إبراهيم أنه أوصى بملته الحنيفية بنيه ، وأن يعقوب أوصى بذلك ، وقدم بين يدي وصيته اختيار الله لهم هذا الدين ليسهل عليهم اتباع ما اختاره الله لهم ، ويحضهم على ذلك ، وأمرهم أنهم لا يموتون إلا عليه ؛ لأن الأعمال بخواتيمها ، ثم ذكر سؤال يعقوب لبنيه عما يعبدون بعد موته ، فأجابوه بما قررت به عينه من موافقته ، وموافقة آبائه الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده ، والانقياد لأحكامه .

وحكمة هذا السؤال أنه لما وصاهم بالحنيفية استفسرهم عما تكن صدورهم ، وهل يقبلون الوصية فأجابوه بقبولها ، وبموافقة ما أحبه منهم ؛ لتسكن بذلك نفسه ، ويعلم أنه قد خلف من يقوم مقامه في الدعاء إلى الله تعالى^(١) ، وأنه لشدة الحرص منه عليه الصلاة والسلام ، والتحريض وكبر الأمر عنده أخرجه مخرج السؤال ، فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾؟^(٢) .

٢- تقرير الله ﷻ لليهود والنصارى ، وتوبيخهم على دعواهم بأنهم ما كانوا شهدوا وصية يعقوب ، إذ فاجأه مقدمات الموت ، فدعواهم اليهودية والنصرانية على إبراهيم ويعقوب وبنينهم باطلة ، إذ لم يحضروا وقت الوصية ، ولم تنبئهم بذلك توراتهم ولا إنجيلهم ، فبطل قولهم ، إذ لم يتحصل لا عن عين ولا عن نقل ، ولا ذلك من الأشياء التي يستدل عليها بالعقل^(٣) .

٣- مشروعية وصية الوالد لأولاده قبل الموت ، ولفظ الوصية أكد من الأمر ؛ لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان أشد وأتم ، فدل على الاهتمام بالوصي به ، والتمسك به . وتخصيص الأبناء بالوصية ؛ لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، فتخصيص إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بنيهما في آخر

(١) انظر: تفسير البحر المحيط : (٥٨٩/١) .

(٢) انظر: تفسير آيات من القرآن الكريم : (٣٧/١) .

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط : (٥٨٩/١) .

عمرهما بالوصية عُلِمَ منه أن اهتمامهما بذلك كان أشد من اهتمامهما بغيره، وأنهما عليهما السلام ما مزجا بهذه الوصية وصية أخرى، وهذا يدل على شدة الاهتمام أيضاً^(١)، فالوالد يوصي أبناءه قبل موته بما يعود عليهم بالخير في أمور دينهم ودنياهم.

٤- إن الإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢)، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة أيضاً^(٣).

(١) انظر: تفسير القاسمي: (١/٣٧٢).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (١/٣٧٢).

المبحث الخامس

بنتا شعيب عليه السلام

تحدث القرآن عن بنات شعيب في أثناء ذكر قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وذلك عندما جاءه الرجل الناصح ليحذره من تأمر فرعون وملئه لقتله، ونصحه بالخروج من مصر، وخرج منها خائفاً يترقب، يرجو من الله النجاة من القوم الظالمين، وتوجه عليه الصلاة والسلام إلى مدين، وهي مدينة شعيب عليه السلام، سائلاً ربه جل وعلا أن يهديه سواء السبيل.

- الآيات الواردة في هذا الشأن:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ {٢٠} فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {٢١} وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ^(١).

فلما أخبره ذلك الرجل بما تمألاً عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك من قبل، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة، فخرج عليه السلام من مصر خائفاً يتلفت، فقد كان خائفاً من قتله النفس أن يقتل به، فكان يدعو الله بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فقد كان يدعو الله النجاة من هؤلاء القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله. ولما اتجه نحو مدين، وهي قرية شعيب عليه السلام، وسميت باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام أجمعين، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر، فما وصل حتى سقط خف قدميه^(٢).

وقد اختلف المفسرون في دعوته عليه السلام بقوله: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾،

(١) سورة القصص: الآية ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/٣٨٤)، تفسير الطبري: (٥٢/٢٠، ٥٣)، تفسير أبي السعود: (١/٦١٤).

فقيل : الطريق إلى مدين ، وقيل : الصراط المستقيم^(١) .

ويقول ابن كثير - رحمه الله - : «أي : الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ، فجعله هاديا مهدياً»^(٢) .

- وصول موسى إلى ماء مدين وما جرى له هنالك :

ولما وصل مدين ، وكان بها يومئذ قوم شعيب عليه السلام^(٣) ، وجد المرأتين اللتين ذكرهما الله في كتابه ، قال تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾^(٤) .

وفي المصباح المنير : «ورد الماء : بلغه ووافاه من غير دخول ، فالورد : خلاف الصدر ، والإيراد : خلاف الإصدار»^(٥) .

ويقول القرطبي : «ورود موسى الماء : معناه بلغه لا أنه دخل فيه ، ولفظة الورد : قد تكون بمعنى الدخول في المورد ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه ، والبلوغ إليه وإن لم يدخل ، فورد موسى ماء مدين وصوله إليه»^(٦) .

والمعنى : لما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاة ، وجد عليه جماعة كثيفة العدد من الناس يسقون ، ووجد من دونهم في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تذودان ، أي : تمنعان غنمهما عن الماء ، وذلك لعجزهما عن مزاحمة الرجال ، وبخلهم ، وعدم مروءتهم عن السقي لهما ، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما ، فقال لهما : ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ، أي : ما شأنكما بهذه الحالة ، قالتا : ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ﴾ ، أي :

(١) انظر : تفسير الطبري : (٢٠ - ٥٤) .

(٢) تفسير ابن كثير : (٣٨٤/٣) .

(٣) انظر : تفسير الطبري : (٢٠ - ٥٤) .

(٤) سورة القصص : الآية ٢٣ .

(٥) المصباح المنير : (٦٥٤/٢) .

(٦) تفسير القرطبي : (٢٦٧/١٣) .

لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء^(١) عن الماء، ويخلو منهم المكان، أي: لا يتيسر لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء الناس من سقي الأغنام أغنامهم، وصرفها عن الماء، عجزاً منا عن مدافعتهم، وحذراً من مخالطتهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فيعجز عن الخروج والسقي، أي: ما لنا رجل يقوم بذلك إلا هو، وقد أضعفه الكبر أن يباشر أمر غنمه، فاضطرنا الحال إلى ما ترى، من المكث والانتظار حتى ينتهي الرعاء من سقي أغنامهم، وينصرفوا عن الماء، فنستطيع بعد ذلك أن نسقي أغنامنا بعدهم^(٢).

يقول الزمخشري في تفسيره: «فإن قلت: كيف طابق جوابهما سؤاله؟ قلت: سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب في ذلك أننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة^(٣) الرجال، ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به، أبدتا إليه عذرهما»^(٤).

- موسى يعين المرأتين على سقي أغنامهما:

بعد هذا الحوار مع المرأتين رق لهما موسى ﷺ ورحمهما، وفعل ما أخبر به الله جل وعلا في كتابه بقوله: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٥).

فسقى لهما غير طالب منهما الأجرة، وإنما فعل هذا رغبة في المعروف، وإغاثة الملهوف، ولا له قصد غير وجه الله تعالى. فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك

(١) الرعاء: جمع راع، وهو الذي يرعى الماشية، أي: يحوطها ويحفظها، انظر: لسان العرب: (٣٢٥/١٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٨٤/٣)، تفسير القاسمي: (٤١٩/٥)، بتصرف.

(٣) المساجلة: المفاخرة بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي، انظر: لسان العرب: (٣٢٦/١١).

(٤) تفسير الكشاف: (٤٠٥/٣، ٤٠٦).

(٥) سورة القصص: الآية ٢٤.

الزحمة بقوة قلبه، وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في مكانة الفطرة، وحصانة الجبلية^(١).

ويقول ابن كثير: «قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشربان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان»^(٢).

وقد ورد أن هذه الصخرة لا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، وأن موسى رفع هذه الصخرة من على البئر^(٣).

ويقول الإمام الألويسي معلقاً على ذلك: «هذا مخالف لما يقتضيه ظاهر الآية من أنه ﷺ ورد ماء مدين، ووجد الأمة يسقون، ووجد المرأتين تذودان، وهذا ظاهر في مقارنة وجدانها لوجدانهم، وذودهما لسقيهم، ولا يكاد يفهم منه أن وجدانها بعد فراغهم من السقي...»^(٤). ومن المفسرين من توقف في هذه المسألة، كالرازي في تفسيره، فيقول - رحمه الله -: «وليس بيان ذلك في القرآن والله أعلم بالصحيح منه، لكن المرأة وصفت موسى ﷺ بالقوة، فدل ذلك على أنها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته»^(٥).

فلما سقى لهما، وكان ذلك في وقت شدة الحر، ووسط النهار، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ مستريحاً لذلك في الظلال بعد التعب، فقال ﷺ في تلك الحالة مستزقاً ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليّ وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في

(١) انظر: تفسير السعدي: (١/٦١٤)، الكشاف: (٣/٤٠٥).

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: (٢٠٥ - ٢٠٦).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني (٢٠/٦٧).

(٤) تفسير روح المعاني: (٢٠/٦٣)، باختصار.

(٥) تفسير الرازي: (٢٤/٢٠٥).

هذه الحالة داعياً ربه متجرداً مقبلاً على الله وحده^(١).

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه الصلاة والسلام جهر بهذا الدعاء أمام الفتاتين حتى يعلمنا بحاله^(٢)، إلا أن من المفسرين من رد هذا القول، فإن موسى ناجى بهذا الدعاء ربه، لا يسمع المرأتين، فهذا هو حال الأنبياء.

يقول الرازي - رحمه الله - في تفسيره: «أما رفع الصوت بالدعاء لإسماع المرأتين، وطلب الطعام فهذا لا يليق بموسى عليه السلام البتة، فلا تقبل تلك الرواية، ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى»^(٣).

وقد يقال كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام - إن كان هو شعيب - أن يرضى لابنتيه بسقي غنمه؟

والجواب: أن هذا السقي في نفسه ليس بمحذور، فالدين لا يباه، وأما المروءة ومكارم الأخلاق، فالناس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة فيه، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضرة، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة^(٤).

- مجيء إحدى المرأتين إلى موسى لتدعوه إلى أبيها:

ولما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألتهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعله موسى عليه السلام من قيامه بالسقي لهما، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، ففي هذا الكلام اختصار دل عليه هذا الظاهر^(٥).

قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ

(١) انظر: تفسير السعدي: (٦١٤/١).

(٢) ذكر هذا الرأي ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء: ص ٢٠٦، والزمخشري في الكشاف: (٤٠٧/٣).

(٣) تفسير الرازي: (٢٠٥/٢٤).

(٤) تفسير الكشاف: (٤٠٦/٣)، و انظر: تفسير القرطبي: (٢٦٩/١٣).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٨٥/٣)، تفسير القرطبي: (٢٧٠/١٣).

الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

فجاءته إحدى المرأتين اللاتي سقى لهما: ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾، في موضع الحال، أي: مستحية، وهذا دليل كمال إيمانها، وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا؟ فأتته مستحية شديدة الحياء، قد سترت وجهها بكم درعها، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «جاءت مستترة بكم درعها قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع^(٢) من النساء ولاجة خراجة^(٣)»^(٤)، وكما كانت مشيتها دليلاً على شدة حياؤها، فلقد دل حديثها على عظيم تأدبها.

يقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره: «﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، يعني ليشيك، ويكافئك على سقيك لغنما، وهذا تأدب في العادة، لم تطلبه طلباً مطلقاً؛ لئلا يوهم ريبة^(٥)».

فمضى موسى معها إلى أبيها، فتبعها، فهبت الريح فألزقت ثوب المرأة بردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، ودليني عليها إن أخطأت، فإنا بني يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء^(٦)، وفي الحديث المروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فجاءته إحدهما تمشي على استحياء، فقام معها موسى، وقال لها امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، وأنا أمشي أمامك، فإنا لا ننظر في أدبار النساء...»^(٧).

(١) سورة القصص: الآية ٢٥.

(٢) السلفع: يقال رجل سلفع، وامرأة سلفع بغيرهاء، والمراد: الوقحة من النساء، الجريئة على الرجال، انظر: غريب الحديث؛ للخطابي: (٤٦٩/٢).

(٣) الحديث في المستدرک على الصحيحين: (٤٤١/٢).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٨٥/٣)، تفسير النسفي: (٢٣٣/٣).

(٥) تفسير ابن كثير: (٣٨٥/٣).

(٦) انظر: تفسير الطبري: (٦١/٢٠)، تفسير الثعلبي: (٢٤٥/٧).

(٧) الحديث في المستدرک على الصحيحين: (٤٤١/٢)، سنن النسائي الكبرى من حديث الفتون: (٤٠٠/٦)، كنز العمال:

وقد اختلف في التي جاءت من المرأتين، واسميهما، ولا أرى أن في معرفة ذلك كثيراً من الفائدة، إذ لو كان لدل على ذلك القرآن أو السنة.

ويقول الرازي بعد أن ذكر اختلاف المفسرين في اسم الفتاتين واختلافهم في التي جاءت تدعوه للقاء أبيها: «... وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل»^(١).

وقد يقال: كيف ساغ لموسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ بقول امرأة وهو قولها: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا؟ وأيضاً كيف ساغ له أن يمشي معها وهي أجنبية منه؟

والجواب: أما أخذه وعمله بقول امرأة، فهذا كما يأخذ ويعمل بقول الواحد في الأخبار حراً كان المخبر أو عبداً، ذكراً كان أو أنثى، وما كانت ابنة شعيب إلا محبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهما.

وأما محاشاته امرأة أجنبية فهذا لا بأس به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع من قبل المرأة ومن قبل موسى عليه السلام^(٢).

وقد ذهب موسى مع المرأة إلى أبيها استجابة لدعوة الرجل الصالح، وإلى البيت الصالح، والذي ظهر جلياً على بناته كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز.

وإن قيل: كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف؟

فالجواب: إطعام شعيب وإحسانه، لا على سبيل أخذ الأجر، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ، كيف وقد قص عليه قصصه، وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب؟

ومثله حقيق بأن يضيّف ويكرّم خصوصاً في دار نبي من الأنبياء^(٣)، وقد روي ما يعضد كلا القولين: روي أنها لما قالت: ليجزيك، كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع، وقال: إنا

(١) تفسير الرازي: (٢٠٦/٢٤).

(٢) تفسير الكشاف: (٤٠٦/٣).

(٣) سبق وأن ذكرت اختلاف أهل التأويل في هذا الرجل الصالح، قيل: نبي الله شعيب الذي بعث إلى أهل تلك البلدة «مدين»، وقيل: رجل صالح من ذريته، وقد توقفت في ذلك ورجّحت قول الطبري - رحمه الله - في هذه المسألة.

أهل بيت لا نبيع ديننا بِطِلاَع^(١) الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا^(٢).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ ﴾، أي لما جاء موسى إلى والد المرأتين ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ ﴾، يعني قصته وأحواله، وأمره أجمع، من قتله للرجل القبطي، وقصد فرعون قتله، ابتداءً بالسبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه. فقال له مسكناً روعه جابراً قلبه: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان^(٣).

ويقول ابن كثير: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، أي: خرجت من سلطانهم، فلست في دولتهم^(٤).

- ما وصفت به إحدى المرأتين موسى ﷺ:

قالت إحدى الابنتين التي جاءت به^(٥) قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾^(٦).

وكان اسم إحداهما صفورا، واسم الأخرى ليا، وقيل شرفا كذلك، فقالت: يا أبت استأجره؛ ليرعى عليك ماشيتك، إن خير من استأجرت القوي على حفظ ماشيتك، والقيام عليها في إصلاحها، وصلاحها الأمين الذي لا تخاف خيانتة فيما تأمنه عليه^(٧).

(١) طلاع الأرض: أي ما طلعت عليه الشمس منها، وطلاع الشيء ملؤه... وطلاع الأرض ملؤها، حتى يطالع أعلاه، أعلاها فيساويه، لسان العرب: (٢٣٥/٨).

(٢) تفسير الكشاف؛ للزمخشري: (٤٠٦/٣ - ٤٠٧).

(٣) انظر: تفسير النسفي: (٢٣٣/٣)، تفسير البغوي: (٤٤٢/٣)، تفسير السعدي: (٦١٤/١).

(٤) قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ٢٨.

(٥) تفسير السمرقندي: (٦٠٥/٢).

(٦) سورة القصص: الآية ٢٦.

(٧) انظر: تفسير الطبري: (٦٢/٢٠ - ٦٣).

وهذا الكلام من هذه المرأة كلام حكيم جامع لا يزداد عليه ؛ لأنه إذا ضُمَّتْ هاتان الخصلتان ، وهي الكفاية والأمانة في القائم بأمرك ، فقد فرغ بالك من القلق ، وتم مرادك ، وقد استغنت بقول هذا الكلام الذي سياقته سياق المثل والحكمة ، أن تقول استأجره لقوته ، وأمانته^(١) .

وقد ورد عن عبدالله بن مسعود^(٢) قال : «أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين قال لامرأته : (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ، والتي قالت : «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ، وأبو بكر حين قال : تفرس في عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا»^(٣) .

ويقول الرازي : «وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي ، والأمانة لما ذكره من غرض بصره حال ذودهما المشية ، وحال سقيه لهما ، وحال مشيه بين يديها إلى أبيها»^(٤) .

فلما وصفته بالقوة والأمانة ، قال لها أبوها : ومن أين عرفت هذا منه ؟ فقالت : أما قوته ففي رفع الصخرة^(٥) ، وأما أمانته ففي طلبه مني أن أسير خلفه ، فإذا اختلفت عليه الطريق ، قال لي : فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه^(٦) .

وما أحسن ما أخذ الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى ، فقال : «أشكو إلى الله ضعف الأمين ، وخيانة القوي» ، ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه ، ويسر له بمن يجمع الوصفين ، فكان قويا آميناً يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه^(٧) .

(١) تفسير الكشاف : (٤٠٧/٣) .

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها ، ولازم النبي ﷺ ، وحدث عنه الكثير ، قال له النبي ﷺ في أول الإسلام : «إنك لغلام معلم» ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، توفي في المدينة سنة ٣٢ هـ . انظر : الاستيعاب (٣/٩٨٧) ، والإصابة (٤/٢٣٣) ،

(٣) الحديث في المستدرک على الصحيحين : (٢/٣٧٦) ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وانظر : منهاج السنة النبوية : (٦/١٤٢) ، ومصنف ابن أبي شيبة : (٧/٤٣٥) ، وسنن سعيد بن منصور : (٥/٣٧٩) ، والمعجم الكبير : (٩/١٦٧) ، ومجمع الزوائد : (١٠/٢٦٨) .

(٤) انظر : تفسير الرازي : (٢٤/٢٠٧) .

(٥) سبق أن ذكرت اختلاف المفسرين في هذه المسألة ، والله أعلم بالصحيح منه .

(٦) تفسير ابن كثير : (٣/٣٨٦) ، تفسير ابن عطية : (٤/٢٨٣ - ٢٨٥) .

(٧) انظر : تفسير القاسمي : (٥/٤٢٠) ، ويراجع مجمع الأمثال : (٢/٤٥٢) .

- الشيخ والد المرأتين يعرض إحدى ابنتيه على موسى ليتزوجها:

وبعد أن سمع والد الفتاة قول ابنته في موسى عليه السلام من القوة والأمانة، عرض عليه أن ينكحه إحدى ابنتيه على أن يرعى غنمه ثماني سنين كما سبق بيانه في الفصل الثاني من هذا البحث.

قال تعالى عن قول والد البنتين لموسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ { ٢٧ } قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾^(١).

يقول الزمخشري - رحمه الله -: « فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقداً للنكاح، ولكن مواعدة أمر قد عزم عليه، ولو كان عقداً؛ لقال: قد أنكحتك، ولم يقل: ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾^(٢).

ويقول القرطبي: « ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾، يدل على أنه عرض لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً؛ لعين المعقود عليها له...»^(٣).

فالظاهر من الآيات أن الشيخ عرض إحدى ابنتيه على موسى، فقبل عليه السلام هذا العرض، فالوارد في الآيات عرض ووعد بالنكاح، وليس عقداً، إذ إن من شروط عقد النكاح تعيين كل من المرأة والرجل، وقيل: إنه تزوج من الكبرى، وقيل: تزوج من الصغرى. وقولهم إنه تزوج الصغرى يروى عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما، وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما»^(٤).

(١) سورة القصص: الآية ٢٧ - ٢٨.

(٢) تفسير الكشاف: (٤٠٨/٣).

(٣) تفسير القرطبي: (٢٧٢/١٣).

(٤) انظر: مسند البزار: (٣٨٢/٩)، مجمع الزوائد: (٨٨/٧)، وقال إسناده حسن، والمعجم الصغير «الروض الداني»:

(٧٩/٢).

ويقول ابن العربي في (أحكام القرآن): «عادة الناس تزويج الكبرى قبل الصغرى؛ لأنها سبقتها إلى الحاجة إلى الرجال، ومن البر تقديمها عليها، والذي أوجب تقديم الصغرى في قصة صالح مدين ثلاثة أمور:

الأول: أنه لعله أنس من الكبرى رفقا به، ولين عريكة في خدمته.

الثاني: أن الصغرى سبقت إلى خدمته فلعلها كانت أحسن عليه.

الثالث: أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقبالها إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار، وهو يضمن غيره، لكن عرض عليه شرطه ليربئها مما يمكن أن يتطرق الوهم إليه»^(١).

والذي أرجحه: هو أنه تزوج من المرأة التي دعته إلى أبيها، والتي وصفها الله تعالى أنها جاءت تمشي على استحياء، والتي طلبت من أبيها أن يستأجره، ولعل الصغرى هي التي ذهبت لتدعوه، لأن الصغير عادةً من يوكل في مثل هذه الأمور. والله أعلم.

الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١ - من قصة ابنتي شعيب، استفاد جواز خروج المرأة للعمل، مع الالتزام بشرع الله، وما أمر به من الحشمة، والابتعاد عن مواطن الفتنة، ويبدو ذلك واضحاً في هذه القصة، في عدم اختلاطهما ومزاحمتها للرجال، فكانتا تذودان أغنامهما، وتمنعانها ان تختلط بغنم القوم. وفي الحديث مع موسى عليه السلام يلاحظ أنه هو الذي بدأهما بالسؤال (مَا خَطْبُكُمَا)، فجاء الجواب على قدر السؤال موجزاً واضحاً ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فمع هذا الأدب الجم والحياء، كانتا تخرجان للعمل، ولسقي الماشية، نيابة عن والدهما الشيخ الكبير.

وكما فعلت أسماء^(٢) بنت أبي بكر رضي الله عنهما، عندما كانت تأتي بالنوى تحمله على

(١) أحكام القرآن؛ لابن العربي: (٣/٤٩٨ - ٤٩٩).

(٢) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، اسلمت قديماً بمكة، وهاجرت إلى المدينة، وتزوجت من الزبير بن العوام

رأسها من مكان بعيد لاشتغال زوجها وأبيها بالجهد وغيره، مما يأمرهم به النبي ﷺ، فكانوا لا يتفرغون للقيام بأمر البيت، بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم، ولضيق ما بأيديهم على استخدام من يقوم بذلك عنهم، فانحصر الأمر في نسائهم، فكن يكفينهم مؤنة المنزل ومن فيه^(١).

٢- المبادرة بمساعدة المحتاج، وابتدأه بذلك من صفات الصالحين، كما فعل موسى عليه السلام حينما ورد ماء مدين وشاهد المرأتين تمنعان مواشيهما عن الماء، سقى لهما موسى من غير أن تسألانه ذلك، ومن غير أجر.

٣- صفة الحياء من أجل الصفات التي تزين المرأة المسلمة، وترفع قدرها، وتزيد من إيمانها.

وقد امتدح الله بها المرأة التي جاءت تدعو موسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فقال ﴿اسْتِحْيَاءٌ﴾ للتفخيم، لبيان شدة الحياء، وفي حديثها ومنطقها دلالة على كمال عقلها وحيائها، وعفتها، ما لا يخفى^(٢).

ومن الأحكام المستفادة:

في قول المرأة لوالدها: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ دليل على أن الإجارة مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس^(٣).

سماها الرسول ﷺ بذات النطاقين، وتوفيت بمكة في جمادى الأولى سنة (٧٣هـ) بعد قتل ابنها عبدالله بن الزبير. وقد بلغت من العمر مائة سنة، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

انظر: الاستيعاب (٤/١٧٨٣)، الإصابة (٧/٤٨٤).

(١) انظر: فتح الباري، بشرح صحيح البخاري: (٩/٣٢٤).

(٢) تفسير أبي السعود: (٧/٩).

(٣) تفسير القرطبي: (١٣/٢٧١).

المبحث السادس

بنات لوط عليه الصلاة والسلام

تحدث القرآن الكريم عن بنات لوط عليه الصلاة والسلام، في معرض الحديث عن دعوة لوط لقومه.

وقد تحدثت في الفصل السابق من هذا البحث عن زوجة لوط عليه السلام، وتحدثت عن دعوته، وعن موقف قومه من هذه الدعوة، وأنهم كذبوا وجحدوا دعوته؛ بل مع كفرهم كانوا يرتكبون الفواحش التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، كما أخبرنا الله في كتابه.

- نجات بنات لوط عليه السلام لأنهن من المؤمنات:

بشر الله نبيه لوط بنجاته هو ومن آمن معه من أهل بيته، وهلاك قومه الذين كذبوا به، وكفروا بدعوته.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {٣٥} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {٣٦}﴾^(١).

والمراد بالبيت في الآية: «هم لوط وابنتاه؛ حيث وصفوا بالإيمان والإسلام، فهم مصدقون بقلوبهم، عاملون بجوارحهم الطاعات»^(٢).

قول لوط عليه السلام: «يا قوم هؤلاء بناتي».

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ {٧٨} قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ {٧٩} قَالَ لَوْ

(١) سورة الذاريات: الآيات ٣٥ - ٣٦.

(٢) تفسير الجلالين: (١/٦٩٤).

أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ {٨٠} ﴿١﴾

لما علم ﷺ بغية قومه لما جاءوا مسرعين إليه لشدة حرصهم على طلب الفاحشة^(٢)، قال لهم: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾.

فقد دعاهم ﷺ إلى الحلال من النكاح^(٣)، فأراد ﷺ أن يذكرهم ويعود بهم إلى الفطرة السليمة؛ لأن الطهر الحقيقي في النكاح الذي شرعه الله ﷻ لعباده، لذا قال الله ﷻ في الآية: ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾.

قال ابن جريج^(٤): أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً^(٥).

أي أنه ﷺ، عرض عليهم بناته للنكاح، وليس للسفاح.

واختلف العلماء في المراد بقول لوط ﷺ: ﴿ هَؤُلاءِ بَنَاتِي ﴾ على أقوال، فمنهم من قال أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط، ولم يرد إمضاء ما قال، ومنهم من قال: إن المراد بناته لصلبه، وأن المعنى دعوا فاحشة اللواط، وأزوجكم بناتي، وعلى هذا فتزويج الكافر المسلمة كان جائزاً في شرعه، كما كانت بنات نبينا محمد ﷺ تحت الكفار في أول الإسلام^(٦).

(١) سورة هود: الآيات ٧٨ - ٨٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري، بتصرف: (٨٣/١٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٨٥/١٢).

(٤) هو عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج القرشي، يكنى أبا خالد، وأبا الوليد، شيخ الحرم، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة، حدث عن عطاء بن أبي رباح، وطاوس، وغيرهم كثير وحدث عنه ابن عليه وابن وهب، ويحيى القطان وغيرهم كثير، قال عنه الإمام أحمد: هو أول من صنف الكتب، ذكره ابن معين في الثقات، وقال: هو ثقة.. توفي سنة (١٥٠هـ).

انظر: سير اعلام النبلاء (٣٢٥/٦)، خلاصة تهذيب الكمال (٢٤٤/١).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤٥٤/٢).

(٦) قد زوج النبي ﷺ ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع، وابنته رقية لعتبة بن أبي لهب، قبل نزول الوحي، وكان أبو العاص وعتبة كافرين، إلا أن عتبة لم يدخل برقية، وطلقها بطلب أبيه حين نزلت سورة المسد، فتزوجها عثمان بن عفان ﷺ، وأما أبو العاص فكان قد دخل بزینب، فلما أسر يوم بدر وافتدى نفسه أخذ النبي عليه العهد أن يردها إذا

ومنهم من قال إن المراد بالبنات جميع نساء قومه ؛ لأن نبي القوم أب لهم ، كما يدل له قوله تعالى في نبينا محمد ﷺ: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾^(١) .
وروي نحو ذلك عن ابن عباس ، وبهذا القول قال كثير من العلماء^(٢) .

يقول ابن كثير- رحمه الله تعالى - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلى نسايتهم ؛ فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة ، كما قال لهم في الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ { ١٦٥ } وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ { ١٦٦ } ﴾^(٣) قال مجاهد في تفسيره لهذه الآية : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ ﴾ لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ، وكذا روي عن قتادة وغير واحد ...^(٤) .

ويقول ابن جرير الطبري ، وقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ قال لوط لقومه لما جاءوا يراودونه عن ضيفه : هؤلاء يا قوم بناتي ، يعني نساء أمته فانكحوهن فهن أطهر لكم^(٥) .

ويقول الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى في سورة الحجر :

﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾...^(٦) إشارة إلى النساء ؛ لأن كل أمة أولاد نبيها ، رجالهم بنوه ، ونساؤهم بناته ، فكأنه قال لهم : هؤلاء بناتي فانكحوهن وخلصوا بناتي ، فلا تتعرضوا لهن ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ شك في قلوبهم لقوله ، كأنه قال : إن فعلتم ما أقول لكم وما

عاد ، وأرسل النبي زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار في طلبها ، فجاء بها ، ثم إن أبا العاص أسلم وأتى المدينة فردها
التكليف إليه . انظر : روح المعاني : (١٠٦ / ١٢) .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

(٢) انظر : تفسير أضواء البيان : (١٨٩ / ٢ - ١٩٠) .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ١٦٥ - ١٦٦ .

(٤) تفسير ابن كثير : (٤٥٤ / ٢) .

(٥) تفسير الطبري : (٨٤ / ١٢) .

(٦) سورة الحجر : الآية ٧١ .

أظنكم تفعلون ، وقيل : إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون حرام»^(١).

ويقول الشنقيطي - رحمه الله تعالى - في تفسيره أضواء البيان :

«وهذا القول - أي القول بأن المراد بالبنات جميع نساء قومه ؛ لأن نبي القوم أب لهم - تقربه قرينة وتبعده أخرى ، أما القرينة التي تقربه فهي أن بنات لوط لا تسع جميع رجال قومه ، كما هو ظاهر ، فإذا زوجهن لرجال بقدر عددهن بقي عامة رجال قومه لا أزواج لهم ، فيقين أن المراد عموم نساء قومه ، ويدل للعموم قوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ { ١٦٥ } وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ { ١٦٦ } ﴾^(٢) وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾^(٣) ، ونحو ذلك من الآيات.

وأما القرينة التي تبعده : فهي أن النبي ليس أباً للكافرات ؛ بل أبوة الأنبياء الدينية للمؤمنين دون الكافرين ، كما يدل عليه قوله : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤) ، وقد صرح تعالى في سورة الذاريات بأن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد ، وهم أهل بيت لوط ، وذلك في قوله : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٥) .^(٦)

- جواب قوم لوط على قوله :

وقالوا للوط عليه السلام كما أخبر بذلك القرآن : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾^(٧) .

أي : لسن أزواجاً لنا فنستحقهن بالنكاح ، وقيل : معناه : «ما لنا فيهن من حاجة

(١) تفسير الكشاف : (٥٤٧/٢).

(٢) سورة الشعراء : الآيات ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٨١ .

(٤) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

(٥) سورة الذاريات : الآية ٣٦ .

(٦) تفسير أضواء البيان : (١٩٠/٢).

(٧) سورة هود : الآية ٧٩ .

وشهوة، وإنك لتعلم ما نريد من إتيان الرجال»^(١).

ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكابدة والحرص على إتيان الذكور، وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء^(٢).

وقيل: إنهم قالوا ذلك لأن لوطاً لا يرى جواز نكاحهم للمسلمات. وقيل إنما نفوا أن يكون لهم الحق في بناته؛ لأنهم كانوا قد خطبوهن فردهم، وكان من سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبداً. وقيل: إنهم لما اتخذوا إتيان الذكور مذهباً كان عندهم هو الحق، وإن نكاح الإناث من الباطل، فقالوا ما قالوا^(٣).

ومن المفسرين من قال إن عرض لوط عليه السلام بناته بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ﴾ أنه عرض غير مؤكد، وليس على حقيقته، وإنما ليدفعهم عما أرادوا.

يقول الزمخشري في تفسيره:

«ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم، وإظهاراً لشدة امتعاضه مما أرادوا عليه طمعاً في أن يستحيوا منه، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر، واستقرار العلم عنده، وعندهم أن لا مناقحة بينه وبينهم، ومن ثم قالوا:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ لأنك لا ترى مناقحتنا»^(٤).

وقيل أيضاً: كان لهم سيدان مُطاعين، فأراد أن يزوجهما ابنتيه، ولم يكن له عليه السلام سواهما، وقيل اسم إحداهما على ما في بعض الآثار زعوراء والأخرى زيتاء^(٥).

(١) تفسير البغوي: (٣٩٥/٢).

(٢) تفسير فتح القدير: (٥١٤/٢).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني للآلوسي: (١٠٧/١٢).

(٤) تفسير الكشاف: (٣٩١/٢)، ويراجع روح المعاني: (١٠٦/١٢)، وفتح القدير: (٥١٤/٢).

(٥) انظر: تفسير الكشاف: (٣٩٠/٢)، تفسير أبي السعود: (٢٢٨/٤)، تفسير القرطبي: (٧٦/٩)، تفسير النسفي:

(١٦٥/٢)، تفسير روح المعاني: (١٠٦/١٢)، فتح القدير: (٥١٤/٢).

فندبهم وحثهم على النكاح ، منهن فكان العرض موجهاً لهذين السيدين على وجه الخصوص ، فإن هم قبلوا ، وتزوجوا من بناته عليها السلام ، كان الزواج الحلال سنة ماضية في قومه ، وبهذا ينصرف الناس عن هذه الفاحشة التي يمارسونها .

وظاهر النص قد دل على أن المراد (بناته حقيقة) ، وليس نساء القرية عامة ، لقوله : (هؤلاء) ، وهؤلاء إشارة إلى قريب حاضر لا إلى بعيد غائب ، وكذلك لقولهم : «لقد علمت مالنا في بناتك من حق ..» ، وهذا الجواب واضح الدلالة على أن المراد بناته عليها السلام لا نساء قومه . والأصل هو الأخذ بظاهر النص^(١) .

إلا أن أغلب المفسرين رجحوا بأنه عليه الصلاة والسلام ، أمرهم أن يتزوجوا النساء كما قال بذلك الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين^(٢) ، ومقصده من ذلك هو ترغيبهم في الحلال الطيب الذي أباحه الله ﷻ لعباده ، وتحذيرهم ونصحهم من الفاحشة التي يرغبونها ، وردهم للفطرة ، والطبيعة السليمة ، وعرض عليهم النكاح ولم يعرض عليهم السفاح . والله تعالى أعلى بالصواب .

وقد نجى الله ﷻ بنات لوط عليها السلام مع والدهم ، ودمر من سواهم فقد قالت رسل الله ﷻ للوط : «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ»^(٣) .

وقال في سورة الحجر : «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ»^(٤) .

فقد بشره الله بنجاته هو ومن آمن معه من أهل بيته ، وبناته من أهل بيته المؤمنين

(١) انظر : روضة الطالبين (١٤٨/٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤٥٤/٢) .

(٣) سورة هود : الآية ٨١ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٦٥ .

الطائعين ، إلا امرأته فإنها كانت من الكافرين المهلكين .

قال تعالى : ﴿ فَنجِناهُ وَأَهْلَهُ أَجمَعِينَ { ١٧٠ } إِلَّا عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ { ١٧١ } ﴾^(١) .

وقال في موضع آخر : ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجمَعِينَ { ١٣٤ } إِلَّا عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ ﴾^(٢) .

وفي سورة الذاريات : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { ٣٥ } فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ { ٣٦ } ﴾^(٣) ، وهو بيت لوط عليه السلام^(٤) .

وقد وردت قصة لوط وبناته في التوراة المحرفة ، ولكنها تختلف اختلافاً جوهرياً وكبيراً عما جاء في القرآن ، وذكر نبي الله لوط وابنتاه بفضائح وسوءات تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام .

منها ما ذكر عن بنتي لوط عليهما السلام وبمضاجعتهما لوالدهما عليهما السلام بعد أن أسقوه خمراً ، وما ذكر عن نبي الله لوط بأنه مكث في مغارة شريداً طريداً فقيراً لاشيء له^(٥) .

وكل هذه الأكاذيب التي لا تصح عن أنبياء الله فما هذه الصفات بصفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (المصطفين الأخيار) الذين عصمهم الله عز وجل من الوقوع في مثل هذه الذنوب العظام ، وإنما لأفعال مشينة يُنزه عنها الرجل الصالح الخير ، فكيف بنبي اصطفاه الله بالنبوة ، وأكرمه بأن نجاه هو بناته ، وعذب قومه على ماى منه مسمع ، عليه الصلاة والسلام^(٦) .

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) سورة الصافات : الآيات ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) سورة الذاريات : الآيات ٣٥ - ٣٦ .

(٤) تفسير الطبري : (٢/٢٧) .

(٥) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/١٥٩) .

(٦) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/١٠٦) .

الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا البحث:

- ١- من قول بعض المفسرين: إنهم كانوا - أي قوم لوط - قد خطبوا بناته عليهن السلام فردهم.
يستفاد اعتبار الكفاءة في الدين.
- والكفاءة في الدين متفق عليها، فلا تحل المسلمة لكافراً أصلاً^(١)، وقد بينت مسبقاً أن هذا كان مباحاً في أول الإسلام.
- ٢- اعتبار الولي في النكاح^(٢)، فقد جعل الله تعالى الرجل هو المسؤول عن المرأة، في جميع أحوالها، وجعله الولي في النكاح دونها^(٣).
- ٣- لوالد الفتاة اختيار الزوج، ومن يقوم مقامه، أيضاً فولّي الفتاة أعلم بمصلحتها.
- وإنما جعل إليه اختيار الزوج لكمال شفقتة^(٤)، ولأن الرجل أخبر بأحوال الرجال، وأكثر معرفة من المرأة.

(١) انظر: فتح الباري: (١٣٢/٩).

(٢) تفسير السعدي: (٩٩/١).

(٣) أضواء البيان: (٢٦/٣).

(٤) المهذب: (٣٨/٢).

المبحث السابع

داود مع ابنه سليمان عليهما السلام

ذكرت في الفصل الأول من هذا البحث، حديث القرآن عن نبي الله داود عليه السلام أباً، فهو والد سليمان عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا المبحث سأذكر حديث القرآن عن سليمان عليه الصلاة والسلام ابناً، وقد ذكر سليمان عليه الصلاة والسلام في القرآن في عدة مواضع، وفي عدة سور.

- سليمان عليه السلام في القرآن:

قال تعالى عن سليمان في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(١).

فقد ذكر اسمه ضمن الأنبياء عليهم السلام جميعاً، وكذلك في سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا وَمَنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

وفي مواضع أخرى يتحدث القرآن عن سليمان بن داود عليهما السلام، وأنه وارث العلم والنبوة عن والده، وفي مواضع أخرى أيضاً يتحدث عن نعم الله على سليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٣)، فقد أخبر سبحانه أنه وهب لنبيه داود سليمان، أي: نبياً كما قال عليه السلام في سورة أخرى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾^(٤)

(١) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

(٣) سورة ص: الآية ٣٠.

(٤) سورة النمل: الآية ١٦.

أي: في النبوة، وإلا فقد وهبه الله بنين غيره، فقد كان لداود عليه السلام مئة امرأة من الحرائر. وقد أثنى الله على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة، والإنابة إلى الله ﷻ (١)، ووصفه بأنه نعم العبد، وبما وصف به والده بأنه أواب، ولقد منح الله ﷻ سليمان عليه السلام الفهم، والعلم، والحكمة، وفي هذا دليل على تفضيل الله ﷻ له وإنعامه عليه، كيف لا وقد جعله وارثاً للنبوة والملك من والده دون سائر بنيه (٢).

- العلم من نعم الله ﷻ على سليمان وأبيه:

وقال سبحانه ممتناً على سليمان وأبيه بما آتاهما من علم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

هذه بعض الصفات التي وصف الله بها سليمان عليه الصلاة والسلام، ذكرتها مقدمة لعرض الحديث عنه، وعن ما ورد من وقائع وأحداث في حياة سليمان حسب ما جاء في كتاب الله ﷻ.

- قضاء سليمان مع ابيه عليهما السلام:

قال الله ﷻ: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ {٧٨} (٤).

فهذه قضية حكم فيها داود وابنه سليمان عليهما السلام، ولم يذكر القرآن ما هو حكم داود في هذه القضية، ولا حكم سليمان أيضاً.

فقد أثنى الله على هذين النبيين الكريمين ((داود وسليمان)) إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾، أي:

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/٣٤).

(٢) انظر: تفسير الكشاف: (٣/٣٥٨)، بتصرف.

(٣) سورة النمل: الآية ١٥.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧٨ - ٧٩.

إذ تحاكم إليهما صاحب حرث رعت فيه غنم القوم الأخرى ليلاً، فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث، فينتفع بلبنها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله ترادا، وأرجع كل واحدٍ منهما ماله لصاحبه، فكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال الله: ﴿ فَهَمَّنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾، أي: فهمناه هذه القضية^(١).

وهناك رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله عليه السلام: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾، قال: «كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته الغنم، قال ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان غير هذا: يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فيصيب منها حتى إذا عاد الكرم كما كان، دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبه»، قال الله عليه السلام: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾^(٢).

مما سبق تبين أن هناك متخاصمين، أحدهما صاحب زرع، والآخر صاحب ماشية، جاء إلى داود عليه السلام؛ ليحكم بينهما في قضية رعي غنم أحدهما زرع الآخر ليلاً، وكان ابنه سليمان عليه السلام حاضراً هذه الخصومة، والظاهر أن داود حكم في هذه القضية، ولما علم ابنه سليمان بحكمه استدرك عليه، وحكم بحكم آخر.

ويقول سبحانه: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾، بمعنى حاضرين علماً، وضمير الجمع قيل لداود وسليمان، ويؤيده قراءة ابن عباس «لحكما»، بضمير التثنية، واستدل بذلك من

(١) انظر: تفسير السعدي: (١/٥٢٨).

(٢) انظر: المستدرك على الصحيحين: (٢/٦٤٣)، برقم (٤١٣٨)، وأخرجه البيهقي في سننه: (١٠/١١٨)، برقم

قال: بجواز إطلاق الجمع على الاثنين، وهو مذهب طائفة من أهل اللغة، ويجوز أن يكون الجمع للتعظيم، كما في قوله: ﴿رَبِّ اِرْجِعُون﴾، وقيل: هو للحاكمين والمتحاكمين، والجملة اعتراضية^(١).

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على سليمان في حكمه بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، أي: أن الله أفهم القضية سليمان، فالهاء في (فهمناها) تعود على القضية، وذلك أن داود حكم لأهل الحرث برباق الغنم، وحكم سليمان بمنافعها إلى أن يعود الحرث كما كان^(٢).

كما أن الله ﷻ أثنى على داود وسليمان كليهما عليهما الصلاة والسلام، فقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : « فهذان نبيان كريمان حكما في قضية واحدة، فخص الله أحدهما بالفهم، وأثنى على كل منهما»^(٣)، فحمد سبحانه سليمان لصوابه، ولم يذم داود لخطئه^(٤).

وتفهم سليمان هذه القضية، لا يدل على أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر، بدليل قوله: «(وكلاً)» من داود وسليمان ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(٥).

وذكر بعض المفسرين أن في الآية قريبتين على أن حكمهما - أي داود وسليمان - كان بالاجتهاد لا بوحى، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لوماً بعدم إصابته، كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فدل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾، على أنهما حكما فيها معاً، كل منهما حكم بحكم مخالف لحكم

(١) انظر: تفسير روح المعاني: (٧٤/١٧)، فتح القدير: (٤١٨/٣).

(٢) انظر: تفسير الواحدي، بتصرف: (٧٢١/٢).

(٣) كتب رسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه: (٢٢٤/٢٠).

(٤) انظر: فتح الباري: (١٤٧/١٣).

(٥) انظر: تفسير السعدي: (٥٢٨/١).

الآخر، ولو كان وحيًا لما ساغ الخلاف، ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مُفهِمًا له إياها، كما مافي قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فهذه قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي، بل باجتهد، وأصاب سليمان دون داود بتفهم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ يدل على أنه فهم سليمان للقضية من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا انه أنزل عليه منها وحيًا ناسخاً^(١).

وأخرج ابن جرير: «أن رجلين جاءا إلى شريح^(٢)، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهراً أم ليلاً؟ فقال: إن كان نهراً فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَذَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كان النفس ليلاً»^(٣).

- استدراك سليمان على حكم أبيه في قضية المرأتين:

هناك نموذج آخر لاستدراك سليمان أيضاً على أبيه داود عليهما السلام في غير هذه المسألة جاءت به السنة الصحيحة^(٤)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك! وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك! فتحاكما إلى داود عليه السلام، ف قضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرته بذلك، فقال: اتنوني بالسكين أشقه بينهما! فقالت

(١) انظر: تفسير أضواء البيان: (٤/١٧٠)، و تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٣/٣٠)، و تفسير المحرر الوجيز (٤/٩١).

(٢) هو شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكوفي أبو أمية القاضي، ويقال شريح بن شرحبيل من المخضرمين، كان فقيهاً شاعراً، و لاه عمر رضي الله عنه قاضياً على الكوفة، حدث عن عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وحدث عنه الشعبي والنخعي ومحمد بن سيرين وغيرهم، ذكره ابن معين في الثقات، استعفى من القضاء قبل موته بسنة، وقد عاش مئة وعشرين سنة. (توفي سنة ٧٨هـ).

انظر: تذكرة الحفاظ (١/٥٩)، و تهذيب الكمال (١٢/٤٣٦).

(٣) تفسير الطبري: (١٧/٥٢)، و انظر: تفسير ابن كثير: (٣/١٨٧).

(٤) انظر: تفسير أضواء البيان: (٤/١٧٠).

الصغرى: لا تفعل يرحمك الله! هو ابنها، ففضى به للصغرى»، قال أبو هريرة: والله ما سمعت بالسكين إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المدية^(١).

وهذا الحديث وإن لم يكن داخلياً فيما ذكرته الآية من حكمهما، لكنه من جملة ما وقع لهما^(٢)، وحكم داود عليه السلام بالولد للكبرى؛ لوجود قرائن عنده اقتضت ترجيحه، ولم يُذكر في الحديث تعيين ذلك، إذ لم تدع حاجة إليه، فيمكن أن الولد كان بيدها، وعجزت الأخرى عن إقامة البينة، ففضى به لها إبقاء لما كان على ما كان^(٣).

وهذا الحديث الصحيح يدل دلالة واضحة أيضاً على أنهما قضيا معاً عليهما السلام بالاجتهاد في شأن الولد المذكور، وأن سليمان أصاب في ذلك، إذ لو كان قضاء داود بوحى لما جاز نقضه بأي حال، وقضاء سليمان واضح أنه ليس بوحى؛ لأنه أوهم المرأتين أنه يشقه بالسكين؛ ليعرف أمه بالشفقة عليه، ويعرف الكاذبة برضاها بشقه؛ لتشاركها أمه في المصيبة لعرف الحق بذلك، وهذا شبيه جداً بما دلت عليه الآية^(٤).

- ومما يشبه ذلك من قضائهما القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر^(٥) في تاريخه عن ابن عباس: «أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان، واجتمع معه ولدان مثله، فانتصب حاكماً، وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم، فسأل أولهم ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود، فعزله، واستدعى الآخر فسأله عن لونه؟ فقال: أحمر، وقال الآخر: أغبش، وقال الآخر: أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكى ذلك لداود عليه السلام،

(١) أخرجه البخاري: (١٢٦٠/٣)، كتاب الأنبياء، باب قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ برقم

(٣٢٤٤)، ومسلم كتاب الأفضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين: (١٣٤٤/٣)، برقم (١٧٢٠).

(٢) انظر: تفسير فتح القدير: (٤٢٢/٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٣١٣/١١).

(٤) تفسير أضواء البيان: (١٧١/٤).

(٥) ابن عساكر: هو الإمام العلامة أبو القاسم الدمشقي الشافعي، الحافظ الكبير المجود، محدث الشام، وصاحب تاريخ دمشق، صنّف الكثير، وكان فاهماً، حافظاً، متقناً، بصيراً، عابداً، يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة،

توفي في رجب سنة ٥٧١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٥٤).

فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم»^(١).

يقول الشنقيطي: «كل هذا يدل على صحة ما فسرنا به الآية؛ من أن حكمهما كان بالاجتهاد وليس بالوحي؛ لدلالة القرينة القرآنية عليه، وممن فسرها بذلك الحسن البصري - رحمه الله -، كما ذكره البخاري - رحمه الله - في صحيحه، وقال الحسن: «أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، إلى أن قال، وقرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ {٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا»، فحمد سليمان، ولم يلم داود، ولولا ما ذكره الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة ملكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده»^(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى ثناء الله على سليمان وداود، لما آتاهما من حكم وعلم ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وإلى تخصيصه سليمان بمزيد من الثناء عندما ذكر تفهيمه للقضية، والحكم فيها، بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، وما ورد في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف يدل دلالة واضحة على معاونة سليمان عليه السلام لأبيه في الحكم والقضاء.

- وراثه سليمان لداود عليه السلام في النبوة والملك:

وبعد وفاة داود عليه السلام، ورثه ابنه سليمان، وتولى الأمر من بعده، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾^(٣) أي: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال؛ لأنه قد كان له بنون غيره - كما أسلفت - فما كان ليُخصه بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من

(١) انظر: أضواء البيان: (١٧١/٤ - ١٧٢)، تفسير ابن كثير: (١٨٨/٣)، تفسير الدر المنثور: (٦٤٨/٥)، وانظر: تاريخ مدينة دمشق: (٢٣٣/٢٢).

(٢) تفسير أضواء البيان: (١٧٢/٤)، والحديث أخرجه البخاري، كتاب «الأحكام» باب: من يستوجب القضاء: (٢٦١٩/٦).

(٣) سورة النمل: الآية ١٦.

غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»^(١). فقد أخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم، كما يورث غيرهم، بل تكون صدقة من بعدهم على الفقراء والمحتاجين، لا يخصصون بها أقرباءهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم، وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم^(٢).

- خبر سليمان عليه السلام مع الصافنات الجياد:

قص القرآن ما حدث لسليمان عليه السلام مع الجياد في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ {٣٠} إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ {٣١} فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ {٣٢} رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ^(٣).

فيذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام، أي نبياً، ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، فهذا ثناء على سليمان بأنه رجاع مطيع لله، ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات^(٤).

يقول الإمام الراغب في معنى الصافنات الجياد: «الصفن: الجمع بين الشئين، ضاماً بعضهما إلى بعض، يقال: صفنَ الفرس قوائمه»^(٥).

وورد في المعجم الوسيط: «صفن الفرس، يصفن، صفوناً، أي: قام على ثلاث قوائم، وطرف حافر الرابعة، وصفن الرجل: أي صفّ قدميه»^(٦).

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه بطوله، كتاب «الجهاد» باب: أبواب الخمس، باب: فرض الخمس: (١١٢٦/٣)، برقم (٢٩٢٦)، ومسلم كتاب «الجهاد» باب: حكم الفي: (٣/١٣٧٧ - ١٣٧٨) برقم (١٧٥٧).

(٢) انظر: قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ٣٣٦.

(٣) سورة ص: الآية ٣٠ - ٣٣.

(٤) انظر: قصص الأنبياء؛ لابن كثير: ص ٣٤٣، وانظر: تفسير ابن كثير: (٤/٣٤).

(٥) المفردات في غريب القرآن: (١/٢٨٣).

(٦) انظر: المعجم الوسيط: (١/٥١٧).

أما الجياد، فقد قال عنها الراغب: «الجود بذل المقتنيات، مالا كان أو علماً، يقال: رجل جواد، ويقال: فرس جواد، يجود بمدَّخَرٍ عدوه، والجمع الجياد»^(١)، قال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾.

وورد في المعجم الوسيط: «يقال جاد الفرس: أي صار جواداً، ويقال جاد الفرس في عدوه: أي إذ أسرع، والجواد النجيب من الخيل، والجمع جواد، قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ أي: عُرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات التي تقف على ثلاث، وطرف حافر الرابعة، والجياد السراع^(٣)، أي: شديدة الجري، فقد وصفها سبحانه بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها^(٤).

وقد وصف الله ﷻ سليمان عليه الصلاة والسلام في مطلع الآية بأنه رجاع إلى الله في جميع أحواله بالإجابة والذكر والدعاء والتضرع والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء، ولهذا لما عرضت عليه الخيل الصافنات، والتي كان لها منظر رائق وجمال معجب، وخصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهمته عن صلاة المساء «أي صلاة العصر»، فقال ندماً على ما مضى وتقرباً إلى الله بما ألهمه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾، أي: حب الخير الذي هو المال عموماً وفي هذا الموضع المراد الخيل^(٥).

يقول الطبري - رحمه الله -: «والعرب فيما بلغني تسمي الخيل الخير، والمال أيضاً يسمونه

(١) المفردات: (١٠٣/١).

(٢) انظر: المعجم الوسيط: (١٤٥/١ - ١٤٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣٤/٤).

(٤) انظر: تفسير الرازي: (١٧٨/٢٦)، بتصرف.

(٥) انظر: تفسير السعدي: (٧١٢/١)، بتصرف.

الخَيْرِ»^(١).

﴿ فَقَالَ ﴾، أي: سليمان بن داود عليهما السلام: ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعني: الشمس، أي توارت الشمس بالحجاب، أيك واستترت بما يحجبها عن الأبصار^(٢).

يقول ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: «ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرض الحياول حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب»^(٣).

فعن جابر ﷺ قال: «جاء عمر ﷺ يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: والله ما صليتها، فقال: فقمنا إلى بطحان^(٤)، فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب»^(٥).

وقد ادعى طائفة من أهل العلم في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق، أن هذا كان مشروعاً، إذ ذاك حتى تُسَخَّ بصلاة الخوف.

وقال آخرون: بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً وعلى هذا فيحمل

(١) تفسير الطبري: (١٥٤/٢٣).

(٢) تفسير فتح القدير: (٤٣١/٤)، زاد المسير: (١٣٠/٧)، قصص الأنبياء لابن كثير: ص ٣٤٣، تفسير البغوي: (٦٠/٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣٤/٤).

(٤) بطحان بفتح الباء اسم وادي المدينة.

انظر: النهاية في غريب الأثر (١٣٥/١).

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب «مواقيت الصلاة»، باب: من صلى بالناس جماعة بعد ذهاب الوقت: (٢١٤/١)، برقم (٥٧١).

فَعَلُ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى هَذَا... وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

وعندما أشغلته عن صلاة العصر، وغربت الشمس، ثم ذكرها بعد ذلك غضب، وقال: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ أي: ردوا الخيل عليّ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ والمراد بالمسح: القطع، فجعل يضرب ويقطع سوقها وأعناقها بالسيف، وهذا قول أكثر المفسرين، وكان ذلك مباحاً له؛ لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر.

وقال بعضهم: إنه ذبحها، وتصرف بلحومها، وكان الذبح على ذلك الوجه مباحاً في شريعته.

وقال قوم: معناه أنه حبسها في سبيل الله، وكوى سوقها، وأعناقها بكى الصدقة.

وقال الزهري^(٢): إنه كان يمسح سوقها، وأعناقها بيده يكشف الغبار عنها حباً لها، وشفقة عليها. وهذا قول ضعيف، والمشهور هو القول الأول الذي عليه أكثر المفسرين، بأنه اخذ يضرب سوقها، وأعناقها بالسيف تقرباً بها إلى الله، إذ كان ذلك أسفاً على ما فاته من فريضة ربه ﷻ^(٣).

قال الحسن البصري: «قال لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت». وكذا قال قتادة والسدي: «ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف»^(٤).

وهناك من قال: إن الضمير في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ عائد على الخيل وليس على الشمس، وإنه لم ينته وقت الصلاة، وأن المراد بقوله: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ص ٣٤٣.

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن زهرة بن كلاب، أبو بكر القرشي الزهري المدني، نزيل الشام، من التابعين، روى عن ابن عمر وجابر بن عبدالله، وحدث عنه عطاء بن أبي رباح وهو أكبر منه، وطائفة من أهل العلم، قال عنه الذهبي: الإمام العلم حافظ زمانه، توفي سنة (٢٤هـ) في شهر رمضان وهو ابن (٧٢ سنة).

انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٦/٥)، وتقريب التهذيب (٥٠٦/١).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٦١/٤)، انظر: السمرقندي: (١٥٩/٣ - ١٦٠)، تفسير السمعاني: (٤٤٠/٤).

(٤) تفسير ابن كثير: (٣٥/٤)، تفسير الطبري: (١٥٦/٢٣).

بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿ يعني مسح العرق عن عراقيها، وأعناقها^(١) .

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير - رحمه الله - في تفسيره بعد أن ذكر رواية عن ابن عباس قوله: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ جعل يمسح أعراق الخيل وعراقيها حباً لها.

قال - رحمه الله - : « وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية ؛ لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً بغير سبب، سوى انه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها^(٢) .

يقول ابن كثير معقّباً على ما اختاره ابن جرير: « وهذا القول الذي رجحه ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت صلاة العصر، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله ﷻ ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، وغدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع، وخير من الخيل^(٣) .

والذي أرجحه هو: ما رجحه ابن كثير - رحمه الله -، وما رجحه كثير من المفسرين أيضاً، والله أعلم.

– فتنة الله لنبيه سليمان وداود عليهما السلام:

أخبر سبحانه في كتابه العزيز أنه فتنَ سليمان عليه الصلاة والسلام، وكما فتن سليمان، فقد فتن والده داود عليه السلام من قبله، ففتنة داود كانت بالملكين الذين تسوروا المحراب، وكانوا على هيئة رجلين متخاصمين كما سبق ذكره.

قال تعالى: ﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ {٣٤} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير: ص ٣٤٥.

(٢) تفسير الطبري: (١٥٦/٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣٥/٤).

الْوَهَّابُ^(١).

وقد نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد على كرسیه ﷺ، أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، فهي من أوضاع اليهود، والزنادقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾، فمعناه: ابتليناه، ولم يبين الله ﷻ الفتنة ما هي؟ ولا الجسد الذي ألقاه على كرسی سليمان ﷺ^(٢).

إلا أن عدداً من المفسرين ذهب إلى أن أظهر ما قيل في فتنته، وابتلائه عليه الصلاة والسلام ما روي مرفوعاً عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً، إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»^(٣).

يقول الشنقيطي - رحمه الله -: «إن هذا الحديث الصحيح بين معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾، وإن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قوله «إن شاء الله»، وإنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة نصف إنسان، وإن ذلك الجسد الذي هو نصف إنسان هو الذي ألقى على كرسیه بعد موته، في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾»^(٤).

وحكى القرطبي في تفسيره: «أن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلباً للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسیه، جاءت به القابلة فألقته هناك»^(٥)، ثم ذكر

(١) سورة ص: الآية ٣٤ - ٣٥.

(٢) انظر: تفسير البحر المحیط: (٣٨١/٧)، تفسير الثعالبي: (٣٩/٤).

(٣) الحديث رواه البخاري، كتاب «الأنبياء»، باب: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾:

(٣/١٢٦٠)، برقم: (٣٢٤٢)، ورواه مسلم، كتاب «الإيمان»، باب: الاستثناء: (٣/١٢٧٥)، برقم: (١٦٥٤).

(٤) تفسير أضواء البيان: (٣/٢٥٤).

(٥) تفسير القرطبي: (٢٠١/١٥)، ومن رجح هذا القول الألوسي في تفسيره «روح المعاني»: (٢٠٠/٢٣)، والشنقيطي

في تفسيره «أضواء البيان»: (٣/٢٥٣)، والبيضاوي في تفسيره: (٤٦/٥)، والثعالبي في تفسيره: (٣٩/٤)، وأبو

السعود في تفسيره: (٧/٢٢٦)، وأبي حيان في «البحر المحیط»: (٣٨١/٧).

الحديث.

ومن المفسرين من ذكر هذا الحديث في تفسيره للآية، وذكر هذا القول ضمن عدد من الأقوال، كصاحب تفسير (التسهيل لعلوم التنزيل)، إلا أنه عقب عليه بقوله: «فالفتننة على هذا كونه لم يقل «إن شاء الله»، والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له، وقد روي في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ، لكنه لم يذكر في الحديث أن ذلك تفسير الآية»^(١).

ويقول الرازي - رحمه الله - في تفسيره الكبير لقوله تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ»: «ولأهل الحشو والرواية فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء:

الأول: فتنة سليمان أنه ولد له ابن، فقالت الشياطين: إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه، فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك، فكان يريه في السحاب، فبينما هو مشغول بمهمات، إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه، فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأناب.

الثاني: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله... الحديث».

الثالث: قوله «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ»، بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ» منه «جَسَداً»، وذلك لشدة المرض، والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على عظم، وجسم بلا روح، «ثُمَّ أَنَابَ»، أي: رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه...».

الرابع: أقول لا يبعد أيضاً أن يقال: إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف، أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب»^(٢).

(١) انظر: تفسير التسهيل لعلوم التنزيل: (١٨٥/٣)، باختصار.

(٢) تفسير الرازي: (١٨٢/٢٦).

- الاستغفار والإجابة من صفات الأنبياء كسليمان وداود عليهما السلام:

ولما فتن الله سليمان عليه الصلاة والسلام أناب إليه، كما وصفه بذلك القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ {٣٤} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾، أي: اغفر لي ذنبي^(١)، فوصفه بالإجابة والاستغفار، كما وصف بذلك والده من قبل بقوله: ﴿ظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾^(٢).

وكما وصفهما بالإجابة، وصفهما بالأوبة، فقال عن داود عليه السلام: ﴿ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٣)، وقال عن ابنه سليمان عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٤)، فكلاهما أواب، منيب، بنص آيات القرآن الكريم عليهما الصلاة والسلام.

- سليمان عليه السلام يسأل ربه ملكاً عظيماً:

وسأل سليمان عليه السلام ربه ملكاً لا يكون لأحدٍ من بعده من البشر مثله^(٥)، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٦).

وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من عدة طرق، ففي البخاري في كتاب «التفسير» عند تفسير هذه الآية، أورد رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت^(٧) عليّ البارحة، أو كلمة نحوها؛ ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت

(١) تفسير القرطبي: (٢٠٤/١٥).

(٢) سورة ص: الآية ٢٤.

(٣) سورة ص: الآية ١٧.

(٤) سورة ص: الآية ٣٠.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٨/٤).

(٦) سورة ص: الآية ٣٥.

(٧) تفلت: أي تعرض لي في صلاتي فجأة.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٤٦٧/٣).

قول أخي سليمان: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾^(١).

وقد قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم^(٢).

ويقول القرطبي في تفسيره: «قد يقال كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا مع ذمها من الله تعالى وبغضه لها، وحقارتها لديه؟ فالجواب: أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى، وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته، وحاشا سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهدهم خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتهما لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح، فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة...»^(٣).

فأراد عليه السلام هذا الملك الخاص به، والذي لا ينبغي لأحد من بعده؛ لتسخيره في عبادة الله، والدعوة إليه سبحانه، فلم يكن الملك الذي سأل ربه أن يؤتاه إياه غاية مراده، ولكنه وسيلة لتحقيق غايته الإيمانية العظيمة.

يقول السمرقندي^(٤) في تفسيره: «ويقال: إنما تمنى ملكاً لا يكون لأحد من بعده، حتى يكون ذلك معجزة له، وعلامة لنبوته»^(٥).

ويقول الطبري - رحمه الله - في تفسيره أيضاً: «وإن قال لنا قائل: وما وجه رغبة سليمان إلى ربه في الملك، وهو نبي من الأنبياء، وإنما يرغب في الملك أهل الدنيا المؤثرون لها على الآخرة؟

(١) الحديث رواه البخاري كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾: (١٨٠٩/٤)، برقم: (٤٥٣٠).

(٢) تفسير الكشاف: (٩٦/٤)، وراجع التسهيل لعلوم التنزيل: (١٨٥/٣).

(٣) تفسير القرطبي: (٢٠٤/١٥).

(٤) هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الليث السمرقندي تفقه على أبي جعفر الهندواني وله العديد من المصنفات كتاب تفسير المسمى (بحر العلوم)، وكتاب النوازل في الفقه، وغيرها من التصانيف توفي رحمه الله سنة (٣٩٣هـ).

انظر: طبقات المفسرين للداودي (٩١/١)، وسير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٦).

(٥) تفسير السمرقندي: (١٦١/٣).

قيل : أما رغبته إلى ربه فيما يرغب إليه من الملك ، فلم يكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا ، ولكن إرادةً منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما يرغب إليه فيه ، وقبول ، توبته ، وإجابته دعاءه .
وأما مسألته ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني ، فيكون حجةً وعلامةً لي على نبوتي ، وأني رسولك إليهم مبعوث ، إذ كانت الرسل لا بد لها من علامات تفارق بها سائر الناس سواهم .
ويتجه أيضاً لأن يكون معناه وهب لي ملكاً تخصني به لا تعطية أحداً غيري ، تشريفاً وتكرمة منك لي بذلك ، لتبين منزلتي منك به من منازل من سواي»^(١) .

- تسخير الريح لسليمان ﷺ :

استجاب الله دعاءه ، وأعطاه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، قال تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ { ٣٦ } وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ { ٣٧ } وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ { ٣٨ } هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ { ٣٩ } وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾^(٢) ، فسخر الله له الريح تجري بأمره رخوةً لينةً ، وهي من الرخاوة ، واللينونة^(٣) .

فلما عقر سليمان ﷺ الخيل غضباً لله ﷻ ، عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع ، وهي الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر ، تحمله إلى حيث أراد من البلاد^(٤) .

وفي سورة الأنبياء يقول تعالى عما منَّ به على سليمان ﷺ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾^(٥) .

يقول الشنقيطي في تفسيره هذه الآيات : «اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤاليين

معروفين .

(١) تفسير الطبري : (١٦٤/٢٣) ، باختصار .

(٢) سورة ص : الآية ٣٦ - ٤٠ .

(٣) انظر : المفردات في غريب القرآن (١/١٩٢) .

(٤) انظر : تفسير الطبري : (١٦٠/٢٣) ، تفسير ابن كثير : (٣٩/٤) .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ٨١ .

الأول: قد وصف الله الريح المذكورة هنا في سورة «الأنبياء» بأنها عاصفة، أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة «ص» بأنها تجري بأمره رخاء، لينة، والعاصفة غير التي تجري رخاء؟! رداء؟!

الثاني: في سورة «الأنبياء» خص جريها به بكونها إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة «ص» قال: ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِ رُخَاءٍ حَيْثُ أَصَابَ ﴾، وقوله: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها على الريح؟! رداء؟!

فأما كونها قد وصفت بأنها شديدة الهبوب، ووصفت في موضع آخر بأنها رخاء لينة فجواب ذلك من وجهين الأول: أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها، بحسب الحاجة، كأن تعصف ويشد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاءً حيث أصاب^(١).

والوجه الثاني: ذكره الزمخشري: «بقوله: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة، وبالرخاوة أخرى، فما التوفيق بينهما؟ فإنها: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، بدليل قوله: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾^(٢).

فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم^(٣).

وأما وصفها في موضع بأنها تجري بأمره رخاءً حيث أصاب وفي موضع آخر بأنها تجري بأمره إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، فهو أن قوله: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾، يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾؛ لأن مسكنه فيها، وهي الشام فترده إلى الشام، وعليه فقوله: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ في حالة الذهاب،

(١) انظر: أضواء البيان (٤/٢٣٥).

(٢) سورة سبأ: الآية ١٢.

(٣) تفسير الكشاف (٣/١٣٠).

وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى»^(١).

وقد ذكر الله تعالى في كتابه تسخير الريح لسليمان عليه السلام في عدة سور، ففي الأنبياء قوله: ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وفي سورة سبأ بقوله: ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرًا وَرَوَاحَهَا شَهْرًا﴾، فكانت تسير به بالغداة مسيرة شهر، وبالعشي مسيرة شهر^(٢)، فكانت تقطع مسيرة شهر في غدوها أول النهار، وتقطع مسيرة شهر آخر في رواحها آخر النهار، فتقطع بسليمان عليه السلام مسيرة شهرين^(٣) في اليوم الواحد، وهذا من تمام نعمة الله على نبيه سليمان عليه السلام.

وفي سورة «ص» قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾، وجميعها ذكرت في سياق ما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام.

- تسخير الجن والشياطين لسليمان عليه السلام:

وسخر الله تعالى لسليمان عليه السلام الجن والشياطين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نَذَابٌ السَّعِيرِ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ {٣٧} وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٦).

فلما ذكر سبحانه ما خص به نبيه داود عليه السلام، ذكر ما خص به ابنه سليمان عليه السلام^(٧).

وهذه أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام بأن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على

(١) انظر: تفسير أضواء البيان: (٤/٢٣٥ - ٢٣٦).

(٢) انظر: تفسير التسهيل لعلوم التنزيل: (٣/١٤٧)، تفسير أبي السعود: (٧/١٢٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٣/٥٥٠ - ٥٥١)، بتصرف.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٢.

(٥) سورة سبأ: الآية ١٢.

(٦) سورة ص: الآية ٣٧ - ٣٨.

(٧) انظر: تفسير البحر المحيط: (٦/٣٠٨).

تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فمن الشياطين من يغوصون له في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغيرها، ويعملون أعمالاً غير ذلك.

فالبناة يصنعون محاريب وتمائيل، وآخرون ينحتون له جفاناً وقدوراً، والمردة في الأغلال مقرنون، وقوله: ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾، أي أن الله يحرسه فلا يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل منهم في قبضته، وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه، والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾^(١).

وقد سخر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، بقدره وتسخيره لهم بمشيئته فيعلمون ما يشاء سليمان عليه السلام من البنيات وغير ذلك، ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾، وهو الحريق^(٢).

وكل هذا عطاء من الله تعالى لسليمان بن داود عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٣).

فبعد ذكره عليه السلام وإخباره عن مسألة نبيه سليمان عليه السلام وإعطاؤه إياه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، أخبر أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، وذلك بتسخيره له الريح والشياطين، والجن، ثم قال سبحانه بعد ذلك هذا الذي أعطيناك من الملك، وتسخيرنا ما سخرنا لك عطاؤنا، ووهبنا لك ما سألتنا أن نهبه لك من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك، فأعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. أو هذا التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب، فلا حساب عليك في ذلك^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١٨٨/٣ - ١٨٩)، تفسير السعدي: (٥٢٨/١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٥٢٩/٣).

(٣) سورة ص: الآية ٣٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٦٣/٢٣)، تفسير ابن كثير: (٤٠/٤)، تفسير الكشاف: (٩٨/٤).

﴿وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾، فله قربة وكرامة مع ما له من الملك العظيم، فهو إشارة إلى أن ملكه لا يضره، ولا ينقصه شيئاً من مقامه، وله حسن مآب، ومرجع في الجنة^(١).

- إسالة النحاس لسليمان كما ألان الله الحديد لداود عليهما السلام:

وكان سليمان مع ما آتاه الله تعالى من الملك العظيم يعمل الخوص^(٢) بيده، ويأكل خبز الشعير، ويطعم بني إسرائيل^(٣) كما كان والده داود عليه السلام، مع ما آتاه الله عز وجل فكان لا يأكل الا من عمل يده.

وكما ألان الله الحديد لداود عليه السلام يتصرف فيه كما يشاء، ويصنع منه ما يشاء، فقد أذاب النحاس لابنه سليمان عليه السلام، وهذا من فضل الله وهبته لسليمان وأبيه من قبل.

قال تعالى: ﴿وَأَسْلُنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾^(٤)، والقطر بكسر القاف: هو النحاس المذاب^(٥)، والمراد أذبننا له عين النحاس^(٦).

يقول الزمخشري: «القطر: النحاس المذاب من القطران، فإن قلت: ماذا أراد بـ«عين القطر»، قلت: أراد بها معدن النحاس، ولكنه أساله كما ألان الحديد، فنبع كما ينبع الماء من العين، فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه، كما قال: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾^(٧)»^(٨).

والإسالة في الحقيقة حالة في القطر تحصل بعد الإذابة، وعين: أي سائل، قال تعالى:

(١) انظر: تفسير روح المعاني: (٢٣/٢٠٥).

(٢) الخوص يطلق على ورق النخل، والمقل، والنارجيل، وما شاكلها. والخواص، هو بائع الخوص، والذي يعمل الأشياء منه، ورجل خواص ينسج الخوص، وعمله الخياطة.

انظر: المعجم الوسيط (١/٢٦٢) مادة خوص، وأساس البلاغة (١/١٧٧).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني (٢٣/٢٠٥).

(٤) سورة سبأ: الآية ١٢.

(٥) انظر: تفسير فتح القدير: (٤/٣١٦)، تفسير الكشاف: (٣/٥٨٢).

(٦) تفسير الطبري: (٢٢/٦٩).

(٧) سورة يوسف: الآية ٣٦.

(٨) تفسير الكشاف: (٣/٥٨٢)، ويراجع تفسير النسفي: (٣/٣٢٢).

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾^(١).

والمعنى : سخرنا له عين النحاس ، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها^(٢).

فقد أذاب الله تعالى لسليمان عليه السلام النحاس ، عن نحو ما كان الحديد يلين لداود ، ولم يلن النحاس ولا ذاب لأحد قبله^(٣).

وتصور معدن النحاس مذاب مسال وقد عبر عنها القرآن بالعين - أي كالمنبع -^(٤) ليدل على عظيم هذه النعمة من الله على سليمان عليه السلام.

يقول السعدي - رحمه الله - : « وسخر الله له أيضاً الشيطان والجن لا يقدر أن يستعصوا عن أمره »^(٥).

- حزم سليمان في حكم الجن والشياطين :

قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٦) ، وقد بين لنا القرآن الكريم بعض ما كانوا يعملون له - الجن - بقوله : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾^(٧) ، والمحارِب في اللغة : كل موضع مرتفع ، وهي الأبنية الرفيعة ، والقصور العالية . ولا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج ، ومنه قيل : للذي يصلى فيه محراب ؛ لأنه يرفع ويعظم.

قال مجاهد : « المحارِب دون القصور » ، وقال أبو عبيدة : « المحراب أشرف بيوت الدار ». وقال

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن : (١/٢٥٠ - ٣٥٥) ، باختصار .

(٢) انظر : تفسير السعدي : (١/٦٧٦) .

(٣) تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (٤/٤٠٩) .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (١/٣٥٥) .

(٥) تفسير السعدي : (١/٦٧٦) .

(٦) سورة سبأ : الآية ١٢ .

(٧) سورة سبأ : الآية ١٣ .

الضحاك: « المراد بالمحاريب هنا المساجد»^(١)، ويقول الطبري في تفسيره: « المحاريب: جمع محراب، والمحراب مقدم كل مسجد وبيت ومصلى»^(٢).

والتماثيل: نحت من حجر، أو صنع من نحاس ونحوه، ويحاكى به خلق من الطبيعة، يمثل به معنى يكون رمزاً له^(٣)، وسيأتي بيان للحكم الشرعي عن هذه التماثيل في آخر هذا المبحث.

والجفان: جمع جفنة، وهي القصعة، والبئر الصغيرة^(٤).

والجواب: أصلها الجوابي، حُذفت منها الياء للتسهيل، مثل الجواربي، صارت «جوار» في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾^(٥).

والجابية: مؤنث الجابي، والحوض يجبي فيه الماء^(٦).

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: « قال المفسرون: يعني قصاعاً في العظم، كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها»^(٧).

فقد كانت آنية الطعام التي يعملها الجن لسليمان عليه السلام كبيرة، وكان الجفنة أو القصعة الواحدة حوض من أحواض الماء التي يُجمع فيها، والقدر الراسيات: أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك، ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها^(٨).

ثم لما بين حال الجفان العظيمة، وقد يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء

(١) انظر: تفسير فتح القدير: (٤/٣١٦ - ٣١٧).

(٢) تفسير الطبري: (٧٠/٢٢).

(٣) انظر: المعجم الوسيط: (٢/٨٥٤).

(٤) انظر: المعجم الوسيط: (١/١٢٧).

(٥) سورة الرحمن: الآية ٢٤.

(٦) انظر: المعجم الوسيط: (١/١٠٦)، تفسير الطبري: (٢٢/٧١).

(٧) تفسير فتح القدير: (٤/٣١٧).

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/٥٢٩)، تفسير الطبري: (٢٢/٧٢).

يُطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان^(١).

- خطاب الله لآل داود:

خُتِمَت الآية بالدعوة إلى شكر الله على هذه النعم العظام، فقال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢).

وآل داود: هم داود، وأولاده، وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لهم كلهم^(٣).

وهذه الآية إشارة إلى أن هذه الأشياء خالية لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها، وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكراً، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء، وقلة الاشتغال بها^(٤).

فقال لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه، مع الشكر له على سائر نعمه التي عممكم بها، واشكروا ربكم بطاعتكم إياه، وفي ذلك دليل على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول. والصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير يعمله العبد لله عَلَيْكَ شكر، وأفضل الشكر الحمد^(٥).

وقد كان آل داود الْعَلِيَّة كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً^(٦).

عن ثابت^(٧) البناني، قال: «كان داود الْعَلِيَّة قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن

(١) انظر: تفسير الرازي: (٢١٥/٢٥).

(٢) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٣) انظر: تفسير السعدي: (٦٧٧/١).

(٤) انظر: تفسير الرازي: (٢١٥/٢٥).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٧٢/٢٢)، تفسير ابن كثير: (٥٢٩/٣).

(٦) تفسير ابن كثير: (٥٢٩/٣).

(٧) ثابت البناني بن أسلم، أبو محمد البصري، تابعي روى عن أنس بن مالك، وعبدالله بن الزبير، وغيرهم، وروى عنه حماد بن سلمة، وشعبة، وكان محدثاً من الثقات المأمونين، صحيح الحديث توفي سنة (١٢٧هـ).

ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، قال: فعمهم الله في هذه الآية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليه السلام لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»، وكذا كان داود عليه السلام أفضل العابدين صياماً وصلاةً كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، كما مر معنا قبل ذلك^(٢).

يقول الرازي - رحمه الله - في تفسيره هذه الآيات من سورة سبأ: «ذكر سبحانه في حق داود اشتغاله بألة الحرب، وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل، وذلك لأن سليمان كان ولد داود، وداود قتل جالوت، والملوك الجبابرة، واستوى داود على الملك، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك، وجمع له المال، فهو يفرقه على جنوده؛ ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه، فتركوا الحرب معه، وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيراً لإدراكه إياه بالريح، فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام»^(٣).

وقد قام سليمان بن داود عليهما السلام ببناء بيت المقدس، دليل ذلك ما أخرجه النسائي وابن ماجه وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «إن سليمان بن داود لما بنى مسجد بيت المقدس، سأل الله خلافاً ثلاثاً، سأل الله حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»^(٤).

انظر: طبقات الحفاظ (٥٧/١)، والجرح والتعديل (٤٤٩/٢).

(١) انظر: حلية الأولياء: (٣٢٧/٢)، وانظر: عدة الصابرين: (١٠٣/١)، ويراجع تفسير ابن كثير: (٥٢٩/٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها»، باب: ما جاء في قيام الليل: (٤٢٢/١)، رقم: (١٣٣٢)، وذكره ابن كثير في تفسيره: (٥٣٠/٣).

(٣) تفسير الرازي: (٢١٥/٢٥).

(٤) الحديث أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب «المساجد»، باب: فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه: (٢٥٦/١)، برقم: (٧٧٢)، وابن ماجه كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها»، باب: ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس:

(١/٤٥٢)، برقم: (١٤٠٨).

- تعليم الله لنبيه سليمان منطق الطير:

ومما امتن الله به على النبي سليمان بن داود عليهما السلام أن الله خصه بتعليمه منطق الطير، وآتاه الله من كل شيء، واعترف عليه السلام بأن هذا فضل مبین من الله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾^(١).

فقال سليمان لقومه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾، يعني فهمنا كلامها، فجعل ذلك من الطير كمنطق الرجل من بني آدم إذ فهمه عنها^(٢).

يقول الراغب في «المفردات»: «(وقوله ﴿ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾، فإنه سمي أصوات الطير نطقاً، اعتباراً بسليمان الذي كان يفهمه، فمن فهم من شيء معنى، فذلك الشيء بالإضافة إليه ناطق، وإن كان صامتاً، وبالإضافة إلى أن من لا يفهم عنه صامت، وإن كان ناطقاً»^(٣).

وذكر القرآن دليلاً على ذلك عندما سمع عليه السلام النملة، وهي تكلم النمل، وعندما جرى حوار بينه وبين الهدد.

يقول الإمام ابن كثير: «أخبر سليمان بنعم الله عليه، فما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى أنه سخر له الإنس والجن والطيور، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه، مما أخبر الله ورسوله به»^(٤).

ومعنى ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كل شيء تدعو إليه الحاجة كالعلم، والنبوة، والحكمة، والمال، وتسخير الجن والإنس والطيور والرياح والوحش والدواب، وكل ما بين السماء والأرض^(٥).
قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(٦).

(١) سورة النمل: الآية ١٦.

(٢) تفسير الطبري: (١٤١/١٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن: (٤٩٧/١).

(٤) تفسير ابن كثير: (٣٥٩/٣).

(٥) انظر: تفسير فتح القدير: (١٣٠/٤).

(٦) سورة النمل: الآية ١٧.

أي: يحبس أولهم ليلحق آخرهم، فيكونوا مجتمعين، لا يتخلف منهم أحد، وذلك للكثرة العظيمة، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر، والأول أولى، وأصل الوَزَع الكف والمنع، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: «ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن»^(١).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {١٨} فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس يسرون معه، والطير سائر معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي نقباء - يردون أوله على آخره، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور، والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد، والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقول بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان. ولهذا قال سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾، أي ألهمني، وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من الزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له. والمراد بالديه: داود عليه السلام وأمه، وكانت من العابدات الصالحات، كما في حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «قالت أم سليمان بن داود: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة»^(٣)^(٤).

(١) تفسير روح المعاني: (١٧٤/١٩)، باختصار.

(٢) سورة النمل: الآية ١٨ - ١٩.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٥٩/٣٦٠)، وقصص الأنبياء؛ لابن كثير: (٣٣٧ - ٣٣٨)، باختصار.

ويقول الرازي في تفسيره قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾، إن الإنعام على الآباء إنعام على الأبناء؛ لأن انتساب الابن إلى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن...^(١).

فهذا نموذج ذكره الله عن حال سليمان عليه السلام عند سماعه خطاب النملة وندائها، ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير^(٢).

قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ {٢٠} لِأَعَذَّبْتَهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ {٢١} فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ {٢٢} إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ {٢٣} وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ {٢٤} أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ {٢٥} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾^(٣).

أي: أراد معرفة الموجود منها من غيره، وأصل التفقد معرفة الفقد، والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل الطير، وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك، والاهتمام بالرعايا، لاسيما الضعفاء منها، فلم ير الهدهد، فقال: ﴿ لِأَعَذَّبْتَهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾، وهذا التعذيب للتأديب، ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك، لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، وإذا سخر له الطير، ولم يتم ما سخر من أجله إلا بالتأديب والسياسة، جاز أن يباح له ما يستصلحه ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ فترقى في العقوبة من الشديد إلى الأشد^(٤).

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ووصف مكث الهدهد بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من

(١) تفسير الرازي؛ : (١٦٢/٢٤).

(٢) انظر: تفسير السعدي: (٦٠٣/١).

(٣) سورة النمل: الآية ٢٠ - ٢٦.

(٤) انظر: تفسير روح المعاني: (١٨٢/١٩ - ١٨٤)، باختصار.

سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له، وليبين ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته، وعلى قدرة الله تعالى، فقال الهدهد: ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ألهمه الله، فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمّة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له في علمه، وتنبهها على ان في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به؛ لتحقاق إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفاً في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علماً أن يُعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم^(١).

- موت سليمان عليه السلام:

ذكر القرآن الكريم موت سليمان عليه السلام في سورة سبأ، وقد جاءت هذه الآيات خاتمةً للآيات التي تحدثت عن سليمان، وعن الجن الذين يعملون بين يديه عليه السلام بإذن ربه، وعن حزمه وقوته في حكمهم، وعن بعض الصناعات التي يصنعونها، كالمحاريب، والتمائيل، والقذور الراسيات، فقال تعالى بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾^(٢).

وهناك روايات وردت في كتب التفسير والتاريخ تتكلم عن موت سليمان عليه السلام، ولكنها غير صحيحة، أو غريبة كما وصفوها.

وقد جعل الله ﷻ موت سليمان كما في الآيات حكمةً، ودليلاً على أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كان يعتقد الناس. فيذكر ﷻ كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف أخفى الله موته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه، وهي منسأته كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغير واحد: مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون

(١) انظر: تفسير الكشاف: (٣/٣٦٤).

(٢) سورة سبأ: الآية ١٤.

الناس^(١).

إذ لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي^(٢).

وقد ورد في قصة سليمان عليه السلام روايات إسرائيلية وموسوعة وذلك فيما يتعلق بتسليط الشيطان على نساء سليمان .

- وأخذ الشيطان خاتم سليمان .

- وما فعل سليمان عندما ولد له ولد ، فأراد أن يواريه من الموت .

- وفيما يتعلق بملك سليمان وسعته وعضمته .

وقد ذكر ذلك السيوطي ، وابن جري الطبري ، والقرطبي ، والثعلبي ، والبغوي وغيرهم^(٣).

ومما روي من الإسرائيليات في التفسير حديثه للشجرة التي تنبت في بيت المقدس ، وما جاء في هذه الرواية من قصة موته عليه السلام ذكر ذلك السيوطي في تفسيره ، وابن جرير الطبري ، وذكرها كذلك ابن كثير في تفسيره إلا أنه أنكر هذه الرواية وقال إنها من الإسرائيليات^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٥٣٠/٣)، تفسير السعدي: (٦٧٧/١).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٥/٢١٧).

(٣) انظر: تفسير الدر المنثور (١٧٩/٧)، و تفسير ابن جرير الطبري (١٥٧/٢٣)، و تفسير الثعلبي (٢٠٤/٨)، و تفسير البغوي (٦٣/٤)، و تفسير القرطبي (٣٢٢/١١).

(٤) انظر: تفسير الدر المنثور (٢٣٥/١)، و تفسير ابن جرير الطبري (٧٥/٢٢)، و تفسير ابن كثير (٥٣٠/٣) وراجع موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٧١٧/٢).

الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله - في بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود وسليمان عليهما السلام، منها:

- ١ - أن سليمان يعد من فضائل داود، ومن منن الله عليه، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١)، وهذا أعظم تزكية، وأكبر فخر لسليمان^(٢).
- ٢ - أن سليمان قدم محبة الله على محبة كل شيء، وأتلف الخيل التي ألهمته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب، فكل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه، فهو مشئوم فليفارقه، وليقبل على ما هو أنفع له، فنبى الله سليمان لما أتلف الخيل الجياد التي ألهمته عن طاعة الله، سخر الله له الريح والشياطين، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه^(٣).
- ٣ - كثرة خير الله وفضله على عبده الأخيار، يمن عليهم بالأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة، ثم يثني عليهم بها، ويرتب عليها من الثواب أنواعاً متنوعة، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها.
- ٤ - أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب، وفي الخصومات والمشاحنات، قال تعالى في حق سليمان ووالده داود عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).
- ٥ - كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفتنته إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور، حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان^(٥).
- ٦ - إكرام الله لداود وسليمان بالزلفى عنده وحسن المآب، فلا يتوهم أحد أن ما جرى منهما

(١) سورة ص: الآية ٣٠.

(٢) قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبر (ص ٨٦).

(٣) قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبر (ص ٨٦).

(٤) سورة النمل: الآية ١٥.

(٥) باختصار من قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبر؛ للسعدي: ص ٨٦.

منقص لدرجتها عند الله، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال عنهم أثر الذنوب أزال الآثار الترتبية عليها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، وما ذلك على فضل الكريم بعزيم^(١).

٧- ويقول السعدي - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى عن سليمان لما سمع قول النملة: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾: «إعجاباً منه بنصح أمتها، وحسن تعبيرها، وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ جُلُّ ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل، وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسول منزهون عن ذلك^(٢).

فترية النشء على مثل هذه الصفات العظيمة، صفات الأنبياء، لهو أعظم ما يقوم به الوالدان، والمربون عموماً، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ﴾^(٣).

ومن الأحكام:

واستدل بقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلَ﴾^(٤) على أن التصوير كان مباحاً في شرع سليمان عليه السلام، ولكن نسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ^(٥).

يقول الزمخشري: «فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير؟ قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع؛ لأنه ليس من مقبحات العقل، كالظلم والكذب»^(٦)، فالأنبياء اتفقت في أصول التشريع، واختلفوا في الفروع.

(١) انظر: قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبر: ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) تفسير السعدي: (٦٠٣/١).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٥) انظر: تفسير فتح القدير: (٣١٧/٤).

(٦) تفسير الكشاف؛ للزمخشري: (٥٨٢/٣).

المبحث الثامن

يحيى بن زكريا عليهما السلام

ذكرت في الفصل الأول من هذا البحث حديث القرآن عن دعاء زكريا عليه السلام بالذرية الصالحة، واستجابة الله تعالى لدعائه، وحمل امرأته العاقر، ومنحه الله الولد، وسماه يحيى. ويحيى بن زكريا عليهما السلام نبي ابن نبي، وهما أنبياء لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

- يحيى في القرآن:

ورد ذكر يحيى عليه السلام في القرآن في خمسة مواضع: في الآية السابقة، وفي سورة آل عمران، عندما بشرت به الملائكة أبوه زكريا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وورد في سورة الأنبياء في أثناء بيان استجابة الله لدعوة أبيه بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾^(٣).

وفي سورة مريم ورد ذكره مرتين، مرة في تبشير الملائكة لأبيه، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾^(٤).

ومرة أخرى في مخاطبة الله له مباشرة، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٥).

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٤) سورة مريم: الآية ٧.

(٥) سورة مريم: الآية ١٢.

وقد ذهب جمعٌ من المفسرين إلى أنه سُمِّيَ يحيى ؛ لأن الله تعالى أحياه بالطاعة وبالإيمان^(١).

وذهب الراغب الأصفهاني إلى أن (يحيى) مشتق من الحياة، فهو على معنى الحياة، حيث قال في حكمة تسميته بهذا الاسم: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ فقد نبه أنه سماه بذلك من حيث إنه لم تمته الذنوب، كما أماتت كثيراً من ولد آدم، لا أنه كان يُعرف بذلك فقط، فإن هذا قليل الفائدة...^(٢).

وقد أخبر الله تعالى نبيه زكريا أن ابنه يحيى هو أول من تسمى بهذا الاسم كما سبق ذكره في الفصل الأول من هذا البحث.

- صفات يحيى بن زكريا عليه السلام كما جاء بها القرآن قبل ولادته:

أخبر الله تعالى عن بعض صفات يحيى عليه السلام بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

١- فذكر سبحانه أنه مصدق بكلمة من الله، وسيدٌ، وحصورٌ، ونبي من الصالحين.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني عيسى في قول أكثر المفسرين.

وسمي عيسى كلمة ؛ لأنه كان بكلمة الله تعالى التي هي كن، فكان من غير أب، وقيل سمي كلمة ؛ لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى. وقيل معنى كلمة من الله بكتاب من الله، وقيل غير هذا من الأقوال^(٤).

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٥٢/٣)، تفسير ابن كثير: (٣٦٢/١)، القرطبي: (٧٦/٤)، تفسير ابن أبي حاتم:

(٢) (٦٤٢/٢)، البغوي: (٢٩٨/١).

(٣) المفردات في غريب القرآن: (١٣٣/١)، (١٣٩).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (٧٦/٤).

والقول الأول هو الأشهر، وعليه أكثر العلماء^(١).

يقول الطبري في تفسيره:

«يعني بقوله جل ثناؤه إن الله يبشرك يا زكريا بيحيى ابناً لك مصداقاً بكلمة من الله، يعني بعيسى بن مريم... وقد زعم بعض أهل العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن معنى قوله (مصداقاً بكلمة من الله) بكتاب من الله من قول العرب أنشدني فلان كلمة كذا يراد به قصيدة كذا، جهلاً منه بتأويل الكلمة واجترأً على ترجمة القرآن برأيه»^(٢).

ويحيى أول من آمن بعيسى عليهما السلام وصدقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين، ويقال بستة أشهر، وكانا ابني الخالة^(٣).

قال ابن عباس في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك، فذلك تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى، وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى عليه السلام... وهكذا قال السدي أيضاً^(٤).

٢- ووصف في القرآن أنه سيد، وقد فسرها الصحابة والتابعون بعدة معانٍ، قال ابن

عباس والثوري والضحاك: السيد هو الحلیم التقي.

وقال قتادة: كان يحيى عليه السلام سيداً في العلم والعبادة.

وقال مجاهد: السيد هو الكريم على الله.

وقال عكرمة: السيد هو الذي لا يغلبه الغضب.

وقال سعيد بن المسيب: السيد هو الفقيه العالم.

(١) تفسير القرطبي: (٧٦/٤).

(٢) تفسير الطبري: (٢٥٢/٣ - ٢٥٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٧٦/٤).

(٤) تفسير الكشاف: (٣٦٢/١)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٥٣/٣).

وقال بعض أهل العلم : هو الشريف^(١).

وهذه الأقوال لا تعارض بينها، فكلها مرادة، وينطبق عليها كلها معنى السيد^(٢).

٣- كما وصفه القرآن بأنه «حَصُورًا»، والحضور اسم مفعول من الحصر، وهو المنع^(٣).

يقول الإمام الراغب: «الحضور الذي لا يأتي النساء، إما من العنة، وإما من العفة، والاجتهاد في إزالة الشهوة. والثاني هو المراد في الآية؛ لأنه بذلك تستحق المحمدة»^(٤).

وهذا ثناء من الله تعالى على يحيى أنه كان «حَصُورًا»، وليس كما قال بعضهم: إنه كان هيباً، أو أنه لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا هذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، لا يأتيها. وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء.

وقد تبين أن عدم القدرة على النكاح نقص، والأنبياء منزهن عن هذا، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفالة من الله تعالى كيحيى عليه السلام. فالمقصود أنه مدح وثناء ليحيى عليه السلام^(٥).

فكان يحيى عليه السلام حصوراً، متعالياً ومتسامياً بغريزته، وشهوته فلم يفكر في النساء، مع قدرته على ذلك، ومنع نفسه عن الشهوات برغبته وإرادته.

ثم قال تعالى عنه عليه السلام:

٤- كما وصفه تعالى بأنه: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَنَبِيًّا﴾ عطف على ما قبله مترتب

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١/٣٦٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن: (١/٢٤٧).

(٣) انظر: لسان العرب: (٤/١٩٤ - ١٩٥).

(٤) المفردات في غريب القرآن: (١/١٢٠).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/٣٢٦).

على عدد من الخصال الحميدة، ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: نشأ منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١)، وهذه بشارة لذكريا ﷺ بأنه سيرزقه يحيى، وسيجعله نبياً من الصالحين.

هذه صفات يحيى ﷺ التي وردت في سورة آل عمران.

- يحيى ﷺ بعد أن رزق به زكريا، وصفاته:

وأما في سورة مريم فقد أخبر تعالى عن وجود (يحيى) وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا ﷺ^(٢).

قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا {١٢} وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا {١٣} وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا {١٤} وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا {١٥}﴾^(٣).

يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى ﷺ، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم... وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، لهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه...»^(٤).

فالمراد بالكتاب في الآية هو التوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ، والمراد بقوة، أي يجد بأن يعمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله^(٥).

فليس المراد بها القوة الجسمية، وإنما يراد بها القوة المعنوية، فهي قوة الفهم والعلم،

(١) انظر: تفسير أبي السعود: (٣٢/٢).

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير: (ص ٣٧١).

(٣) سورة مريم: الآيات ١٢ - ١٥.

(٤) تفسير ابن كثير: (١١٤/٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٥٤/١٦ - ٥٥).

والأخذ، والأداء والعمل. كما قال تعالى لبني إسرائيل في زمن موسى ﷺ حيث أمرهم أن يأخذوا التوراة بقوة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

وأخبر تعالى في الآيات التي تتحدث عن يحيى بن زكريا عليهما السلام، بأن آتاه الحكم صبياً، فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، والمراد بالحكم: الحكمة، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه، وفهم ما فيه من أحكام.

وقيل: هي العلم وحفظه، والعمل به، وقيل: النبوة، وقيل: العقل، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحاً لحمله على جميع ما ذكر. وقد أعطاه الله الحكم، والفهم لكتاب الله في حال صباه، قبل بلوغه أسنان الرجال بدليل قوله «صبياً»^(٢).

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾:

«أي آتيناها الفهم والعلم، والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث...»^(٣).

- يحيى ﷺ ذو حنانٍ وزكاة:

ومن صفاته المذكورة ﷺ أنه كان ذا حنانٍ وزكاة، فقال سبحانه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

وأصل كلمة الحنان الإشفاق، فقد قال الإمام ابن فارس في كتابه مقاييس اللغة:

«الحنان هو: الإشفاق والرققة، وقد يكون ذلك مع صوتٍ وتوجُّع».

والحنان: الرحمة، قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾

(١) سورة البقرة: الآية ٦٣.

(٢) انظر: تفسير فتح القدير: (٣/٣٢٥)، تفسير الطبري: (١٦/٥٥).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/١١٤).

تقول حنانك: رحمتك، وحنانيك، حناناً بعد حنان، ورحمةً بعد رحمة^(١).

فالحنان: هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحننت المرأة على زوجها، ومنه سميت المرأة حنة من الحنة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة^(٢).

فمن صفاته عليه السلام، أن من الله عليه وعلى والده زكريا به، فجعله حنوناً صاحب حنان وشفقة ورقة، فهذه نعمة عظيمة إذا اتصف بها الولد، فكان ذا حنان على والديه، وخصوصاً أن يحيى عليه السلام قد رُزق لوالديه وهما على كبر، فهما أحوج لمثل هذه الصفة الجليلة، والتي وصف الله بها هذا الولد وهو يحيى عليه الصلاة والسلام.

ويقول الزمخشري في الكشاف: «حناناً: رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفاً وشفقة»^(٣)، ووصفه بقوله: «وزكاة» وهي عطف على الحكم في قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: وأتينا يحيى الحكم صبياً وزكاة، وهي الطهارة من الذنوب، واستعمال بدنه في طاعة ربه^(٤) يقول النسفي في تفسيره:

«زكاة: أي طهارة وصلاًحاً فلم يعمد بذنب»^(٥).

ويقول القرطبي في تفسير للآية:

«الزكاة التطهير، والبركة، والتنمية في وجوه الخير، والبر، أي: جعلناه مباركاً للناس، يهديهم، وقيل: المعنى زكينا بحسن الثناء عليه، كما تزكي الشهود إنساناً، وقيل: زكاة: صدقة به على أبويه»^(٦).

(١) انظر: مقاييس اللغة: (٢/٢٤ - ٢٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/١١٤).

(٣) تفسير الكشاف: (٣/١٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٦/٥٧).

(٥) تفسير النسفي: (٣/٣٢).

(٦) تفسير القرطبي: (١/٤٩١).

فزكاة النفس أي تنقيتها بالخيرات، والبركات، وبزكاة النفس وطهارتها يستحق العبد في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره^(١)، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٢).

فالزكاة هنا في الآية هي التطهير من الذنوب والمعاصي، والإقبال على البر والخير والطاعة والعبادة.

- كان يحيى عليه السلام باراً تقياً، وليس جباراً عصياً:

ومن صفات يحيى بن زكريا عليهما السلام، أنه «كان تقياً» فكان لله خائفاً، مؤدياً فرائضه، مجتنباً محارمه، ومسارعاً في طاعته تعالى^(٣).

فعندما طهره الله من الآفات والذنوب، وطهر قلبه وزكى عقله، فذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

أي: فاعلاً للمأمور، تاركاً للمحذور، ومن كان مؤمناً تقياً، كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من التوفيق والفلاح الدنيوي والأخروي ما رتبته الله على التقوى^(٤).

وكان أيضاً «بِزاً بوالديه» وهذا وصف آخر ليحيى عليه السلام، وبراً بمعنى باراً، والبر هو الكثير البر^(٥).

فلما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة، وتقى؛ عطف ذلك بذكر

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن: (٢١٣/١).

(٢) سورة الشمس: الآية ٩.

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥٨/١٦).

(٤) انظر: تفسير السعدي: (٤٩١/١).

(٥) انظر: تفسير ابن عطية: (٨/٤)، تفسير القرطبي: (٨٨/١١).

طاعته لوالديه، وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً^(١).

يقول السعدي - رحمه الله تعالى - في تفسيره للآية:

«لم يكن عليه السلام عاقاً، ولا مسيئاً إلى أبويه؛ بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل»^(٢).

وذكر بر يحيى بوالديه في هذا الموضع مقصود، إذ أنهما رُزقا به على كبر، فهما بحاجة على بر ابنهما لتقدمهما في العمر، وحاجتهما إلى البر والإحسان.

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ فلم يكن مستكبراً عن طاعة ربه، وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً متذلاً، ياتر لما أمر به، وينتهي عما نُهي عنه، لا يعصي ربه ولا والديه^(٣).

وجبار صيغة مبالغة، من التجبر، وهو التكبر والاستعلاء «والجبار في الإنسان: صفة يقال لمن يجبرُ نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم»^(٤).
و(عصياً) أي صاحب معصية، والعصيان وهو عدم الانقياد للأمر والنهي^(٥).

- سلام الله على يحيى عليه السلام:

ثم قال سبحانه في كتابه العزيز بعد أن ذكر هذه الأوصاف الحميدة ليحيى عليه السلام جزاءً له على ذلك: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة أحوال، وقال سفيان^(٦) بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد،

(١) تفسير ابن كثير: (١١٤/٣).

(٢) تفسير السعدي: (٤٩١/١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥٨/١٦).

(٤) المفردات في غريب القرآن: (٨٦/١).

(٥) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن: (٩١/١).

(٦) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي يكنى أبا محمد، كان يُعد من حكماء أصحاب الحديث، وكان عالماً ناقداً، وزاهداً عابداً، سكن مكة، وتوفي سنة (١٩٨هـ).

انظر: الكاشف (٤٤٩/١)، ومعرفة الثقات (٤١٧/١).

فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(١)، فالعبد في هذه المواطن الثلاثة بحاجة إلى السلام من الله تبارك وتعالى.

ويقول ابن عطية في تفسيره هذه الآية:

«وقوله: وسلام، قال الطبري وغيره: معناه وأمان، والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان، وهي أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة، والفقر إلى الله وعظيم الهول...»^(٢).

ويقول الشنقيطي - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية:

«بعد أن أورد القولين بأن السلام من الله ليحيى عليه الصلاة والسلام، الأمان في هذه المواضع أو التحية من الله: «ومرجع القولين إلى شيء واحد؛ لأن معنى سلام التحية: الأمان والسلامة مما يكره، وقول من قال هو الأمان يعني أن ذلك الأمان من الله، والتحية من الله معناها الأمان والسلامة مما يكره.»

والظاهر المبادر أن قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحية من الله ليحيى، ومعناها الأمان والسلامة... وإنما خص هذه الأوقات الثلاثة بالسلام التي هي وقت ولادته، ووقت موته، ووقت بعثه، في قوله: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ لأنها أوحش من غيرها»^(٣).

وذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بإسناده عن الحسن - رحمه الله تعالى - قال: «إن عيسى ويحيى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني، فقال الآخر: استغفر لي أنت خير مني، فقال عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلم الله عليك، فعُرف

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١١٤/٣)، و تفسير الطبري: (٥٩/١٦).

(٢) تفسير ابن عطية: (٨/٤).

(٣) تفسير أضواء البيان: (٣٨١/٣).

والله فضلهما»^(١).

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحدٍ أن يقول أنا خير من يونس بن متى ﷺ»^(٢).

وأخبر القرآن أن يحيى بن زكريا عليهما السلام صدق عيسى بن مريم ﷺ، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

وأخبرنا الرسول ﷺ بفضل ومنزلة هذين النبيين الكريمين بقوله: «الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة»^(٣).

وفي رواية عن علي قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «والله ما من نبي إلا ولد الأنبياء غيري، وإن ابنيك سيدي شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة: يحيى وعيسى»^(٤).

فقد اعتبر الرسول ﷺ يحيى وعيسى عليهما السلام سيدي شباب أهل الجنة، فإذا كان عيسى ﷺ قد رفعه الله إليه في سن الشباب، فالظاهر أن يحيى ﷺ قد مات وهو في سن الشباب أيضاً، مما جعلهما سيدي شباب أهل الجنة.

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه لما عُرج به إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج شاهد ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام في استقباله في السماء الثانية.

روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك في حديث الإسراء والمعراج الطويل: «... ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل ﷺ. فقيل من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن

(١) تفسير الطبري: (٥٩/١٦)، ويراجع: تفسير أضواء البيان: (٣٨١/٣)، تفسير ابن كثير: (١١٥/٣)، تفسير الثعلبي: (٢٠٨/٦)، قصص الأنبياء لابن كثير: (ص ٣٧٢)، البداية والنهاية: (٥٠/٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٢٥٤/١)، وفي مرقاة المفاتيح: (٢٣١/١)، ذخيرة الحفاظ: (٢١٢٣/٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين: (١٨٢/٣)، وقال هذا حديث قد صح من أوجه كثيرة، وأنا أتعجب أنهما لم يخرجاه.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (٣٦/٣)، وفي مجمع الزوائد: (١٨٢/٩)، كنز العمال: (٣٤٥/١١).

معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا ودعوا لي بخير!»^(١).

وروى الإمام أحمد وغيره عن الحارث^(٢) الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إن نبي الله ﷺ قال: إن الله ﷻ أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن تعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطن، فقال له عيسى: إنك قد أمرت بخمس كلمات: أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي إنني أخشى إن سبقتني أن أعذب، أو يُخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد فقعده على الشرف^(٣)، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ﷻ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورقٍ أو ذهبٍ، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم سره أن يكون عبده كذلك، وأن الله ﷻ خلقكم ورزقكم فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأمركم بالصلاة فإن الله ﷻ ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة، كلهم يجرد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوه، فقال: هل لكم أن أفندي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وأمركم بذكر الله ﷻ كثيراً، وأن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، الحديث رقم (١٦٢)، (١٤٥/١ - ١٤٦).

(٢) هو الحارث بن الحارث الأشعري الشامي، صحابي يكنى أبا مالك روى عن النبي ﷺ، وروى عنه أبو سلام الأسود الحبشي، وله عنه حديث واحد عن النبي، وهو حديث حسن جامع لفنون العلم.
انظر: الاستيعاب (٢٨٤/١)، والإصابة (٥٦٦/١)، وتهذيب التهذيب (١١٩/٢).

(٣) الشرف: يراد به المكان المرتفع

انظر: المعجم الوسيط (٤٧٩/١).

سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله ﷻ، قال: فقال رسول الله ﷺ: وأنا أمركم بخمسٍ الله أمرني بهن: بالجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع رِبْقَةً^(١) الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء^(٢) جهنم، قالوا: يا رسول الله وإن صام وإن صلى، قال: وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله ﷻ المسلمين المؤمنين عباد الله ﷻ»^(٣).

ولم يرد في القرآن، ولا في الحديث الصحيح شيءٌ عن موت يحيى عليه السلام إلا قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٤).

أما عن كيفية موته عليه السلام، فلم يرد فيها شيء.

إلا أن الإسرائيليات قد فصلت كثيراً في موت يحيى عليه السلام، وذكر هذه التفصيلات بعض المفسرين في كتبهم. وهذه الروايات باطلة، وهي من الإسرائيليات التي لاتصح، ومن المفسرين الذين أوردوها الشوكاني والسيوطي^(٥).

وليس لهذا الأثر حكم رفع للنبي ﷺ فهو من الإسرائيليات^(٦).

(١) الربقة في الأصل عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، ويعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام، أي حدوده وأحكامه.

انظر: النهاية في غريب الأثر (٢/١٩٠) مادة (ربق).

(٢) جثاء جهنم: له معنيان أحدهما أنه ممن يجثو على الركب فيها، والآخر أنه من جماعات أهل جهنم، قال تعالى: (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً).

انظر: لسان العرب (١٤/١٣٢) مادة (جثا).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٤/١٣٠)، وأخرجه الترمذي، كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام، والصدقة، رقم (٢٨٦٣)، (٥/١٤٨).

(٤) سورة مريم: الآية ١٥.

(٥) انظر: تفسير الدر المنثور (٢/١٦٩)، وتفسير فتح القدير (١/٣٢٨)، وهذه الرواية أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٣١٨).

(٦) انظر: موسوعة الإسرائيليات الموضوعات في كتب التفسير (١/٣٣٢).

الفوائد والدروس والعبر المستفادة من هذا المبحث:

من أعظم ما يستفاد من خبر يحيى بن زكريا عليه السلام:

١ - بر يحيى بوالديه، فقد وصف الله يحيى عليه السلام بلين الجانب، وخفض الجناح^(١)، فكان ذا حنان، وشفقة ورحمة على الناس، فكيف بأبويه، لذا فبعد أن ذكر الله صفاته العظيمة عليه السلام، خص وصفه ببر والديه؛ لأنهما الأولى بهذا البر والإحسان الموصوف بهما.

قال تعالى: ﴿وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٢).

يقول الرازي في تفسيره:

«قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٣)»^(٤).

ومن أعظم توفيق الله للعبد أن يوفق بآبائه بار رحيم وخصوصاً إذا كان على كبره.

٢ - من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي ما رتبته الله على التقوى^(٥).

٣ - أن يحيى عليه السلام لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عبادة الله، ولا على والديه، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله مبادئها وعواقبها، فلذا قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا﴾.

وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة، وما بينها،

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١١/٨٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٤) انظر: تفسير الرازي: (٢١/١٦٤).

(٥) تفسير السعدي: (١/٤٩٠).

وأنة سالم من النار والأهوال ، ومن أهل دار السلام ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وسائر المرسلين أجمعين^(١) .

٤ - أن سلام الله على يحيى في قوله : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾^(٢) أعظم من سلام عيسى على نفسه في قوله : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾^(٣) ... كما هو ظاهر^(٤) .

(١) انظر : تفسير السعدي : (٤٩١/١)

(٢) سورة مريم : الآية ١٥ .

(٣) سورة مريم : الآية ٣٣ .

(٤) انظر : تفسير أضواء البيان : (٣٨٢/٣) .

الفصل الرابع

إخوة الأنبياء عليهم السلام في القرآن

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : إخوة يوسف عليه السلام .
- المبحث الثاني : إخوة موسى عليه السلام .
- المبحث الثالث : إسماعيل وإسحاق .
- المبحث الرابع : آل إبراهيم وآل عمران وقرابتهم بالأنبياء .

المبحث الأول

إخوة يوسف عليه السلام

ذُكرت قصة يوسف عليه السلام كاملةً في سورة واحدة، متضمنة خبره منذ أن كان صغيراً، مع أبيه يعقوب عليه السلام، وما واجهه من تأمر إخوته وكيدهم له، ومرادتهم لأبيهم حتى يأذن بذهاب يوسف معهم، ثم ما واجهه بعد ذلك من ابتلاءات حتى رفع الله قدره، وأثابه على صبره بأن أصبح عزيز مصر، وما تخلل ذلك من أحداث ووقائع، وقد جزأت خبر يوسف عليه السلام مع أبيه ومع إخوته، فذكرت في فصل (آباء الأنبياء) يعقوب مع ابنه يوسف، وتناولت الآيات المتعلقة بخبر يعقوب مع يوسف، وفي هذا الفصل أتناول من القصة نفسها خبر يوسف مع إخوته، وإن كانت قد تتكرر الآيات هنا وهناك، إلا أنني أحاول جاهدةً أن أتناول منها ما يتعلق بإخوته دون ما يتعلق بوالده، ومتجنباً التكرار قدر المستطاع.

يوسف: هو أحد أبناء يعقوب عليهما الصلاة والسلام، وقد سبق أن ذكرت في الفصل السابق (أبناء الأنبياء) أن الله وهب ليعقوب اثني عشر ولداً ذكوراً، وخبر إخوة يوسف عليه السلام معه، ورد في سورة واحدة في القرآن، فلم تتفرق في عدد من السور كما هو الشأن في الأنبياء الآخرين.

وأسماء إخوة يوسف الأحد عشر قد ذكرتها في الفصل السابق، فلا داعي لإعادتها.

- في خبر يوسف مع إخوته آيات وعبر:

ولقد أخبر الله جل في علاه أن قصة يوسف مع إخوته تتضمن آياتٍ وعبراً، للسائلين عن أخبارهم وقصصهم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾^(١).

فقد كان هؤلاء الإخوة العشرة^(٢) في أول حياتهم مثلاً سيئاً للأبناء الذين تعاملوا مع

(١) سورة يوسف: الآية ٧.

(٢) سوى بنيامين: وهو شقيق يوسف عليه السلام.

أيهم النبي الكريم بالكذب، والعقوق، والتحايل، وكما كانوا مثلاً للإخوة القساة، الذين تعاملوا مع أخيهم الصغير بالكره، والحسد، والتأمر.

- تحذير يوسف من إخبار إخوته برؤياه:

ويبدأ بيان القرآن الكريم لأخلاق هؤلاء الإخوة مع أخيهم، بذكره لما قاله يوسف عليه السلام في صغره لوالده يعقوب عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾^(١).

لما سمع يعقوب عليه السلام رؤيا يوسف حذره من أن يتحدث بها، أو يقصها على إخوته، إذ قد يعرفون تأويلها، فيحسدون ويكيدون له كيداً، ويغنون له الفوائد، وينصبون له العداوة، ويطيعون فيه الشيطان^(٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾^(٣).

وإنما قال يعقوب ذلك القول ليوسف؛ لأنه قد تبين له من قبل حسد إخوته له^(٤).

- حسد إخوة يوسف لمحبة أبيهم له:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٥)، كان حسد إخوة يوسف له ولأخيه بحجة حب أبيهم له ولأخيه أكثر منهم. فحلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون شقيقه بنيامين، أحب إلى أبينا منا، ونحن عصبة، أي: جماعة، فكيف يجب الاثنين أكثر من الجماعة^(٦).

(١) سورة يوسف: الآية ٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٧٠/٢)، تفسير الطبري: (١٥٢/١٢).

(٣) سورة يوسف: الآية ٥.

(٤) انظر: تفسير الرازي: (٧٢/١٨)، تفسير الطبري: (١٥٢/١٢).

(٥) سورة يوسف: الآية ٨.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٧٠/٢).

يقول الرازي في تفسيره هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَانًا مِّنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ المراد: منه بيان السبب الذي لأجله قصدوا إيذاء يوسف، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد في الحب، وأنهم تأذوا منه لوجوه:

الأول: أنهم كانوا أكبر سنًا منهما.

ثانيهما: أنهم كانوا أكثر قوة، وأكثر قياماً بمصالح الأب منهما.

ثالثهما: أنهم قالوا: إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات»^(١).

وقولهم لأبيهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، لم يريدوا به ضلال الدين، إذ لو أرادوا لكانوا كفاراً، بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه، وقيل: لفيه خطأ بين بإيثاره ليوسف وأخيه علينا^(٢).

وقيل أيضاً: أراد بالضلال الذي نسبوه لوالدهم هنا هو إفراط محبته في يوسف^(٣)، فذكر عليه السلام حسد إخوة يوسف لأخيهم، وعبر عما في قلوبهم بقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾، فلما كرهوا حب أبيهم له، وساءهم ذلك، وأحبوا زواله عنه، أرادوا أن يغيبوه عنه^(٤).

وقد يرد إلى ذهن البعض بأنه من الأمور المعلومه أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد، ويورث الآفات، فلما كان يعقوب عليه السلام عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل؟

فصحيح أن يعقوب كان يبدي حباً ورعايةً بيوسف وأخيه، وذلك لحاجتهما إلى ذلك،

(١) تفسير الرازي: (٧٤/١٨ - ٧٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٣١/٩).

(٣) انظر: الإنصاف: (١٢٠/١).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (١٩٠/٣).

فهما صغيران، وفي الروايات أن أمهما (راحيل) ماتت وهما صغار، وأما الأبناء الكبار فقد كبروا وشبوا، ولهذا فلا يحتاجون إلى مزيد من الرعاية والإشفاق وإظهار المحبة والاهتمام. ولقد قيل لرجل: أي الأولاد أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والمسافر حتى يعود.

أو لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد في سائر الأولاد. أو لعله عليه السلام وإن كان صغيراً إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة هي أشرف وأعلى بما كان يصدر عن سائر الأولاد.

أيضاً فإن حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم، وخصوصاً مع والدهم النبي الكريم ابن الأنبياء، إلا أنهم زاغوا عن طريق الصواب، ووصفوا أباهم بالضلال، ووقعوا في خطيئة تلو الأخرى، واتبعوا خطوات الشيطان^(١).

- تشاور إخوة يوسف على قتله:

فقالوا: ﴿ اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾^(٢).

وإنما قالوا هذا؛ لأن خبر رؤيا يوسف بلغهم، فتشاوروا في كيدته، فقال ذلك بعضهم: تخلصوا منه بالقتل، أو بطرحه في أرضٍ مجهولة لا يعرفها الأب، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾، وذلك لأنه إذا فقدته أقبل عليكم بالمحبة ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أي: من بعد الفراغ من قتله أو طرحه أرضاً قوماً صالحين تائبين إلى الله عما أجرتم، وتصيرون من القوم الصالحين^(٣).

يقول ابن كثير: «قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم من قطيعة

(١) انظر: تفسير الرازي: بتصرف (٧٥/١٨)، راجع المنتظم: (٢٩٠/٣)، ومجمع الأمثال: (١٢٨/٢).

(٢) سورة يوسف: الآية ٩.

(٣) انظر: تفسير الرازي: (٧٦/١٨)، تفسير المحرر الوجيز؛ لابن عطية: (٢٢٢/٣)، تفسير القاسمي: (٣٤٩/٤).

الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق، والحرمة، والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحببيه على كبر سنه، ورقة عظمه، مع مكانه من الله ممن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته، وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه، يغفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً^(١).

وما قام به هؤلاء الإخوة حيلة من حيل الشيطان، أوقعهم فيها بدافع الحقد والحسد، كما أوقع فيها قوماً آخرين من الناس، فيزين لهم المعصية، ويرسخ في نفوسهم وأذهانهم التوبة بعد ارتكاب المعصية، وهذا ليس دعوة منه إلى التوبة؛ ولكنه استمرار ودفع منه في تزيين المعصية.

- تراجع الإخوة عن قتل يوسف والإجماع على إلقائه في الجب:

ذكرت الآيات أن أحد هؤلاء الإخوة العشرة المتآمرين قد تخرج من هذا الفعل، وهو قتلهم ليوسف، أو طرحه في أرضٍ بعيدة، فقال: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾^(٢)، فنهاهم ذلك الأخ عن قتله^(٣)، وذلك لأن القتل من الكبائر التي يخاف معها سد باب الصلاح، وأشار عليهم بإلقاء يوسف في غور الجب، وهي البئر التي لا حجارة لها، وبذلك يلتقطه ويأخذه بعض الأقباط الذين يسبغون في منطقة الجب، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل المطلوب من غير ارتكاب كبيرة يخاف معها سد باب الصلاح إن كنتم عازمين، ومصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه^(٤).

- الإخوة يراودون أباهم لأخذ يوسف:

لما تواطؤوا على أخذه، وطرحه في البئر، كما أشار عليهم أخوهم الكبير، جاءوا أباهم

(١) تفسير ابن كثير: (٤٧١/٢)، وقال: رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠.

(٣) تفسير الطبري: (١٥٦/١٢).

(٤) انظر: تفسير القاسمي: (٣٥٠/٤).

يعقوب عليه السلام، فقالوا له: كما أخبر بذلك القرآن ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾^(١)، وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له.

فلم تخافنا عليه، ونحن نريد له الخير، ونحبه، ونشفق عليه ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢) ابعته معنا غداً يسعى وينشط، ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك^(٣).

يقول الزمخشري في تفسيره هذه الآيات: «أرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعاداته في حفظه منهم، وفي ذلك دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه»^(٤).

فقال يعقوب جواباً عما طلبوه منه من إرسال يوسف معهم: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ {١٣} قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾^(٥)، أي: يشق عليّ مفارقتك مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق، فقال لهم: أخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله، وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة، لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إننا إذا لهالكون عاجزون^(٦).

فلما ذهبوا به واجتمع رأيهم، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب كما أخرج الطبري

(١) سورة يوسف: الآية ١١.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٧١/٢)، تفسير القاسمي: (٣٥٠/٤).

(٤) تفسير الكشاف: (٤٢٢/٢).

(٥) سورة يوسف: الآية ١٣ - ١٤.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٧١/٢).

في تفسيره بسنده عن السدي قوله: «فأرسله معهم فأخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه، فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلوه، فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه...»^(١).

- ذهاب يوسف مع إخوته، وإلقائهم به في غيابة الجب:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢).

أي: أنهم لما ذهبوا بيوسف بعد مراجعة أبيهم في شأنه، واجتمعوا وعزموا واتفقوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وجعلوه فيها فعلاً، أوحى الله تعالى إلى يوسف بأنك ستنجو مما أنت فيه، وتحديثهم بما فعلوا بك، وهم لا يشعرون بوحينا هذا إليك^(٣).

وبعد أن ارتكبوا جريمتهم المشينة بحق أخيهم يوسف، رجعوا إلى أبيهم، قائلين له: ﴿ وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ { ١٦ } قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾^(٤).

فجاءوا أباهم عشاءً لكونه وقت الظلمة المانعة من تفرسه من وجوههم الكذب، وأوهموا بيكائهم وتفجعهم عليه إفراط محبتهم له، المانعة من الجرأة عليه، والتفريط به، ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم، فيترك غضبه عليهم الداعي إلى تكذيبهم، ثم بينوا عذرهم، وهو أنهم ذهبوا يستبقون في العدو والرمي، وتركوا يوسف عند متاعهم من الثياب والأزواد؛ وغيرها ليحفظه، فأكله الذئب، وقالوا: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة، ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟^(٥).

(١) تفسير الطبري: (١٦٠/١٢).

(٢) سورة يوسف: الآية ١٥.

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٢٢٥/٣)، و تفسير القاسمي: (٣٥١/٤).

(٤) سورة يوسف: الآية ١٦ - ١٧.

(٥) انظر: تفسير الرازي؛ : (٨١/١٨)، و تفسير القاسمي: (٣٥١/٤).

- كذب إخوة يوسف على أبيهم:

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(١)، وهذا بيان لما تأمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم جاؤوا على قميصه بدمٍ مكذوبٍ فيه، وذلك بتلطيف قميص يوسف بدم سخلةٍ أوجدي ذبوحها، موهمين أن هذا هو قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم، نسوا أن يخرقوا قميص يوسف الذي لطخوه بالدم الكذب، فكان ذلك آية كذبهم المفضوح، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص، ويسلم القميص من التخريق، ولهذا لما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً، استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم - كما روي عن ابن عباس وغيره -: «متى كان الذئب حكيماً يأكل يوسف، ولا يخرق القميص! فلهذا قال لهم يعقوب عليه السلام معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من كذبهم عليه فيما يدعون: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾، أي: زينت لكم أنفسكم أمراً، أي: صنعاً قبيحاً ليوسف، فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه ونفذتموه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، والله المستعان على ما تصفون، أي: على ما تذكرونه من الكذب^(٢).

فقد اشتملت الآيات على بيان الدافع الذي من أجله فعل إخوة يوسف به وبوالده ما فعلوا، أنه الحسد الكامن في نفوسهم، والحقد والكرهية لأخيهم، فالحسد يحمل على قطيعة الرحم، وهو من أمهات الكبائر، وإنه ليحمل صاحبه على الكذب، وعقوق الوالدين، وهذا ما حصل لإخوة يوسف، فكان فعلهم من أقبح صور الاعتداء على أقرب قريب، ألا وهو الأخ، مستغلين بذلك ضعفه في صغره؛ لذا فقد بدأت الآيات التي ذكرت قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما ترتب على ذلك بعدها أنها (أحسن القصص)، وبأن فيها آيات وعبراً لكل سائل،

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٤٩/٩ - ١٥١)، تفسير ابن عطية: (٢٢٣/٣)، تفسير القاسمي: (٣٥٢/٤)، فتح القدير

لما تحتويه من العبر التي تدعو إلى التأمل فيها وفي أحداثها، والاستفادة منها، وخصوصاً ما جرى بين الإخوة من تحاسد.

فالحسد كما عرفه الإمام ابن تيمية - رحمه الله - بقوله: «الحسد مرض من أمراض النفوس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا قليل من الناس، ولهذا يقال ما خلا جسد من حسد، لكن اللئيم يبيده، والكريم يخفيه، وقد قيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن، فقال: ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك، ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولساناً، فمن وجد في نفسه حسداً لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه... والحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال، إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك، وفات الآخر، ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه، كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإنه حسده لكون الله تقبل قربانه، ولم يتقبل قربان هذا فحسده على ما فضله الله من الإيمان، والتقوى، وقتله على ذلك، ولهذا قيل: أول ذنب عُصي الله به ثلاث الحرص، والكبر، والحسد»^(١).

وللمسلم من هذه الأحداث والتي قصها القرآن، وخصوصاً أنها وقعت بين أبناء أنبياء، وفي بيوت تنزل فيها الوحي، أخذ العظة والعبرة، أو دفع ما قد يرد في النفس من همزات الشيطان.

وقد أثنى الله ﷻ على عباده الذين لا يحسدون بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾^(٢)، أي: لا يضيق صدورهم به، ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد.

وقال ﷻ في معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٠/٢٤ - ٢٥ - ٢٦)، ويراجع أمراض القلوب لابن تيمية: (٢١/١).

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٤.

وقد نهى ﷺ عن التحاسد والتباغض، وأمر عليه الصلاة والسلام برباط الأخوة، وهي أخوة الدين، فكيف بالأخوة الحقيقية، فقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً...»^(٢).

فإن كان هذا النهي عن التحاسد والتباغض والعداوة للمسلمين بعضهم لبعض، فكيف بذى القربى، بل وكيف بالإخوة، فالنهي أعظم، لما في ذلك من البغي وقطيعة الرحم، والله ﷻ يقول: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^(٣)، فذوي القربات وخصوصاً الإخوة لهم حق حث الله عليه، بل وأمر به في مواضع عدة من كتابه، يقول تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٤).

فأمر بالإحسان إليهم، وكف الأذى عنهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٥).

فحفظ القرباة بدفع الشر عنهم، وجلب الخير لهم، مع الإخلاص في ذلك لله تعالى، من أجل وأعظم القربات.

وكذلك فإن النعم إذا حظي بها العبد امتد نفعها لذوي قرابته، وبالأخص إخوته وأهل بيته.

كما قال الإمام السعدي - رحمه الله -: «إن نعمة الله على العبد نعمة على ما يتعلق به من أهل بيته، وأقاربه، وأصحابه، وأنه ربما شملهم، وحصل لهم ما حصل له سببه»^(٦).

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/١٩٠).

(٢) الحديث أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب (ما ينهى عن التحاسد والتدابير، وقوله تعالى: ﴿من شر حاسدٍ إذا حسد﴾، برقم: (٥٧١٨)، (٥/٢٢٥٣).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٦.

(٤) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٥) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٦) تفسير السعدي: (١/٤٠٨).

وقد قال يعقوب لولده يوسف حينما قص عليه ما رآه: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾^(١)، فالشيطان يجب أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس عموماً، وفيما بين الأقارب، وفيما بين الإخوة، وفيما بين الزوجين، وفيما بين الشركاء.

وما حدث ليوسف بسبب إخوته، وما كادوه له، إنما كان بدافع الحسد واتباع ما أملى عليهم الشيطان.

- ما جرى ليوسف بعد أن ألقى به إخوته في البئر:

أُخْرِجَ مِنَ الْبَيْتِ وَبِيعَ رَقِيقًا، بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة، كما أخبر بذلك المولى ﷺ: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ { ١٩ } وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾^(٢).

وتأتي الأحداث تباعاً كما قصها القرآن، ويبيع يوسف في مصر، واشتراه عزيز مصر، وأقام في قصره غلاماً رقيقاً، وآتاه الله الحكم، والعلم، وكل هذا كان مقدمة لأمرٍ قد قضاه الله ليوسف، وحكمته سبحانه في ذلك تجلت لما حدث له ﷺ في عاقبة أمره.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾^(٣)، وذلك بسبب فتنة امرأة عزيز مصر، ولبث في السجن ما لبث، يدعو إلى الله، وإلى ترك عبادة ما سواه، حتى أراد الله إخراجه، برؤيا رآها ملك مصر، قد عجز عن تأويلها، فأولها يوسف ﷺ أحسن تأويل، فأعجب الملك بذلك التعبير، وأمر بإخراجه من السجن.

كما أن يوسف ﷺ تأنى، ولم يستعجل في إجابة الملك بالخروج من السجن، وقدم

(١) سورة يوسف: الآية ٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٩ - ٢٠.

(٣) سورة يوسف: الآية ٣٣.

سؤال النسوة ليظهر براءته، عما اتهم به، وسجن من أجله، وليسد اللبَّابَ مجال التقوّل عليه من حساده، وأعدائه بادعائهم أنه ما سجن إلا لأمرٍ عظيم، وجرمٍ كبير، مما يوهن منزلته عند الملك^(١).

وبعد ظهور براءته اللبَّابَ، أمر الملك أن يؤتى بيوسف، فقال: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾^(٢)، أي: أجعله من خاصتي، وأهل مشورتني، ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي: خاطبه الملك وعرفه، رأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خُلقٍ وكمال، قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾^(٣) أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف اللبَّابَ: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴾^(٤) أي: ولّني خزائن أرضك، يعني جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ويتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح، ثم بين يوسف اللبَّابَ اقتداره في ذلك، فقال: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴾ أي: أمين أحفظ ما أئتمن عليه، عالمٌ بوجوه التصرف فيه^(٥).

فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ { ٥٦ } وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾^(٦).

وكذلك مكن الله ليوسف في أرض مصر ينزل منها حيث يشاء، ويتصرف فيها كيف يشاء، وذلك أنه اللبَّابَ لما ولاه الملك النّظَرَ على خزائن مصر، تجول في قطرها، وطاف قراها، والأمر أمره، والإشارة إشارته، عناية منه تعالى، ورحمة كما قال: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ

(١) تفسير الزمخشري: (٢/٤٥٠).

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٤.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٤.

(٤) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/٤٨٣)، انظر: تفسير القاسمي: (٤/٣٧٦).

(٦) سورة يوسف: الآية ٥٦ - ٥٧.

نَشَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ أي: الذين أحسنوا عملاً، فما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله ﷻ العاقبة الحميدة، ﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين، فما أدخره تعالى لنبيه يوسف ﷻ في الدار الآخرة أعظم وأكمل وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا.

وفي ذلك إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأن ما يدخر الله للمؤمنين المتقين أعظم مما يخولونه به في الدنيا من التمكين في الأرض، والجاه، والثروة، والملك^(١).

- مجيء إخوة يوسف إليه بعد أن أصبح عزيز مصر:

ثم يذكر القرآن خبر إخوة يوسف في ذلك الوقت الذي مكن الله ليوسف في أرض مصر، ويذكر عاقبة يوسف، وعاقبة إخوته، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ {٥٨} وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ {٥٩} فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ {٦٠} قَالُوا سَتَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ {٦١} وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {٦٢} فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾^(٢).

فلما تولى يوسف ﷻ خزائن الأرض، ودبرها أحسن تدبير في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبى من الأطعمة شيئاً كثيراً، وحفظه، وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنون المجذبة وسرى الجذب حتى وصل إلى أرض فلسطين، والتي يقيم فيها يعقوب وبنوه، أرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر^(٣)، فجاءوا

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٣/٢)، انظر: تفسير القاسمي: (٣٧٧/٤).

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٨ - ٦٣.

(٣) انظر: تفسير السعدي (٤٠١/١).

إلى يوسف، ودخلوا عليه فعرفهم هو، وأما هم لم يعرفوه، فقد كان صغيراً حين ألقوا به في الجب، وهم شبان يافعون، وقد اتضحت معالمهم، أما هو فقد شب وكبر، فلم يعرفوه ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾، فكال لهم كما يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألمهم عن حالهم فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، وهو (بنيامين) شقيق يوسف^(١).

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿اِثْنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام، ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ فدل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذا احتاج إلى مراودة في بعثه معهم^(٢).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {٦٢} فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ {٦٣} قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ {٦٤}﴾^(٣).

- ما قاله إخوة يوسف لأبيهم بعد أن رجعو إليه:

ولكنهم لما فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم، كما أخبر بذلك القرآن، قال

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٤/٢)، تفسير السعدي (٤٠١/١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٤/٢)، تفسير المحرر الوجيز (٢٥٨/٣)، تفسير السعدي (٤٠١/١).

(٣) سورة يوسف: الآية ٦٢ - ٦٤.

تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾^(١)، وهي التي أمر يوسف فتياناه بوضعها في رحالهم، وبضاعتهم هذه هي الدراهم التي جاءوا بها ليشتروا الطعام، قد ردها لهم، وهذا من كمال شفقتة ورحمته بهم وسخائه عليهم، فلما وجدوا بضاعتهم هذه في متاعهم ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم: ﴿ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ أي: ماذا نريد وراء هذا؟ إنَّ بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ فإذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة، وهو الطعام إلى أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ أي: لا يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحابه معنا حمل بعير؛ لأن يوسف كان يعطي كل رجل حمل بعير^(٢) - كما سبق ذكره..

- إخوة يوسف يتعهدون بحفظ أخيه:

فقال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾^(٣). قال لهم: لن أرسله معكم بهذه المقالة حتى ﴿ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾، أي: عهداً موثقاً بالله وذلك بالقسم بالله أن يردوه على أبيه، إلا أن يُغلبوا، فلا يقدرين على تخليصه ورده إلي، ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾، ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾، أي: الله على ما نقول شهيد؛ لأن الشهيد وكيل، أي: موكل إليه هذا العهد، فإن وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافاكم بأعظم العقوبات^(٤).

وقد أوصاهم يعقوب عليه السلام قبل ذهابهم إلى مصر، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةً وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

(١) سورة يوسف: الآية ٦٥.

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٣٦/٨)، و تفسير ابن كثير: (٤٨٥/٢).

(٣) سورة يوسف: الآية ٦٦.

(٤) انظر: تفسير الرازي: (١٣٧/١٨)، تفسير المحرر الوجيز: (٢٦١/٣)، تفسير القاسمي: (٣٨٠/٤).

شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١﴾.

والذي عليه جمهور المفسرين أن يعقوب أوصى بنيه أن لا يدخلوا من باب واحد؛ لأنه خاف عليهم من العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، ومنظر، وبهاء، فخشي أن يصيبهم الناس بعيونهم^(٢).

وقال لهم أيضاً أبوهم: إن هذا الاحتراز بطلبي منكم الدخول من أبواب متفرقة لا من باب واحد، لا يرد قدر الله وقضائه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، وإنّ الحذر لا يمنع القدر.

إن الحكم والأمر والقضاء لله، فلا يشاركه أحد، ولا يمانعه شيء في أمره وقضائه^(٣).

- يوسف يأخذ أخاه بتهمة السرقة:

ثم يقول الحق ﷻ عن أخوة يوسف لما دخلوا عليه في المرة الثانية: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه، وأعلمه أنه أخوه.

وقال له: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، وجمعنا على الخير^(٥).

فأراد يوسف ﷻ أن يبقى أخاه بنيامين عنده، وأمر غلمانه بتجهيز إخوته الأحد عشر ووضع حمل حبوب على كل منهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ

(١) سورة يوسف: الآية ٦٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٥/٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٤٨٥/٢)، تفسير القاسمي: (٣٨٠/٤).

(٤) سورة يوسف: الآية ٦٩.

(٥) انظر: تفسير الرازي: (١٤٢/١٨)، تفسير القاسمي: (٣٨٤/٤).

فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ {٧٠} قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ {٧١} قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ^(١) أي: لما جهزهم يوسف بجهازهم من الطعام، جعل يوسف السقاية في رحل أخيه، حيث لم يطلع عليه أحد، ثم نادى منادٍ وأعلم: يا أصحاب العير إنكم لسارقون؟ قال إخوة يوسف: ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك الذي يكيل به، ولمن جاء به حمل بعير، أي: أجره على وجدانه، وأنا به زعيم، أي: كفيل، وضامن والسقاية هي الإناء الذي كان يشرب به الملك، أو يوسف، وبه كان يكيل الطعام للناس، والسقاية والصواع والمكيال شيء واحد^(٢).

- إنكار إخوة يوسف سرقة الصواع:

فما كان من إخوة يوسف إلا أن أنكروا هذه السرقة: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾^(٣) قالوا ذلك مقسمين بالله تعالى على أمرين:

الأول: أنهم ما جاؤوا للإفساد في الأرض.

الثاني: أنهم ما كانوا سارقين^(٤).

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ {٧٤} قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٥) قال فتيان يوسف لإخوته: فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين؟ قال إخوة يوسف: ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾، أي: جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله رقيقاً، أي: فأخذه جزاءه لا غيره ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي:

(١) سورة يوسف: الآية ٧٠ - ٧٢.

(٢) انظر: تفسير الرازي: (١٨/١٤٢ - ١٤٣)، تفسير المحرر الوجيز: (٣/٢٦٣)، تفسير ابن كثير: (٢/٤٨٦)، تفسير السعدي: (١/٤٠٣).

(٣) سورة يوسف: الآية ٧٣.

(٤) تفسير الرازي: (١٨/١٤٤).

(٥) سورة يوسف: الآية ٧٤ - ٧٥.

بالسرقة واستعباد السارق هو جزاء سرقة^(١).

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَبًا لِيُؤَسِّفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَزْفَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢).

أي: فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرج السقاية من رحل أخيه، كذلك دبرنا الأمر ليوسف؛ ليحصل غرضه بإبقاء أخيه بنيامين معه، إذ ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه بحجة سرقة في دين الملك، أي: بشرعه، وقانونه ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره حتى جرى الأمر وفق المراد ﴿نَزْفَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ﴾ أي: بالعلم كما رفعنا يوسف عليه السلام بالعلم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(٣).

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته^(٤).

- الإخوة يتهمون يوسف كذباً بالسرقة:

فقال إخوة يوسف بعد أن استخرج الصواع: ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾^(٥).

أي: أنه لما أخرج الصواع من رحل أخي يوسف، نكس إخوته رؤوسهم، وقالوا ليوسف: إنَّ هذا الأمر ليس بغريب منه، فإنَّ أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً، وكان غرضهم من هذا الكلام أننا لسنا على طريقته، ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة؛

(١) انظر: تفسير القاسمي: (٤/٣٨٥).

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (٤/٣٨٦).

(٤) تفسير السعدي: (١/٤٠٣).

(٥) سورة يوسف: الآية ٧٧.

لأنهما من أم أخرى، ﴿ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾، وهي قوله: ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ فقال هذا القول في نفسه ولم يسمعهم إياه^(١).

- إخوة يوسف يراودونه بأخذ أحدهم مكان أخيهم الصغير:

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ {٧٨} قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ^(٢)، لما تعين أخذ بنيامين، وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم، وهي أن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يُسْتَرْقَ، فطفقوا يتوسلون إلى يوسف ليعطف عليهم، ويقبل منهم اقتراحهم بأن يأخذ واحداً منهم يسترقه عنده بدلاً و عوضاً عن بنيامين؛ لأن له أباً شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً لا يقوى على فراقه، ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلينا فأتهم إحسانك إلينا بأن تجيب طلبنا والتماسنا^(٣).

قال يوسف عليه السلام رداً على إخوته: أعوذ بالله معاذاً أن آخذ بريئاً بمذنب ﴿ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ ﴾ إن أخذنا بريئاً بمذنب، فلقد تعديت وظلمت إن آذيت إنساناً بجرم صدر عن غيره^(٤).

﴿ فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ {٨٠} اِرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ {٨١} وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾^(٥).

(١) انظر: تفسير الرازي: (١٤٦/١٨)، تفسير ابن كثير: (٤٨٧/٢).

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٨ - ٧٩.

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (٣٨٦/٤).

(٤) تفسير الرازي: (١٤٨/١٨).

(٥) سورة يوسف: الآية ٨٠ - ٨٢.

يخبر تعالى في هذه الآيات عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين لرفض يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، قال أخوهم الأكبر في السن: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، فلن أفارق هذه البلدة حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضياً عني، أو يحكم الله لي بالخروج من مصر، أو بخلاص أخي بسبب ما.

ثم أمرهم أخوهم الكبير بأن يخبروا أباهم بما جرى، فقال لهم: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، أي: نسب إليه سرقة صواع الملك، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله، وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا﴾، أي: مصر، والمراد أرسل إلى أهلها فاسألهم عما وقع، واسأل العير، يراد بها القافلة التي جئنا معها، أسألها عن أمانتنا وصدقنا وحفظنا لأخي، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقة^(١).

وهنا تأتي المقارنة بين الموقف الأول لإخوة يوسف عندما كانوا يكذبون، فقالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وموقفهم الثاني عندما قالوا: ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، فجزموا في العبارة أنهم صادقون فيما أخبروه به، بخلاف عبارتهم الأولى، كذلك لم يترددوا في الإجابة هنا كما ترددوا في موقفهم من يوسف؛ لأنهم هنا قد نقلوا إلى أيهم الواقع الحقيقي كما شاهدوه، وجاءوا بهذه الجملة مؤكدةً هذا التأكيد لأن ما قد تقدم منهم مع أيهم يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند من يسمعهم^(٢).

والظاهر من سياق الآيات أن يعقوب عليه السلام لم يقتنع بما قصه عليه أبنائه، رغم أنهم ساقوا إليه الأدلة والشهود على صدق ما قالوه، وظن أن ذلك كفعلتهم بيوسف، فقال لهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٨/٢)، تفسير الرازي: (١٤٩/١٨ - ١٥٢)، تفسير القاسمي: (٣٨٧/٤ - ٣٨٩).

(٢) انظر: تفسير فتح القدير (٤٧/٣).

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»^(١) أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ففعلتموه، فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، أي: يأتيني بيوسف، وأخيه بنيامين، وأخيهما الكبير الذي بقي في مصر^(٢).

- إنكسار إخوة يوسف وإظهار ضعفهم أمامه:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾^(٣).

فذهب إخوة يوسف، ودخلوا مصر، ودخلوا على يوسف، وشكوا إليه، وقالوا: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر، يعنون بذلك الجذب والقحط وقلة الطعام، ومعنا ثمن الطعام الذي نتاره، وهو ثمن قليل.

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾، أي: أن هذه الدراهم مدفوعة مرغوب عنها لقلتها في مقابل ماأخذ من الطعام، فأعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وتصدق علينا بقبض هذه الدراهم القليلة، وبتجاوز فيها^(٤).

- يوسف يُعرِّف إخوته بنفسه:

قال لهم يوسف: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾^(٥)، يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام: أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام، وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء،

(١) سورة يوسف: الآية ٨٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٨/٢)، تفسير القاسمي: (٣٨٩/٤).

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٨.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٨٩/٢)، تفسير السعدي: (٤٠٤/١).

(٥) سورة يوسف: الآية ٨٩.

فتعرف إليهم وقال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه.

كما قال بعض السلف: «كل من عصى الله فهو جاهل».

قال تعالى: ﴿ تُمْ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ﴾^(١)، عند ذلك قالوا: «أنتك لأنت يوسف»، أي لأنت يوسف، وذلك لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، لهذا قالوا على سبيل الاستفهام: أنتك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي. وقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾، أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة، وبعد المدة، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، إنه من يتق الله فيراقبه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ويكف نفسه فيحبسها عما حرم الله عليه من قول أو عمل عند مصيبة نزلت به من الله، فإن الله لا يضيع ولا يبطل إحسانه، وجزاء طاعته^(٢).

هنا أدركوا فضله؛ لأنه اتقى ربه، وصبر على ابتلائه، وأحسن إلى خلقه، فكانت هذه عاقبته.

- اعتراف إخوة يوسف بذنبهم وفضل يوسف عليهم:

وها هو ذا يوسف يلتقي بإخوته وهو عزيز مصر، ثلاث مرات وهو يعلم أنهم إخوته، كما أخبر بذلك ربنا تبارك وتعالى، فقال: ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾، ورغم ذلك كان يكرمهم ويحسن إليهم في كل مرة، ولم يعاقبهم أو يحاسبهم، فقابل إساءتهم بالإحسان، وجهلهم بالحلم، فاعترفوا بأن الله قد أثره عليهم، وفضله، وأعطاه، ومنحه، فقالوا: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ { ٩١ } قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ { ٩٢ } اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى

(١) سورة النحل: الآية ١١٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/٤٩٠)، (والآيات من سورة يوسف: ٩٠).

وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾.

فقال إخوة يوسف حالفين له بالله: إِنَّ اللَّهَ فَضْلُكَ بِمَا ذَكَرْتَ مِنَ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ، وَإِنَّ شَأْنَا وَحَالَنَا أَنَا كُنَّا مَتَّعِدِينَ ارْتِكَابَ الذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ بِحَقِّكَ، فَلَمْ نَتَّقِ اللَّهَ، وَلَمْ نَصْبِرْ، فَفَعَلْنَا بِكَ مَا فَعَلْنَا، وَلِذَلِكَ فَضْلُكَ اللَّهُ عَلَيْنَا، وَإِنَّ كُنَّا لَخَاطِئِينَ، فَالْخَاطِئُ: هُوَ الْمَتَّعِدُ لِلْخَطَا، وَالْمَخْطِئُ: مَنْ أَخْطَأَ وَهُوَ الَّذِي قَصَدَ الصَّوَابَ، فَلَمْ يَوْفُقْ إِلَيْهِ^(٢).

- كرم يوسف وعفوه عن إخوته:

فقال لهم يوسف، وكان كريماً حليماً، يريد العفو والصفح عن إخوته في وقت أعطاه الله فيه التمكين والقوة: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، أي: قال يوسف لإخوته: لا تعبير، ولا توبيخ، ولا تقريع، ولا لوم عليكم اليوم ودعا الله لهم بالمغفرة والرحمة^(٣).

وهذا كرم من أخ على إخوة قد ظلموه، وحسدوه، وبغوا عليه، لهو كرمٌ عظيمٌ، وحلمٌ واسعٌ منه عليه الصلاة والسلام.

- إخوة يوسف يعتذرون لأبيهم طالبين منه أن يستغفر لهم الله:

علم إخوة يوسف بخطيئتهم، واعترفوا بذلك، فقد كانوا سبباً في ما حلّ بأبيهم وأخيهم وأسرتهم، منذ أن حقدوا على أخيهم يوسف، ودبروا له المكائد، فعرفوا أنهم كانوا مذنبين مخطئين.

فاعترفوا بخطئهم وذنوبهم، وأقبلوا على أبيهم معتردين مقرين، وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم، يقول تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾^(٤).

(١) سورة يوسف: الآية ٩١ - ٩٣.

(٢) انظر: تفسير المحرر الوجيز؛ لابن عطية: (٢٧٧/٣)، تفسير القاسمي: (٣٩٤/٤)، تفسير القرطبي: (٢٥٧/٩).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٢٥٧/٩).

(٤) سورة يوسف: الآية ٩٧.

يقول القرطبي: «وإنما سألوه المغفرة لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله»^(١).

فقال لهم يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

يقول جل ثناؤه، قال يعقوب سوف أسأل ربي أن يعفو عنكم ذنوبكم التي أذنبتموها في وفي يوسف أخوكم^(٣).

- إكرام يوسف لإخوته ولطف الله به وبأهله:

ويذكر يوسف عليه السلام إحسان الله إليه، فيقول الله تعالى محبراً عما قاله يوسف بعد أن رفع أبويه على العرش: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾^(٤)، فذكر يوسف نعمة الله عليه، وإحسانه إليه بإخراجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجب، استعمالاً للكرم مع إخوته، وذلك لثلاث يذكّرهم بقييح صنيعهم معه بعد عفوه عنهم، بقوله: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، وأيضاً فإنه خرج من الجب إلى الرق. ولما خرج من السجن آل أمره إلى السلطة والملك، فالنعمة بالإخراج من السجن أوضح وأقرب أن تكون إنعاماً كاملاً. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾، أي: وجاء بكم من البادية وأسكنكم الحاضرة مع جمع الشمل والانتقال من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة^(٥).

وقد أخبر المولى جلّ في علاه في كتابه الكريم، ما تجلّى من إكرام يوسف لإخوته في ذلك المشهد، وما قاله لأبويه وإخوته، وبعد ذكر إحسان الله إليه بإخراجه من السجن، ومجيئهم من البادية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ

(١) تفسير القرطبي: (٢٦٢/٩).

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٨.

(٣) تفسير الطبري: (٦٤/١٣).

(٤) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٢٦٧/٩)، تفسير ابن عطية المحرر الوجيز: (٢٨٢/٣).

العَلِيمُ الْحَكِيمُ»^(١) أي: من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بالحسد، وأسنده إلى الشيطان؛ لأنه بوسوسته وإلقائه، وفي هذا الإسناد إلى الشيطان إكراه من يوسف لإخوته بعدم تربيهم ولومهم على ما فعلوه به^(٢).

وقد ختم الله ﷻ الآية والتي بينت ما كان من حال ومآل يوسف وإخوته في آخر الأمر بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)، والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش، و فراغ البال، ونسيان الماضي، وعدم الالتفات إلى ما حدث وما تسبب به إخوة يوسف، كل ذلك كان حصوله في غاية البعد في حساب العقول، بل وما كان يخطر بالبال، وإذا قدر وروده بالبال وبالخاطر فإنه ما كان يُعرف كيف يحصل؟.

إلا أنه ﷻ لطيف، فإذا أراد حصول شيء سهّل أسبابه، فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول^(٤).

وقد ورد في قصة يوسف ﷻ روايات إسرائيلية قد أعرضت عن إيرادها، وذلك فيما يتعلق بأسماء الكواكب التي رآها يوسف، وهذه الرواية وأمثالها من الإسرائيليات الباطلة التي نسبت إلى النبي ﷺ وأوردها بعض المفسرين في تفاسيرهم كابن جرير، والسيوطي^(٥).

- الرواية الواردة في صفة إلقاء يوسف في البئر أوردها القرطبي، وابن الجوزي في تفسيره زاد المسير^(٦).

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (٢٦٧/٩).

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٤) تفسير الرازي: (١٧٢/١٨).

(٥) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٥١/١٢)، وتفسير الدر المشور (٤/٤٩٨ - ٣٩٩)، ويراجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد شهبه (ص ٢١٢).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٤٣/٩)، وتفسير زاد المسير (٤/١٨٩)، ويراجع موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٥١٧/٢).

- الرواية الواردة في الصواع أوردها ابن جرير في تفسيره^(١).
- الرواية المتعلقة بحديث الذئب مع يعقوب عليه السلام وقد ذكرها السيوطي في تفسيره^(٢).
- الروايات المتعلقة بما جرى بين يوسف وامرأة العزيز من حديث ذكرها القرطبي، وابن جرير الطبري^(٣).

وكل هذه الروايات لا ينبغي روايتها ولا إذاعتها إكراماً للأنبياء عليهم السلام، كما أنها تناقض ما عليه الأنبياء من العصمة^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٦٢/١٢)، ويراجع موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٥٢١/٢).

(٢) انظر: تفسير الدر المنثور (٥١٣/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٦٥/٩)، و تفسير ابن جرير الطبري (١٨٣/١٢)، و تفسير الدر المنثور (٥٢١/٤).

(٤) انظر: موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٥٣٢/٢).

أهم الفوائد والعبر والدروس والأحكام المستنبطة من هذا المبحث:

١- إن في يوسف وإخوته آياتٍ وعبراً وعظاتٍ، ولقد شهد الله بذلك في مطلعها، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ﴾^(١)، ومن أعظمها الابتلاء، فهو سنة الله الماضية، والعاقبة والنصر لمن اتقى وصبر.

٢- الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، وهذا الابتلاء يتنوع فقد يكون بالشر أو بالخير، وقد يكون من الأقربين كما يكون من الأبعاد، فقد ابتلي يوسف من أقرب الناس ألا وهم إخوته، وذلك بحسدهم له، وتديبرهم له المكائد، فجاءت سورة يوسف متضمنة لذلك كله، مبينة للرسول ﷺ، ولأمته أن المرء قد يجد من ذوي القربى ما يجد من غيرهم.

فقد نزلت هذه السورة تذكيراً من الله لنبيه محمد ﷺ، وتسلياً له عما كان يلقي من أقربائه وأنسبائه من الأذى، فأمره الله بالصبر على ما يناله، فإن الله قادر على تغيير ما يناله به هؤلاء، كما كان قادراً على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن ترك ذلك لهوان يوسف على الله، ولكن لماضي علم الله فيه وفي إخوته.

فكذلك ترك الله تغيير ما ينال الرسول من هؤلاء المشركين لغيرهوانه ﷺ على ربه، ولكن لسابق علم الله في رسوله وفيهم، ثم يصير أمره وأمرهم إلى علو الرسول ﷺ عليهم، وإذعانهم له، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسؤدد عليهم، وعلو يوسف عليهم^(٢).

٣- حسد الإخوة من المصائب العظام التي تصيب كثيراً من الأسر، حيث ينتج هذا الحسد عند ظهور النجاة، والتميز لدى أحد الأبناء، فينتج عن ذلك حب زائد وتفضيل لذلك الابن في الحب والمعاملة عن بقية إخوته، وذلك لا يخفى على الأبناء، فهم يستشعرون كل ما يقوم به الأب تجاههم، ثم يضعون ذلك في ميزان المقارنة؛ ليكشفوا فروقات التعامل والتي قد تكون حقيقية في بعض الأحيان، وغير حقيقية في أحيانٍ أخرى.

(١) سورة يوسف: الآية ٧.

(٢) تفسير الطبري: (١٢/١٧٠).

وهذا ما باح به إخوة يوسف عليه السلام، وهم يضعون تصرفات أبيهم تجاه ولده وأخيهم يوسف عليه السلام في ميزان المقارنات الأخوية، ووجدوا أن هنالك فرقاً، وهذا الشعور ولد لديهم داء الحسد، والذي وصل بهم إلى ما وصل، كما في قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُضَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٨} اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(١).

ولعل حب بعض الولد عن البعض الآخر فطرة لا يستطيع أن يقاومها الأب، غير أن على الأب أن يكتم الحب الزائد لبعض أولاده، ولتكن المعاملة الظاهرة بين الأبناء سواء بسواء، إذا أراد أن ينتزع داء الحسد من بينهم، وأن يزرع المحبة والألفة تجاه بعضهم البعض.

فالعدل مطلوب في كل الأمور، في معاملة السلطان لرعيته، وفي معاملة الوالد لولده في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يحتل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وأثره على إخوته جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيهم^(٢).

٤- الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاءً يكون، ولا يستبعد أنه قد كثر البحث في تلك المدة، بل ولعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة، والسابقة، واللاحقة^(٣).

٥- وفي خبر يوسف مع إخوته، ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى

(١) سورة يوسف: الآية ٨ - ٩.

(٢) انظر: تفسير الإمام السعدي: (٤٠٨/١).

(٣) تفسير السعدي: (٤٠٨/١).

غائلته حسداً أو كيداً^(١)، فينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته لقول يعقوب يوسف: «لَا تَقْضُضْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا»^{(٢)(٣)}.

٦- الغيرة والحسد قد يقع فيها المؤمن سواءً مع إخوته، أو مع غيرهم، ولكن المؤمن يدافع ذلك حتى لا يبقى في قلبه منه شيء، ولا يدع للشيطان ملاذاً ومدخلاً فيدافعه.

وكما قال ابن القيم - رحمه الله -: «إن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعاجل أخاه إلا بما يجب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف! لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها، ولا ياتمر بها بل يعصيها طاعة لله، وخوفاً وحياءً منه، وإجلالاً له أن يكره نعمة على عباده فيرى ذلك مخالفة لله، وبغضاً لما يحب الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هو كله حسد تمنى الزوال...»^(٤).

وإذا كان الشرع قد نهى وحذر عن التحاسد، والعداوة، واتباع خطوات الشيطان في التفرقة والقطيعة فيما بين أخوة الدين والعباد بصفة عامة، فكيف بالأخوة الحقيقية، أخوة النسب، حيث أكد الله ورسوله على هذا الحق، فلقد راعى الإسلام هذا الحق العظيم.

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي رمثة^(٥)، قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ،

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٢٧/٩).

(٢) تفسير السعدي: (٤٠٨/١).

(٣) سورة يوسف: الآية ٥.

(٤) بدائع الفوائد: (٤٦١/٢ - ٤٦٢).

(٥) هو حبيب بن حيان أبو رمثة التيمي، ويقال اسم أبي رمثة حيان بن وهب، روى عن النبي ﷺ، وروى عنه إيباد بن لقيط، وأصحاب السنن الثلاثة، وصح حديثه بن خزيمة وابن حبان، والحاكم.

انظر: الاستيعاب (٣٢٢/١)، والإصابة (١٤١/٧).

فسمعتة يقول: بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك»^(١).

فحق أخوة النسب يأتي في منزلة عالية رفيعة، والبر مع الخلق إنما يكون بالإحسان في معاملتهم، وذلك قول النبي ﷺ: «البر حسن الخلق»^(٢).

وحسن الخلق هو بذل الندي، وكف الأذى^(٣)، والعفو عن المسيء، والتواصل معهم بالمعروف، كما قال ابن عمر ؓ: «البر شيء هين، وجه طليق، وكلام لين»^(٤).

وهذا الحق، وهو حق الإخوة والأخوات، من الصلة والبر، يؤسس عليه البناء ابتداءً من الأسرة.

فالأب والأم عليهما التأكيد على هذا الحق، وغرسه في نفوس الأبناء منذ الصغر؛ ليكون ملازماً لهم في حياتهم، وكل ما أمر به الدين من حقوق بين العباد بعضهم على بعض فهي بين الإخوة أكد وأعظم.

فهذه الأخوة صلة ورحم، وبر الإخوة من صلة الرحم التي أمر الله بها، وحث عليها في كتابه، وأمر بها الرسول الكريم، ويعرف الإمام ابن كثير - رحمه الله صلة الأرحام بقوله: «وصلة الأرحام هو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال»^(٥).

فالصلة بين الإخوة مفهومها واسع، لا تعني الصلة بمفهومها المتعارف عليه فحسب، بل تكون بتفقد الأحوال، وتوقير الكبير، والعطف على الصغير، وتكون بالإنفاق عليهم بالمال للمحتاج من المقتدر، وبالعون عند الحاجة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده: (١٦٣/٤)، والحاكم في المستدرک: (١٦٧/٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، الحديث رقم: (٢٥٥٣)، (١٩٨٠/٤).

(٣) قيل للحسن البصري: ما حسن الخلق؟ قال: (بذل الندي وكف الأذى)، انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٩/٧)، مرقاة المفاتيح: (٢٧٧/٩).

(٤) انظر: فيض القدير: (٢٢٦/٣)، معجم السفر (من اسمه عمر): (٢٢٨/١ - ٢٢٩)، الصمت وآداب اللسان:

(١/١٨٠)، باب ما أمر به الناس أن يستعملوا فيه أنفسهم من القول الحسن للناس أجمعين.

(٥) تفسير ابن كثير: (١٧٩/٤).

والصلة تكون بالتناسي عن الزلات، والصفح عن الخطيئات، وبدفع الضرر، وتحمل الأذى، وبالدعاء لهم، وكل ذلك قد وجد جلياً واضحاً في قصة يوسف مع إخوته.

٧- من موقف يوسف مع إخوته يستفاد منه العفو عند المقدرة، ومقابلة الإساءة بالإحسان.

٨- شدة عظيم أدب يوسف وعظمة عفوهِ وصفحهِ حيث نسب ما صدر منهم إلى الشيطان ولم يقل يوسف «نزع إخوتي» وإنما قال: «نزع الشيطان بيني وبين إخوتي».

٩- إن العاقبة للمتقين، ودلائل القصص القرآني خير شاهد على ذلك.

ومن الأحكام الفقهية المستفادة:

من قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾^(١)، استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل كثيرة من الفقه، كالقسامة^(٢) وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بعد أن رأى القميص فلم يجد فيه خرقاً، ولا أثراً لناب الذئب، فاستدل بذلك على كذبهم^(٣). قال القرطبي رحمه الله: «لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة صدقهم قرن الله بهذه العلامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التمزيق إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو يلبس القميص ويسلم القميص»^(٤)، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة ولا خلاف بالحكم بها^(٥).

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.

(٢) أي الأيمان المكررة في دعوى قتل شخص معصوم.

انظر: الإنصاف للمرداوي (١٠/١٣٩)، والروض المربع (٣/٣٠٢).

(٣) انظر: الفروق مع هوامشه (٤/٢٣٨).

(٤) تفسير القرطبي (٩/١٤٩).

(٥) انظر: الفروق مع هوامشه (٤/٢٣٨).

المبحث الثاني

إخوة موسى عليه السلام

إخوة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، الوارد ذكرهم في القرآن، هم أخوه، وأخته، فأما أخوه فهو: هارون النبي عليه السلام، وورد ذكره في عدة مواضع من القرآن. وأما أخته، فلم يرد ذكرها إلا في موضعين: أحدهما: في سورة طه، والآخر في سورة القصص، ولم يخبر القرآن عن اسمها.

وقد ورد ذكر هارون عليه السلام جملة ضمن أنبياء آخرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

- موسى يسأل ربه مساعدة أخيه هارون له:

أيد الله عز وجل رسوله موسى عليه السلام بأخيه هارون في الدعوة إلى الله، فلقد كان هارون عليه السلام أفصح لساناً، كما شهد بذلك له أخوه موسى، لذا فقد طلب موسى من ربه عندما كلفه بالدعوة إلى التوحيد أن يرسل معه أخاه هارون نبياً، وأن يجعله وزيراً مساعداً له، ليشاركه في أمر الدعوة، ويشد أزره به.

(١) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٤.

فطلب موسى ﷺ من الله عدة أمور، ومن ضمنها أن يُشرك معه أخاه هارون في الرسالة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي {٢٥} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي {٢٦} وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي {٢٧} يَفْقَهُوا قَوْلِي {٢٨} وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي {٢٩} هَارُونَ أَخِي {٣٠} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {٣١} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي {٣٢} كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا {٣٣} وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا {٣٤} إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا {٣٥} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿^(١)

وقال عنه سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿^(٢)

وقال أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ {١٢} وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿^(٣)

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا {٣٥} فقلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيْرًا ﴿^(٤)

وقد استجاب الله تعالى لطلب موسى ﷺ، فجعل أخاه هارون ﷺ نبياً ووزيراً وردءاً مساعداً له.

قال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿^(٥)

وقال أمراً لهما: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي {٤٢} اذْهَبَا إِلَىٰ

(١) سورة طه: الآية ٢٥ - ٣٦.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٤.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٢ - ١٣.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٣٥ - ٣٦.

(٥) سورة القصص: الآية ٣٥.

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢).

فمن هذه الآيات عُرف أن هارون أخ لموسى ﷺ، فلا تكاد تخلو آية من الآيات التي تحدثت عن موسى وهارون عليهما السلام مجتمعين، إلا كانت تقرن بصفة الأخوة، فكأنه تأكيد من المولى ﷺ على أهمية هذه الصلة والقرابة العظيمة.

ولقد شاء الله جلّ في علاه أن يكون هارون ﷺ نبياً منذ الأزل، ولكنه شاء سبحانه أن يبعثه نبياً فعلاً بعد طلب موسى، فيكون طلب موسى سبباً في نبوة هارون عليهما السلام. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: «أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قالوا: لا ندري، قال: أنا والله أدري، إنه موسى حين سأل لأخيه النبوة»، فقالت: صدق والله (٣).

ولهذا قال بعض السلف: «ليس أحد أعظم منه على أخيه من موسى على هارون، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه» (٤).

وبذلك يكون موسى ﷺ أنفع أخ لأخيه، وإن من أعظم البر بالأخ ما دعا به ﷺ ربه بأن يمنّ على شقيقه هارون بجعله وزيراً له، ومعيناً في دعوته.

- هارون وزير لأخيه موسى:

والتأمل في دعوة موسى ﷺ يجد أنه وصف هارون بصفة الأخوة، فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ {٢٩} هَارُونَ أَخِي {٣٠} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي {٣١} وَأَشْرِكْهُ فِي

(١) سورة طه: الآية ٤٢ - ٤٣.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير: (١٤٨/٣)، و تفسير الدر المنثور (٥٦٧/٥).

(٤) تفسير ابن كثير: (٣٩٠/٣).

أَمْرِي ﴿١﴾.

وقال في سورة القصص: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ {٣٣} وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (٢).

ومن الآيات السابقة تبين أن موسى عليه السلام أراد أن يكون أخه هارون وزيراً له، يشد به أزره، ويُشركه في أمر النبوة والرسالة، وبذلك يكون رداءً مساعداً له.

قال الإمام الراغب في معنى الردء: «الردء: الذي يتبع غيره، معيناً له».

وقال أيضاً في معنى الأزر: «أشد به أزرى: أصل الأزر: الإزار، الذي هو اللباس، يقال: إزارٌ ومئزر، ومعنى قوله: ﴿ أَشْدُّ بِهِ أَرْزِي ﴾ أي: أتقوى به، والأزر: القوة الشديدة، وأزره: أعانه وقواه، وأصله من شد الإزار» (٣).

وهارون: هو النبي، وهو الوزير لموسى النبي عليهما السلام. والمتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه لم يصف أحداً بصفة الوزير إلا هارون بن عمران، ويجد أن كلمة (وزير) لم تذكر إلا مرتين في القرآن، وكلاهما في قصة موسى وهارون عليهما السلام، والوزير في كلا المرتين وصف لهارون عليه السلام (٤)، ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي {٢٩} هَارُونُ أَخِي ﴾، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴾، والوزارة لا تنافي النبوة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء يؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً (٥)، والمراد يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة، ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة؛ لأن المتشاركين في الأمر متوازرين

(١) سورة طه: الآيات ٢٩ - ٣٢.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٣ - ٣٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن: (١/١٦، ١٧، ١٩٣)، باختصار.

(٤) يراجع كتاب التراتيب الإدارية (نظام الحكومة النبوية): (١/٢٠).

(٥) انظر: تفسير الكشاف: (٣/٢٨٥)، وتفسير البحر المحيط: (٦/٤٥٧).

عليه^(١).

وما قاله موسى لربه تعالى بعد تكليفه بدعوة فرعون تنص عليه سورة القصص بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ {٣٣} وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾^(٢).

فقد تضمنت الآيات أمر الله لموسى، كما تضمنت طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، فلما أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون وهو الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه، وخوفاً من سطوته.

قال موسى ﷺ لربه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾، يعني بذلك القبطي الذي كان يخاصم الإسرائيلي، ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾، أي: إذا رأوني.

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾، أي: فيكون أحسن مني بياناً، ولا يتحمل ذلك ما لم يكلف بمثل ما كُلفت به، ﴿ فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾، أي: وزيراً ومعيناً ومقوياً يصدقني فيما أقوله، ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾، أي: أخاف أن يتفقوا على تكذبي المؤدي إلى إلحاق أنواع الأذى بي، وإنما طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون بأن يجعله رسولاً، فيفضل عليه بالنبوة والرسالة إلى فرعون، كما جاء في آية أخرى من سورة (طه) عما قاله وطلبه موسى: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ {٢٩} هَارُونُ أَخِي {٣٠} أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي {٣١} وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴾^(٣).

أي: أشركه فيما أمرتني به من القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى فرعون هذا الملك المتكبر الجبار العنيد^(٤).

(١) انظر: تفسير البيضاوي: (٤/٢١٧).

(٢) سورة القصص: الآية ٣٣ - ٣٤.

(٣) سورة طه: الآية ٢٩ - ٣٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير بتصرف: (٣/٣٨٩ - ٣٩٠).

وعند الزمخشري في تفسيره: «وأشركه في أمري» أي: اجعله شريكاً في الرسالة^(١).

وقال ابن كثير - رحمه الله - عن معنى قوله تعالى عن قول موسى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ يصدقني: - أي أخوه هارون - فيما أقوله وأخبر به عن الله ﷻ؛ لأن خبر الاثنين أكثر تأثيراً في النفوس من خبر الواحد، وأقرب إلى القبول والتصديق^(٢)، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال الزمخشري في تفسيره: «فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق الذي جاء به موسى من ربه، ويبسط القول فيه، ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق^(٣) ذو العارضة، فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان، ألا ترى على قوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك، لا لقول صدقت»^(٤).

فيراد من طلب موسى إرسال أخاه هارون عليهما السلام، وذلك كما قال ابن كثير أن خبر الاثنين أوقع في النفوس من خبر الواحد، ولأن بيان هارون وفصاحته في توضيح ما جاء به موسى من ربه يعني تصديقه به، ويحمل السامعين على تصديقه، لما في توضيحه من احتمال قبوله.

ومما سبق تبين أن موسى طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، ويشركه في الرسالة إلى فرعون، وذلك لأنه أفصح من موسى لساناً، وقد أجابه الله إلى طلبه، فقال له: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ

(١) تفسير الزمخشري: (٦٣/٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣٩٠/٣).

(٣) المنطيق: أي البليغ.

انظر: لسان العرب (٣٥٤/١٠) مادة (نطق).

(٤) تفسير الزمخشري: (٤١٤/٣).

اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ»^(١)، أي: سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال تعالى في الآية الأخرى من سورة (طه): ﴿قَدْ أُوتِيَْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

فرباط الأخوة أعظم رباطٍ وأشدّه، فقد أعان الله موسى عليه السلام بمؤازرة أخيه ومساعدته له، فهؤلاء نبيان كريمان من بيت واحد، يقوي بعضهما بعضاً، وفي الآيات السابقة من سورة القصص في قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، كناية عن تقويته؛ لأن اليد تشتد بشدة العضد، وهو ما بين المرفق إلى الكتف.... وقد شبه الله حال موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد^(٢).

يقول الرازي في تفسيره: «إن قيل الاستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك، أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحي من الله تعالى إلى قوم على التعيين، فمن أين ينفعه الوزير؟ وأيضاً فإنه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكاً في النبوة، فقال: ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾، فكيف يكون وزيراً؟»

والجواب أن التعارف على الأمر، والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة في تأثير الدعوه إلى الله تعالى، فكان موسى عليه السلام واثقاً بأخيه هارون، فسأل ربه أن يشد به أزره، حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل في الإبلاغ.

وطلب أن يكون ذلك الوزير من أهله، أي من أقاربه، وأيضاً أن يكون الوزير الذي من أهله هو أخوه هارون، وإنما سأل ذلك لوجهين:

أحدهما: أن التعاون على الدين منقبة عظيمة، فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله. والثاني: لأن كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه والموافقة له^(٣).

(١) سورة القصص: الآية ٣٥.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني باختصار: (٧٨/٢٠).

(٣) تفسير الرازي: (٤٣/٢٢).

- هارون رسول إلى فرعون مع أخيه موسى:

نصت آيات القرآن الكريم على أنّ موسى وهارون عليهما السلام بُعثا إلى فرعون، كما في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(١).

كما نصت الآيات أيضاً على أنهما بُعثا إلى فرعون وملئه وقومه، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٣)

والمتتبع لآيات القرآن يجد أن الآيات قد دلت على أن هارون كان مع موسى عليهما السلام في المواجهة مع فرعون، وأنهما كانا نبيين مبعوثين إلى فرعون وملئه.

- ما خص الله به هارون عن موسى :

كما أن هارون عليه السلام كان مخصوصاً بأمور منها أنه كان في غاية الفصاحة، لقوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، ومنها أنه كان فيه رفق، ومنها أنه كان أكبر سنّاً منه...، وفي قول موسى ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾.

فالأمر هنا هو النبوة، وإنما قال ذلك لأنه عليه السلام علم أنه يشد به عضده، وهو أكبر منه سنّاً، وأفصح منه لساناً...^(٤).

- هارون خليفة أخيه موسى في بني إسرائيل:

ولما أتم الله نعمته على بني إسرائيل بالنجاة من عدوهم وتمكينهم في الأرض، أراد الله

(١) سورة طه: الآية ٤٣.

(٢) سورة يونس: الآية ٧٥.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٤٥.

(٤) انظر: تفسير: (٤٤/٢٢).

تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، فواعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلةً وأتمها بعشرٍ، فصارت أربعين ليلةً؛ ليستعد موسى عليه السلام لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوقٌ إلى إنزالها^(١).

وأوصى موسى أخاه هارون عليهما السلام على بني إسرائيل أثناء غيابه، وفي هذه الفترة التي سبق فيها موسى قومه إلى جبل الطور، امتحن الله بني إسرائيل بالسامري، وابتلاهم وفتنهم به، ف وقعت فيها حادثة عظيمة، وقد قص القرآن ما حدث مع موسى وأخيه هارون في موضعين منه، في سورة (الأعراف)، (طه).

قال تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ {١٤٨} وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ {١٤٩} وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {١٥٠} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ

(١) انظر: تفسير السعدي: (٣٠٢/١).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٨ - ١٥١.

مَوْعِدِي {٨٦} قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ {٨٧} فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ {٨٨} أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً {٨٩} وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي {٩٠} قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى {٩١} قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {٩٢} أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي {٩٣} قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿^(١)

حين توجه موسى للمناجاة استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح، وعدم الإفساد. وهذا تنبيه، وتذكير، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، له وجاهته وجلاله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ^(٢).

ويدل قوله تعالى عن موسى عليه السلام حين خاطب أخاه هارون وأوصاه قبل مفارقتها: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية، وإن اشتركا في النبوة، والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع؛ لأنه من المعروف أن الاستخلاف يكون عند الغيبة، وتدلل الآية أيضاً على أن موسى قد نهاه عن شيء وهو يعلم أن أخاه هارون لا يفعله، وأمره بما يعلم أنه سيفعله، وإنما قدم له هذه الأوامر قبل ذهابه للتأكيد عليه وموعظة له، واعتباراً لغيره، ومصلحة للجميع، وذلك لحرصه عليهم وشفقته بهم ^(٣).

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾، يخبر تعالى عن ضلال من ضل من

(١) سورة طه: الآية ٨٦ - ٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٢٤٤).

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (٣/٦٣٣).

بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذهم السامري^(١) من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوار، أي: صوت كصوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور^(٢)؛ حيث قال تبارك وتعالى عن نفسه الكريمة: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(٣).

– موسى يلوم أخاه هارون عليهما السلام :

يقص القرآن ويصف ما فعل موسى مع أخيه هارون خليفته في قومه، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾^(٤)، وخاطب موسى أخاه عليهما السلام لاثماً له قائلاً: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {٩٢} أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾^(٥).

وإنما فعل موسى هذا الفعل، وأقبل على أخيه لاثماً، وأخذ برأس أخيه، أي: بشعر رأس هارون، وذلك لأنه الذي يؤخذ ويمسك عادةً، وأيضاً لا ينافي أخذه بلحيته، كما وقع في سورة (طه) ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾^(٦)، وأدخل فيه تغليباً يحجره إليه ظناً وخوفاً منه ﷺ أن يكون خليفته هارون قد قصر في كفهم ونهيهم والانكار عليهم، ولم يتمالك غضبه، وفرط غيظه أن يفعل ذلك بأخيه هارون عليهما السلام^(٧).

وكان موسى ﷺ رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء،

(١) ذكر الطبري في تاريخه أن اسم السامري: موسى بن ظفر من أرض باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر، فكان حب عبادة البقر في نفسه، وقع في أرض مصر فدخل في بني إسرائيل.

انظر: تاريخ الطبري (١/٢٥١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/٢٤٨)، تفسير القاسمي: (٣/٦٣٨).

(٣) سورة طه: الآية ٨٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٥) سورة طه: الآية ٩٢ - ٩٣.

(٦) سورة طه: الآية ٩٤.

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/٢٤٩)، تفسير السعدي: (١/٥١٢)، تفسير روح المعاني: (٩/٦٧).

شديد الغضب لله تعالى، ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلًا من دون الله تعالى، من بعد ما رأوا من الآيات العظام، أن ألقى الألواح، لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضباً لله تعالى، وحمية، وعنف أخيه وخليفته على قومه^(١).

فقد شرع يلوم أخاه هارون، ويقول: ﴿يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {٩٢} {أَلَّا تَتَّبِعَنِ}﴾، فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ويقصد فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

وقد كان هارون عليه السلام كما ذكر المفسرون أكبر من موسى عليه السلام بثلاث سنين، إلا أن موسى أكبر منه مرتبة، وله الرسالة والرئاسة استقلالاً، وكان هارون وزيراً له^(٣).

ولم يقصد موسى بهذا الفعل، وهذا الأخذ إهانته والاستخفاف به، بل اللوم الفعلي على التصغير المظنون بحكم الرياسة، وفرط الحمية^(٤).

يقول القرطبي في تفسيره: «الله أعلم بما أراد نبيه عليه السلام، وقيل إن موسى إنما فعل هذا على غير اسخفاف ولا عقوبة، كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه...»^(٥).

- هارون يستعطف أخاه موسى:

وما كان من هارون عليه السلام بعد أن رأى غضب أخيه وفعله معه، إلا أن يستعطفه، ويرقق قلبه، ويحننه، فقال له كما أخبر المولى عنهما: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٦).

(١) انظر: تفسير الكشاف، للزمخشري: (٨٤/٣)، وتفسير الرازي: (٩٤/٢٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١٦٤/٣)، سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٣) انظر: تفسير روح المعاني: (٦٧/٩)، انظر: تفسير القرطبي: (٢٨٩/٧).

(٤) انظر: تفسير روح المعاني: (٦٧/٩).

(٥) تفسير القرطبي: (٢٣٩/١١).

(٦) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

وقال له: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(١).

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ﴾ قرئ بالفتح، والكسر، وأصله «يا ابن أُمِّي» خفف بحذف حرف النداء والياء^(٢)، وحرف النداء (يا) ذكر في آية سورة طه، بينما الحرف محذوف من آية سورة الأعراف.

يقول أبو حيان في تفسيره: «ابن أم» نداء استخفاف وترفق، وهي عادة العرب، تتلطف وتحنن بذكر الأم...»^(٣).

والذي عليه الجمهور: أنهما كانا شقيقين، إلا أنه خص الأم بالإضافة استعظماً لحقها، وترقيقاً لقلبه؛ لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف^(٤)، ولهذا قال ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، فهذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه، فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم.

فقال إنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك لترك ما أمرتني بلزومه، وخشيت لأئمتك، وأن تقول ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، حيث تركتهم وليس عندهم راع، ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم^(٥).

يقول أبو السعود في تفسيره: «إن نصائح هارون حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فإذن لا تزجرهم مفارقتهم إياهم عنه أولى، والاعتذار بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره القصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجر عن ذلك بمعزل من حيز القبول، كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم

(١) سورة طه: الآية ٩٤.

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٣٨٨/١)، انظر: تفسير القاسمي: (٦٤١/٣).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٣٩٤/٤).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (١٦٤/٣)، تفسير أبي السعود: (٣٨/٦).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (١٦٤/٣)، تفسير السعدي: (٥١٢/١).

عاكفون عليه إلى حين رجوعه إليهم ﷺ»^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي { ٩٠ } قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾^(٢).

وقد برأ الله تعالى بهذه الآيات البينات هارون ﷺ مما افتراه عليه كتبه التوراة، من أنه هو السامري الذي اتخذ العجل وأمر بعبادته كما هو موجود عندهم، وهذا من أعظم الفرى^(٣).

وقيل إن هارون ﷺ كانت آثار الرحمة فيه ظاهرة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾^(٤)، ولذا كان يلهج بذكر ما يدل على الرحمة. يظهر ذلك في تلفظه بالقوم لما قدموا على ما قدموا فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ومن هنا أيضاً ذكر الأم، ونسب إليها لأن الرحمة فيها أتم، فقد كان كما قيل عنه أحب إلى بني إسرائيل من موسى ﷺ؛ لأنه كان ليّن الغضب^(٥).

يقول الزمخشري في تفسيره: «كان موسى ﷺ في نفسه حديداً شديداً الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى...»^(٦).

وقال هارون: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٧)، فبين هارون ﷺ لأخيه موسى ﷺ أنه بذل ما في وسعه في كفهم، ولم يأل جهداً في منعهم، حتى قهره واستضعفه، وقاربوا على

(١) تفسير أبي السعود: (٣٧/٦).

(٢) سورة طه: الآية ٩٠ - ٩١.

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (١١٤/٥ - ١١٥).

(٤) سورة مريم: الآية ٥٣.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٢٨٩/٧)، انظر: تفسير روح المعاني: (٦٨/٩).

(٦) تفسير الكشاف: (١٥٢/٢).

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

قتله حين نهاهم عن ذلك. فلا تشمت بي الأعداء، ولا تفعل ما يشمتون بي لأجله، فإنهم لا يعلمون سر فعلك، والشماتة: سرور العدو بما يصيب المرء من مكروه. فلا تجعلني معدوداً في عدادهم، ولا تسلك بي سلوكك بهم في المعاتبة، ولا تعتقدي واحداً من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم^(١).

فلما اعتذر إليه أخوه، وذكر له شماتة الأعداء، قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٢)؛ ليرضي أخاه، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه فقد يكون فرط في حسن الخلافة، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة^(٣)، قال ذلك متضرعاً إلى ربه، استنزالاً لرحمته، وتعوذاً بمغفرته من سخطه، ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك^(٤).

- أخت موسى عليه السلام:

كما أن القرآن أخبر عن أخت موسى عليه السلام في موضعين منه:

الأول: في قوله تعالى من سورة طه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ { ٣٧ } إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ { ٣٨ } أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي { ٣٩ } إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلْتِ نَفْسًا فَجَئِينَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَىٰ ﴾^(٥).

(١) انظر: تفسير روح المعاني: (٦٨/٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥١.

(٣) انظر: تفسير الكشاف: (١٥٣/٢).

(٤) انظر: تفسير القاسمي: (٦٤١/٣).

(٥) سورة طه: الآية ٣٧ - ٤٠.

والثاني: في قوله من سورة القصص: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ { ١١ } وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾^(١).

وقد ذكرت الآيات من خلال هذه القصة ما اتصفت به أخت موسى عليه السلام من الذكاء، والفتنة، والشجاعة، والطاعة، والبر، وكيف كان لها الأثر الكبير في حياة أخيها موسى عليه السلام.
وأجمع المفسرون على أن اسم أخت موسى (مريم)، ولم يذكرها القرآن باسمها.

وذكر القرطبي: « أن أخت موسى: هي مريم بنت عمران، ليست أم عيسى عليه السلام، لكنه توافق أسماء». وقيل إن اسمها كلثمة، وقيل اسمها كلثوم^(٢).

وفي كلا الآيات التي ذكرت أخت موسى عليه السلام، عبّر عنها بـ«أخته»، ففي قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾، وفي قوله سبحانه عن أم موسى لأخته: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾، فلم تذكرها الآيات، ولم تعبر عنها إلا بصفة أنها أخته.

وفي ذلك دليلٌ على أهمية هذه الرابطة القوية، والصلة العظيمة.

ففي التعبير عنها بأخته عليه الصلاة والسلام دون أن يقال لابنتها، وذلك للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر^(٣).

– أخت موسى كانت من أسباب نجاته:

وأخت موسى من جملة ما امتن الله به عليه، كما ذكر الله ذلك في كتابه، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ { ٣٧ } إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ { ٣٨ } أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي { ٣٩ } إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

(١) سورة القصص: الآية ١١ - ١٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (٢٥٦/١٣)، وانظر: تفسير روح المعاني (٥٠/٢٠).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني: (٥٠/٢٠)، ويراجع تفسير أبي السعود: (٧/٥).

مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ...»^(١).

قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي﴾.. بدل من إذ أوحينا؛ لأن مشي أخته كان منةً عليه^(٢)، ففي مشيها إلى بيت فرعون، وما ترتب عليه من قولها لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ﴾، ورجوعه إلى أمها وتربيتها له بالبر، والحنو، فهذه منة عليه لإكمال نمائه، وكذلك منة على أمه بنجاته، ورجوعه إليها، فلم تفارق ابنها إلا ساعات قلائل، إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم، فإن جميع ذلك من المنن الإلهية التي امتن الله بها على نبيه^(٣).

يقول ابن عطية في تفسيره: «إنها - أي أخته - من جملة لطائف الله تعالى له، ولأمه حسب الوعد الذي أوحى إليها»^(٤).

وفي هذه الآية: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾^(٥)، وقع فيها اختصار في حكاية قصة مشي أخته، وفصلت في سورة القصص^(٦).

- أم موسى تكلف أخته بمراقبته:

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { ١٠ } وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ { ١١ } وَحَزَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ { ١٢ } فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

(١) سورة طه: الآية ٣٧ - ٤٠.

(٢) تفسير النسفي: (٥٥/٣).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: (١٥/٦)، تفسير المحرر الوجيز: (١١٩/١٦).

(٤) تفسير المحرر الوجيز: (٢٧٩ / ٤).

(٥) سورة طه: الآية ٤٠.

(٦) تفسير التحرير والتنوير: (١١٩/١٦).

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

وقالت أم موسى لأخته: قصيه، فأمرتها أن تذهب وتقص الأثر عن أخيها، وأن تبحث عنه من غير أن يحس بها أحدٌ، أو يشعروا بمقصدها، فذهبت متبعة منقادة لأمر أمها، تقصه، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها.

والقص: هو اتباع الأثر، واستعمل في تتبع الذات بالنظر، فلذلك عُدي إلى ضمير موسى دون ذكر الأثر في قوله قصيه^(٢).

﴿فَبَصَّرَتْ بِهٖ عَنِ جُنْبٍ وَهَمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ويخبر تعالى عن أخت موسى أنها قصت واتبعت أثره، فبصرت بموسى عن بعد، ولم تدن منه، ولم تقترب لئلا يُعلم أنها تربطها به قرابةً أو أنها منه بسبيل، يقال بصرت به، وأبصرته لغتان مشهورتان^(٣).

فمن ابن عباس: «والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى الشيء البعيد، وهو إلى جنبه لا يشعر به»^(٤).

وقال قتادة: «جعلت تنظر إليه بناحية كأنها لا تريده، وكان يقرأ عنه (جنب) بفتح الجيم، وإسكان النون، وهم لا يشعرون أنها أخته، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه»^(٥).

ويقول السعدي في تفسيره: «﴿فَبَصَّرَتْ بِهٖ عَنِ جُنْبٍ وَهَمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أبصرته على وجه كأنها مارة لا قصد لها فيه، وقوله: ﴿وَهَمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول وقوم فرعون لا يشعرون بأخت موسى أنها أخته، وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته

(١) سورة القصص: الآية ١٠ - ١٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/٣٨٢)، تفسير السعدي: (١/٦١٣)، تفسير التحرير والتنوير: (٢٠/٢٤).

(٣) تفسير الطبري: (٢٠/٣٩).

(٤) تفسير الطبري: (٢٠/٣٩).

(٥) تفسير القرطبي: (١٣/٢٥٧).

وجاءت إليهم قاصدة لظنوا بها أنها هي التي ألقته، وربما عزموا على ذبحه عقوبة لأهله»^(١).
 فمن ذكائها وفطنتها أنها كانت تمشي جانباً، وتنظر اختلاصاً، كأنها لا تنظر إليه، أو تراقبه، ومما يؤكد ذلك أنها لما رأت أن آل فرعون «وهم أهله وجملته»^(٢)، التقطوه، ورأت ما هم فيه من الحيرة عندما امتنع عن المراضع اللاتي حضرن لإرضاعه، انتهزت هذه الفرصة، وعرضت عليهم، بدون أي ريبة، قولها: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ»، ومن حرصها على أخيها، زادت فقالت: «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ».

«والفاء في قوله: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ...﴾ فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدره، أي: فأظهرت أخته نفسها، وكأنها مرت بهم عن غير قصد، وإنما قالت ذلك بعد أن فشا في الناس طلب المراضع له، وتبديل مرضعة عقب أخرى، حتى عُرض على عدد كثير في فترة قصيرة، وذلك بسرعة مقدره آل فرعون، وكثرة تفتيشهم على المراضع، حتى ألفوا عدداً كثيراً في زمن يسير، وأيضاً لعرض المراضع أنفسهن على آل فرعون لما شاع أنهم يتطلبون مرضعةً.
 وعرضت أخت موسى سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل في العرض، تلطفاً مع آل فرعون، وإبعاداً للظنة عن نفسها»^(٣).

وهذا من لطف الله ﷻ بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي أي امرأة أخرى، وذلك لكرامته عند الله، وصيانة له أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ولأن الله سبحانه جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه^(٤) ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾^(٥).

فرد إلى أمه بفضل من الله، ثم أخته، فهي الأخت ثم البارّة، المباركة على موسى وعلى أمها.

(١) تفسير السعدي: (٦١٣/١).

(٢) انظر: تفسير الثعالبي: (١٧/٣).

(٣) تفسير التحرير والتنوير: (٢٥/٢٠).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٨٢/٣)، و تفسير السعدي: (٦١٣/١).

(٥) سورة طه: الآية ٤٠.

وروي عن ابن عباس: «أنها لما قالت أخت موسى لآل فرعون: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، أخذوها، وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه، ورغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة، فأرسلوها...»^(١).

فسرت قولها لهم: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وذلك لمنزلة عندكم، وحرصكم على سرور الملك، وفي هذا دلالة على رجاحة عقلها.

وقد ضربت أخت موسى عليها السلام أروع مثال للأخت الحافظة لحق أخيها، البارة لأمها، وقد كرمها الله بهذا العمل، وجعله قرآناً يتلى إلى قيام الساعة.

وقد ورد في قصة موسى عليه السلام روايات إسرائيلية كالرواية الواردة في سبب غضب موسى حتى ألقى الألواح من يديه بأنه إنما ألقاها غضباً لما رأى من فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ذلك بأتمته، أورد ذلك ابن جرير، والبغوي في تفسيريهما^(٢).

وقد خالفت هذه الرواية مقال به جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، كما أنها مخالفة لما يتصف به الأنبياء من أخلاق كريمة فهي تظهر الأنبياء بمظهر المتحاسدين، لا بمظهر الإخوان المتحابين^(٣).

(١) تفسير ابن كثير: (٣/٣٨٢).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٩/٦٥)، و تفسير البغوي (٢/١٩٨)، ويراجع كتاب الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبه (ص ٢٠٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/٢٤٩)، ويراجع كتاب الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهبه (ص ٢٠٠).

الفوائد المستنبطة من هذا المبحث:

١- من بيوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: يستفاد كل ما يثري العلاقة الأسرية بين أفرادها، من تواد، وتراحم، وبر، وصلة، وإخلاص.

ومن أخوة الأنبياء: يتجلى أهمية الرابطة التي تربط أفراد الأسرة بعضهم ببعض.

وخلق الأنبياء وما جبلهم الله عليه من البر وحسن الخلق: يستفاد من تعاملهم مع إخوتهم، وتقديرهم لهذه الرابطة وهذه القرابة.

فمن يوسف عليه السلام، وما كان منه مع إخوته من صبر، وحلم، وبر، وإحسان، وعفو، وحسن تجاوز.

٢- وكذلك موسى عليه السلام، وكيف أحسن مع أخيه هارون، فكان أنفع أخ لأخيه في الدنيا، كما ورد في الأثر، أثنى عليه أمام ربه، بأنه أفصح لساناً، وسأل ربه أن يكون وزيراً له، فلم يستأثر بهذه الصفة، وهذه المنزلة لنفسه فقط، بل أشرك معه أخاه فيها، وهي منزلة ما أعظمها من منزلة، وشرفاً لا يبلغه أي أحد.

٣- يستفاد من تعامل الأنبياء، وإيثارهم لأهلهم ما قال موسى حين طلب ربه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾^(١)، فسأل أن يكون أهله؛ لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله، فقال: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾^(٢)، فطلب أن يكون أخوه هارون، وخصه؛ ليتقوى به، ويشد به ظهره^(٣).

٤- أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يستفاد ذلك، من فعل موسى مع أخيه هارون عليهما السلام، عندما قال: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {٩٢} أَلَّا

(١) سورة طه: الآية ٢٩.

(٢) سورة طه: الآية ٣٠.

(٣) تفسير السعدي: (١/٥٠٥).

تَتَّبِعَنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١﴾.

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: «فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم والإنكار عليهم نسبة إلى عصيانه، ومخالفة أمره، وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره، ومفارقة أهله، وأن يقيم بينهم لاسيما إذا كان راضياً حكمه كحكمهم»^(٢).

ويقول الرازي في تفسيره: «اعلم أن الأمر بالمعروف، والشفقة على المسلمين واجب، ثم إن هارون عليه السلام لم يبال بكثرة القوم، ولا بقوتهم بل صرح بالحق، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾»^(٣).

٥- كذلك فإن الأمر بالمعروف، قد يسقط في حال الخوف على النفس، وفي الحال الذي يعلم أنه لا ينفع، لذا قال هارون لأخيه موسى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْني﴾^(٤)، ويدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود في الدين^(٥).

٦- في قول هارون لأخيه موسى عليهما السلام: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيِ الْأَعْدَاءِ﴾ إن شماتة الأعداء، وسرورهم بما يصيب غيرهم، من الأمور التي يجب الحذر منها.

فقد كان الرسول محمد ﷺ يتعوذ منها، ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء»^(٦)، فلا يفعل المرء مع أخيه، أو أحد من أهله ما يدعو إلى أن يشمت بهم الأعداء، كما قال هارون لأخيه، فطلب منه أن لا يفعل به ما يشمت من أجله الأعداء، ويريد أن لا تكون الشماتة منهم لفعل يفعله موسى معه^(٧).

(١) سورة طه: الآية ٩٢ - ٩٣.

(٢) تفسير القرطبي: (٢٣٧/١١).

(٣) تفسير الرازي: (٩٢/٢٢)، والآية من سورة طه: آية ٩٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٥) انظر: تفسير القاسمي: (٦٤١/٣).

(٦) روى ذلك البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب: التعوذ من جهد البلاء، برقم (٥٩٨٧)، (٢٣٣٦/٥).

(٧) انظر: تفسير القرطبي: (٢٩١/٧)، بتصرف.

٧- وأخت موسى عليه السلام صورها القرآن، ووصفها بأحسن وصف، فقد ضربت مثلاً طيباً للبت الطائعة لأمها، والأخت المحبة المشفقة على أخيها، تقص أثره، وتتبعه رغم ما كان ينتشر في ذلك الوقت من خوفٍ ووجلٍ، وبشجاعتها ورجاحة عقلها، وحكمتها وثباتها نفع الله بها أخاها موسى عليه السلام، وأمه، وبموقفها يتجلى دور الأخت مع أخيها، حباً، وخوفاً عليه، وشفقة، وتعرضاً للمخاطر.

٨- من حسن صنيع أخت موسى مع أخيها عندما كانت تراقبه، أنهم لم يكونوا يشعرون بها، ولم تشعرهم رغم حرصها ومراقبتها وتتبعها له بأنها أخته، وهذا يدل على فطنتها، وأخذها بالأسباب، والحيلة، والحذر، كما وصفها القرآن بقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ فعلى الأسرة المسلمة أن تغرس مثل هذا في نفوس أفرادها، وأن يربوا على مثل هذا في الحياة، فالفطنة، والذكاء، وسرعة البديهة لا تختص بجنسٍ دون الآخر، فقد تحدثت مع آل فرعون، وعرضت عليهم، بكل فصاحة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾.

٩- ومن هذه القصة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه عن أخت موسى وعن صنيعها، أن المرأة قادرة على فعل الأعاجيب، وقادرة على القيام بالأمر الصعبة متى أعطيت الثقة، وربيت عليها، وفتح لها الباب الشرعي، كما ورد في قصص القرآن والأحاديث الشريفة، والسيرة.

١٠- ومنها أيضاً الدليل على جواز خروج المرأة في قضاء حوائجها، وجواز تكليمها للرجال، إذا انتفى المحذور.

المبحث الثالث

إسماعيل وإسحاق عليهما السلام

إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أبناء نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام، ذُكرا في كتاب الله من عداد الأنبياء الذين اصطفاهم الله، إلا أن القرآن، والحديث النبوي الشريف، والروايات الصحيحة، لم تشر إلى التقائهما زمانياً ولا مكانياً.

أما بقية الأنبياء الذين جاء ذكر أخوتهم، فقد بينت الآيات قصة التقائهم كما مرّ في ذكر إخوة يوسف، وإخوة موسى عليهما السلام.

- إسماعيل هو بكر أبيه عليهما السلام:

دل القرآن على أن إسماعيل هو المولود الأول، وهو بكر أبيه إبراهيم عليه السلام، وأمه هي هاجر، ثم بعد ذلك رزق الله إبراهيم بابنه إسحاق عليه السلام، وقد رزقه الله بابنيه بعد ما كبر، وأصبح شيخاً، كما بين لنا القرآن، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(١).

ومن الأدلة القرآنية الدالة على أن إسماعيل، وُلِدَ قبل إسحاق، قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ {١٠٠} {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٢).

ثم ذكرت الآيات قصة رؤيا إبراهيم يذبح هذا الغلام الحليم، وكيف فداه الله عز وجل بعد ذلك بذبح عظيم.

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣).

فهذا السياق في الآيات دل على أن الغلام الحليم الذي ولد لإبراهيم عليه السلام أولاً هو

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٩.

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٠ - ١٠١.

(٣) سورة الصافات: الآية ١١٢.

إسماعيل ، وهو الذي أمر بذبحه ؛ لأن الحديث عن إسحاق والبشارة به جاء بعد ذلك ، كما ذكرت ذلك من قبل.

يقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره : «ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة...»^(١).

ويقول في كتاب (قصص الأنبياء) : «وقد كان للخليل بنون ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان ، أسنهما وأجلهما الذي هو الذبيح على الصحيح إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية ، عليهما السلام... وإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر ، وكان صغيراً رضيعاً...»^(٢).

- إسماعيل ﷺ رسولا نبياً :

وقد أثنى الله ﷻ على إسماعيل في كتابه الكريم :

ومن جملة ثناء الله ﷻ عليه قوله : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾^(٣).

فهذا ثناء من الله على إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، بأنه ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ ، فوصفه أنه كان لا يكذب وعده ، ولا يخلفه ، ولكنه كان إذا وعد ربه ، أو عبداً من عباده وعداً وفّى به^(٤).

وفي قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾.

يقول ابن كثير في تفسيره : « في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه

(١) تفسير ابن كثير : (٥٤١/٢).

(٢) قصص الأنبياء ؛ لابن كثير باختصار : (ص١٤٧).

(٣) سورة مريم : الآية ٥٤.

(٤) انظر : تفسير ابن كثير : (١٢٦/٣) ، تفسير الطبري : (٩٥/١٦).

إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة^(١) .

وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قَرِيشاً مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٢) .

ومجموع الصفات التي وصف الله بها إسماعيل عليه الصلاة والسلام في القرآن والمقرونة باسمه المذكور صريحاً في الآيات هي :

أنه ﷺ رسولٌ نبيٌ ، وهو صادق الوعد ، وكان يأمر أهله بالصلاة ، والزكاة ، وهو مرضيٌ عند الله ، وهو من الصابرين الصالحين المرحومين ، كما أنه من الأخيار الذين اختارهم الله ، واصطفاهم عليهم الصلاة والسلام^(٣) .

وقد بعث الله إسماعيل ﷺ نبياً ، إلى العرب كما سبق ذكر ذلك ، ولم يبعث الله من نسل إسماعيل إلا نبياً واحداً هو أفضل وأشرف ، وخاتم الأنبياء المرسلين ، محمد ﷺ . بينما بعث أنبياء كثيرين من نسل نبي الله إسحاق ﷺ هم أنبياء بني إسرائيل^(٤) .

وقد أخبر الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم أن الله ﷻ قد اصطفاه من نسل إسماعيل ، كما في الحديث الآنف الذكر .

روى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، قال : «خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون^(٥) بالسوق ، قال عليه الصلاة والسلام : «ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، وأنا مع بني فلان ، فأمسكوا بأيديهم ، فقال : ما لهم؟ قالوا : كيف نرمي ، وأنت مع بني فلان؟

(١) انظر : تفسير ابن كثير : (١٢٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب : فضل نسب النبي ﷺ : (١٧٨٢/٤) ، برقم : (٢٢٧٦) .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : (١٢٦/٣ - ١٢٧) ، تفسير القاسمي : (٨٤/٥) ، تفسير الرازي : (١٩٩/١) .

(٤) مأخوذ بتصرف وزيادة ، انظر : حاشية البجيرمي : (٢٢١/١) ، ويراجع كتاب «فصول من السيرة» : (٢١٤/١) .

(٥) (ويتناضلون) : انتضل القوم وتناضلوا : رموا للسبق ، والمراد : يتسابقون في الرماية ، والانتضال بالسهما ، انظر : تاج

العروس : (٥٠٢/٣٠) .

قال ارموا، وأنا معكم كلكم»^(١).

وقد سبق الحديث عن إسماعيل عليه السلام، في فصل أبناء الأنبياء، وذكر قصة الذبيح، وحديث العلماء واختلافهم، فلا داعي لتكرار ذلك هنا.

وخلاصة القول إن الله تبارك وتعالى قصّ علينا من خبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثلاث قصص في كتابه العزيز، وفي كل هذه القصص عبر، ومحن لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

أولاً: أمر الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بترك إسماعيل، وأمه في وادٍ غير ذي زرع، مقفر لا ماء فيه ولا طعام، وكانت هناك حكمة إلهية عليا في أمر الله سبحانه لإبراهيم، فقد كان إسماعيل الطفل الذي ترك مع أمه في هذا المكان، وهو ووالده من سيقومان ببناء الكعبة بعد ذلك، فكانت حكمة الله تقضي أن يسكن من ذرية إبراهيم في هذا الوادي؛ ليجعل أفئدة من الناس تهوي إلى هذا المكان.

ثانياً: البلاء العظيم الذي وصفه الله تعالى بأنه عظيم عندما أمر نبيه وخليته إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، بعد أن رأى ذلك في المنام، وامثال الابن بقوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

ثالثاً: أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام ببناء البيت الحرام، ومشاركة ابنه إسماعيل في هذا البناء، وهو أول بيت وضع للناس في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {١٢٧} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: نسبة اليمن إلى إسماعيل منهم: أسلم بن أفضى بن حارثة بن عمر، وابن عامر من خزاعة: (١٢٩٢/٣)، رقم: (٣٣١٦).

(٢) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٧ - ١٢٨.

إسحاق عليه السلام:

إسحاق عليه السلام، أخُ لإسماعيل، وليس بشقيق له، فهو الابن الثاني لإبراهيم عليه السلام، وقد بشره الله ووهبه له على كبر، فكان إسماعيل هو الأول، وبين إسماعيل وإسحاق سنوات. «فإسماعيل أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين، وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعون سنة»^(١).

ومواضع ذكر إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام في القرآن أكثر من مواضع ذكر أخاه إسماعيل عليه السلام، إلا أن القرآن الكريم لا يذكر عنه إلا لمحات سريعة من حيث البشري بولادته من أبوين، قد بلغ منهما الكبرعتياً، والبشارة أيضاً بابنه يعقوب، وثناء الله عليه بأنه نبي من الصالحين.

وأما عن حياته، ودعوته، وصلته بأبيه إبراهيم عليه السلام، أو بأخيه إسماعيل عليه السلام، فلم يفصل القرآن الكريم قصة إسحاق عليه السلام كما فصل غيرها من قصص الأنبياء، أو كما ذكر عن أخيه إسماعيل عليه السلام، على الرغم من ورود ذكره سبع عشرة مرة في كتاب الله.

- إسحاق عليه السلام هو الغلام العليم:

ذَكَرَ اللهُ ﷻ إسحاق عليه السلام في مواضع عدة من آيات القرآن الكريم، ووصفه الله تبارك وتعالى بأنه (عليم)، عندما بشرت به الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَنَبَّأَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ { ٥١ } إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ { ٥٢ } قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾^(٢).

والغلام العليم الذي بشره به هو إسحاق عليه السلام، كما صرحت بذلك آيات سورة هود، وغيرها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا

(١) تفسير ابن كثير: (١٥/٤).

(٢) سورة الحجر: الآيات ٥١ - ٥٣.

لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ {٦٩} فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ {٧٠} وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿^(١)

وقد وصفه الله تعالى في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ {٢٤} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ {٢٥} فَرَغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ {٢٦} فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ {٢٧} فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿^(٢)

وقد تحدث عنه القرآن ووصفه أيضاً بقوله: ﴿ وَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٣).

﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾^(٤).
 ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٥).
 ﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {٤٥} إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ {٤٦} وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴾^(٦).

وهكذا وصف لنا القرآن الكريم أبرز سمات هذا النبي العليم:

أنه ﴿ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾، و ﴿ وَمَبَارَكٌ ﴾.

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ - ٧١.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ٢٤ - ٢٨.

(٣) سورة الصافات: الآية ١١٢.

(٤) سورة الصافات: الآية ١١٣.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٢٧.

(٦) سورة ص: الآيات ٤٥ - ٤٧.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾، و﴿عَلِيم﴾، و﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾، و﴿أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾،
و﴿مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾، ﴿الْأَخْيَارِ﴾.

- إسماعيل النبي الحليم وإسحاق هو النبي العليم :

والم تأمل في حديث القرآن عن إسماعيل، وإسحاق عليهما السلام يجد أن الله قد وصف
إسماعيل بالحلم، وإسحاق بالعلم.

كما وصف والدهما في كثير من الآيات، فقد وصفه سبحانه في كتابه الكريم بقوله :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(١).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٢).

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٣).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(٤).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾^(٥).

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٦).

فوصف الله ﷻ إسماعيل عندما بشره بوالده، بقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٧)، فهو

يحمل صفة أبيه، ويكتسب منه صفة الحلم، كما وصف أباه من قبل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ
أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

(١) سورة النحل: الآية ١٢٠.

(٢) سورة مريم: الآية ٤١.

(٣) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٤) سورة هود: الآية ٧٥.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٥١.

(٦) سورة الصافات: الآية ١٠٩.

(٧) سورة الصافات: الآية ١٠١.

وكذلك إسحاق وصفه بأنه عليم: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾^(١)، ووصفه بأنه من الصالحين: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

قال ابن جرير في تفسيره: «﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: بإسحاق، و(عليم)، بمعنى: عالم إذا كبر، وروي عن مجاهد في قوله: ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، قال: إسماعيل، وإنما قلت: عنى به إسحاق؛ لأن البشارة كانت بالولد من سارة، وإسماعيل لهاجر لا لسارة»^(٣) انتهى.

ويقول القرطبي في تفسيره: «﴿وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، أي: بولد يولد له من سارة زوجته...، ومعنى (عليم)، أي: يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه. والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق.

وقال مجاهد وحده: هو إسماعيل، وليس بشيء، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ وهذا نص»^(٤). انتهى كلامه.

فيشير القرطبي بذلك إلى أن آيات سورة الصافات ذكرت البشرية بإسحاق بعد ذكر البشرية بالغلام الحليم، وهو إسماعيل عليه السلام.

ويقول الشوكاني - رحمه الله - في «فتح القدير»: «﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ والعليم: كثير العلم، وهذا الغلام: هو إسحاق كما تقدم في هود»^(٥). انتهى.

ويقول أيضاً: «﴿وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بشروه بغلام يولد له، كثير العلم عندما يبلغ مبالغ الرجال، والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق عليه السلام، وقال مجاهد وحده: أنه

(١) سورة الحجر: الآية ٥٣.

(٢) سورة الصافات: الآية ١١٢.

(٣) تفسير الطبري باختصار: (٢٠٨/٢٦).

(٤) تفسير القرطبي: (٤٦/١٧).

(٥) تفسير فتح القدير: (١٣٤/٣).

إسماعيل عليه السلام، وهو مردود بقوله: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾^(١). انتهى.
وبهذا يتبين أن الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم هو إسماعيل والغلام العليم هو إسحاق عليهم السلام جميعاً.

فقد جُمعت هذه الصفات في آل بيت إبراهيم الخليل إسماعيل، وإسحاق عليهم السلام أجمعين. وهذا البيت مثل للحلم، والعلم، والإنابة والاستسلام لرب العالمين لذا اصطفاهم الله على العالمين، وجعلهم إماماً وقدوةً للصالحين.

- حرص إبراهيم عليه السلام على ابنه إسماعيل وإسحاق:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٢).

وهذا الحديث يدل على حرص إبراهيم عليه السلام على ابنه إسماعيل وإسحاق. وكذلك في قول النبي ﷺ: «إن أباكما كان يعوذ بها» يدل على كثرة تعويد إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام بالدعاء المذكور.

وهكذا كان الرسول الكريم ﷺ يكثر تعويد سبطيه الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام مع ابنه.

يقول العلامة العيني^(٣) في شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان النبي يعوذ» إخبار ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: (كان)، يدل على أنه ﷺ كان يكثر التعويد، بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٤). والعين اللامة هي التي تصيب

(١) تفسير فتح القدير: (٨٨/٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: يزفون، النسلان في المشي: (١٢٣٣/٣)، برقم: (٣١٩١).

(٣) هو محمود بن أحمد العيني الحنفي، صاحب كتاب «عمدة القاري»، شرح صحيح البخاري، انظر: الضوء اللامع: (١٣٥/١٠)، بغية الوعاة (٢/٣٩٧).

(٤) عمدة القاري: (٢٦٥/١٥).

بسوء^(١).

فدل دلالة واضحة على حرص النبيين الكريمين على حفظ ذريتهما من كل سوء، واقتداء نبي الله محمد ﷺ بأبيه إبراهيم عليه السلام في الخير، والحرص على الذرية بأن تُنال بسوء قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾^(٢).

ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة لكل مؤمن، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣).

(١) عمدة القاري: (٢٦٥/١٥).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

الدروس المستفادة من هذا البحث:

- ١- الإيمان بأن الدنيا هي دار ابتلاء، وأن الصبر على الابتلاء هو الطريق الموصل إلى رضا الله، وأن كل ابتلاء يقود إلى الفرج، إذا تحمله العبد بشيء من الرضا والصبر، والتسليم لقضاء الله وقدره، مع الإيمان التام بأنه الخير كله، وأن جزاء الصبر على الابتلاء عظيم في الدنيا قبل الآخرة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل...»^(١).
- ٢- معجزة ميلاد نبي الله إسحاق عليه السلام، حيث كان ميلاده أمراً خارقاً للعادة، بشرت به الملائكة كما جاء ذلك في القرآن.
- ٣- أن الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم هو إسماعيل، والغلام العليم هو إسحاق عليهم السلام جميعاً، وهذا هو رأي الجمهور من العلماء.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر، ذكر الأخبار عما يجب على المرء من توطين النفس على تحمل ما يستقبلها من المحن والمصائب: رقم (٢٩٠٠)، (١٦٠/٧)، وانظر: سنن النسائي الكبرى: (٣٥٥/٤)، والمستدرک علی الصحیحین: (١٠٠/١).

المبحث الرابع

آل إبراهيم وآل عمران وقرابتهم بالأنبياء

سبقت الإشارة إلى كلمة (آل) في القرآن أنها وردت في أكثر من موضع، وأطلقت تارةً على أهل بيت الرجل وقرايته، كقوله تعالى ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، وأطلقت تارةً على أتباع الرجل ومواليه، كقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢). والمراد بآل إبراهيم، وآل عمران، هنا هم أهل وذريته، وإن كان العلماء من المفسرين قد أطلقوا على آل إبراهيم، وآل عمران في الآية أن المراد بهم المؤمنون من قومهم وأتباعهم ومواليهم، ومن هو على دينهم^(٣).

وفي صحيح البخاري، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ» قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد ﷺ، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

إلا أن آل إبراهيم، وآل عمران هنا يراد منه أهل بيته، وقرايته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {٣٣} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٣٤} إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٣٥} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي

(١) سورة الحجر الآية (٥٩).

(٢) سورة غافر الآية (٤٦).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٣٤/٣).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء، باب: (قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾) وأن الله

اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين: (١٢٦٤/٣).

أَعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ { ٣٦ } فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا... ﴿١﴾ .

والآل: آل الشخص من يؤول إليه، ولهذا لا يستعمل إلا في تعظيم، بحيث يكون المضاف إليه أعظم من المضاف، يصلح أن يؤول إليه الآل: كآل إبراهيم، وآل لوط... ﴿٢﴾ .

ويخبر الله تعالى في هذه الآيات: أنه اصطفى، واختار المذكورين هنا على العالمين، فاصطفى آدم؛ لأنه أبو البشر، واصطفى نوحاً؛ لأنه أبو البشرية الثاني، حيث أغرق الله الكافرين جميعاً بالطوفان، ولم يبق على وجه الأرض من البشر إلا نوح والذين آمنوا معه ﴿٣﴾ .

واصطفى آل إبراهيم، وهو إبراهيم الخليل الذي اختصه سبحانه بخلته، وكرامته، وجعله الله أسوة يقتدى به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فقال سبحانه عن نبيه إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ﴿٤﴾ . وأفاض وأنزل على أهل بيته رحمته وإحسانه وبركاته فقال: ﴿رَحْمَةً لِّأَهْلِ الْبَيْتِ﴾ ﴿٥﴾ أي أهل بيت إبراهيم، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده؛ لأنهم من ذريته، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ ﴿٦﴾ .

- من هو عمران المذكور في الآية:

اصطفى الله آل عمران، وعمران هو عمران بن ماثان والد مريم البتول رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، والدة عيسى النَّبِيِّ، وليس بعمران والد موسى النَّبِيِّ.

وقد ورد اسم عمران في ثلاثة مواضع من القرآن:

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٣ - ٣٧.

(٢) كتب رسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير: (٢٩٢/١٣).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٢٩)، تفسير ابن كثير (١/٣٥٩)، تفسير السعدي (١/١٢٨).

(٤) سورة العنكبوت الآية (٢٧).

(٥) سورة هود الآية (٧٣).

(٦) انظر: تفسير السعدي (١/١٢٩).

الأول في حديث القرآن عن آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

والثاني في حديث القرآن عن امرأة عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾^(٢).

والثالث في حديث القرآن عن بنت عمران: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾^(٣).

وهناك شخصان من بني إسرائيل، كل منهما اسمه عمران، وبينهما فترة زمنية طويلة، فيقال بين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة^(٤).

وعمران الأول: هو عمران والد نبي الله موسى عليه السلام.

والدليل على أن والد موسى اسمه عمران ما أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مرت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام...»^(٥).

فنسب الرسول صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام إلى أبيه عمران، وذكر الله من أهله، زوجته أم موسى، وفعالها عندما أنجبت ابنها موسى، وذكر ابنته التي أمرتها أمها بمراقبة أخيها موسى عليه السلام، وهارون شقيق موسى، فهؤلاء هم أهل بيت عمران والد موسى عليه السلام.

وعمران الثاني: هو عمران والد مريم، أم عيسى عليه السلام، وذكر القرآن امرأته، وحملها بمريم، ونذرها لله، وذكر أيضاً أخا مريم، واسمه (هارون)، كما قال تعالى: ﴿يَا أُخْتَ

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٥.

(٣) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٤) انظر: تفسير الكشاف: (٣٨٣/١)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٤٥٣/٢)، تفسير الرازي: (٢٠/٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات، وفرض الصلوات:

(١٥١/١)، برقم: (١٦٥).

هَارُونَ^(١).

وقد بين لنا الرسول ﷺ أن عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا عليهما السلام: هما أبناء خالة، كما ذكرت ذلك في فصل أبناء الأنبياء.

وهذا يعني أن زكريا عليه السلام كان متزوجاً بابنة عمران أخت مريم ابنت عمران^(٢)، فآل عمران هذا ذكروا في القرآن، بعمران، وامراته، وابنته زوجة نبي الله زكريا، وابنته مريم أم عيسى عليه السلام، وابنه هارون.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن آل عمران الذين اصطفاهم الله تعالى على العالمين في الآية السابقة هم: آل عمران الأول: والد موسى وهارون^(٣)، وذهب آخرون إلى أن آل عمران هم: مريم وابنها عليه السلام وأمها وأخوها.

يقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره: «﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ يخبر الله أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً عليه السلام، جعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض... واصطفى آل إبراهيم،

(١) ذكر ذلك القرطبي في تفسيره: (٦٢/٤)، وانظر: تفسير الكشاف: (٣٨٣/١)، تفسير الرازي: (٢٠/٨)، تفسير البحر المحيط: (٤٥٣/٢)، تفسير البيضاوي: (٢٩/٢).

(٢) كما ذكرت في الفصل السابق: «أزواج الأنبياء»: أن زوج زكريا عليه السلام إيشاع، قد قيل: إنها خالة مريم، وقيل: إنها أخت مريم. كما ذكر القرطبي عن تفسير قوله تعالى: (وكانت امرأتي عاقراً). امرأته هي «إيشاع» بنت فاقوذا بن قبييل، وهي أخت حنة (امرأة عمران) بنت فاقوذا، قاله الطبري، و«حنة» هي أم مريم.

وقال القرطبي: امرأة زكريا: هي «إيشاع بنت عمران» فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة، وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه ...

وفي حديث الإسراء، قال عليه الصلاة والسلام: «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى» فهذا شاهد على أن أم عيسى وأم يحيى عليهما السلام بنات عمران بن ماثان.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٧٩/١١)، تفسير الطبري: (٢٣٥/٣).

ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، واصطفى آل عمران، والمراد بعمران هذا هو والد مريم ابنة عمران أم عيسى ﷺ^(١).

- آل عمران هم أهل بيت عمران والد مريم:

والراجع أن آل عمران في الآية المذكورة هم: آل عمران والد مريم أم عيسى ﷺ.

ويؤيد ذلك ما قال الله ﷻ بعدها: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ على أثر قوله: ﴿ وَآلِ عِمْرَانَ ﴾، مما يرجح أن عمران هو: عمران جد عيسى ﷺ، ووالد مريم البتول^(٢).

ويقول الزمخشري في تفسيره: «فإن قلت: كان لعمران بن يصهر - وهو والد موسى ﷺ - بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهارون، ولعمران بن ماثان - والد مريم البتول - أيضاً مريم البتول، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول، دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهارون؟!»

قلت: كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول؛ لأن زكريا ﷺ، وعمران بن ماثان والد مريم البتول، وجد عيسى ﷺ، كانا في عصر واحد، وقد تزوج زكريا بابنة عمران «إيشاع» أخت مريم البتول، فكان يحيى وعيسى ابني خالة^(٣).

ويقول أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط»: «والظاهر في عمران أنه أبو مريم، وجد عيسى ﷺ - لقوله بعد ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ فذكر قصة مريم وابنها عيسى، ونص على أن الله اصطفاها بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾^(٤)، فقوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ كالشرح لكيفية الاصطفاء، لقوله وآل عمران، وصار نظير تكرار

(١) تفسير ابن كثير: (٣٥٩/١).

(٢) انظر: تفسير الكشاف: (٣٨٣/١).

(٣) تفسير الكشاف: (٣٨٣/١).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

الاسم في جملتين ، فيسبق الذهن إلى أن الثاني هو الأول...»^(١).

ويقول الألوسي في تفسيره: «إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴿تَقْرِيرٌ لِلصُّطْفَاءِ﴾ ، وبيان لكيفيته»^(٢).

- آل إبراهيم وآل عمران ذرية بعضها من بعض:

أخبر الله في الآيات أن هؤلاء المفضلين على العالمين: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ ، أي: أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض ، موسى وهارون من عمران ، وعمران من يصهر ، ويصهر من فاهث ، وفاهث من لاوي ، ولاوي من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق بن إبراهيم^(٣).

وكذلك عيسى بن مريم بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود بن إيشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم^(٤).

وقد دخل في آل إبراهيم الرسول ﷺ ، وقد قيل: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ في الدين ، كقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٥).

ويقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره للآيات: «والمراد بعمران في الآية ، والد مريم بنت عمران ، قال محمد بن إسحاق^(٦) بن يسار - رحمه الله - هو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا

(١) تفسير البحر المحيط ؛ لأبي حيان : (٤٥٣/٢).

(٢) تفسير روح المعاني : (١٣٣/٣).

(٣) انظر : تفسير الكشاف (٣٨٣/١).

(٤) انظر : تفسير الكشاف (٣٨٣/١).

(٥) سورة التوبة ، الآية : ٦٧ . وانظر : تفسير الكشاف : (٣٨٣/١) ، وتفسير البيضاوي : (٢٩/٢).

(٦) محمد بن إسحاق يسار بن خياز : أحد الأعلام ، وصاحب المغازي ، رأى أنساً وسعيد بن المسيب ، ومولده في نيف وثمانين ، وكان جده يسار من السبي ، وهو أول سبي دخل المدينة من العراق ، حدث عن أبيه وعمه موسى بن يسار ، وعطاء والأعراج وسعيد وغيرهم ، وقال عنه البخاري : ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها ، مات سنة ١٥٠ ، انظر : الوافي بالوفيات (١ / ٢٢٨) ، والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة : (٤٤٨/٢).

بن إيان بن رخم بن سليمان بن داود عليهما السلام، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم...»^(١).

ويبين الله تعالى في هذه الآيات وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {٣٣} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علو درجات الرسل، وشرف مناصبهم^(٢).

واشتراكهم في الاصطفاء، والاختيار، وفي القدر المشترك من التفضيل، لا يدل على التساوي في مراتب التفضيل ذاتها^(٣).

فقد اصطفى آدم، أبا البشر، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأول مخلوق من البشر.

واصطفى نوحاً عليه السلام؛ لأنه أول رسول، وأبو البشرية الثاني، حيث كان الطوفان عاماً في عهده، وأغرق الله فيه جميع الكفار، ولم يبق حياً إلا نوحاً وأتباعه المؤمنين.

وعندما ذكر اصطفاء إبراهيم عليه السلام، ذكر تفضيل آل إبراهيم؛ لأنه أبو الأنبياء عليهم السلام، ومعظم الأنبياء الذين جاءوا من بعده من ذريته، فهم آله وأتباعه.

وأساس آل إبراهيم، هو إبراهيم نفسه عليه السلام ((وقد خص الله إبراهيم عليه السلام دون غيره من الأنبياء بمزيد فضل، وثناء، وإن كانوا كلهم مائلين إلى الحق، مستقيمي الطريقة حنفاء، إلا أن الله خص إبراهيم بالإمامة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

وإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وبنوه معظمون في جميع الأمم والملل^(٥)، قال

(١) تفسير ابن كثير: (٣٥٩/١).

(٢) انظر: تفسير الرازي: (١٨/٨).

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط: (٤٥٤/٢).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٥) تفسير المحرر الوجيز: (٢٠/٤).

تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾^(١).

وآل عمران هم: عمران وأهله المذكورون في سورة آل عمران، وقد كرم الله هذا البيت باصطفائهم، وبتسمية سورة كاملة في القرآن باسمهم، واصطفاهم، بل وقرنوا مع آل إبراهيم، ومع آدم، ونوح عليهم السلام.

فعمران جد نبين من أنبياء الله، هما يحيى عليه السلام، ابن ابنته وهي زوجة زكريا، والتي لم يذكر لها القرآن اسماً^(٢).

وعيسى عليه السلام، وهو ابن ابنته مريم البتول سيدة نساء العالمين، والتي خصها الله أيضاً بالاصطفاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

وقد شهد قوم مريم بطهارة، وصلاح بيت آل عمران، فقالوا: ﴿يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾^(٤).

فشبهوها بأخيها هارون في العبادة، وكذلك قالوا: إنك من بيت طيب، طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة^(٥).

وكما ذكر ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره بأنه كان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل، فكان يؤمهم في الصلاة^(٦).

ذكرت الآيات قصة امرأة عمران، المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ

(١) سورة هود: الآية ٧٣.

(٢) على القول بأن يحيى وعيسى هما ابنا الحالة، كما جاء في الحديث الصحيح؛ لأنه يدل على أن أم يحيى عليه السلام، وأم عيسى عليه السلام (مريم) كانتا أختين فهما ابنتا عمران.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

(٤) سورة مريم: الآية ٢٨.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير، بتصرف: (١١٩/٣).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٦٤/١) بتصرف.

وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾، وقصة هذه المرأة جاءت عقيب ذكر الله اصطفاً هذه الأسرة المباركة، فجاء ذكرها تقريراً لهذا الاصطفاء، فهي أم مريم البتول المصطفاه، وجدة عيسى نبي الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

- امرأة عمران تنذر حملها لله:

قال ﷺ عنها: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

وقد ذكر المفسرون اسم امرأة عمران فقالوا: اسمها «حنة ابنة فاقوذ بن قتيل»^(٢).

فذكرت الآيات عن امرأة عمران أنها نذرت ما في بطنها محرراً، أي: خالصاً لوجه الله تعالى منقطعاً لعبادته، ولخدمة بيت المقدس^(٣)، والمحرر: هو الخالص لله ﷻ^(٤).

فعن مجاهد قال: «إن المحرر: هو الخالص لله ﷻ، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى»^(٥).

وقيل إن هذا التحرير لم يكن جائزاً إلا في الغلمان، أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيبها من الحيض، والأذى، ثم إن حنة نذرت مطلقاً: إما لأنها بنت الأمر على التقدير، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر^(٦).

ويقول ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير: «... محرراً: أي مخلصاً لخدمة بيت المقدس، وكانوا ينذرون ذلك إذا كان المولود ذكراً، وإطلاق المحرر هذا المعنى، إطلاق

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٣٥/٣)، تفسير ابن كثير: (٣٦٠/١)، تفسير القرطبي: (٦٥/٤)، تفسير الكشاف:

(٣٨٣/١)، تفسير روح المعاني: (١٣٣/٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٣٥/٣).

(٤) معاني القرآن؛ للنحاس: (٣٨٥/١).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٦٦/٤ - ٦٧).

(٦) انظر: تفسير الرازي: (٢٣/٨).

تشريف ؛ لأنه لما خلص لخدمة بيت المقدس فكأنه حُرر من أسر الدنيا وقبورها إلى حرية عبادة الله تعالى...»^(١).

فطلبت امرأة عمران من المولى ﷺ أن يتقبل نذرها بقبول حسنٍ، قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، لتضرعي ودعائي وندائي، والعليم بما في ضميري وقلبي ونيتي^(٢).

والتقبل: قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً، ومنه قبول الهدية ونحوها، والله جل وعلا لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له ﷻ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣)، وقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾^{(٤)(٥)}.

وإن هذا الدعاء من امرأة عمران بأن يتقبل منها نذرها، يدل على خشوعها وخضوعها لله ﷻ، وعلى الإخلاص لله في العبادة بالتضرع إليه، والتوجه إليه.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٦).

«كأنها تشوقت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة، وأعظم موقفاً، فعني كلامها اعتذاراً إلى ربها، ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾»^(٧).

فقولها هذا للاعتذار، وليس للإعلام ؛ لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، فالله ﷻ أعلم بما وضعت.

(١) تفسير التحرير والتنوير: (٨٥/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٣/٨).

(٣) سورة المائدة، الآية (٢٧).

(٤) سورة الأحقاف، الآية (١٦).

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن (٣٩١/١).

(٦) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٧) تفسير السعدي: (١٢٩/١).

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ أي: في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى^(١).

يقول الرازي في تفسير هذه الآيات: «ثم قال تعالى حكاية عنها: ﴿ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ وفيه قولان:

الأول: أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه:

أحدها: أن شرعهم يجوز تحرير الذكور دون الإناث.

والثاني: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى؛ لمكان الحيض وسائر عوارض النساء.

والثالث: الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى؛ فهي ضعيفة لا تقوى على الخدمة.

الرابع: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس، وليس كذلك الأنثى... فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر كأنها قالت الذكر مطلوب، والأنثى موهوبة لي، وليس الذكر الذي يكون مطلوب، كالأنثى التي هي موهوبة الله لي. وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريد العبد لنفسه^(٢).

وقالت: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾، قيل: إن عمران زوجها هلك، وهي حامل بمريم^(٣).

وقد قيل إنها إنما استقلت بالتسمية لكون أبيها قد مات، وأمها حامل بها، فتقديم المسند إليه للتخصيص، يعني التسمية مني لا يشاركني فيها أبوها^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٦٠/١).

(٢) تفسير الرازي؛ : (٢٤/٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٣٥/٣)، تفسير الكشاف: (٣٨٣/١).

(٤) انظر: تفسير روح المعاني: (١٣٦/٣).

كذلك وأنها أرادت من تلك التسمية وعرضها على الله تعالى، التقرب إليه سبحانه، وطلباً، واستدعاءً للعصمة لها فإن «مريم» في لغتهم: بمعنى العابدة^(١).

قال المفسرون: «هي في لغتهم بمعنى العابدة، سمتها بذلك رجاءً وتفاؤلاً أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها»^(٢).

يقول ابن حجر: «ومريم بالسريانية تعني الخادم»^(٣).

ومن الأمور التي دعت بها امرأة عمران بعد أن وضعت ابنتها مريم، قولها: ﴿وَأِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، وفي تكرار قولها ﴿وَأِنِّي﴾ هنا للتأكيد، ولتغيير المخبره، لأنه قد يشعر كلامها السابق أنها كارهة لما جاءها، فأكدت في كلامها هذا: إظهاراً لرضاها بما قدر الله تعالى، ولذلك انتقلت للدعاء لها الدال على الرضا والمحبة^(٤).

وفي دعاء امرأة عمران لربها دلالة واضحة على حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها ابنتها التي وهبت لها، وأن يربها حتى تكبر وتكون لها ذرية، وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران.

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من الشيطان، غير مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَأِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٥).

(١) انظر: تفسير روح المعاني: (١٣٦/٣).

(٢) انظر: تفسير القاسمي: (٥٨/٢).

(٣) فتح الباري: (٤٦٩/٦).

(٤) انظر: التحرير والتوير؛ لابن عاشور: (٨٧/٣).

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ...﴾: (١٢٦٥/٣)،

برقم: (٣٢٤٨)، ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام:

(١٨٣٨/٤)، برقم: (٢٣٦٦).

فتقبل الله دعاء ومناجاة امرأة عمران ، والتي طلبت من ربها ﷻ أن يتقبل منها نذرهما ، وأن يعيدها وذريتها من الشيطان الرجيم .

قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا... ﴾ ^(١) ، فتقبل الله مريم من أمها نذيرة ، وأن تكون محررة لعبادته ، وخدمة بيته ^(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ بِقَبُولٍ ﴾ ، ولم يقل «بتقبل» : للجمع بين الأمرين : التقبل الذي هو الترقى في القبول ، والقبول الذي يقتضي الرضا والإثابة ^(٣) .

يقول الألوسي في تفسيره : « ... والمعنى فاستقبلها ربها ، وتلقاها من أول وهلة من ولادتها بقبول حسن ، وأظهر الكرامة فيها » ^(٤) .

ويقول الرازي : « وقال : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ، ولم يقل بتقبل حسن ؛ لأن القبول والتقبل متقاربان ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ^(٥) أي : إنباتاً ، والقبول مصدر قولهم : قبل فلان الشيء قبولاً ، إذا رضيه » ^(٦) .

وذكر أيضاً : فرقا بين القبول والتقبل حيث قال : «التقبل يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار الفعل كالتصبر ، والتجلد ونحوهما ، فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والتجلد ، فكذا هاهنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول » ^(٧) .

ومع قبولها عند الله قبولاً حسناً ، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً ، قوله : ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ، مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير بتصرف : (١/٣٦٠) .

(٣) انظر : تفسير القاسمي : (٢/٥٨) .

(٤) تفسير روح المعاني : (٣/١٣٨ - ١٣٩) .

(٥) سورة نوح : الآية ١٧ .

(٦) تفسير الرازي : (٨/٢٥) .

(٧) تفسير الرازي : (٨/٢٥) .

أحوالها^(١).

ويقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره: « جعلها شكلاً مليحاً، ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم العلم، والخير، والدين، فلهذا قال: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾»^(٢).

وقد جاءت روايات إسرائيلية في قصة امرأة عمران والدة مريم، وذلك فيما يتعلق في أنها نظرة لطير يزق فرخاً له، فاشتتهت الولد لما رأت ذلك، وقد ذكر هذه الرواية من المفسرين ابن كثير وابن عطية^(٣).

وهذا الأثر وما في معناه مما ذكر في كتب التفسير من الآثار الإسرائيلية التي لم تصح عن الرسول ﷺ^(٤).

(١) انظر: تفسير الكشاف: (٣٨٦/١).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣٦٠/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٦٠/١)، و تفسير المحرر الوجيز (٤٢٤/١).

(٤) انظر: موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٣٣٣/١).

الفوائد المستنبطة من هذا البحث:

١ - اصطفى الله إبراهيم وآل إبراهيم على العالمين، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بُعثوا من بعده؛ لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم نبينا محمد ﷺ، فهو سيد المرسلين، وإمام الأولين والآخرين. واصطفى الله آل عمران، وهو والد مريم بنت عمران، والمذكورة سيرتهم في سورة آل عمران.

فهذه البيوت التي ذكرها الله ﷻ، صفوته من العالمين^(١).

٢ - ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء؛ أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرها عنهم، وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، ولو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة، ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً^(٢).

٣ - ومن قصة امرأة عمران المذكورة في الآية الكريمة، يتبين أنها مثال للمرأة المؤمنة العابدة الصالحة الشاكرة، ويتجلى ذلك بكثرة مناجاتها لله جل وعلا، وتضرعها إليه بأن يتقبل الله نذرها، وأن يعيدها ما أنجبت وذريتها من الشيطان الرجيم. كما أن في استجابة الله لدعائها، دليل على قوة إيمانها، وإخلاصها لله تعالى ﷻ، وعظيم تقواها لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

٤ - امرأة عمران نموذج للأم التي تستشعر عظيم مسؤوليتها تجاه أولادها، ويبدو ذلك واضحاً في حرصها على أن يكون ما في بطنها عابداً لله، خادماً لدينه ﷻ، وكذلك في دعائها لله أن يعيدها وذريتها من الشيطان الرجيم.

(١) انظر: تفسير السعدي: (١/١٢٩).

(٢) تفسير السعدي: (١/١٢٩).

(٣) سورة المائدة: الآية ٢٧.

٥- ومن قصة امرأة عمران أيضاً يستفاد اختيار أسماء الأولاد، وهذا ما فعلته، حيث سمت ابنتها مريم، والذي يعني بلغة قومها: العابدة، أو الخادمة؛ لأن هذا من حق الولد على أهله، أن يحسنوا تسميته.

٦- تكريم البنت، والفرح بولادتها، وعدم التبرم بذلك؛ لأن هذا من الجاهلية التي ذمها الله ﷻ في كتابه، وكما أن في تربية البنات الفضل الكبير، والذي دلت عليه أحاديث الرسول ﷺ، ففي حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، والذي رواه البخاري في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء كنَّ له ستراً من النار»^(١).

ومن إكرامهن، حسن تربيتهن، وفق ما يحبه الله ويرضاه، كما فعلت امرأة عمران مع ابنتها مريم العابدة، والتي اصطفاها الله، وجعلها سيدة نساء العالمين.

٧- التواضع لله ﷻ؛ لأن هذه الصفة من أعظم صفات العبودية، فرغم مكانة عائلة آل عمران والتي كانت تنعم بها في ذلك الزمان «فرب الأسرة عمران، وكان إمام العباد، وصاحب صلاتهم، والنبي زكريا عليه أفضل الصلاة والسلام، كان زوجاً لابنتهم (إيشاع) كما في بعض الروايات، وهذا هو الأظهر والله تعالى أعلم؛ لأن هذا القول يؤيده قول رسول الله ﷺ في حديث الإسراء: «فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»^(٢).

ورغم هذه المكانة إلا أن امرأة عمران لم تتحرج عن نذر ما في بطنها ليكون خادماً في بيت المقدس، فكان نتاج صلاح هذه العائلة أن خلد الله ﷻ ذكرهم في القرآن الكريم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: (اتقوا النار ولو بشق تمره والقليل من الصدقة): (٥١٤/٢)، برقم: (١٣٥٢).

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: المعراج: (١٤١٠/٣)، برقم: (٣٦٧٤).

الفصل الخامس

أضياف الأنبياء

المبحث الأول: أضياف النبي محمد ﷺ.

المبحث الثاني: أضياف نبي الله إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثالث: أضياف نبي الله لوط عليه السلام.

الفصل الخامس

أضياف الأنبياء

مدخل :

إن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام أكرم الخلق على الإطلاق، كيف لا وقد اصطفاهم الله تعالى لرسالاته، فهم المصطفون الأخيار، ومكارم الأخلاق، وجميل الخصال من صفاتهم عليهم السلام.

وكرم الأنبياء لا يقتصر فقط على كرم الضيافة بكافة صورها وأشكالها، بل إنهم كرماء في جميع أفعالهم، فالكرم يُطلق على كل ما يحمده من الأفعال.

وقد قص الله علينا من خبر الأنبياء مع أضيافهم في كتبه العزيز، ومن خلال هذه الآيات يضرب الأنبياء أعظم المثل في إكرامهم للضيف، بل إن العلماء أخذوا آداب الضيافة من فعل نبي الله إبراهيم عليه السلام مع أضيافه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في هذا الفصل.

فإكرام الضيف من جميل الخصال التي تحلى بها الأنبياء وحثوا عليها.

يقول القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: « والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين»^(١).

(١) تفسير القرطبي: (٦٤/٩).

المبحث الأول

أضياف النبي محمد ﷺ

- أولاً ما ورد في سورة الأحزاب:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا^(١) .

هذه الآية قد تضمنت الحديث عن بعض أضياف رسول الله ﷺ، والذين كانوا جلوساً في بيت النبي ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، حيث أولم الرسول ﷺ في ليلة عرسه من زينب ودعا الناس، وبعد أن أكل هؤلاء نفر، مكثوا في بيت الرسول يتحدثون، فثقلوا على رسول الله ﷺ.

وإن كانت هذه الآية قد تضمنت عدة أمور وأحكام، إلا أن الله ﷻ ذكر فيها الحديث عن هؤلاء الأضياف، وكيف أثقلوا على أكرم الخلق ﷺ.

يقول القرطبي في تفسيره هذه الآية: « وهذه الآية تضمنت قصتين، إحداهما: الأدب في أمر الطعام والجلوس، والثانية: أمر الحجاب... فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش، أولم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، وزوجته مولىة وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

ﷺ (...)^(١).

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما، وغيرهما حديثاً عن أنس بن مالك ﷺ، ما يؤيد هذا القول.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهياً للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد منهم ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...﴾».

وعنه أيضاً قوله: أنا أعلم الناس بهذه الآية - آية الحجاب - لما أهديت زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلى رسول الله ﷺ كانت معه في البيت صنع طعاماً، ودعا القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج، ثم يرجع، وهم قعود يتحدثون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فضرب الحجاب، وقام القوم».

عن أنس ﷺ قال: «بنى النبي ﷺ بزینب بنت جحش، بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قومٌ يأكلون، ويخرجون، ثم يجيء قومٌ، فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه، قال: ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع، حتى إذا وضع رجله في

(١) تفسير القرطبي: (٤/٢٢٣ - ٢٢٤).

إسكفة الباب داخلة وأخرى خارجه، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب». عن أنس رضي الله عنه قال: «أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزینب بنت جحش، فأشبع الناس خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين، كما كان يصنع صبيحة بنائه، فيسلم عليهن، ويسلمن عليه، ويدعو لهن، ويدعون له، فلما رجع إلى بيته رأى رجلين جرى بهما الحديث، فلما رأهما رجع عن بيته، فلما رأى الرجلان نبي الله ﷺ رجع عن بيته، وثبا مسرعين، فما أدري أنا أخبرته بخروجهما أم أخبر، فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب»^(١)، وقال ابن أبي مريم أخبرنا يحيى حدثني حميد سمع أنساً عن النبي ﷺ وفي صحيح مسلم، عن أنس قال: «لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: فاذكرها عليّ، قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها وهي تخمر عجيناً، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن، قال: فقال ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ، واتبعته، فجعل يتبع حجر نسائه، يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وعظوا به زاد ابن رافع في حديثه» ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ... إِلَى قَوْلِهِ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: (٤/١٧٩٩)، برقم: (٤٥١٣ - ٤٥١٤ - ٤٥١٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس: (٢/١٠٤٨)، حديث رقم: (١٤٢٨).

وعن ابن عباس قال: «نزلت في قوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ، فيدخلون عليه قبل الطعام، فيقعدون إلى أن يطبخ، ثم يأكلون ولا يخرجون، فأمروا أن لا يدخلوا حتى يؤذن لهم، وأن ينصرفوا إذا أكلوا»^(١).

ويقول صاحب كتاب التسهيل^(٢): «والقول الأول أشهر - وهو ما روي عن أنس - وقول ابن عباس أليق بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم، فعلى قول ابن عباس في النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم، والقول الأول في النهي عن القعود بعد الأكل، فإن الآية تضمنت الحكمين»^(٣).

- الأحكام والآداب الشرعية في هذه الآية:

هذه الآية آية الحجاب قد اشتملت على أحكام وآداب شرعية^(٤):

١ - النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ الإباحة:

فبعد الذي جرى في بيت رسول الله ﷺ من بعض أضيافه، أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته^(٥).

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾
وقد كانت عادة القوم إذا كان لهم طعام أو وليمة أو نحوه، أن يبكر من شاء إلى دار الدعوة،

(١) انظر: تفسير التسهيل في علوم التنزيل: (١٤٢/٣)، تفسير المحرر الوجيز: (٣٩٥/٤)، تفسير القرطبي: (٢٢٤/١٤)،

تفسير الواحدي: (٨٧١/٢)، زاد المسير: (٤١٣/٦)، تفسير الثعلبي: (٥٨/٨)، وانظر: عمدة القاري: (١٢٠/١٩).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جزى الكلبي، يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة، اشتهر بالعلم والانشغال بالتدوين، ألف في فنون من العلم، منها وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم، والقوانين الفقهية، وأصول القراء الستة غير نافع، وغيرها من المؤلفات في التفسير والقراءات، توفي شهيداً في واقعة طريف سنة (٧٤١).

انظر: الديباج المذهب (٢٩٥/١)، والتكملة لكتاب الصلاة (٣٤٦/١).

(٣) التسهيل في علوم التنزيل: (١٤٢/٣).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: (٥٠٤/٣).

(٥) انظر: تفسير السعدي: (٦٧٠/١)، بتصرف.

ينتظر طبخ الطعام ونضجه ، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ ، ودخل في النهي سائر المؤمنين .

والتزم الناس آداب الله تعالى لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، وليس قبله لانتظار نضج الطعام^(١) .

لقوله تعالى : ﴿ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ ﴾ ، والمراد : « غير منتظرين وقته »^(٢) يعني وقت نضج الطعام ، لإدراكه .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ ، فأكد ﷺ في هذه الآية بعد ذلك على هذا المنع ، وخص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن ، وليس كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية ، وابتداء الإسلام ، فإن هذا من الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من المباشطة المكروهة^(٣) ، ثم إن الدعوة غير كافية للإذن في الدخول .

قال ابن العربي في قوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ : « وتقدير الكلام إذا دعيتم فأذن لكم فادخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول »^(٤) .
وقيل إن فيه دلالة بينه على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه^(٥) .

٢ - الأمر بالخروج من بيوت النبي ﷺ بعد الطعام :

ثم أمرهم سبحانه بأدب آخر ، وهو الانتشار بعد الطعام ، فقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ ، أي : تفرقوا ، والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند

(١) انظر : تفسير المحرر الوجيز : (٣٩٥/٤) .

(٢) المفردات في غريب القرآن : (٢٩/١) ، (٤٩٨/١) .

(٣) انظر : تفسير القرطبي : (٢٢٦/١٤) ، تفسير القاسمي : (٥٣١/٥) .

(٤) أحكام القرآن ؛ لابن العربي : (٣ /) .

(٥) انظر : تفسير فتح القدير : (٢٩٧/٤) .

انقضاء الأكل^(١).

وقد قال بعضهم هذا أدب أدب الله به الثقلاء من الناس.

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «حسبك من الثقلاء أن الله لم يَحتَمِلهم»^(٢).

فأمر سبحانه بقوله: «إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ»، فنهى الله ﷻ المؤمنين أن يطلبوا الجلوس، للأنس بحديث بعضهم مع بعض، كما فعل بعضهم في بيت الرسول ﷺ، وذلك أنهم كانوا يجلسون بعد الأكل، فيتحدثون طويلاً، وكان ذلك يؤذيه عليه الصلاة والسلام، ويستحي أن يقول لهم قوموا، فأهل الكرم يستحيون أن يخرجوا الناس من بيوتهم، فكيف بأكرم الخلق، وأجودهم رسول الله ﷺ^(٣).

ولكن الله ﷻ لا يمتنع من بيان الحق وإظهاره للناس، ولما كان ذلك يقع من البشر لعل الاستحياء، نفى عنه ﷻ العلة الموجبة لذلك في البشر^(٤)، فقال: «إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ»، فإن المكوث طويلاً في بيت الداعي إلى الوليمة، بعد الفراغ من الطعام، يؤذي صاحب البيت، ويصرفه عن مشاغله، ولربما يكون ذلك الوقت، وقت راحته، وتضييق المنزل عليه وعلى أهله، واشتغاله بالضيف وبالحديث معه ومقابله، لذا فقد أمر الله عباده المؤمنين بهذه الآداب عند حضور الدعوة^(٥).

(١) انظر: تفسير فتح القدير: (٢٩٧/٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (٢٢٤/١٤)، تفسير النسفي: (٣١٣/٣)، تفسير الكشاف: (٥٦٤/٣)، تفسير المحرر الوجيز: (٣٩٥/٤)، التسهيل في علوم التنزيل: (١٤٢/٣)، تفسير الثعالبي: (٢٣٥/٣)، تفسير الثعلبي: (٥٩/٨)، و انظر: تخريج الأحاديث والآثار: (١٢٥/٣).

(٣) انظر: التسهيل في علوم التنزيل: (١٤٢/٣)، تفسير السعدي: (٦٧٠/١)، تفسير زاد المسير: (٤١٥/٦)، باختصار وتصرف.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (٢٢٧/١٤).

(٥) انظر: تفسير الرازي (١٩٤/٢٥).

٣- النهي عن المكوث طويلاً في بيوت النبي والإستئناس بالحديث بعد الطعام:

فأمرهم تعالى إن هم فرغوا من الذي دعوا إليه وهو الطعام أن يخففوا عن أهل المنزل، ويتشروا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ^(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾، وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه، كان يشق عليه، ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه الصلاة والسلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

وخلاصة هذه الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين:

يقول السعدي في تفسيره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾: «والمعنى أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: قبل الطعام وبعده»^(٣).

- الحكمة من هذا النهي:

بين جلّ وعلا حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ وهو انتظاركم ومكوثكم الزائد على الحاجة، كان يؤذي النبي، أي: يتكلف منه، ويشق عليه، حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ أن يقول لكم: «اخرجوا» ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥٠٦/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٥٠٦/٣).

(٣) تفسير السعدي (٦٧٠/١).

الْحَقِّ ، فالأمر الشرعي ولو كان يتوهم أن في تركه أدباً وحياءً ، فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي ، وأن يجزم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء...^(١) .

ثانياً : ما ورد في سورة الحجرات من آداب

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ {١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ {٢} إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ {٣} إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ {٤} وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ {٥} .^(٢)

اشتملت هذه الآيات على آداب ، أدب الله بها عباده المؤمنين إذا كانوا بحضرة النبي ﷺ ، فذكر سبحانه أن لبيوت النبي ﷺ حرمة ، تجب مراعاتها ، وقد جاءت هذه الآداب في مطلع سورة الحجرات وهي التي كان يسكنها أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ومن هذه الآداب :

١ - الأمر بالتلقي عن الله ورسوله في كل شأن وتحريم التقديم على أمر الله ورسوله

ﷺ :

والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ قرأ ابن عباس ، والضحاك بفتح التاء والبدال في قوله : ﴿ لَا تَقَدِّمُوا ﴾ فيكون المعنى لا تمسوا ولا تتقدموا ، وقرئ بضم التاء ﴿ لَا تَقَدِّمُوا ﴾ فيكون المعنى بين يدي قول الله ورسوله^(٣) ، وهذا هو الأظهر^(١) ، وهذا الأدب يتناول الأمر بعدم التكلم بأمر قبل

(١) انظر: تفسير السعدي: (٦٧٠/١).

(٢) سورة الحجرات : الآية (١ - ٥).

(٣) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (٥١٢/١)، ويراجع تفسير الثعالبي (٤/١٨٥).

أن يتكلم الرسول ﷺ به وأن لا يقطعوا في أمره الا بنظره ، لأنه بوحي من عند الله جل وعلا^(٢) .
 عن مجاهد : قال : «لا تفتاتوا»^(٣) ، على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على
 لسانه»^(٤) ، وقيل في معنى لا تفتاتوا أي لاتعارضوا ، وقيل لاتعجلوا بالقول قبل قول الرسول
 ولا بالفعل قبل فعله عليه الصلاة والسلام فيما يوجد عنده من أمر الدين^(٥) .

فهذا نهى للمؤمنين عن أن يستبقوا خبر الشرع ، فيما هو من جنس التشريع يقول القرطبي
 في تفسير الآية : «أي لاتقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن
 تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا»^(٦) .

٢- النهي عن رفع الصوت بين يدي رسول الله ﷺ :

وقد ورد هذا النهي صريحاً في قوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
 صَوْتِ النَّبِيِّ» وأخرج البخاري عن ابن أبي مليكة ، قال : «كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر
 وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما
 بالأقرع بن حابس^(٧) أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجلٍ آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ،
 فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافاً ، فارتفعت أصواتهما في ذلك

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٥٧/٤).

(٢) انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٥٧/٤).

(٣) يقال : افتأت فلان يفتت إذا استبد برأيه.

انظر : تاج العروس (٢٠/٥) مادة (فأت) .

(٤) تفسير الطبري (١١٦/٢٦) ، و تفسير مجاهد (٦٠٥/٢).

(٥) انظر : تفسير السمعاني (٥١٢/٥).

(٦) تفسير القرطبي (٣٠٠/١٦).

(٧) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي ، شهد فتح مكة ، وحنين ، والطائف وهو من المؤلفات قلوبهم ،
 وكان شريفاً في الجاهلية وفي الإسلام ، قيل إنه توفي في معركة اليرموك .

انظر : الاستيعاب (١٠٣/١) ، والإصابة (١٠١/١).

فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾، قال ابن الزبير^(١): «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر»^(٢). وهذه الآية جاءت متضمنة لزوم توقير النبي ﷺ وتعظيمه واحترامه، فقد علم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي ﷺ، ويحترموا ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول، كما يجهر بعضهم لبعض، أي ينادونه باسمه يا محمد، يا أحمد كما ينادي بعضهم بعضاً، وإنما أمروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه، كأن يقولوا يا نبي الله ويا رسول الله ونحو ذلك^(٣). وقد أمر الله بذلك في مواضع أخرى من كتابه كقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾^(٤)، وقوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾^(٥).

وقد دلت النصوص على سرعة امثال الصحابة لأمر الله جل وعلا، ففي قول ابن الزبير السابق: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه» وهذا القول دليل على شدة امثاله ﷺ في التزام الأدب معه ﷺ، ومما يدل على ذلك أيضاً ما ورد عن أنس بن مالك ﷺ: أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس^(٦)، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ كان يرفع صوته فوق

(١) هو عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى القرشي الأسدي، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ولد عام الهجرة، وحفظ عن النبي وهو صغير، وحدث عنه بجملة من الحديث عن أبيه وعن بعض الصحابة، توفي مقتولاً على يد الحجاج في جمادى الأولى سنة (٧٣هـ).

انظر: الاستيعاب (٣/٩٠٥)، والإصابة (٤/٨٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب قوله: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (٤/١٨٣٣) رقم (٤٥٦٤).

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان (٧/٤٠١).

(٤) سورة النور: الآية ٦٣.

(٥) سورة الفتح: الآية ٩.

(٦) هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك الأنصاري الحزرجي، شهد أحداً، وبشره النبي ﷺ بالجنة، ويقال له خطيب رسول الله، قتل يوم اليمامة شهيداً رحمه الله في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ.

انظر: الاستيعاب (١/٢٠٠)، والإصابة (١/٣٩٥).

صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا فقال موسى^(١): فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «أذهب إليه فقل له: لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة»^(٢).

فهذه المواقف من الصحابة دلت على الامتثال بأمر الله، كما دلت على أن المنهي عنه هو رفع الصوت والجهر به بين يدي رسول الله ﷺ.

٣- النهي عن الجهر بالقول للنبي ﷺ:

وقد ورد هذا في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والجهر يقال للشيء إذا ظهر، وجهر الكلام هو الإعلان به^(٣). والكاف في الآية للتشبيه في محل نصب أي لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض^(٤).

وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً عند مخاطبة النبي، أو لا يكون خطابهم له إلا بالهمس والمخافتة! فإن هذا لا يتصور شرعاً ولا عقلاً، فطبيعة الرسالة تستلزم التخاطب والتحاور، وإنما هو نهْيٌ عن جهرٍ مخصوصٍ مقيد بصفةٍ ما قد اعتادوه فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة مكانة النبي ومكانته وقدره، فهو عن المبالغة بأصواتهم فوق الحد الذي يبلغه بصوته ﷺ، حتى يكون كلامه غالباً لكلامهم وجهره اعلى من جهرهم^(٥).

٤- النهي عن إيذاء النبي بالنداء عليه من وراء حجراته عليه الصلاة والسلام:

(١) هو موسى بن أنس بن مالك الأنصاري، كان قاضياً للبصرة، روى عن أبيه أنس بن مالك، وعبدالله بن عباس وغيرهم من الصحابة، وروى عنه ابنه حمزة، وقال عنه شعبة بن الحجاج: كان ثقةً قليل الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، مات رحمه الله بعد أخيه النضر بن أنس بن مالك.

انظر: تقريب التهذيب (٥٤٩/١)، وتهذيب الكمال (٣٠/٢٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (٤/١٨٣٣) رقم (٤٥٦٥).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن (١٠١/١).

(٤) تفسير القرطبي (٣٠٦/١٦).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٦/١٦).

وقد ورد هذا النهي في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

قيل إن هذه الآيات نزلت في أناس من الأعراب، الذين وصفوا بالجفاء، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد، يا محمد، أي اخرج إلينا فدمهم الله بعدم العقل، حيث إنهم لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، فإن من العقل استعمال الأدب، فأدب العبد عنوان عقله^(٢). فلو أن هؤلاء الأعراب صبروا وانتظروا حتى يخرج إليهم الرسول ﷺ لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة^(٣).

وقد امتدح الله عباده المؤمنين الذين يغضون أصواتهم عند الرسول ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤). وأصل الغض: النقصان من الصوت، وكذلك النظر^(٥).

والمراد بأن هؤلاء المؤمنين الذين يغضون أصواتهم عند الرسول هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها، وأخلصها للتقوى، وذلك باتقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه^(٦).

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٤ - ٥ .

(٢) انظر: تفسير الواحدي (٢ / ١٠١٦)، تفسير التسهيل لعلوم التنزيل (٤ / ٥٨)، تفسير السعدي (ص ٧٩٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤ / ٢٠٩).

(٤) سورة الحجرات، الآية: ٣ .

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٣٦١).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٦ / ١٢٠).

الفوائد المستنبطة من هذا المبحث:

١- إن الرسول ﷺ هو أكرم الناس لأضيافه، فكان عليه الصلاة والسلام يؤثر بما عنده ولو كان قليلاً لأضيافه، فإذا كان الإنسان عنده كثير، وأثر ببعض ما عنده للضيف، فهذه محمودة في حقه، فكيف إذا كان ما عنده قليل وهو محتاجٌ إليه، ومع هذا يؤثر أضيافه به قبل نفسه، فلا ريب أن هذا يدل على علوِّ في الكرم، وغاية النبل في النفس، وعلى الشرف في مكارم الأخلاق، وهذا ما بلغه النبي الكريم، صفوة الخلق عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وشواهد كرمه ﷺ كثيرة، ومنها ما ورد في حديث أنس المذكور، وقوله: «بني على النبي بزینب بنت جحش بجنزٍ ولحمٍ، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو...»^(١).

فهذا شاهدٌ على جوده وكرمه وحرصه على أن يأكل الجميع من هذا الطعام، فلم يبق أحد إلا دعاه، حتى لم يجد أحداً يدعوه.

٢- إن إكرام الضيف من أعظم الأعمال وأجلها، وقد حث عليه الإسلام، وهو عملٌ كريمٌ يحبه المسلم الصادق، فالمسلم كريم مضياف؛ لأن خُلُق الكرم من سمات الأنبياء والصالحين، وكذلك دليلٌ على قوة الإيمان، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٢).

٣- من الآية والحديث يستدل على أن الله تبارك وتعالى أمر عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، وهي وإن كان لها سبب مخصوص إلا أنها عامة لجميع المؤمنين.

يقول ابن عطية في تفسيره هذه الآية: «وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم

(١) الحديث سبق تخريجه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، والحديث برقم: (٥٧٨٤)،

(٢٢٧٢/٥)، وأخرجه مسلم، كتاب اللقطة، باب: الضيافة ونحوها، الحديث برقم: (٤٨)، (١٣٥٢/٣).

الناس أدب الله لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عن الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام»^(١).

٤ - على المؤمن إن كان ضيفاً أن يلتزم بما أدب الله به عباده ، فلا يلتمس وقت الطعام ليدخل على الناس فيه بدليل هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا... ﴾ .

لأن مثل هذا الفعل مما يكرهه الله ويذمه ، وفي هذا دليل على تحريم التطفل ، وهو الذي تسميه العرب الضيفن^{(٢)(٣)}.

٥ - أشارت الآية إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه ، وعلى هذا فعلى الضيف أن لا يتعمد الذهاب إلى بيوت الناس في وقت الطعام ؛ لأن هذا الفعل من التطفل ، إلا في حال كونه مدعوّاً إلى طعام ، ولكن عليه أن يلتزم بأداب الإسلام ، فلا يبكر ، وعليه أن يستأذن قبل الدخول ، وكذلك لا يجلس مستأنساً بجديث بعد الطعام ، فيطيل جلوسه ، ولكن ليخرج حتى لا يثقل على أهل البيت كما أمر الله بقوله : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾^(٤) يقول الغزالي^(٥) في كتابه «إحياء علوم الدين» ، في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين : «وأما آدابه فبعضها في الدخول ، وبعضها في تقديم الطعام ، أما الدخول

(١) تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (٤/٣٩٥).

(٢) هو الطفيلي ، وهو الذي يجيء مع الضيف ويتبعه.

انظر : لسان العرب (١٣/٢٥٦) مادة (ضفن).

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : (٣/٥٠٦).

(٤) انظر : تفسير القاسمي : (٥/٥٣١).

(٥) هو محمد بن محمد الغزالي الشافعي الطوسي ، يكنى أبا حامد ، قال عنه الذهبي : (هو صاحب التصانيف والذكاء المفرط) ، برع في الفقه وكان ملازماً لإمام الحرمين ، وألف في الفقه والأصول والكلام والحكمة ، كما ألف كتاب الإحياء والأربعين وغيرها من الكتب ، أكب في آخر حياته على العلم وملازمة السنن توفي سنة (٥٥٠هـ).

انظر : سير أعلام النبلاء (١٩/٣٢٢) ، والوفيات (١/٢٦٦).

فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه، قال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاهُ﴾، يعني منتظرين حينه ونضجه^(١).

٦- ومن الأحكام المستفادة:

أ- من قوله تعالى ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ دليلٌ على أن البيت للرجل، ويحكم له به، فإن الله تعالى أضافه إليه، فإضافة البيوت إلى النبي إضافة ملك، وإضافة البيوت إلى الأزواج كما في قوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(٢)، فهذه إضافة محل بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي ﷺ، والإذن إنما يكون للمالك^(٣).

ب- في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل، ولا أضاف إليه سواه، وبقي الملك على أصله^(٤).

- آداب الضيافة في الإسلام

إضافةً على ما سبق ذكره من آداب على الضيف أن يتأدب بها حال ضيافته فإنه يجب عليه كذلك:

١- أن يغض بصره، فلا يحدق ببصره في بيوت الناس، ويكشف عوراتهم، وينظر إلى حرماته، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فهذا دليل على الشره.

٢- كما أن على الضيف أن لا يخرج صاحب البيت بطول الإقامة عنده، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ بقوله: «لا يحل لرجلٍ مسلمٍ أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه، قالوا يا رسول

(١) إحياء علوم الدين: (٩/٢).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٢٢٥/١٤).

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (٢٢٧/١٤)، أحكام القرآن؛ لابن العربي: (٦١٥/٣).

الله: كيف يؤثمه؟ قال: يقيم عنده ولا شيء له يقربه به»^(١).

فقد حث الرسول الضيف على عدم الإقامة عند المضيف بعد الثلاثة أيام، حتى لا يوقعه في الإثم؛ لأنه قد يغتابه لطول مقامه، أو يعرض له بما يؤذيه، أو يظن به ما يجوز، فهذا كله محمول على ما إذا أقام بعد الثلاث من غير استدعاء من المضيف.

أما إذا استدعاه، وطلب زيادة إقامته، أو علم أو ظن أنه لا يكره إقامته فلا بأس بالزيادة؛ لأن النهي إنما كان لكونه يؤثمه^(٢).

٣- ومن الآداب: أن يدعو الضيف للمضيف عند فراغه من الطعام.

كما ذكر ابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن الزبير أنه قال: أظطر رسول الله ﷺ عند سعدٍ فقال: «أفطر عندكم الصائمون، وصلت عليكم الملائكة وأكل طعامكم الأبرار»^(٣)، وغيرها من الأدعية، كأن يدعو له بالبركة.

٤- حدد الرسول مدة الضيافة بثلاثة أيام، فإذا زادت المدة عن ذلك، كان للمضيف أجر الصدقة، لقول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيكرم ضيفه جائزته، يومٌ وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يخرج»^(٤).

فالثلاثة أيام حق للضيف فيما يقدم فيها من طعامٍ وشرابٍ، وكرم ضيافة، فما زاد عليها مما يقدمه له يكون صدقة.

وقد أطلق النبي ﷺ على ما بعدها صدقة تنفيراً للضيف عن الإقامة أكثر من ثلاثة أيام رفقا

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب اللقطة، باب: الضيافة ونحوها: (١٣٥٣/٣)، برقم: (٤٨).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٣١/١٢).

(٣) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب: الضيافة، ذكر إباحة دعاء الضيف للمضيف عند فراغه من الطعام: (١٠٧/١٢) برقم: (٥٢٩٦).

(٤) الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب «الأدب»، باب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، وقوله: ﴿صَيْفٌ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾: (٢٢٧٢/٥)، برقم: (٥٧٨٤).

بالمضيف ، وأيضاً فإن نفس ذي المروءة تأنف الصدقة ، ولا ترضى بها^(١) ، وفي هذا توجيه للمسلمين بعدم الإثقال في ضيافتهم.

٥ - كما أن من حق الضيف على المضيف حمايته ، ودفع كل ما يمكن أن يوقع به الأذى ، فلا تنتهك حقوقه ، وحرمته ، فإن هذا من إكرام الضيف ، كما أن من إكرام الضيف التجاوز عن عثراته وسقطاته.

٦ - ومن الآداب أيضاً الدعاء للضيف وشكره على زيارته ، وتشجيعه إلى باب الدار.

(١) انظر: فتح الباري ، باختصار وتصرف: (١٠/٥٣٣).

المبحث الثاني

أضياف إبراهيم عليه الصلاة والسلام

إكرام الضيف من الأخلاق العظيمة التي حث عليها الإسلام، ورجب فيها، فهو من أخلاق الأنبياء والصالحين، ولقد ضرب نبي الله إبراهيم عليه السلام أعظم الأمثلة في إكرام الضيف، بل وبلغ عليه السلام أرفع درجات الكرم، وعلى المسلم التحلي بهذا الخلق الكريم، وأن يسلك هذا الهدى القويم، فالإنفاق والإطعام كلها تدخل في هذه الصفة العظيمة، وهي صفة الكرم، فهي من صفات الأبرار الذين قال تعالى عنهم: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ^(١).

وقد قص القرآن علينا ما جاء في ضيف إبراهيم عليه السلام، فقد جاءه أضيافه، ودخلوا عليه، واستغرب من هيئتهم، ولم يكلمهم عن حاجتهم، بل ولم يسأل ما الذي أتى بهم، وإنما بادر بحق الضيافة، كما قص القرآن علينا خبرهم، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ {٦٩} فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ ^(٢) ۝

وقال عز من قائل: ﴿ وَنَبَّأَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ {٥١} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ^(٣) ۝

وقال أيضاً: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ {٢٤} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ {٢٥} فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ {٢٦} ۝

(١) سورة الإنسان: الآية ٨ - ٩.

(٢) سورة هود: الآية ٦٩ - ٧٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٥١ - ٥٢.

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ { ٢٧ } فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة يخبر المولى ﷺ عن مجيء الملائكة الكرام إلى الخليل إبراهيم عليه السلام بالبشرى، والبشرى هي الخبر السار، والمراد هنا البشارة بإسحاق عليه السلام، وجاءوه على هيئة بشر.

يقول ابن كثير في تفسيره: «قدموا عليه في صورة شبان حسان»^(٢).

ويقول الألوسي في تفسيره: «وإنما سموا ضيفاً لأنهم في صورة من كان ينزل به عليه من الأضياف»^(٣).

وهذا يدل على علو كرمه، بأن استقبلهم، وأدخلهم بيته، وهو جاهلٌ بهم، ولا يعرف من هم، فقد عُرف إبراهيم عليه السلام بكرمه لضيوفه، ويكنى بأبي الضيفان، كما ذكر ذلك معظم المفسرين في كتبهم^(٤).

ويقول الشيخ العيني في كتابه «عمدة القاري»: «ومعنى إبراهيم: أب رحيم، وكنيته أبو الضيفان»^(٥).

– آداب ضيافة إبراهيم عليه السلام لأضيافه:

١ – حسن الاستقبال وطيب الكلام.

فعند مجيء ضيف إبراهيم عليه السلام بادره بالتحية كما أخبر المولى ﷺ عنهم ذلك، بقوله: «قَالُوا سَلَامًا»، وفي الموضع الآخر: «فَقَالُوا سَلَامًا»، وأيضاً: «فَقَالُوا سَلَامًا»، فحياتهم

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٤ - ٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/٢٣٦).

(٣) تفسير روح المعاني: (١٤/٦٠).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (١/٤٨٤)، تفسير السمعاني: (٥/٢٥٧)، تفسير القرطبي: (١٠/٣٥)، تفسير الثعلبي:

(٣/٣٩٢)، تفسير روح المعاني: (١٤/٦٠).

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (٤/٩٤).

الصلوة بأحسن منها فقال: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾، فحيوه بالتحية بتحية السلام، وهي تحية من عند الله مباركة طيبة^(١).

﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾، أي: نسلم عليك سلاماً، ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾، أي: عليكم السلام، أو سلام عليكم، فقد حياهم بأحسن مما حيوه^(٢).

وقد حياهم بالتحية بأحسن من تحيتهم؛ لأنها بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات، فهي أبلغ^(٣).

فالرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٤)، فإبراهيم الخليل اختار الأفضل^(٥).

وهنا أدب عظيم، ومهم من آداب الضيافة، وهو حسن الاستقبال، وطيب الكلام.

وفي سورة الذاريات: ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم لم يواجههم بلفظ ينفر الضيف فلم يقل «أنتم منكرون» بل إنه حذف المبتدأ فقال: «قوم منكرون»، وحذف المبتدأ هنا من اللطف الكلام^(٦).

يقول الزمخشري: «أنكرهم للسلام الذي هو تحية الإسلام، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذي عهدهم، أو رأى لهم حالاً أو شكلاً خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم، كأنه قال: أنتم قوم منكرون، فعرفوني من أنتم»^(٧).

(١) يقول تعالى في سورة النور: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ سورة النور: الآية ٦١.

(٢) انظر: التسهيل في علوم التنزيل: (١٠٩/٢).

(٣) انظر: تفسير روح المعاني: (٩٤/١٢).

(٤) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٣٦/٤).

(٦) انظر: التفسير القيم لابن القيم ص (٤٤٧).

(٧) تفسير الكشاف: (٤٠٤/٤).

وقيل: إنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة، ولذلك أنكرهم^(١).

وقال بعض المفسرين أن الذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لم يخاطبهم بذلك، لأن فيه من عدم الأئس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان في حضرته من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف^(٢).

٢ - الإسراع والمبادرة باحضار الطعام

ورغم أنه لم يعرفهم إلا أنه أكرم نزلهم، وأحسن ضيافتهم، وبادر عليه السلام إلى إعداد الطعام لضيوفه، وهذا دليل على كرمه وجوده عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، وقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، ففي قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾، وقوله: ﴿فَرَاغَ﴾ دليل على الإسراع، وعدم التباطؤ، وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾، يدل على ذهابه إلى أهله في خفية، فانسل خفية في سرعة، حتى لا يشعر به الضيفان فعدل إليهم ورجع^(٣).

فإن الروغان يدل على السرعة والإخفاء، فإن المضيف إذا أحضر شيئاً ينبغي أن يخفيه عن الضيف؛ كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه، حيث إن إبراهيم عليه السلام راغ هو بنفسه ولم يقل: هاتوا أو احضروا، وغيبة المضيف لحظة من الضيف أمر مستحسن؛ ليستريح الضيف، ويأتي بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه في حضرة صاحب البيت^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢٣٦/٤٦).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (١٣٧/٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، بتصرف: (٢٣٦/٤)، تفسير الطبري: (٢٠٨/٢٦)، وفي أساس البلاغة: (ولا يقال راغ عن كذا، إلا إذا كان عدوله عنه في خفية)، أساس البلاغة، مادة (روغ): (٢٥٩/١)، وفي المفردات؛ للراغب: (الروغ: الميل على سبيل الاحتيال، ومنه راغ الثعلب، يروغ روغاناً، وطريق رائج: لم يكن مستقيماً، كأنه يراوغ)، المفردات، مادة (روغ): (٢٠٨/١).

(٤) انظر: تفسير الرازي: (١٨٤/٢٨).

٣- تقديم أحسن الطعام وأشهاه

جاء إبراهيم عليه السلام لأضيافه بعجلٍ سمينٍ، من خيار ماله، فلم يكن هزياً، أو نحياً. قال تعالى ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾.

قال قتادة: «كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر، واختاره لهم سميناً زيادةً في إكرامهم»^(١)، وهذا دليل على كرمه عليه الصلاة والسلام.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾^(٢).

ففي هذه الآية زيادة وصف في كرم إبراهيم عليه السلام، ففي الآية السابقة: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾، وفي هذه الآية: ﴿جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيذٍ﴾، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾، يدل على الإسراع أيضاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك، والمراد فما لبث في المحيء به - أي العجل - بل عجل فيه^(٣).

والحنيز: كما ذكر المفسرون بأنه المحنوذ، وهو المشوي، فالحنيز من جملة المشويات، وهو المطبوخ على الحجر الحار، وكان سميناً يسيل دسماً^(٤).

يقول ابن كثير: «مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة»^(٥)، وهذا هو أفضل وأشهى، ما يكون عند أكل اللحم.

٤- قيامه عليه السلام على خدمة اضيافه بنفسه

ومما يدل على بالغ كرمه، أنه قرب الطعام إليهم، ولم يقربهم إليه، فقد سلك أعلى

(١) انظر: تفسير القرطبي: (٤٦/١٧).

(٢) سورة هود: الآية ٦٩.

(٣) انظر: تفسير الرازي: (٢٠/١٨).

(٤) انظر: تفسير الرازي: (٢١/١٨)، التسهيل في علوم التنزيل: (١٠٩/٢)، الكشاف: (٣٨٧/٢)، تفسير أبي السعود:

(٤/٢٢٤)، تفسير ابن كثير: (٤٥٢/٢)، تفسير البغوي: (٣٩٢/٢).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤٥٢/٢).

مقامات الضيافة عليه الصلاة والسلام قال تعالى ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ .

وفي هذه الآية دليل على أن إبراهيم عليه السلام هو الذي خدم أضيافه بنفسه ، وهو خليل الرحمن ، وسيد من ضيِّف الضيفان عليه الصلاة والسلام^(١) .

٥- تقريب الطعام إليهم

كما أنه عليه السلام قرب إليهم الطعام في المكان الذي هم فيه ، فلم يجعله في موضع ، ويقول لهم : «تفضلوا أو أتوا علي» ؛ لأن هذا أيسر وأحسن وأبلغ في إكرام الضيف^(٢) ، وهذا بين وواضح من قوله تعالى ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ .

٦- عرض الطعام على الأضياف بلطف ولين

ومن كرم إبراهيم عليه السلام ، وحُسن أدبه مع ضيفه ، أنه لم يكتفِ بتقريب الطعام إليهم ، وجعله في متناول أيديهم ، بل دعاهم إلى الأكل بملاطفةٍ ولينٍ ، فقال : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ، ولم يقل «كلوا» ونحوه من الألفاظ ، بل أتى بأداة العرض ، فعرض عليهم عرضاً لطيفاً^(٣) .

٧- تفقده عليه السلام لحال ضيفه

قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾^(٤) .

في هذه الآية إشارة إلى أدب من آداب الضيافة ، وهذا الأدب هو تفقد حال الضيف كما فعل إبراهيم عليه السلام ، وذلك حتى يعرف صاحب البيت هل يأكل أضيافه أم لا يأكلون؟ وهل هم في حاجةٍ إلى مزيد طعام ، أو شراب أو نحو ذلك؟ ولكن يكون ذلك بحفيةٍ دون أن يشعرهم ، حتى لا يتسبب في إيقاع الحرج بهم.

يقول القرطبي في تفسيره : «من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل

(١) انظر : تفسير السعدي : (٨١١/١).

(٢) انظر : تفسير السعدي : (٨١١/١).

(٣) انظر : تفسير السعدي : (٨١١/١) ، والتفسير القيم لابن القيم (ص٤٤٨).

(٤) سورة هود : الآية ٧٠.

يأكل أم لا؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة، لا بتحديد نظر^(١).

وقد دلت الآيات على حسن أدب الخليل إبراهيم عليه السلام مع أضيافه، وإكرامه لهم، ودلت أيضاً على مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم عليه السلام، الذي أمر الله محمداً وأُمَّته أن يتبعوا ملته، فقد ذكر الله خبر إبراهيم عليه السلام مع أضيافه، وساقها في هذه الآيات على وجه المدح له والثناء عليه^(٢).

ولنا في الأنبياء عليهم السلام القدوة الحسنة، والأسوة الطيبة، فقد أجمع المسلمون على الضيافة، وأنها من متأكدات الإسلام^(٣).

وقد رغب ديننا الحنيف في هذا الخلق الكريم، وهذا الأدب العظيم، فإكرام الضيف أمر محمود، والسخاء والعطاء كذلك، كما أن البخل والشح أمر مذموم، فالكرم يدل على السخاء، والبذل والعطاء، والمروءة، والبخل يدل على دناءة النفس، ويكفي في صفة الكرم أنها من صفات المولى جلّ في علاه.

وقد وردت رواية إسرائيلية في بعض كتب التفسير تتعلق بضيافة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك بأنه كان لا يأكل وحده حتى يطلب أحداً يأكل معه، حتى جلس معه رجل فأخرجه من طعامه، أورد هذه الرواية القرطبي في تفسيره، وكذلك ابن العربي في أحكام القرآن^(٤).

وهذا الاثر من الإسرائيليات، كما علق عليها القرطبي بعد أن أوردتها، وليس لهذه الرواية سنداً صحيحاً، فمثل هذه الرواية لا يصح نسبتها للرسول عليه الصلاة والسلام^(٥).

(١) تفسير القرطبي: (٦٥/٩).

(٢) انظر: تفسير السعدي، بتصرف: (٨١٠/١).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٣٠/١٢).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٦٨/٩)، وأحكام القرآن لابن العربي (٢٠/٣).

(٥) انظر: موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٥٠٧/١).

الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:

١- ثناء الله على نبيه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾^(١).

حيث إنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون، وهذا على أحد القولين: أنه بإكرام إبراهيم لهم، أو أنهم المكرمون عند الله، ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل على معنيين^(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾، دليل على أنه عليه الصلاة والسلام كان قد عُرف بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم، فصار منزله مضيضة مطروقا لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل إليه دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم^(٣).

٣- يستفاد من قصة إبراهيم عليه السلام مع أضيافه، حُسن استقبال الضيف، وهذا أدب من آداب الضيافة، وحُسن استقبال الضيف يكون ببسط الوجه له، والحفاوة به، ولين القول معه، فإن هذا من تمام الضيافة، فلا يعبس المضيف في وجه الضيف، بل يدخل على قلبه السرور بكل ما أمكن^(٤).

٤- ومن الفوائد التي تستفاد من فعل إبراهيم عليه السلام لأضيافه، هو الإسراع في تقديم الضيافة للضيف، وعدم التأخر والتباطؤ؛ لأن التأخر على الضيف يجرجه، ويشعره بأنه ضيف ثقيل، كذلك عدم إعلام الضيف ومشاورته في الأكل؛ لأن هذا يجرجه أيضاً، فالله تعالى وصف إبراهيم بقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾، وقال: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾، وهذا الوصف يدل على سرعة مبادرة إبراهيم عليه السلام إلى إعداد الطعام لضيوفه، وأنه لم يستغرق وقتاً طويلاً، رغم أن الطعام الذي قدمه عجلاً سميئاً حنيذاً مشويماً على الحجارة المحماة.

يقول السعدي - رحمه الله - في تفسيره: « من الحكم والأحكام المستفادة من هذه الآيات:

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٤ - ٢٧.

(٢) انظر: التفسير القيم لابن القيم (ص ٤٤٦).

(٣) التفسير القيم؛ للإمام ابن القيم: (ص ٤٤٦).

(٤) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف: (١/ ٣٩٥ - ٣٩٧)، باختصار وتصرف.

المبادرة إلى الضيافة، والإسراع بها؛ لأن خير البر عاجله، ولهذا بادر إبراهيم عليه السلام بإحضار قري أضيافه^(١).

٥- كما أن على المضيف أن يقوم بخدمة ضيفه بنفسه، كما فعل إبراهيم عليه السلام، ففي قوله تعالى: ﴿فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾ دليل على أنه قام بذلك بنفسه، فلم يقل فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه، فلم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف^(٢).

٦- على المضيف أن يجود على ضيفه بأجود ما عنده، فلا يبخل على ضيفه بتقديم ما لذ من الطعام، أو الشراب، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإبراهيم عليه السلام جاء بعجلٍ كاملٍ، فلم يأت بيضعة منه، فهذا من تمام الكرم، كما أنه كان سميناً، وليس بهزيل، فمعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، إلا أنه أثر به ضيفانه^(٣).

٧- على المضيف أن يلاطف أضيافه بطيب الكلام، وينتقي ألفاظه وعباراته، فلا يتحدث بما يزعج به ضيفه، أو يدخل عليه الحزن بكلامه، فإن إبراهيم عليه السلام لما أنكر أضيافه ولم يعرفهم، احتشم من مواجعتهم بلفظٍ ينفر الضيف، فقال: ﴿مُنْكَرُونَ﴾، ولم يقل لهم إني أنكركم، أو أنكرتكم، وبين اللفظتين من الفرق ما لا يخفى، ففي قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

٨- كما أن على المضيف أن يتفقد أحوال ضيفه عند تقديم الطعام له، بأن يحثه على الأكل وعدم الاستحياء، ويقرب إليه الطعام والشراب، فإن ذلك آنس للضيف، ولا يشعر بالحرج والحياء، وقد بينت لنا الآيات ما فعل إبراهيم عليه السلام مع أضيافه عندما قرب إليهم الطعام، فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فعرضه عليهم بكل أدبٍ ولطفٍ^(٤).

(١) تفسير السعدي: (١/٨١٠).

(٢) انظر: التفسير القيم؛ لابن القيم: (ص ٤٤٧).

(٣) انظر: التفسير القيم؛ لابن القيم: (ص ٤٤٧).

(٤) انظر: التفسير القيم؛ لابن القيم: (ص ٤٤٧)، و تفسير السعدي: (١/٨١٠).

المبحث الثالث

أضياف لوط عليه السلام

قد يظن البعض إن إكرام الضيف يقتصر على واجب تقديم الطعام والشراب فحسب، مع الإقرار بأن هذا من أعظم حقوق الضيف وواجباته، إلا أن إكرام الضيف يشمل أكثر من هذا، ومعنى الإكرام أوسع من ذلك، إذ يدخل في إكرام الضيف أمور عديدة، كما سبق الإشارة إلى ذلك، ومنها: دفع الأذى والضرر عنه، وحفظ كرامته، ووقايته من كل ما قد يمس به بسوء.

وهذا ما فعله نبي الله لوط عليه السلام، فإن كان إبراهيم عليه السلام قد ضرب أروع المثل في إكرام الضيف كما دلت على ذلك الآيات، فنبى الله لوط عليه السلام قد ضرب مثلاً في إكرامه لضيفه، بمدافعة قومه، محاولاً دفع الضرر عن أضيافه.

فقد أخبر القرآن الكريم عن قوم لوط، وأنهم كانوا من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، ولبس ما كانوا يفعلونه.

كما تحدث القرآن عن أضياف نبي الله لوط عليه السلام، وما كان منه عندما حاول قومه الاعتداء على أضيافه، وكيف جادل قومه، وهم أهل سوء، وأرادوا سوءاً بأضيافه.

- حديث القرآن عن ذلك:

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ {٧٧} وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ {٧٨} قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ {٧٩} قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ {٨٠} قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن

يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ»^(١).

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاء آل لُوطِ الْمُرْسَلُونَ { ٦١ } قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ { ٦٢ } قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ { ٦٣ } وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ { ٦٤ } فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ { ٦٥ } وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ { ٦٦ } وَجَاء أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ { ٦٧ } قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ { ٦٨ } وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ { ٦٩ } قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ { ٧٠ } قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ { ٧١ } لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تُحْزِنِ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ { ٣٣ } إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ الْقُرَيَّةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »^(٣).

وهذه الآيات الكريمة ذكرت أن نبي الله لوط عليه السلام لما جاءته رسل ربه من الملائكة حصلت له بسبب مجيئهم مساءة عظيمة، وضاق صدره بها.

وقد أشار في مواضع متعددة إلى أن سبب مساءته، وكونه ضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يوم عصيب أنه ظن أنهم ضيوف من بني آدم، كما ظنه إبراهيم عليه السلام.

وظن أن قومه ينتهكون حرمة ضيوفه، فيفعلون بهم الفاحشة^(٤)، فالملائكة المكرمون الذين جاءوا أضيافاً إلى لوط عليه السلام قد كانوا أضيافاً لإبراهيم عليه السلام، وبعد أن ذكرت الآيات إكرام إبراهيم لضيوفه، وما قدم لهم من الكرامة، وحسن المعاملة، ذكرت بعد ذلك أنهم أخبروا

(١) سورة هود: الآية ٧٧ - ٨١.

(٢) سورة الحجر: الآية ٦١ - ٧٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٣٣ - ٣٤.

(٤) انظر: أضواء البيان: (١٨٧/٢).

إبراهيم أنهم ملائكةٌ مرسلون إلى إهلاك قوم لوطِ المفسدين ، وأخبروه هو وزوجه سارة بما قدره الله لهما من الولد ، وبشروهما بإسحاق نبياً من الصالحين. ثم توجهوا إلى نبي الله لوط عليه السلام في بلده ، والتي يقيم فيها مع قومه ، وهم على هيئة رجالٍ من البشر.

- لوط لم يعرف أضيافه أنهم من الملائكة مثل إبراهيم عليهما السلام:

بعد أن أعلم الملائكة إبراهيم بإهلاك قوم لوط ، انطلقوا من عنده ، فأتوا لوطاً عليه السلام ، وهو على ما قيل في أرضٍ له ، وقيل : في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورةٍ ، فكانوا على هيئة شبانٍ حسان الوجوه ابتلاءً من الله لقومه ، وإقامة الحجة عليهم ، فساءه عليه السلام شأنهم ، وضاعت نفسه بسبيهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء^(١).

فعندما قدم أضياف لوط عليه ، وظنهم ضيوفاً بشراً ، خشي على ضيوفه من قومه ، وضاق بهم ذرعاً^(٢) كما أخبر القرآن بقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾^(٣) ، وقال لهم : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُتَكَبِّرُونَ ﴾ لا أعرفكم ، ولا أدري من أنتم^(٤).

فساءه مجيئهم ؛ لأنه يعلم من قومه ما هم عليه من إتيانهم الفاحشة ، وخاف عليهم ؛ ولذلك ضاق ذرعاً بمجيئهم ، وعلم عليه السلام أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه ، ولذلك قال : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ، أي شديد^(٥).

- لوط يدافع عن أضيافه أمام قومه:

كان أضياف لوط عليه السلام في صور شبان في غاية الكمال والجمال ، ولهذا وقع ما خطر ببال

(١) انظر : تفسير ابن كثير : (٢/٤٥٤).

(٢) انظر : تفسير النسفي : (٢/١٦٥).

(٣) سورة هود : الآية ٧٧.

(٤) انظر : تفسير السعدي : (١/٤٣٣).

(٥) انظر : تفسير الطبري : (١٢/٨١).

نبي الله لوط^(١)، ذلك لأنهم لما عرفوا بوجود رجالِ حسانٍ في بيته، جاءوا إلى لوط عليه السلام مسرعين، مروادين له عن ضيوفه، راغبين في فعل الفاحشة بهم.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢)، فمن شدة رغبتهم الجاحمة في الاعتداء على أضياف لوط، وفعل الفاحشة، أخبر القرآن أنهم جاءوا ﴿يُهْرَعُونَ﴾، أي: يسرعون ويهرولون من فرحهم بهذا الأمر^(٣)، فالإهراع: هو أن يسرع أمراً بالإنسان، فيمشي سريعاً طامعاً مبادراً إلى أمراً يخاف فوته^(٤).
يقول الراغب في الهرع: «يقال: هَرَعَ، وأهرَعَ: ساقه سوقاً بعنفٍ وتخويفٍ، والهرع: السريع المشي»^(٥).

وجاءوا مستبشرين فرحين، بهؤلاء الأضياف، لا بغية لهم إلا أن ينالوا من أضياف لوط عليه السلام، ولذا قال الله عنهم: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٦).

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله - في تفسيره: «يستبشرون: يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط، وصباحة وجوههم، واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدتهم فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعيذ منهم»^(٧).
فوقف عليه السلام أمام قومه مدافعاً عن أضيافه، وهم يراودونه عنهم، ولذا قال سبحانه في كتابه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ...﴾^(٨).

(١) انظر: تفسير السعدي: (٣٨٦/١).

(٢) سورة هود: الآية ٧٨.

(٣) انظر: تفسير أضواء البيان: (١٨٨/٢).

(٤) تفسير المحرر الوجيز: (١٩٤/٣).

(٥) المفردات في غريب القرآن: (٥٤٢/١).

(٦) سورة الحجر: الآية ٦٧.

(٧) تفسير السعدي: (٤٣٣/١).

(٨) سورة القمر: الآية ٣٧.

«المراودة: أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، وراودت فلاناً عن كذا...»^(١).

وقد أخبر الله أن هذا الفعل كان من عاداتهم، ومن سجيبتهم، حتى أخذوا وهم على ذلك الحال، قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢).

فكانت عاداتهم إتيان الفاحشة في الرجال، فجاءوا على الأضياف لذلك، فقام إليهم لوطاً مدافعاً^(٣).

فما كان من نبي الله لوط عليه السلام إلا أن ذكرهم وخوفهم من عقوبة الله تعالى، وأمرهم بتقوى الله فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ {٦٧} قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ {٦٨} وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ {٦٩} قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ {٧٠} قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٥).

والتأمل في هذه الآيات يجد أن نبي الله لوط عليه السلام قد استخدم مع قومه ليدافع عن أضيافه، ويصرفهم عنهم، أموراً عدة:

- ١ - فأمرهم بتقوى الله، وذكرهم بعقوبته.
- ٢ - ثم إنه دعاهم إلى الفطرة التي فطر الناس عليها، وهي الفطرة السوية في قضاء

(١) المفردات في غريب القرآن: (٢٠٧/١).

(٢) سورة هود: الآية ٧٨.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤٥٤/٢)، تفسير المحرر الوجيز: (١٩٤/٣).

(٤) سورة هود: الآية ٧٨.

(٥) سورة هود: الآية ٦٧ - ٧١.

الشهوة، والنكاح الحلال الذي أحله الله لعباده، بأن يتزوج الرجل من المرأة.

٣- ذكرهم أن هؤلاء الذين يريدون فعل الفاحشة بهم هم أضيافه، والمضيف عليه أن يكرم ضيفه، وأن لا يلحق به الخزي، وأن لا تنتهك حرمة في حضرته، فكيف إذا كان قومه هم من أرادوا انتهاك هذه الحرمة، وإلحاق هذا الخزي؟، فإنها فضيحةٌ في حقه عليه الصلاة والسلام، فأخبرهم بذلك، وخاطب فيهم المروءة والعقل والرشد.

فدلت الآيات على أنه ﷺ كان حريصاً على صيانة أضيافه، وحريصاً على إكرامهم، فمن بالغ كرم الضيافة أن يحرص المضيف على حفظ جناب الضيافة من أن يمسه سوءٌ قلبي أو فعلي.

قال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾، فإما ان تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي ولا تخزوني عندهم^(١).

وأما قوله لهم: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾، فقد ذكر المفسرون أقوالاً عند تفسيرهم لهذه الآية، وقد ذكرت ذلك في فصل أبناء الأنبياء عند الحديث عن بنات لوط ﷺ. وذكر بعض المفسرون بأن لوطاً ﷺ أراد أن يقي أضيافه بناته بتزويجهم إياهن نكاحاً شرعياً وليس بالزنا، وأن ذلك في غاية الكرم^(٢).

وفي قوله ﷺ لقومه أثناء مدافعتهم عن أضيافه: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾، ففي ذلك إظهارٌ لاعتنائه بشأنهم، وتشميره لمراعاة حقوقهم، وحمائيتهم من أن يمسه سوء أو أذى^(٣).

وذكر المفسرون عند تفسيرهم لقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾^(٤)،

(١) انظر: تفسير السعدي: (٣٨٦/١).

(٢) انظر: تفسير التسهيل في علوم التنزيل: (١١٠/٢)، تفسير الكشاف: (٣٩٠/٢)، تفسير النسفي: (١٦٥/٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: (٨٥/٥).

(٤) سورة هود: الآية ٧٨.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾^(١).

أراد من هذا القول لقومه عند مدافعتهم لهم، دفاعاً عن أضيافه لا تهينوني، ولا تفضحوني من الخزي، أو لا تخجلوني من الخزية وهي الحياء، فلا تخزون في حق ضيوفي، فإنه إذا خزي ضيف الرجل، أو جاره فقد خزي الرجل، وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة^(٢).

فقد خاطب فيهم جانب المروءة، كما أسلفت، وأراد أن يذكرهم بأن الإساءة إلى أضيافه فضيحةٌ وخزيٌ عليه.

يقول الطبري في تفسيره هذه الآيات: «إن لوطاً قال لقومه: إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي، وحق على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحوني أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في ترككم التعرض لهم بالمكروه»^(٣).

إن التعرض لأضياف نبي الله لوط عليه السلام بعد أن نهاهم عن هذا التعرض والاعتداء بقوله: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾، أكثر تأثيراً في جانبه عليه السلام، وأجلب للعار إليه، إذ الضيوف في حكم المستجيرين بجواره، فلو تعرض أحداً للجار قبل العلم، وقبل شعور الجير بذلك ربما يتسامح فيه، وأما بعد الشعور والعلم به، والمناسبة لحمايته، والذب عنه، فذاك أعظم العار؛ لذا فقد عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتربه من جهتهم بعد النهي المذكور عن نفس تلك الفاحشة، رعايةً لأضيافه، ولزيد الأدب معهم، حيث لم يصرح بما يثقل على سمعهم وتنفر عنه طباعهم وهذا أيضاً من غاية كرمه لأضيافه^(٤).

(١) سورة الحجر: الآية ٦٩.

(٢) انظر: تفسير الكشاف: (٣٩١/٢)، تفسير النسفي: (١٦٥/٢)، التفسير الكبير: (٢٨/١٨)، تفسير السعدي: (٨٥/٥).

(٣) تفسير الطبري: (٤٠٣/١٤).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود: (٨٥/٥)، تفسير روح المعاني: (٧٢ - ٧١/١٤).

- لوط عليه السلام يبحث من بين قومه عن رجلٍ رشيدٍ ليساعده في دفعهم عن أضيافه:

قال لهم عليه السلام في أثناء دفاعه عن أضيافه: ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾، على سبيل التوبيخ لهم، سائلاً، أليس منكم أيها القوم المعتدين رجلاً ذو رشد، ينهى من أراد فعل الفاحشة من ضيفي، فيحول بينهم وبين ذلك؟^(١).

إلا أن قوم لوطٍ كما أخبر القرآن في أكثر من موضع قد عتوا، وأصروا على أفعالهم المشينة، فقد كانوا خبيثين، ذوي أفعال خبيثة، لا يتحرجون، ولا يستحيون، مجاهرين بأفعالهم القبيحة. فكيف لمثل هؤلاء أن يراعوا حق ضيفٍ، أو حق مستجيرٍ؟.

فبلغ من قبحهم وتماديهم في غيهم، وإساءة الأدب مع نبي الله لوط عليه السلام أن قالوا له: ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾^(٢).

وقالوا: ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣).

وفي قولهم للوط عليه السلام: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾، يعنون أضيافه؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبهم، ومطلبهم الشنيع، وعاداتهم القبيحة، فإن مذهبهم هو إتيان الذكور^(٤). وفي قولهم: ﴿ أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾، يدل على أنهم قد نهوه ومنعوه من أن يضيف أحداً من العالمين^(٥).

تمني لوط عليه السلام لو أن له جماعةً وعشيرةً للدفاع عن ضيفه:

تجدر الإشارة هنا إلى ما قد قاله الملائكة لنبي الله إبراهيم عليه السلام عندما أخبروه بأنهم متوجهين إلى قوم لوطٍ لتدميرهم، وعلم إبراهيم عليه السلام من تحقيق وقوع العذاب والدمار والهلاك

(١) انظر: تفسير المحرر الوجيز: (١٩٥/٣)، تفسير الطبري: (٨٦/١٢).

(٢) سورة هود: الآية ٧٩.

(٣) سورة الحجر: الآية ٧٠.

(٤) انظر: تفسير النسفي، بتصرف: (١٦٦/٢).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٥٥٦/٢)، تفسير الطبري: (٤٣/١٤).

فيهم، خشي على لوط، وقال: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(١).

فلم يكن في القرية مؤمنٌ إلا لوط، ومن آمن معه من أهل بيته، لقوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {٣٥} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

فقد كان يقف وحيداً أمام العتاة من قومه مدافعاً عن أضيافه، ليس له في القرية عشيرةٌ أو أنصارٌ أو أحدٌ على دينه يعبد الله ويخشاه؛ لذا قال في ذلك الوقت: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٣).

ذكر المفسرون أن لوطاً عليه السلام أراد بالركن الشديد، الجماعة والعشيرة؛ ليكونوا له أنصاراً وأعاوناً تعينه على رد قومه، وتعينه في الذب عن أضيافه، وأن يحولوا بينهم وبين ما جاؤوا يريدونه من أضيافه عليه السلام^(٤).

وفي ذلك يقول الإمام النووي - رحمه الله -: «إن لوطاً عليه السلام لما خاف على أضيافه، ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين، ضاق ذرعه، واشتد حزنه عليهم، فغلب ذلك عليه، فقال في ذلك الحال: لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي، أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقصد لوط عليه السلام إظهار العذر عند أضيافه، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما فعله، وأنه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم، ولم يكن ذلك إغراضاً منه عليه السلام عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لما ذكرناه من تطيب قلوب الأضياف»^(٥).

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في هذا البحث عند الحديث عن زوج لوط عليه السلام.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٣٢.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٣٥ - ٣٦.

(٣) سورة هود: الآية ٨٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٢/٨٦).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/١٨٥).

ولما قال لوط لقومه لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، ورأى الملائكة ما لقي من الكرب بسببهم ، قالوا إنا نرسل ربك أرسلنا لإهلاكهم ، وإنهم لن يصلوا إليك ، وإلى ضيفك بمكروه ، فهون عليك الأمر ، فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل^(١).

كما قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ... ﴾^(٢).

يقول القرطبي في تفسيره: «قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه، ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسور الجدران، أو كسر الباب، أو دفعه بالقوة، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا نرسل ربك، فافتح الباب، ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه... وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم...»^(٣).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴾^(٤).

ومع هذه الفتنة، ومع سوء نية قومه، ومع ما أرادوا به من الخبث والاعتداء على أضيافه، إلا أنه كان الطيب على رعاية تامة لمقام الضيافة، وعلى حرص أن يصون أضيافه من كل ما قد يمس جنابهم من سوء والأذى القولي أو الفعلي.

ومع إصرارهم على غيهم، وفجورهم في حق أضيافه، كان في غاية الإكرام، وفي غاية الخلق الكريم، فذكر قومه بالله تعالى، وأوصاهم بتقواه، وذكرهم أن هؤلاء أضياف عليه، وعرض عليهم النكاح الشرعي المباح، إلا أن مرادهم كان الفاحشة والاعتداء على الرجال، وما زالوا في هذا الطلب حتى نزلت بهم العقوبة.

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٢/٨٩).

(٢) سورة هود: الآية ٨١.

(٣) تفسير القرطبي: (٧٨/٩ - ٧٩).

(٤) سورة القمر: الآية ٣٧.

وإن حرص لوط عليه السلام على أضيافه، والمدافعة عنهم رغم ما كان يحيط به من الابتلاءات والمحن؛ لدليل على بالغ كرمه، ومروءته، فإن مثل هذه الأفعال من صيانة حقوق الضيف لهي أبلغ ما قد يكون من إكرامه.

وقد وردت رواية إسرائيلية في قصة لوط عليه السلام مع أضيافه، وذلك فيما يتعلق بأن لوطاً دعاهم إلى الضيافة، فقالوا: إنا ضيوفك الليلة، وفي أن الله عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات، أورد هذه الرواية من المفسرين ابن كثير، والطبري^(١).
والحبكة الروائية ظاهرة على هذه الرواية، والظاهر أنها مما نُقل عن أهل الكتاب، وهي من الروايات التي ليس لها مستند صحيح^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤٥٥/٢)، و تفسير ابن جرير الطبري (٩٢/١٢).

(٢) انظر: موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (٥٠٦/١).

الدروس والعبر المستفادة من هذا المبحث:

- ١- ضرب نبي الله لوط عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق، والدعوة إلى الله بالحكمة والثقة به تعالى، واليقين بإنفاذ وعده.
- ٢- كما ضرب عليه السلام أروع الأمثلة في إكرام الضيف، ورعاية حقوقهم، ودفع الضر عنهم، وقد استضافهم وأدى حقهم خير أداء، حتى في أصعب الأحوال.
- ٣- عدم خضوع لوط لأمر قومه في عدم استضافة أحداً من الناس، لهو دليل على قوته وشجاعته، رغم عدم وجود الأنصار والأعوان، فلقد استضافهم حين ظن أنهم أضياف من البشر، ورغم أن قومه نهوه عن ضيافة الغرباء، وحذروه من ذلك، كما قالوا له: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).
- وحين جاءه قومه يهرعون إليه، يراودونه عن ضيفه، دافع عنهم، و زاد عنهم بكل ما يملك، رجاء دفعهم، وعدم تعرضهم للأضياف، وفي هذا درس عظيم في إكرام الضيف، وللمؤمن في أنبياء الله الأسوة الحسنة، والقذوة الطيبة.
- ٤- وفي قوله عليه السلام كما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أهمية العصبة والعشيرة، والتي قد كان يرجوها عليه السلام لإعانتته في الذود عن أضيافه، ولا يتعارض ذلك مع توكله على الله، فليس في ذلك أدنى شك.

(١) سورة الحجر: الآية ٧٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تزداد المكرمات، وبمنته تضاعف العطايا والبهات، والصلاة والسلام على رسول رب البريات؛ محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد.

فهذا ما يسره الله لي من كتابة هذه الرسالة فيما يتعلق ب(آل الأنبياء في القرآن الكريم)، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليّ، فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله تعالى وأتوب إليه منه.

وإني في ختام هذا البحث أدعو الله تبارك وتعالى قبول هذا العمل، وأن يتجاوز عما فيه من خلل بدون قصد، فالكمال غاية لا تدرك عند البشر، بل هو لله وحده، الذي له الحمد في الأولى والآخرة. وهذا بعض ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات خرجت بها من هذا البحث.

أولاً: النتائج:

- ١- إن القرآن الكريم اشتمل على كلمة (الآل)، وكان لها مدلولان، أحدهما الأتباع والأنصار، والآخر الأهل، وأن المراد منها في هذا البحث هو أهل بيت النبي.
- ٢- إن الدعوة إلى الله، وإفراده بالتوحيد والعبادة، هي الأساس الذي قامت عليه دعوة الأنبياء عليهم السلام جميعاً ابتداءً بآدم، وانتهاءً بخاتم الأنبياء محمد عليهم الصلاة والسلام، وذلك لأهلهم خاصة، وللناس عامة.
- ٣- إن حياة الأنبياء مع أهلهم قد تجلت فيها أفضل الأساليب وأحسنها في الدعوة إلى الله، لذا فإن في سيرتهم عليهم السلام نبزاً، وهداية لكل مسلم.
- ٤- إن الأسلوب التربوي في الدعوة، والوعظ، والتوجيه، والارشاد، له أكبر الأثر في نفوس المدعوين، سواء كانوا من الأهل، أو من غيرهم، وهذا هو الأسلوب الذي كان عليه الأنبياء عليهم السلام.
- ٥- إن تعامل الأنبياء مع أهلهم مؤمنين كانوا أو كفاراً، يكشف لنا الخلق الأمثل الذي يجب أن

يحتذيه كل مسلم في تعامله مع أمثال هؤلاء .

- ٦- التضرع والدعاء إلى الله واللجوء إليه ، من أخلاق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، والدعاء والتضرع زاد كل مسلم يغير الله به من حال إلى حال ، كما حصل لبعض الأنبياء عليهم السلام .
- ٧- إن حياة الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم جسدت مدى أهمية العناية بالأهل ، فقد كانوا أحرص الناس على والديهم وأزواجهم وذرياتهم وإخوانهم ، كما أوضح ذلك القرآن .
- ٨- إن الصفات الإيمانية العظيمة التي كان عليها الأنبياء عليهم السلام هي أهم ما ذكره القرآن الكريم في سيرتهم ، وخاصة صفة الصبر .
- ٩- وأخيراً فإن لنا في الأنبياء عليهم السلام الأسوة الحسنة ، والقذوة الطيبة ، فواجبنا أن نسير على خطاهم ومنهجهم كما أخبر تعالى بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثانياً: التوصيات :

- ١- إن في حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم مع أهلهم كثيراً من التفاصيل ، والتي هي بحاجة إلى تجلية وإظهار للاستفادة منها في الحياة .
- ٢- اشتملت بعض كتب التفسير على الإسرائيليات ، والتي منها ما هو مخالف لأصول الدين ، والواجب على الباحثين أن ينبهوا على مثل هذه الإسرائيليات ، وأن يبينوا ضعفها .
- ٣- يوجد في بعض كتب التفسير التي تحدثت عن سيرة الأنبياء عليهم السلام من خلال تفسير الآيات المتعلقة بهم خلطٌ بين ما هو صحيح وسقيم في الروايات ، فيجب الفصل بينها ، وبيان السقيم منها ، وخصوصاً للدارسين .
- ٤- تعد قصص الأنبياء وأهلهم الواردة في القرآن الكريم دليلاً هادياً في تعامل أفراد البيت الواحد بعضهم مع بعض ، الوالد مع ولده ، والولد مع أبيه ، والزوج مع زوجته وهكذا ، فيحسن بأفراد البيت المسلم تدارس هذه الآيات والاهتداء بهديها .

الفهرس

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الآثار.
- فهرس الألفاظ الغريبة.
- فهرس الأشعار.
- المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقمها	الآية
سورة البقرة		
٣٧٠ ، ٣٦٣	٣٠	﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾
٣٧٠	٣٠	﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾
٤٤١	٣٤	﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾
٣٦٨ ، ٣٦٧	٣٥	﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾
٣٦٠ ، ٣٤٧	٣٥	﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا..... ﴾
٣٥٠	٣٦	﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾
٣٦٣	٣٨	﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا..... ﴾
٣٦٤	٣٦	﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾
٣٦٢	٣٨ - ٣٦	﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ..... ﴾
٣٤٤	٣٢ - ٣١	﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ..... أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾
٣٣٧	٣٧	﴿ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾
٣٧٤ ، ٣٥٧	٣٧	﴿ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾
٣٠٠	٤٥	﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾
١٣ ، ١١	٤٩	﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبُّحُونَ..... ﴾
١٣	٥٠	﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾
١٧	٥٤	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ..... ﴾
٥١٤	٦٣	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ..... ﴾
٢٧	٨٧	﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِبْتُمْ..... ﴾
١٦٣	٩٨	﴿ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾
٤٤١	١٠٩	﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ... ﴾
٥٩٦	١٢٤	﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٤٠٩	١٢٧	﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
٤١٠ ، ٤٠٩	١٢٧	﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
٥٨	١٢٨	﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾
٤١١	١٢٨	﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا..... ﴾
٥٨٢	١٢٧ - ١٢٨	﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
٤١٣	١٢٩	﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ..... ﴾
٤٤٨	١٣٠ - ١٣٢	﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَعَىٰ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي..... ﴾
٥٨	١٣١ - ١٣٢	﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا..... ﴾
٤٤٦	١٣٣	﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن..... ﴾
٤٥١	١٣٦	﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ..... ﴾
١٦	١٨٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن..... ﴾
٣٢٣	٢٢١	﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ..... ﴾
٢٦٧	٢٢٩	﴿ أَوْتَشْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾
١٦٣	٢٣٦	﴿ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾
١٦٣	٢٣٨	﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾
٦٠	٢٤٧	﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾
٦٠	٢٥١	﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾
٦١	٢٥١	﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾
٢٨٦	٢٥١	﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾

سورة آل عمران

٥٩٣ ، ٥٩٢ ، ١٤٢ ، ١١	٣٣	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
٥٩٦	٣٣ - ٣٤	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ..... ﴾
٥٩٠	٣٣ - ٣٧	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ..... ﴾
٥٩٢	٣٥	﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾
٥٩٨ ، ١٤٣	٣٥	﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٩٩	٣٦	﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ..... ﴾
٦٠١	٣٦	﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكَ وَدُرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾
١٤٣	٣٦ - ٣٧	﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ..... ﴾
٦٠٢	٣٧	﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾
١٤٤	٣٧	﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ... ﴾
١٤٧	٣٧	﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ... ﴾
١٠٤ ، ٩٦	٣٨	﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾
١٠٦	٣٨	﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾
١٠٥	٣٩	﴿ فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ..... ﴾
٥٠٩	٣٩	﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا..... ﴾
٥١٠	٣٩	﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾
٣٨٨ ، ١٥٤	٤٠	﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾
١٠٧	٤٠ - ٤١	﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرَ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ.. ﴾
١٠٩	٤١	﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا..... ﴾
٥٩٤ ، ١٤٩	٤٢	﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾
٥٩٧	٤٢	﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ.... ﴾
١٤٧	٤٢	﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾
١٤٨	٤٣	﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾
١٤٥	٤٤	﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ..... ﴾
١٤٤	٤٤	﴿ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾
١٦٢	٤٥ - ٤٦	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي..... ﴾
١٤٩	٤٥ - ٤٨	﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ..... ﴾
١٥٠	٤٧	﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ... ﴾
١٦٣	٤٧	﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾
١٦٢	٤٨ - ٤٩	﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٤٥٠	٦٧ - ٦٨	﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ..... ﴾
٤٥٠	٨٣ - ٨٤	﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا..... ﴾
٨٦	١٣٤	﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾
٣٥١	١٥٥	﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾
٢٥	١٦٤	﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو..... ﴾
٤٣١	١٨٣	﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾

سورة النساء

٣٢٩ ، ٣٢٥	١	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا..... ﴾
٢٦٥	٣	﴿ فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا..... ﴾
٣٧٥	١٧ - ١٨	﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِّنْ..... ﴾
٢١٣	٢٣	﴿ وَحَلَّلَ أَبْنَاءَكُمْ الَّذِينَ مِن أَصْلَابِكُمْ ﴾
٢٦١	٣٤	﴿ فَالَّذِي حَتَّ قَلْبُكَ حَفِظْتُكَ لَلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ..... ﴾
٥٣٤	٣٦	﴿ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَيِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾
٥٣٣	٥٤	﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾
٢٠٧	٦٥	﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ..... ﴾
٦٢٧	٨٦	﴿ وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾
٥٨٥	١٢٥	﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾
٦٧	١٣٥	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ.. ﴾
١٧٨	١٥٦	﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾
٥٥٦ ، ٣٧٧ ، ٦٣	١٦٣	﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ..... ﴾

سورة المائدة

٤٤١ ، ٤٣٠	٢٧	﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ..... ﴾
٦٠٤ ، ٥٩٩ ، ٤٤٤	٢٧	﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾
٤٢٩	٢٧ - ٣٠	﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ..... ﴾
٤٤٥ ، ٤٣٢ ، ٨٠	٢٨	﴿ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٤٣٣	٢٩	﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ..... ﴾
٤٤٣	٢٩	﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءَ الظَّالِمِينَ ﴾
٤٣٥	٣٠	﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾
٤٣٧	٣١	﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ ﴾
٤٣٧	٣١	﴿ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي..... ﴾
٤٤٣	٣٢	﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ..... ﴾
٢٠	٤٥	﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ..... ﴾
١٦	٤٨	﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾
١٧٨	٧٢	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾
١٧٨	٧٣	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ..... ﴾
١٧٨	٧٥	﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ..... ﴾
٢٦٣	٨٩	﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ... ﴾
١٧٩	١١٠	﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ..... ﴾
١٧٩ ، ٢٦	١١٦	﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي..... ﴾

سورة الأنعام

٢٣	٩ - ٨	﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ... ﴾
٢٥ ، ٢٤	٩	﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾
٢٥	٩	﴿ لَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾
٣٨٦	١٧	﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ..... ﴾
١٠٠	٦٣	﴿ قُلْ مَنْ يُنجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾
٣٥	٧٥ - ٧٤	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي..... ﴾
٥١	٧٩ - ٧٥	﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ..... ﴾
١٢٣	٨٤	﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾
٥٥٦ ، ٤٥٣	٨٤	﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ... ﴾
٤٧٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦	٨٤	﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ. ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
١٩	٨٤ - ٩٠	﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ...﴾
٥٠٩	٨٥	﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾
٥٠٨، ٢٩٠، ١٨	٩٠	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾
١٧	١٤٦	﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ...﴾

سورة الأعراف

٣٤٦	١٢	﴿قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ.....﴾
٣٦٥	١٣	﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾
٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٦	١٩	﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا.....﴾
٣٥٢، ٣٥٠	٢٠ - ٢٢	﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا.....﴾
٣٦٠	٢١ - ٢٢	﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ❖ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾
٣٥٦	٢٢	﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَمَا الشَّجَرَةَ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ....﴾
٣٧٤، ٣٥٧	٢٣	﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
٣٦٣	٢٤	﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى....﴾
٣٦٨، ٣٦٦	٢٤ - ٢٥	﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى....﴾
٣٧٤	٢٦ - ٢٧	﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسٌ.....﴾
٣٧٣، ٣٦٥	٢٧	﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا...﴾
١٠٠	٥٥	﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
٢٩١، ٢٧٣، ٢٧١	٥٩	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقِرُوا لِقَوْمِهِمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾
٢٩٠	٦١ - ٦٢	﴿قَالَ يَفْقِرُوا لِيَسِيْرِي ضَلَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أَبْلَغَكُمْ.....﴾
٢٢	٦٣	﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾
٢٨٠	٨٠ - ٨٢	﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن.....﴾
٤٧٢	٨١	﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾
٢٨٩	٨٣	﴿فَأَجْبِنُوهُ وَأَهْلُوهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾
٤٥٣	١٦٠	﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾
٣٢٩	١٨٩	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا.....﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٣٣٩	١٩٠ - ١٩١	﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا ﴾
٥٦٤	١٤٨ - ١٥١	﴿ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا ﴾
٥٦٦	١٥٠	﴿ يِرْأَسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ ﴾
٥٦٦ ، ٥٦٧	١٥٠	﴿ ابْنِ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ﴾
٥٧٧	١٥٠	﴿ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي ﴾
٥٧٠	١٥١	﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾
٥٦٤	١٤٢	﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِئَمِّ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً... ﴾
٥٦٧	١٤٢	﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ﴾

سورة الأنفال

٢٩٣	٦٠	﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ... ﴾
-----	----	---

سورة التوبة

٢٦٠	٤٣	﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾
٥٩٥	٦٧	﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾
٤١	١١٣	﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى ﴾
٤١	١١٤	﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ... ﴾
٩٥	١١٤	﴿ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ ﴾
٣٠	١٢٨	﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾

سورة يونس

٢٢	٢	﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾
٥٦٣	٧٥	﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا. ﴾
٣٧	٩٦ - ٩٧	﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ ﴾

سورة هود

٢٧٣ ، ٢٧١	٢٥ - ٢٦	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي ﴾
٢٧٣	٣٢	﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَدْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ﴾
٢٧٥	٣٦	﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٣٩٧ ، ٢٧٧	٤٠	﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ... ﴾
٤٠٢	٤٠	﴿ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾
٢٧٤	٤٠	﴿ وَمَاءَ أَمْنٍ مَعَهُ، إِلَّا قَلِيلٌ ﴾
٤٠٦	٤١	﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
٣٩٩	٤١ - ٤٢	﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ..... ﴾
٤٠٠	٤٤	﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاةِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ... ﴾
٣٩٩	٤٣ - ٤٢	﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ..... ﴾
٤٠١	٤٤ - ٤٥	﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ..... ﴾
٤٠٥	٤٦	﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾
٤٠٣	٤٧	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي..... ﴾
٤٠٤	٤٨	﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ..... ﴾
٦٣٨	٦٧ - ٧١	﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا..... ﴾
٦٢٩	٦٩	﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ.... ﴾
٦٣٠	٧٠	﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾
٦٢٥	٦٩ - ٧٠	﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ.... ﴾
٤٢٣	٧٠ - ٧١	﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ..... ﴾
٤٢١ ، ١٨٠	٧١	﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾
٤٢٢ ، ١٢٣	٧١	﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾
٥٩١ ، ٤٠٩	٧٣	﴿ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾
٥٩٧	٧٣	﴿ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾
٥٨٥ ، ٤٠٩ ، ٩٥ ، ٣٠	٧٥	﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾
٦٣٤ ، ٣٣٦	٧٧ - ٨١	﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ... ﴾
٦٣٨ ، ٦٣٧	٧٨	﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾
٦٣٨	٧٨	﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي..... ﴾
٦٣٩	٧٨	﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٤٦٩	٧٨ - ٨٠	﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ...﴾
٦٤١ ، ٤٧٢	٧٩	﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾
٦٤٢ ، ٢٩٣	٨٠	﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾
٢٩٤	٨٠ - ٨١	﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ...﴾
٦٤٣ ، ٤٧٤	٨١	﴿قَالُوا يَا لَوِطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾
٢٨٦	٨١ - ٨٣	﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَنْفِتْ﴾
٣١٤	٨٩	﴿وَمَا قَوْمٌ لَوِطٌ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾
٢٨٦	٩١	﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾
٢٩٢	١١٧	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِیُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْبِحُونَ﴾
١٥	١٢٠	﴿وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ...﴾

سورة يوسف

١١٣	٣	﴿لَحْنُ نَقْصُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾
٢	٣	﴿لَحْنُ نَقْصُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ...﴾
٥٢٦ ، ٧٧	٤	﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ...﴾
٥٣٥ ، ٥٢٦ ، ٧٨	٥	﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ...﴾
٥٥٣	٥	﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾
٨١	٦	﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ...﴾
٥٥١ ، ٥٢٥ ، ١١٣	٧	﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾
٥٢٦	٨	﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا...﴾
٥٥٢	٨ - ٩	﴿قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي...﴾
٥٢٨	٩	﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ...﴾
٥٢٩	١٠	﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ...﴾
٥٣٠	١١	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾
٨٣	١١ - ١٣	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلَهُ...﴾
٥٣٠	١٢	﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٣٠	١٣ - ١٤	﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ..... ﴾
٥٣١	١٥	﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ..... ﴾
٥٣١	١٦ - ١٧	﴿ وَجَاوُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ ﴾
١٩٣	١٨	﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾
٥٣٢	١٨	﴿ وَجَاوُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا..... ﴾
٥٥٥	١٨	﴿ وَجَاوُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾
٥٣٥	١٩ - ٢٠	﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ..... ﴾
١٣٢	٢١	﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
٨٢	٢٢	﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾
٤٥٦	٢٥	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾
٥٣٥	٣٣	﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾
٤٩٧	٣٦	﴿ أَنِّي أَرَانِي أُعْصِرُ خَمْرًا ﴾
٨٣	٣٧	﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا... ﴾
٨٢	٤١	﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ... ﴾
٢٦ ، ٢	٤٢	﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾
٨٢	٤٧	﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾
٥٣٦	٥٤	﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾
٥٣٦	٥٤	﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾
٥٣٦	٥٥	﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾
٥٣٦	٥٦ - ٥٧	﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ..... ﴾
٥٣٧	٥٨ - ٦٣	﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا..... ﴾
٥٣٨	٦٢ - ٦٤	﴿ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ.... ﴾
٥٣٩	٦٥	﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي... ﴾
٥٣٩	٦٦	﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ..... ﴾
٤٥٤ ، ٥٤٠	٦٧	﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٤٠	٦٩	﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتسئس..... ﴾
٥٤٠	٧٠ - ٧٢	﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذناً..... ﴾
٥٤١	٧٣	﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾
٥٤١	٧٤ - ٧٥	﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله..... ﴾
٥٤٢	٧٦	﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك..... ﴾
٥٤٢	٧٧	﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه..... ﴾
٥٤٣	٧٨ - ٧٩	﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك..... ﴾
٥٤٣	٨٠ - ٨٢	﴿ فلما استئاسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد..... ﴾
٨٤	٨٣	﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾
٥٤٥	٨٣	﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن ياتيني بهم..... ﴾
٨٤	٨٤ - ٨٧	﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو.. ﴾
٣٨٦ ، ٣٨١	٨٦	﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾
٨٧	٨٧	﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه... ﴾
٥٤٥	٨٨	﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة..... ﴾
٥٤٥	٨٩	﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾
٥٤٦	٩١ - ٩٣	﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ❖ قال لا تثريب... ﴾
٨٨	٩٣	﴿ اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم... ﴾
٨٩	٩٤ - ٩٥	﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن..... ﴾
٨٦	٩٦	﴿ فارتد بصيراً ﴾
٩٠	٩٦	﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم..... ﴾
٥٤٧	٩٧	﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾
٥٤٨	٩٨	﴿ سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾
٩٠	٩٩	﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله... ﴾
٩١ ، ١٧	١٠٠	﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل..... ﴾
٧٨	١٠٠	﴿ وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٤٨	١٠٠	﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾
٥٤٩	١٠٠	﴿بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ...﴾
٥٤٩	١٠٠	﴿رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
١٨١	١٠٩	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾
١٥	١١١	﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
٣	١١١	﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى.....﴾

سورة الرعد

٢٩	٣٨	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَدُرِيَّةً﴾
----	----	--

سورة ابراهيم

٣١٠	٣٥ - ٤٢	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ...﴾
١٦١	٣٦	﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ﴾
٣١١، ٣٠٦	٣٧	﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا...﴾
٥٧٩، ٣١١، ٩٦	٣٩	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَخَبِيرٌ﴾
٣	٤٠	﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾
٩٦	٤٠	﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾
٤١	٤١	﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

سورة الحجر

٦٢٥	٥٢ - ٥١	﴿وَتَبَتُّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ❖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا...﴾
٥٨٦	٥٣	﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾
٩٥	٥٣	﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾
٢٨٩	٥٨ - ٦٠	﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾
٥٩٠، ١١	٥٩	﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
٦٣٥	٦١ - ٧٢	﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ❖ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ❖ قَالُوا...﴾
٢٨٩	٦٣ - ٦٥	﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾
٤٧٤	٦٥	﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَمِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ...﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٦٣٧	٦٧	﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾
٦٤٠	٦٩	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾
٦٤٥ ، ٦٤١	٧٠	﴿قَالُوا أَوْلَكُم نُنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

سورة النحل

١٥٠	٢	﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾
٣٤١	٦ - ٥	﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا...﴾
٤٣٤	١٥	﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾
٣٧٢	٧٢	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ...﴾
٥٤٦	١١٩	﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾
٥٨٥	١٢٠	﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾

سورة الإسراء

١٤	٩	﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ...﴾
١٦٥	١٢	﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾
٥٢٢ ، ١٧٧	٢٣	﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
٥٢٢	٢٤	﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾
٥٣٤	٢٦	﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾
٣٤٦	٣٢	﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ﴾
٦٤	٥٥	﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ...﴾
٢٦	٩٣	﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾
٢٣	٩٤	﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا﴾
٢٤	٩٥	﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ...﴾

سورة الكهف

٣٦٧	٣٢	﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾
٣٦٧	٣٩	﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾
٩٣	٤٦	﴿الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٣٤٢	٥١	﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ ﴾
٢٢	١١٠	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ ﴾

سورة مريم

٩٨	٦ - ١	﴿ كَهَيْعِصَ * ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ. ﴾
١٠٠	٤	﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ﴾
٣٨٩	٤	﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾
١٠٢	٥	﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ ﴾
٣٨٨	٥	﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾
٩٨	٦ - ٥	﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِيئِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾
١٠٣	٦	﴿ يَرِيئِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾
٥٠٩	٧	﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾
١٠٦، ١٠٥	٧	﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾
٣٨٨	٨	﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ... ﴾
١٠٧	٨ - ١١	﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ... ﴾
١٠٩	١١ - ١٠	﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ ﴾
٦٩	١١	﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾
٥٠٩	١٢	﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾
٥١٣	١٢ - ١٥	﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً... ﴾
٥٢٣، ٥٢١	١٥	﴿ وَسَلَامًا عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾
١٦٨	١٦	﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾
١٥٥	١٦ - ٢١	﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ ﴾
١٨٢، ١٥٠	١٧	﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾
١٨٢	١٨	﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾
١٨٠	١٩	﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾
١٦٧	٢٢ - ٢٣	﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
١٧٠	٢٥ - ٢٦	﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَٰؤُلَاءِ إِلَيْكَ...﴾
١٨٥	٢٦	﴿فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ...﴾
١٧٣	٢٧ - ٢٨	﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتُ...﴾
٥٩٧	٢٨	﴿يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾
١٥٣	٢٩ - ٣٢	﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنَّي عَبْدٌ...﴾
٥٢٣	٣٣	﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾
١٧٨	٣٤ - ٣٧	﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ...﴾
٥٨٥	٤١	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾
٣٧	٤١ - ٤٥	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا...﴾
٤٧	٤٢	﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾
٣٩	٤٦	﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِلْأَرْجَمَتِكَ وَاهْجُرْنِي...﴾
٤٠	٤٧	﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾
٣٩١	٤٨	﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ...﴾
١٢٣	٤٩	﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾
٥٦٩	٥٣	﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾
٥٨٠، ٤١٥، ٣٠	٥٤	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾
٤٢٤	٥٤ - ٥٥	﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا *...﴾
٣٣٨	٦٦	﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾
٣٣	٨٥	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ...﴾

سورة طه

٣١٨	٩ - ١٠	﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي...﴾
٢٤٢	١٠	﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾
٢٠	١٤	﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾
٣٦٤	٢٣	﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾
٥٧٦	٢٩	﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٧٦	٣٠	﴿ هَارُونَ أَخِي ﴾
١٣٢	٣٩	﴿ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَا خُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ ﴾
١٣٥	٣٩	﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾
٥٧٤ ، ٥٧٢ ، ١٣٩	٤٠	﴿ إِذِ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ... ﴾
٥٧٤ ، ١٣٩	٤٠	﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾
٥٦٣	٤٣	﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾
٣٢٠	١٤ - ١١	﴿ فَلَمَّا أَنَا هَارُونَ نُوْدِي يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ... ﴾
٥٥٧	٣٦ - ٢٥	﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً... ﴾
٥٥٩	٣٠ - ٢٩	﴿ وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾
٥٦٠ ، ٥٥٨	٣٢ - ٢٩	﴿ وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي *... ﴾
١٣٠	٣٩ - ٣٧	﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾
٥٧١ ، ١٢٥	٤٠ - ٣٧	﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ أَقْذِفِيهِ ﴾
٥٧٠	٤٠ - ٣٨	﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ أَقْذِفِيهِ... ﴾
٥٥٨	٤٣ - ٤٢	﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾
٥٦٦	٨٥	﴿ إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾
٥٦٥	٩٤ - ٨٦	﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاءُ... ﴾
٥٧٧	٩٠	﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾
٥٦٩	٩١ - ٩٠	﴿ قَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ... ﴾
٥٧٧ ، ٥٦٦	٩٣ - ٩٢	﴿ قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾
٥٦٦	٩٤	﴿ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾
٥٦٨	٩٤	﴿ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ... ﴾
٣٧٥ ، ٣٥٩	١١٥	﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾
٣٤٣	١١٩ - ١١٥	﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا... ﴾
٣٥٦	١١٧	﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾
٣٤٨	١١٩ - ١١٧	﴿ قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ *... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٣٦٩	١١٨ - ١١٩	﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾
٣٦٩	١٢٠	﴿هَلْ أَدُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَى﴾
٣٦٦	١٢٠	﴿وَسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ.....﴾
٣٥٦	١٢١	﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾
٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥	١٢١ - ١٢٢	﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾
٣٦٣	١٢٣	﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يُؤْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى.....﴾
٤٤١	١٢٣	﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾
٤٢٥	١٣٢	﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾

سورة الأنبياء

٢٨	٧ - ٨	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ.....﴾
٣٨٩	٨	﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ...﴾
٤٤٧	٢٥	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾
٣٨٥	٣٥	﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾
٣٩٢	٤٨ - ٩٠	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ.....﴾
٥٨٥	٥١	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾
١١٢ ، ٤٥	٥١	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾
٤٥	٥٢	﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾
٤٦	٥٣	﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾
٤٦	٥٤	﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
٤٦	٥٥	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾
٤٦	٥٦	﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ.....﴾
٤٧	٥٧	﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾
٤٧	٥٨	﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾
٤٨	٥٩	﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾
٤٨	٦٠	﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٤٨	٦١	﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾
٤٨	٦٢ - ٦٣	﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمَ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا.....﴾
٤٩	٦٤	﴿فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾
٤٩	٦٥	﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾
٤٩	٦٦	﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾
٥٠	٦٧	﴿أَف لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
٥٠	٦٨	﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾
٥٠	٦٩	﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾
٢٩٦ ، ٢٧٨	٧١	﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾
٣٧٨	٨٣ - ٨٤	﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا..﴾
٤٧٨	٧٨ - ٧٩	﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ.....﴾
٦٢ ، ٢٨	٨٠	﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾
٤٩٣	٨١	﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا﴾
٤٩٥	٨٢	﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُعْوِضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ.....﴾
٢٧	٨٣	﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
٣٨٦	٨٣	﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
٣٨٠	٨٤	﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾
١٠٤	٨٩	﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾
٣٨٨	٨٩ - ٩٠	﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا...﴾
٣٩٠	٩٠	﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾
١٠٥ ، ١٠٦ ، ٣٩١	٩٠	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا.....﴾
١٦٥	٩١	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾
١٧٩ ، ١٥٩	٩١	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً.....﴾
٦٤	١٠٥	﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
سورة الحج		
٣٠٩	٢٥	﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾
سورة المؤمنون		
٣٤١	٢١	﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ.....﴾
٢٧٥	٢٦	﴿قَالَ رَبِّ انصُرني بِمَا كَدَّيْتُ﴾
٥٦٣ ، ٥٥٨	٤٥	﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾
١٧٩ ، ١٦٤	٥٠	﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآتيناهما إلی ربوة ذات قرار ومعين﴾
٤١١	٦٠	﴿والذين يؤثون ما آتوا وقلوبهم ورجلة﴾
سورة النور		
٢٥٧	٤	﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً...﴾
٢٥٧	٥	﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾
٢٥٠	١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مَنكُومٌ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ كَذِبٌ لِكُلِّ امْرِئٍ بِمَنَّمَا...﴾
١٨٧	٢٠ - ١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مَنكُومٌ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِكُلِّ امْرِئٍ...﴾
٢٥١	١٢	﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾
١٩٧ ، ١٩٦	١٣ - ١٢	﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ لَوْلَا﴾
٢٥١	١٣	﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾
٢٥١	١٤	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾
٢٥١ ، ١٩٨	١٥	﴿إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْأَسْتِكَارِ وَقَالُوا بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾
٢٥٢	١٦	﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾
٢٥٢	١٧	﴿يَعْظَمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
٢٥٢	١٨	﴿وَيَسِّرْ اللَّهُ لِكُلِّ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
٢٥٢ ، ٢٠١	١٩	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الدِّينِ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾
٢٥٣	٢٠	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
٢٥٣	٢١	﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ...﴾
٢٥٣	٢٢	﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ.....﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٢٠٢	٢٢	﴿ وَلَا يَأْكُلُ أَوْلَاؤُا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ .. ﴾
٢٥٦	٢٣	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
٣٧٥	٣١	﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
٢٤٦	٣١	﴿ وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِعُضُوتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾
١٦٢	٣٣	﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِنَبِّئْتَهُنَّ عَرَضَ الْحَيَاةِ... ﴾
٦١٧	٦٣	﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾

سورة الفرقان

٢٩	٧	﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ ﴾
٢٣	٢٢ - ٢١	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ..... ﴾
٢٤	٢٢	﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾
٥٥٧	٣٦ - ٣٥	﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى ... ﴾
٤٠	٦٣	﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾

سورة الشعراء

٥٥٧	١٢ - ١٣	﴿ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ... ﴾
٤٤	٧٤ - ٦٩	﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا..... ﴾
٤٥	٨٣ - ٧٥	﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي..... ﴾
٢٩	٨١ - ٧٩	﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي..... ﴾
٩٥	٨٣	﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾
٤١	٨٦	﴿ وَاغْفِرْ لِي يَا رَبِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾
٢٩٢	١٦٣ - ١٦٠	﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ... ﴾
٢٧٩ ، ٢٩٢ ، ٤٧١ ،	١٦٦ - ١٦٥	﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ... ﴾
٢٨٠	١٦٨ - ١٦٧	﴿ جِئْتُمُونِي لَتَنْتَهُنَّ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ.... ﴾
٢٨٩	١٧١ - ١٦٩	﴿ رَبِّ يَجْنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾
٤٧٥	١٧١ - ١٧٠	﴿ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾
١٥٩	١٩٤ - ١٩٣	﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٣٧	٢١٤	﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

سورة النمل

٣١٨	٧	﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ... ﴾
٢٤٢	٧	﴿ سَاتِيكُمْ ﴾
٣٢٠	٨ - ٩	﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ... ﴾
٢٤٢	١٠	﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ ﴾
٥٠٧ ، ٤٧٨ ، ١١٣	١٥	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ..... ﴾
٥٠٢	١٦	﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ... ﴾
٤٨٣ ، ٤٧٧ ، ١٠٣	١٦	﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾
٥٠٢	١٧	﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾
٥٠٣	١٨ - ١٩	﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا..... ﴾
٩٥	١٩	﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾
٥٠٤	٢٠ - ٢٦	﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَهُ... ﴾
٢٨١	٥٤ - ٥٥	﴿ وَكُلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ... ﴾
٢٨٩	٥٧	﴿ جَفَانَجِينَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

سورة القصص

١٢٤	٣ - ٤	﴿ تَنْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ... ﴾
١٢٩	٦	﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ... ﴾
١٨١ ، ١٢٧	٧	﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ... ﴾
١٤٠	٧	﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾
١٢٥	٧ - ١٣	﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ... ﴾
١٣١	٨	﴿ فَالْقَطْعَةُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ... ﴾
١٣٤	٩	﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا... ﴾
١٣٧	١٠	﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ... ﴾
١٧٤ ، ١٣٨	١١	﴿ وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٧٢	١٠ - ١٣	﴿ وَأَصْبَحُ فُؤَادٌ أُمّ مُوسَى فَاِرْغَاً إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ..... ﴾
٥٧١	١١ - ١٢	﴿ وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ قُضِيَهُ فَبَصُرْتُ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَمْنَا..... ﴾
١٣٨	١٢	﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ..... ﴾
١٣٩	١٣	﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ..... ﴾
٤٥٧	٢٠ - ٢٢	﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَآئِئِمَةَ يَأْتَمِرُونَ..... ﴾
٤٥٨	٢٣	﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ..... ﴾
٤٥٩	٢٤	﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ..... ﴾
٤٦٢	٢٥	﴿ فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ..... ﴾
٤٦٤ ، ٣١٥	٢٦	﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَن اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾
٣٠	٢٦	﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَن اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾
٢٧	٢٧	﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْفِكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي..... ﴾
٤٦٦ ، ٣١٤	٢٧ - ٢٨	﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْفِكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي..... ﴾
٣١٦	٢٨	﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ..... ﴾
٣١٦	٢٩	﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ..... ﴾
٣٢٠ ، ٣١٩	٣٠ - ٣٢	﴿ فَلَمَّا أَنهَاهُ نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ..... ﴾
٣٢٢	٣١	﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾
٥٦٠ ، ٥٥٩	٣٣ - ٣٤	﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ..... ﴾
٥٥٧	٣٤	﴿ هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِي رَدًّا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن.. ﴾
٥٦٢ ، ٥٥٧	٣٥	﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصُلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا... ﴾
٤٠	٥٥	﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ... ﴾
٣١٠	٥٧	﴿ أَوْلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَدُنَّا ﴾

سورة العنكبوت

٤٣٤	١٣	﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾
٢٧٤	١٤	﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾
٢٩٦ ، ٢٧٨ ، ٥٥	٢٦	﴿ فَتَمَنَّ لَهُ، لَوْ طُوبَى وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٩١	٢٧	﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾
٢٨١	٢٨ - ٢٩	﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِن ﴾
٦٤٢	٣٢	﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾
٢٨٩	٣٣	﴿ إِنَّا مُنَجِّوُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾
٦٣٥	٣٣ - ٣٤	﴿ وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا ﴾
٢٨٨	٣٤	﴿ إِنَّا مُزِلُّوُكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

سورة الروم

٣٧٢ ، ٣٢٩	٢١	﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمُ ﴾
-----------	----	---

سورة لقمان

١٧٧	١٤	﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾
٢٩٣	٣٣	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا ﴾

سورة الأحزاب

٢١٣	٤	﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾
٢٦٠ ، ٢٠٤	٥ - ٤	﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ تَطْلَهْرُونَ مِنْهُنَّ ﴾
٤٧٢	٦	﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾
٤٧١	٦	﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾
٥٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٢	٢١	﴿ جَعَدَ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ... ﴾
٢٦٦ ، ٢٣٢	٢٨ - ٢٩	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكِ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ.. ﴾
٢٣٦	٣٠ - ٣٢	﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾
٢٣٨	٣٢	﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾
٢٣٤	٣٢	﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾
٢٣٨	٣٣	﴿ وَفَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ . ﴾
٦٢٢	٣٤	﴿ وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾
٢٤٣	٣٤	﴿ وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ ﴾
٢٠٦ ، ٢٥٨	٣٦	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِّن أَمْرِهِمْ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٢٠٧	٣٦	﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾
٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠	٣٧	﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ ... ﴾
٢١٠	٣٨	﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ..... ﴾
٢١١	٤٠	﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾
٢١٣	٤٠	﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾
٢٢٢، ٢٦٤	٥٠	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ.. ﴾
٢٢٦	٥٠	﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ ﴾
٢٦٥	٥٠	﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتِلْكَ وَرِزْقٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَاحِدَةً ﴾
٢٦٥	٥١	﴿ تُرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَاءِ مَمْنٍ عَزَلْتَ فَلَاحِاحَ عَلَيْكَ ﴾
٢٢٧	٥١	﴿ تُرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَاءِ مَمْنٍ..... ﴾
٢٣٥	٥٢	﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾
٢٣٦	٥٢	﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾
٢٣٠	٥٢	﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ... ﴾
٦١٠، ٦٠٨	٥٣	﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ..... ﴾
٢٣٦	٥٣	﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾
٢٤٦	٥٥	﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيءِ آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ... ﴾
٢٤٤	٥٩	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ حَلِيِّهِنَّ... ﴾
٣٢، ٣١	٦٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آدُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا..... ﴾

سورة سبأ

٦١	١٠ - ١١	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدُ*... ﴾
٤٩٧	١٢	﴿ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ ﴾
٤٩٤	١٢	﴿ غَدُوها شهرٌ ورواحها شهرٌ ﴾
٤٩٨، ٤٩٥	١٢	﴿ وَمِنَ النِّجْنِ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ... ﴾
٥٠٨، ٦٩	١٣	﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾
٤٩٨	١٣	﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ..... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٠٠، ٦٣	١٣	﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾
٥٠٥	١٤	﴿ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ..... ﴾

سورة فاطر

٣٧٣	٦ - ٥	﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ..... ﴾
-----	-------	---

سورة الصافات

١٦٥	٧٢	﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ﴾
٢٧٥	٧٥	﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾
٤٠٥	٧٦ - ٧٥	﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ..... ﴾
٤٥	٩٠ - ٨٣	﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِبِرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ..... ﴾
٤٨	٩٧ - ٩٠	﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَأَىٰ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَأ..... ﴾
٥٥	٩٨ - ١٠٠	﴿ فَارْتَوْا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ..... ﴾
٩٣	٩٩	﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ﴾
٣٠٣	٩٩ - ١٠٠	﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ❖ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * ﴾
٤١٩	٩٩ - ١٠١	﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ❖ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ *..... ﴾
٥٤	٩٩ - ١١٣	﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ *..... ﴾
٥٧٩، ٤٠٧	١٠١ - ١٠٠	﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾
٥٨٥، ٣٠٣، ٥٥، ٩٤	١٠١	﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾
٤١٥، ٥٤	١٠٢ - ١٠١	﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ..... ﴾
٥٨٢، ٤١٥	١٠٢	﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾
٥٦	١٠٢	﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾
٤١٦، ٥٧	١٠٣	﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾
٤١٩	١٠٧ - ١٠٢	﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ..... إِلَىٰ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ..... ﴾
٤١٦	١٠٥ - ١٠٤	﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي..... ﴾
٤١٧	١٠٦	﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾
٤١٧	١٠٧	﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٥٨٥	١٠٩	﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾
٥٨٤ ، ٥٧٩ ، ٩٥	١١٢	﴿وَبَشِّرْنَا هُوَ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾
٥٨٤	١١٣	﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾
٢٨٩	١٣٥ - ١٣٣	﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا...﴾
٤٧٥	١٣٥ - ١٣٤	﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِرِينَ﴾

سورة ص

٦٠	١٧	﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
٦٣	١٨	﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾
٦٥	٢٠	﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾
٦٨	٢٥ - ٢١	﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ...﴾
٧١	٢٣	﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا...﴾
٧٢	٢٤	﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي..﴾
٤٩١	٢٤	﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾
٧٣	٢٥ - ٢٤	﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ...﴾
٦٥	٢٥	﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾
٦١	٢٦	﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾
١١٣ ، ٦٦	٢٦	﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا...﴾
٥٠٧ ، ٤٧٧ ، ٦٥	٣٠	﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
٤٩١	٣٠	﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
٤٨٤	٣٣ - ٣٠	﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ...﴾
٣٥٥	٣٣	﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾
٤٨٩	٣٥ - ٣٤	﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ...﴾
٤٩١	٣٥	﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ...﴾
٤٩٣	٤٠ - ٣٦	﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ﴾
٤٩٥	٣٨ - ٣٧	﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخِرِينَ مَّقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٤٩٦	٣٩	﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾
٣٧٩	٤١	﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابِ ﴾
٣٧٨	٤٣ - ٤١	﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابِ *... ﴾
٣٨٠	٤٢	﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾
٣٨٢	٤٣	﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
٣٨٦ ، ٣٨٣	٤٤	﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ... ﴾
٢١	٤٤	﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ ﴾
٣٨١	٤٤	﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾
٥٨٤	٤٧ - ٤٥	﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا... ﴾
٣٧٣	٨٣ - ٧٧	﴿ قَالَ فَارْجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ❖ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ..... ﴾

سورة الزمر

٣٣٩	٥	﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ... ﴾
٣٣٩	٦	﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ... ﴾
٨٢	٢٣	﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾
٢٩	٣٠	﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾
١٧٥	٧٣ - ٦٨	﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ... ﴾

سورة غافر

٥٩٠ ، ١٣	٤٦	﴿ أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾
----------	----	--

سورة فصلت

٢٥٠	٤٢	﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾
-----	----	--

سورة الشورى

١٦	١٣	﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ... ﴾
٥٣٤	٢٣	﴿ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
٥٠ - ٤٩	٩٣	﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَإِنَّآ وَبِهِبْ... ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
--------	-------	-------

سورة الأحقاف

٥٩٩ ، ٤٣٠	١٦	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾
-----------	----	---

سورة الفتح

٦١٧	٩	﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾
-----	---	--

سورة الحجرات

٦١٥	٥ - ١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ...﴾
٦١٩	٣	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ...﴾
٦١٩	٥ - ٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ...﴾
٣٢٩	١٣	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ...﴾

سورة الذاريات

٦٩	٢٤	﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾
٦٣٢	٢٧ - ٢٤	﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا...﴾
٩٥	٢٨	﴿وَبَشِّرُوهُ بِنِعْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾
٦٤٢ ، ٤٧٥ ، ٤٦٩	٣٦ - ٣٥	﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ...﴾
٤٧٢	٣٦	﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

سورة النجم

٤١٧	٣٧	﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾
٢٨٨	٥٤ - ٥٣	﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَمْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا عَشَى﴾

سورة القمر

٣٩٩	١٥ - ١٣	﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُوسِرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ...﴾
٦٤٣ ، ٦٣٧	٣٧	﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾
٢٨٨	٣٩ - ٣٧	﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً ..﴾

سورة الرحمن

٤٩٩	٢٤	﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾
-----	----	--

الصفحة	رقمها	الآية
--------	-------	-------

سورة الحديد

٣٢	٢٦	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ..﴾
١٧٥	٢٧	﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾

سورة الحشر

٥٣٣	٩	﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾
-----	---	---

سورة الممتحنة

١١٢، ٥٢، ٤٢	٤	﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا...﴾
-------------	---	---

سورة الصف

٢٥٨	٣ - ٢	﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا...﴾
٤١٤	٦	﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ...﴾

سورة الجمعة

٤١٣	٣ - ٢	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾
-----	-------	--

سورة التغابن

٢٢	٦	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا...﴾
----	---	---

سورة الطلاق

٢٦٧	١	﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾
٤١٧، ٣٨٤	٣ - ٢	﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ...﴾

سورة التحريم

٢٦١	١	﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
٢١٦	٥ - ١	﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾...﴾
٢٦٢	٢	﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
٢٦١	٣	﴿وَإِذَا أَسْرَأْتِنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأْتَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ...﴾
٢٦١	٥	﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَبَيَّنَتِ عِدَاتِ سَجَّحَتِ قَيْبَتٍ وَأَبْكَارًا﴾
٤٢٨، ٤٢٥	٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...﴾
٣٧٤	٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ...﴾

الصفحة	رقمها	الآية
٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٢٧٦	١٠	﴿جَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ...﴾
١٣٦	١١	﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ...﴾
٥٩٢ ، ١٦٤ ، ١٥٩	١٢	﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾

سورة الملك

٣٣٦	٥	﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾
-----	---	--

سورة القلم

٣٠	٤	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾
٣٦٧	١٧	﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾

سورة نوح

٢٧٣	١	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
٢٧٢	٤ - ٢	﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ...﴾
٢٧٢	٥	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾
٢٧٢	٩ - ٨	﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾
٢٩١ ، ٢٧٢	١٢ - ١٠	﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ...﴾
٢٩١	١٣	﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾
٦٠٢	١٧	﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾
٢٧٤	٢٣	﴿وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا الْهَيْكَلُ وَلَا نَذْرٌ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَعْوَتُ وَيَعُوقُ وَشَرًّا﴾
٢٧٥	٢٧ - ٢٦	﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَبِغُوا عِبَادَكَ...﴾
٢٧٦	٢٨	﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ...﴾

سورة الإنسان

٦٢٥	٩ - ٨	﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ...﴾
-----	-------	--

سورة المرسلات

٣٦٦	٢٦ - ٢٥	﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾
٨٢	٥٠	﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

الصفحة	رقمها	الآية
سورة الانفطار		
٣٩١	١٢ - ١١	﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾
سورة الشمس		
٥١٦	٩	﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾
٤٤١	٥ - ١	﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾
٣٦٥	٢ - ١	﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ ﴾

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
٢٥٢	أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره،
٢٥٨	اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر،
٦٣	أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً،
٤٢٢	أخبرتني امرأة من بني سليم، ولدت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان،
٣٤٣	أخرج إبليس من الجنة حين لُعن، وأُسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً، ليس له زوج يسكن إليها،
٤٣٢	إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار،
٣٣٥	إذا حدثكم أهل الكتاب، فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم،
٢٠	إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها،
٢٤٩	إذا كان لإحداكن مكاتب، فكان عنده ما يؤدي، فلتحتجب منه،
٦١٨	أذهب إليه فقل له: لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة،
٥٨١	ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان، فأمسكوا بأيديهم،
٣٢٥	استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه،
٥٨٩	أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل،
١٤٧	أفضل نساء أهل الجنة،
٦٢٣	أفطر عندكم الصائمون، وصلت عليكم الملائكة وأكل طعامكم الأبرار،
٢٩٤	اقتلوا الفاعل والمفعول به،
١٦	الأنبياء أبناء علات،
٣٧٩	الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه،
٥٥٤	البر حسن الخلق،
٥١٩	الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة،
٣١٣	الله أمرك بهذا.. ثم قالت إذن لا يضيعنا،
١٤	اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً،
٣٠٠	اللهم إن كنت تعلم أني آمن بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي،
٣٠٠	اللهم إنه إن يميت يقل هي قتلته، قال فأرسل، فقال في الثالثة، أو الرابعة ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً،
٥٧٧	اللهم إنني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء،
٢٦٦	اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك،
٦٦	المقسطون على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين،

- أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، ٢٩
- إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق ، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ٥٨٧
- إن إبراهيم لما أمر بالمناسك عَرَضَ له الشيطان عند السعي فسأقه ، فسبقه إبراهيم ، ٤١٨
- أن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية ، فطلبوا الأرش ، وطلبوا العفو ، فأبوا ، ٢٠
- إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي ، لها بالاً تهوي به في النار ، ٢٠٠
- أن الرسول ﷺ مرّ بيوسف عليه الصلاة والسلام في السماء الثالثة ، قال : فإذا هو قد أُعطي شطر الحسن ، ٣٢
- إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ قَالَ : هم المؤمنون من آل إبراهيم ، ٥٩٠
- إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قَرِيشًا مِنْ كَنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشِ بَنِي هَاشِمٍ ، ٥٨١
- إن الله اصطفى من إبراهيم إسماعيل ، ٤٢٤
- إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما تحدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم ، ٢٠١
- أن الله لما خلق آدم مسح ظهره ، فأخرج كل نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة ، ٣٤٠
- أن النبي ﷺ قضى في قصة الربيع بالقصاص في السن ، ١٩
- أن النبي ﷺ كان في بيتها ، فأته فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة ، فدخلت بها عليه ، ٢٤١
- أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ، ويشرب عندها عسلاً ، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل ، ٢٢٠
- أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي ، ٢٢٤
- إن أيوب نبي الله عليه الصلاة والسلام لبث في بلائه ثمانين سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين ، ٣٨٢
- إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، يُصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ٤٣٣
- إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ٤٤٤
- إن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نساته ، ٢١٨
- أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بي ، فقال : إني ذاكرك أمراً ، ٢٣٤
- أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية : ﴿بِبَيْبِيبٍ﴾ ، ٢٢٨
- أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عاتشة وحفصة ، ٢١٧
- أن زينب بنت جحش - فيما ذكروا - رآها رسول الله ﷺ ، فأعجبته ، وهي في جبال مولاه ، ٢١٢
- إن سليمان بن داود لما بنى مسجد بيت المقدس ، سأل الله خلافاً ثلاثاً ، سأل الله حكماً يصادف حكمه ، ٥٠١
- إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ، أو كلمة نحوها ؛ ليقطع عليّ الصلاة ، ٤٩١
- أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خُنيس ، ٣٢١
- إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً ، لا يرى من جلده شيء ، استحياءً منه ، فأذاه من بني إسرائيل ، ٣١
- إن نبي الله ﷺ قال : إن الله ﷻ أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن تعمل بهن ، ٥٢٠
- إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبره أنك أختي ، ٢٩٩
- أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، ٣٢

- الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، بيتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، ٢٦
- انتهيت إلى رسول الله ﷺ، فسمعته يقول: بر أمك وأباك وأختك وأخاك، ٥٥٤
- إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، ٢٩
- أنه ﷺ أتى زيداً فرأى زينب وهي جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً بفهرها، ٢١٢
- إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن، ٢٤٧
- إنه كان حريصاً على قتل صاحبه، ٤٣٢
- إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلارك، ٢٤٨
- أنها دخلت عليه - أي على الملك -، لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضةً شديدة، ٣٠١
- أنها كانت تُعير النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، ٢٢٧
- إني عبد الله لخاتم النبيين، وأن آدم ﷺ لمنجدل) في طيبته، ٤١٤
- إني كنت رأيت قرني الكيش حين دخلت البيت، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما، ٤٢٢
- أوفاهما، وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، ٤٦٦
- أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزيب بنت جحش، فأشيع الناس خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى، ٦١٠
- أيا امرأة تزوجت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، ٣٢٣
- بنى النبي ﷺ بزيب بنت جحش، بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قومٌ يأكلون، ٦٠٩
- بني على النبي بزيب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قومٌ يأكلون ويخرجون، ٦٢٠
- بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، ٣٨٣
- ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل ﷺ. فقيل من أنت؟، ٥١٩
- جاء عمر ﷺ يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول يا رسول الله، ٤٨٦
- حاج موسى آدم، فقال له، أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك، وأشقيتهم، ٣٥٧
- حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ٣٣٥
- خرج النبي ﷺ غداة، وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن عليّ فأدخله، ٢٤١
- خطبني النبي ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ٢٢٣
- خفف على داود ﷺ القرآن، فكان يأمر بدأوبه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ٦٤
- خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة، ١٤٧
- دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً يبابه لم يؤذن لأحد منهم، ٢٣٣
- دخل رسول الله ﷺ بمارية في بيت حفصة، فجاءت فوجدتها معه، ٢٢٠
- دخلت حفصة بيتها فوجدته ﷺ مع مارية فعاتبته، ٢٢٠
- دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم، ٤١٤
- زوجتكها بما معك من القرآن، ٣٢٤

- ٣٦٨ علامَ أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ ،
- ٢٧ عليكم بالأسود منه ، فإنه أطيبه ،
- ٣٠٨ فألقى ذلك أم إسماعيل ، وهي تحب الأنس ،
- ٤٤٥ فإن دخل على أحدكم بيته ، فليكن كخير بني آدم ،
- ٤٦٢ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، فقام معها موسى ، وقال لها امشي خلفي ، وانعتي لي الطريق ،
- ٣٠٤ فذلك سعي الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ،
- ١٦٨ فقال لي جبريل انزل فصل ، فصليت ، فقال : أتدري أين صليت؟ صليت بيت لحم ،
- ٤٢٠ فلما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق ، قال لأبيه : يا أبت أوثقتني لا أضطرب ،
- ٦٠٥ فلما خلصت إذا يبحي وعيسى وهما ابنا الحالة ،
- ٤٨٩ قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ،
- ٤٩٠ قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ،
- ٥٠٣ ، ٥٠١ قالت أم سليمان بن داود عليه السلام لسليمان : يا بني لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل ،
- ٦١٦ كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم ،
- ١٨٨ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ،
- ٤٨١ كانت امرأتان معهما ابناهما ، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما ،
- ١٤٨ ، ١٣٦ كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ،
- ٢٢٥ كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول أتهب المرأة نفسها ،
- ٥٣٤ ، ٤٤٢ لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه ،
- ٢١٩ لا تخبري أحداً أن أم إبراهيم حرام عليّ ،
- ٤٤٤ ، ٤٣٦ لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ،
- ٣٢٤ ، ٣٢٣ لا نكاح إلا بولي ،
- ٤٨٤ ، ١٠٣ لا نورث ما تركنا فهو صدقة ،
- ٦٢٣ لا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه ، قالوا يا رسول الله : كيف يؤثمه؟ ،
- ٤٤٤ لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده ،
- ٢٩٤ لعن الله من عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل قوم لوط ،
- ٦٥ لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود ،
- ٦٤ لقد أوتيت مزامراً من مزامير آل داود ،
- ١٥٣ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ كَانَ يُصَلِّي ،
- ٢٩٧ لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل ،
- ٦١٠ لما انقضت عدة زينب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : فاذكرها عليّ ، قال : فانطلق زيد حتى أتاها ،

- لما أهديت زينب بنت جحش رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ كانت معه في البيت صنع طعاماً، ودعا القوم، ٦٠٩
- لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهاً، ٦٠٩
- لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه الحارث، ٣٣٠
- لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر، ٣٧١
- ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا هو رجل ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ٣١
- ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، ٣٠٣
- ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل عن عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده، ٦٣
- ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء، ٢٣٠
- ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا، ٥١٩
- ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من الشيطان، ١٤٣، ٦٠١
- ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه، ٤٤٣
- ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، ٣٨٥
- مرت ليلة أسري بي على موسى بن عمران، ٥٩٢
- مره فليرجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد، ٢٦٧
- من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له ستراً من النار، ٦٠٥
- من كان له امرأتان يميل لإحدهما على الأخرى، جاء يوم القيامة يحجر أحد شقيه ساقطاً أو مائلاً، ٢٦٦
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ٦٢٠، ٦٢٣
- من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه، ٢٩٤
- نحن معشر الأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى، وديننا واحد، ٤٤٧
- والخير في يديك، والشر ليس إليك، ٣٨٠
- والله ما صليتها، فقال: فقمنا إلى بطحان، ٤٨٦
- والله ما من نبي إلا ولد الأنبياء غيري، وإن ابنك سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة، ٥١٩
- وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ - عن أمري: يا زينب، ٢٥١
- وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، ٤٠٨
- وهل من نبي إلا وقد رعاها، ٢٧
- يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم، ٤٣٤
- يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني؟ قال: وأعينك، ٥٥
- يا أنس: كتاب الله القصاص، فرضي القوم وغفوا، ٢٠
- يا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً، ٢٩٣
- يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، ٢٦٨

٣٦٩ فيأتون آدم، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة،
يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم او قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً، ٣٠٤، ٣٠٧
يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة، ٤٣

فهرس الآثار

الصفحة	راوي الأثر	طرف الأثر
٢٥٠	ابن عباس	أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك، ولم يتزوج.....
٣٢١	عمر	أثبت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري.....
١٣٥	ابن عباس	أحبه الله وحببه إلى خلقه.....
٢٧٦	مقاتل	اسم امرأة نوح والفة.....
٤٦٥	عمر	أشكو إلى الله ضعف الأمين، وخيانة القوي.....
٦٤٣	ابن عباس	أغلق لوط بابَه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه.....
٤٦٥	ابن مسعود	أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته: (أكرمي مثواه عسى.....
١٤٥	ابن عباس	اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية، وعال قلم زكريا الجرية،.....
٢٤٤	ابن عباس	أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة،.....
٤٧٠	ابن جريج	أمرهم أن يتزوجوا النساء، ولم يعرض عليهم سفاحاً.....
٣٥	ابن عباس	إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه أزر، وإنما كان اسمه تارح.....
١٠٠	قتادة	إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي.....
٥٩٨	مجاهد	إن المحرر: هو الخالص لله ﷻ، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا.....
٤٨٢	ابن عباس	أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة.....
٤٢٢	ابن عباس	أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة حتى يبس.....
٢١٠	أنس	أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول:.....
٥١٨	الحسن	إن عيسى ويحيى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني.....
٤٨١	شريح القاضي	إن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن.....
٥٥٣	الحسن	أنساك إخوة يوسف! لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو.....
٣٦٠	ابن عباس	إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه فنسي.....
٣٢٥	ابن عباس	إنما سميت بجواء لأنها خلقت من ضلع من أضلاع آدم.....
١١٧	وهب بن منبه	إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق.....

٢٤٨	ابن المسيب إنما يعني به الإماء فقط.....
٤٨٧	الزهري إنه كان يمسخ سوقها ، وأعناقها بيده يكشف الغبار عنها.....
٥٧٥	ابن عباس أنها لما قالت أخت موسى لآل فرعون: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى
١٩	ابن عباس أو ما تقرأ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
٥١٧	ابن عيينة أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن.....
٣٩١	أبو بكر أوصيكم بتقوى الله ، وأن تتنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة.....
٣٥٨	ابن عباس أي ربي ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى ، قال: أي رب ألم تنفخ في.....
٥٥٤	ابن عمر البرشيء هين ، وجه طليق ، وكلام لين.....
٢٠٢	أبو بكر بلى والله ، إنا نحب أن يغفر لنا ربنا.....
٢٠٣	أبو بكر بلى : والله إني لأحب أن يغفر الله لي.....
٤٢٨	قتادة تأمرهم بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصية الله.....
١٢٦	ابن عباس تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم <small>عليه السلام</small> أن يجعل.....
٤٦٢	عمر بن الخطاب جاءت مستتره بكم درعها قاتلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع.....
٥٧٣	قتادة جعلت تنظر إليه بناحية كأنها لا تريده.....
٦١٣	عائشة حسبك من الثقلاء أن الله لم يحمليهم.....
٤١٤	قتادة الحكمة: السنة ، وبيان الشرائع.....
٢٤٧	عمر خرجت سودة رضي الله عنها بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت.....
٤٣٥	ابن عباس خوِّفه بالنار فلم ينته ، ولم ينزجر.....
٤١٨	ابن عباس رعى في الجنة أربعين خريفاً.....
٣١٦	سعيد بن جبير سألتني يهودي من أهل الحيرة ، أي الأجلين قضى موسى ، قلت: لا أدري
٣٣٢	سمرة بن جندب سمى آدم ابنه عبد الحارث.....
٥١١	ابن عباس السيد هو الحلیم التقي.....
٥١١	عكرمة السيد هو الذي لا يغلبه الغضب.....
٥١١	ابن المسيب السيد هو الفقيه العالم.....
٥١١	مجاهد السيد هو الكريم على الله.....
٢٧٤	ابن عباس صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب.....

٤٨٧	قتادة والسدي	ضرب أعناقها وعراقبيها بالسيوف.....
١٦٠	أبو وائل	علمت مريم أن التقي ذو نهيمة حين قالت: إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
٣٥٤	ابن عباس	غرهما باليمين، وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً.....
٥٣١	السدي	فأرسله معهم فأخرجوه وبه عليهم كرامة.....
٦٦	مجاهد والسدي	فصل الخطاب، هو إصابة القضاء، وفهم ذلك.....
٢٠٣	عائشة	فلما أنزل الله هذا في براءتي.....
٦١٧	ابن الزبير	فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.....
٢٦٢	ابن عباس	في الحرام يُكْفَرُ.....
٤٨٧	الحسن	قال لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها.....
٣١١	ابن عباس	قال هذا بعد ذلك بحين.....
١٨٢	أبو العالية	قد علمت أن التقي ذو نهيمة.....
٣١٦	ابن عباس	قضى أكثرهما، وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فَعَلَّ
١٧٤	السدي	قيل لها: يا أخت هارون، أي: أخي موسى.....
٢٧٨	ابن عباس	كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام عم لوط.....
٥٠	ابن عباس	كان آخر قول إبراهيم حين أُلقيَ في النار: حسبي الله ونعم الوكيل.....
٤٣٩	الحسن	كان الرجلان اللذان قال الله تعالى: واتلُ عليهم نبأ ابني آدم
٥٠٠	ثابت البناني	كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله.....
٦٢٩	قتادة	كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر، واختاره لهم سميناً.....
٣٩٠	ابن عباس	كان في لسان امرأة زكريا طول، فأصلحه الله تعالى.....
٦٢	الحسن وقتادة	كان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة؛ بل كان يفتله بيده مثل.....
٣٣٣	الحسن	كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم.....
٥١١	قتادة	كان يحيى عليه السلام سيداً في العلم والعبادة.....
١١٧	قتادة	كت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة.....
٤٧٩	ابن مسعود	كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته الغنم.....
٦٤	قتادة	كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة، كلها مواعظ وثناء.....
٦١٦	مجاهد	لافتاتوا.....

٤٧١	مجاهد	لم يكن بناته، ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته.....
٣٠٩	ابن عباس	لو قال أفئدة الناس لآزدهم عليه فارس، والروم، واليهود،.....
٥٠	ابن عباس	لولا أن الله ﷻ قال: سلماً لأذى إبراهيم بردها.....
٢٧٧	ابن عباس	ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها في الدين.....
٤٩٨	مجاهد	المحاريب دون القصور.....
١٧٨	السدي	نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة
٦١١	ابن عباس	نزلت في قوم كانوا يتحिनون طعام النبي ﷺ، فيدخلون عليه قبل
٢٤١	ابن عباس	نزلت في نساء النبي خاصة.....
٢٤٨	ابن المسيب	نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة؛ لأنها
٥٨٦	مجاهد	هو إسماعيل، وليس بشيء.....
٥٧٣	ابن عباس	والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى الشيء البعيد.....
٢٠٣	أبو بكر	والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال.....
٤٣٣	ابن عمر	وأيم الله إن كان لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج.....
٤٤٩	ابن عباس	وصاهم بالإسلام، ووصى يعقوب بمثل ذلك.....
١٩٩	عائشة	الولق الكذب.....
٢٠٠	مجاهد وابن جبير	يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان.....

فهرس الأعلام

الصفحة	اسم العلم
٣٨٧	إبراهيم بن موسى اللخمي الفرناطي أبو إسحاق، المعروف باللشاطبي،
١٩٩	أبي بن كعب بن قيس بن عبید بن زید بن معاوية، أبو المنذر،
١٦٦	أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني،
٢٨	أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الكناني العسقلاني المصري الشافعي،
١١	أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي،
٧٣	أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس،
١٨	أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي،
١٦٠	أحمد بن يزيد الحلواني أبو الحسن المقرئ،
١٢٦	أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار الخراساني النسائي،
١٩١	أسامة بن زید بن حارثة بن شراحيل بن عبدالعزيز بن كنانة الكلبي،
٤٦٧	أسماء بنت أبي بكر الصديق،
٣٥	إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة، الإمام المفسر، أبو محمد الحجازي،
١٩٢	أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك بن رافع بن الخزرج الأنصاري،
١٢	الأعشى ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة،
٦١٦	الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفیان التميمي،
٢٠٦	أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف الهاشمية،
٢٤٨	أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري الخزرجي،
٢١٨	أيوب بن نافع بن كيسان،
١٧٢	البراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدوعة بن حارثة،
١٩١	بريرة مولاة عائشة،
٣٣٣	بشر بن معاذ العقدي أبو سهل البصري،
٢١٩	أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني،
٣٣٢	بكر بن عبدالله بن عمرو، الإمام القدوة الواعظ، أبو عبدالله المزني البصري،
٢١٩	أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام،
٥٠٠	ثابت البناني بن أسلم، أبو محمد البصري،
٦١٧	ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك الأنصاري الخزرجي،
٢٧	جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري،

- جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي ، ٣٨
- جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن خزيمية المصطلقية ، ٢٣٣
- الحارث بن الحارث الأشعري الشامي ، ٥٢٠
- حبي بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي ، ٣٣٨
- حبيب بن حيان أبو رمثة التيمي ، ٥٥٣
- حذيفة بن حسيل (اليمان) بن جابر بن عمرو بن ربيعة من بني عبس من الأنصار ، ٣٦٨
- حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو الأنصاري ، ١٩٨
- الحسن بن يسار أبوسعيد البصري ، ٦٢
- الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، الملقب بالراغب ، ٦٢
- حفصة بنت الخطاب بن نفيل بن العزى بن رياح القرشي العدوي ، ٢١٧
- حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزيز بن قصى القرشي الأسدي ، ٢٠٥
- حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي ، مولى آل عكرمة بن ربعي التميمي ، الزيات ، ١٣١
- حمنة بنت جحش بن رياح الأسدية ، ١٩٨
- أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي ، ٢٦٤
- خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة ، أبو أيوب الأنصاري النجاري ، ١٩٦
- خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزيز بن قصى القرشيه الأسدية ، ٢٠٥
- خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سهم القرشي السهمي ، ٣٢١
- خوله بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن سليم السلمية ، ٢٢٥
- أبو داود السجستاني سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو الأزدي ، ٢٤٨
- الربيع بنت النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصارية ، ١٩
- رفيع بن مهران ، أبو العالية الرياحي ، ١٨٢
- رمله بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، ٢٣٢
- زبان بن عمار التميمي المازني ، أبو عمرو بن العلاء البصري ، ١٦٠
- زيد بن أسلم ، أبو عبدالله العدوي العمري المدني ، ٢١٧
- زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ، أبو أسامة مولى رسول الله ، ٢٠٦
- زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر بن حبييرة بن مرة ، ٢٠٤
- زينب بنت خزيمية بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبدمناف العامرية ، ٢٢٦
- سعد بن أبي وقاص ، ٢٦
- سعد بن عباد بن دليم بن أبي حليلة بن ثعلبة بن الخزرج الأنصاري ، ١٩٢
- سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأنصاري ، ١٩٢

- ٣٣٣..... سعيد بن أبي عروبة، واسمه مهران العدوي،
- ٢٤٨..... سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران القرشي،
- ٣٤١..... سعيد بن جبير أبو عبدالله الأسدي بالولاء،
- ٢٠٠..... سعيد بن جبير، أبو عبدالله الأسدي الكوفي التابعي،
- ٢١٨..... سعيد بن منصور بن شعبة، أبو عثمان الخراساني،
- ٥١٧..... سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي،
- ٣٣٣..... سفيان بن وكيع بن الجراح بن مليح، أبو محمد الكوفي،
- ٢١٩..... أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله المخزومي،
- ٢٣٢..... أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشية،
- ٣٣٢..... سليمان بن طرخان التميمي البصري أبو المعتز،
- ٣٣٢..... سمرة بن جندب بن هلال بن حريج بن مرة الفزاري،
- ٢٩٧..... سنان بن علوان بن عبيد بن عريج بن عملاق،
- ٢٢٤..... سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة الأنصاري،
- ٣٣٣..... سهل بن يوسف بن سهل بن مالك الأنصاري،
- ٢٣٢..... سودة بنت زمعة بن قيس بن عبدشمس القرشية العامرية،
- ٤٨١..... شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكوفي أبو أمية القاضي،
- ٣٣٧..... صديق خان بن حسن بن علي لطف الله الحسيني البخاري القنوجي،
- ١٨٩..... صفوان بن المعطل بن ربيعة بن خزاعي،
- ٢٣٣..... صفية بنت حبي بن أخطب بن سعة بن ثعلبة من بني النضير،
- ٤٢١..... صفية بنت شيبه بن عثمان العبدي،
- ٢٢٠..... الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو القاسم الخراساني،
- ٢١٨..... ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، أبو عبدالله،
- ١٢..... طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي،
- ١٨٧..... عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة،
- ٣٢٧..... عاصم بن ابي أنجود الأسدي الكوفي أبو بكر،
- ٤١٨..... عامر بن وائلة بن عبدالله بن عمرو بن جحش الليثي، أبو الطفيل،
- ٣٣٢..... عبدالأعلى بن عبدالأعلى البصري الشامي أبو محمد،
- ٩٧..... عبدالحق بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية،
- ١٤٣..... عبدالرحمن بن صخر الدوسي، أبوهريرة،
- ٥٤..... عبدالرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين أبو الفرج الجوزي، البغدادي، الحنبلي،

- ٥٧..... عبدالرحمن بن نزار السعدي التميمي ،
- ١٨٩..... عبدالله بن أبي سلول الأنصاري ،
- ٢٣٧..... عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ، أبو البركات ،
- ٦١٦..... عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزيز القرشي الأسدي ،
- ١٩..... عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ،
- ١٧١..... عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر اليحصبي ،
- ١٩٩..... عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة ، زهير بن عبدالله بن جدعان ،
- ٣٩١..... عبدالله بن عكيم الجهني ، يكنى أبا معبر ،
- ٢١٨..... عبدالله بن عمر بن الخطاب ،
- ١٧١..... عبدالله بن كثير بن المطلب ، أبو معبد المكي الداري ،
- ٤٣١..... عبدالله بن محمد بن العباس المكي الفاكهي ،
- ٤٧٠..... عبدالمملك بن عبدالعزيز بن جريح القرشي ،
- ١٦٠..... عثمان بن سعيد بن عبدالله بن عمر ، أبو سعيد أو أبو عمر القرشي ،
- ٤٢٢..... عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي ،
- ٤١٣..... العرياض بن سارية السلمي ،
- ٧٥..... علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي ،
- ١٣١..... علي بن حمزة الكسائي ، الكوفي ،
- ٣٣١..... عمر بن إبراهيم العبدي ،
- ٢١٩..... عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزيز بن رباح القرشي ،
- ٢٩٧..... عمرو بن امرئ القيس بن سبأ ،
- ٣٣٣..... عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري ،
- ٢٩٨..... عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض الأندلسي ،
- ٢١٩..... أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ،
- ٦٤..... قتادة بن دعامة السدوسي ، أبو الخطاب البصري ،
- ٣٣٨..... قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ،
- ٣٣٤..... كعب الأحبار أبو إسحاق كعب بن ماته الحميري ،
- ٢١٦..... مارية بنت شمعون القبطية ، مولاة رسول الله ،
- ٢٥..... ماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي الشافعي ،
- ١٩..... مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي ،
- ٣٩..... محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ،

- ٥٦..... محمد الطاهر بن عاشور ،
- ٢٥٤..... محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي ابن قيم الجوزية ،
- ٦١١..... محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ،
- ٣٣١..... محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي ، أبو حاتم الرازي ،
- ٣٣٤..... محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المدني ،
- ٥٩٥..... محمد بن إسحاق يسار بن خياز ،
- ٤٢..... محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أبو عبدالله البخاري ،
- ٣٣٣..... محمد بن الأعلى بن محمد الأنصاري ،
- ٣٧٦..... محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي ،
- ٣٣٣..... محمد بن ثور أبو عبدالله الصنعاني ،
- ٣٦..... محمد بن جرير الطبري ،
- ٢٥٥..... محمد بن صالح بن عثيمين أبو عبدالله الوهبي التيمي ،
- ٢١٧..... محمد بن عبد الله بن محمد بن نعيم الحاكم النيسابوري ،
- ١٨..... محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن المعافري الأندلسي (أبو بكر العربي) ،
- ٦١..... محمد بن علي بن محمد الشوكاني الصنعاني ،
- ٤٢٢..... محمد بن كعب القرظي المدني ،
- ٦٢١..... محمد بن محمد الغزالي الشافعي الطوسي ،
- ٤٨٧..... محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن زهرة بن كلاب ، أبو بكر القرشي الزهري المدني ،
- ١٢..... محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي ،
- ٨٦..... محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ، أبو حيان الأندلسي ،
- ٣٣٦..... محمد رشيد علي رضا محمد شمس الدين القلموني البغدادي ،
- ١٢..... محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي ،
- ١٣..... محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الحزرجي المالكي ، أبو عبدالله القرطبي ،
- ٥٨٧..... محمود بن أحمد العيني الحنفي ،
- ٩٠..... محمود بن عبدالله الحسيني الألويسي ، شهاب الدين ، أبو الثناء ،
- ٥٧..... محمود بن عمر بن محمد بن عمر ، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي ،
- ٢٣..... مدين عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني ،
- ٢١٨..... مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ، الوادعي ،
- ١٩٨..... مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبدالمنف ،
- ١٩٠..... أم مسطح بنت أبي رهم بن عبدالمطلب بن عبدمناف ،

- ٢٤١ مُسْلِمُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَجَّاجِ بْنِ مُسْلِمِ الْقَشِيرِيِّ ،
- ٣٧٩ مصعب بن سعد بن أبي وقاص ،
- ٣٣٢ المعتمر بن سليمان بن طرخان التميمي البصري ،
- ١٣٧ معمر بن المثنى التميمي ، أبو عبيدة النحري البصري ،
- ٣٣٣ معمر بن راشد أبو عروة بن أبي عمرو الأزدي ،
- ٢٣٩ مقاتل بن حيان أبو بسطام النبطي البلخي ،
- ٢٧٦ مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني ،
- ٦١٨ موسى بن أنس بن مالك الأنصاري ،
- ٢٢٦ ميمونة بنت الحارث الهلالية ،
- ١٦٠ نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم ، الليثي المقرئ المدني ،
- ٤٩٢ نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أبو الليث السمرقندي ،
- ٢٢٣ أم هانئ بنت أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمية ،
- ٣٣٤ وهب بن منبه اليماني ،
- ١٣٣ يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الأسلمي ، المعروف بالفراء ،
- ٣٣١ يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبدالرحمن أبو زكريا ،
- ٣٣٢ يزيد بن عبدالله بن الشخير أبو العلاء العامري البصري ،
- ١٤ يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي المالكي ،

فهرس الألفاظ الغريبة

اللفظة	الصفحة	اللفظة	الصفحة
أخْدم،	٢٩٧	الشرف،	٥٢٠
الأدرّة،	٣١	الشماريخ،	٣٨٤
أدلج،	١٨٩	الشمم،	٢١٣
الأرش،	٢٠	شأنه،	٣٤٨
الأرومه،	٣٢٧	شهوة،	٣١
استرجع،	١٨٩	صعد،	٢٢٤
أغمصه،	١٩١	صنوان،	٣٢٧
الآفة،	٣١	الضرب من الرجال،	٣٠
الأندر،	٣٨٣	الطفيلي،	٦٢١
انكفأت،	٢٤٧	طلاع الأرض،	٤٦٤
البرحاء،	١٩٤	الظئر،	١٣٩
البرص،	٣١	العثكال،	٢٠
البومة،	٢٤١	العرق،	٢٤٧
بطحان،	٤٨٦	عقد من جنع ظفار،	١٨٨
تساميني،	٢٥١	العلاقة،	١٨٩
تفلت،	٤٩١	الفؤاد،	١٣٧
تيكم،	١٩١	قرفوها،	١٧٣
جئاء جهنم،	٥٢١	القسي،	٤٣٣
الجراب،	٣٠٣	القصيري،	٣٤٠
الجمان،	١٩٤	قفل،	١٨٨
حرّان،	٢٩٩	قلص،	١٩٣
الخنزيرة،	٢٤١	الكبأث،	٢٧
خصف،	٣٥٥	الكنف،	١٩٠
الحوص،	٤٩٧	اللقطه،	١٣١
الداجن،	١٩٢	اللقيط،	١٣١
الدحض،	١٧٠	مارام،	١٩٤
ديماس،	٣١	المرط،	٢٤١
الربقة،	٥٢١	مرطها،	١٩٠
الرعاء،	٤٥٩	المساجلة،	٤٥٩
سري،	١٩٤	المسبكر،	١٢
السلفع،	٤٦٢	المشعة،	١٣٣

٢٣٣.....	وجأت،	٢٢٠.....	المغافير،
٢٣٣.....	وجم،	١٩٠.....	المناصع،
٣٨٣.....	الورق،	٤١٤.....	منجدل،
٣٥٢.....	وسوس إليه الشيطان،	٣٠٣.....	المنطق،
١٩١.....	وضيئة،	٥٦١.....	منطيق،
١٩٣.....	يُخفضهم،	١٩٠.....	نقته،
١٨٨.....	يرحلون لي،	١٣٣.....	الهجنة في الكلام،
١٩٣.....	يرقأ لي دمع،	١٩٠.....	هنتاه،
١٩٠.....	يريني،	١٨٨.....	الهودج،

فهرس الأشعار

الصفحة	الشاعر	البيت
١٢	المسبكر طرفة بن العبد	تحسب الطرف عليها نجدة
١٢	الأعشى	فكدبوا بما قالت فصبحهم
	ذوآل حسن يزجي الموت والشرا	

المصادر والمراجع

- ١- أجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تأليف: صديق بن حسن القنوجي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧٨، تحقيق: عبد الجبار زكار.
- ٢- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أنس مهرة.
- ٣- الإتيقان في علوم القرآن، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، : دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سعيد المندوب
- ٤- الأحاديث المختارة، تأليف: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش
- ٥- أحكام القرآن، تأليف: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
- ٦- أحكام القرآن، تأليف: أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٠٥، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.
- ٧- الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن محمد الأمدي، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٤هـ، ط الأولى، تحقيق: د.سيد الجميلي.
- ٨- إحياء علوم الدين، تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة - بيروت.
- ٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- ١٠- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر - بيروت - ١٤١٢ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد سعيد البدرى أبو مصعب.
- ١١- أساس البلاغة، تأليف: أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، دار الفكر - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ١٢- أسباب النزول، لأبي الحسن الواحدى، درا الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٥ هـ.
- ١٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تأليف: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، دار الجيل - بيروت - ١٤١٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي.
- ١٤- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تأليف: عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار إحياء التراث العربي - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي.
- ١٥- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبه، مكتبة السنة، دار نوباء، القاهرة، ط الثانية ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م
- ١٦- الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الجيل - بيروت - ١٤١٢ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد البجاوي.
- ١٧- أصول السرخسي، تأليف: محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، دار المعرفة - بيروت.
- ١٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
- ١٩- الأعلام، تأليف خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط السادسة عشرة - ٢٠٠٥ م.
- ٢٠- أعلام التراث في العصر الحديث، محمود الأرنؤوط، مكتبة دار العروبة/ الكويت - دار ابن العماد/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

- ٢١- أعلام القصيم، إبراهيم بن عبد العزيز المعارك، الرياض، د. ط.، د. ن.، ١٤٢٤هـ.
- ٢٢- أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر، تأليف محمد جميل الشطي، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٢٣- الأغاني، تأليف: أبو الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر.
- ٢٤- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تأليف: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبي العباس، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٣٦٩، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.
- ٢٥- ألقاب الصحابة والتابعين في المسنين الصحيحين، لأبي علي الحسين بن محمد بن أحمد الجبائي الأندلسي، تحقيق: د محمد زينهم محمد عزب ومحمود نصار، دار الفضيلة، ١٩٩٤م، القاهرة - مصر.
- ٢٦- أمراض القلوب وشفائها، تأليف: أحمد بن تيمية، المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٩٩هـ، الطبعة: الثانية.
- ٢٧- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات، تأليف: أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، المكتبة العلمية - لاهور - باكستان، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض.
- ٢٨- أنساب الأشراف، تصنيف أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق: الدكتور محمد حميد الله، سلسلة ذخائر العرب، إخراج معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، بالاشتراك مع دار المعارف بمصر.
- ٢٩- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: علي بن سليمان المرادوي أبي الحسن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.
- ٣٠- البحر الزخار، تأليف: أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم - بيروت، المدينة - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله.

- ٣١- البداية والنهاية، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبي الفداء، مكتبة المعارف - بيروت.
- ٣٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للقاضي محمد بن علي الشوكاني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة بدون طبعة أو تاريخ.
- ٣٣- البرهان في أصول الفقه، تأليف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبي المعالي، الوفاء - المنصورة - مصر - ١٤١٨، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب.
- ٣٤- البرهان في علوم القرآن، تأليف: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبي عبد الله، دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٣٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٣٦- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تأليف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت - ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد المصري.
- ٣٧- تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.
- ٣٨- تاريخ ابن الوردي، تأليف: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.
- ٣٩- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المشهور بابن عساكر، دار الفكر - بيروت - ١٩٩٥، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري.
- ٤٠- التبصرة في أصول الفقه، تأليف: إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي أبي إسحاق، دار الفكر - دمشق - ١٤٠٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن هيتو.
- ٤١- تخريج الفروع على الأصول، تأليف: محمود بن أحمد الزنجاني أبي المناقب، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٨، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. محمد أديب صالح.

- ٤٢- تذكرة الحفاظ، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى.
- ٤٣- تراجم أعيان دمشق.
- ٤٤- التربية ودورها في تشكيل السلوك، مصطفى محمد الطحان، دار المعرفة - بيروت، ط الأول ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
- ٤٥- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تأليف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.
- ٤٦- تفسير البحر المحيط، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق (١) د. زكريا عبد المجيد النوقي (٢) د. أحمد النجولي الجمل.
- ٤٧- تفسير البغوي (معالم التنزيل)، للإمام الحافظ أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك.
- ٤٨- تفسير البيضاوي، تأليف: البيضاوي، : دار الفكر - بيروت.
- ٤٩- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التاريخ - بيروت، ط الأولى.
- ٥٠- تفسير الجلالين، تأليف: محمد بن أحمد، وعبد الرحمن بن أبي بكر: المحلي + السيوطي، دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى.
- ٥١- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، تأليف: نصر بن محمد بن أحمد أبي الليث السمرقندي، دار الفكر - بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.
- ٥٢- تفسير القرآن / اختصار النكت للماوردي، تأليف: الامام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الدمشقي الشافعي، دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي.

- ٥٣- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الثانية ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٥٤- تفسير القرآن العظيم، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبي الفداء، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ.
- ٥٥- تفسير القرآن، تأليف: أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، دار الوطن - الرياض - السعودية - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم.
- ٥٦- التفسير القيم، للإمام ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٥٧- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.
- ٥٨- تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب صديق بن حسن القنوجي البخاري، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ٥٩- تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبدالله بن احمد النسفي، تحقيق يوسف بدوي والدكتور محيي الدين مستو، دار العلم الطيب، ط الثانية ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٦٠- تفسير مقاتل بن سليمان، تأليف: أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد فريد.
- ٦١- تقريب التهذيب، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار الرشيد - سوريا - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوامة.
- ٦٢- التكملة لكتاب الصلة، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، دار الفكر للطباعة - لبنان - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: عبد السلام الهراس.

- ٦٣- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، تأليف: عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي أبي محمد، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد حسن هيتو.
- ٦٤- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف: أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب - ١٣٨٧، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري.
- ٦٥- تهذيب الأسماء واللغات، تأليف: محيي الدين بن شرف النووي، دار الفكر - بيروت - ١٩٩٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
- ٦٦- تهذيب التهذيب، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة: الأولى.
- ٦٧- تهذيب الكمال، تأليف: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبي الحجاج المزي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٠ - ١٩٨٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. بشار عواد معروف.
- ٦٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين.
- ٦٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبي جعفر، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥.
- ٧٠- الجامع الصحيح المختصر، تأليف: محمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
- ٧١- الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب - القاهرة.
- ٧٢- الجرح والتعديل، تأليف: عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبي محمد الرازي التميمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٢٧١ - ١٩٥٢، الطبعة: الأولى.

- ٧٣- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله بن قسم الجوزية، دار العروبة - الكويت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط.
- ٧٤- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٧٥- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- ٧٦- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن قسم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٧٧- حجة القراءات، لأبي زرعه بن زنجلة، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٧٨- حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة، تأليف: السيد محمد صديق حسن خان القنوجي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، الطبعة: الخامسة، تحقيق: الدكتور - مصطفى الحن / ومحبي الدين مستو.
- ٧٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف: أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الرابعة.
- ٨٠- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٨م ط الاولى، تحقيق محمد نبيل طريفي / أميل بديع يعقوب.
- ٨١- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تأليف: الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني، مكتب المطبوعات الإسلامية/ دار البشائر - حلب / بيروت - ١٤١٦ هـ، الطبعة: الخامسة، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
- ٨٢- الدر المنثور، تأليف: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣.

- ٨٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تأليف: الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد/ الهند - ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مراقبة / محمد عبد المعيد منان.
- ٨٤- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تأليف: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبي العباس، مؤسسة علوم القرآن - دمشق - ١٤٠٤، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. محمد السيد الجليند.
- ٨٥- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تأليف: إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٨٦- ديوان طرفة بن العبد، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ٨٧- الرسل والرسالات، د.عمر سليمان الأشقر، دار الفلاح ودار النفائس - الكويت، ط الرابعة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- ٨٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٨٩- الروض المربع شرح زاد المستقنع، تأليف: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض - ١٣٩٠هـ.
- ٩٠- روضة الطالبين وعمدة المفتين، تأليف: محيي الدين النووي، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الثانية.
- ٩١- زاد المسير في علم التفسير، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة.
- ٩٢- زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن قسم الجوزية، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت - ١٤٠٧ - ١٩٨٦، الطبعة: الرابعة عشرة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط.

- ٩٣- الزواجر عن اقتراف الكبائر، تأليف: ابن حجر الهيتمي، المكتبة العصرية - لبنان / صيدا - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تم التحقيق والاعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز.
- ٩٤- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تأليف: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العصامي المكي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض.
- ٩٥- السنن الكبرى، تأليف: أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ - ١٩٩١، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.
- ٩٦- سير أعلام النبلاء، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبي عبد الله، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي.
- ٩٧- السير، تأليف: محمد بن الحسن الشيباني، الدار المتحدة للنشر - بيروت - ١٩٧٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: مجيد خدوري.
- ٩٨- السيرة النبوية لابن هشام، تأليف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبي محمد، دار الجيل - بيروت - ١٤١١، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه عبدالرؤف سعد.
- ٩٩- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر. (د.ت).
- ١٠٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تأليف: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، دار بن كثير - دمشق - ١٤٠٦هـ، الطبعة: ط١، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط.
- ١٠١- شرح العقيدة الأصفهانية، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم سعدي.

- ١٠٢- شرح العقيدة الطحاوية، تأليف: ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٣٩١، الطبعة: الرابعة.
- ١٠٣- شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور، تأليف بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١٠٤- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ - ١٩٩٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
- ١٠٥- صحيح قصص القرآن، حامد أحمد البسيوني، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ١٠٦- صحيح مسلم بشرح النووي، تأليف: أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية.
- ١٠٧- صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ١٠٨- الصمت وآداب اللسان، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: أبي إسحاق الحويني.
- ١٠٩- الضعفاء الكبير، لأبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.
- ١١٠- طبقات ابن سعد (الطبقات الطبري)، محمد بن سعد بن منيع الزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (د.ت).
- ١١١- طبقات الحفاظ، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبي الفضل، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٣، الطبعة: الأولى.
- ١١٢- طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤١٣هـ، الطبعة: ط ٢، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو.

- ١١٣ - طبقات الشافعية، تأليف: أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان.
- ١١٤ - طبقات المفسرين، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، مكتبة العلوم والحكم - السعودية - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.
- ١١٥ - طبقات المفسرين، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة وهبة - القاهرة - ١٣٩٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: علي محمد عمر.
- ١١٦ - طبقات فحول الشعراء، تأليف: محمد بن سلام الجمحي، دار المدني - جدة، تحقيق: محمود محمد شاكر.
- ١١٧ - طرح التثريب في شرح التثريب، تأليف: زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسيني العراقي، دار الكتب العلمية - بيروت - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد القادر محمد علي.
- ١١٨ - العبر في خبر من غبر، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ١٩٨٤، الطبعة: ٢، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد.
- ١١٩ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف.
- ١٢٠ - علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبدالله عبدالرحمن البسام، دار العاصمة الرياض، ط الثانية، ١٤١٩هـ.
- ١٢١ - علماؤنا، فهد البدراني وفهد البراك، مكتبة المهندس - الرياض ١٤١٠هـ.
- ١٢٢ - عمدة الفقه، تأليف: عبد الله بن أحمد بن قدامه المقدسي، مكتبة الطرفين - الطائف، تحقيق: عبد الله سفر العبدلي، محمد دغيليب العتيبي.
- ١٢٣ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- ١٢٤ - غاية النهاية في طبقات القراء ، لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري ،
عني بنشره : ج. برجستراسر ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون طبعة ولا تاريخ.
- ١٢٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تأليف : أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل
العسقلاني الشافعي ، دار المعرفة - بيروت ، تحقيق : محب الدين الخطيب.
- ١٢٦ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تأليف : محمد بن علي
بن محمد الشوكاني ، : دار الفكر - بيروت.
- ١٢٧ - الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق (مع الهوامش) ، تأليف : أبي العباس أحمد
بن إدريس الصنهاجي القرافي ، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨هـ -
١٩٩٨م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : خليل المنصور.
- ١٢٨ - الفصل في الملل والأهواء والنحل ، تأليف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم
الظاهري أبي محمد ، مكتبة الخانجي - القاهرة.
- ١٢٩ - فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسائل ج ١/٢ ،
تأليف : عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، دار العربي الاسلامي - بيروت / لبنان
- ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : د. إحسان عباس.
- ١٣٠ - الفهرست ، لابن النديم ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ١٣١ - فيض القدير شرح الجامع الصغير ، تأليف : عبد الرؤوف المناوي ، المكتبة التجارية
الكبرى - مصر - ١٣٥٦هـ ، الطبعة : الأولى.
- ١٣٢ - قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبر ، عبدالرحمن السعدي ، دار روضة
الناظر ، ط الأولى ١٤١٥هـ .
- ١٣٣ - قصص الأنبياء للسعدي ، عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : أشرف
عبدالمقصود ، دار ابن حزم ، ط الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
- ١٣٤ - قصص الأنبياء وأخبار الماضين خلاصة : تاريخ ابن كثير ، محمد أحمد كنعان ،
مؤسسة المعارف - بيروت ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
- ١٣٥ - قصص الأنبياء ، ابن كثير ، تحقيق : محمد عبدالقادر ، دار المكتبة العصرية - بيروت ،
١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م.

- ١٣٦- قواطع الأدلة في الأصول، تأليف: أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي.
- ١٣٧- الكامل في التاريخ، تأليف: أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ، الطبعة: ٢، تحقيق: عبد الله القاضي.
- ١٣٨- كتاب آكام المرجان في أحكام الجان، تأليف: بدر الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الشبلي الحنفي، مكتبة القرآن - مصر - القاهرة، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل.
- ١٣٩- كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، تأليف: محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي - لبنان - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة: الرابعة.
- ١٤٠- كتاب السبعة في القراءات، تأليف: أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي، دار المعارف - مصر - ١٤٠٠هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: شوقي ضيف.
- ١٤١- كتاب غريب القرآن، تأليف: أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، دار قتيبة - ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران.
- ١٤٢- كتاب الجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تأليف: الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي، دار الوعي - حلب - ١٣٩٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.
- ١٤٣- كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، أحمد عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار مكتبة ابن تيمية، ط الثانية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.
- ١٤٤- كشف القناع عن متن الإقناع، تأليف: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٢، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال

- ١٤٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
- ١٤٦- الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تأليف: أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي.
- ١٤٧- لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى.
- ١٤٨- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد؛ لأبي محمد بن عبد الله بن قدامة المقدسي، شرح الشيخ محمد العثيمين. تحقيق: أشرف عبدالمقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض ط الثالثة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
- ١٤٩- المجتبى من السنن، تأليف: أحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.
- ١٥٠- مجمع الأمثال، تأليف: أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- ١٥١- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
- ١٥٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.
- ١٥٣- المحصول في علم الأصول، تأليف: محمد بن عمر بن الحسين الرازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - ١٤٠٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: طه جابر فياض العلواني.

- ١٥٤ - مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.
- ١٥٥ - مختصر السيرة، تأليف: محمد بن عبد الوهاب، مطابع الرياض - الرياض، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب.
- ١٥٦ - المدخل، أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، دار الفكر - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
- ١٥٧ - مسائل لخصها الإمام محمد بن عبد الوهاب، تأليف: محمد بن عبد الوهاب، مطابع الرياض - الرياض، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب.
- ١٥٨ - المستدرك على الصحيحين، تأليف: محمد بن عبدالله أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- ١٥٩ - المستصفي في علم الأصول، تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبي حامد، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد السلام عبدالشافى.
- ١٦٠ - المستطرف في كل فن مستظرف، تأليف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشهي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الطبعة: الثانية، تحقيق: مفيد محمد قميحة.
- ١٦١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل أبي عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - مصر.
- ١٦٢ - المسودة في أصول الفقه، تأليف: عبد السلام + عبد الحلیم + أحمد بن عبد الحلیم آل تيمية، المدني - القاهرة، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.
- ١٦٣ - مشاهير علماء الأمصار، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق: فلايشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩م.

- ١٦٤ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، المكتبة العلمية - بيروت.
- ١٦٥ - معاني القرآن الكريم ، تأليف: أبي جعفر النحاس ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٩ ، الطبعة: الأولى ، تحقيق: محمد علي الصابوني.
- ١٦٦ - معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيى الفراء ، عالم الكتب - بيروت ، ط الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٦٧ - معجم البلدان ، تأليف: ياقوت بن عبد الله الحموي أبي عبد الله ، دار الفكر - بيروت.
- ١٦٨ - معجم السفر ، تأليف: أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني ، المكتبة التجارية - مكة المكرمة ، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.
- ١٦٩ - معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، نشر دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- ١٧٠ - المعجم الوسيط ، تأليف: إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار ، دار الدعوة ، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
- ١٧١ - معجم مقاييس اللغة ، تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، دار الجيل - بيروت - لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، الطبعة: الثانية ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.
- ١٧٢ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبي عبد الله ، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٤ ، الطبعة: الأولى ، تحقيق: بشار عواد معروف ، شعيب الأرنؤوط ، صالح مهدي عباس.
- ١٧٣ - المعرفة والتاريخ ، ليعقوب بن سفيان البسوي. تحقيق: أكرم العمري ، ط ١ ، بغداد ، ١٣٩٤هـ.
- ١٧٤ - المعين في طبقات المحدثين ، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبي عبد الله ، دار الفرقان - عمان - الأردن - ١٤٠٤ ، الطبعة: الأولى ، تحقيق: د. همام عبد الرحيم سعيد.

- ١٧٥- المغني في الضعفاء، تأليف: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: الدكتور نور الدين عتر.
- ١٧٦- المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد، دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
- ١٧٧- مقدمة ابن خلدون، تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار القلم - بيروت - ١٩٨٤، الطبعة: الخامسة.
- ١٧٨- مناهل العرفان في علوم القرآن، تأليف: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى.
- ١٧٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبي الفرج، دار صادر - بيروت - ١٣٥٨، الطبعة: الأولى.
- ١٨٠- المهذب في فقه الإمام الشافعي، تأليف: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبي إسحاق الشيرازي، دار الفكر - بيروت.
- ١٨١- الموافقات في أصول الفقه، تأليف: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي الشاطبي، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: عبد الله دراز.
- ١٨٢- موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أحمد عيسى، دار الغد الجديد - القاهرة، ط الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٨٣- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود.
- ١٨٤- نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ١٨٥- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تأليف: الشيخ عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي - بيروت.

- ١٨٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي.
- محمود محمد الطناحي
- ١٨٧- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، : دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣.
- ١٨٨- الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد، تأليف: أحمد بن محمد بن الحسين البخاري الكلاباذي أبي نصر، دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله الليثي.
- ١٨٩- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، ط ١، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.
- ١٩٠- الوافي بالوفيات، تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى.
- ١٩١- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: علي بن أحمد الواحدي أبي الحسن، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت - ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: صفوان عدنان داوودي.
- ١٩٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تأليف: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار الثقافة - لبنان، تحقيق: إحسان عباس.

فهرس الموضوعات

١	شكر وتقدير
٢	المقدمة
٣	أبرز أسباب اختياري لهذا الموضوع:
٤	هدف البحث:
٤	الدراسات السابقة:
٥	الجديد الذي ستضيفه هذه الرسالة:
٥	منهجي في البحث:
٦	خطة البحث:
١٠	التهيد
١١	أولاً: المراد بآل الأنبياء
١١	معنى الآل:
١٤	ثانياً: مدى حجية الاستفادة من قصص الأنبياء في الأحكام الشرعية
٢٢	ثالثاً: بشرية الأنبياء في القرآن
٢٣	لماذا لم يكن الرسل من الملائكة:
٣٠	أنبياء الله ورسله من أكمل البشر خلقاً وخلُقا:
٣٢	الأنبياء والرسل أشرف الناس نسباً:
٣٤	الفصل الأول: آباء الأنبياء وأمهاتهم في القرآن الكريم
٣٥	المبحث الأول: آباء الأنبياء في القرآن
٣٥	المطلب الأول: إبراهيم مع أبيه آزر
٣٦	دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه إلى التوحيد:
٣٩	جواب الأب لابنه إبراهيم عليه السلام:
٤٤	ومن السبل التي سلكها إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه:

- ٤٥ سلك مع أبيه وقومه مسلماً آخر وهو إقامة الحجّة عليهم بأسلوب عملي :
- ٤٨ مساءلة إبراهيم أمام الناس :
- ٥١ مناظرته ﷺ لقومه من عبادة الكواكب :
- ٥٣ **المطلب الثاني : إبراهيم وأمره بذبح ابنه**
- ٥٤ ومن صفات إبراهيم ﷺ كآب يقتدى به في هذه القصة :
- ٦٠ **المطلب الثالث : داود مع ابنه سليمان عليهما السلام**
- ٦٠ - شيء من فضائل داود ﷺ في القرآن :
- ٦٦ أمر الله ﷻ لداود ﷺ أن يحكم بالحق :
- ٧١ دعوى الخصم وما قالاه لداود ﷺ :
- ٧٢ نبي الله داود يحكم في الدعوى :
- ٧٣ امتحان داود ﷺ بهذه الدعوى :
- ٧٧ **المطلب الرابع : يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام**
- ٧٨ خشية يعقوب ﷺ على ابنه يوسف :
- ٨١ إعلام يعقوب ﷺ لابنه يوسف باصطفاء الله له :
- ٨٣ من دلائل خشية يعقوب على ابنه يوسف وشدة محبته له :
- ٨٦ محاورة أبناء يعقوب له عندما سمعوا قوله : ﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ :
- ٨٨ تبشير يوسف ﷺ لأبيه بحياته :
- ٨٨ يعقوب ﷺ يجد ريح يوسف ، قبل مجيء البشير إليه :
- ٩٠ بشارة يعقوب بيوسف عليهما السلام :
- ٩٠ وصول يعقوب وأهله إلى يوسف :
- ٩١ تحقق رؤيا يوسف ﷺ :
- ٩٣ **المطلب الخامس : دعاء زكريا وإبراهيم بالذرية الصالحة**
- ٩٦ دعاء زكريا ﷺ بالذرية الطيبة :
- ١٠٥ استجابة المولى ﷻ لدعاء نبيه زكريا ﷺ بالذرية الطيبة :
- ١٠٧ ما دعا به زكريا ﷺ بعد هذه البشارة :

- ١٠٩ زكريا يطلب من الله تعالى آية على ذلك :
- ١١٢ الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا المبحث :
- ١١٥ **المبحث الثاني: أمهات الأنبياء**
- ١١٦ **المطلب الأول: إسحاق عليه السلام وبشارة أمه به**
- ١٢٤ **المطلب الثاني**
- ١٢٤ **والدة موسى عليه السلام**
- ١٤٢ **المطلب الثالث: مريم ابنة عمران مع ابنها عيسى**
- ١٨٤ الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا المبحث :
- ١٨٦ **الفصل الثاني: زوجات النبي محمد عليه السلام**
- ١٨٧ **المبحث الأول: زوجات النبي محمد عليه السلام**
- ١٨٧ **المطلب الأول: حادثة الإفك وأثرها في بيت النبي عليه السلام**
- ١٨٨ قصة الإفك كما وردت في الصحيحين :
- ٢٠٤ **المطلب الثاني: زينب بنت جحش وزواجها من النبي عليه السلام**
- ٢٠٦ زينب رضي الله عنها ترضى بزواج زيد بن حارثة :
- ما ورد في قصة زواج النبي عليه السلام في زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها وأرضائها من روايات مكذوبة :
- ٢١١ **المطلب الثالث: قصة تحريم مارية رضي الله عنها**
- ٢٢٢ **المطلب الرابع: ما أحل الله لنبيه من النساء**
- ٢٢٢ الآيات الواردة في هذا الشأن :
- ٢٣٢ **المطلب الخامس: ما أوجب الله به نساء النبي عليه الصلاة والسلام**
- ٢٤٦ ومن التوجيهات الربانية لنساء النبي عليه السلام ونساء الأمة :
- في بيت رسول الله عليه السلام في
- ٢٥٠ هذا المبحث :
- ٢٥٠ أولاً: الدروس والعبر والأحكام المستفادة من حادثة الإفك :

- ٢٥٤..... الأحكام المستفادة من حادثة الإفك :
- ٢٥٨..... الدروس المستفادة من قصة زواج النبي ﷺ بزینب بنت جحش :
- ٢٥٩..... الأحكام المستفادة من قصة زواج الرسول ﷺ بزینب بنت جحش رضي الله عنها :
- ٢٦٠..... الدروس والعبر المستفادة من قصة تحريم مارية رضي الله عنها وأرضاها :
- ٢٦٢..... ومن الأحكام المستفادة من قصة التحريم :
- ٢٦٣..... الدروس والعبر المستفادة مما أحل الله لنيه من النساء :
- ٢٦٥..... الأحكام المستفادة من هذه الآيات :
- ٢٦٦..... الدروس والعبر المستفادة فيما أوجبه الله على نساء النبي ﷺ :
- ٢٦٧..... ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآيات :
- ٢٦٨..... الفوائد المستنبطة من هذه الآيات :
- ٢٧٠..... الأحكام المستنبطة من هذه الآيات :
- المبحث الثاني: زوجتا نوح ولوط عليهما السلام**
- ٢٧١..... - المقامات التي سلكها نوح في دعوة قومه :
- ٢٧٢..... - مقام الدعوة بالترغيب :
- ٢٧٣..... - دعوة قومه بالترهيب :
- ٢٧٣..... - الجدل معهم ، وإظهار شفقتهم عليهم ونصحه لهم :
- ٢٧٥..... - دعاء نوح على قومه :
- ٢٧٦..... - ما ورد في القرآن بشأن امرأة نوح :
- ٢٧٨..... زوج لوط عليه الصلاة والسلام :
- ٢٧٩..... لوط الكليل يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وطاعته لأنه رسول ربه :
- ٢٨٠..... تهديد قوم لوط بإخراجه من القرية :
- ٢٨٢..... - دعاء لوط بالنجاة له ولأهله :
- ٢٨٦..... - نجاة نبي الله لوط وبناته ، وهلاك امرأته مع قومها :
- ٢٩٠..... الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا المبحث :
- ٢٩٤..... ومن الأحكام المستنبطة من هذا المبحث :

- ٢٩٦ المبحث الثالث: زوجتا إبراهيم عليهما السلام
- ٢٩٦ أولاً: زوجه سارة:
- ٣٠٢ ثانياً: زوجه هاجر:
- ٣١٢ الفوائد والدروس والعبر المستخلصة من هذا المبحث
- ٣١٤ المبحث الرابع: زوج موسى عليه الصلاة والسلام
- ٣١٥ - الشيخ يعرض ابنته على موسى ليتزوجها:
- ٣١٦ - قبول موسى ما عرض عليه الشيخ من الزواج ولإجارة:
- ٣١٦ - خروج موسى بأهله من مدين:
- ٣١٩ - نداء الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام في ذلك المكان:
- ٣٢١ الدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث:
- ٣٢٣ - الأحكام الفقهية المستفادة من هذا المبحث:
- ٣٢٥ المبحث الخامس: زوج آدم عليه السلام
- ٣٢٥ - الآيات التي ورد الحديث فيها عن خلق حواء:
- ٣٢٨ وقال سبحانه عن خلق حواء عليها السلام:
- ٣٤٢ - سكنى حواء مع آدم الجنة:
- ٣٥٠ - وسوسة الشيطان لآدم وزوجه:
- ٣٥٥ - ما جرى لآدم وزوجه بعد الأكل من الشجرة:
- ٣٥٧ - اعتراف آدم وزوجه بالخطيئة، وتوبه الله عليهما:
- ٣٦٢ - خروج آدم وزوجه من الجنة وهبوطهما إلى الأرض:
- ٣٦٣ واختلف العلماء في المخاطب هنا ﴿اهبطوا﴾:
- ٣٦٤ - ما قيل في صفة استئلال الشيطان لآدم وزوجه:
- ٣٦٦ - استخلاف آدم وزوجه في الأرض:
- ٣٦٦ - المراد بالجنة التي سكنها آدم وحواء:
- ٣٦٧ وقد استدل أصحاب الرأي الأول على رأيهم بأدلة منها:

- ٣٧١ الدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٣٧٦ **المبحث السادس: زوج أيوب عليه السلام**
- ٣٧٨ - ابتلاء أيوب عليه السلام :
- ٣٨٠ استجابة الله له وكشف الضر عنه :
- ٣٨٢ - ما جاء عن زوج أيوب عليه السلام :
- ٣٨٥ الدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٣٩٦ **الفصل الثالث: أبناء الأنبياء في القرآن**
- ٣٩٧ **المبحث الأول: نوح عليه السلام مع ابنه**
- ٣٩٨ - نجاه نوح وأهله المؤمنين وهلاك ابنه مع الكافرين :
- ٣٩٩ - نوح ينادي ابنه للركوب في السفينة :
- ٤٠١ - نداء نوح ربه بشأن ابنه :
- ٤٠٥ الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٤٠٥ ومن الأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٤٠٧ **المبحث الثاني: إسماعيل مع أبيه عليهما السلام**
- ٤٠٧ - ما ورد عن زوجة إسماعيل عليه السلام وإقامة إسماعيل بمكة :
- ٤٠٩ - إبراهيم يبني الكعبة بأمر من الله ويعاونه ابنه إسماعيل عليهما السلام :
- ٤١١ - أدعية إبراهيم وإسماعيل وهما بينان الكعبة :
- ٤١٤ - رؤيا إبراهيم في ذبح ابنه إسماعيل وإخباره بذلك :
- ٤١٦ - نداء الله تبارك وتعالى لنبيه إبراهيم، وفداء الله إسماعيل عليهما السلام :
- ٤١٩ - اختلاف العلماء في ابن إبراهيم الذي أمر بذبحه :
- ٤٢٧ الفوائد والدروس والعبر المستفادة من هذا المبحث :
- ٤٢٩ **المبحث الثالث: نبأ ابني آدم عليه الصلاة والسلام**
- ٤٢٩ الآيات الواردة في شأنهما :
- ٤٣٠ - حسد قابيل لأخيه وعزمه على قتله :

- ٤٣٢ ما قاله هايبيل حين سمع تهديد أخيه له بالقتل :
- ٤٣٣ تذكير هايبيل لأخيه بعذاب الآخرة :
- ٤٣٥ تدرج هايبيل في وعظ أخيه :
- ٤٣٥ قابيل سولت له نفسه قتل أخيه :
- ٤٣٧ الغراب يُعلم قابيل دفن أخيه :
- ٤٤١ الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٤٤٦ **المبحث الرابع: أبناء يعقوب عليه السلام**
- ٤٤٦ وصية يعقوب عليه السلام لبنينه بالإسلام :
- ٤٤٨ إبراهيم عليه السلام قد وصى أبناءه من قبل بالإسلام :
- ٤٥٠ في وصية إبراهيم ويعقوب ردُّ على اليهود والنصارى :
- ٤٥١ الأسباب هم ذرية أبناء يعقوب عليه السلام :
- ٤٥٢ اختلاف العلماء في نبوة أبناء يعقوب سوى يوسف عليهما السلام :
- ٤٥٥ الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا المبحث :
- ٤٥٧ **المبحث الخامس: بنتا شعيب عليه السلام**
- ٤٥٧ الآيات الواردة في هذا الشأن :
- ٤٥٨ وصول موسى إلى ماء مدين وما جرى له هنالك :
- ٤٥٩ موسى يعين المرأتين على سقي أغنامهما :
- ٤٦١ مجيء إحدى المرأتين إلى موسى لتدعوه إلى أبيها :
- ٤٦٤ ما وصفت به إحدى المرأتين موسى عليه السلام :
- ٤٦٦ الشيخ والد المرأتين يعرض إحدى ابنتيه على موسى ليتزوجها :
- ٤٦٧ الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٤٦٨ ومن الأحكام المستفادة :
- ٤٦٩ **المبحث السادس: بنات لوط عليه الصلاة والسلام**
- ٤٦٩ نجاة بنات لوط عليه السلام لأنهن من المؤمنات :

- ٤٧٢ جواب قوم لوطٍ على قوله : -
- ٤٧٦ الفوائد والدروس والعبر المستنبطة من هذا المبحث :
- ٤٧٧ **المبحث السابع: داود مع ابنه سليمان عليهما السلام**
- ٤٧٧ سليمان عليه السلام في القرآن : -
- ٤٧٨ العلم من نعم الله تعالى على سليمان وأبيه : -
- ٤٧٨ قضاء سليمان مع ابيه عليهما السلام : -
- ٤٨١ استدراك سليمان على حكم أبيه في قضية المرأتين : -
- ٤٨٣ وراثة سليمان لداود عليه السلام في النبوة والملك : -
- ٤٨٤ خبر سليمان عليه السلام مع الصافنات الجياد : -
- ٤٨٨ فتنة الله لنبيه سليمان وداود عليهما السلام : -
- ٤٩١ الاستغفار والإنابة من صفات الأنبياء كسليمان وداود عليهما السلام : -
- ٤٩١ سليمان عليه السلام يسأل ربه مُلكاً عظيماً : -
- ٤٩٣ تسخير الريح لسليمان عليه السلام : -
- ٤٩٥ تسخير الجن والشياطين لسليمان عليه السلام : -
- ٤٩٧ إسالة النحاس لسليمان كما ألان الله الحديد لداود عليهما السلام : -
- ٤٩٨ حزم سليمان في حكم الجن والشياطين : -
- ٥٠٠ خطاب الله لآل داود : -
- ٥٠٢ تعليم الله لنبيه سليمان منطق الطير : -
- ٥٠٥ موت سليمان عليه السلام : -
- ٥٠٧ الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٥٠٨ ومن الأحكام :
- ٥٠٩ **المبحث الثامن: يحيى بن زكريا عليهما السلام**
- ٥٠٩ يحيى في القرآن : -
- ٥١٠ صفات يحيى بن زكريا عليه السلام كما جاء بها القرآن قبل ولادته : -
- ٥١٣ يحيى عليه السلام بعد أن رزق به زكريا، وصفاته : -

- ٥١٤ - يحيى عليه السلام ذو حنان وزكاة:
- ٥١٦ - كان يحيى عليه السلام باراً تقياً، وليس جباراً عصياً:
- ٥١٧ - سلام الله على يحيى عليه السلام:
- ٥٢٢ الفوائد والدروس والعبر المستفادة من هذا المبحث:
- ٥٢٤ **الفصل الرابع: إخوة الأنبياء عليهم السلام في القرآن**
- ٥٢٥ **المبحث الأول: إخوة يوسف عليه السلام**
- ٥٢٥ - في خبر يوسف مع إخوته آيات وعبر:
- ٥٢٦ - تحذير يوسف من إخبار إخوته برؤياه:
- ٥٢٦ - حسد إخوة يوسف لمحبة أبيهم له:
- ٥٢٨ - تشاور إخوة يوسف على قتله:
- ٥٢٩ - تراجع الإخوة عن قتل يوسف والإجماع على إلقائه في الجب:
- ٥٢٩ - الإخوة يراودون أباهم لأخذ يوسف:
- ٥٣١ - ذهب يوسف مع إخوته، وإلقاؤهم به في غيابة الجب:
- ٥٣٢ - كذب إخوة يوسف على أبيهم:
- ٥٣٥ - ما جرى ليوسف بعد أن ألقى به إخوته في البئر:
- ٥٣٧ - مجيء إخوة يوسف إليه بعد أن أصبح عزيز مصر:
- ٥٣٨ - ما قاله إخوة يوسف لأبيهم بعد أن رجعو إليه:
- ٥٣٩ - إخوة يوسف يتعهدون بحفظ أخيهم:
- ٥٤٠ - يوسف يأخذ أخاه بتهمة السرقة:
- ٥٤١ - إنكار إخوة يوسف سرقة الصواع:
- ٥٤٢ - الإخوة يتهمون يوسف كذباً بالسرقة:
- ٥٤٣ - إخوة يوسف يراودونه بأخذ أحدهم مكان أخيهم الصغير:
- ٥٤٥ - إنكسار إخوة يوسف وإظهار ضعفهم أمامه:
- ٥٤٥ - يوسف يُعرّف إخوته بنفسه:
- ٥٤٦ - اعتراف إخوة يوسف بذنبهم وفضل يوسف عليهم:

- ٥٤٧ كرم يوسف وعفوه عن إخوته :
- ٥٤٧ إخوة يوسف يعتذرون لأبيهم طالبين منه أن يستغفر لهم الله :
- ٥٤٨ إكرام يوسف لإخوته ولطف الله به وبأهله :
- ٥٥١ أهم الفوائد والعبر والدروس والأحكام المستنبطة من هذا المبحث :
- ٥٥٥ ومن الأحكام الفقهية المستفادة :
- المبحث الثاني: إخوة موسى عليه السلام**
- ٥٥٦ موسى يسأل ربه مساعدة أخيه هارون له :
- ٥٥٨ هارون وزير لأخيه موسى :
- ٥٦٣ هارون رسول إلى فرعون مع أخيه موسى :
- ٥٦٧ هارون يستعطف أخاه موسى :
- ٥٧٠ أخت موسى عليها السلام :
- ٥٧١ أخت موسى كانت من أسباب نجاته :
- ٥٧٢ أم موسى تكلف أخته بمراقبته :
- ٥٧٦ الفوائد المستنبطة من هذا المبحث :
- المبحث الثالث: إسماعيل وإسحاق عليهما السلام**
- ٥٧٩ إسماعيل هو بكر أبيه عليهما السلام :
- ٥٨٠ إسماعيل عليه السلام رسولاً نبياً :
- ٥٨٣ إسحاق عليه السلام :
- ٥٨٣ إسحاق عليه السلام هو الغلام العليم :
- ٥٨٥ إسماعيل النبي الحليم وإسحاق هو النبي العليم :
- ٥٨٧ حرص إبراهيم عليه السلام على ابنه إسماعيل وإسحاق :
- ٥٨٩ الدروس المستفادة من هذا المبحث :
- المبحث الرابع: آل إبراهيم وآل عمران وقرابتهم بالأنبياء**
- ٥٩٠ من هو عمران المذكور في الآية :
- ٥٩١ من هو عمران المذكور في الآية :

- ٥٩٤ - آل عمران هم أهل بيت عمران والد مريم :
- ٥٩٥ - آل إبراهيم وآل عمران ذرية بعضها من بعض :
- ٥٩٨ - امرأة عمران تنذر حملها لله :
- ٦٠٤ الفوائد المستنبطة من هذا المبحث :
- ٦٠٦ **الفصل الخامس: أضياف الأنبياء**
- ٦٠٧ **مدخل:**
- ٦٠٨ **المبحث الأول: أضياف النبي محمد ﷺ**
- ٦٠٨ - أولاً ما ورد في سورة الأحزاب :
- ٦١١ - الأحكام والآداب الشرعية في هذه الآية :
- ٦١١ ١- النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ إلا بإذن :
- ٦١٢ ٢- الأمر بالخروج من بيوت النبي ﷺ بعد الطعام :
- ٦١٤ ٣- النهي عن المكوث طويلاً في بيوت النبي والإستئناس بالحديث بعد الطعام :
- ٦١٤ وخلاصة هذه الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين :
- ٦١٤ - الحكمة من هذا النهي :
- ٦١٥ **ثانياً : ما ورد في سورة الحجرات من آداب**
- ٦٢٠ الفوائد المستنبطة من هذا المبحث :
- ٦٢٢ - ومن الأحكام المستفادة :
- ٦٢٢ - آداب الضيافة في الاسلام
- ٦٢٥ **المبحث الثاني: أضياف إبراهيم عليه الصلاة والسلام**
- ٦٢٦ - آداب ضيافة إبراهيم عليه السلام لأضيافه :
- ٦٢٦ ١- حسن الاستقبال وطيب الكلام.
- ٦٢٨ ٢- الإسراع والمبادرة باحضار الطعام
- ٦٢٩ ٣- تقديم أحسن الطعام واشهاه
- ٦٢٩ ٤- قيامه عليه السلام على خدمة اضيافه بنفسه

- ٦٣٠ ٥ - تقريب الطعام إليهم
- ٦٣٠ ٦ - عرض الطعام على الأضياف بلطف ولين
- ٦٣٠ ٧ - تفقده عليه السلام لحال ضيفه
- ٦٣٢ الفوائد والدروس والعبر والأحكام المستفادة من هذا المبحث :
- ٦٣٤ **المبحث الثالث: أضياف لوط عليه السلام**
- ٦٣٤ - حديث القرآن عن ذلك :
- ٦٣٦ - لوط لم يعرف أضيافه أنهم من الملائكة مثل إبراهيم عليهما السلام :
- ٦٣٦ - لوط يدافع عن أضيافه أمام قومه :
- ٦٤١ - لوط عليه السلام يبحث من بين قومه عن رجلٍ رشيدٍ ليساعده في دفعهم عن أضيافه :
- ٦٤١ تمنى لوط عليه السلام لو أن له جماعةً وعشيرةً للدفاع عن ضيفه :
- ٦٤٥ الدروس والعبر المستفادة من هذا المبحث :
- ٦٤٦ **الخاتمة**
- ٦٤٦ أولاً: النتائج:
- ٦٤٧ ثانياً: التوصيات:
- ٦٤٨ **الفهرس**
- ٦٤٩ فهرس الآيات القرآنية
- ٦٨٠ فهرس الأحاديث النبوية
- ٦٨٦ فهرس الآثار
- ٦٩٠ فهرس الأعلام
- ٦٩٦ فهرس الألفاظ الغريبة
- ٦٩٨ فهرس الأشعار
- ٦٩٩ المصادر والمراجع
- ٧١٨ فهرس الموضوعات